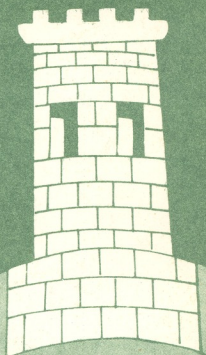


# تاريخ التجارة في الشرق الأوسط في العصور الوسطى

الجزء الثاني

تأليف: ق. هـ. هـ. هـ.  
ترجمة: أحمد رضا محمد رضا  
مراجعة: د. عز الدين فوده



المهنة العربية للكتاب



# تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى

الجزء الثاني

تأليف: ف. هاسيد

ترجمة: أحمد رضا محمد رضا

مراجعة: د. عز الدين فودة  
مستاذ كرسى المنظمات الدولية  
بجامعة القاهرة



الهيئة العربية المتحدة للتعاون

١٩٩١



● ● لا بد لنا ، في مقدمة الجزء الثاني من هذا العمل الموسوعي النغيس . الا وهو تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، أن نشير بإيجاز الى ما أحاط به الجزء الأول من هذا الكتاب من معلومات شاملة في هذا المجال الفسيح .

بدا الجزء الأول بدراسة الحقبة الأولى من هذا الموضوع الذي يحيط بالنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية في منطقة الشرق الأدنى ، وتشمل البدايات منذ الفتوحات الكبرى حتى الحروب الصليبية . واستهل بعصر جوستينيان وخلفائه ( من أباطرة بيزنطة ) في القرن السادس الميلادي . ويتحدث هذا القسم عن طوفان الشعوب المتبربرة في شمال أوروبا ووسطها ، وسقوط روما ، وما استتبع ذلك من آثار في الحياة الاجتماعية في أوروبا في الحقبة الأولى من العصور الوسطى . وفي هذا القسم اشارة الى اكتشاف الطريق البحري المؤدى الى الهند الشرقية ، واكتشاف أمريكا ، واتصال التجارة بأعماق الشرق ، مع بقاء الطرق التجارية الكبرى كما كانت في العصور القديمة ويتطرق هذا الجزء لشئون الامبراطورية البيزنطية ، والمدن البحرية بايطاليا وفرنسا واسبانيا .

ثم يدرس صناعة الحرير ، وانتقالها من الصين الى الغرب ، كما يبحث بالدرس والتحليل دور فارس والهند وأثيوبيا وبيزنطة والجزيرة العربية في التجارة البحرية . كما يتحدث عن ظهور الأتراك في وسط آسيا ، ودولة الساسانيين في فارس ، والتجارة في الجزيرة العربية ، وسوريا ، ومصر ، وعن ضعف النشاط التجاري في البلاد الجرمانية الأصلية .

**وفي الفصل الثاني من هذا الجزء الأول ، يحدث عن ظهور الاسلام ، وانتشاره ، وبداية الحروب الصليبية ، ويصف الطرق التجارية في الجزيرة العربية ، وأثر اتساع الدولة الاسلامية على ازدهار التجارة ، وخاصة في العصر العباسي ، واتصالها بفارس ، والهند ، والصين ، واستخدامها الطرق البحرية ، بالمحيط الهندي ، والخليج الفارسي ، والبحر الأحمر ، وكذا الطرق البرية . وفي هذا المجال يخص بالذكر**

حركة الحجاج ، وأهمية الاسكندرية ، وبيفداد ، والمدن العراقية  
والسورية ، وطربزون ، وأرمينيا الكبرى ، وآسيا الصغرى ، وأرخوم ،  
وجورجيا ، وسمرقند ، وبخارى ، وثغور بحر قزوين ، والخزر ، والبحر  
الأسود ، وبحر أزوف ، وبحر أرال ، والقسطنطينية ، وشمال أفريقيا ،  
وأسبانيا ، وصقلية .

وينتقل البحث الى الحركة التجارية فى اليونان وجزر الأرخبيل .  
وفى روسيا واسكندناوة ، والمانيا ، وبريطانيا العظمى تكتشف  
نقود فضية عربية فى الحفريات التى أجريت بها ، دلالة على ممارسة أهالى  
تلك البلاد التجارة مع الشرق . أما فرنسا المروفتجية فكان لها صلات  
تجارية نشطة مع مصر وسوريا وبلاد العرب . خاصة فى عهد شرلمان  
ومروان الرشيد . كذلك كان لاطاليا صلات تجارية قوية بالشرق .

يلى كل ذلك حقبة ثانية فى تاريخ التجارة ، خاصة بالمستوطنات  
التجارية على سواحل البحر المتوسط الشرقية .

وتشتمل الحروب الصليبية ، وتنشأ دول صليبية فى سوريا تضم  
مستوطنات تجارية ، وتجهز الأساطيل لهذه الأراضى ، العسكرية  
والتجارية . وتجرى دراسة تفصيلية للنظم السياسية والقنصلية  
والادارية ، والنشاطات التجارية . والمنازعات المتلاحقة بين ملوك وأمراء  
الدول الصليبية ، والامارات العربية ، والمؤسسات التجارية ، والنظم  
الجمركية . ويصف هذا الفصل وصفا اجماليا موائى الأمم التجارية التى  
تطل على البحر المتوسط ، وبحر ايجة ، والبحر الادرياتي والبحر الأيونى ،  
والبحر التيرانى ، كما يتحدث بالتفصيل عن الامبراطورية اللاتينية .  
والحملة الصليبية الرابعة ، والحروب بين البندقية ، وجنوا وبيزا .

وثمة دراسة تتناول آسيا الصغرى ، وجزيرتى كريت ورودس ،  
والدول الصليبية فى سورية فى غضون القرن الثانى من وجودها ،  
والحركة التجارية فى أهم مدنها ، وفى مستوطنات جنوا ، والبندقية .  
وبيزا ، وبروفانس فى سوريا .

أما الجزء الثانى من الموسوعة ، الذى نهد له بهذه المقدمة ، فانه  
يستهل بدراسة جزيرة قبرص ، وارمينيا الصغرى ، وسورية ، ومصر .  
ثم يبحث فى نمو تجارة الشرق الأدنى فى اعقاب افتتاح قارة آسيا ، من  
أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر القرن الرابع عشر . وظهور التتار .  
وارمينيا الصغرى ، وطربزون ، وفارس ، والهند ، كما يتبين القارىء  
فى رؤوس الموضوعات المدونة فى فهرس هذا الكتاب .

المترجم : أحمد رضا محمد رضا

## - جزيرة قبرص ، من حيث موقعها قبالة الدول الصليبية

على الرغم من موقع جزيرة قبرص بالقرب من سواحل سوريا ، فإن فكرة غزوها لم تطرأ على الغربيين الا بعد انقضاء زمن طويل نسبيا : فثمة فترة تبلغ قرابة المائة عام تفصل بين الحملة الصليبية الأولى وبين اليوم الذي قضى فيه ريتشارد قلب الأسد على السيادة البيزنطية في الجزيرة ( ١١٩١ ) . وحتى ذلك الحين لم يبد أن التجارة اجتذبت إليها الكثير من الغربيين . ومع ذلك كانت هناك أهم تجارية إيطالية تربطها مفاهيزات بامبراطورية الروم (١) تتمتع بحرية مطلقة في ارسال سفنها التجارية الى الجزيرة . ففي المعاهدة التي أبرمها الامبراطور مانويل مع البندقية في عام ١١٤٨ ، يذكر الامبراطور صراحة جزيرة قبرص بعد

---

(١) آثرنا في هذه الترجمة أن نعرب كلمة Grecs بالروم ، بدلا من اليونان لفظية هذا الاسم في التاريخ العربي حين كان المسلمون يسفون اقاليم الدولة البيزنطية في جملتها بلاد الروم . وكان لفظ الرومي بمعنى الروماني في العصور الاسلامية الأولى ترادف عند المسلمين « النصراني » سواء اكان من اليونان أم اللاتين ، كما كانوا يعرفون البحر المتوسط باسم بحر الروم أيضا . وصارت لفظه « الروم » بمرور الأيام اسما لأقرب الاقاليم النصرانية من بلاد الاسلام . ومن ثمة صار « الروم » اسما لآسية الصغرى عند العرب ، وهي البلاد العظيمة التي انتقلت نهائيا في ختام المائة الخامسة ( الحادية عشرة الميلادية ) الى أيدي المسلمين باستيلاء الترك السلاجقة عليها ( كي لستراچ ، بلدان الخلافة الشرقية ، بغداد ، ١٩٥٤ ) - المرجع .

جزيرة كريت ، ضمن البلاد المتاحة للبنادقة (٢) . وثمة سفير بندقي  
 سافر في عام ١٣٠٢ الى بلاط هنرى الثانى دولوزينيان ، ليذكر الملك  
 بالاملاك والحقوق ، والاعفاءات التى تتمتع بها جمهورية البندقية فى جزيرة  
 قبرص ، وبخاصة فى نيقوسيا وليماسول Limisso فى عهد السيادة  
 الرومية (٣) ، باعتبارها أمورا مسلما بها . ويزعم آخر مؤرخى امالفي  
 Amalfi (٤) أن مواطنيه كانوا يملكون فيما مضى وكالات تجارية فى  
 قبرص ، وان لم يعن بتقديم اثبات لذلك . ولكن الواقع ذاته لا يخالف  
 ذلك فى شيء . فنحن نعلم من جهة أن الامالفيين كانوا مرتبطين ارتباطا  
 وثيقا بسياسة امبراطورية الروم ، وأنهم من جهة أخرى كانت لهم علاقات  
 تجارية كثيرة على طول السواحل المصرية والسورية من حول جزيرة  
 قبرص . كما تدل قصة غزو رتشارد قلب الأسد الجزيرة على  
 وجود مستوطنات لتجار غربيين بالجزيرة منذ عهد السيادة البيزنطية .  
 فالواقع أنه بينما كان الملك يتجول بأسطوله على مرأى من ليماسول .  
 أنباء بعض اللاتينيين المقيمين بالمدينة أن الروم قد جلوا عنها ، وأنها قد  
 أصبحت عاجزة عن المقاومة (٥) . وإذا كان هؤلاء اللاتينيون قد عرضوا  
 هذا الأمر على الغازى ، فذلك دون شك لأنهم كانوا واثقين من أن التجار  
 الغربيين لن يشعروا بالبتة بالأمان والراحة فى جزيرة قبرص ، ولن  
 يشكلوا بها جاليات موسرة ان لم يطرد منها الروم ، وتحل محلهم حكومة  
 لاتينية . وقد كانوا على حق فى ذلك ، كما كان الموقف موافقا لنمو  
 التجارة نموا سريعا ، بشرط أن تكون الحكومة صديقة بالفعل : وكانت  
 هى حكومة أسرة لوزينيان التى حظيت بتاج الملكة الجديدة ، واحتفظت به  
 ثلاثة قرون متصلة دون انقطاع ، بفضل ميول أمراء هذه الأسرة الطبيعية ،  
 واهتمامهم أيضا بمصالحهم الشخصية . ومن ثم أكثروا من منح  
 الامتيازات والهبات ، التى ساعدت بذلك على ازدهار الحياة التجارية .

وقد وثق أول ملوك هذه الأسرة ، جى دو لوزينيان ، أحسن العلاقات  
 بالبيزين ، ويسر لهم دخول الجزيرة ، وأتاح لهم أحسن الظروف . وعندما  
 بدأ يفقد سلطانه فى مملكة القدس ، ورأهم على استعداد لمساندته فى  
 استرداد عرشه ، وعدهم بهبات وامتيازات كبيرة فى مملكته الجديدة

Taf, et Thom, I 124; voy aussi 265. (٢)

Mas-Latrie, Nouvelles preuves de l'hist de Chypre : Bibl. (٣)  
 de l'école des Chartes, xxxiv (1873), p. 54.

Camera, Storia della città e costiera d'Amalfi (1ère éd.) (٤)  
 p. 206.

Contin, de Guill, de Tyr, p. 164. (٥)



بجزيرة قبرص . وفى اعتقادى أنه أوفى بوعوده ، خاصة وأن البيزيين قد ظلوا حلفاء له من تلك الآونة حتى حانت ساعة وفاته ، وإن كان ولاهم هذا وراء طردهم أيضاً من عكا (٦) .

وقبل أن يقر عزم الدول الرئيسية فى إيطاليا على انشاء مناطق تجارية كبيرة فى قبرص ، كانت هناك مدينة صغيرة فى جنوب إيطاليا ، تصادف اسمها كثيراً فى أخبار ذلك العصر ، لأن الكثير من الصليبيين كانوا يذهبون إليها وترسو سفنهم بها : تلك هى مدينة ترانى **Trani** التى حصلت على اعفاء تام لمواطنيها من الرسوم الجمركية . وفى عام ١١٩٦ كلف سامارس **Samarus** رئيس أساقفة تلك المدينة بمهمة خطيرة فى بلاط قبرص : ذلك أن أمورى دو لوزينيان **Amaury de Lusignan** ( خليفة « جى » ) أراد أن يدعم تاجه بتكريس من شخصية عظيمة لها نفوذها ، ومن ثم التمس من هنرى السادس امبراطور ألمانيا أن يأتى ويسلمه بيديه شارات الملك . ووافق الامبراطور على ذلك ، بل كان فى عزمه بالفعل أن يذهب بنفسه ويضع التاج على رأس أمورى ، ولكن لم يتيسر له أن يحقق غرضه هذا . وفيما بعد أجرى كونراد ، رئيس أساقفة هيلدسهايم **Hildesheim** ، الاحتفال بذلك باسم الامبراطور . وقبل ذلك أرسل الامبراطور الصولجان مع اسقفى برنديزى ، وترانى (٧) . وانتخب الأسقف الثانى هذه الفرصة فطلب اعفاء أهل بلده - وهم بخارة نشيطون - من الرسوم الجمركية فى قبرص ، فمنحه أمورى هذا الاعفاء فى شهر مايو من السنة نفسها (٨) . وليس فى وسعنا أن نقول الى أى مدى استفاد أهالى ترانى من هذا الامتياز ، لعدم وجود أدلة على ذلك .

وبين جنوا ومملكة قبرص الصغيرة ازدادت العلاقات وتوثقت ، وبخاصة فى الفترة التى كان فيها هنرى الأول حفيد أمورى وخليفته قاصراً ، وما ترتب على ذلك من طول فترة الوصاية . وفى غضون هذه الفترة كانت مقاليد الحكم أولاً فى يدى فيليب ديبلان **Philippe d'Ibelin** ( توفى عام ١٢٢٧ ) ثم أخيه يوحنا ، صاحب بيروت ( توفى عام ١٢٣٦ ) .

Ibid. Mase. D. p. 199; 202 et s.

(١)

Annales Marbaccenses, dans Pertz SS. XVII, 167. (Annal. Argentin éd. Bohmer, fontes, III, 89). Toche, Heinrich VI, p. 391. et s. 462.

(٧)

(٨) انظر الرسوم رقم ٧ فى الوثائق ، فى :

Forges Davanzati, Dissertazione sulla seconda moglie del re Manfredi e su'loro figliuoli Nap 1791, Huillard, Bréholes, Hist. dipl. Trid II Inod : Mas-Latrie, Histoire de Chypre, I, 427; Toche, op. cit., p. 391, not. 6 (Beltrani, Sugli antichi ordinamenti maritimi Idi Trani, p. 38-44.

وسبق أن تحدثت عن النضال الشهيد الذي قامت به في ذلك الحين أسرة ديبلان وأنصارها ضد سلطة آل هوهنشتاوفن ، وقلت ان الجنوبيين كانوا بين سائر الأمم التجارية أول من انضم الى الحزب المضاد للجيليين ، وبقوا أوفياء لهذا الحزب . ومن ثم فلا داعي للعودة الى الحديث في هذا الخصوص . والمؤكد أن الجنوبيين كانت لديهم كل البواعث التي تحملهم على الاعتراف بجميل أسرة ديبلان . كما سبق أن رأينا كيف أن يوحنا قد أغلق عليهم الأملاك والامتيازات في بلدته بيروت ، وأن فيليب قد أسس في قبرص أولى المستعمرات التي نمت فيما بعد وبلغت أبعادا شاسعة . وتمثلت البداية المتواضعة الأولى عام ١٢١٨ في منح قطعتين من الأرض للبناء ، احدهما في ليماسول Limisso والأخرى في فاما جوستا Famagouste (٩) . وفي الوقت ذاته أذن الأمير للجنوبيين أن يعينوا قنصلين بالجزيرة ، ومنحهما سلطة القضاء ، باستثناء الجرائم التي عقوبتها الاعدام ، فقد بقى من اختصاص محاكم الملك (١٠) . ولكن أهم الامتيازات التي منحها ، واستحق من أجلها اعتراف الجنوبيين بجميله ، هو إعفاؤهم من الرسوم الجمركية ، ومن كل الضرائب المفروضة على المنتجات التي يستوردونها للتجار من بلدهم . ولا شك أنه كان في ذلك دعم لارتباطهم بال إبلان . غير أنه كان على يوحنا ديبلان أكثر من التزام نحوهم : بفضل أنهم كانوا قد تعاونوا معه في فلسطين لاسقاط الأميراطورين ( أو اللومبارديين ) كما كانوا يسمون في ذلك الوقت ) ، كما أعاروه في قبرص سفنا يحارب بها أعداءه في الداخل والخارج (١١) .

(٩) الواقع أن هذه البراءة قد منحتها الملكة الأرملة اليكس Alix

(Lib. jur. I, 625; Mas-Latrie, Hist. de Chypre, II, 39).

غير أنه لا كانت اليكس قد تركت تصريف الشئون كلها لفيليب ، فانه يمكن القول بأن هذا الأخير هو الذي منح بالفعل هذا الامتياز . والسفير الذي حصل على هذه الاجازة هو بيثرو جونتاردو .

(١٠) ثمة معاهدات لاحقة نصت لصالح قنصالة جنوا الحق في التحقيق واصدار الأحكام حتى في القضايا الهامة ، ولم تحفظ للحكومة الملكية سوى تنفيذ الأحكام : Mas-Latrie, I. c. II, 52, 258 et s.

Mas-Latrie. Hist. de Chypre, I, 282, (١١)

Lib. jur., I, 809 et ss. ; Mas-Latrie, II, 51 et ss. ; Mas-Latrie, (١٢)  
I, 281, 302.

الكلمة في الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب هي diplôme ، وقد كانت تعنى في الماضي أوراق الاعتماد لرؤساء البعثات الدبلوماسية \*Lettres de Créance\* . وقد جرى العرف والعمل بالنسبة للقناصل على ترجمتها بكلمة « براءة » . ولكن اتفاقية فيينا لسنة ١٩٦٣ في شأن البلاغات التفصيلية في ترجمتها العربية الرسمية ( الجريدة الرسمية - العدد ١٨٦ ) أطلقت هذه الكلمة « براءة » lettre de provision بمعنى الوثيقة =

وقد صحبه القنصلان الجنويان في سورية ، هوجو فيرايو Hugo Ferrario وجوجلييلمو دي اورتو Guglielmo de Orto في هذه السفن حتى فاما جوستا . ومن ثم فانه . اقرارا بشكره للجالية الجنوبية ، سلمهما في ١٠ من يونيه ١٢٢٢ خطابا بالاعفاء ( من الرسوم الجمركية والضرائب ) يوسع كثيرا ، وبمزيد من الدقة الامتيازات التي تتضمنها الاجازة القنصلية السابقة (١٢) . وبهذا التصرف منح التجار الجنويين منازل في المدن الأربع الأكثر أهمية في الجزيرة ، نيقوسيا ، وليماسول ، وفاما جوستا ، وبافو ( بافوس ) - Baffo (Paphos) كما منحوا برجا حصينا في ليماسول (١٣) . ولتحسين حالتهم المالية في المدن ، خصص لهم حانات ومخابز ، ولتزويدهم بما يحتاجون اليه من الحبوب والخبز اهداهم عزبة مجاورة لليماسول ، بما فيها من الاهالي الفلاحين . وتبين أن كل المنازل الممنوحة ، والمذكورة في المرسوم في المدن الأربع صالحة لسكنى القناصل والفيكونتات الجنويين . ثم ان اختصاصات هؤلاء القناصل والفيكونتات كانت محددة بالطريقة الأكثر فائدة للجنويين . والواضح أن حكومة الجزيرة لم تبد أى اعتراض على تعيين هؤلاء الموظفين . ويبدو مع ذلك أن الجمهورية لم تتعجل الاستفادة من هذا الترخيص المنصوص عليه بصورة عامة في معاهدة عام ١٢١٨ ، واستمرت زمنا طويلا في ادارة شئون مستوطنيتها في قبرص عن طريق قناصلها في سوريا . وهاكم دليلا على ذلك : ففي شهر ديسمبر ١٢٣٣ . أبرمت الجمهورية في نيقوسيا معاهدة تحالف مع ملك قبرص ، أو بالأحرى الوصى على المملكة ، يوحنا ديبلان ، ولم يكن ممثلا مقيما في نيقوسيا ، ولكنه كان مندوبا مفوضا من قبل قناصل سورية (١٤) . وفي عام ١٢٤٩ ، أثبتت قناصل سوريا في قائمة الممتلكات التابعة لمستعمرات بلدهم : حماما في نيقوسيا ، ومنزلا في فاما جوستا ، كما لو كانت هذه المستعمرة أو المستوطنة ملحقة بسورية .

---

التي تقوم باعدادها الدولة المولدة لرئيس البعثة القنصلية للإبلاغ عن تعيينه وثبات صفته واسم ومرتبه ودرجته ودائرة اختصاص ومقر البعثة القنصلية . أما الترخيص *exequatur* الذي تمنحه الدولة المستقبلية للبعثة القنصلية ورئيسها ليمارس أعماله ايا كان شكل هذا الترخيص ( والذي اطلق عليه هايد هنا *diplôme* ) فقد أسس في الترجمة العربية الرسمية لاتفاقية فينا لسنة ١٩٦٣ المشار اليها « اجازة قنصلية » . ومن ثم ، اجرينا تصويب الترجمة على هذا الوجه . ( المراجع )

(١٢) في عام ١٢٩٥ ، استولى البنادقة على ليماسول فجأة ودمروا هذا البرج :

Mns-Latrie, II, et ss : cf. I, 382, I, 302 et s.

(١٤)

ولم يكن لها وجود خاص بها (١٥) . وقبل عام ١٢٩٢ لم يكن في  
المستطاع - على الأقل استناداً الى الوثائق الموجودة - اثبات وجود رئيس  
للمستوطنة الجنوية في جزيرة قبرص ، مقيم بها .

ولم تصل البناية أية اجازة قنصلية صدرت لصالح البنادقة في  
قبرص في الفترة التي نحن بصدها ، حتى اننا لا نعلم حتى الآن الا  
الشيء القليل جدا عن الأموال والحقوق التي كانت في حوزتهم . ومع  
ذلك فهناك على الأقل ثلاث من هذه الاجازات : اولها سلمت الى بيتيرو  
داندرولو Pietro Dandolo ، ولوكا بارباني Luca Barbani سفيري  
البندقية في فترة الوصاية على هنري الاول « القاصر » (١٢١٨ -  
١٢٣٣) (١٦) ، وحصل ماركو باربو Marco Barbo على اجازة ثانية  
من بلاسنتيا Placentia الوصية على العرش ، وذلك بين ١٢٥٣  
و ١٢٦١ ، وأخيرا حصل باربو هذا على الاجازة الثالثة من هوجو الثالث  
Hugues III (١٢٦٧ - ١٢٨٤) . وقد حرر ملخص لهذه الاجازات  
القنصلية في مناسبة سفارة بعثت الى قبرص في عام ١٣٠٢ (١٧) ،  
وأثبت مجلس شيوخ البندقية أنها تتضمن امتيازات كبيرة .

ونحن الآن نعرف أحسن من ذي قبل مجموعة الممتلكات والحقوق  
التي كانت للبنادقة في الجزيرة ، وذلك بفضل اكتشاف أجراء حديثا  
الإستاذ توماس Thomas (١٨) ، وهو عبارة عن صحيفة من نوع التقارير  
المشهورة لمارسيليو جورجيو Marsilio Giorgio عن ممتلكات الجمهورية في  
مسوريا ، ويبدو أنها حررت في العصر نفسه أو قريبا منه . وفي هذا  
التقرير جاء أن البنادقة كانوا يعاملون على قدم المساواة مع الجنويين من  
حيث الضرائب ، وعند وصولهم الجزيرة ، وإقامتهم فيها أو رحيلهم عنها ،  
بالاضافة الى أنه كان لهم قضاؤهم الخاص، مثلهم مثل بارونات المملكة . وكان  
مركزهم الرئيسي ليمباسول ، حيث يملك الكثير من البنادقة منازل  
وحوانيت وحلقات ويساتين كروم ، ومزارع في الضواحي ، ويبدو أن  
عدد هذه الممتلكات الخاصة كان أكثر بكثير قبل العصر الذي حرر فيه  
الكاتب صحيفته هذه . ومن ذلك الحين فقد البنادقة جزءا كبيرا من  
ممتلكاتهم ، انتقل الى حوزة البيزين والجنويين والبروفانسيين والروم ،

Archiv.-de POr. lat. II, 2, p. 219.

(١٥)

Jib. jur. II., 276.

(١٦)

Mas-Latrie. Nouvelles preuves de l'hist. - de Chypre, I,C,P.  
54 et s.

(١٧)

Sitzungsberichte der Philos.-philol.-hist. Cl der Munchener  
Akad. 1878, I, 2, p. 143 et ss.

(١٨)

وفرسان المقديس يوحنا أو فرسان الهيكل ، اما بالاحتلال غير المشروع ، أو بالبيع أو الوراثة • وكان للأمة ( البندقية ) فى ليماسول فندق منحه الملك لهم ، وكنيستان ، احدهما مكرسة للقديس مرقص ( سان مارك ) ، والاخرى للقديس جورج ، وبيت للعمادة ، ومستشفى • ولم يكن ذا يملكونه فى نيقوسيا وبافو يقارن بهذا الذى يملكونه فى ليماسول • ومع ذلك كان لهم كنيسة فى كل من هاتين المدينتين •

وكان لانكونا أيضا فى ذلك العصر علاقات تجارية مع قبرص • وفى عام ١٢٧٢ قدم اليها بعض تجار هذه المدينة ومعهم خطابات توصية من حاكمهم ، ومن شارل دانجو ملك نابولى (١٩) •

وقد كان البروفانسيون الأمة الوحيدة التى حصلت - الى جانب الايطاليين - على امتيازات فى قبرص فى القرن الأول من السيادة الفرنجية ففى شهر أكتوبر ١١٩٨ حصلت مدينة مرسيليا وحدها من الملك أمورى على الاعفاء التام من الرسوم الجمركية فى الدخول والخروج (٢٠) • وفى عام ١٢٣٦ قام قنصل مرسيليا فى عكا ، بالاشتراك مع ممثل من مونتبيلييه (٢١) بمساع أسفرت عن مده سريان هذا الامتياز الى سائر مدن البروفانس : ومع ذلك فان اسم مونتبيلييه هو وحده الذى ذكر فى هذه الاجازة • وتتضمن هذه المعاهدة الثانية بعض التعديلات ذات الأهمية الثانوية : من ذلك أنه كان على البروفانسيين أن يدفعوا دينارا بيزنطيا عن كل مائة دينار من ثمن البضائع الواردة من سوريا ، أو من سلطة ايكونيوم ( قونية حاليا ) أو من أماكن أخرى على الساحل الغربى لآسيا ، والمبيعة فى قبرص • فاذا لم يتم بيع هذه البضائع ، وأعيد تصديرها ، فانهم ( أى البروفانسيين ) يستطيعون حملها معهم - إذا كانت واردة أصلا من سوريا - دون أن يدفعوا عنها ضرائب • أما بضاعة الشب ، والصوف ، والجلود ، والحريز ، الواردة من آسيا الصغرى فانها تخضع لبعض الرسوم التى تقدر بتعريفة لا نستطيع أن نبحث هنا تفاصيلها (٢٢) •

Minieri Riccio, Il regno-di Carlo I d'Angio 1271-1272, p. 63. (١٩)

Mery et Guindon, I, 186. M. de Mas-Latrie (Hist. de Chypre, II, 24 et s. (٢٠)

Raimond-de Conchis, Hist.-du commerce de Montpellier, I, 253. (٢١)

- ريمون دوكوتشى ، شهد فى المدينة التى ولد فيها أحداثا ذات أهمية عامة (١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٤٥) نجده ذات مرة ( ١٢٢٣ ) قنصلا للمدينة ، انظر : — Teulet Lavettes-du trésor des Chartes, II, 4, 53, 89, 608.

(٢٢) إبرمت هذه المعاهدة مع هنرى الأول ملك قبرص ، ونجدها فى : Méty et Guindon, I, 419 et s.

غير أنه لم يكن هناك ثمة قناصل بروفانسيون أو أملاك استيطانية في حوزة المدن البروفانسية ، ومع ذلك يمكن استثناء مدينة مرسيليا التي كانت تملك ضيعة Casal اسمها فلاسيا Flacia منحتها إياها الملك أموري في عام ١١٨٩ .

وطالما بقيت موانئ الساحل السوري في أيدي المسيحيين ، كان التيار الرئيسي للملاحة التجارية الغربية يتجه إليها . وهناك تركزت المنشآت التجارية الرئيسية ، ولم تكن قبرص سوى محطة وسطي ذات أهمية ثانوية . وكان سقوط عكا دلالة على حدوث انقلاب مفاجيء في الأحوال . فمن تلك اللحظة ، نرى كل الأمم التجارية الغربية تحول أنظارها إلى قبرص ، وتبذل مساعيها للحصول ثمة على أحياء واعفاءات .

— أرمينيا الصغرى ، من حيث علاقات الجوار والصداقة بينها وبين الدول الصليبية :

هناك وراء حدود امارة أنطاكية ، عند ذروة الزاوية المكونة من سواحل آسيا الصغرى ، بلد يسكنه شعب مسيحي تدفعه مصالحه السياسية والدينية إلى التقرب من الدول الصليبية ومن العالم الروماني الجرمانى : وهذى مزية كبرى لتجارة الغرب . وفى زمن غير بعيد عن وصول الصليبيين الأوائل إلى آسيا ، كان عدد كبير من الأرمن قد هاجروا حفاظاً على قوميتهم ، حين هددهم تفوق الروم تفوقاً متزايداً فى البلاد التى يرونها المجرى العلوى لنهر الفرات . واستقر هؤلاء الأرمن أولاً فى الجبال شمال قليقية Cilicie ، ولكنهم ما لبثوا أن انحدروا إلى القسم الخفيض من هذا الاقليم ، وانتزعوا ملكيته طوعاً أو كرهاً من الروم سادته القدامى . ومن زعماء هؤلاء الأرمن أسرة تفوقت كثيراً على غيرها : تلك هى أسرة الروبينيد Roupénides ، ومن أفرادها لاؤون (ليون) الثانى Leon II ، وهو جندى باسل ، وسياسى قدير ، أسس دولة أرمينية جديدة (١١٨٧ - ١٢١٩) ، كانت حصناً حصيناً لمسيحيى غرب آسيا . لذلك كان لاؤون يشعر شعوراً عميقاً بأهميته ، ويزهو بتفوقه على سائر سادة أمته ، ومن ثم اتخذ لنفسه لقب الملك . ولكنه كان يرى أبعد مما يراه غالبية مواطنيه ، وأدرك أن القيمة التى يشعر بها السكان فى أعماق نفوسهم ، وسلاسل الجبال التى تحيط ببلادهم ، لا يشكل أى منها للمملكة الجديدة سوراً حصيناً كافياً ، ولهذا شعر بالنسبة لنفسه ولخلفائه من بعده بضرورة عقد اتفاقات مع دول الغرب ومستعمراتها فى سوريا حتى

يستطيع أن يقاوم كلا من الأمراء المسلمين والأباطرة البيزنطيين . وما أن رسخ هذا الاعتقاد في نفسه حتى جعل كل تصرفاته متمشية معه . فالتمس من امبراطور ألمانيا ، هنرى السادس ، أن يسلمه بيده تاج الملك ، وكون لنفسه بلاطا على نسق بلاطات الغرب ، وجعل لمملكته نظاما اقطاعيا مماثلا ، بل عمل على التوفيق بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ووزع جزءا كبيرا من قصور بلده على بارونات من الفرنجة . وفرسان القديس يوحنا ، وفرسان الهيكل ، والتوتون : وكان القصد من كل هذه الأعمال إثارة اهتمام أوروبا برخاء مملكته . وإلى هذه المجموعة من الأفكار التى سار على هديها هو وخلفاؤه يرجع الفضل فى الترحيب الذى لقيه التجار الغربيون فى مملكة الأرمن : فكان من المحتمل أن تاتى اللحظة التى تدعو الحاجة فيها الى الاهتمام جديا بالدفاع عن هذه المملكة رعاية للحركة التجارية للدول الغربية ، وبخاصة الدول البحرية .

ومن وجهة التجارة ، كانت مملكة الأرمن فى ظروف ملائمة : ففى الفترة التى كانت فى أكثر اتساع لها ، أى فى عهد لاؤون ( ليون ) الثانى ، نمت التجارة على السواحل نموا كبيرا ، من الساحل الشرقى لخليج الاسكندرونة حتى موقع يبعد بضعة فراسخ عن شرم سانتاليا Satalia ، ويبدو وفاة هذا الأمير بوقت قليل ، أدت غزوات السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى الى انكماش حجم المملكة كثيرا ، وارتداد حدودها من الجانب الغربى الى مدينة سلوقية ( سلفكة Selefke الحالية ) ( ٢٣ ) . ونطالع فى « سانوتو » Sanuto ( ٢٤ ) وصفا ممتعا للساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، جعل للملاحين بنوع خاص ، ونلاحظ فيه بشأن المقطع الواقع بين النقاط المذكورة بعاليه ، مجموعة من النفور الجيدة التى لم يعد الغربيون يرتادونها فى الوقت الحاضر الا فى القليل النادر . وكان الأمر دون شك على خلاف ذلك فى العصور الوسطى ، لأن عددا كبيرا من هذا الموانئ قد ذكر فى « سانوتو » وفى الخرائط الساحلية القديمة بأسماء ايطالية ، حيث كان اثنان من هذه الموانئ بنوع خاص : آياس Lajazzo ، قرياقوس Korykos ( Gorighos )

( ٢٣ ) هى مدينة سلوسية Seleucia فى اسمها البيزنطى واليونانى القديم ، ثم أصبحت تسمى سلوقية فى العربية ، وسلفكة فى التركية بعد الفتح السلجوقى (الراجع Houtsma Ub. e Turk Chron. p. 13 et ss. Bongars, II, 88 et ss. ; Taf. et Thom. I, 375-381, suppléments, ٢٤) III, 462 et s. ; Vivien de Saint-Martin, Asie mineure, I, 519-526 . ( ٢٥ ) كان لهذا الموقع اهمية فى عصر السيادة البيزنطية انظر : Anne Comène éd. Bonn, II, 120 et s.

يتمتعان برخاء كبير ، كما كانت طرسوس مدينة بحرية لم ينسحب البحر بعيدا عن أسوارها ، كما هو الحال في الوقت الحاضر . ولم يكن نهر البردان ( كودنس Cydnus أو طرسوس تشاي Tarsous-Lehai ) الذي يخترقها قد سدت الرمال مجراه ، وانما كان يتدفق منها نحو البحر (٢٦) . وعلى بعد ما ، داخل الاقليم ، كانت مدينتا أطنة والمصيصة (Mamistra) دوبيسويست Mopsueste القديمة وحاليا المصيصة (Missis) تتصلان بالبحر عن طريق قنوات صالحة للملاحة (٢٧) . ولم تنزل المراكب قليلة الحمولة تصعد في الوقت الحاضر نهر سييحان Sihān-Tehai ( سارس قديما ) حتى أطنه ، كذلك لم يزل نهر جيجان Djihan Tehai ( بيرامس القديم Pyramus ) صالحا للملاحة عند المصيصة (٢٨) . وقد كان للنهرين وقتئذ مصب واحد ، أكثر اتساعا وأكثر صلاحية للسفول السفن (٢٩) .

وقدمت مملكة الأرمن الصغيرة للتجارة أيضا مزايا أخرى ، خلاف ذلك الجوع من مواقع الرسو الملائمة للتجارة : ذلك أنها كانت بموقعها عند ذروة الزاوية بين آسيا الصغرى وسوريا مهية بالطبيعة لمور القوافل على أرضها . وكان الطريق البري من سوريا الى ايكونيوم ( قونية ) والى القسطنطينية ، والذي ينتهي اليه من جهة طريق الفرات ، ومن جهة أخرى طرق بلاد العرب - كان هذا الطريق يجتاز أرمينيا الصغرى بكل طولها . كما كانت القوافل القادمة من حلب وأنطاكية تصل الى الاسكندرون عن طريق ممر بيلان Beilan . ولم تكن مدينة بيلان ( البيلقان ، وتعرف بالأرمنية باسم فيداكران ) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر سوى بقعة منعزلة (٣٠) ، ولكنها نمت في الأزمنة اللاحقة حتى أصبحت ميناء لحلب (٣١) . وعلى بعد بضعة أميال شمالي

Dulaurier, dans le Recueil des historiens des croisades, (٢٦)

Kotschy, Reise in den ellicischen Taurus, p. 283 et s. (٢٧)

Chesney, Expedition for the survey of the river Euphrates, I, 300. (٢٨)

Dulaurier, L. c, p. XLII et s. (٢٩)

Wilbr. Oldenb., éd. Laurent p. 16; Aboulf. Géogr. II, 2, p. 33. ; (٣٠)

Ritter, Endk XVII, 2, p. 1819 et s. 1893 et s. (٣١)



الاسكندرونة- يصل المرء الى الأبواب القليقية المشهورة ( بووتيللا Portella ) ( ٣٢ ) حيث المكتب الرئيسى للجمارك الأرمينية ، وهو ممر ضيق محصور بين الجبل والخليج ، وكان مغلقا بباب رخامى لم تزال أطلاله ظاهرة الى الآن ( ٣٣ ) . ومن هذه الأبواب يمتد الطريق الى اقليم أرمينيا ، فيلتف حول الساحل ، ويصل الى المصيصة ( مامسترا ) ، ماسيبسا ، مسيس ) ثم الى أذنه ( أظنة ) : ويعبر جبال طوروس Taurus عند ممر « جوليك بوغاز Goulek Boghaz » ، ويشرف على هذا الدرب حصن كبير ، يسمى جوجلاج Gouglag ( ٣٤ ) يحوى الحدود من ناحية الأتراك ( ٣٥ ) ، وكان هناك أيضا على ما يبدو مكتب جمركى . وعند الخروج من الممر الجبلى يتجه الطريق الى قونية . وهكذا نرى أن هذا الطريق يجتاز أرمينيا من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ، ويقطع بالقرب من مامسترا وأطنه طريقا آخر قادما من المجرى الأوسط لنهر الفرات عن طريق مراش Marach ( ٣٦ ) ، فكان يزود هاتين المدينتين بنصيبيه من الحركة

وتعرف بسوق الكركى ( من قرياقوس اليونانى وتعنى يوم الرب ) ويشير كى لسيرانج فى « بلدان الخلافة الشرقية » ( طبعة بغداد سنة ١٩٥٤ ) أننا نجد فى التواريخ القديمة أسماء جملة من هذه المدن معربة ، ولكن معظم هذه الأسماء قد انتقل الينا على غير هذه الصور بعد الفتح التركى . فقد أشار المصنفون العرب الى جملة مواضع يصعب تعيينها الآن اما لغموض ما ذكره أو للبس فى الاسم . ص ١٧١ ، ٢١٢ ( المراجع ) .

Wilbr. l. c. ; Sanut, p. 244; Contin, de Guill de Tyr, p. 215. ( ٣٢ )

Ainsworth, dans le Journ. of the geogr. society, VIII, 185 et ss. ; ( ٣٣ )

Ritter, op. cit., p. 1828 ; Taf, et Thom, II, 399 et s.; Guatremère Makrizi, I, 2, p. 124 ; Muller, Geographi graci minores, I, 476 et s.; Dulaurier, dans le Recueil des hist. des-crois, l.c. Introd p., XXVII et ss.

Langlois, Voyage en Cilicie, p. 362 et s., 368; Mémoire sur la constitution de l'Arménie, dans les Mém. de l'Acad de S. Pétersbourg, 7e série, T, III, p. 46; Dulaurier, dans le Rec. des hist. des crois.

( ٣٤ ) هذا الحصن هو فى الاعم قلعة الحنت ( Adaka ) المعروفة فى مؤلفات الرحالة العرب ، كما كان الممر معروفا بدرب الحنت ثم أسمى درب السلامة على طريق القسطنطينية الذى يجتاز جبال طوروس عند الأبواب القليقية ( المراجع ) .

Kotschy, Reise in den cilicischen Taurus, p. 71 et ss., ( ٣٥ )  
204 et s.

Edrisi, II, 139, 313 et ss. ( ٣٦ )

والنشاط . كان هناك أيضا طريق ثالث ، ولكنه لم يكتسب أهمية بالنسبة الى حركة التجارة الا في زمن لاحق . وسوف نتحدث عنه فيما بعد (٣٧) .

وكانت هذه الطرق كلها تلقى على سواحل أرمينيا كميات من البضائع يأتي معظمها من وسط آسيا . ومع ذلك فمن المسير معرفة أى من منتجات آسيا أو منتجات البلد نفسه يجتذب التجار الغربيين أكثر من غيره . والواقع أن المنتجات الأهلية كانت كثيرة التنوع ، كما كانت زراعة القطن التي اعتنى بها عدد من التجار مزدهرة للغاية في العصور الوسطى ، وتزود الصناعة بمادة أولية ممتازة (٢٨) . وكان الناس يطلبون صوف أرمينيا ، وبخاصة شعر الماعز (٣٩) الذي يستعمل محليا في صناعة الشمال ( جمع شملة ) الممتازة (٤٠) وكانت ماسيسبا متخصصة في تصدير الجلود والفراء . (٤١) وفي مناجم طوروس تستخرج معادن متنوعة ، وبالأخص الحديد (٤٢) ، كما كانت غابات الجبال تنتج الأخشاب يوفرة (٤٣) ، في حين تنتج السهول قمحا ونبيدا وزبيباً للتصدير (٤٤) . وأخيرا ، كانت الخيول والبغال الأرمينية تحظى في الخارج بتقدير كبير (٤٥) .

ومن الراجح كثيرا أن ( قليقية Cilicia ) كان يزورها التجار الايطاليون قبل أن تصبح مملكة أرمينية : فقد كانت اقليسا بيزنطيا . وكان الأباطرة يخصصون لجمهوريات ايطاليا التجارية بدخول اقاليم الامبراطورية ، ولا بد أن هذا الترخيص كان يسرى ضمنا على سلوقية ( قليقية ) . وبالفعل كان ثمة امتياز ممنوح للبنادقة في عام ١٠٨٢ يذكر صراحة من الأسواق المفتوحة لهم ، أسواق المصيصة ، وأدته . وطرسوس (٤٦) . ومع ذلك فما أن جلا الروم عن آخر ممتلكاتهم في

Kotschy, op. cit., p. 33.

(٣٧)

(٣٨) مزيد من الايضاح انظر الفصل المخصص للسلع التجارية .

Yates, *Texterium antiquorum*, 1er part Lond, 1843, p. 127. et ss.

(٣٩)

(٤٠) انظر الفصل الخامس بهذا الموضوع

Géogr. II, 2, p. 29.

(٤١) أبو القدا :

Makrizi, *Histoire des sultans mamlouks*. éd. Guatremère, II, 1, p. 207; Lib. jur. 11, 184; Pegol. p. 44, 46.

(٤٢)

Pegol, p. 44.

(٤٣)

Pegol, p. 44; Lib. jur. II, 184; Aboulf. Géogr. 11, 2, p. 34.

(٤٤)

Not. et extr. XI, 117; Pegol, p. 298.

(٤٥)

Taf. et Thom. I, 52, 118.

(٤٦)

القسم السفلى من البلدة ، وأصبح لاؤون الثانى سيد الساحل بلا منازع ، حتى وجد سفراء جنوا والبندقية يأتون الى بلاطه ملتجئين عطفه ورعايته .  
 وإذا كان الأوروبيون بعامة مصرحا لهم بالاعتماد على حسن استقبال لاؤون لهم ، فان الجنوبيين كان لهم الحق فى ذلك قبل غيرهم لأنهم قدموا كل ما فى وسعهم من مساعدة لسفرائه فى الغرب ( وغالبا فى مناسبة المفاوضات التى جرت بينهم وبين الامبراطور والباپا ) . ولم يتركهم لاؤون ينتظرون مكافآتهم ، فما أن وصل أول سفير لهم ، وهو أوجيرو دى باللو Ogerio di Pallo (٤٧) فى شهر مارس ١٢٠١ (٤٨) حتى منح مواطنى جنوا الاعفاء من الرسوم الجمركية ، والمكوس ، وسائر الضرائب فى كل أنحاء ولاياته ، بالاضافة الى عقارات وأراض لبناء المخازن والمحاكم فى سيس Sis حيث مقره ( على رافد شمالى لنهر جيحان ) (٤٩) ، وفى المصيصة ، وطرسوس حيث أصبح لهم حق ممارسة الشعائر الدينية وتشييد الكنائس ، كما أصبح لهم الاختصاص القضائى بين مواطنيهم .  
 وما أن تسلم الجنوبيون ممتلكاتهم حتى جعلوا المستوطنة تحت ادارة فيكونت ، شأنها شأن سائر مستوطناتهم فى سوريا . وكان الفيكونت اوجونيه فيرارو Ugone Ferrario هو الذى حصل فى عام ١٢١٥ لصالح مواطنيه على ثانى اجازة موقعة من لاؤون (٥٠) . هذه الاجازة أكثر من العقارات التى يمتلكها الجنوبيون فى طرسوس ، فأتاحت لهم بناء فرن وحمام وضم حديقة ، ولكنها وضعت قييدا على الاعفاء من الرسوم والضرائب . فقد كان فى المملكة أربعة بارونات لم يستطع لاؤون أن يحملهم على التنازل عن الرسوم والضرائب التى فرضوها على التجار الجنوبيين الذين يهرون بأقاليمهم ، ومن ثم وجد نفسه مضطرا لأن يستهمل الجنوبيين ، ويعدهم بأنه فى حالة رجوع أى اقليم من هذه الأقاليم الى الملك فإنهم سوف يتمتعون فى الحال بذات الاعفاءات التى يتمتع بها مواطنوهم

(٤٧) M. Saint-Martin (Not. et extr. XI p. 19) et Langlois (Janés) (Trésor des chartes de l'Arménie p. 109 et s.); Annales Japonaises, p. 118; Lib. jur. I, 462 et ss.; Canale, Nuova istoria di Genova, I, 367; II, 544.

Lib. jur. I, 468-470; Not. et extr. XI, p. 19 et ss.; Langlois, (٤٨) Trésor, p. 105 et ss.

(٤٩) أطلق المسلمون على نهري ساروس وبيراس فى آسيا الصغرى اسم نهر جيحان وجيحان ، على غرار تسميتهم نهري أوكسس Oxus وجكسارتس Jaxartes فى آسيا الوسطى ، وهما أكثر شهرة باسم سيحون وجيخون . ومنابع النهرين الاولين فى شمال أرمينية الصغرى . ويذكر أبو الفداء أن العامة تسمى نهر جيحان بنهر جهان الذى يسب فى خليج اياس الى شمال ميناء الملون ( ملس Mallus . أما سيحان فاصغر منه وتقع مدينة اذنة على شفاة - ( المراجع )

Lib. jur. I, 574-576; Langlois, Trésor, p. 126 et. ss. (٥٠)

في سائر أنحاء البلاد التي تتبعه تبعية مباشرة . هؤلاء البارونات هم أونون في طبرية ، وآدم في جاستون ، وفاهرام في قرياقوس أو سوق الكركي ( مارشال المملكة ) ولاؤون سيد جابان . وعلى الرغم من المركز الكبير الذي كان لهذه الشخصيات في بلاط أرمينيا ، والدور الهام الذي أدوه في التاريخ ، فهم لا يهمننا كثيرا في هذا المجال (٥١) . ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة الى اقطاعياتهم ، لأن مواقع هذه الاقطاعيات تصلح لأن تكون لنا بمثابة شواخص تدلنا على الطرق التي كان يسلكها التجار الجنويون . فاسم طبرية 'Tabaria' كعلم لأسرة يرجع أصله الى بحيرة طبرية Tiberiade بفلسطين ، فان كان لا علم لنا بموقع اقطاعية أوتون تلك في طبرية ، مما يؤسف له . ويعتقد دولورييه Dulaurier أن قصر هذا البارون وجمركه كانا عند ممر « جوليك بوغاز » الذي يجري عنده الاتصال بين سلوقية ( قليقيه ) وسلطنة قونية ، وان كان هذا مجرد افتراض لا يزودنا باثبات قاطع (٥٢) . والأمر على العكس من ذلك بالنسبة الى الاقطاعيات الثلاث الأخرى ، إذ يمكننا أن نحدد مواقعها على الخريطة . فهناك أولا مدينة قرياقوس ( سوق الكركي ) Korykos الكائنة على بعد خمسين ميلا فقط (٥٣) من جزيرة قبرص ، وفي موقع ملائم لحركة التجارة التي تقصده سلطنة قونية (٥٤) . وكانت هذه المدينة على ما يبدو الميناء المفضل للجنويين . أما قصر سيده جاستون Gaston ( جاستيم Gastim ) فقد كان يشرف على ممر بيلان ، على بعد أربعة أميال فحسب من أنطاكية (٥٥) : بمعنى أنه كان على الجنويين في حملتهم للتجارة أن يجتازوا اقليهه ، ذلك لأنهم كانوا يترددون كثيرا على الطريق الكبير الذي يبدأ من أنطاكية ، وينحدر الى خليج الاسكندرونة عن

Dulaurier, dans le Recueil des hist. des crois., Doc. armén., (٥١)  
I, p. lxxxiv et ss.

(٥٢) في عام ١١٩٨ كانت هذه القلعة في حراسة بارون أرمني اسمه سباد  
Ibid. p. xciv - Sempad

انظر كي لسترنج ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ - ( المراجع ) .

Mas-Latrie, Des relations de l'Asie mineure avec l'île de Chypre :  
Bibl. de l'école des chartes, 2e série, I, 303.

Gesta Ricardi I, éd. Stubbs, II, 194. (٥٢)

Mas-Latrie, Des relatoin de l'Asie mineure avec l'île de  
Chypre, Bibl. de l'école des chartes 2e série, I, 303. (٥٤)

wilbr. ab Oldenb. p. 174; Innoc. III, epist lib. 11, no. (٥٥)  
259, lib. xii, no 45 ; Gesta Innoc. III, p. 72; p. 72; Raynold, Annal,  
eccles ad an. 1205 et la note de Mansi; Confin, de Guill. de Tyr, dans  
le Rec. p. 136 et note; Documents arméniens, I, éd. Dulaurier, dans le  
même Recueil, p. 171 et s., not.

طريق جبل أمانوس Amanus (٥٦) ، ومن هناك الى المصبصة وأطنه .  
وتقرأ في الوثيقة المشار اليها أن لاؤون سيده جابان Gaban فرض اتاوة  
على التجار البارين بجيجان (٥٧) ، وكانت جابان قلعة كائنة في الجبل  
شمال غربي مرعش ( مراسيون ) على رافده شمالي لنهر جيجان (٥٨) ،  
وكان اقليم السيد المعروف بهذا الاسم يمتد حتى نهر جيجان . واذا كان  
التجار الجنويون يدفعون هناك رسم مرور . فذلك لأنهم يزورون الحدود  
الشمالية الأرمينية .

وبعد انقضاء حوالي ستة شهور على قدوم اوجيرو دى بالو ، وصل  
الى أرمينية سفير من البندقية يدعى جاكوبو بادوارو Jacopo Badoaro  
مبعوثا بسلاطات مطلقة من قبل الدوج أنريكو داندولو ، وحصل على  
امتيازات ماثلة تقريبا للامتيازات الممنوحة للجنويين باجازه عام  
١٢٠٦ (٥٩) وان كانت في الحقيقة أضيق منها نطاقا بكثير . وقد أرخت هذه  
الاجازة التي لم تمنح البنادقة سوى كنيسة، ومستودع وأرض لبناء دار عامة  
domus في المصبصة، دون أن يحظوا بشيء في سيس أو طرسوس ، بشهر  
ديسمبر عام ١٢٠١ . وكان تجارهم مأذونا لهم بممارسة التجارة بمطلق  
الحرية في المملكة كلها ، وبالمرور في البلاد المجاورة بشرط أن تكون  
أرمينية على علاقة سلمية معهم . ولم تكن الرسوم الجمركية تستحق إلا  
على البنادقة المقيمين في الشرق ( في سورية ) ، عنده مرورهم من  
الأبواب القليبية ( بورتيللا ) . أما غيرهم من البنادقة فكانوا معافين من  
هذه الرسوم ، فيما عدا المواد المصنوعة من ذهب أو فضة ومستوردة  
بفرض تحويلها الى نقود . ولم يرد في هذه الاجازة التي أصدرها لاؤون  
الثاني ذكر لتعيين قنصل أو حاكم مستعمرة baile بندقي في أرمينية ،  
ولا نجد أيضا ذكرا لذلك في الاجازة التي أصدرها حتوم Hethoum

(٥٦) لا شك انه احدى جبال أز قم سلسلة جبال طوروس الداخلة التي عمها  
العرب باسم جبل الكام حيث كانوا يقلبون في اطلاق التسميات ، فكان ذلك على كثير  
من الارتباك ( المرجع )

Quatremere, Makrizi, l.c. p. 260 ; Saint-Martin, Mémoires (٥٧)  
sur l'Ar-ménie. I, 184; Langlois, Trésor, p. 119; Cont. de Guill de  
Tyr, p. 208.

Saint-Martin, L.c. I, 202 402 ; Dulaurier, L.c. p. XXV et s., (٥٨)

153 et s., 483, 513; Ritler, Kleinasien, II, 36 103, 157. (٥٩)  
Archiv. stor. ital. App. ix, p. 361-364; Taf. et Thom, I, 381 et ss.;  
Langlois, l.c.p. 109.

فى شهر مارس ١٢٤٥ (٦٠) ، وهى الاجازة الثانية من حيث تاريخها ،  
 أما من حيث بنودها الرئيسية فانها ليست سوى نسخة من الأولى . وفى  
 نصوص اجازة عام ١٢٠١ أنه اذا توفى أحد البنادقة ، ولم يكن هناك من  
 مواطنيه من يرثه ، تبقى ثروته مودعة عنده كبير أساقفة سبيس حتى يتصرف  
 فى أمرها دوج البندقية أو حاكم مستعمرة البنادقة baile فى عكا  
 ( وقد أضيف هذا النص فى براءة عام ١٢٤٥ ) . ولم يرد فى أية واحدة  
 من البراءتين ذكر لقاض بندقى يفصل فى المنازعات بين البنادقة ، وانما  
 يتدخل لفض مثل هذه الأمور أى بنادقة آخرين بصفة محكمين ممن حضروا  
 الصفقة موضوع النزاع . فاذا لم يمكن هناك ثمة شهود للنزاع ، يعهد  
 بالفصل فيه الى رئيس أساقفة سبيس الذى يجمع الى وظائفه الكنسية  
 وظائف المستشار ورئيس القضاة (٦١) .

ومن المعلوم أنه وان كانت منشآت البنادقة وقتئذ أقل حجما من  
 منشآت الجنويين ، الا أن تجارتهم كانت بالفعل أكثر نشاطا واتساعا .  
 ويفترض نص براءتى عامى ١٢٠١ ، ١٢٤٥ أنهم يزورون كل البلاد المجاورة  
 للأرمينية ، مسيحية كانت أو اسلامية ، ومن بين هذه الأخيرة بالتأكيد  
 سلطنة قونية : ذلك لأن البندقية كانت منذ فجر القرن الثالث عشر  
 مرتبطة مع أمراء هذه الدولة بمعاهدات تسعى الى تنمية العلاقات التجارية  
 بين البلدين .

والواقع أنه لم يكن للأرمينية وقتئذ فى نظر الغربيين من حيث  
 التجارة الأهمية التى صارت لها فيما بعد ، حيث لم تكن فى نظرهم سوى  
 دولة تابعة للدول الصليبية فى سورية ، شأنها فى ذلك شأن جزيرة  
 قبرص ، وان كانت قد تجاوزت قبل قبرص هذا الدور الثانوى ، وازدادت  
 أهميتها يوما بعد يوم ، حتى صارت من المحاط الرئيسية فى تجارة الشرق  
 الأدنى . والحقيقة أن أصل هذا الازدياد فى الأهمية يرجع الى عشرين أو  
 ثلاثين سنة قبل سقوط عكا ، مرتبطا فى ذلك بظروف ليس فى وسعنا  
 أن نتحدث عنها هنا بالتفصيل . فهناك ثمة اعتبار يجعلنا نتوقف عند  
 هذا الحد . ذلك أننا داخلون فى عصر آخر ، فمنذ أن سقطت امارة  
 عكا ، ومعها الحصن الشمالى للدول الصليبية فى أيدي المسلمين (١٢٦٨م)  
 لم تعد أرمينية جارة لها ، وانما أصبحت معتندة على قوتها الذاتية .

Archiv. slor., I.c.p. 365, et ss. ; Taf. et Thom, II, 426  
 et ss. ; Langlois, p, 143 et ss., p. 145.

(٦٠)

Langlois, p. 34 ; Dulaurier, I.c. p. lxxxvii.

(٦١)

## ... سورية المسلمة ، من حيث موقعها خلف الدول الصليبية

عندما يقتضى الأمر إيضاح الطريق الذى تسلكه منتجات الشرق لتصل الى الدول الصليبية ، يتعين علينا أن نعود بخطانا الى الورا ونحدث عن البلاد الواقعة خلفها ، أى الى الجزء من سوريا الذى بقى فى أيدي المسلمين . فالواقع أن تجارة الموانئ السورية كانت تنزود أساسا من الأسواق الكبرى فى حلب ودمشق ، وكذا من محاط أقل أهمية فى حمص وحماه . ويبدو أنه انقضى وقت طويل قبل أن يجرؤ التجار الأوروبيون على المخاطرة فى هذه المناطق المعتيرة بلادا معادية . وشيئا فشيئا خفت حدة الأحقاد ؛ وكلما عادت علاقات أهم أوروبا التجارية مع مسلمى مصر الى ما كانت عليه قبلا ، زال النفور بالتدرج من اخوانهم فى الدين ( أى المسلمين ) فى سوريا . ومن اليوم الذى أصبح فيه سلاطين مصر سادة هذا البلد ، أى منذ أن تولى صلاح الدين مقاليد الحكم ، ضمنت المعاهدات التى أبرمتها هذه الأمم قبلا مع مصر ترحيبا طيبا بها فى سوريا . لذلك نرى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر تجار عكا من البنادقة يزورون دمشق ومدنا اسلامية أخرى (٦٢) . ومهدت لهم أوطانهم الطريق بأن تبادلت السفراء مع سلاطين حلب ، والعديد من صغار أمراء شمال سوريا . ولم تكن هذه الأمم تستهدف بذلك فقط توسيع نطاق تجارتها داخل القارة ، ولكنها كانت تنفيا أيضا الاحتفاظ بمواقعها القديمة على الساحل . ونحن نعلم أن جيوش صلاح الدين المظفرة أنزلت بامارة أنطاكية ضربة قاصمة : وفى حين خرجت الامارات الأخرى من هذه النكبة وقد انكشمت حتى أصبحت قاصرة على شريط من الأرض يمتد على طول الساحل ، ولكنها ظلت متحدة ومترابطة ، فقدت امارة أنطاكية قسما من سواحلها ، وتقدم اقليم المسلمين فيما يشبه الزاوية حتى بلغ البحر بين أنطاكية وطرابلس ، وغزا صلاح الدين اللادقية Laodicee وجبيل GibeI\* (٦٣) . حقا ، لقد اضطرت الحاميات الاسلامية لهذين الموقعين فى عام ١١٩٧ الى الانسحاب أمام قوات الأمير بوهيند الثالث ( أمير أنطاكية ) (٦٤) . ولكن نجاح المسيحيين هذا كان نجاحا مؤقتا . ففى عام ١٢٠٣ سارت فرقة من الصليبيين برا من عكا الى أنطاكية فوجدت جبيل وقد احتلها أمير مسلم ، فواصلت طريقها ،

Taf. et Thom II, 398.

(٦٢)

Aboulféda, dans le Recueil des hist. des crois, p. 59 ; Ibn-Alathir, Ibd. p. 719 et s.

(٦٣)

wilken, V, 49.

(٦٤)

وكان عليها أن تمر بأقليم سلطان حلب ، فهاجمها العدو بالقرب من اللاذقية وأبادها تقريبا (٦٥) . وظل الموقف على حاله في عام ١٢١١ ، عندما زار فيلبراند دولدبرج Wilbrand d'Oldenbourg هذه البقاع . فمن مرجاث Margath ، ركب هذا الحاج البحر ليتحاشى ثلاث مدن إسلامية وأقاليمها : جبيل التي يحتلها صهر سلطان حلب ، وسيجون Séhjour وهي قلعة يملكها هذا السلطان ، واللاذقية . وكان عليه ، ليجد أرضا مسيحية ، أن يواصل طريقه حتى سويدين Souidin (السويدية Soueidièh) . حيث نزل من السفينة (٦٦) . وهناك ، عن عشر السنين التالية ، دلائل تثبت احتلال المسلمين اللاذقية وجبيل . هذان الموقعان هما ضمن المواقع التي أعطاها السلطان « الملك الكامل » للصليبيين في عام ١٢٢١ . في مقابل مدينة دمياط (٦٧) ، ولما رفض عرضه هذا بقيت المدينتان في أيدي المسلمين كما كانتا من قبل ، وهذا أمر ثابت لا جدال فيه . حقا لفته تصرف الأميران اللذان تنازعا خلافة بهمند الثالث في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر ، ريموند Raimond Roupen وبهمند الرابع ، تصرفا كما لو كانا سادة جبيل ، فمنح أحدهما المدينة لفرسان القديس يوحنا ، ومنحها الثاني لفرسان الهيكل ، فنشأ بين الطائفتين نزاع لم ينته الا بقرار محكمين (٦٨) . ولم يكن لذلك أهمية : فالواقع أن جبيل لم تكن تابعة لاروين ولا لبهمند ، وكل ما كان في وسعها أن يمنحاه هو الحق في غزو المدينة ، وكان هذا الحق هو موضوع النزاع بين الطائفتين . ولكن المدينة بقيت مسلمة (٦٩) . والى الآن لم نلتفت الى هذه التفاصيل ، ولكنها كافية لكي تفسر كيف أنه منذ بداية القرن الثالث عشر ، اختفى اسما اللاذقية وجبيل تماما من الاجازات التي منحها أمراء انطاكية لصالح الأمم التجارية . ولكي تستطيع هذه الأمم الاحتفاظ بممتلكاتها الاستعمارية في هاتين المدينتين ، والحقوق الملحقه بها ، لم يكن عليهم أن يخاطبوا أمراء انطاكية الذين لم يكن في وسعهم أن يصنعوا شيئا في هذا الخصوص ، وانما كان عليهم أن يتوجهوا الى أمراء حلب ، أو الأمراء الصغار التابعين لهم بنوع

Contin de Guill. de Tyr, p. 247-249. (٦٥)

Wilbrand ab. Oldenburg ; dans Laurent, Peregrinatores medii oevi, p. 170 et s. (٦٦)

Aboulf. l.c. p. 97; Ibn Alathir, dans Michand-Reinaud, Bibl. des crois, IV, 413. (٦٧)

Paoli. Cod. dipl. I, 95, 99, 113, 120, 123, et s. (٦٨)

Paoli, p. 124. (٦٩)



ما ، وكان في أيديهم هاتان المدينتان وأقليهما . على أن جمهورية البندقية كانت تريد شيئا خلاف الاحتفاظ بالوضع القديم . كانت تريد توسيع تجارتها . ومن ثم عقدت علاقات دبلوماسية مع أمراء حلب . وفي عام ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ ( عام ٦٠٤ هـ ) رأى غياث الدين الظاهر ، ابن صلاح الدين ، وأول أمير من أسرة الأيوبيين التي حكمت حلب فترة قصيرة ، رأى ب . مارينيوني P. Marignoni مبعوث الدوج زياني Ziani وقد وصل إلى بلاطه ليعقد معه معاهدة تجارية . ومن ثم منح البنادقة في مدينة حلب فندقا وحماما وكنيسة ، ووعده من يأتي منهم للإقامة بها ، وكذا المقيمين في اللاذقية أن يساعدهم موظفوه في الحالات التي يتعين عليهم فيها التوجه إلى القضاء ، وضمن لهم عدم المساس بشراوتهم في حالة الوفاة ، وحدد بصورة عامة الرسوم الجمركية فجعلها ١٢٪ عند الدخول والخروج . وبالنسبة إلى اللؤلؤ والأحجار الكريمة ، يتعين على التجار البنادقة أن يدفعوا الرسم نفسه كلما أرادوا إعادة تصديرها لبيعها في جهات أخرى . وبالنسبة إلى القطن كان عليهم أن يسددوا عند باب المدينة رسما قدره ١٧ درهما على حمولة الدابة ، غير أن الأمير أعفاهم من المكوس التي تحصل عادة عند المرور بجبل سيفام Ceffam (٧٠) .

وفي عام ١٢٢٥ ، في عهد الملك العزيز خليفة الظاهر ، أرسل الدوج سفيرا ثانيا اسمه تومازينو فوسكاريني Tomasino Foscarini فحصل هذا السفير على تخفيض الرسوم الجمركية إلى ٦٪ وضمانات أقوى لسلامة أموال الرعايا البنادقة في حالة الوفاة والغرقة ، إذ كان البنادقة مهتدين بانتزاع منشأاتهم في اللاذقية : ومن ثم التمس السفير من الأمير أن يحتفظ لهم بها ، ولكن الأمير أجابه بأن ذلك ليس من سلطته ، وأحالته إلى أمير اللاذقية . وعلى ذلك ذهب فوسكاريني إلى هذه المدينة ، فأيد الأمير حتى البنادقة في أن يمتلكوا في اللاذقية محكمة وفندقا وكنيسة وحماما ومخبرا ، وخفض الضريبة على المبيعات والمشترقات من ٨٪ إلى ٣٪ ، والرسم الذي يحصل عن حمولة الدابة (Soma) من ثلاثة دراهم إلى درهمنين .

(٧٠) انظر « البراءة » في :

Taf. et Thom, II, 63 et ss. ou dans Cicogna, Iseriz Venez,

أما بخصوص جبل Ceffam أو Cesfam فاني اعترف انني لم أجد هذا الاسم أو أي اسم شبيه له على طريق قوافل انطاكية إلى حلب أو طريق اللاذقية إلى حلب . — (Aboulf. Géogr. II, 2. p. 39 : Chereffouddin, Chereffamèh, et Charmoy, I, 1, p. 270, 749).

— وكانت القوافل الذاهبة من اللاذقية إلى حلب تمر حتما على هذا الجسر حيث يوجد مكتب للجمارك : وهو معروف اليوم باسم جسر الشفور .

Rift. Syrien, II, 902.

انظر :

ومع ذلك لم تكن مهمة فوسكاريني قد انتهت ، اذ كان معه رسالة عليه ان يسلمها لسيد سيجون Senjoun ، وكانت قلعة سيجون من أمنع القلاع القائمة في جبال شمالي سوريا (٧١) ، وتقع على مسيرة يوم واحد شرقي اللاذقية ، وتشرف على طريق للقوافل يعبر حوض النهر الكبير وجبال النصيرية Nossairis ويمر بالاورونت ( نهر العاص ) عند جسر الشغور Djisir-ech-Chogr ، ويتجه من ثمة الى حلب (٧٢) . ومن الناحية الأخرى يمتد الاقليم التابع للقلعة حتى البحر (٧٣) ، بين اللاذقية وجبيل ، وينتهي بلسان من الأرض يحمي موردة (٧٤) كثيرا ما تاوى اليها سفن الغرب عند الضرورة . كان يهم البنادقة من كل الوجوه أن يكونوا على وفاق تام مع سيد البلد ، فقد تجنح احدى سفنهم على الساحل ، وقد يموت تاجر منهم وهو يمر باقليمه . ولكن وبنوع خاص ( وهذي مسألة ذات أهمية كبرى ) قد يفرض السيد ضرائب مرتفعة على البضائع المنقولة من حلب الى البحر ، أو العكس . وبعد اسنيلاء صلاح الدين على القلعة في عام ١١٨٨ أعطاهما اقطاعية لمن يدعى ناصر الدين مانكوبارس Nassiroddin Mancoubars (٧٥) . وليس في الامكان اثبات ما اذا كان سيد القلعة في عام ١٢٢٥ هو هذا الشخص نفسه ، ذلك أن فوسكاريني لم يذكر أى اسم . على أنه لا أهمية لهذه المسألة : فقد أعطى ( سيد القلعة ) للسفير ، من أجل سلامة البنادقة ، والمواهب نفس الضمانات التي لسائر الأمراء ، بالإضافة الى تخفيض طفيف في الرسوم على الفلفل والتقطن (٧٦) .

وفي أواخر عام ١٢٢٩ أوفد الدوج جاكوبو تيبولو Jacopo Tiepolo سفارة جديدة الى سيجون وحلب ، ويدعى السفير جيوفاني سوكوجولو

(٧١) عن هذه القلعة ، انظر أبو الفدا (Géogr. II, 2, p. 35) وابن الأثير د

(Recueil, p. 721) وابن بطوطة 1. 166 وكذا

— L'index géographique de Schultens dans la Bohadini vita Saladini, p. 82 ; Dulaurier, Mathieu d'Edesse) Rec. des hist. des crois. Doc. armén.), p. 18; Michaud-Reinaud, Bibl. des crois. IV, 227; Taf. et Thom, II, 259, 272 et Ansbert, exp. Frid., éd. Dobrowski, p. 5.

Ritter, Endk, XVII 1, p. 907 et s. 911 et s., 971 et s. (٧٢)

La relation de voyage de wilbrand d'Oldenbourg. (٧٣)

Cosmographie de Chemseddin-Dimeshky, trad. Mehren, p. 284 (٧٤)

Aboulféda, dans le Rec. des hist. des crois. p. 59, 70. (٧٥)

أبو الفدا . . . ابن الأثير . المرجع السابق ص ٧٢٢ .

(٧٦) نتائج سفارة فوسكاريني في حلب واللاذقية ، وسهيون ملخصة في ورقة نشرها (Taf. et Thom, II, 256 et ss.)

Giovanni Succugullo • وكان أمير سيجون وقتئذ شخصا يدعى مظفر الدين (٧٧) ، جدد وأكد الامتيازات التي منحها سلفه ، وذلك في بنودها الرئيسية ، ووعده بأن يترك للبنادقة مهمة تسوية المنازعات التي تقع بينهم •

وفى اجازته تفرقة في تعريفه رسوم التراخيص المفروضة على الغنفل والقطن بين حمولة الجمل وحمولة البغل ، ولم يعد السعر الذي حدده أسلافه لحمولة الدابة بوجه عام يطبق الا على حمولة الجمل ، أما بالنسبة الى حمولة البغل فقد خفض السعر بدرجة محسوسة (٧٨) • ووجد سوكونجولو في حلب الأمير نفسه « الملك العزيز » الذي تعامل معه قبلا فوسكاريني • ولكن يشجع هذا الأمير التجار البنادقة على زيارة بلده أكثر من ذي قبل ، خفض بعض الرسوم التي يدفعونها عند الاستيراد والتصدير ، ولكنه أبقى على سعر متوسط قدره ٦٪ ، ووعده بأن يجعل التجار البنادقة في مأمن من أى ضغط يقع عليهم عند البيع والشراء ، وعين موظفا خاصا مهمته تلقي شكاوهم ضد المطالبات المرهقة من جانب موظفي الجمارك ، ورخص للبنادقة فضلا عن ذلك بإنشاء مستوطنة في حلب واللاذقية ، وأن يقيموا على رأس هذه المنشآت بايلا ( سفيرا بندقيا ) ، يضم اختصاصه القضائي كل المنازعات والحصومات بين الرعايا البنادقة ، ومنهم كنيسة في اللاذقية • وكانوا من قبل يملكون فندقين ، أحدهما في حلب ، والثاني في اللاذقية ، ووعده بأن يبني لهم فندقا ثالثا « بالقرب من الجسر (ad pontem) (٧٩) والراجع أن المقصود بذلك هو جسر الشغور ، على ضفاف نهر العاصي الذي لا بد من عبوره للذهاب الى حلب واللاذقية • كما وعد الأمير بالامتناع عن أى اجراء تارى ضد التجار البنادقة في حالة ارتكاب أحد مواطنيهم سرقة اضرارا بأحد رعاياه ، وأن يحمي من تهرق سفينته ، من أمتهم في اقليسي اللاذقية وجيبيل (٨٠) • وفي عام ١٢٥٤ زار سفير بندقى ثالث اسمه جيوفانى ساجريدو Giovanni Sagredo بلاط آخر أمراء حلب من سلالة صلاح الدين ، الملك الناصر ، وحصل منه على خطابين محررين بالفرنسية ، اطلعنا عليهما ،

(٧٧) لم يذكره المؤرخون العرب الا ليقولوا انه أبو سيف الدين الذي كان في حوزته سيجون Séhjoum بين ١٢٦٢ ، ١٢٧٢ ، انظر : أبو الفدا (I, c. p. 148, 154) بين ١٢٦٢ - ١٢٧٢ انظر أبو الفدا I, I, p. 179 ، والمريزي I, I, p. 179  
(٧٨) انظر البراءة في : Tar, et Thom, II, 272 et s.  
(٧٩) Riter Erdk, XVII 2, p. 1099 et ss.  
(٨٠) Taf, et Thom, II, 274-276.

لا يحتويان الا على وعود بالصدقة والحماية ، محررين بعبارات عامة ،  
ويثبتان فقط أن البنادقة ما زالوا يمارسون في ذلك الحين تجارتهم  
مع حلب (٨١) .

وبعد بضع سنين ، خلع الناصر من عرشه ، خلعه هولانكو ، خان  
المغول ( ١٢٦٠ ) ، وقطعت رأسه في سجنه ( ١٢٦١ ) ( ٨٢ ) ، وبقيت  
سلالة سادة سيجون بعد انقضاء سلالة الأيوبيين في حلب . وفي وسعنا  
أن نتتبعها حتى سابق الدين سليمان Sabik-eééin Sotiman  
الذى يملك القلعة مع أخيه فخر الدين . وتنفيذا للرغبات التى أبدأها  
أبوه فى وصيته ، سلم القلعة للسليطان بيبرس (١٢٧٢) ( ٨٣ ) . كما  
حارب فينسا بعد السلطان قلاوون ، بقيادة خصمه سنقر الأشقر  
Sonkor-Achkar ، حتى اذا انهزم فريقه وقع فى الأسر وسجن (١٢٨٠) .  
ومع ذلك احتفظ سنقر الأشقر بالقلعة ، وجعل منها حصنه ، وبقي بها  
عدة سنوات (٨٤) .

فماذا كان مصير البنادقة وسط هذه الانقلابات والتغيرات فى الأسر  
الحاكمة ؟ هل بقى فنديهم فى حلب ابان الغزو المغولى دون أن يصاب  
بشيء ؟ وهل احترم سادة حلب وسنجون الجدد المعاهدات القديمة ؟  
لا علم لنا بشيء من ذلك . غير أن شيئا واحدا أكيدا : ذلك أنه فى أواخر  
العصور الوسطى كان عدد كبير من التجار البنادقة ما زالوا يذهبون الى  
حلب ، وآخرون مقيمين بها . وسوف نتكلم فى هذا الخصوص ، ولا يبقى  
سوى أن نضيف كلمة بشأن المواد التى كان البنادقة يستوردونها الى  
حلب ، والمواد التى يصدرونها منها . فمن المواد المستوردة تذكر المعاهدات  
التى استعرضناها الآلى ، والأحجار الكريمة ، والفضة ، والنحاس ،  
والأصواف . ومن مواد التصدير القطن الذى كانت سورية  
تنتجه أيضا بوفرة ، والتوابل ( وبخاصة الفلفل ) التى تصل الى حلب  
من الخليج الفارسى والفرات . ولا يغيب عن البال أنه عند تحرير هذه  
المعاهدات لم يكن المقصود وضع قائمة كاملة بالأشياء التى يلتزم البنادقة  
بتقديمها للجسارك ، سواء فى حلب أو فى الطريق ذهابا وإيابا ، والا

(٨١) Ibid, III, 60-62. Mas-Latrie, dans la Biblioth. de l'école des  
Chartes, 3<sup>e</sup> série II, 527.

(٨٢) Weil, Gesch. d. Chalif, IV, 13 et s. 17.

(٨٣) (1, 2, p. 110) المقرئى (Rec. p. 154)

(٨٤) (II, 1, p. 18, 30, 41, 87 et s.) المقرئى

لم تكن الأقمشة الحريرية قد نسيبت ، لأن حلب كانت من الأسواق الرئيسية لهذه السلعة (٨٥) ، أو نسي أيضا الشب الذي ينتجه هذا البلد ، والذي تصادفه كثيراً في الغرب اعتباراً من القرن الثالث عشر .

- مصر :

قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، كان طريق البحر الأحمر هو بالتناكبه أكثر الطرق المعروفة ملائمة للصلة بين الشرق والغرب . فهو يختصر بأقل ما يمكن المصاعب والنفقات الباهظة المترتبة على المواصلات البرية . وبغض النظر عن الشريط الضيق من اليابس الذي يفصل البحر الأحمر عن النيل ، كانت البضائع المصدرة من الهند أو الصين تنتقل دائماً بطريق البحر ، وتتبع الخط الأكثر استقامة ، أي الطريق الأقصر للوصول إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا . ونحن نعرف دور مصر الهام في التاريخ القديم : وتدين مصر بهذا الدور الهام لموقعها المركزي ، وللحركة التجارية الهائلة التي توثبت على هذا الموقع . وفي العصور الوسطى لم يكن هذا الوضع قد تغير ، ويمكن القول عن مصر كلها ما قاله جيوم ( وليم ) الصوري عن الاسكندرية بنوع خاص (٨٦) : انها سوق العالمين .

ويتناول هذا الفصل بالايضاح كيف كانت منتجات الشرق النادرة المطلوبة بكثره تصل الى مصر وتخرج منها في العصر الذي وصلت اليه دراستنا هذه ، أي في زمن الحروب الصليبية : لذلك ينبغي لنا أولاً أن نوجه أبحاثنا صوب الجنوب الغربي من بلاد العرب . فثمة بلدتان على الساحل : عدن ، وزبيد حظيتا بشهرة عالية بسبب اتساع نطاق ما كان لهما من علاقات . وفي الأزمان القديمة كان سكان صحار على ساحل عمان يرسلون سفننا إلى الهند والصين ، ولكن منذ أن مارس قرصان جزيرة

---

Voyez les extraits de l'Histoire d'Alep, par Ibn-ouch-Chi- (٨٥)  
hnèh, communiqués par M. Kremer dans les Sitzungsberichte der  
Wiener Akad. 1850, avri, p. 239, 243.

Guill de Tyr, XIX, 27.

(٨٦)

كيش غاراتهم فى الخليج الفارسى ومجاوراته (٨٧) تركزت تجارة بلاد العرب كلها تقريبا فى عدن ، و جرت حركة ملاحية نشيطة بين هذه المدينة والبلاد التى يروها نهر الاندوس ( السند ) ، وشبه جزيرة جوجارات Guzerate (٨٨) ( على الساحل الغربى للهند ) ، وساحل الملبار (٨٩) والهند الصينية ، والصين (٩٠) . ويكفيها ، لكى تقدر كمية المنتجات التى ترد على عدن ، أن نتصفح ما أحصاه الادريسي منها . ولكننا نكتفى بذكر بعضها ، فمنها : المسك ، والفلفل ، وأهال ( المعروف بالجهان ) ، والقرفة ، والخولنجان ، والاهليلج ( جنس شجر هندى ذو ثمر ) ، والكافور ، وجوز الهند ، وجوز الطيب ، والصبر ، والأبنوس ، والعاج . والحشيش ، وكذلك الأوانى الفخارية التى قال عنها ريتز Ritter انها بورسليين ( خزف صينى ) ( ٩١ ) .

وكانت زبيد تتلقى من عدن منتجات الهند والصين ، اما بطريق البحر ، أو البر . ولما كانت تلك المدينة تقع فى سهول اليمن التى تشرف على البحر الأحمر كان سكان الشواطىء يفضلون أن يتزودوا منها بمؤونتهم لأن ذلك يجنبهم الرحلة الى عدن التى تقع وراء مضيق باب المندب (٩٢) . أما عن التجارة العامة فان هذه المدينة ( أى زبيد ) ظلت بالنظر الى موقعها على بعد يزيد على خمسة أميال من الشاطىء فى المرتبة الثانية ، وكانت عدن هى السوق الرئيسية الكبرى . وهناك تجرى مسافنة ( المسافنة ) نقل البضائع من سفينة الى أخرى ( المترجم ) لبضائع الشرق . وكثيرا ماتبتقل ملكية هذه البضائع من شخص الى آخر .

يقول المقرئى ، وهو كاتب حديث نسبيا ، ولكنه ضليح فى تاريخ مصر وجغرافيتها ، انه طوال الأزمان القديمة كانت سفن التجار الهنود

(٨٧) الادريسي ، ترجمة (I, 152), Janbert

(٨٨) ابن سعيد ( المتوفى عام ١٢٧٤ ) ، ذكره أبو الفدا :

Geogr. II, 2, p. 116.

Koulam انظر ابن سعيد ،

(٨٩) كان يصل الى عدن سفن قادمة من كولام

فى أبو الفدا

(٩٠) الادريسي : I, 51 : ابن الأثير فى

(Rec. des hist. des crois hist I, 597)

يسمى عدن سوق الهند ، وزنجبار ، والحشة ، وعمان ، وكيرمان ، وكيش . وفارس . الخ وفيما يخص بالصين ، يذكر مؤرخو أسرة سونج انه فى غضون هذه الفترة كانت السفن الصينية تتخذ الطريق من إقليم فو - كين الى جزر نيكوبار Nicobar ( ؟ ) فى أربعين يوما ، ومن هناك الى بلاد العرب ( زبما الى عدن ) فى ستين يوما . انظر :

Bretschneider. On the Knowledge, etc. p. 15 et s.

Arabian, I, 241.

(٩١)

Edrisi, I, 49.

(٩٢)

تلقي مراسيها في عدن • وأنها ، على ما يذكر الناس كافة لم تتجاوز أبدا هذا الميناء ، الا أنه في الأزمنة الأخيرة ، أى في القرن الخامس عشر بدأت تبحث عن مواقع للرسو داخل البحر الأحمر (٩٣) • وثمة سبب معقول كان يمنع سفن الهند من أن تتجه بحمولتها الى الساحل المصرى : ذلك أن الخليج العربى وهو الاسم القديم للبحر الأحمر - المترجم - مليء بالصخور • وكان المعتقد أنه من الخطورة أن تدخله سفن ذات حمولة كبيرة ، يقودها ربانية لا خبرة لهم بهذه النواحي (٩٤) • وعلى ذلك كانت منتجات الشرق تمشحن فى سفن صغيرة تمر من باب المنذب • وقد سبق أن ذكرنا أن هذه البضائع كانت تنتقل كثيرا من يد الى أخرى فى عدن ، والغالب أن ينتهز الهنود الذين يحضرونها فرصة وجودهم هناك ويبيعونها الى تجار عرب أو مصريين قبل أن يعودوا الى بلادهم • ومع ذلك كانوا يصحبون بضائعهم أحيانا حتى مصر ، ويبيعونها فى أسواق هذا البلد • وكان هذا الأمر كثير الحدوث ، فلم يكن وجودهم هناك يثير أية دهشة (٩٥) •

وكان طريق السفن المحملة بمنتجات الهند يلتقى فى وسط البحر الأحمر بطريق الحجاج الأفارقة الذهبين الى مكة • فقد كان الحجاج فيما مضى يسلكون الطريق البرى فى شبه جزيرة سيناء • غير أنه منذ أن احتل الفرنجة مملكة بيت المقدس ، وجعلوا يملكون سيطرتهم من وقت الى آخر حتى خليج ( العقبة ) ، شعرت القوافل بالخطر الذى يحيق بها • ومن ثم غيرت طريقها ، فجعلت تصعبه مجرى النيل ، ثم تعبر الصحراء التى تفصل بين النهر والبحر الأحمر وكان ميناء نزول الحجاج هو أيضا ميناء تفريغ شحنات منتجات الشرق ، وموقعه فى مصر العليا ويسمى عيذاب Aidab (٩٦) ، ويسود لنا أنه كان يقع فى مجاورات رأس عليية (٩٧) •

ويقول المقرئى ان سفن الهند واليمن كانت تفرغ شحناتها هناك ، ونسى أنه قال فى موضع آخر ان سفن الهند كانت تتوقف عند عدن • وكانت السفن العربية والمصرية هى التى تأتى من عدن الى عيذاب بالبضائع

De Sacy, Chrestomathie, arabe, II, 54. (٩٣)

I, 39, 331 : الادريسي (٩٤)

Thietmari iter in terram sanctam, éd. Tobler, p. 36 et s., (٩٥)  
éd. Laurent, p. 40.

(٩٦) الادريسي : I, 133 أبو الفدا (Geogr. I, 144) المقادى فى :

Quatremère, Mémoires sur l'Egypte, II, 162 et s. ;

Guilt de Tyr, XIX, 26.

Vivien de Saint Martin, Le Nord de l'Afrique, p. 262. (٩٧)

وبعض التجار القادمين من الهند ، ومن هناك ينقل التجار والبضائع على ظهور الجمال الى النيل عبر الصحراء .

ومن المؤسف له أن جويوم ( وليم ) الصوري ، والادريسي لم يذكر الموقع الذى تصل عنده القوافل على ضفاف النيل . وقد نفكر فى أسواز بحيث كانت المراكب النيلية تصعد النهر الى هناك ، كما كان هناك طريق من عيذاب الى أسوان عبر الصحراء ( ٩٨ ) . والواقع أن الادريسي ذكر هذه المدينة ، ولكنه قال انها المكان الذى تجرى عنده المبادلات بين مصر والنوبة ( ٩٩ ) . وثمة ثلاثة كتاب فى عصر قريب جدا من عصر الحروب الصليبية : هم سانونوتوالاكير ، وأبو الفدا ، وشهاب الدين ويذكر هؤلاء ، كما سنرى فيما بعد . مدينة قوص ( ١٠٠ ) الواقعة شمال أسوان على أنه كانت محطة فى طريق تجارة الهند . بل يروى الادريسي أنه كان يجرى فى قوص حركة استيراد وتصدير كبيرة ، كما كان يجد المرء بها حشدا كبيرا من التجار . ويضيف صراحة أنه كان بين عيذاب وقوص خدمة منتظمة من القوافل ( ١٠١ ) . ولما كان الثابت أن عيذاب كانت آتخذ موضع انزال منتجات الهند من السفن ، فانا لا نخطئ اذا قلنا انه منذ القرن الثانى عشر كانت قوص النقطة القصوى التى ينتهى عندها نقل البضائع عن طريق البر . وكان عبور الصحراء بين عيذاب وقوص يستغرق عشرين يوما على الأقل حسبما يقول الإدريسي ، وسببها عشر يوما على قول القريزى . ومن قوص تنقل البضائع على مياه النيل حتى ذمياط أو وشيد . ومن رشيد الى الاسكندرية طريقان : قناة الشابور التى يسلكها الملاحون بسهولة ، فى وقت الفيضان فقط ، وفرع طبيعى ( من النهر ) يصب فى حوضين على التوالي ، ويسمح للسفن أن تقترب الى مسافة ستة أميال تقريبا من الاسكندرية . وهذا الجزء الأخير من الطريق لا يمكن سلوكه الا بطريق البر ( ١٠٢ ) .

(٩٨) أبو الفدا . الادريسي I, 35

(٩٩) الادريسي I, 35

ومن المعلوم أن طريق الحج قد تحول بعد ذلك فى عصر سلاطين المماليك الى درب الحج بسيناء ، فحجت به شجرة الدر والظاهر بيبرس وقلادون والغورى ... الخ (للمراجع) (١٠٠) . هي أبوليتوبوليس بارقا Apollinopolis parva القديمة الواقعة على النيل أعلا كوبتوس Koptos فقط Kif t

(١٠١) الادريسي : I, 127, 132 et s.

(١٠٢) الادريسي : I, 28, 313, 326 et s. وأحسن ترجمة لهذا الجغرافى يمكن الرجوع اليها فيما يخص مصر ، نجدها فى الكتاب المعنون :



ويصف ماركو بولو الطريق التجاري من عدن الى الاسكندرية ( وان لم يكن قد رآه بنفسه ) . فقدم المعلومات التي سمعها من أفواه التجار الذين قابلهم غالبا في الهند أو في الخليج الفارسي . ويختلط الصحيح بالكاذب في هذا الوصف : فالثابت مثلا أن منتجات الهند كانت تنقل في عدن من السفن الكبيرة التي تأتي بها الى سفن أقل حجما وحمولة . والثابت أيضا أنه في الميناء الذي تفرغ فيه البضائع ، تنقل هذه على ظهور الجمال حتى النيل ، ثم تهبط النهر في مراكب تصل بها الى الاسكندرية . وهنا تبدأ المعلومات الكاذبة : فثمة معلومة تدل على أن المؤلف لا يتحدث عن شيء رآه بعينه . ففي النص الأصلي (١٠٣) يعتبر البحر الأحمر نهرا ، وفي الطبعة الثانية صحح هذا الخطأ على ما نعتقد ، بمعنى أنه لم يعد ثمة ذكر لبخر أو نهر ، وإنما هناك سفن فقط (١٠٤) . يلى هذا بيانات كثيرة ما أربكت المفسرين : فهو يقول انه يلزم سبعة أيام ملاحه بين عدن وبين موضع الرسو والابراج على الساحل الغربي لمصر ، وثلاثين يوما للنقل البرى بالقوافل من هذه النقطة الى النيل . غير أن أية سفينة تقطع من عدن يمكنها أن تصل الى مصوع في سبعة أيام على الأقل ، ويلزمها أسبوعان الى ثلاثة أسابيع على الأقل لتصل الى سواكن في أحسن الظروف (١٠٥) ، وأكثر من ذلك طبعاً اذا كان عليها أن تواصل سيرها الى النقطة التي كانت عندها عيذاب ، أو حتى الى القصير . ولنسلم جدلاً أن ماركو بولو كان يقصد مصوع : عند هذا تبرز للحال صعوبة ، ذلك أنه يستحيل من هذا الموقع الوصول في ثلاثين يوماً الى نقطة على النيل يبدأ النهر عندها يكون صالحاً للملاحة المتواصلة بلا انقطاع . وبإزاء هذه الصعوبة ، يفرض السيد ملتزان Maltzan النظر عن رحلة السبعة الأيام في البحر (١٠٦) ، ولكنه يؤيد مسيرة الثلاثين يوماً ، لأن هذا الرقم

= Edrisi; Description de l'Afrique :

et de l'Espagne, en arabe et en français, par Dozy et Goeje, Leyde 1866.

وتجد وصف الطرق المائية المؤدية الى الاسكندرية في صفحات ١٧٩ ، ١٨١ وما بعدها :  
(١٠٣) نشر بمعرفة « الجمعية الجغرافية الفرنسية » :

Recueil des voyages et des mémoires, I, p. 241

Ed. Pauthier, II, 703; cf. Yule, M. Polo I, cxix, II, 374. (١٠٤)

(١٠٥) هذا ما يؤكده السيد ملتزان Maltzan في دراسته :

— M. Polo's Angaben über Sudarabien und Habesch.

التي نشرت في : P'«Ausland» 1871, 10 Juill., p. 650 et s.

(١٠٦) اعتقد راموزيو Ramusio انه لا بد من اجراء تصحيح في نص السيد

بولو ، فقد غير « سبعة » الى « عشرين » ، وسمح لنفسه في هذا الجزء باجراء الكثير =

• يعادل على وجه التقريب مدة الرحلة التي تقوم بها قافلة من سواكن الى كوروسكو Korosko حيث يعود النيل صالحا للملاحة ، • وسواكن كما يقول مكان لرسو السفن وتفريفها • ويميل السيد يول Yule الى تأييد هذا الرأي (١٠٧) • ولسوء الحظ في تقدير السيد ملتزان ، فانا نملك حقيقة ثابتة تؤيدها شواهد أبو الفدا ، وشهاب الدين ، والمقرزي ، وسانوتو : ذلك أن نقطة وصول القوافل ، وقيام الملاحة النيلية لم تكن كوروسكو ، ولكنها كانت قوص ، وهي بلدة تقع في الشمال على نهر النيل ، يفصلها عن سواكن مسافة يستحيل اجتيازها في ثلاثين يوما • ومن جهة أخرى ، لدينا في شأن تحديده ميناء تفرغ السفن ما هو أفضل من أقوال ماركوبولو وتخميناتنا نحن: ذلك أن وليم الصوري Guillaume de Tyr يعين بالتأكيد عيذاب ، كما يؤكد الجغرافيون العرب الذين ذكروا قبله بشهادته هذه • وعلى ذلك فانا نسلم بأن الطريق الذي تحدث عنه ماركو بولو لم يكن سوى طريق عيذاب الى قوص (١٠٨) • والواقع أننا باختيار هذا الحل نقض النظر عن مسيرة الثلاثين يوما بعد غض النظر عن الملاحة سبعة أيام ، ذلك لأن الكتاب العرب يقدرون مسافة الطريق من عيذاب الى قوص كما رأينا بمسيرة ١٧ الى ٢٠ يوما •

كان المعروف في الغرب في كل زمان أن توابل الهند تصل الى البحر المتوسط عن طريق النيل ، الا أنه كان من غير المعروف البلاد الحقيقية المنتجة لها ، ومن ثم تناولت الأساطير بسهولة كل الحقائق التي عرضنا تاريخها في هذا الخصوص • قالتوابل مثلها مثل منتجات الأرض النفيسة ، تأتي بالتأكيد من الجنة • كما تبدو في التصورات الشعبية التي تعتبر نهر الفردوس ( Géhon في الكتاب المقدس ) والنيل نهرا واحدا ، ليس له وسيط • ولقد قيل ان التوابل تنمو على ضفاف النيل نفسه ، وتسقط من الأشجار على النهر فيجلبها تياره الى المناطق المعروفة ، ويسحبها المصريون بشباكهم من الماء • ولقد ألف جوائيل Joinville هذه القصة في كتابه عن تاريخ القديس لويس (١٠٩) ، وتحدث عن كل الأشياء الطيبة التي

---

= من التغيرات التي تنأى كثيرا عن النص الأول : من ذلك مثلا أنه يكتب دائما « القاهرة = de Caire بدل من بابليون أو بابيلونيا Babylonía, Bablyone ( ص ٤٦٦ ) التي يستخدمها دائما السيد يول •

M. Polo, II, 374. (١٠٧)

(١٠٨) الجدير بالذكر أن المقرزي ( تاريخ السلاطين المماليك ، الجزء الثاني ، ١ ، ص ٤٨ ) يحكى أن ثمة سفراء أرسلهم ملك اليمن الى بلاط السلطان قلدون ( ١٢٨١ ) ، ركبوا السفينة في عيذاب للمودة الى وطنهم ، وهذا رأى يتماشى مع رأينا •

Ed. de wailly (1874) p. 104. (١٠٩)

يجدها الانسان عند المصريين ، مثل القرفة ، والراوند ، والقرنفل ،  
 وحشب الصبر ، ولكنه يستهجن بيعهم للمغربيين بشمن غال جمداً أشياء  
 يجلبها لهم النيل ويلقيها بين أيديهم ، فيجمعونها بلا مشقة . ونسبت  
 الأسطورة خشب الصبر بنوع خاص الى هذا الأصل الفردوسى . فإذا عرف  
 فى بعض الأحيان مصدره الحقيقى ، كما كان من المتصور دائماً وجود صلة  
 غير منقطعة بين الهند وأثيوبيا ، كان من المسلم به دون تردد أن الشجرة  
 التى تنتج مثل هذا الخشب تنمو عند أعلى النيل ، وأن الغصون التى  
 تجففها أو تقطعها تسقط فى النهر ، وما على المصريين الا أن يلتقطوها ( ١١٠ )  
 وبقيت هذه الأسطورة راسخة بقوة ، خاصة بين الحجاج ، حتى فى زمن كان  
 لعالم التجار أفكار أصح عن البلاد المنتجة للتوابل ، وعن الكيفية التى تصل  
 بها التوابل الى مصر ( ١١١ ) .

وفى سوق الاسكندرية يتكسب معظم منتجات الشرق الآتية بطريق  
 النيل . ويقول وليم الصورى ان كل المطور ، والأحجار الكريمة ،  
 وسائر الأثمناء الثمينة التى لا توجد فى أوروبا ترد الى الاسكندرية عن  
 طريق البحر والنيل من بلاد الهند ، وسبأ ، وبلاد العرب ، وأثيوبيا ،  
 وفارس ، والبلاد المجاورة لهؤلاء ( ١١٢ ) . بل ان بعض المسافرين ، مثل  
 بنيامين دو توديل ، والنائب Vicedominus بوركارد Burkhard  
 الذى كان فى مصر عام ١١٧٥ سافرا للإمبراطور فريدريك بارباروسا  
 دهشوا من كمية التوابل التى تأتى بها المراكب النيلية القادمة من الوجه  
 القبلى قاصدة الاسكندرية ( ١١٣ ) . ويجوار الاسكندرية كان للمياط مركز  
 مشرف ، لا من وجهة التجارة العامة فقط ( ١١٤ ) ، ولكن بخاصة كسوق  
 لمنتجات الهند ( ١١٥ ) ، واستمر هكذا الوضع حتى أواخر الحروب  
 الصليبية : عندئذ فقط طرأ تغير سوف تتحدث عنه فيما بعد . ويعرض

Jaco. de Vitry, p. 1100 ; Platearius circa instans, dans ( ١١٠ )  
 Serapion, fol. ce XXIV, Verso; Gloses sur l'Antido-tarium de Niclaus.  
 p. cxxlv; Albertus M. de vegetabilibus, éd. Meyer et Jessen, p. 344 et s.

Ludalphe de Suthen, p. 60 ; Joh. Tucher, dans le Revs-buch ( ١١١ )  
 des heil. Landes, p. 369. Fel. Fobri, III, 136 et s. ; Breydenbach, p. 118.  
 Guill de Tyr, XIX, 26. ( ١١٢ )

Benj. de Tudèl, éd. Asher, I, 1٤7 ; Arnold, Lubec, dans ( ١١٢ )  
 Pertz SSI, XXI, 237.

( ١١٤ ) كان للمياط ، مثلها مثل سائر المدن التجارية ، سوقها Lunda حيث تخزن  
 كل السلع وتعرض للبيع . وحين اضطر السكان لالخلاء المدينة عند اقتراب جيش لأصليبيين  
 بقيادة القديس لويس ( ١٢٤٩ ) ، أشعلوا النيران فى هذه السوق . انظر :  
 — Jainville, éd de Wally. ( 1874 ), p. 90.

Chron, Ursperg, dans Petz, SS. XXIII, 380. ( ١١٥ )

جاك دو فنرى Jacques de Vitry أسقف عكا ، ومع « حوليات كولونيا الكبرى » les Grandes Annales de Cologne (١١٦) في هذا الموضوع لوحة تكشف المؤلفين عن معلومات جغرافية شديدة الغموض : فهم يتجهون عن سفن تصل من الهند الى دمياط مباشرة ، ومن هناك تعلق ثمانية الى سوريا ، وجزيرة قبرص ، وارمينيا ، واليونان ، في حين أن المراكب النيلية هي التي كانت في الواقع تحضر توابل الهند الى دمياط حيث تتسلمها سفن كبيرة تنقلها الى شواطئ البحر المتوسط . كذلك كانت رشسيد تتمتع وقتئذ في القرن الثاني عشر بازدهار تجارى كبير (١١٧) ، وليس لدينا شك في أنها تلعب بجزء كبير من هذا الازدهار الى ورود منتجات الهند اليها عن طريق النيل .

ولا بد أنه كان لوانى مصر جاذبية شديدة للأمم التجارية الغربية .  
 حقا كانت توابل الهند موجودة في سوريا أيضا ، ولكنها لا تصل اليها الا بعد رحلات برية كثيرة التكاليف ترفع كثيرا من أثمانها ، وكان في المستطاع احضارها بنفقات أقل من ذلك بكثير حتى مصاب نهر النيل ، فيكون سعر التكلفة هناك أكثر انخفاضاً ، حتى مع اعتبار الرسوم الجبركية التي كانت مرتفعة في مصر (١١٨) ، في حين لم تكن هذه الرسوم موجودة في سوريا بالنسبة الى عدد كبير من هذه المواد . نضيف الى ذلك أن الغربيين كانوا لهم ميزة الحصول في الوانى المصرية على حاصلات الأراضي المصرية ومنتجاتها الصناعية ، ولم تكن هذه المنتجات زهيدة القيمة ، كما سنرى . وكان هناك من جهة أخرى أرباح كبيرة تتحقق بتوريده بعض السلع التي كانت مصر مخرومة منها تماما ، رغم ما تتمتع به من ثراء ، وكانت أوروبا تزودها بها بكميات وفيرة ، ونذكر اثنين فقط من أهم هذه المنتجات : الخشب والحديد ، وهما مادتان لا غنى عنهما ، وكان لابل مصر من استيرادهما من الخارج (١١٩) .

كان في هذا ما يفرى الأمم التجارية الغربية ، ولكن توثيق روايت سلمية مع مصر لم يكن بالسهولة التي تبدو لأول وهلة . فطالما بقيت الدول

Jacq. de Vitry, éd. Bongars, p. 1128 ; Annal, Colon max., (١١٦)  
 Dans Peitz, SS. XVII, 833.

Edrisi, I, 326.

(١١٧)

(١١٨) في عام ١١٧٥ ، يقال أن جمرك الاسكندرية زود سلطان مصر بالكثير من

٨٠٠٠ مارك من الفضة الخالصة . انظر :

Arnold Lübeck, 1.c. p. 236.

Haython, Hist. orient., cap. 54 ; Sanuto, Sec. fidel, cruc. (١١٩)  
 p. 25, et Mémoire, dans Mas-Latrie, Hist de Chypre, II, 120 et s.

الصليبية ، كانت جارتها مصر عدوة لها بالضرورة . وفى البداية كانت مصر ضعيفة ، وعرضة لهجمات ملوك القدس ، ولا تملك تقريبا القدرة على الدفاع عن نفسها ، ولكنها أصبحت بالتدريج إحدى القوى العسكرية الكبرى فى العالم الاسلامى ، وأوقعت أكثر من مرة فرنجة فلسطين فى ضيق شديد . وكلما عظمت قوتها وصار جوارها خطرا على الدول الصليبية ، ازدادت كراهية العالم المسيحى لها . وكان العمل على اذلالها وخرابها فى نظر الغرب أول واجبات المسيحية ، كما كان الهدف الذى يتغياه قادة الحملات الصليبية الأخيرة .

وكانت الأمم التجارية ( الغربية ) تتساءل قبل أن ترتبط بعلاقات تجارية مع مصر ، هل تسمى بذلك الى باقى العالم المسيحى ؟ ألم يكن الذهاب الى مصر وشراء سلع بها ليزيد موارد هذا البلد ، اذ يربح التجار والمنتجون الوطنيون بذلك أموالا كثيرة ، كما تنتفع خزائن السلطان من حصيلة الرسوم الجمركية ؟ ألا يزود الغربيون على هذا النحو المصريين بأشياء ينبغي حرمانهم منها حتى لا تنمو قوتهم ؟ كان التجار الغربى الذى يجرؤ على الاتجار مع مصر يوصف حتما بأنه مسيحي فاجر . وكان السلاطين من ناحيتهم ، بترحيبهم بهؤلاء التجار ، يتعرضون لغضب المتعصبين من رعاياهم ، ويضطرون لمكافحة مشاعرهم . وحين أعد الغرب حملة بعد أخرى ضد مصر ، فهل اضطر هؤلاء السلاطين أن يتركوا التجار المسيحيين يمارسون بها تجارتهم فى أمن وسلام ؟ وحين كانت المدن والبلاد التى يخرج منها هؤلاء التجار هى التى تجهز الأساطيل والجيوش للحملات الصليبية ضد مصر ، ألم ينزع السلاطين الى الأخذ بثأرهم بالانتقام من هؤلاء التجار ؟

يتبين لنا إذن أنه من العسير قيام حركة تجارية بين أوروبا ومصر ، فكانت العقبات تأتي من الطرفين . ولكن الأمل عند الغربيين فى الحصول على أرباح جسيمة كان يبدا الكثير من المخاوف .

ومن جهة أخرى كان سادة مصر يتحملون ما يصيبهم من ويلات فى نظير الأرباح الهائلة التى تأتي بها التجارة لبلدهم وخزائنهم . وكان أكثر السلاطين حبا للقتال ، أولئك الذين يعتبرون أن رسالتهم هى سحق صليبي فلسطين ، يرحبون مع ذلك بهواطينى هؤلاء الصليبيين الذين يأتون عندهم للتجارة ، وبخاصة حين يحضرون معهم خشبا لبناء السفن ، وقارا وقطرانا ، ومعادن مختلفة ، وأسلحة . وما شابه كل ذلك . ولم يهمل السلاطين أية وسيلة لتشجيع الاستيراد ، من بذل الوعود لهؤلاء

التجار ليبيعوا بضائعهم بسرعة وبيع ، وخفض التعريفات لهم (١٢٠) .  
 ولا شك في أن جهودهم في هذا السبيل قد حققت النتيجة المرجوة .  
 وبعبارة أخرى كان كثير من التجار الأوروبيين لا يتورعون عن تزويد  
 المصريين بمعدات حربية تستخدم بالتالي في قتال الصليبيين (١٢١) .  
 ولا شك أن هذه الجرائم الضارة بالعالم المسيحي كانت تثير السخط  
 العام ، وحملت الكنيسة أكثر من مرة على التدخل ، بل أثارت نائرة المجامع  
 الدينية التي اعتبرت أن كل شخص يجرؤ في المستقبل على بيع حديد ،  
 أو سلاح ، أو خشب لبناء السفن ، أو سفن جاهزة للمسلمين ، أو يدخل  
 في خدمتهم بصفة قبطان سفينة يستحق عقوبة الحرمان ، فضلا عن  
 مصادرة أمواله ، وفقده حريته الشخصية ، كما يرخص لمن يقبض عليه  
 أن يحتفظ به عبدا له (١٢٢) . وكانت القوانين الكنسية تأمر بنشر هذه  
 الأحكام بصفة دورية في الموانئ ، كذلك أصدرت بعض المجامع الإقليمية  
 التي انعقدت في المناطق البحرية أحكاما بهذا المعنى (١٢٣) . ووجه البابوات  
 في منشورات مختلفة ، تحذيرات صريحة في هذا الصدد لسكان المدن

(١٢٠) انظر الوثائق البيزية التي سوف نتحدث عنها بالتفصيل بعد قليل :

— Amari, Dipl. arab., p. 243, 260, 264, 289.

(١٢١) يعرض صلاح الدين في خطاب بتاريخ عام ١١٨٢ موجه إلى الخليفة إلى أن البنادقة  
 والجنوبيين والبيزيين يستوردون إلى مصر منتجات ممتازة من الغرب ، وبخاصة أسلحة وأدوات  
 حربية ، الأمر الذي يفيد الإسلام ويضر بالمسيحية . انظر في ذلك :

Amari, Biblioth. arabo-sicula, p. 336 et s.

وكذا : — Storia dei Musulmani di Sicilia, III, 525 et s. :

هذا الشغف بالكسب الذي كان يسكت في ضمائر التجار المسيحيين كل وازع ديني  
 كان موضوعا لسخرية المسلمين ، انظر :

— Thadeus Neapolitanus, Hist. de desolatione  
 Civitatis Acconensis, p. 37 et ss. et la Bulle de Grégoire X publ. par  
 Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 267 et s.

(١٢٢) نجد هذه التهديدات مدونة على التوالي في القوانين الكنسية الصادرة في  
 المجامع الدينية العامة الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، والثالثة عشرة ( ١١٧٩ ، ١٢١٥ ،  
 ١٢٤٥ ) :

Mansi, Coll. cossil., XXII, 230, 1066 ; XXIII, 631.

(١٢٣) نذكر على سبيل المثال المجامع المنعقدة في مونبيلييه في ١١٦٢ ، ١١٩٥ ،  
 Mansi, XXI 1159 ; XXII 667,

وكذا في ثيقوسيا ( بقبرص ) في ١٢٥١ : المرجع السابق :  
 XXVI, 336.

التجارية (١٢٤) . ولم يكن في وسع السلطات في هذه المدن الا أن تردد هذه التحذيرات ، وتفرض عقوبات على كل من يسيئون استعمال حرية التجارة . فأصدر قنصل جنوا ( ١١٥١ ) : وببييرو زيانى Pietro Ziani دوج البندقية ( ١٢٢٦ ) لمواطنيهم مراسيم خاصة بهذا الشأن . فعل جايدى الأول Jayme Ier ملك أراجون الشيء نفسه لسكان مونتبيلييه ( ١٢٣١ ) ، وسكان برشلونة ( ١٢٧٤ ) ( ١٢٥ ) . وفرضت مدينة بيزا أحكاما رادعة لهذه الانتهاكات ، أولا في قانونها Brève لعام ١٢٨٦ ، ثم في قانونى عامى ١٣٠٥ ، ١٣٤٣ ( ١٢٦ ) . وعلى الرغم من هذه المجموعة الكبيرة من التهديدات الرسمية ، فإن لنا أن نشك في أنها أخذت مأخذ الجد ، وأن العقوبات المقررة طبقت بكل ما فيها من صرامة . ولعبت مدينة بيزا في هذه المسألة دورا كثير الغموض . ففي المعاهدات التي عقدها سفراء بيزا مع ملوك مصر ، كان نقل مواد بناء السفن ، والأسلحة الى مصر في السفن البيزية أمرا مضمرا باعتباره ممارسة مألوفة . أكثر من ذلك أن البيزيين تهادوا في معاهدة عام ١١٧٣ صراحة بتوريد هذه المواد ( ١٢٧ ) . والحقيقة أن الاغراء كان قويا بالنسبة اليهم ، لأن انتاج الحديد والصلب كان من صناعات بلدهم الرئيسية ( ١٢٨ ) .

وفي غير هذه الأصناف من السلع كانت التجارة مع مصر تعتبر أمرا مشروعا طوال الحروب الصليبية . ففي ذات مرة ، هدد البابا أنوسنت الثالث ( وهو في هذا الخصوص أكثر صرامة من غيره من الباباوات )

---

Innocent III aux Vénitiens, en 1198; Epist., éd. Baluze, 1, 306; (١٢٤)  
Gregoire X aux bourgeois de Gènes et à ceux de Montpellier en 1272, en Termes à peu près identiques (Raynald, Annal eccles a.h.a. no 13-16; Germain, Hist de commerce de Montpellier, I, 266 et ss.), à ceux de Narbonne (Port, Essai sur l'hist. du commerce maritime de Narbonne, 128).

Lib. jur, I, 158, Taf, et Thom. III, 260 et ss. ; Germain, Hist (١٢٥)  
de la commune de Montpellier, II, 39, not. ; Company, Memorias, II, 36 et s. : Thomas, Die ältesten Verordnungen der Venetianer für auswaertige Angelegenheiten, Abh. der Muenchen. Akad., Cl. I, sect. I, p. 139 et s.

- وبالنسبة للخشب ، يستثنى مرسوم من الحكومة الفينيسية لعام ١٢٨١ ( الرجوع السابق ١٤١ ) الأواني الخشبية والألواح التي لا يتجاوز طولها ستة اقدام .

Statuti Pisani, éd. Bonaini, I, 412 et s. ; III, 426, 578. (١٢٦)

Amari, Dipl. arab., p. 243, 260, 289; Doc. sulle relaz. (١٢٧)  
tosc p. 7.

(١٢٨) كان العرب يعرفون السيوف الفولاذية البيزية ، ويفضلونها على السيوف الهندية . انظر :

Gayangos, Etude sur Al-Makkari, I, 393 et s.

بالحرمان كل من يزاول التجارة مع المسلمين . غير أن جمهورية البندقية  
أوضحت له عن طريق سفرائها الضرر الذي يصيب رخاها من جراء  
اغلاق هذا السوق . ومن ثم وافق البابا ، مراعاة لصالحها أن يأذن  
لها - بصفة مؤقتة على الأقل - بالابقاء على الوضع الراهن ، وقصر التحريم  
على المواد الحربية (١٢٩) \*

ومع ذلك ، كانت الكنيسة تطالب من وقت لآخر ، أثناء الاستعدادات  
لحرب صليبية يوقف ارسال السفن التجارية الى مصر . وكان لابد للامم  
التجارية أن ترسخ لهذا الطلب ، لأن القصد من هذا الحظر هو توفير  
وسائل النقل الكافية للصليبيين ، ومنع المسلمين الذين يقاتلونهم من أن  
يتسللوا من الغرب ( في الوقت الذي تقوم فيه المعارك ) المعدات التي  
هم في أمس الحاجة اليها لمواصلة الحرب (١٣٠) \*

هذه الانقطاعات الوقتية لم تكن بالاجمال تعيق حركة الملاحة  
النشيطة بين الغرب ومصر الا بصورة عرضية . وقد يبدو أن عصر  
الحروب الصليبية لم يكن ملائما لهذه الحركة التجارية ، ومع ذلك فانها  
نمت نموا كبيرا في هذه الفترة بالذات . فالاسكندرية من قبل لم يكن  
يزورها سوى البنادقة والامالفيين والجنوئين ، ولكن منذ ذلك العصر  
راحت أمم كثيرة تشارك في نشاط هذا السوق الكبير ، ويذكر بنيامين  
دو توديل (١٣١) أنه رأى تجار حوالى ثمانية وعشرين بلدا أو مدينة في  
ذاك السوق . على أن ما كتبه طراً عليه تحريف كثير ، وهو لم يتبع  
الترتيب الجغرافي في تعداد هذه البلاد ، فيصعب أحيانا ، في الاسم  
الذي دونه ، معرفة البلد الذي يعنيه . وها هي الاسماء مرتبة حسبما  
ذكرها : البندقية (١٣٢) ، تسكانيا ، لمبارديا ، بوليا ، أمالفي ، صقلية ،  
راجوزا ( ؟ ) ، أسبانيا ، روسيا ( ؟ ) ، ألمانيا ، سكس (١٣٣) ، الدانمرك ،

(١٢٩) انظر بحالیه بيانات منشور بايوى لعام ١١٩٨ .

(١٣٠) انظر على سبيل المثال قوانين مجمع لاتران Latran لعام ١٢١٥ .

Mansi, I.c. XXII, 1066.

(١٣١) Ed. Asher, I, p. du texte hébreu, p. 157 de la traduction anglaise; II, p. 218 et ss, des annotations.

L'éd Asher porte "Valentia", mais la lecture du Cod. Bodlej. (١٣٢)  
«La Venecia» est préférable ; Riant, dans la Revue des quest. hist.,  
Janv. 1878, p. 101, not. 1.

(١٣٣) يدل شكل الكلمة على أنها لا تعنى إنجلترا .



جاليسيا ، الفلاندر ارتوا ؟ (١٣٤) نورمانديا ، ايل دو فرانس ، يواتو ، انجو ، برجانديا ، مين ، بروقانس ، جنوا ، بيزا ، وجسكونيا ، راجون ، نافار . وقد وضعت علامة استفهام بعد كل اسم لم استوثق من مدلوله . ولا بد لي أن أقول أولا اننى أشك كثيرا فى صحة هذه القائمة .

وإذا كانت البلاد والمدن التى تشرف على البحر المتوسط تزاول التجارة مع مصر ، فإن هذا الأمر مؤكده بالنسبة لبعضها ، وقوى الاحتمال بالنسبة الى البعض الآخر . وإذا كانت السفن الروسية قد تجاوزت القسطنطينية ، وواصلت سيرها حتى الاسكندرية ، فهذا أمر ليس بغريب كما يظن السيد أشير Asher (١٣٥) . ومن المحتمل أيضا أن تكون سكس - المقصود بهذا الاسم شمال ألمانيا - ممثلة فى الاسكندرية بعدد صغير من سفن بريمن Brémn أو كولونييسا Cologne . ولكن لا يسعنى أن أمضى فى الاحتمالات الى أبعد من هذا ، فمن المشكوك فيه كثيرا أن تكون الفلاندر قد أرسلت فى هذه الآونة سفنا تجارية الى مصر . أما بالنسبة للبلاد الأخرى مثل الدانمرك ، ونورمانديا ، ويواتو ، وجسكونيا ، ونافار ، وجاليسيا ، فلعله مما يبعث على الدهش أن تكون قد أسهمت بنشاط فعال فى تجارة البحر المتوسط . ولكن ما القول فى الأقاليم الواقعة وسط فرنسا ، مثل ايل دو فرانس ، وأنجو ، ومين ، والبورجنند ؟ الواضح أن بنيامين دو توديل قد دفعته الرغبة فى أن يعبر بصورة مؤثرة عن الأهمية الكبرى لمدينة عالمية كالاسكندرية تضم أجناسا عديدة فراح يبالغ فى ذلك ، وكان من العسير عليه أن يشبت أن بعض هذه البلاد اعتادت أن ترسل تجارا الى الاسكندرية ، وهو كسائح أصابها الدهش من منظر الحشد الخليلق من التجار الغربيين فى المدينة . وفى عام ٦١٢ هـ ( ١٢١٥ - ١٢١٦ م ) مثلا ، كان عدد الذين قدموا من هؤلاء الى المدينة لا يقل عن ٣٠٠٠ (١٣٦) . كذلك كان ميناء دمياط ثانيه حقا

---

(١٣٤) الكلمة العبرية تبدو أنها تقصد ارتوا **Artois** ، وهذا أمر طبيعى نظرا تقريبا من الفلاندر ، ومن السير معرفة كيف طرا على الكلمة تعديل بحيث سارت قتل على هانر **le Hainaut**

(١٣٥) هذا هو الباعث الوحيد الذى من أجله يزيل السيد أشير كلمة **Rusia** من النص ويستبدل بها كلمة **Rusijon** أى **Roussillen** ؛ وهذا مجرد افتراض إرد عليه بأنه منذ عهد قسطنطين بروفيروجنيت وابن خرداذبة كانت السفن الروسية تبحر حتى سورية .

(١٣٦) **Amari, Dipl. arab., p. IV, da'près la description de l'Egypte de Makrizi.**

من بوليا ، والبندقية ، واليونان ، وأرمينيا ، وسورية ، وقبرص لتأخذ السلع التى تجلبها المراكب النيلية (١٣٧) .

وتتناول الآن كل أمة تجارية على حدة ، ونبحث عما يتبنا به التاريخ عن علاقاتها بمصر . ومن أجل ذلك ينبغى لنا أن نعود الى العصر السابق على صلاح الدين ، حين كان الفاطميون مترعين على عرش مصر . فبالنسبة الى بعض المدن مثل أمالفى ، والبندقية ، وجنوا وهى التى وثقت علاقاتها بمصر منذ زمن قديم ، يمكننا أن نجزم بأنها حافظت على هذه العلاقات فى عصر الحروب الصليبية ، رغم أنه لم تصلنا أية وثيقة من أواخر الملوك الفاطميين أو اسلافهم ، فيها ذكر لامتيازات التجارية الممنوحة لمواطنى هذه المدن ، اذ ضاع الكثير من الوثائق العربية القديمة . واذا كان المطلوب معرفة كيف أمكن اثبات هذه الحقائق . فهناك مثلا مقيدا : ففى مكتب وثائق جنوا ، مجموعة من عقود فردية تنتمى الى الفترة من عام ١١٥٥ الى عام ١١٦٤ ، وفى هذه المجموعة وريقات عليها حروف عربية صادرة من مكتب موقق العقود جيوفانى Giovanni Scriba الذى نقل فقرات من أوراق اعتماد diplome عربية محررة برسم ديوان الانشاء Chancellerie فى عصر السلاطين الفاطميين . وبين سطور النص العربى ترجمة باللاتينية كتبت على ما يبدو فى أوائل القرن العاشر . وتدل بضعه السطور فى هذا النص والترجمة على أن الوثيقة كلها كانت اما كتابا موجها الى مدينة عربية ( قبل تكون مدينة جنوا نفسها ) ، واما نسخة لماهدة مع هذه المدينة ، يتعهد فيها سلطان مصر ببسط حمايته على مواطنى هذه المدينة الموجودين فى كل أنحاء مملكته (١٣٨) . وتشتمل الحزمة التى أودعت فيها هذه الورقة على عقود انشاء شركات بين بعض الجنويين لمشروعات تجارية بعيدة . وفيها نجد ما يثبت أنه خلال هذه السنوات التسع ( ومن قبيل الصدف . لم تحفظ أية عقود مشابهة عن سنوات أخرى ) كان يتردد كثيرا على مصر سفن تجارية من جنوا ، ربما أكثر من أى بلد آخر (١٣٩) ، ونجد فى هذه العقود اسم الاسكندرية يتردد ما لا يقل عن ست وستين مرة ، يذكرها الشركاء على أنها غاية الرحلة المزمع القيام بها . ولم يكن هناك أى ميناء آخر على البحر المتوسط يقصده الملاحون الجنويون بهذه الكثرة (١٤٠) .

La relation inédite d'Ascolin, citée par webb dans l'Ar- (١٣٧)  
chéologie de Londres, XXI, 401 Jacq de Vitry, l.c., Annal Colon.  
max, l.c. : Hopf. Choniques gréco-romanes, p. 38, not.

Amari, Dipl. arab., p. iii, iv; Atti della Società (١٣٨)  
Ligure, V, 633 et s.

Publiés dans les Monum. hist. patr. Chartae, II, 287 et ss. (١٣٩)

(١٤٠) لا يذكر اسم ميناء بوجى Bougle فى شمال افريقيا الا ثلاثين مرة ،

وتبقى اللواتى الأخرى بعيدة .

بل ان بعض هذه العقود ليذكر الموضوع الذى تم بشأنه التعاقد ، فيزودنا بمعلومات عن السلع التى يتناولها المشروع ، نرى فيها الغنفل ، وخشب البقم ، وجوز الطيب ، والقرفة والقرفنفل ، والشب ، الخ (١٤١) .

نذكر أيضا نطابين من المراسلات التجارية ، تاريخهما أقدم عشرين سنة من الوثائق التى شرحناها آنفا ، ومحفوظين فى مجموعة من الرسائل المخطوطة ( رقم ٢٥٠٧ ) بدار الكتب بفيينا (١٤٢) . هذان الخطابان متلها مثل مستندات المجموعة التى يمكن تحديده تاريخ كل منها بعام ١١٣٢ ويقدمان لنا مثلا للمراسلة بين شريكين جنوبيين ، أحدهما يباشر بنجاح الأعمال الاسكندرية ، ويتأهب للإبحار الى القسطنطينية مارا بجزر بالأرخبيل ( بحر ايجه ) ، أما الثانى ، امبرياكو Gugl. Embriaco فانه يضرب فى خطابه موعدا للأول فى القسطنطينية . ونجد فى هذين الخطابين برهانا آخر على وجود علاقات تجارية بين جنوا ومصر فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى . وحتى اذا فرضنا أن هذين الخطابين ليسا سوى نموذجين من المراسلات فان قيمتهما لا تقل من وجهة نظرنا ، لأن من عادة مؤلفى هذا النوع من المكاتبات أن يستعملوا موضوعاتهم من الحياة الواقعية . وهناك فضلا عن ذلك براهين أخرى ، خلاف هذه الوثائق المتعلقة بمصالح الأفراد ، كما تزخر الوثائق التاريخية بالفقرات المتعلقة بالنشاط التجارى بين جنوا والاسكندرية (١٤٣) .

ولا شك فى أنه البنادقة ، شأنهم شأن الجنوبيين كانوا يضاعفون رحلاتهم الى مصر سنة بعد أخرى (١٤٤) ، مع نمو تجارتهم نمو مطردا ، أما أمالى فانها المدينة الوحيدة التى تقر بأن علاقتها بمصر قد تباطأت بالتدريج الى أن توقفت تماما ، وعانت مما أصابها من تكبات سياسية .

وهناك غير هذه الأهم التى عرفت علاقاتها بمصر منذ أقدم العصور ، أم لا تظهر أسماؤها فى تاريخ تجارة مصر الا فى عصر الحروب الصليبية . ومع ذلك ، فربما كان من الضرورى لكى نعتز على بداياتها أن نرجع الى أزمنة أقدم مما يوجد فى الوثائق التى نملكها . ف فيما يتعلق بصقلية تزودنا وثيقة رسمية لروجر الثانى فى عام ١١٣٧ بلمحة

Mon hist. patr. l.c. p. 344, 346 514, 516, 520, 647, 767. (١٤١)

Wattenbach, Iter austricum, dans l'archiv fur Kunde osterr. (١٤٢)  
Geschichts quellen, XIV, 79 et s.

Marang, Annale Pis., p. 245, 253, 266 ; Annal Jan., p. 22, 89; (١٤٣)  
Trincherà, Syllab. graec membran., Neap. 1865, p. 146; Atti della Soc. lig., II, 2, p. 9, 365.

(١٤٤) كانت هذه الرحلات تتتابع فى فترات منتظمة .

عن وضعها وقتئذ . يتعهد روجر فيما يتعهد به في هذه الوثيقة الممنوحة للمدينة سالرنو مكافأة لها على إخلاصها له ولبيته أن يسعى للحصول على تخفيض الرسوم التي كان يدفعها في الاسكندرية لتجار تلك المدينة ( سالرنو ) بالفئة المحددة لتجار صقلية ( ١٤٥ ) . وعلى ذلك ، ففي عام ١١٣٧ كان الصقليون يتمتعون في مصر بتخفيض في التعريفات . وإذا كان روجر قد بر بوعده ، فلا بد أن سكان سالرنو قد حصلوا بالتالي على نفس الامتياز . ويقول المؤرخ أن هذا الملك عقد بعد بضع سنوات معاهدة مع ملك مصر ، وجنى منها شرفا وكسبا ( ١٤٦ ) . ولا نخطيء كثيرا إذا استخلصنا من هذه العبارة أنه حصل على تخفيضات جديدة لصالح التجارة في بلده . حدث اثر ذلك أن أغارت بعض أساطيل صقلية على السواحل المصرية ، ونهبت بعض المدن ( ١٤٧ ) ، وحاصرت الاسكندرية بضعة أيام ( ١٤٨ ) ، غير أن هذا لم يكن سوى سحابة عابرة ، فسرعان ما عادت الحركة التجارية بين مصر وصقلية الى نشاطها السلمي المعتاد ، يشهد لنا بذلك بنيامين دو توديل ، واستمرت كذلك زمنا طويلا بعد زوال الأسرة النورماندية الحاكمة .

أما بيزا ، فانها ربطت علاقات بمصر في النصف الأول من القرن الثاني عشر ، ان لم يكن قبل ذلك ( ١٤٩ ) . وفي عام ١١٥٤ استقبل الخليفة الفاطمي أبو المنصور اسماعيل الظافر ، ووزيره عباس الزيري في بلاط مصر سفيراً بيزيا اسمه زانيري بوتاكى *Ranieri Bottacci* . يحمل رسائل من رئيس الاساقفة فيللانوس *Villanus* وقناصل بيزا . ولكنه لم يكن أول سفير بيزي يظهر في هذا البلاط . وأثار وصوله بعض الدهش لأنه ، خلافا لعادة أسلافه قدم على ظهر سفينة حربية ، في حين كان الآخرون يجيئون في سفن تجارية عادية وكان الغرض من

( ١٤٥ ) — *Archiv. Venet.*, VII, (1874), p. 366; voy aussi VIII. (1874), p. 134. *Ughelli, Italia sacra*, VII, 399.

( ١٤٦ ) *Romuald, Salern, dans Pertz, SS, XIX 424.*

( ١٤٧ ) في عامي ٥٤٨ ، ٥٥٠ ( ١١٥٣ - ١١٥٤ ، ١١٥٥ ) انظر .

*Amari, Dipolomi arabi*, p. 458; *Wustenfled Gesch, der Fatimiden Chalifen*, 3e part., dans les *Abh der Gott. Ges, der Wiss, XXVII*. (1881), p. 92 et s., 98.

En 1174; voy *Guill, de Tyr. XXI 3* ; *Annal. Pis.*, dans *Pertz, SS, XIX, 266*. *Annal Costm, ibid*, p. 312 ; *Michaud - Reinaud, Blioth. des crois*, IV, 172 et s.

*Michele Amari ... I diplomî arabi del R. Archivio Fio-* ( ١٤٩ )  
*rentino (Firenze 1863)*, documenti degli archivj toscani.

مهمته تسوية بعض الخلافات التي تعاني منها العلاقات القديمة التي تربط الامتين . ففي العام السابق كان تجار بيزيون في سفينة مع بعض رعايا الخليفة ، فقتلوا الرجال منهم وأسروا النساء والأطفال ، واستولوا على ما معهم من بضائع : وأخذ الخليفة بثأر رعاياه في شخص التجار البيزيين المقيمين في مصر أو المارين بها ، ومن ثم انقطعت حركة التجارة ، وطالبت الحكومة المصرية بمعاوية المذنبين قبل أن تصرح بعودة الحركة . وأراد السفير أولا أن يتفاوض بكبرياء ، ولكنه اضطر أخيرا أن يتنازل ، ويقسم بأن يقدم الترضية المطلوبة (١٥٠) ، وبهذا الشرط فقد التزمت الحكومة المصرية ، في حالة تكرار مثل هذا العدوان الا تتخذ إجراءات ثأرية فورية ضد التجار البيزيين ، وأن تعطى مهلة سنة واحدة لتتيح للمسلطات البيزية الوقت الكافي للتعويض عما يقع من أضرار ، وتقديم الترضية الكافية . كذلك اضطر بوتاكى أن يتعهد بالا يقدم بلده أية مساعدة لفرجة سورية أو غيرهم في أية حملة يقومون بها ضد مصر ، واحتفظت الحكومة المصرية بالحق في معاملة كل بيزى تجده على متن سفينة حربية أو يكون قرصانا على أنه عدو لها ، وصرحت بأن التجار والحجاج المسافرين في سفينة مسالمة هم وحدهم الذين يستحقون التمتع بحمايتها ، وعلى هذا الشرط يمكن أن يستعيد التجار البيزيون للحال خندقهم في الاسكندرية ، أو ينتفعوا بفندق ثان في القاهرة ، ولهم مطلق الحرية - بعد سداد الرسوم والضرائب المقررة - أن يبيعوا بضائعهم في جميع أنحاء الاقليم ، أن يحملوها معهم اذا لم يجدوا من يشتريها . ولم يكن ثمة استثناء لهذا الحكم الا بالنسبة الى الحديد والخشب والقار ، اذ كان خروجها من البلاد ممنوعا ، وعليهم أن يسلموها لموظفي الجمارك المصرية الذين يتعين عليهم شراؤها بسعر السوق . وبعد إبرام هذه المعاهدة ، قام بوتاكى برحلة أخرى الى سورية حيث كان عليه أن يتفاوض للحصول على بعض الامتيازات لصالح تجارة بلده (١٥١) ، ومن هناك عاد الى بيزا .

وتأكيدا لعودة التفاهم الودى احضر معه قارورة ملاءي بيلسم ثمين حصل عليه من بعض الناس ، وأعاد معه خمسة وعشرين شخصا من مواطنيه تمكن من اطلاق سراحهم . وفي حوزتنا خطاب حرره أحد كبار الموظفين المصريين ، وهو غالبا حاكم الاسكندرية ، وسلم الى السفير

M. Langer (op. cit., p. 52 et s.); Stat. Pis ined. éd. Bonaini (١٥٠)  
p. 3, 24 ; Annal. Pis. 2F3; Annal Jan, 64, 65, 86, 87, 89.

Doc. sulle relaz. tosc., p. 6 ; ibid, p. 80 ; M. Langer, op. cit., (١٥١)  
p. 53, not. 4.

نفسه ، أو ربما أرسل إليه عقب عودته • ونقل محرر الخطاب النقاط الرئيسية في المعاهدة ، ثم وصف ظروف المعاملة الطيبة التي يلقاها البيزيون في مصر في كل زمان ، وتمتعهم باحترام حقوقهم وعاداتهم ، وتخفيض الضرائب مرة بعد أخرى على تجارتهم ، فيقول انه حتى في الوقت الذي حرر فيه هذا الخطاب كان الروم . والمسلمون يدفعون من الضرائب أكثر مما يدفعه البيزيون . ويؤكد الفائدة التي تعود على هؤلاء من المعيشة في مصر في جو من السلام والألفة . وممارسة تجارة مريحة (١٥٢) • نذكر أيضا وثيقة أخرى لعلها تنتمي الى العصر نفسه : فقد صدر الأمر الى قاضي الاسكندرية في بضعة سطور ، أن يقدم للبيزيين العون والحماية لترميم فنادقهم ، ولسائر الأمور بوجه عام (١٥٣) •

وبعد رحيل رانيري بوتاكى بوقت قليل ، قتل الوزير عباس مولاة الخليفة الظاهر ( ١٦ من أبريل سنة ١١٥٤ م ) ونصب في مكانه على العرش ابنه ( ابن ضعيته ) ، أبو القاسم عيسى الفائز بنصر الله . البالغ من العمر خمس سنوات فقط : بغرض تسيير أمور البلاد حسب مشيئته • ولكنه لم يتمتع طويلا باغتصاب السلطة : ففي ٣٠ من مارس من السنة التالية أطاح به طلائع ابن رزيق الأرمني • وتولى الوزير الجديد الحكم حتى عام ١١٦٠ باسم الخليفة الفائز ، وبعثت اليه حكومة بيزا بالسفراء ، وسعت الى اكتساب مودته ورعايته كما فعلت مع سلفه • وقد استقبل السفراء في مصر أحسن استقبال . ولما عادوا الى بلدهم حملوا معهم أثمان أنواع الدهون التي أهديت لهم لاستعمالها في حفلات القدس ، واستصحبوا معهم بعض أسرى الحرب الذين أطلق سراحهم تكريما لهم • كذلك سلمهم الوزير رسائل لحكومتهم ، أكد فيها أن الحرب التي شنها عليه الفرنجة لن تغير شيئا من سلوكه حيال التجار البيزيين ، وأنه سوف يستمر في حمايتهم ومعاملتهم بروح الصداقة (١٥٤) •

Amari, Dipl. arab., p. 241-249; (١٥٢)  
Benincasa, biographe de Ranieri (Acta SS. Boll., jun. III, p.  
421 et ss. voy. p. 439, 454).

Amari, p. 290. (١٥٣)

- يضع أماري هذه الوثيقة في ص ٢٩٠ دون أن يذكر أى شيء عن تاريخها

(١٥٤) هذه الرسائل محررة في ٢٠ مارس ١١٥٥ و ٢ نوفمبر ١١٥٦ (Amari, p. 250-254) وأثبتت بها محررا اسمها أبو الجرات طلائع ولقبه «ملك الصالح» الذي استخدمه عندما تسلم مقاليد الحكم ( ٤ يونيو ١١٥٤ ) • وفي الرسالة الأولى يذكر اسم سيده ، الخليفة الفايز ، ويذكر انه اسقط الوزير ( عباس ) وابنه ( نصر ) - انظر في ذلك :

ويبدو أن مملكة بيت المقدس لم تنظر بعين الرضا الى علاقة المودة بين بيزا ومصر (١٥٥) . ففي عام ١١٥٦ عقدت معاهدة بين بيزا وبلدوين الرابع (١٥٦) ، لوضع حد لسلسلة من الخلافات ، وربما من الأعمال العدوانية المكشوفة ، غير أن الملك احتفظ لنفسه صراحة بالحق في مصادرة الحديد ، وخشب السفن والقار التي يمتز عليها في سفن بيزية متجهة الى مصر ، دون أن يكون لحكومة بيزا الحق في الشكوى من هذا الاجراء بدعوى أنه انتهاك للسلام . ومع ذلك حانت لحظة أصبح فيها اهتمام بيزا بكل ما يحدث في مصر فرصة للتقارب بينها وبين مملكة بيت المقدس . ويتعين علينا أن نشرح ذلك في بضع كلمات . ذلك أن ذولة الفاطميين كانت وقتئذ تسير بخطوات واسعة نحو الفناء ، إذ أصبح الخلفاء منذ زمن طويل مجردين من كل سلطة عن طريق وزراءهم . الا أنه لم يستطع أى من هؤلاء الوزراء أن يحتفظ بمنصبه . وحين وجد أحدهم ، ويدعى شاور ، أنه على وشك السقوط طلب معونة نور الدين ، أقوى ملوك سورية وبلاد ما بين النهرين المسلمين . وبفضل جيوش نور الدين بقيادة مساعده شيركوه نجح في سحق خصومه ، ولكن شاور لم يف بوعوده ، بل عمل على التخلص من شيركوه ، ولم يجد وسيلة لذلك أفضل من الاستعانة بحليف جديد ، ذلك هو عمورى Amoury ملك بيت المقدس الذى كان له مصلحة كبيرة فى جلاء القوات السورية سريعا من مصر : ذلك لأنه اذا نجح نور الدين فى بسط سيادته على البلد ، فان مملكة بيت المقدس سوف تجد نفسها محصورة ومهددة من جميع الجهات . لذلك استجاب عمورى لنداء شاور ، وقام فى عام ١١٦٥ بحملة ضد شيركوه وحاصره فى مدينة بلبيس ، ولكن هذا الحصار ما لبث أن فشل . وفى عام ١١٦٧ كشف نور الدين جيسارا عن مشروعاته ، فأرسل جيشا جديدا الى مصر تحت امره شيركوه . وهب عمورى للقتال ، يعاونه فى هذه المرة البيزيون الذين سعى الى التحالف معهم بنوع خاص بسبب قوتهم البحرية . وفى هذه الحملة استولى شيركوه على الاسكندرية ، وعهد بحراستها الى ابن أخيه صلاح الدين .

= Aboulfeda, l.c. Hist. patr. Alex. p. 520 ;  
Bull. de Tyr, XVIII 9 ; Michaud — Reinaud, Bibl. des crois., IV  
102, 104 ; Amari, p. 456 ; Wustenfeld, Fatimiden, 3e part op.  
cit., p. 98.

(١٥٥) شوهد أيضا فى ذلك العصر سفن مصرية فى بيزا ، ذكر ذلك تيقولاس ،  
قس تجيرار فى ايسلند Tingheyrar الذى زار بيزا أثناء اذائه الحج فى روما وبيت  
القدس . انظر :

— Werlauff, Symboloe ad. geogr. medij avi, p. 21.

Doc. sulle relaz. tosc. p. 6 et s.

(١٥٦)

أما عمورى فإنه حاصرهما بمعاونة الأسطول البيزى ، ولكن المدينة قاومت الى أن تم عقد الصلح : وكان أول شروط المعاهدة اقصاء صلاح الدين (١٥٧) . وكان بود البيزين أن تبقى هذه السوق المشهورة فى قبضة عمورى : ذلك لأنه رغم ما كان يديه لهم الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم من عطف ومودة ، لم يرغب عن خاطرهم أن يضعهم يكون أفضل بكثير فى ظل سيادة فرنجية .

غير أن المعاهدة أعادت الاسكندرية الى الخليفة الفاطمى . ولما لم يستطع البيزيون أن ينالوا ما كانوا يفضلونه ، فانهم اسهموا فى حل المشكلة - أى عقد معاهدة الصلح - ولم ينس الخليفة هذا الاسهام من جانبهم ، واعترافا منه بجميلهم أمر بتخفيض كبير فى الضرائب لصالح التجار البيزين فى القاهرة (١٥٨) ، بينما كافأ عمورى حلفاءه فممنجهم امتيازات فى عكا (١٥٩) . ومن المحتمل أن يكون سينبالدس Sinibaldus سفير عمورى قد حصل فى شهر يناير ١١٦٨ من البيزين على وعد بأن يستمروا فى التعاون معه ، رغم مشاكلهم الداخلية ، فى مقابل منحهم امتيازات جديدة (١٦٠) . وفى شهر أكتوبر تلقى الملك من بيزا ، وهو يتأهب لغزو مصر من جديد مددا من فرق عسكرية وسفن حربية ، فأغار على مدينتى بلبيس وتنيس الغنيتين ( ٤ نوفمبر ) ، واستولى عليهما ، وتركهما فريسة للنهب والسلب . ولكنه اضطر لرفع الحصار عن القاهرة ليسرع لنجدة مملكة بيت المقدس . التى كانت مهددة من جانب سورية . ( ١٦١ ) فى عام ١١٦٩ شن عمورى غارة ، بمساعدة البيزين غالبا ، مثلما حدث فى الغارات السابقة ، ولكنها فضلت بصورة مزرية تحت أسوار دمياط (١٦٢) . وأعاد الملك الكرة بضراوة شديدة ، وتخيل نفسه سيدا على مصر ، وراح يوزع مسبقا على

- 
- Guill, de Tyr, XIX 5, 7. 12-31, Hist regni hieros, dans (١٥٧)  
Pertz, SS. XVIII, 50 et s. ; Marang., Ann. Pis., ibid XIX, 257; Amari,  
Dipl. arabe, p. II et-s. ; Weil, Gesch. d. Chalif, IV 320 et ss.; Wilken  
G.esch., d. Kreuzz., III, 2, p. 82 et ss.
- Marang., l.c. (١٥٨)
- Doc. sulle relaz. tosc. p. 14. (١٥٩)
- Marang., l.c. (١٦٠)
- Guill, di Tyr, XX 5-11; Marang., p. 258; Wustenfeld,  
Fatimiden, op. cit., p. 112 et ss. (١٦١)
- Wilken, Gesch. d. Kreuzz., III, 2, p. 128 et ss. ; wustenfeld, (١٦٢)  
op. cit., p. 121 et s.



رفاقه (١٦٣) المدن والأقاليم والغنائم ، ويبدل الوعود للبيزيين ، بمنحهم أحياء في القاهرة القديمة ، والقاهرة الجديدة ، والحق في القضاء القنصلي ، وكنائس ، وحمامات ، الخ ، ثم الاعفاء من الضرائب في الاسكندرية ، ودمياط ، وتينيس . والى أن يتحقق كل ذلك وعد بأن يصرف لهم اعانة سنوية قدرها ألف دينار بيزنطي تؤخذ من إيراداته في القاهرة القديمة والجديدة (١٦٤) : أحلام جميلة لم يتحقق أى منها .

وكانت نتيجة الصراعات التي جرت في مصر سقوط الدولة الفاطمية ولم يستفد عمورى من سقوطها ، إذ آلت السيادة الى صلاح الدين ابن أخى شيركوه المشهور وخليفته . وكان شيركوه أولا قائد جيوش نور الدين ثم الوزير الأكبر لآخر سلاطين الفاطميين ونجح بعد وفاة السلطان في ٦٤ من سبتمبر ١١٧١ في الاستيلاء على العرش . وبالنسبة الى الفترة المعاصرة لحكم بين بيزا ومصر ، أما معلوماتنا عن سائر الأمم فإنها أقل من ذلك بكثير .  
 فى عام ١١٧٣ ذهب سفير بيزى يسمى الديبرانوس (Hilderprando) الى بلاط صلاح الدين لكى يحصل لمواطنيه على تسهيلات مختلفة في التجارة ، وتناشى السلطان سلوكهم ابان الحرب الأخيرة ، فوافق على عقد معاهدة جديدة (١٦٥) ، ضمننت للبيزيين المقيمين بالاسكندرية امتلاك فندق ، وخمام ، وكنيسة ، وتمتعهم بحرية العبادة ، ورخصت لهم باستعمال موازينهم ومكاييلهم ، وشجعت استيراد منتجات الغرب الى مصر ، وبخاصة الحديد والخشب والقار ، وأعفت البيزيين من كل الضرائب على ما يستوردونه الى مصر من ذهب وفضة ، ولكنها ألزمتهم بأن يقدموا للجسمارك عند رحيلهم ما يتبقى معهم من نقود . وأخيرا وضع صلاح الدين حدا لمختلف ضروب العسف التي كان البيزيون ضحيتها ، من مطالب الجسمارك المرهقة ، واجبارهم على بيع بضائعهم للحكومة بأقل من السعر الجارى ، ومنعهم بالقوة من الرحيل .

وبعد الديبرانوس ، توالى ثلاثة سفراء بيزيين ، من ١١٧٦ الى ١١٨٠ ، وكان من مهامهم الرئيسية تخليص أسرى الحرب ، والحصول بنوع خاص على اجراءات نافعة لمصالح الجالية في الاسكندرية ولأمن التجارة . وفى حوزتنا الاجابات المؤيدة لهذه الطلبات ، والصادرة

Paoli, Cod. dipl., I, 48-50; Streehlke, Tab. ord. teuton., p. 6 (١٦٣) et s.; en Egypte; Abou-Tai, rapporté dans Michaud-Reinaud, Bibl. des crois, IV, 128.

Doc sulle relaz. tosc., p. 15; d. d. 15 sept. 1169. (١٦٤)

Amari, p. 257 et ss. (١٦٥)

أما من صلاح الدين نفسه ، أو في غيابه من أخيه الملك العادل ، وأبلغ بها السفراء . ولسوء الحظ كانت هذه الاجابات مصوغة بعبارة عامة ، فهي لا تتبنا بأى شيء جديد من وجهة التجارة في ذلك العصر (١٦٦)

وعلى غرار بيزا ، استمرت جنوا والبندقية تراولان تجارتها مع مصر في عهد صلاح الدين ، وعقدتا مع هذا الأمير عن طريق سفرائهما معاهدات فقلت نصوصها الأصلية . من ذلك أن الدوج سيباستيانو زيانى Sebastiano Ziani عقد - حسب ما قاله أحد المؤرخين (١٦٧) - صلحا متينا مع سيد بابيلون ( أى القاهرة ) ، وأمير المسموديين Masmoude (١٦٨) . وليس هناك بالنسبة الى الأول احتمال للخطأ ، فهو صلاح الدين ، وأما بالنسبة الى الثانى ، فلا بد أن الأمير الموحدى الحاكم وقتئذ ، وهو أبو يعقوب يوسف ، ابن المغازى المغربى الكبير عبد المؤمن . وفى عام ١١٧٧ أرسلت جنوا السفير روبيس دى فولتا Rubens de Volta (١٦٩) . والواقع أنه لا يمكن استخلاص أية نتائج من هذه الوقائع الفردية لصالح النشاط فى العلاقات التجارية . ولن نلح كثيرا على قصة أخ لصلاح الدين استتعان بوساطة جندى اسمه روجيرونس Ruggeronus لمبادلة كمية من الشب المصرى ببعض منتجات الغرب (١٧٠) . غير أننا نجد لذلك دلالة أكثر صدقا فى خبر من أخبار غزوات صلاح الدين فى فلسطين : فقد كان من بين الأسرى

(١٦٦) توجد أول هذه الرسائل فى « أمارى » Amari ص ٢٦٤ ويحمل تاريخها ( رجب ٥٧٢ هـ ، من ٥ ديسمبر ١١٧٦ الى ٣ يناير ١١٧٧ م ) ، ويعطى صلاح الدين لنفسه اسم يوسف : تبعاً لما ذكره بهاء الدين ، وأبو الفدا ، يبدو أن هذا هو بالفعل اسمه . والرسالة الثانية محررة فى ١٦ من شهر رمضان ٥٧٤ ( ١٥ من فبراير ١١٧٩ ) ، وتوجد فى :  
(Pagnini, Della decima, II, 201 et s. : Amari,

أما الرسالة الثالثة ( أمارى ، ص ٢٦٧ ) فتاريخها شهر شوال عام ٥٧٥ هـ ، p. 265 et s. ( من ٢٩ فبراير الى ٢٨ مارس ١١٨٠ ) . وربما كان هناك رسالة رابعة سابقة للثلاث رسائل الأخرى ، وقد فقدت : وفى هذه الرسالة يمنح السلطان البيزىين « مزايا كبيرة ومسكن مريحة »

Hist. duc. Venet, dans les Monum. Germ. hist., SS XIV, 81. (١٦٧)

Pertz, SS. VI, 455; XIX. 310 et ss., 429. (١٦٨)

Annal Jan, p. 98. (١٦٩)

(١٧٠) سقط روجيرونس فى أيدي القراصنة البيزىين ، ومع شحنة من الشب . وأرشد صلاح الدين فى هذا الخصوص الى بيزا سفيرا مكلفا بتسليم رسالتين نجدهما فى (Amari p. 262 et s)

الذين أخذوا في عسقلان وفي مدن أخرى جنوبى فلسطين خمسمائة أسير من سلالة فرنجية ، فأرسلهم السلطان الى الاسكندرية ( فى خريف ١١٨٧ ) ، وأمر بأن يركبوا من هناك سفنا غربية تذهب بهم الى أوروبا .

ونعلم بهذه المناسبة أنه فى غضون شتاء ١١٨٧ - ١١٨٨ كان فى ميناء الاسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قدمت من جنوا وبيزا والبندقية ومين غربية أخرى (١٧١) . هذا العدد من السفن لا يبدو فى ذاته كبيرا ، ولكن اذا علمنا أن الغالبية الكبرى من التجار كانوا يزاولون أعمالهم فى مصر فى الفصل الملائم ، وأن ربابنة السفن يفضلون قضاء الشتاء فى بلادهم عن قضائه خارجها ، فاننا نميل الى التسليم بأن مئات السفن وليس سبعا وثلاثين سفينة فقط كانت تتجمع فى ميناء الاسكندرية فى فصول الربيع والصيف والخريف .

هذه الحقيقة تتيح لنا أيضا أن نوضح المدى الذى وصلت اليه الريبة من الغربيين عند سلطات الاسكندرية ، رغم كل ما كانت تبديه من تأكيدات بالود والصداقة . فقد رفض ربابنة السفن تسلّم أسرى عسقلان البائسين فى سفنهم ، لأن هؤلاء الأسرى لم يكن معهم نقود أو «وَن» ، ولكن حاكم الاسكندرية كان يملك وسيلة للضغط عليهم ، فقد رفض أن يعطيهم دواقل السفن (عوارض الصواري) وسكانها (دفتها) حتى يتلقى منهم وعدا بأن يقلوا مواطنيهم بسفنهم ، ويعاملوهم معاملة لائقة فى أثناء الطريق . وهكذا كان حاكم الاسكندرية يجبر كل سفينة قادمة أن تودع عنده تحت حراسته دواقل السفينة والسكان ، وهذى طريقة ناجحة لمنع أصحاب السفن والتجار من مغادرة البلد قبل سداد الضرائب كلها ، ولضمان تنفيذ الاجراءات الثارية على تجار أمة ثبت ارتكاب أحد مواطنيها عملا ضارا بأحد الرعايا المصريين . وكان هذا الاجراء ساريا حتى عام ١١٨٨ ، وقد وعد صلاح الدين بالفائه منذ عام ١١٧٣ بالنسبة الى البيزيين بنوع خاص . نرى من ذلك أن التجار الغربيين كانوا يشعرون فى عهد السيادة الاسلامية بأنهم أشبه بمسجونين فى مصر ، وأنهم لم يتمتعوا فيها بلحظة واحدة من الأمن التام .

---

Contin. de Guill. de Tyr, p. 101-103 : cf. l'extrait de l'His- (١٧١)  
toire des patriarches d'Alexandrie, dans Michaud — Reineaud, Biblioth.  
des crois, IV, 213.

— نجد أمثلة تثبت وجود هذه الحركة التجارية لبعض الأفراد البنساقفة فى سنتي  
١١٨٨ ، ١١٨٩ فى المقرد الفردية المدرجة تحت رقمى ٨٣ ، ٨٦ فى :  
l'Archiv. Veneto, XX, 54 et s., 57.

وتفجرت الكارثة التي حدثت منذ زمن بعينه الدول الصليبية في فلسطين ، وكان ذلك في أعقاب حملة صلاح الدين المظفرة ، والتي كان من نتيجتها استئثار حملات صليبية جديدة . كان المقصود أولا استرداد أقصى ما يمكن استرداده من الأراضي المقدسة ، وكان هذا في ذاته مهمة عسيرة للغاية : واقضى الأمر على الأقل جرأة رجل مثل ريتشارد قلب الأسد ، أخذ يفكر في الهجوم مباشرة على مصر عقب الاستيلاء على عكا . ومع ذلك ناقش الأمير مشروعه هكذا مع مورينو دي بياتزالونجا Morino di Piazzalunga قنصل جنوا ، وبذل أقصى جهده للحصول على معونة الجمهورية في الحملة التي أزمع القيام بها في صيف عام ١١٩٢ (١٧٢) . وبقيت الأمور مؤقتا في نطاق المشروع ، إلا أن ثمة أحداثا جديدة أثبتت أن مصر هي أخطر عدو للدول الصليبية . وشيئا فشيئا انضمت صحة الفكرة التي تقدم بها ريتشارد حتى قيل بصراحة أنه يجب ضرب مصر في الصميم ، وأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتخليص الأرض المقدسة من هذا التهديد الدائم . والمعروف أن الفكرة التي نجمت عنها الحملة الصليبية الرابعة التي نظمها الفرسان الفلمنكيون والفرنسيون كانت تستهدف مصر ، وأن المفاوضات التي جرت مع الدوج داندولو حين عرض أن يتحالف معهم كانت تنقيا هذا الهدف (١٧٣) .

وفي هذه الأثناء ، مضى الأمير الكسيوس الذي طرد من القسطنطينية يلتمس معونة صهره فيليب أمير سوابيا Souabe الذي أصر على أن يعين له من يحميه . فاتخذ الدوج هذا الاصرار ذريعة لكي يحول الحملة الصليبية عن غايتها . والواقع أنه كان للبنديقية مصلحة سياسية في الدرجة الأولى من الأهمية في أحداث تغيير في نظام الحكم بالقسطنطينية ، وكانت عازمة على الثأر لضروب الاذلال والاهانات التي أوقعها بها طاغية القسطنطينية . وبمساندة جيش كبير ، لا يتساح للجمهورية أن تجد مثله ، يمكنها أن تملئ ارادتها على ضفاف البسفور : وكانت فرصة ذهبية لا يجوز لها أن تتركها تفلت من أيديها ، وأدرك ايزيكو داندولو ذلك . وفي دراسة حديثة للكونت ريان Riant (١٧٤) تحدث عن الرجل الذي جعل للحملة الصليبية هذه الوجهة غير المتوقعة ( ثم انه جعل المسئولية في ذلك على امبراطور ألمانيا أكثر مما جعلها على الدوج ) ،

(١٧٢) انظر الوثيقتين بتاريخ ١١ أكتوبر ١١٩١ في (Lib. jur., I, 365 et s.)

وتؤكدان ، جزئيا على الأقل للمشروعات الكبيرة التي نسبها سالتو الى هذا الأمير :

Rob. Clary, dans Hopf, Chron. gréco-romanes, p. 5 ; Geoffroy (١٧٣) de Villehardouin, éd. de Wailly, p. 18.

Innocent III, Philippe de Souabe et Boniface de (١٧٤) Montferrat (Revue des questions historiques, 187 s.)

فذكر في شأنه كلمة « الحيانة » . وقد يكون هذا الاتهام صحيحا لو ثبت أن ذاك الرجل استطاع أن يتكهن بسير الأحداث ، ويفترض أن الصليبيين سوف يتوقفون عند القسطنطينية ، ويجدون أنه يستحيل عليهم العودة الى مشروعاتهم الأولى . نعم ، قد يكون هناك ما يدعو للحديث عن الخيانة لو أن الموج تأثر بوعود السلطان . قيل ان المؤرخ ارنول Ernoul الذى ينتسب الى العالم المسيحي فى سوريا ، ومؤرخين غيره نقلوا منه ، أو كتبوا فى نفس الاتجاه الفكرى ، تحدثوا عن سفارة مصرية يقال انها ذهبت الى البندقية حاملة هدايا نفيسة فى وقت تجمع جيش الصليبيين ، وأغرقت البنادقة بمزايا عظيمة ، ومكاسب هائلة فى الاسكندرية ، بشرط أن يستخدم الموج نفوذه ليعبر طريق الحملة الصليبية (١٧٥) . ولم تكن حجة المؤرخ الذى روى هذه القصة من القوة بحيث يمكن الوثوق بصدق أقواله ، وبخاصة إزاء الصمت الذى راعاه فى هذا الموضوع كل المؤرخين الرئيسيين الذين كتبوا عن الحملة الصليبية الرابعة .

ومن جهتى ، أعتقد أن قصته ليست الا مجموعة من الاشاعات التى كانت رافحة فى بيئته بسورية . ونحن نلحظ تماما غضب المسيحيين فى ذاك البلد من البنادقة بعد الفعلة الدنيئة التى اقترفوها باستيلائهم على امدادات كانوا فى انتظارها بفروغ صبر ، وقد فسرت تصرفات السلطان الملك العادل : فحيثما كانت هذه التصرفات مجرد اجراءات طبية اتخذت فى مقابل خدمة أدت بطريق غير مباشر ودون تدبير مسبق ، رأت بعض النفوس المتحيزة فى هذه التصرفات ثمنا لخيانة متفق عليها مقلما . ويبدو واضحا أن ارنول لم يفعل أكثر من أن يدون على الورق كل ما قاله الناس عن هذه التدبيرات المخادعة (١٧٦) . وأراد البعض فى زمن غير بعيد أن يؤكد هذه القصة بما ورد فى بعض الوثائق الخاصة بالعلاقات بين البندقية ومصر ، والتى نشرها لأول مرة السيدان تافل Tafel ، وتوماس Thomas (١٧٧) ، ولكننا لا نجد فى هذه الوثائق سوى تعداد للامتهيازات التى حصل عليها من الملك العادل

Ernoul et Bernard le Trésirier, éd. Mas-Latrie, p. 345, 362; (١٧٥)

Contin de Guill de Tyr, p. 251, 265; Chron. gall. inéd,

(aut. Baudouin d'Avesnes), dans Taf, et Thom, I, 332; Balduinus Constantinopolitanus dans la Chron. Flandr., éd. Smet (Rec. des chron de Flandre. T. I), p. 132.

L'étude de M. de Wailly, à l'Académie des Inscriptions, (١٧٦)  
Publiée dans la 2e édition de Villehardouin (Paris, 1874 in 4e,  
p. 430 et ss.)

Taf et Thom I.I, 185-189 : Mas-Latrie, Traité de paix et de (١٧٧)  
commerce, Suppl., p. 70 et ss.

سفيران بندقيان : مارينو داندولو ، وببييترو ميشيل ، وليس فيها كلمة واحدة يمكن أن يستخلص منها أن هذه المهمة سبقتها سفارة بعث بها السلطان الى البندقية (١٧٨) . ثم انه يجب البدء بتحديد الزمن الذي جرت فيه هذه المهمة ، مهمة داندولو وميشيل ، لأن الوثائق لا تحمل أى بيان بالتاريخ . ورأى المحررون الأوائل فى هذه الوثائق بيانا بالاستعدادات لقيام حملة صليبية كان على البنادقة أن يزودوها بالسفن ، وسلموا بأنها هى الحملة التى استمرت من ١٢١٧ الى ١٢٢١ ، وتبعاً لهذا الاستنتاج ، جددوا تاريخ المهمة بعام ١٢١٧ (١٧٩) . ويقول الكونت ريان (١٨٠) ان الحملة الصليبية الجارى اعدادها وقتئذ يحتمل أن تكون الرابعة . وقد أوضحت من قبل (١٨١) أن الفقرة التى تستند اليها هذه التفسيرات لا يمكن أن تنطبق على صليبيين ، لأن السلطان لا يمكن أن يضمن سلامتهم على اقليمه ، ولكنها تنطبق على الحجاج الذين تنقلهم سفن البندقية طوال العام على الأراضى المقدسة (١٨٢) . واعتقد السيدان هوف Hopf وستريت Streit (١٨٣) أنها وجدا فى أول هذه الوثائق بنوع خاص بيانات تثبت أنها تنتمى الى الحرب الصليبية الرابعة : مثال ذلك انها يقولان ان داندولو ، تبعاً للدور الفائق الذى لعبه فى الحملة الصليبية الرابعة هو الشخص الوحيد الذى ينطبق عليه بعض النعوت من قبل :

**Leo fortis, dux prudens, miles militum, prudens comestabilis,**  
**exercitus Christianorum.** (أسد شجاع ، قائد حكيم ، جندى باسل ، رفيق عاقل ، مسيحي تقى ) .

غير أن الأسلوب الجزل الذى يميز الرسائل الرسمية للملك الشرقى كان شيئاً معروفاً ، ونحن نعرف ما ينبغى أن نفهمه منها . ففى رسالة للسلطان الى بييترو زيانى ، خليفة داندولو ، نرى هذا الأخير متحلياً بالصفات الآتية :

— miles militum, custos militia Christianorum.

M. Hopf (art. Griechenland, op. cit., lxxxv, p. 188). (١٧٨)

Taf. et Thom., II, 184 et s. (١٧٩)

Op. cit., p. 129 du tirage séparé. (١٨٠)

Colon, commerce., II, 183, not. 2. (١٨١)

Taf. et Thom., II, 187; Revue historique, IV .1877), p. 92. (١٨٢)

Streit, Venedig und die Wendung des vierten Kreuzzugs gegen Constantinopel (Anklam 1877), suppl. C, p. 49. (١٨٣)

## Gubernator Christianorum

( جندي باسل ، حامى حمى المسيحية ، الحاكم المسيحى )

ويخاطب السلطان الدوج جاكوبو تيبولو بهذه العبارات :

— le lion et lo pro, capitaneus militum et capitaneus de lege Christianorum.

( الأسد القوى ، قائد الجيش ، والقائد المسيحى ) ( ١٨٤ )

كل هذه العبارات متشابهة ، ويزعم السيد هوف أن معاهدة التجارة المشارة إليها قد أبرمت بالقاهرة فى ١٣ من مايو ١٢٠٢ ، وأن الأمير سعد الدين المكلف بالحصول على تصديق على المعاهدة سافر فى الحال الى البندقية فوصلها قبل قيام الحملة الصليبية (فى أول أكتوبر ١٢٠٢) : فلو ثبتت صحة هذا النبأ لكانت مسألة التاريخ محلولة . ولسوء الحظ فان حكاية هذه الوقائع ليس الا مجموعة من الأخطاء . فبهذا البيان الأخير ، لم يعتمد هذا البيان الا على تفسير غير صحيح للوثيقة الرابعة : فلم يكن بالمرّة ثمة سفارة ، بل بالعكس ، كان الأمر مجرد خطاب أرسله السلطان الى فيض الدين Faieddin أمير الاسكندرية ( وليس سعد الدين ) يأمره باسكان البنادقة فى القندق الجيهيد الذى منحوه ، وأن يشرح لهم حقوقهم التى يتعين على خلفاء هذا الموظف أن يراعوها . وعلى ذلك فان قصة سفارة مصرية مبعوثة الى البندقية هى قصة مختلقة ، حتى بالشكل الذى عرضه السيد هوف . وعلى العكس من ذلك فان البعثة الفينيسية صحيحة : فهى حدث ايجابى ، ولكن ينبغى أن نعرف ما اذا كانت قد حدثت قبل رحيل جيش الصليبيين . ولست أرى شيئاً فى الوقائع يشهد بصحة هذا الرأى ويجعلنا ننكر التاريخ الذى يستخلص من مجموع الوثائق الأربع . ثم ان الوثيقة الثانية هى بالاجمال الوحيدة التى لا تحتوى على أى تاريخ : ونقرأ فى نهاية الوثيقتين الثالثة والرابعة عبارة ١٩ شعبان ، والتاريخ فى الوثيقة الأولى أكثر وضوحاً :

decima nona Saben, mensis Martii

وقد ابان السيد ريان (١٨٥) أنه فى عهد الملك العادل ( ١٢٠٠ - ١٢١٨ ) حدث ثلاث مرات فقط أن وقع يوم ١٩ من شعبان فى شهر مارس ، وكان ذلك فى السنوات ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ . فلو أردنا نسبة الوثائق الى عام ١٢٠٢ مثلما فعل السيدان هوف وريان لوجب

Taf. et Thom., II, 185, 190, 191, 337.

(١٨٤)

L.c., p. 129.

(١٨٥)

تصحيح كلمة *Martii* وجعلها *Madii* . أما السيد ستريت *Streit* الذى اختار عام ١٢٠٣ فإنه اضطر أن يجرى هذا العمل نفسه (١٨٦) . ولكن اذا اكتفيننا باتخاذ التاريخ كما هو ، فإن الوثائق المعنية تنتمى لا الى عصر ايزنيكو داندولو ، رغم النوع الفخمة الطنانة التى أضيفت على الموج ، كما بينا من قبل ، ولكن الى عصر بيبيترو زيانى ( ١٢٠٥ - ١٢٢٩ ) . وكان من شأن التغيير الذى حدث فى اتجاه الحملة الصليبية ، والثورة التى اندلعت على ضفاف البسفور أن حولت عن امارات السلطان خطرا داهما . ولما انقضى كل شيء ، لم يفت الموج أن يستفيد مما حدث لدى السلطان ، ويتمسك بالحقوق الكبيرة التى اكتسبتها البندقية نظير اعتراف مصر بأفضالها . وكلف داندولو وميشيل بالذهاب للمطالبة بتأييد قوى لهذه الحقوق . فهل كانت بعثتهم هذه فى عام ١٢٠٦ أو ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ ؟ لا بد أنها كانت فى احدى هذه السنين الثلاث ، حتى لا يؤزل النص تاويلا خاطئا . ومن ناحيتى ، أميل مع السيد هانوتو *M. Hanoutaux* (١٨٧) الى عام ١٢٠٨ : فالواقع أنه فى الوثائق التى ندرسها يمنح السلطان الملك العادل نفسه القاب :

(*rex regum-dominus imperatorum — et amicus miri*  
*Amamoni — Amicus de Mir-momoni*)

غير أن هذين اللقبين « ملك الملوك » و « صديق أمير المؤمنين » لم يسندا الى السلطان الا فى عام ٦٠٤ هـ (١٨٨) الذى يبدأ فى ٢٨ من يولية ١٢٠٧ ، بحيث يقابل يوم ١٩ من شعبان يوم ٩ من مارس ١٢٠٨ . ويزعم الكونت زيان أنه من المستحيل أن يكون مارينو داندولو قد عقد معاهدة صلح فى مصر يوم ٩ من مارس ١٢٠٨ ، ذلك لأنه فى شهر فبراير من السنة نفسها كان فى البندقية حيث وقع بامضائه كشاهد فى عقد هبة (١٨٩) . وأنا أؤيد ذلك ، بشرط أن يشهد أولا أن مارينو داندولو كان فى الحاليتين شخص واحد بذاته ، فقد كانت أسرة داندولو كبيرة بحيث أنه قد يكون هناك شخصان من هذه الأسرة يحملان اسما واحدا ، فى وقت واحد .

(١٨٦) *Op. cit., p. 32 ; Taf. et Thom., I, 246 et ss.*

(١٨٧) ( ذكرت التواريخ تما للتقويم الاغريقى : ٢٧ سبتمبر -  
*Nov. ind. 2, ann. 6707.*  
*L.C., p. 96.*

(١٨٨) *Annal muslim., IV, 224. M. Streit — op. cit p. 49.*

استخدم السيد ستريت هذه العبارة دون أن يوليها اهتماما آخر .  
*Revue des questions historiques, Jany. 1878, p. 102 et s. (١٨٩)*



ولا بد أن السلطان كان راضيا بالخدمات التي أدتها لدولته جمهورية البندقية ، أو بتصريحات سفرائها الودية ، لذلك أصدر أوامره بأن يعامل التجار البنادقة في مصر كلها باعتبارهم وعائيا أمة صديقة ، كما منحهم تخفيضا في الضرائب ، وفندقا ثانيا في الاسكندرية ، إذ كان لهم فيها فندق من قبل (١٩٠) . وبعد قليل أرسل الى الدوج بيترو زيانى رسالة يجدد له فيها آيات عرفانه بجميله ، ويهدى عزمه على أن يخص البنادقة بامتيازات تفوق ما لسائر الأمم منها . وبالفعل رحب بكل الطلبات التي قدمها له سفير جديد من قبل الدوج بيترو أرباني Pietro Arpani ، قدم في عام (١٢١٧ ١٩١) .

وسوف ندرس بنوع خاص العلاقات بين البندقية ومصر ، بعد أن نعود لحظة الى الموضوع العام . لقد أدى تكرار الحملات الصليبية الى حالة من التوتر الدائم في العلاقات بين مصر والعالم المسيحي الغربي ، وكانت الحكومة المصرية تنظر بعين القلق الى الزيادة المطردة في عدد الفرنجة بالاسكندرية ، مما أثار أعمال العنف التي ارتكبت في عام ٦١٢ هـ . (١٢١٥ - ١٢١٦ م) . وكان في الاسكندرية ما لا يقل عن ٣٠٠٠ تاجر أفرنجى . ففي ذات يوم وصل الى الاسكندرية سفينة على ظهرها سيدان كبيران من الغرب ، وإرتاب السلطان الملك العادل في أنهما يعتزمان القيام بهجوم عسكري مفاجئ على المدينة ، بالاشتراك مع هؤلاء التجار ، ومن ثم ألقى بهما في السجن ، ومعهما كل التجار ، وصصادر كل ما يملكون (١٩٢) .

كان هذا الارتياب في محله ، ونجد برهانا على ذلك في إحدى وقائع الحملة الصليبية التي شنها عامي ١٢١٨ ، ١٢١٩ مسيحيو سوريا والغرب للاستيلاء على دمياط ، مفتاح نهر النيل . وكان الحصار شاقا ، طويل الأمد ، وبين القائمين به كثير من الإيطاليين ، من جنسوا ويزا والبندقية (١٩٣) . وأخيرا استسلمت المدينة (في ٥ من نوفمبر ١٢١٩) ،

(١٩٠) تفترض معاهدة ١٢٢٨ كحقيقة ثابتة امتلاك البنادقة

(Taf. et Thom., I, 196.)

فندقين ، ويؤكد هذا صحة تفسيرنا للفقرة المثبتة بحالته ، رغم انتقادات السيد هانوتو يجعل السيد ستريت أول هذه الوثائق في عام ١٢٠٦ وثانيها في عام ١٢١٧ : أما السيد ريان فانه يجعل الاثنتين في عام ١٢١٧ ( ص ١٢٨ ) .

Taf. et Thom. I, 190-193.

(١٩١)

Amari, Dipl. arab., p. lv, d'après Makrizi

(١٩٢)

(١٩٣) في خصوص تفاصيل حصار دمياط ، انظر :

Wilken, Gesch. der Kreuzz., VI.

Bibl. des écoles franç. d'Athènes et de Rome, fasc. 19 p. 125.

وفرح أهال هذه المدن ، لا باعتبار ذلك نصرا عسكريا ، ولكن باعتباره عملا مفيدا للتجارة مع مصر . فالواقع أنه ابتداء من هذه الآونة ، لوحظ في الأرض المقدسة أن التجار الذين اعتادوا القدوم إليها ، قد هجروها إلى دمياط (١٩٤) . وكانت الأربعون سفينة بندقية التي دخلت ميناء دمياط في شهر مايو ١٢٢٠ تنتمي إلى كل من الأسطول التجارى والأسطول الحربى . ولسوء حظ العالم المسيحي ، فإنه لم يهنا طويلا بنصره هذا : فقد أراد جيش الصليبيين أن يتوغل في داخل البلاد ، فأرسل حملة لقيت مصيرا مؤلما ، وكان أول نتيجة لهذه الكارثة سقوط دمياط في يدى السلطان ( ٨ من سبتمبر ١٢٢١ ) : وعينها قاومت حامية المدينة حتى النهاية . والعجيب أن الذين عارضوا بشدة في تنفيذ التسليم كانوا هم بالذات ممثلى المدن التجارية الإيطالية الثلاث ، وبخاصة البنادقة (١٩٥) .

وهكذا لم ينجح المسيحيون بالمرّة في احتلال دمياط ، ولكن محاولتهم هذه تركت في مصر سخطا شديدا ، وتحمل مسيحيو مصر عبء هذا السخط كله (١٩٦) ، وعمول التجار المسيحيون بنوع خاص معاملة لعلها أسوأ من ذى قبل . ومن جهة أخرى ، ورغم أن نجاح الصليبيين لم يكن إلا نجاحا مؤقتا ، فقد قيل في الغرب أنه ليس من المستحيل إذن احتلال مدينة مصرية ، وأن هجوما عنيفا يمكن أن يجعل الساحل كله تحت سيطرة المسيحيين . تلك هى دون شك البواعث التى حظرت من أجلها حكومة البندقية على رعاياها كل عمل تجارى مع مصر فى اللحظة التى كان فيها فردريك على وشك القيام بحملة صليبية التى أعد لها العدة منذ بضع سنوات ، وأن الأوان لوقف امداد العدو بمعدات المقاومة . ولم يكن محظورا فقط على كل تاجر أن يحمل إلى مصر اثشابا للبناء ، وحديدا ، وقارا ، ومواد أخرى والاعترض لعقوبة النفى ، ومصادرة أمواله ، ولكن اذا تجرأ أحدهم على مخالفة الحظر ، كان لاي شخص الحق فى أن يقبض عليه ، كما توقع عقوبة المصادرة بحكم القانون على كل

(١٩٤) لم يفض عام على وقوع دمياط فى قبضة المسيحيين حتى أرسل قسواسوسه ومطارنة فلسطين رسالة الى فيليب أوجست ( اول أكتوبر ١٢٢٠ ) انظر :

(١٩٥) Chron. Turon, dans le Recueil des hist de la France, XVIII 302.

Raynaldi Annal. eccl. ad. an 1223, n. ٧ (١٩٦)

من يشتري سلعا مستوردة من مصر (١٩٧) . وبالغت حكومة البندقية في هذه الاجراءات ، ففي غضون هذه السنوات ( في حوالى ١٢٢٤ ) حظرت على أصحاب السفن ( ومجهزها ) ، وكل قبطان أن يرسلوا أية سفينة الى مصر . وفي عام ١٢٢٧ أيدت هذا الحظر وأذنت بالمرور لشخص قابل سفينة متجهة الى مصر فاستولى عليها وحرقها (١٩٨) ، وحظرت شراء أية بضائع في مصر ، وأمرت بصادرة مواد مستوردة من مصر ، أينما تم الاستيلاء على تلك المواد ، حتى ولو كان مالكوها قد حصلوا عليها مستعملة من قبل (١٩٩) .

ولم يبدأ تنفيذ الحملة الصليبية التي طال التأهب لها الا في عام ١٢٢٨ . وأديرت شئون الحملة بكيفية انتزعت منها مقلما أية فرصة للحصول على نتائج جدية . فبدلا من مهاجمة مصر ، عقد فرديريك الثاني اواصر صداقة مع السلطان الحاكم وقتئذ ، وهو الملك الكامل . ولكن مهما كان الحكم على السلوك العام لهذا الأمير ( أى فرديريك الثاني ) في الشرق ، فلا بد من الاعتراف بأن سياسته هذه كانت أكثر صلاحية للتجارة من غزو الموانئ المصرية ، لأن السيادة المسيحية لم تستطع أبدا البقاء بها .  
أدبا طويلا .

ولسنا نملك لسوء الحظ الا القليل جدا من المعلومات بشأن المفاوضات التي جرت بين فرديريك الثاني والملك الكامل : اذ يسود غموض تام كل ما انعقد بينهما من اتفاقيات قبل الحرب الصليبية . أما بخصوص الامتيازات التي حصل عليها الامبراطور بالطريق الدبلوماسية أثناء اقامته بسورية ، فانا نعرف عنها الخطوط الرئيسية ، ولكن لم يصننا نص المعاهدة نفسها . ولا بد أن هذه المعاهدة كانت تحتوى على بنود خاصة بالتجارة ، وليس في ذلك أدنى شك . فمن جهة كان فرديريك مهتما بوجه عام بازدهار تجارة الامبراطورية . ومن جهة أخرى ،

(١٩٧) في شهر مارس ١٢٢٦ ارسل الدوج بييترو زباني هذا الحظر الى حاكم كريت في صورة مرسوم جديد ، انظر :

Taf et Thom, II, 260 et ss. ; Romanin, Storia di Venezia, II, 439 et ss.

ولم يصلنا النص الاصل ، ولكننا نملك الدليل على القسوة التي طبقت بها الامراء الصادرة ، ذلك انه في شهر يولييه ١٢٢٦ خصصت سفينة مراقبة ما يرتكب من مخالفات لهذه الامراء في البحر الادرياتي انظر في ذلك :

Lib plegiorum, p. 102.

Lib plegiorum, p. 36, 39, 40, 41, 49, 52, 68, 75; 77; 78, 79; 125 (١٩٨)  
124, 141 : Monumenta spectantia historiom Slavorum meridionalium, I, 93 ; III, 394.

Lib, Plegiorum, p. 87 et s., 89, 91, 93, 114, 116, 119. (١٩٩)

يروى المقرئى (٢٠٠) - وهو مؤرخ فى زمنه بعض الشيء - أن الامبراطور طالب منذ بدء المفاوضات بالاعفاء التام من الضرائب لرعاياه فى الاسكندرية ودمياط ، ولكن طلبه قوبل بالرفض . وفى هذا اثبات كاف على أن المسائل التجارية قد نوقشت ، غير أنه تنقصنا النتيجة النهائية للنقاش .

ومع ذلك فليس من المستحيل إعادة تشكيل هذا الجزء من المعاهدة ، على الأقل بطريق الحدس . وكيفية ذلك أنه فى عام ١٢٩٠ عمل بعض سفراء الفونس ، ملك أراجون - استناداً الى اتفاقية انعقدت بين فردريك الثانى والملك الكامل - على عقد معاهدة صلح وصدافاة مماثلة ، بين سيدهم وبين السلطان قلاوون الذى كان يتولى الحكم وقتئذ ، وسلم اليهم لهذا الغرض نسخة من الاتفاقية التى كان أصلها مودعا فى سجلات الدولة المصرية (٢٠١) . وفى حوزتنا نص الاتفاقية (٢٠٢) ، والمطلوب معرفة الى أى مدى استنسخ النموذج الأصلى . فمن عصر الى آخر تغير الوضع ، ومن ثم أجرى بطبيعة الحال بعض الحذف من جهة ، والاضافة من جهة أخرى ، وكانت البنود الخاصة بالتجارة هى التى طرأ عليها أقل قدر من التغيير . نرى على سبيل المثال فى معاهدة عام ١٢٩٠ أن ملك أراجون يرخص لرعاياه ولسائر الفرنجة أن يصدروا لمصر خشباً وأسلحة (٢٠٣) ، وحديداً ، ويسمح فى العقود التى تحرر فى بلاد اسلامية بين أفراد ينتمون الى عرشه وبين تجار مسلمين ، بالاتزام باحكام الشريعة الاسلامية ( المادتان ١١ ، ١٣ ) . ومن المؤكد حسبما

Michaud — Reinaud, Biblioth des croisades, IV, 430. (٢٠٠)

Amari (La guerra del vespro siciliano, 8e éd., Fir. 1876, (٢٠١)  
Doc. XXXI, T, II, p. 332 et ss.; Bibl. arab. sic. trad, I, I, 548 et ss.)

— هذا الجزء من التاريخ غامض بعض الشيء ، ومع ذلك يتبين أن معاهدة أبرمت فى عهد الملك الكامل توضح أسس الاتفاقية الجديدة . هذا صحيح ، ولكن هذا الأمر لا يتعلق بمعاهدة عقدها روجر دى اميسيس باسم فردريك الثانى . انظر فى ذلك :

— M. Amari, l.c. 429; Huillard — Bréholles, Hist. dipl. Frid., II, introd. p. cclvi et s. et Schirrmacher, Friedrich II, III, 197; Winkelmann, Acta imp. ined. sac. XIII, p. 653 661 et s.

— لا يمكن ، تبعاً لهذه المصادر أن يكون دى اميسيس قد أوفد الى مصر بصفته سفير قبل اواخر عام ١٢٤١ ، ومن ثم فهو لم يجد الملك الكامل على عرش مصر بل وجد ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

Amari, l.c. : silv. de Sacy, l.c. : Wilken, Gesch. der Krfeuzz., (٢٠٢)  
VII, suppl. p. 17 et ss.

Gayangos, notes à l'éd de Al-Makkari, I, 393 et s. (٢٠٣)

هو معروف عن طبيعة فردريك الثاني ، أن تكون هذه النصوص مقتبسة من معاهدته . وليس في المعاهدة بين أراجون ومصر ما ينص على خفض أو إلغاء الرسوم الجمركية ، بل على العكس كان المتفق عليه أن يدفع تجار أراجون الرسوم المقررة بالكامل عنده وصولهم وخروجهم ، أو حتى عنده مرورهم فقط ببهننتي الاسكندرية وديياط وغيرهما من الأماكن الواقعة على حدود البلاد الاسلامية ، وذلك طبقا للتعريفات التي حددتها أخيرا ادارة الجمارك ( المادة ١٨ ) .

وكما نعرف ، لقي فردريك الثاني مقاومة شديدة حين أراد أن يحصل لرعاياه على الاعفاء من الرسوم الجمركية عنده وصولهم الى مصر ، ولا يبدو من ثمة أنه حصل على تخفيفات ذات قيمة . ومع ذلك فالتأنيب أن علاقات المودة التي وثقها حتى وفاته مع الملك الكامل أولا ، ثم مع ابنائه وحلفائه كانت مفيدة لرعاياه ، وأنهم وجدوا في مصر ترحابا ومعاملة طيبة (٢٠٤) . بل كان الامبراطور نفسه يشتغل بالتجارة ، ويستغلها لصالحه الشخصي . ومن صقلية كان يرسل الى مصر سفنا تابعة له ، رست واحدة منها في الاسكندرية عام ١١٤٢ أو ١١٤٣ وعليها شحنة من الزيت ، والنبية ، والجبين ، والعسل ، وكمية من سلع أخرى ، وكان اسمها *Le demio monde* ( عالم الغانيات ) ، واستثارت دهشة الناس بأبعادها الكبيرة ، وطاقتها الذي لا يقل عدد أفراده عن ثلاثمائة رجل (٢٠٥) . وبلغت المودة بين الملكين — اذا صدقنا ما يقوله عنها المؤرخون — شأوا بعيدا حتى أن فردريك اهتم بتجارة السلاطين في الهند ، وأرسل وكلاء الى تلك المناطق ، عن طريق البر والبحر .

وليس المصدر الذي استقيناه منه هذه المعلومات (٢٠٦) مؤكدا في كل الأحوال ، وبخاصة فيما يتعلق ببلاد نائية . ثم اننا نعلم أن السلاطين لم يكونوا يميلون الى مساعدة الغربيين على النهاب الى الهند : وعلى ذلك فمن الجائز أن نثير بعض الشك في هذه النقطة ، ولعل ذلك لم يكن الا من قبيل الاشاعات التي انطلقت بسبب الهلاليات التي منحها السلطان

Huillard — Bréholles, I.c. introd., p. cclv, not. 1, ccclix, (٢٠٤)  
ccclxi, ccclxvi ; Raynaldi Ann. eccl. a.a. 1244, no 19; Michaud-Reinaud  
Biblioth. djs crois, IV 448; Rahrcht, Beitr. zur Gesch. d. Kreuzz., I,  
50 et s., 84 et s.

Histoire des patriarches d'Alexandrie ; Amari, Bibliotheca (٢٠٥)  
arabo-sicula p. 326; Dipl. arab., p. xxiii, et Storia dei Musulm. di  
Sicilia III, 656.

Matth, Paris, Chron. maj., éd. Luard (SS. rer. brit), V, 217 (٢٠٦)

للإمبراطور ، ومع ذلك فمن بين الأشياء النفيسة الواردة من الهند ، وجدت أشياء أخرى من اليمن ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين ، وسورية ، ومصر : هنا ما ينبتنا به المقریزی (٢٠٧) .

وقد أثبت فريدريك الثاني بتصرفاته المشاعر الودية التي غذها حيال المسلمين ، وسار على نهجه خليفته منفريد Manfred وكونرادين Conradin (٢٠٨) : وكان في ذلك دلالة على التهذيب التي شاعت في الغرب : ولم يفت هذا الأمر على ذهن السلاطين ، وكان من أثر ذلك دون شك التغيير الحميد الذي طرأ على موقفهم ، وعلى حسن وفادتهم للتجار الغربيين .

وأطلقت الحماسة التي ألهبت الصليبيين الأوائل آخر ومضة لها في الحملات الصليبية التي شنها لويس القديس ملك فرنسا . أما حملته الأولى ( ١٢٤٩ ) فانها وجهت ضده مصر ، ولما لم يكن لدى الملك أسطول ، فانه استأجر سفننا من جنوا ومرسيليا (٢٠٩) . وفتحت له دمياط أبوابها ، وارتعب المسلمون عنده رؤيتهم جيشه القوي ، فتركوا له المدينة دون مقاومة . كان هذا نجاحا عابرا ، وما لبث الصليبيون حين توغلوا في داخل البلاد أن أشرفوا على الهلاك ، وسقط الملك نفسه أسيرا ، وكان عليه ، ليسترد حريته أن يسلم دمياط ويذهب الى سورية (١٢٥٠) . وفي هذه المرة أيضا استثار تسليم دمياط الى المسلمين غضب البنادقة والجنويين والمبزيين ، حتى قيل انهم جعلوا يعاملون الفرسان الفرنسيين باعتبارهم أعداء لهم (٢١٠) .

وبعد انقضاء عشرين سنة ، شن القديس لويس حملة صليبية ثانية . وفي هذه المرة التجأ أولا الى البندقية ليحصل على سفن . وفي حوزتنا الوثيقة التي يعرض فيها الدوج شروطه : فهو يطالب ، في البلد المزمع غزوه ، بالاعفاء من كل الضرائب لصالح التجارة ، وبأحياء بها كنيسة ، وحمام ، وفرن ، واستعمال الموازين والمكاييل البندقية ،

---

Citation par Amari, Storia del Musulm di Sicil., III, 639. (٢٠٧)

Wilken, Gesch. der Kreuzg. VII, 430 et s., 528. (٢٠٨)

فيما يخص بالسفن الجنوبية ، انظر :

Annal. Jan., p. 220, 224, 227.

(٢٠٩)

وفيما يخص بسفن مرسيليا انظر نص العقد الذي نشره شامبلون فيجيه :

Chempollion-Fligae في وثائقه :

Coll. des. doc. inéd., I, 605-609 : Documents historiques inédits.

Matth. Paris, l.c., V, 207.

(٢١٠)

... الخ (٢١١) غير أنه يبدو أن البنادقة كانوا يفضلون ما بأيديهم عما قد يأتي به المستقبل ، ولم يربوا إثارة غضب السلطان عليهم ، وفقه أموالهم في الاسكندرية ، ولم يخفوا ذلك عن سفراء ملك فرنسا (٢١٢) . ولعلمهم وضعوا عمدا مطالب لا يمكن قبولها . والثابت أن المفاوضات لم تسفر عن شيء . وانتقل سفراء القديس لويس الى جنوا ووجدوا شروطا أفضل (٢١٣) . ومن الراجح أن الملك عقد تسوية ماثلة مع مرسلينا (٢١٤) .

والمعروف أنه قد طرأت له فكرة مشتبوه بان يبدأ الحملة من تونس التي مات تحت أسوارها . وعينما كانت الحملة على وشك الانطلاق ، كان في جنوا سفارة من قبل سلطان مصر (٢١٥) ، ومع ذلك فليس ثمة ما يثبت أن تحول الحملة عن وجهتها كان بحافز من الجنويين بقصد ابعاد العاصفة عن رأس السلطان . بل انهم على العكس من ذلك أمدوا الحملة بوحدة عسكرية تزيد على عشرة آلاف رجل ، وفي صفوف هؤلاء ارتفعت أكثر الأصوات استنكارا لتغيير اتجاه العمليات العسكرية (٢١٦) .

كانت الحملة الصليبية الأخيرة هي آخر تهديد وقع على مصر ، وقد جعل كل من هذه الحملات الجاليات التجارية في موقف سيء بنوع ما . ولم يكن كل ذلك سوى عواصف وقتية ، أعقبتها فترات من الهدوء والسكينة . ومع اقتراب أساطيل الصليبيين ، كان السلطان يراقب الأجانب مراقبة دقيقة ، بل انه كان يستوثق أحيانا من أشخاصهم ، وعندما يزول الخطر يستمتع التجار من جديد بحريتهم في نشاطهم ،

Duchesne, Historia Francorum scriplores, V. 435-437. (٢١١)

Bref du pape Clément IV, dans Martène et Durand Thes. (٢١٢)  
aned., II, 628 et s.

(٢١٣) تحرى عقود استئجار السفن على أهم التفاصيل بشأن السفن في ذلك

المصر ، وقد نشر هذه العقود :

— Jal, Doc. hist. ined., I., 507-604, II, 50 et ss, et..

Belgramo, Documenti inediti riguardanti le due croiati di S. Lodovico re di Francia (Genova 1859) ; Annal Jan., p. 264 et ss ; Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, II, 599 et ss.

— ولتصحيح التاريخ الذي ذكره حال Jal (١٢٦٨ بدلا من ١٢٤٨) انظر :  
Les Archiv des miss scientif., 2e serie III, 260.

Jal, I., p. 513, 609-614. (٢١٤)

Annal. Jan, p. 264. (٢١٥)

Ibid, p. 267, 268. (٢١٦)

وتنشط التجارة كمادتها . وفي بعض الأحيان كان بعض المدن التجارية تقطع تجارتها مع مصر إبان الاستعدادات لحملة صليبية أو أثناء قيام الحملة ، كما رأينا في مثال البندقية . غير أن التجارة كانت تستمر غالباً دون عوائق ، ولم تكن فترات الانقطاع هذه تمنع أفراد المستوطنات الفرنجية من ملء حوائثهم ، والقيام من تصريف بضائهم بمجرد عودة حركة الملاحة الحرة الآمنة .

ولمعرفة ظروف الحياة العادية للتجارة وفي المستوطنات الغربية بمصر معرفة جيدة ، لا يوجد أفضل من دراسة « براءات » أو أوراق الاعتماد diplômes التي يحملها مبعوثو السلاطين وسفراؤهم . والبندقية هي المدينة التي بها أكبر مجموعة من هذا النوع من الوثائق . وعلى ذلك فمن الصواب البدء بهذه المدينة لاستعراض « حقوق الأمم التجارية وأملاكها » بمصر في القرن الثالث عشر . وقد ذكرت الامتيازات الرئيسية الممنوحة للبنادقة على أرض مصر في براءات السلاطين : الملك المعادل الأول (٢١٧) ، والملك المعادل الثاني (٢١٨) ، والملك الصالح نجم الدين أيوب (٢١٩) ، والملك المعز عز الدين أيوب (٢٢٠) . ونعرف من قبل أن البنادقة كانوا يملكون في الاسكندرية منذ أوائل القرن فندقيين يشرف على شئونهم « ديوان » الحكومة المصرية ، ويستغلهم مسكناً للتجار ، ومخزناً للبضائع . وكان لهم أيضاً كنيسة مكرسة للقديس ميشيل S. Michel ، وحمام خاص بهم . وشيد في أحد الفندقيين مخبز يأخذون منه خبزهم . وكان التبذير محرماً في الاقليم الاسلامي كله ، ولكن كان مصرحاً بنحوه وبيعه في الفندقيين .

ثم إن السلطات كانت تبدي كل ضروب المراقبة لراحة التجار في الفنادق من ذلك أن جمهورية البندقية قدمت طلباً بسيطاً فبادرت السلطة بنقل سوق سمك كان يقام عادة داخل أحد هذين الفندقيين الى

---

Taf. et Thom., II, 184-193 ; Hammer, Litt. Gesch. der Araber, VII, 60 not. ; le document pisan dans Amari, p. 267 (et la note de la p. 492).

Diplôme de 1238, dans Taf. et Thom., II, 336 et ss. (٢١٨) et dans Marin, VI, 337 et ss., IV, 263 et ss.

- لا بد من تصحيح التاريخين ١٢٥٨ ، ١٢٦٢ ، والتاريخ الصحيح هو ١٢٢٨ .

Diplôme de 1244, dans Taf. et Thom., II, 416 et ss. ; Romanin, III, 399. (٢١٩)

Lettres de 1254 et de 1258, dans Taf. et Thom., II, 483 et ss. (٢٢٠)



جهة أخرى (٢٢١) . وحشد الموظفون البنادقة ساعات فتح المحال وغلقها ، ولكنهم كانوا ملتزمين بمراعاة العرف ، وإغلاق المحال يوم الجمعة أثناء صلاة المسلمين : وكان الغرض من هذا الاجراء دون شك تجنب الاحتكاك بين مختلف الديانات . وكان لكل فندق مديره ، ويعبر شؤون الجالية كلها فنصل يتبعه ثلاثة من الخدم ، وكل هؤلاء الموظفين معاقبون من الضريبة على الرأس ( الجزية capitation ٢٢٢) ، ومرخص لهم بعرض وغبانهم أو مطالبهم شفاة . وكان لكل بندقي الحق - بمقتضى المعاهدات فى رفع شكواه الى السلطان مباشرة ، أو يكلف بذلك قنصله الذى يقدم فى هذا الشأن مذكرة مكتوبة الى السلطان . وكان القنصل يختص أيضا بتلقى أموال الرعايا البنادقة الذين يتوفون . ومع ذلك فالمعاهدات لا تلقى الا ضوءا قليلا على كل ما يتعلق باختصاصات القناصل الادارية كذلك ليس هناك أية اشارة الى المستشارين الملحقيين بالقناصل . وفى طابنا ، تبعا لبعض العبارات ، أنه كان هناك قناصل فى مدن غير الاسكندرية ، ولكن لم تذكر أية مدينة بالاسم .

وقد أبدى سفراء الجمهورية ، لصالح الحركة التجارية بنوع خاص مجموعة من الرغبات استجاب لها السلاطين بمراسيمهم على قدر الامكان . من ذلك أن قباطنة السفن الفينيسية كان مرخصا لهم بعمليات الشحن والتفريغ عند وصول السفن ، ورحيلها ، بواسطة رجال تابعين لهم . وكان للبنادقة اسحق فى تعيين موظف تجارى يختص بالاقرار الجمركى ، ومراقبة البضائع طوال الوقت الذى تقضيه فى مخازن الجمارك . والغيت بعض الضرائب المقوتة ، كالرسم المفروض على فحص البضائع وحراستها فى مكتب الجمارك (٢٢٣) ، وغيره ، والتي فرضها عسقا موظفو الجمارك أو التراجمة الذين يمارسون أعمال السماسرة . وأعفيت اللآء والأحجار الكريمة والفراء نهائيا من الضرائب . وكان البنادقة

Zilia, Taf. et Thom., II, 486, de l'arabe Djaliah : voy. Ham- (٢٢١)  
mer, Laender verwaltung unter dem Chalifat, p. 189 ; Guatrem(re,  
Maikrizi, II, 1, p. 132.

(٢٢٢) كان الامر كذلك على الأقل فى عهد الملك العادل الاول ، على حد قول :

— Rice, de S. Germano, dans Pertz, SS. XIX, 336.

— وان اسم Saphadinus المنسوب الى هذا الأمير فى هذه الرواية ، وفى غيرها

هو تحريف للقب « سيف الدين » .

Taf et Thom II, 186, 188, 339, 384. Amari, Dipl. arab., (٢٢٣)  
p. 468 et s. 470.

— هذان الرسمان ذكرا بكليتين مقبستين من العربية :  
cuffum, arsum

أحرارا في أن يبيعوا بضائعهم لمن يشاؤون . كما لا يجوز فرض ضرائب على البضائع غير المباعة إذا أرادوا العودة بها ، ولا يجوز إجبارهم على بيع أية بضائع ، أو أن يحتفظوا بالبضائع التي يتضح بعد الشراء أنها مشوشة . وبالاختصار ، تدل قرارات الحكومة المصرية كلها على حسن معاملتها البنادقة .

وبينما نجح في أن يكونوا في عداد الأمم ذات الامتياز ، بقي البيزيون على وضعهم القديم . ففي عام ١٢٠٧ ، في عهد السلطان الملك العادل الذي منح البنادقة أقدم امتياز وصل أمره الى علمنا ، بعث اليه البيزيون سفيرا يدعى مرزوكو ديبى تيمرتى *Marzucco dei Teperti* بمهمة عقد معاهدة جديدة . وكانت طلباتهم تتلخص في النقاط الآتية (٢٢٤) : الإبقاء على ملكية البيزيين لفنلقهم ، وكنيسة القديس نقولا *S. Nicolas* ، وحماماتهم ، وترميم الفندق والكنيسة على حساب السلطان ، وحق البيزيين في استعمال موازينهم ، وعدم فرض أية ضريبة اضافية على بضائعهم ، والمصافاة التامة من الضرائب على الذهب والفضة (٢٢٥) . وقد ووفق على هذه الطلبات ، أو على الأقل أهمها ، وهذا ما يثبتنا به « التصريح بالسفر » *lettre de convoi* المعطى لمرزوكو عند عودته . وثمة براءة معاصرة موقع عليها بأمر الملك العادل تكفل للبيزيين ، ضمن أشياء أخرى ابقاء التعريف الجمركية بسرهما الى ذلك اليوم (٢٢٦) .

واستقبل الملك نفسه سفيرا بيزيا ثانيا اسمه *Ranuccio di Benedetto* ، وكانت أوراق اعتماده موقعة من رئيس الأساقفة *Ubaldo Visconti* «لوتير» والبوردستان أو بالدو فيسكونتو . ونفترض أن الأمر السلطاني ومؤرخة في ٢٩ من مارس ١٢١٥ (٢٢٧) .

---

(٢٢٤) تعليمات موجهة من الأسقف أوبالدو *Ubaldo* الى مرزوكو ( الذي شغل المنصب الأسقفى من ١١٧٥ الى ١٢٠٨ ) ، وكذا من البودستات جيراردو كورتيفيكيا *Gerardo Cortevecchia*

انظر : *Amari*, p. 280 et s. ، وكذا : *Amari*, p. 465.

(٢٢٥) في خصوص الذهب والفضة ، انظر فيما بعد براءة عام ١٢١٥ .

(٢٢٦) *Amari*, p. 282, 283.

(٢٢٧) نجد النص اللاتيني والترجمة العربية في : *Amari*, p. 81 et s. et 284.

ويذكر السيد ترونسى *Tronci* هذه السفارة في عام ١٢١٥ .

الصادر عام ١٢١٥ يعرض علينا نتائج هذه المهمة (٢٢٨) : فالملك العادل يصدر أمره باطلاق سراح بعض البييزيين الذين انتزعهم من كنيستهم (٢٢٩) وجعلهم عبيدا ، وذلك دون أن يقتضى عنهم قدية ، ويكفل للبييزيين حرية الانتقال ، ذهابا وإيابا ، وأمن أشخاصهم ، واحتفاظهم أموالهم فى حالة غرق السفينة ، وامتلاكهم فندقتهم وكنيستهم المخصصة لدفن موتاهم ، وأداء الشعائر والخدمات الدينية ، وحماتهم ، وتحديد الرسوم على البضائع العامة بنسبة ١٦٪ ، وعلى الذهب والفضة بنسبة ١٠٪ ، ويعفى منها المواد الغذائية ، والنيبيذ المستورد لاستعمالهم الشخصى ، ويرخص لهم بتعيين مندوب فى الجمرک ، وقس وخادم فى الكنيسة . ويعفى الثلاثة من الضرائب . وأخيرا ، إذا خالف موظف مصرى نصوص المعاهدات ، يكون لهم الحق فى اللجوء الى حاكم الاسكندرية ، أو الى السلطان نفسه أن اقتضى الأمر ذلك . ويتضمن هذا الأمر السلطانى الامتيازات التى منحها السلاطين للبييزيين : وقائمة هذه الوثائق قصيرة ، وتنتهى فى عام ١٢١٥ . غير أن قوانين مقاطعة بيزا تحيطننا علما بالأزمة اللاحقة ، وتثبت بما لا يقبل الشك أن هذه الجمهورية احتفظت بقناصلها وفنادقها فى الموانئ المصرية طوال فترة الحروب الصليبية وبعدها . ومن المفيد من وجهة النظر هذه ، بنوع خاص أن نتصفح « مرسوم مقاطعة بيزا » *Breve Pisani communis* لعام ١٢٨٦ (٢٣٠) . فتمه فقرتان من الكتاب الاكول تبينان الشروط المطلوبة لاختيار قناصل الاسكندرية ودمياط ، ومدة مناصبهم ، وبعض التنظيمات الخاصة بهم : نذكر منها على سبيل المثال حظر بيع النيبيذ فى الفنادق البيزية (٢٣١) ، ومنع التجار الذين لا ينتمون الى جمهورية

(٢٢٨) نجد ترجمة ايطالية قديمة لهذه المعاهدة فى : *Pagnini, II, 198-201.* وفى : *Amari, 285-287* وتاريخ عام ٦٢٢ هـ . (١٢٢٥) غير صحيح بالتأكيد لأن العادل توفى عام ٦١٥ هـ (١٢١٨) ، وقد صحح السيد أمارى هذا التاريخ واستبدل به عام ٦١٢ هـ . ونشر الكاتب نفسه ، ص ٢٨٨ وما بعدها أيضا براءة أخرى ماثلة تماما ، ولكنها تنتمى الى عصر غير معروف ، ولا يمكن أن ننسب الى هذا الموضوع سوى التراضات .

(٢٢٩) غالبا فى مناسبة القبض على التجار الغربيين بوجه عام ، الأمر الذى ذكرناه قديا حسبما ذكره أمارى ، ص ١٧ .

(٢٣٠) *Bonani, Statuti Pisani inediti, I, 55-640.*

(٢٣١) *Bonani, op. cit., I, 333.*

— منذ عهد بيبرس تجدد حظر النيبيذ عند المسلمين بمزيد من الصرامة : وهذا بلا شك هو السبب فى الحظر المشار اليه .

بيزا من الادعاء بأنهم من رعاياها حتى يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة للبيزيين ، والا وقع عليهم غرامة كبيرة • وانخرا ، تنبثنا القوانين البلدية باسم واحد على الأقل من القناصل : هو برناردوكيوس ماسكا Bernarhuccius Mascha ، وقد ذكر اسمه بمناسبة اقامته مخبرا لمواطنيه ، دون ذكر لأمى تاريخ (٢٣٢) •

وفيما يتعلق بصلات جنوا بمصر ، لم تقلم المصادر ايضا حات كافية • كان لجنوا قناصلها فى الاسكندرية ، ويبدو أنهم كانوا يعملون مثنى مثنى • وقد أنبأنا بذلك فقرة فى « الحوليات الجنوية » *Annales genoises* خاصة واقعة حدثت مع ذلك بعيدا عن مصر • فقد رأينا أنه فى عام ١٢٠٤ طرد المغامر الجنوى المانو دى كوستا *Almano de Costa* البيزيين من سيراكوسه حيث استقروا بها سادة منذ قليل ، وكان بين أعضاء هذه الحملة قناصل جنويون كانوا قد انهوا مدة توليهم مناصبهم فى الاسكندرية وعادوا الى وطنهم (٢٣٣) •

هذا الأمر يتطلب بعض الايضاح : ذلك أن « المانو » كان قد بارح جزيرة كريت حيث لحق به بعض مواطنيه الذين قدموا من سبوريا والاسكندرية ، وكانوا غالبا قناصل عائدين من المستوطنات ، وتصرفوا بضعفتهم ممثلين للسلطات الجنوية ، فأقاموه فى المدينة التى غزوها ، ومنحوه لقب كونت • وتشير عبارات مؤرخ الحوليات الى أنه كان هناك زوجان من القناصل قلما من الاسكندرية ، هما لامبرتس فوناريوس *Lambertus Fornarius* ، وبلموستوس ليركاريوس *Belmustus Ogerius* ، ومن جهة أخرى اوجيرتيوس دى انسوليس *de Insulis* ، ومن جهة أخرى اوجيرتيوس دى انسوليس *Ogerius* ، وبلموستوس ليركاريوس الصغير • ترى هل كان هؤلاء القناصل الأربعة يشغلون مناصبهم فى الاسكندرية فى وقت واحد ، ثم عادوا معا الى جنوا ؟

يصعب أن نسلّم بذلك : فهل كان اثنان منهما عائدين من الاسكندرية فالتقيا تحت أسوار سيراكوسه بالانئين الآخرين اللذين قدما ليحلا محلها ؟ قد يبدو هذا أكثر احتمالا ، غير أنه لم يكن من المتبع أن يترك قناصل المستعمرات وظائفهم قبل أن يصل من خلفهم • ثم أننا لا نجد البتة فى تاريخ حملة سيراكوسه أن أسطول المانو قد انضم

Ibid III, 395 et s.

(٢٣٢)

Annal. Jan., p. 121 et s.

(٢٣٣)

إليه سفينة قادمة من جنوا • ويحاول السيد كاناليه Canale أن يحل المشكلة (٢٣٤) ، فيفترض أن القنصلين الأولين هما اللذان قدما وحدهما من الاسكندرية ، وأن الاثنين الآخرين قلما من الاسكندرونة ، ومن ثم يجب التسليم باحتمال وجود قنصلين غربيين في الاسكندرونة ، وهو ما يصعب التسليم به ، لأن الغربيين كانوا قد تركوا المدينة في هذه الفترة • ولكن هاكم شيئا أكثر يقينا : ذلك هو المعاهدة التي عقدها في عام ١٢٠٣ القنصلان لامبرتوفورنارى Lamberto Fornari وبلموستو ليركارى Blemusto Lercari مع أمير أنطاكية (٢٣٥) •

وعلى ذلك لم يأت القنصلان الأولان من الاسكندرية ، ولكنهما أتيا من سورية حيث كانا يؤديان وظيفتهما خلال السنة السابقة • فقط وبزلة قلم من المؤلف أو الناسخ ظهرت كلمة de Alexandria مرتين في الفقرة ، ومن ثم يجب وضح كلمة de Syria بعد اسمي القنصلين الأولين ، ويبقى من هذا الجدل أن القنصلين القادمين من الاسكندرية هما أوجيرىوس دى انسوليس ، وبلموستوس ليركارىوس الصغير •

بقي لنا ، بخلاف ما سبق ذكره ، بضع كلمات نلتقطها من هنا وهناك ، أحيانا بمناسبة سفينة ، وأحيانا بمناسبة سفراء يذكر أحد المؤرخين رحيلهم من جنوا الى الاسكندرية ، دون أن يضيف أى بيان يشفى غليلنا عن هدف البعثة أو نتيجتها (٢٣٦) • فقط في أواخر القرن

Nuova istoria di Genova, II, 328. (٢٣٤)

Canale, l.c., II, 310; cf. Olivieri, Carte e Cronache, p. 59. (٢٣٥)

— يذكر المقرزى في عام ١٢٨٥ سفيرين من جنوا أحضرا معهما حمولتين من «السنارازيان» (تقليد لأقمشة الشرق) ، وستة سنقرات (طير من فصيلة الصقريات) ، وكلبا كبيرا ، وقد وصلا الى القاهرة ومعهما مبعوثان من رودلف الهابسبورجى ، ومن الامبراطور أندرونك السابق ، وكانت مهمتهما بلا شك الايحاء الى السلطان باتخاذ مواقف سلمية ازاء مسيحيى سوريا • انظر :

Karabacek, Une ambassade de Rodolphe de Hapsbourg en Egypte Les Annal Jan., p. 317, 324.

Annal Jan., a. a. 1200, 1205, 1231 - 1233, p. 118, 123, (٢٣٦)  
117-181.

في أول هذه الفقرات فقط ، قيل أن على السفير أن يطلب من السلطان تسليم الأسرى الجنوبيين ، ولكنه فضل في هذا الجزء من مهمته ، انظر أيضا المقرزى :

— Makrizi, éd. Guatremère, I, 1, p. 91, not 215; 1, 2, p. 127; II, 1, p. 81.

(aux années 1263, 1275, 1285); Canale, l.c., II, 327 et s.

الثالث عشر ، ظهر ضبوء أثير وضسوحا يندشف النقب عن علاقات جمهورية جنوا بسلاطين مصر ، وذلك بفضل وثيقة لعام ١٢٩٠ ، هو نص معاهدة صلح وتجارة انعقدت بين الدولتين لوضع حد لمجموعة من الأحمال الثأرية المتبادلة . ففي عام ١٢٨٧ رست في ميناء الاسكندريا سفينة تجارية تحمل شحنة ثمينة ، وتابعة لمؤسسة سبينولينو سبينولا وشركاه الجنوبية ، Spinolino Spinola ، فاحتجز السلطان السفينة ، ووضع طاقمها وشحناتها في مكان حريز ، ولم يوافق على إخلاء سبيلها // نظير فدية كبيرة . ومن جهة أخرى ، حدث في عام ١٢٨٩ ، أن استولى القبطان الجنوى بنديتو زكاريا ، بالاتفاق مع قنصل كافا ، باولينو دورو Paolino Doria ، بالقرب من ساحل آسيا الصغرى ، حيال كانديلور Candelore على سفينة مصرية محملة بالسكر والفلفل والكتان ؛ وكان هذا انتقاما لسقوط طرابلس في أيدي السلطان في شهر ابريل من السنة نفسها . وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالة انزل السلطان الحائق جام غضبه على التجار الجنوبيين الذين كان يوجه عدد كبير منهم في تلك الأونة في الاسكندرية ، وألقى في السجن كل الذين لم يصل الخبر الى مسامعهم فلم يستطيعوا الفرار في الوقت المناسب . وفي هذه الأثناء ، أغار شخص يدعى بيرانجير بانزانو Béranger Panzano ( ؟ ) على مدينة تينه Tineh ، وبادرت حكومة جنوا بالتوصل من تصرفات زكاريا وبانزانو ، وأهلنت أنهما ليسا سوى قرصانين رفضا الامتثال لأوامرها ، وجعلها يجوبان البحار على فستوليتهما . وبمقت البرتو سبينولا Alberto Spinola في مهمة لدى السلطان ( في ديسمبر ١٢٨٩ ) ، وأعاد معه ركاب السفينة التي استولى عليها زكاريا وبضائعهم ، أو ثمن هذه البضائع . وبعد أتمام إجراءات التسليم ، أقسم اليمين على أن قد تم رد الأشياء كلها ، وأبدى رغبته في معاهدة صلح مع السلطان . وتمنع السلطان قلاوون طويلا ، ولكنه كان بعامة لا يريد أن تضيع منه الأرباح التي تجلبها للبلد التجارة مع جنوا ، وعن ثم رضخ في النهاية ( ٢٣٧ ) . وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة في ١٣ مايو ١٢٩٠ ( ٢٣٨ ) ، وقعها باسم جمهورية جنوا البرتوسبينولا ، وباسم

Les Annal Jan., p. 317. 324.

(٢٣٧)

Silvestre de Sacy (Not. et extr, XI, 41-52) et Amari (Atti della Società Ligure, V, 606-614 et suppl.)

(٢٣٨)

- نشر الاثنان النصوص العربية ومهما ترجمتها وتفسيراتها . أما النصوص اللاتينية فتوجد في :

= . Liber iurium, II, 243-248.

السلطان وابنه نائب سلطان مصر حسام الدين طورونطاي Hossam eddin-Torontai (٢٣٩٩) ، واشترك فيها بمثابة شهود القنصلات. الجنويان بونيفاتسيو Bonifazio ( ؟ ) ، ورافو Raffo وبعض التجار ، وكبار أعضاء الاكليروس المختارين من بين مسيحيي مصر . واقسم السفير بأنه يضمن أن يخضع المواطنون الجنويون مستقبلا أشخاص وأموال رعايا السلطان في كل مكان ، وأن يمتنعوا عن الاعتداء على أى منهم بسبب ما يرتكبه الغير من اذى . وأعطى السلطان من ناحيته كل الضمانات الكفيلة بتحقيق الرغبات التي أبداها السفير في شأن معاملة التجار الجنويين بمصر ، ووضعهم . وبدراسة المعاهدة فيما يتعلق بالحالية الجنوبية بالاسكندرية ، نرى أنها لا تحتوى على ضمان صريح للملكية الفندق ، ولكنها تضمن هذا الضمان ، لأنها تنص على المعافاة من الرسوم على الجبن ، وسائر السلع الغذائية الخاصة بسكان الفندق . وتضمن المعاهدة للجنويين ملكية كنيسة نوتردام بشرط ألا يجرى بها أية ترميمات حتى ولو انهارت (٢٤٠) . وكالمعتاد وضعت حدود لسلطة القنصل الجنويين القضائية ، والامير رئيس الجمرک ، بمعنى أن يرفع المدعى دعواه لقضاة المدعى عليه . ويرخص لكل قنصل جنوى أن يخاطب السلطان مباشرة حين يقدم شكوى باسم أحد مواطنيه ، ويطلب أن يحرسه « قवास » Cawas من لدن الامير ، أو يحرس من يوفده الى القاهرة لهذا الغرض . وللتجار الجنويين في الجمرک حق الانتفاع بمخازن موظفو الجمرک ، تحت مسئوليتهم . وثمة مندوب يرفع الجنويون مرتبه يمسك سجلا يدون فيه من جهة مجموع الرسوم التي يدين بها التجار الجنويون الجمرک ، ومن جهة أخرى المبالغ المدين بها الجمرک ( كثيرا ما كان التجار يبيعون مباشرة للادارة ) . فاذا كان أحد الرعايا الجنويين مدينا للجمرک عند رحيله ، فعلى الجمرک أن يقبل اما كماله المندوب

= — نجد مقتطعات من هذه المعاهدة في :

— Serra, Storia dell' antica Liguria e di :  
Genova, IV, 162 et ss., et dans Depping, Hist du commerce entre le  
Levant et l'Europe, II, 119-123; Canale, Nuova istoria di Genova,  
III, 184-190

— أيضا Depping اذ تحدث عن مهادتين أبرمت احدهما مع المنصور ، والاخرى مع قلاوون ، لان المنصور وقلاوون هما شخص واحد .

(٢٣٩٩) شغل هذا المنصب من ١٢٧٩ الى ١٢٩٠ ، القريري ، الجزء الثاني ، (١) ،  
ص ٦ ، ١١٠ ، ١١٣ .

(٢٤٠) استخدم في هذه النقطة ، بالاتفاق مع سلفستر دي ساكي Silvestre de Sacy كلمة « nec » بدلا من « nisi »

الجنوى ، واما كفالة مواطن مسلم مدين للجنوى المسافرين . وتضمن الإدارة سداد الثمن فى حالة أى بيع يجره جنوى لمسلم ، اذا تم البيع حسب القانون وأمام شهود ، بمعرفة أحد السماسرة أو التراجمه التابعين للجمرك . ولا يجوز اجبار أى جنوى على أن يبيع سلعته ، فله دائما الحق فى العودة بلا مصاريف بسلعة لم تبع ، كذلك لا يجوز لأى موظف أو شخصية كبيرة فى البلد أن يجبر أى جنوى على الشراء . وتتضمن المعاهدة مجموعة من المواد المتعلقة بتحديد الرسوم الجمركية التى يختلف سعرها حسب جدول موضوع تبعا لتصنيف البضائع .

أما الفراء الدقيق والأحجار الكريمة فانها معفاة ، واما الشمعات ، والحزير ، والمنسوجات الحريرية ، والأقمشة المعروفة باسم سندانال Cendal ، وساميت Samit ، والأقمشة الصوفية المتعددة الألوان ، وجوخ ريمس Reims ، والخیوط الذهبية ، وخشب البناء ، فانها تدفع ١٠٪ ؛ وكل المواد التى توزن فى الجمرك تخضع لرسم قدره ١٢٪ ؛ وبالنسبة للعمالات الذهبية والفضية ، والفضة غير المسكوكة ، يزيد الرسم قليلا على ٤٪ ؛ وبالنسبة الى السبائك الذهبية ، يزيد الرسم على ٦٪ (٢٤١) . ويستطيع كل جنوى معه سبائك ذهبية أو فضية أن يسكبها لحسابه فى دارسك العملة بالاسكندرية نظير رسم معين ولا تخضع هذه النقود لأى رسم جمركى اذا صدرت من الاسكندرية إلى القاهرة لتستعمل هناك فى سداد أى شئ (٢٤٢) . يدل هذا على أن الجنويين لم يكونوا منزعزين فى الاسكندرية ، بل كانوا منتشرين داخل القطر ، ولكن تجذبهم العاصمة بطبيعة الحال أكثر مما تجذبهم سائر الأماكن . ويتبين من مقدمة المعاهدة أن كل الأقاليم الخاضعة لسياد السلطان كانت مفتوحة لهم . وتنص فقرة أخرى على حالة وفاة جنوى فى ناحية لا يوجد بها قنصل من وطنه ، أو حتى أى واحد من مواطنيه فى هذه الحالة تضع السلطات المصرية أمواله تحت الحراسة حتى يصد بشأنها قرار من حكومة جنوا .

لم نتحدث الى الآن الا عن وضع الثلاث مدن الايطالية التجار الرئيسية فى مصر ، ولكنها لم تكن الوحيدة التى تستغل أرضا مشر كارض مصر . ورغم ما كانت تبذله البنديقية من جهود لسد الطرق و

(٢٤١) كان المبلغ الذى يتم دفعه ، حسب الحالة من ٤ الى ٦ دنانير بيزنطية بالاض

zano, p. 111, 118

الى عملة صغيرة ، انظر :

if et Thom., II, 489,

(٢٤٢)



وجه سائر مدن البحر الأديراتى ، فانها لم تستطع منع راجوزا وانكونا من ارسال سفنهما الى مصر . وثمة معاهدات ثلاث ، متماثلة تقريبا ، أبرمت بين راجوزا والبنديقية خلال السنوات ١٢٣٢ ، ١٢٣٦ ، ١٢٥٢ . يمكن أن تزودنا بلمحة عن البلاد التى كانت تتردد عليها آنتذ سفن راجوزا : فالى جانب أسماء رومانيا ، وبلاد البربر ، وتونس ، وسورية . نقرأ اسم مصر (٢٤٣) . فكانت سفن اجوزا تجلب الى البندقية منتجات هذه البلاد ، وكان الغرض من المعاهدات المشار اليها تحديد الرسوم التى يتعين تحصيلها عن هذه المنتجات . وقد يواجهننا البعض بوثنائق يتعهد فيها بعض مواطنى راجوزا لندوج البنديقية بألا يذهبوا الى مصر (٢٤٤) ، ولكن لا مجال للخطأ فى هذا الشأن ، فهذه الوثائق يرجع تاريخها الى السنوات التى سبقت حملة فردريك الثانى الصليبية ، أى الى عصر كان فيه السفر الى مصر محظورا على مواطنى البندقية أنفسهم . وعلى الشاطئ الايطالى للبحر الأديراتى كانت أنكونا وقتئذ فى أوج ازدهارها ، وقد رأينا قبلا أن أفراد الطبقة البورجوازية بها كانت لهم علاقات بسورية ، وكان لهم بها منشاءة ، كما كانوا يتاجرون مع مصر . وبين وصف يونكومباني Boncompagni حصار كريستيان Christian رئيس أساقفة ماينس Mayence (٢٤٥) للمدينة فى عام ١١٧٤ . أحصى المدافعين عن المدينة ، وذكر أن عددا كبيرا من البورجوازيين كانوا غائبين عنها ، اذ كانوا يزاولون أعمالهم التجارية فى الاسكندرية والقسطنطينية ، أو فى أماكن أخرى من الإمبراطورية البيزنطية . ومن الراجح أن يكون هناك معاهدات بين أنكونا وسلطين مصر ، اذ يبدو أن البابا جريجورى العاشر قد أشار اليها فى خطاب وجهه الى السلطان فى عام ١٢٣١ للتوسط فى صالح تجار تلك المدينة : فهؤلاء التجّار قد ألقى بهم فى سجون الاسكندرية وجرّدوا من كل ما يملكون . ويقول البابا ان لأنكونيين الحق فى الاعتماد على حماية السلطان (٢٤٦) .

فاذا انتقلنا من أنكونا ، واتجهنا الى الجنوب ، صادفنا على طول الساحل مجموعة من الموانى التى كان موقعها ملائما بنوع خاص للتجارة

Taf. et Thom., II, 311, 332, 468; Monum. spect. hist. slav. (٢٤٢)  
merid I, 48, 55, 94 et s. ; l'Archiv. stor. it. App. IX, p. 386.

Monum. Slav. merid., I, 33 ; III, 392. (٢٤٤)

Muratori, SS, VI, 930. (٢٤٥)

Raynald, Annal. eccl. a. a. 1231, nò. 56. (٢٤٦)

مع مصر . كان في بارليتتا Barletta ، وتراني Trani ، وباري Bari جماعات من أصحاب السفن ومجهزها ، لا يكتفون بنقل الحجاج والصلبيين ، ولكنهم يزاولون أيضا نقل البضائع . ويستفيدون من الصلات الطيبة التي تربط فرديريك الثاني بالسلطان في مضاعفة رحلاتهم الى مصر . والى هذا العصر تنتمي وصية مواطن من تراني كان يعيش كما يبدو في برنديزي : ففي هذه الوصية : يتصرف المواطن في مبلغ من المال وبضائع عهد بها الى سفينة مبحرة الى الاسكندرية (١٢٢٧) (٢٤٧) . والأمثلة لدينا كثيرة من هذا النوع ، لولا ندرة الوثائق الصادرة من الأفراد . ولم يترتب على وفاة كل من فرديريك الثاني وما تفرد قطع الصلات بين جنوب إيطاليا ومصر . واذا كان شارل دوق أنجو قد عمل على النقيض من الأمراء الألمان ، فانه في هذه النقطة كان حكيما اذ اقتدى بهم ، فسعى الى كسب صداقة سلطان مصر ، ولم يفته أن ينص لصالح رعاياه على استمرار المزايا التي كانوا يتمتعون بها في عهد فرديريك (٢٤٨) .

كانت الظروف المؤاتية لبحارة إيطاليا مؤاتية بالمثل لبحارة صقلية (٢٤٩) ، ويبدو أن بحارة مسينا قد استفادوا من هذه الظروف بنوع خاص ، وهذا أمر طبيعي ، نظرا لموقع هذه المدينة على طريق مصر المباشر . كان هذا أيضا فرصة طيبة لسكان سالرنو وأمالفى ، اذ كانت صلاتهما بمصر قديمة العهد ، وحافظت أمالفى على هذه الصلات بقدر ما سمحت لها قواها التي ضعفت كثيرا من قبل (٢٥٠)

لقد أحصينا بالكامل تقريبا كل المدن الإيطالية التي كان لها علاقات تجارية مع مصر ، على الأقل تلك التي يوجد بشأنها دلائل ثابتة . أو

Davanzati, Sulla seconda moglie di Manfredi, p. xciv et ss. (٢٤٧)

Michaud-Reinand, Bibliothèque des croisades, IV, 482 et s., (٢٤٨)  
516; Wilken, Gesch. der Kreuzz., VII, 420 et s., 528; Del Giudice,  
Cod dipl. angiov., p. 222 et s., not. (Chartes de 1269 et 1271); Minieri  
Riccì, Il regno di Carlo I d'Angio negli anni 1271e 1272, p. 13  
15, 75.

Benjamin de Tudèle (٢٤٩) اشار اليهم بنيامين دى توديل وهم

يترددون على سوق الاسكندرية في عصر السيادة النورماندية .

(٢٥٠) وجد أيضا في عام ١٢٥٩ عقد ميزم بين أمالفى وأحد سكان رافيللو

Ravello ، وهي ناحية تقع على مرتفع يشرف على مدينة أمالفى ، موضوعه رحلة تجارية مشتركة ، الى الاسكندرية او عكا : انظر :

Camera, Men di Amalfi, I, 435.  
Méry et Guindon, I, 329, 333; II, 205 et ss.

احتمالات كبيرة . ولننتقل الآن الى فرنسا : هنا نجد أولا مرسيليا ، فعلاقتها مع مصر ترجع الى زمن موغل في القدم . وتعرض علينا قوانين بلدية مرسيليا في القرن الثالث عشر تجارتها مع مصر في أوج نشاطها ، ونجد بها ذكرا كثيرا لبضائع يستوردها من الاسكندرية الى مرسيليا تجار وطنيون وأجانب ، وتبيننا فضلا عن ذلك أن المرسيليين كانوا أثناء رحلاتهم ، أو اقامتهم في الاسكندرية خاضعين لسلطة قناصل وطنهم (٢٥١) . وفي عام ١٢٧٢ وقع حادث كاد يوقف فجأة هذه الحركة التجارية : فقد استولت سفن مرسيلية على سفينة لمسلمين كانت عائدة من القرم وبها سفراء من التتار الى بلاط السلطان بيبرس ، وأسرت السفراء ، ومضت بهم مع باقي طاقم السفينة الى عكا . وفي الحال طالب السلطان باطلاق سراح الأسرى ، والا حذر مزاوله تجارة مرسيليا في أمبراطوريته . وأتمر التهديد ، فقد أطلق سراح السفراء ، وبقي المرسيليون أحرارا يتابعون مشاريعهم التجارية في مصر (٢٥٢) .

وكان لمونبلييه أيضا مستوطناتها التجارية بالاسكندرية قبل منتصف القرن الثالث عشر . وفي هذه الفترة كان ملوك أراجون سادة مونبلييه ، ولا بد أن أفراد الجالية بالاسكندرية كان يقرون لهؤلاء الملوك بحقوق السيادة أسوة بمواطنيهم في فرنسا . ومع ذلك لم تكن الحال دائما على هذا المنوال : فلأسباب نجهلها طالب أفراد الجالية بالتخلص من روابط الطاعة التي تربطهم بهؤلاء الملوك : حدث ذلك وقت اقامة ريمون دوكونشي Raimond de Conchis بمصر . على أننا نجد ريمون هذا مكلفا بمهمة في قبرص وطرابلس (٢٥٣) ، عامي ١٢٣٦ ، ١٢٤٣ ، ومن المحتمل أن تكون فترة اقامته في مصر قبله سبقت أو أعقبت بتقليل إحدى هذه المهام ، وأنه هو الذي أخطر عنده عودته بمطالب أفراد الجالية . وعلى أية حال ، صرح الملك جيمس الأول Jaime Ier بمرسوم خاص لعام ١٢٦٤ بعدوله عن توقيع العقاب على هذا التمرد (٢٥٤)

(٢٥١) انظر أيضا المقدم للبرم في عام ١٢١٩ بين مدينة مرسيليا والكونت موج دي

Hugues de Empurias

امبورياس .

— Papon, Hist de la Provence, II, preuves, no XLI :

Michaud-Reinaud, Biblioth. des crois., IV, 530 et s. ; (٢٥٢)

Witken, Gesch. d. Kreuzz., VII, 608 et s.

Méry et Guindon, I, 419 et s. ; Germain, Hist. de la commune de Montpellier, III, 513. (٢٥٣)

Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 253. (٢٥٤)

والثابت أن حركة التمرد هذه كانت وقتية ، وكان القناصل الاستعماريون يتولون مهام مناصبهم بإيصال الملك ، وتعيينهم السلطة الملكية . وفي عام ١٢٦٧ أوفد جيمس الأول الى الاسكندرية مع سفينة تجارية اثنين من برجوازي مونبيليه برنار دو مولنديس Bernard de Molendinis ( أو مولينس ) ، وبرنار دوبلانو Bernard de Plano مزدوين بسلاطات مطلقة . ولم يكن رعايا الملك الذين ركبوا السفينة نفسها خاضعين لسلطة هذين البرجوازيين وقضائهما أثناء رحلة السفينة ذهابا وعودة فحسب ، ولكن صدر الأمر أيضا لكل التجار الذين ينتمون بأصلهم الى اقاليم تابعة للأسرة الحاكمة في أراجون ، الموجودين بالاسكندرية ، أن يخضعوا لسلطتهما الادارية والقضائية . ورخص المفوضين بمباشرة تاجر الفندق ، وكلغا بأن يقيما في المستوطنة قبل عودتهما قنصلا أو أكثر ، يتولى باسم الملك القضاء المدني والجنائي (٢٥٥) . ويبدو أن أهالي مونبيليه المقيمين بالاسكندرية لم يكن لهم قنصلية وفندق ، على الأقل طالما كان وطنهم الاصلى خاضعا لتاج أراجون ، ولكنهم كانوا يتقاسمون القنصلية والفندق مع التجار الذين ينتمون الى الاقاليم الاسبانية التابعة لهذا التاج ، وكان رؤساء المستوطنة ينتخبون بالتناوب في كل من الجنسيتين اللتين تتكون منهما .

وإذا كانت التجارة مع مصر مباحة بوجه عام لرعايا ملك أراجون ، فانه كان محظورا عليهم أن يبيعوا للمسلمين مواد لبناء السفن ، أو سفنا مبنية . كانت هذه التجارة موضوعا لانداز رسمي وجهه البابا جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٢ الى برجوازي مونبيليه ، وسبق لنا أن تكلمنا عنه . وفى السنة السابقة وجه اندازا مماثلا على وجه التقريب الى برجوازي ناربون (٢٥٦) ، ويدل هذا على أن ناربون كانت تقيم هي أيضا صلوات مع مصر فى عصر الحروب الصليبية . ويشهد جغرافى عربى معاصر (٢٥٧) بأنه كان يوجد حركة تجارية بين انجلترا والاسكندرية عن طريق ناربون . كيفية ذلك أن اكويتانيا l'Aquitaine كانت وقتئذ خاضعة للانجليز ، وكانت انجلترا ترسل الى بوردو عن طريق البحر

Company, Memorias sobre la marina de Barcelona, IV, 6. (٢٥٥)

- ولجد بعد ذلك ، فى صفحة ٧ امرا بصرف مبلغ الى هذين الشخصين .

Port, Histoire du commerce maritime de Narbonne, p. 128. (٢٥٦)

129; Germain, Hist. du commerce de Montpellier, I, 266 et ss.

Ibn-Saïd (mort en 1274), cité par Aboulféda, Géogr, (٢٥٧)  
trad. Reinaud, II, 307.

شحنات من القصبير والنحاس ، وتصعبه هذه المواد ( فى مراكب ) نهر الجارون حتى تولوز ، ومنها تنقل على ظهور الدواب حتى ناربون ، ثم تحمل على متن سفن « افرنجية » تمضى بها الى الاسكندرية ، وتنتمى هذه السفن الافرنجية طبعا الى الأسطول الناربونى ( ٢٥٨ ) .

وختاما ، نضيف أن بنيامين دى توديل يذكر من بين التجار الذين يقول انه رآهم فى الاسكندرية تجار أراجون ، والحقيقة أن من أراد أن يذكرهم هم تجار قطلونيا التي انضمت الى أراجون منذ عام ١١٣٧ ، وبخاصة عاصمتها برشلونة . كان هؤلاء التجار القطلونيون يقومون معظم الوقت بالرحلة الى الاسكندرية على سفن وطنية ، وليس فى ذلك أدنى شك وفيما بعد ( ١٢٢٧ ) حظز الملك جيمس الأول شحن البضائع الى الاسكندرية أو سورية فى سفن أجنبية ما دام هناك سفن فى ميناء برشلونة ( ٢٥٩ ) . الثابت إذن أن الأسطول التجارى التابع لبرشلونة كان يقوم بصورة معتادة بالرحلة الى مصر ( ٢٦٠ ) ويعرفنا بذلك القانون البحرى المعروف باسم *Consulado del mar* . ومن المسلم به أن هذا القانون قد دون بأكمله فى برشلونة . ويفهم من فقرات مختلفة من هذا القانون أن بحارة هذه الأمة التي شرع القانون من أجلها كانوا يعرفون ليس فقط أرمينيا وسورية ( عكا ) ، ولكن أيضا الاسكندرية ( ٣٦١ ) ، لأنهم زاروها .

وكانت هذه التجارة تمثل خطرا ، ذلك لأنها تسهم فى تزويد ملوك مصر بالوسائل الكفيلة بدعم قوتهم الحربية . وتداركا لهذا الموقف

---

( ٢٥٨ ) كان بعض تجار ناربون عاندين ان الاسكندرية مع بعض زملائهم ن بيزا ومرسيليا فوقموا فى أيدي أحد الجنويين ( ١٢٩١ ) :

*Annal. Jan., p. 341.*

*Company, l.c., III, 11 et 3.*

( ٢٥٩ )

( ٢٦٠ ) أبديت رأبى فى خصوص الامارات الصليبية فى سورية ، ان هناك ما يدعو الى أن ننسب الى التجارة التي كانت قائمة بين سوريا وبرشلونة وجود كميات هائلة من منتجات الفرق فى سوق برشلونة ، أما كاباني (*Campany I, 43 et ss.*) فانه ينسبها الى تجارة مصر . واني أقر ، من جهتي ، أن جزءا كبيرا من التوابل التي تصل الى برشلونة كانت تأتي من هذا الطريق ( أى من مصر ) .

*Consulado del mar, dans Paradessus, Collection des lois maritimes, II, 80, 301.*

- يدل اسم عكا *Acre* الموجود هناك ( والمعروف أنها دمرت عام ١٢٩١ - على أن الفصل المذكور قد حرر فى عصر الحروب الصليبية .

أصدر جيمس الأول في عام ١٢٧٤ مرسوما يحظر تصدير المعادن ، وخبث البناء ، والأسلحة ، والمواد الغذائية الى مصر (٢٦٢) . وكان هذا الاجراء وقائيا فحسب ، ولم يستهدف البتة عرقلة التجارة مع مصر ، وكانت الحركة التجارية مع هذا البلد قد بلغت من قبل درجة كبيرة من التقدم حتى صسارت الاسكندرية من بلدان ما وراء البحار التي توفده اليها برشلونة قنصلا : وبمقتضى تفويض ملكي كان هذا القنصل يعينه مجلس المدينة وحكماؤها ، ويوفده الى الاسكندرية ليتولى شئون الجالية القطلونية بها ، بمساعدة اثنين من المستشارين (٢٦٣) .

والم هذا الرخاء التجاري النامي بالآراء السياسية عند ملوك أراجون ، فكان لا بد لهم من العمل على تشجيعه . ولما كان هؤلاء الملوك من اقرباء ملوك أسرة هو هنشتاوقن ، ولهم ما لهؤلاء من صفات ، فانهم اتبعوا سياستهم الودية مع سلاطين مصر . وكان جيمس الأول قد بادل سلطان مصر آيات المودة (٢٦٤) ، وغالبا عن طريق مانفريد من أسرة هو هنشتاوقن ، المتصل بكلا العاهلين . وثمة مسائل تجارية تحتاج الى معالجة ، زودت بطرس الثالث ابن جيمس بفرصة يجدد فيها توثيق هذه الروابط (٢٦٥) . على أن الأمير الذي قطع شوطا بعيدا في هذه السياسة كان **الفونس الثالث ملك أراجون** : فقد أرسل الى القاهرة بالاتفاق مع أخيه جاك ملك صقلية سفارة مكلفة بعقد **معاهدة تحالف دفاعي وهجومي مع السلطان قلاوون** ، القصد منها الحصول على امدادات بالرجال ، أو على الأقل معونات مالية (٢٦٦) . وأبرمت المعاهدة في ٢٥ من ابريل ١٢٩٠ .

Copmany, II, 36 et s. (٢٦٢)

Chartes de 1266 et 1268, dans Copmany, II, 32-34 ; ibid. (٢٦٣)  
II, 366.

Michaud — Reinaud, Biblioth des crois, IV, 494, 516; (٢٦٤)  
Miedes (De vita et rebus gestis Jacobi I, Valenc, 1582, p. 309 et s.)

— يتحدث Miedes عن اثنين من بورجوازيي برشلونة ، وهما من كبار الرحالة ، على انهما سفيران للملك .

Copmany, I, 2<sup>e</sup> part., p. 48. (٢٦٥)

— لسوء الحظ ، لم يذكر كابمانى الوثيقة الخاصة بهذه الواقعة .

(٢٦٦) طالب جاك فعلا بعد سنتين بإعانات مالية ، وسوف تعود الى هذه النقطة .

ويخطيء ويلكن Wilken (٢٦٧) حين يتحدث عن هذه المعاهدة على أنها معاهدة تجارية لأن المكانة الأولى فيها بنود ذات أهمية سياسية بحتة ، ومع ذلك فهي تتضمن أيضا بضعة بنود خاصة بالتجارة . من ذلك أنه قد نص فيها على أن تظل رسوم الدخول والخروج والمور المستعملة حتى ذاك الحين مطبقة على التجار الذين ينتمون بأصلهم الى أقاليم تابعة لتاج أراجون ، وذلك في الاسكندرية ودمياط وسائر مدن الحدود المصرية . وبخصوص عمليات البيع والشراء التي تجرى بين هؤلاء التجار والتجار المصريين في الاقليم المصري ، تتبع الاجراءات التي تنظمها الشريعة الاسلامية ، وأخيرا تنص المعاهدة على الا يفعل الفرنسي شيئا من شأنه أن يمنع رعاياه أو غيرهم من الفرنجة من تصدير الأسلحة والخشب والمواد الماثلة الى مصر (٢٦٨) . ولما كان الفونس قد غير في هذه الأثناء خطته السياسية كل التغيير ، فان من المشكوك فيه أن يكون قد صلق على هذه الاتفاقية (٢٦٩) .

وبعد ستة شهور ، توفي قلاوون ( ١٠ نوفمبر ١٢٩٠ ) وسط الاستعدادات لحصار عكة ، وأنجز ابنه الملك الأشرف مشروعه هذا . وبهذه الواقعة انتهى عهد الحروب الصليبية . ولم يبق لنا الا أن نقول بضع كلمات عما فعله السلاطين المالك للتجارة منذ ثلاثين سنة في حكمهم لمر . كانت طبيعتهم الحرب ، وتستهلف جهودهم اضعاف الدول الصليبية ، وسحقها ان أمكن . ولما كان من المحتمل أن تهرع جيوش جديدة لنجدة السيادة الافرنجية المترنحة في سوريا ، كان لا بد من تأمين وحماية بلدهم من هجمات الفرنجة . واذا كانوا قد وافقوا أحيانا على توثيق علاقات ودية مع بعض أمراء الغرب ، فبتلك وسيلة لتحويل جزء من العالم المسيحي عن الحركة الصليبية ، ومن ثم الاخطا

Gesch. der Kreuzz., VII, 713.

(٢٦٧)

(٢٦٨) توجد هذه المعاهدة في السيرة العربية للسلاطان قلاوون ، وكان سلفيستر دوساس أول من ترجمها الى الفرنسية ، ونشرها على حدة :  
Magasin encyclopédique de millin.

وهذه الترجمة الفرنسية هي التي نقلها ويلكن الى الالمانية :  
7e année, 1801, II, 145 et ss.)

(Gesch. der Kreuzz., VII, suppl., 17-39).

— وقد قابل السيد أماري M. Amari مرارا هذه الترجمات بالأصل ، وانتهى بان قدم بالاطالية الترجمة الصحيحة :

— La guerra del vespro siciliano, 3° édit. Firenze, 1878, II, 332 et ss.

Amari, l.c. I, cxlii, 422.

(٢٦٩)

علماء بالموقف السياسي في أوروبا ، ومشروعات أمرانها • ولم تجيء  
الإعترافات التجارية إلا في المرتبة الثانية •

وإزاء الإجراءات الواجب اتخاذها للدفاع عن مصر ضد الحملات  
الصليبية ، كان لا بد للمصالح التجارية أن تنزوى • من ذلك أنه لكي  
يتنازك السلطان بيبرس أخطار غزو يشنه الفرنجة عن طريق مصب  
النيل ، فإنه ضيق فرع دمياط وجعله غير صالح للملاحة السفن الحربية  
عديدة الطبقات ، ولم يمه أن يغلغ على هذا النحو مدخل النهر في  
وجه السفن التجارية الكبيرة • وفي زمن المقريري ، أى في النصف الأول  
من القرن الخامس عشر ، كان النهر ولم يزل مسدودا عند هذا الموقع ،  
وكانت السفن القادمة من عرض البحر تضطر الى تفريغ حمولتها في  
قوارب • وتأثرت الحركة التجارية في دمياط بطبيعة الحال ، وكانت  
قد عانت كثيرا بسبب تحويلها عن المدينة في عام ١٢٥٠ • وقبلها كان  
من السهل دخول المدينة من ناحية البحر ، وبذلك استولى عليها الصليبيون  
مرتين ، وجعلوا منها قاعدة لعملياتهم • ولكي ينزع منهم المسلمون مستقبلا  
نقطة الارتكاز هذه ، هدموها ، وراحوا يشيدون مدينة دمياط جديدة على  
ضفاف النيل على بعد فرسخين من المدينة القديمة (٢٧٠) •

ولنعمد الى الحديث عن سلاطين المماليك ، فنقول انه ينبغي التحرز  
من اتهامهم ، واتهام بيبرس بالذات ، وهو أشدهم اقلاما في الحروب ،  
باللامبالاة المطلقة بالمصالح التجارية • فيبيبرس ، على سبيل المثال ،  
كان يحرص على الإهتمام بالتجار الذين يجوبون البحر الأحمر • ولما  
نهب أمراء جزر دهلق Dahlak ، وسواكيم Souakim أموال التجار  
الذين ماتوا في اقاليمهم ، أبلى استتياهم منهم على لسان مبعوث  
خاص (٢٧١) ، وألقى الضرائب على المبيعات ، وكانت عبئا ثقيلا على  
سكان الاسكندرية ، وبذلك يسر المبادلات التجارية (٢٧٢) • وما قلناه  
عن بيبرس يسرى بالأولى على قلاوون الذي تابع بالتأكيد بعين يقظة تقدم  
الحياة التجارية ، وأبرم مع الجنوبيين تلك المعاهدة التجارية البارزة بما  
زودها من تفاصيل ، وبما يتجلى بها من تصميم واضح على تحقيق رغبات  
التجار الأجانب • ويبدو أن هذا السلطان تكفل بأن يجذب الى بلده الأمم

Makrizi, Hist. des sult maml., I, 1, p. 15; 140, Aboulf. dans (٢٧٠)  
le recueil des hist. des crois, p. 130, 768; Michaud —  
Refnadu, Biblioth. des crois., IV, 481, Annal. Jon., p. 227; Matth.  
Paris, Hist. angl., éd. Madden, III; 113, 321, Wilken, Gesch. der Kreuzz.  
V, I, 186; VII; 258 et s .

(Makrizi, l.c. p. 231.

Ibid, p. 221.

(٢٧١)

(٢٧٢)



التجارية الغربية ، ولكنه لم يهمل مع ذلك الأمم الشرقية . وفى عام ١٢٨٨ أمر وزيره بأن يحرر جوازات سفر كلف بعض التجار المصريين بتوزيعها فى اليمن ، والهند ، والهند الصينية ، وحتى فى الصين ليستجملها سكان هذه المناطق الذين يريدون زيارة مصر وسوريا (٢٧٣) .  
 والواضح أنه لا يمكن أن يظهر المرء بكيفية أكثر وضوحاً من هذه الكيفية الرغبة فى اجتذاب تجارة هذه البلاد النائية نحو مصر وسوريا . ولسنا نعلم ما إذا كانت هذه الدعوة قد حظيت بالنجاح المأمول ، ولكن يبدو واضحاً أن امبراطورية سلاطين مصر كانت تمارس على أهالى الشرق جاذبية تسهم فيها اتساعها ، ومواردها الهائلة ، والمجد العسكرى الذى يكلل هامات ملوكها .

نجد مثالا طيبا لذلك فى بعثة أمير سيلان التى وصلت الى مصر فى شهر أبريل عام ١٢٨٣ فقد تلقى هذا الأمير عروضاً للتحالف مع ملك اليمن ، ولكنه فضل أن يتحالف مع قلاوون ، وأن يوثق مع امبراطورته علاقات تجارية ، ومن ثم أوغله لهذا الغرض سفيرا . ولما كان أقصر طريق ( من سيلان الى مصر ) يمر على مرأى من اليمن ، فقد جعل لرحلته طريقاً يمر بالخليج الفارسى وبنفاد . واذا أراد أن يعطى السلطان فكرة عظيمة عن قوته ، فقمه حمل سفيره رسالة عدد فيها بأسلوب رقيق سفنه وأفياله ، وحصونه السبعة والعشرين ، وكنوزه الكثيرة ، ثم عرض ما تنتجه بلادها بوفرة من لآلىء ، وحجارة كريمة ، وموسلين ( نسيج شفاف - ) ، وغيره من الأقمشة الرقيقة ، وخشب البقم ، والقرفة ، وأكد أن المصريين سوف يجدون عنده كل السلع التى يستوردونها من بلاد « البنيان » Banians ، أى الهند ، وأبدى رغبته أخيراً فى أن يعين السلطان مندوباً له فى عدن ، وهى المحطة الرئيسية الوسطى بين مصر وسيلان .

ولا شك فى أن هذا الموظف كان فى رأيه حقيقياً بأن يشجع حركة التجارة بين البلدين ويحببها فى الوقت نفسه (٢٧٤) . هذه الرسالة تؤيد ما سبق أن قلناه وهو أن المصريين كانوا يتلقون بوجه عام منتجات الشرق عن طريق الهندود . ولم تتح لنا أبحاثنا أن تثبت

Id. II, 1, p. 97.

(٢٧٣)

Guatremère, Mém. géogr. et hist sur l'Egypte, II, 284-286; Makrizi, 1.c. II.

(٢٧٤)

ما اذا كانت المنافسة التي مارستها الهند فى مجال التجارة  
قد انتظمت . ما نود أن نوضحه هو أنه فى عصر الحروب كانت  
مصر تستقبل على الدوام تجارا قادمين من أعماق الشرق ، وأنها  
كانت ترسل الى هناك دائما تجارا ، ومن ثم لم تكف منتجات الشرق عن  
التكدس فى أسواقها ، وأن تكون موضوعا للمبادلة .

٢ - نمو تجارة الشرق الأدنى  
في أعقاب انفتاح قارة آسيا

---

من أواخر القرن الثالث عشر  
إلى أواخر الزابع عشر



## (١) المنطقة الأولى

أولا - إمبراطورية الروم في عهد آل البيولوجوس  
وامارات الفرنجة في بلاد الروم حتى معاهدة تورين لعام ١٣٨١

يجدر بنا العودة لحظة إلى الوراء ، إلى العصر الذي طرد فيه الجنويون من عكا ، على أيدي خصومهم . وكان ذلك منحة قاسية مرت بهم : فقد هدمت بيوتهم ، وأسوارهم ، وأبراجهم ، واقتسم الأعداء أموالهم ، ولم يكن في مقدورهم ، حتى أن يظهروا في المدينة دون أن يتعرضوا لضروب النذل والهوان . وفشلت كل محاولات الصلح ، فقد رفضها المنتصرون بغيرسة . وطفح الكيل ، وكان لا بد للجنويين من أن ينتهزوا أية فرصة تسنح لهم في أي مكان لكي يثاروا من البنادقة . وعلى ذلك ، علموا ذات يوم أنه يجري في اليونان الإعداد لمشروع إذا نجح سيكون كارثة على أعدائهم : فقد كان ميخائيل البيولوجوس يتأهب للقيام بحملة لطرد اللاتينيين من إمبراطورية الروم ، ولم يكن الجنويون يجهلون أنهم إذا تحالفوا مع هذا الأمير ، عند اللاتينيين فإنهم سوف يثيرون سخط الغرب كله ، وبخاصة البابا ، لأن في ذلك قضاء على مشروعه الأثير ، ألا وهو

أحياء الديانة الكاثوليكية الرومانية في بلاد الروم (١) ، غير أن وجود  
الامبراطورية اللاتينية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بتفوق البنديقية في  
بيزنطة ، فكان في القضاء على الوحدة نهاية للأخرى ، وبالنسبة الى  
الجنوبيين الذين طردوا من قلب سوريا ، كانت فكرة طرد البنادقة من  
قلب « رومانيا » فكرة مغرية ، فلم يكن الخوف من الحرمان الذي ترقعه  
الكنيسة قويا بدرجة تمنعهم من تنفيذ الفكرة . وهكذا ، ففي شهر  
يناير عام ١٢٦١ (٢) ، ذهب السفيران جوليلمو فيسكونتي Guglielmo  
Vesconte ، وجوارنيرو جوديتشي Guarnerio Guidice بأمر من  
ماينتو دي فانو Martino di Fano ، بودستان جنوا ، وجوليلمو  
بوكانيجرا Guglielmo Boccanegra, Capitano del Popolo  
يعرضان على ميخائيل باليولوجوس تحالف الجمهورية معه ضد البنديقية .  
وفي ١٣ من مارس في العاصم نفسه ، وقعا معه على معاهدة نيمغيوم  
Nymphaum (٣) . وهذه واقعة كبيرة الأهمية نلح عليها بالنظر الى  
نتائجها . فبمنقضى هذه المعاهدة تمهد الجنويون للأمير بمؤازرة كل  
القوات التي يمكن لحكومتهم اعنادها ، وبخاصة أسطول برجاله ومعداته ،  
وتكفل ميخائيل بدفع رواتب الجند ، وتوفير المؤن ، وتعلم السرعة التي  
تمكن بها من الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة عليها ، فقد تم ذلك  
بسرعة البرق . وفي الغرب أكد بعض المؤرخين المتأخرين أن الجنوبيين  
قد اشتركوا في هذه الحرب ، غير أنه لم يحدث شيء من هذا . وفي هذا  
الخصوص ، تؤيد الرأي العكسي الذي أبداه المؤرخ البيزنطي تنفور  
جريجوراس Nicephore Gregoras (٤) فالواقع أن أسطولا جنويا أقلع

(١) أصدر البابا بالفعل قراره بالحرمان ، ولم يرقعه الا في اليوم الذي اعتمزم فيه  
الجنويون الامتثال لانذاراته ، وارجاع السفن الحربية التي كانوا قد ارسلوها الى القسطنطينية  
لمساندة ميخائيل باليولوجوس .

انظر في ذلك : Posse, Analecta Vaticana, p. 18 et ss. 24, 28.

(٢) من المسجلين الموافقة على تاريخ لاحق ، لأن مارينتو دي فانو ترك منصب  
الرودستات في اوائل فبراير ١٢٦١ . انظر :

— Canale, Nuova istoria di Genova, III, 149, not. 664.

ومن الصعب كذلك الموافقة على تاريخ سابق ، لأن المعاهدة لم تبرم الا في ١٣ مارس ١٢٦١ .

(٣) نيمغيوم ، ناحية في اقليم ليدا ، غير بعيدة عن ماجنيسيا وساردس . وبهذا  
قصر وحدائق ، وكان الاباطرة اليونانيون ينزلون بها من حين الى حين ، وبخاصة في الشتاء  
والربيع . انظر في ذلك :

— Georg. Acropol., p. 30, 78, 91, 109, 110, 187; Nicéph.  
Greg., I, 50, 137, 190; Ducas, 83, 104 etc.

I, 97 ; éd. Bonn.

تحت افرزة مارتينو بوكانيجرا بعد التصديق على المعاهدة مباشرة (٥) .  
 غير أن التصديق لم يتم في جنوا الا يوم ١٠ من يولييه ، وفي يوم ٢٥  
 استتبلمت القسطنطينية : وعلى ذلك يستحيل ماديا وصول التعزيزات  
 الجنوبية في الوقت المناسب : ولم يكن ثمة خطأ من جانبهم ، كما اعتقد  
 ميخائيل باليولوجوس بأنه ملتزم بالوفاء بتعهداته . ومع ذلك كان  
 تعاونهم الفعال في انجاح المشروع منصوصا عليه بصرامة ، وبهذا الشرط  
 فقط وعدم الامبراطور بأن يضيف أملاكاً جديدة الى ما كانوا يملكونه  
 قبلا في القسطنطينية : وكانت هذه الأملاك الجديدة الثابتة في المعاهدة  
 هي كنيسة نوتردام التي كانت وقتئذ ملكا للبنادقة ، مع الحوائط  
 المحيطة بها ، وجبانيتها ، والأرض التي تشغلها قلعة البنادقة التي تقرر  
 هدمها . ولم ينفذ الشرط بحذافيره ، ولكن بعد دخول ميخائيل  
 باليولوجوس العاصمة رسميا ( ١٥ من أغسطس ) (٦) ، لم يتمنع في  
 تسليم الجنويين قلعة البنادقة ، وفي الحال بدأ الجنويون في هدمها وسط  
 صيحات الفرح ، وصدح الأبراق ، وأرسلوا حجارة منها الى جنوا حيث  
 عرضت على أنها من غنائم الحرب (٧) . وبالمثل ، حدث منذ بضع سنوات  
 مضت ، بعد تدمير المستوطنة الجنوبية في عكا ، اذ أرسل أعداؤهم الى  
 البندقية أحجارا ليبنى بها صرح تذكاري . وفي خارج القسطنطينية ،  
 وعد ميخائيل الجنويين بأن يقيموا في ميناء سميرنه Smyrne ( أزمير ) ،  
 وتنوّه الوثيقة بشراء هذه المدينة ، وجوده مينائها ، كما وعد بأن يمارس  
 الجنويون سلطتهم السياسية كاملة على المدينة وملحقاتها وسكانها ،  
 بشرط أن يعترفوا بحقوق أسقف الروم بها من الوجهة الدينية . ولا شك  
 عندنا في تنفيذ هذا البند من المعاهدة . غير أن سادة أزمير الجدد لم  
 يتمتعوا طويلا بما كسبوا ، اذ حلت بعد زمن قليل أن انتشر الأتراك  
 السلاجقة كموجة عازمة على كل القسم الغربي من آسيا الصغرى . ولم  
 تزل معاهدة نيمفيوم تكفل للجنويين انشاء مستوطنات صغيرة بها قضاء  
 قنصلي وملحقات عادية من كنيسة ، ومخبز ، وحمام ، الخ في المدن الآتية :

Annal Jan., p. 243.

(٥)

(٦) نوح قائده العام سيزار الكسيوس مليسنوس سترانجوبولوس  
 (Georg. Acrop., p. 196)

في الاستيلاء على المدينة بغارة مفاجئة ( فر ٢٥ من يولييه ) مستغلا ظرفا مناسبيا : اذ كان  
 ماركو جرادينجو ، بودستات البنادقة قد أرسل كل السفن الموجودة في جملة ضد دافنوسيون  
 Daphnousion ومن ثم حرمت القسطنطينية من أقوى مدافعها . انظر أيضا :  
 — Sanudo, dans Hopf. Chron. gréc. — rom., p. 114 et s., 172.

Annal Jan., p. 243.

(٧)

آنيا Anaa . فى كارية Carie تجاه ساموس Samos (٨) وفى غضون العشرين سنة التالية لإبرام المعاهدة ، جرى بين السكان الجنوبيين الجدد بالمدينة ، وبين السكان الروم القدامى بها منافسة بشأن من يجهز سفنا أكثر من الآخر للقيام بأعمال القرصنة ضد البنادقة ، ولكن لا شك أن الاثنيين أخلبوا المكان للأتراك قبل عام ١٣٠٠ . (٢) أدراميتيوم Adramyttium : كانت هذه المدينة حتى مستهل القرن التالى فى أيدى الجنوبيين ، ونراها فى تلك الآونة تدافع عن نفسها ضد الأتراك بحامية قوية تحت إمرة سادة فوجيه Phocee من أسرة زكاريا ، وسوف نتكلم عنهم بعد قليل (٩) . وأخيرا (٣) كاساندرىا Cassandria بالقرب من تسالونيك . وخصصت المعاهدة للجنوبيين محطات تجارية بها قنصل ، فى جزر خيوس (١٠) ولسبوس ، وكريت ، ونجربونت . وكان ميخائيل باليولوجوس وقتئذ يأمل فى استعادة المدينتين الأخيرتين . ورغم ما ظفر به الجنوبيون من مكاسب هائلة فى الأمبراطورية الرومية التى عادت الى سادتها الأصليين ، فأثنا نؤكد أن لا شيء أثار البهجة فى نفوسهم مثل رؤيتهم خصمهم الأكبر البندقية وقد طردت من أسواق الروم وبنطس Pont : وفى هذا الخصوص أرضاهم ميخائيل من وجهتين : فقد وعدهم من جهة بالألا يمنح حرية التجارة أيا من أعداء جنوا فيما عدا البيزيين ، رعاياه المخلصين (١١) ، والألا يسمح ، من جهة أخرى بدخول البحر الأسود لأية سفينة تجارية بخلاف السفن الجنوبية والبيزية ، والسفن المحملة بنقود ومؤن لحساب الامبراطور . نضيف أخيرا أنه بمقتضى المعاهدة ، يتمتع الجنوبيون بالاعفاء الكامل من الرسوم الجمركية التى كانوا يدفعونها حتى تلك الآونة .

هذى هى النقاط الرئيسية فى معاهدة نيمفيوم (١٢) التى يكفل تنفيذها للجنوبيين فى الأرخبيل والبسفور ، والبحر الأسود تفوقا يعادل التفوق الذى تمتع به البنادقة طوال سنتين عاما فى عهد الأباطرة اللاتينيين . على أن ميخائيل باليولوجوس لم يكن بالمرء مستعدا لمحاباتهم وحدهم دون غيرهم ، بل انه على العكس من ذلك بذل كل ما فى وسعه

Taf, et Thom., III, 71, 161, et s.

(٨)

Pachym, II, 558.

(٩)

(١٠) يقول : Agost, Giustiniani, Foglietta et Bizzaro ان ميشيل باليولوجوس قد اهدى جزيرة خيوس، كلها للمدينة جنوا : وهذا خطأ .

(١١) تذكر صحيفة التصديق أيضا بيزا ضمن الدول الصديقة التى يجب على الاسطول الجوى ان يراعها .

Lib. jur., I, 1350 et ss.

(١٢)



لكسب مودة ولاء كل من بقى من الغربيين فى القسطنطينية ، وكان سلوكه فى هذا الصدد تمليه مصلحته الخاصة بطبيعة الحال ، فقد كان يتوقع من يوم لآخر هجوما ينطلق من أى موقع فى الغرب ، وكان من الأهلية الا تقسم هذه الجاليات ، أو بلادها الأصلية على التعاون مع أعدائه . لذلك فانه وعده البنادقة تحت اشراف « البايلى » ، والبيزين تحت سلطة قنصلهم ، مثل ما وعده به الجنوريين تحت سلطة « البودستات » بمنح هؤلاء جميعا نفس الحرية فى التصرف ، والاعفاءات ، وأحياء جيدة (١٣) . ومع ذلك فانه لم يكن يثق بالغربيين ، ورغم الأحاديث الطيبة التى كان يتخفف بها ، فانه أبان عن ريبته هذه بما بذله من اهتمام بإجبارهم على السكن منفصلين عن بعضهم بعضا . ومع ذلك كان ارتياحه أقل حدة من ناحية البنادقة والبيزين الذين قل عددهم كثيرا عن ذى قبل ، منه حيال الجنوريين الذين أقبلوا فى جموع كبيرة ، فخورين بتفوقهم الجديد ، فكانوا من ثمة على استعداد لاساءة استخلام هذا التفوق (١٤) .

ومن بين الدول التى انتزع منها انتصار ميخائيل بالبيولوجوس السيادة على « رومانيا » ، كانت البندقية أول دولة بدأت النضال ، على الأقل لاتخاذ ما تبقى من أملاكها المباشرة وغير المباشرة (١٥) . ولثم تكن القوات الرومية والجنوية المشتركة فى حالة تسمح لها بمقاومة الأساطيل التى أرسلتها البندقية الى الأرخيبيل ، وانهزمت فى المعركة التى نشبت

(١٣) تدعو عبارات باشيميرس Pachymères I, 168 الى الظن بأن ميخائيل ، حين وافق على ترك البنادقة والبيزين بالمدينة ، فانه عين لهم مع ذلك أحياء جديدة بحيث لم يعدوا جيرانا كما كانوا من قبل . غير أن الظاهر يدل على أن الأمتين احتفظا بوجه عام بأحيائهما القديمة . انظر :

— Paspati, dans l'Annuaire du Syllagos, VII, 104, 106, 107.

وكان وضع هذه الأحياء يوافق تماما آراء الامبراطور ، ذلك لانها كما رأينا من قبل لم تكن متجاورة تماما . ولستأ نرى بوضوح ما اذا كان قد وسع المسافة التى تفصل بينها ، ولا الكيفية التى تصرف بها فى هذا الشأن ، وربما وضع بعض اليونانيين فى المسافة الفاصلة ، بدلا من المالقيين الذين لم يكن يوسعهم أن يطالبوا بتخصيص حتى لهم . وربما كذلك هذا القسم من المدينة قد أصابته الحرائق التى دمرت أحياء الفرترجة وقت الاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٣٦١ ، كما حدث قبلا عام ١٢٠٤ ، ومن ثم وسعت الحدود :

(Pachym. I, 147 ; Georg. Arerop, 192).

(١٤) حرب المظفون البنادقة ، وكيار التجار ، ولم يبق سوى صفار التجار وبعض المال .

Pachym., I, 162 et s, 167 ; Niceph. Greg., I, 97. (١٥)

قبالة جزيرة ستيبوتزي Settepozzi الصغيرة (١٦) . وكان مما يخشى منه أن يعلد الامبراطور فتوحاته الى كريت وقبرص (١٧) ، ومن ثم أوقفته هذه الهزيمة عنده حله . واذ رأى الامبراطور أن السفن الحربية الجنوبية انما تثير القلاقل في امبراطوريته ، فانه اعتزم في عام ١٢٦٣ أن يبعدها (١٨) .

وكان الامبراطور غير راض عن حلفائه ، وفي عام ١٢٦٤ أصبح علم رضائه هذا قطيعة صريحة . واليكم كيف تم هذا : فقد بلغه ذات يوم بطريق غير مباشر أن البودستات الجنوى بالقسطنطينية ، جوليلمو جويرتشيرو اتفق مع مانفرد ملك صقلية ، ودير معه مشروعاً للاستيلاء على القسطنطينية ، واعادة السيادة اللاتينية بها . ولم ينكر جويرتشيرو المؤامرة . حقا ، كانت المؤامرة من تدبير فرد واحد في أمكانه أن يفعلها دون علم حكومته ، ومع ذلك فان الامبراطور ، باجاء من ربيته المسيطرة عليه حيال اللاتينيين ، أمر كل الايطاليين بالخروج من القسطنطينية ، وخصص لسكن الجنوبيين مدينة بعيدة بعدا كافيا عن العاصمة ، وهي مدينة هرقله Heraclee (Ereklı) الواقعة على بحر مرمرية بين سلمبريا Selymbria ، ورودستو Rodosto (١٩) . وبعثا أبعثت حكومة جنوا جويرتشيرو ، وبعثا طالب سفرأوها تنفيذ المعاهدة التي تضمن لمواطنيهم الانتفاع بحق كبير في القسطنطينية تحت إدارة بودستاتهم ، وبعثا طلبوا على الأقل التصريح لهم بالعودة الى بيرية Péra (ميناء أثينا) : فقد أصر الامبراطور على ما أمر به (٢٠) .

وبينما جعل الامبراطور الجنوبيين يشعرون بوطأة غضبه ، فانه من جهة أخرى أجرى مفاوضات مع البندقية عن طريق أسير بندقي ، وكان بذلك يريد أن يرى ما اذا كان أكثر توفيقا مع أعدائه القدامى منه مع حلفائه القدامى . واستجاب الدوج رانييرو زينو لعروضه في شهر مارس

(١٦) نجد اسم هذه الجزيرة في :

Mart. de Canale, p. 488 (voy. not., p. 732) ;  
et par Dandolo, p. 371 à propos de la bataille ; Tof. et Thom., III, 169; Muntaner, trad. Lanz, II, 180; la note de l'Atlante Luxoro, dans les Atti della Soc. Lig., V, 97.

Taf. et Thom., III, 57; Mas-Latrie, Hist de Chypre, I, 392; (١٧)  
II, 69; III, 653 et ss.

Annal. Jan., p. 245 et s.; M. da Canale, p. 496. (١٨)

Annal. Jan., p. 249 ; Pachym, I, 168. (١٩)

Annal. Jan., l.c. (٢٠)

١٢٦٥ ، فأوفد سفيرين ، جاكوبو دانلولو ، وجاكوبو موروسيني مزودين بسلطات مطلقة بقصد عقد معاهدة ، وفي ٨ من يونيو ١٢٦٥ وعد الإمبراطور أول كل شيء أن يمنح مقاطعة البندقية الحيازة الآمنة للمدينتي كورون Coron ، ومودون Modon وجزيرة كريت ، والقسم من جزيرة نجرىونت الذي كانت تحتله ، والا يتعرض للنهباء البنادقة الذين اقتنعوا لانفسهم امارات في جزر الأرخيبيل . وثانيا أن يضع تحت تصرف البنادقة في القسطنطينية وتسالونيك ومدن أخرى أماكن كافية يقيمون فيها منشآت تجارية يديرها موظفون تابعون لهم (٢١) . وكان المنفق عليه طرد الجنويين من أراضي الإمبراطورية ، فإذا صاروا من ثمة أعداء ، فان البنادقة يضمنون قواتهم الى قوات اليونانيين للتصدي لهم . وهكذا دلت هذه المعاهدة على تطور تام في سياسة الإمبراطورية حيال البندقية . وكان الإمبراطور خليفاً بأن يتوقع على الأقل رفض الدوج التصديق على المعاهدة . ومع ذلك ، وبعد التفكير في كل شيء ، يتبين لنا مدى الصعوبات التي تعترض الدوج في اتخاذ قرار في هذا الصدد ، فلم تزل هناك أقسام حية باقية من الإمبراطورية اللاتينية القديمة ، وهي امارة المورة ، ودوقية أثينا ، واقطاعيات نجرىونت ، والكيكلاد الصغيرة . كما لم يفقد الأمل بعد في الحصول على معونة الغرب بقصد تجميع هذه الأجزاء المنعثرة من جديد ، وكان هذا الأمل يشر البنادقة بنزاهة أكبر بكثير مما وعدهم بها البابيلولوجوس . ترى هل كان عليهم أن يربطوا الى الأبد سياستهم بسياسة الإمبراطور اليوناني الذي قد تستقطه من فوق عرشه ذات يوم ثورة جديدة ؟ لم يكن الأمر أقل أهمية من هذا ، ولم تكن المسألة مجرد معاهدة مؤقتة . هل كان على البنادقة ، كما اقترح البعض في المجلس أن يلتزموا الحبياد ، حتى لو هاجم الإمبراطور نجرىونت وأجبر سادتها على الولا له بعد أن كانوا على اللوام حلفاء البندقية ؟ هنذه الاعتبارات ، وربما أيضاً الحاح الدول الصديقية (٢٢) هي التي حملت الدوج على رفض معاهدة الصلح المرؤضة عليه وتفضيل معاهدة قصيرة الأمد . وأدرك الإمبراطور أن البندقية تسعى الى كسب الوقت للانتقال ضدّه في الوقت المناسب ، ومن ثم

(٢١) لا كان هذا الجزء من المعاهدة لم ينفذ بالرة ، فاني أعفى نفسى من ذكر الأماكن المشار إليها . وتجد نص هذه الوثيقة باللغات اليونانية واللاتينية والألمانية في :  
 — Les Sitzungsberichte der Wiener Akad., philos. hist. Cl., oct. 1850; en grec et en latin dans le Cartulaire vénitien, en, III, 62 et ss., publ. par Taf. et Thom. ; en grec seulement dans Miklosich et muller, Acta graeca mediæ aevi, III, 76-84.

إطال أمد المفاوضات ، وفى نهاية ثلاث سنوات ، فى عام ١٢٦٨ قبض  
 أن يوقع على معاهدة مؤقتة مدتها خمس سنوات (٢٣) ، تتضمن قسما  
 كبيرا من البنود المنصوص عليها فى عام ١٢٦٥ ، ولكنها أقل ملامحة  
 للبندقية من حيث بندين رئيسيين . فأولا الفى الامبراطور الالتزام الذى  
 كان قد قبله بطرد الجنويين من القسطنطينية ، ومن الامبراطورية  
 بعامة (٢٤) ، واقتصر فى هذه المرة - قضاء على جرثومة الاضطرابات  
 الضارة بالامبراطورية - على تقرير مبدأ الحظر على الامتين المتنافستين  
 بحسم خلافتها فى المضائق التى تربط بحر ايجة بالبحر الأسود ، أو  
 فى البحر الأسود نفسه . وثانيا ، رفض أن يعين أماكن يتسنى البنادقة  
 أن يقيموا بها منشآت دائمة ، فقصر امتيازاته على التصريح لهم باستئجار  
 الأماكن التى تبدو لهم مناسبة ، و فقط بعد اتفاق خاص . ولم يظهر  
 أى امبراطور يمثل هذا البخل فى منح الامتيازات ، ولا بد أن هذا البخل  
 قد بدأ قاسيا فى أعين البنادقة ، وهم الذين كانوا على مدى سنتين عاما  
 يتحدون بأسلوب السادة فى الامبراطورية .

وفى عام ١٢٦٧ ، خيل اليهم أن الأحوال سوف تعود الى ما كانوا  
 يتمنون : ذلك أن بولدوين ، الامبراطور الذى خلع عن عرشه ، وراح  
 يحوب البلاد ، وجد حليفاً قويا فى شخص ملك نابولى الطوح ، شارل  
 الأول ، أمير أنجو . وبمقتضى معاهدة فيتر ب Viterbe (٢٥) ، تعهد  
 هذا الأمير بمحاربة اليونانيين ، واستقاط آل البيولوجوس ، وإعادة  
 الامبراطورية اللاتينية . وتضمنت المعاهدة بندا خاصا ينص على استرداد  
 البنادقة حقوقهم وأموالهم ، وأدرج هذا البند أيضا فى التعليمات التى  
 أصدرها الملك عام ١٢٦٩ الى السفراء الذين كلفهم بعقد حلف مع  
 البندقية (٢٦) . ومع ذلك يبدو أن هذه المفاوضات بقيت قائمة دون أن  
 تصل الى نتيجة . وفى هذه الاثناء اكتفى اللوج بالمعاهدة المبرمة فى  
 السنة السابقة مع ميخائيل البيولوجوس . ولم يمنع هذا شارل أمير  
 أنجو من أن يتقدم بجيوشه ولكنه لم يتجاوز البيلوبونيز حيث أراد أن  
 ينشئ قاعدة قوية لعملياته فى المستقبل ، وكان يظن أن أمامه فسحة من  
 الوقت لتجهيز رحلته الكبرى ضد القسطنطينية . وأصبحت هذه الحملة

Taf. et Thom., III, 92-100.

(٢٣)

(٢٤) عاد فى هذه الآونة فاجرى مفاوضات مع جنوا :

Annal, Jan., p. 262.

Ducange, Hist. de Constantinople, Charles, p. 17-21; Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Angio II, I, 30 et ss.

(٢٦)

Del Giudice, l.c., I, 300 et s.

أخيراً بالشلل نتيجة لمناورة بارعة قام بها الإمبراطور : فقد عرف فجأة أن الإمبراطور أعلن خضوعه للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ( مجمع ليون ١٢٧٤ ) ، وأن البابا شمله بحمايته . وكان هذا الحدث انقلاباً تاماً في الموقف ، وفي هذه الظروف قرر الموج ، بعد تردد طويل ، أن يقبل عروض ميخائيل باليولوجوس - فلم يكن هناك ما هو أفضل منها - وأن

يباشر مفاوضات جديدة بقصد مه فترة الهدنة .  
وهكذا استطاع ميخائيل ، بخطه بارعة أن يظفر بانتصار مزدوج ، ويبدد العاصفة التي تجمعت فوق رأسه . وفي الوقت نفسه ابتسم الحظ من جديد لقواته العسكرية : فتمة فارس يدعى ليكاريو Licario من أسرة فيرونية ( نسبة الى مدينة فيرونا بإيطاليا - المترجم ) استقرت في جزيرة نجر بونت ، دخل في خدمة جيشه ، فأعاد له فتح جزيرة نجر بونت ، باستثناء العاصمة ، ومجموعة من جزر الأرخييل الصغيرة ( ١٢٧٦ - ١٢٧٨ ) . وفقد عدد كبير من أسر البنادقة التي أنشأت لها أمارات في الجزر اليونانية ، فقدت سيادتها في غضون هذه الحملة ، البعض منها فقدتها مؤقتاً ، والبعض الآخر فقدتها نهائياً . وعادت الى الإمبراطورية اليونانية بصفة نهائية جزيرة لمنوس التي كان « الفرانديوك » بولولو نافيجابوزو Paolo Navigajoso يقسمها مع آل جرادانيجو Gradenigo ، وفوسسكارى Foscaris ، واقتيد فيليب جيزى Philippe Ghisi أمير جزر سبوراديس Sparades الشمالية أسيراً الى القسطنطينية . كذلك أعاد ليكاريو غزو قسم كبير من جزر الكيكلاذ ، إلا أن احتلال اليونان لهذا الجزر لم يدم الا بضع سنوات ( ٢٧ ) . وإذا كانت هذه الخسائر لم تصب مباشرة الا عائلات قليلة ، فإنها كانت مع ذلك عاملاً محسوساً في إضعاف سلطة البندقية في الأرخييل : إذ كانت هذه الموانئ أحياناً ملجأ للسفن التجارية الفينيسية من غارات القراصنة ، وأحياناً أخرى كان قراصنة هذه الجزر يجهدون فيها ملجأ أميناً ، ونقطة ارتكاز ممتازة ، افتقدوها من ذلك الحين . ومع ذلك بقيت البندقية حبيسة حياتها ، واكتفت بأن تنظم الدفاع عن حياها في نجر بونت تنظيمًا محكمًا . ولم يسبب لها هذا السلوك الحكيم أي ضرر ، وقد نفترض بأنه آكسبها ظروفًا أكثر ملاءمة لها ، أتاحها لها ميخائيل -

L'istoria del regno di Romania, de Sanudo, setrouvée par (٢٧)  
Hopp et publiée par lui — dans ses Chroniques gréco-romaines, p. 99  
et ss ; p. 122-127. ; Pachym., I, 205; Nicéph. Grég., I, 98; Hopf, artciel  
articles Ghisi et Giustiniani ; Gesch von Andros, et le suppte, dans  
Griechenland, dans Ersch et Gruber, 1e sect, lxxxv, 304 et ss ; les  
les Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil. hist. Cl., 1855, avril, p. 43;  
1856, Juillet, p. 225-228.

باليولوجوس في عام ١٢٧٧ عندما اقتضى الأمر تجديده المعاهدة لستين وفي هذه المرة لم يطالبها الإمبراطور بترك سادة تجربونت تحت رحمته، بل سمح لها أن تزودهم بمحونات ضده هو . ومع إبقائه كمبدأ القاعدة العامة التي تقضى بأن يستأجر البنادقة الأماكن اللازمة لمشتاتهم التجارية ، وضع استثناء من ذلك لأهم مدينتين ، القسطنطينية وتسالونيك : إذ وعده بتخصيص دار في القسطنطينية لقضاتهم ، ودار في تسالونيك لقنصلهم ، ثم دار ثانية في المدينتين لمستشاريهن ، وكالفة لحفظ الأسماء التابعة لدولة فينيسيا ، وخمسة وعشرين منزلا أو أكثر حسب الحاجة لسكنى التجار البنادقة عنده قدمهم : فقط لا بد أن تستأجر هذه البيوت كلها لحسابه ، وأضاف الى كل هذه المزايا منح كتيستى سانت ماريا ، وسان مارك في القسطنطينية ، وكتيسة الأرمن القديمة في تسالونيك . وحصل البنادقة أخيرا على التصريح الذي رفض منحه لهم في المعاهدات السابقة ، والخاص بمرور قوافل الحبوب القادمة من البحر الأسود عبر الأقاليم اليوناني دون أن تدفع عنها رسوم (٢٨) .

وبينما عقدت جمهورية البندقية على هذا النحو هدنة بعد أخرى ، ودائما لفترات قصيرة بحيث تتيح لتجارها الا تنقطع صلتهم تماما بالإمبراطورية اليونانية ، تابع شارل أمير الأنجو مشروعاته الخاصة بالغزو . ففي عام ١٢٨١ ، وقد وجد أخيرا في مارتن الرابع Martin IV بابا أكثر تقبلا لتلميحاته ، فانه حصل منه على اجازة مطلقة ، ومن ثم شرع للحال في العمل ، وبدأ بتسليحات ضخمة (٢٩) . وعقد مع البندقية في ٣ من يولييه ١٢٨١ في اورفيتو Orvieto معاهدة حددت القيام بالحملة في شهر أبريل التالي ، هدفها الذي أعلن جهارا إعادة الإمبراطورية اللاتينية ، ورصده التاج للأمير فيليب ابن بولويون آخر إمبراطور توفى عام ١٢٧٣ ، وصهر شارل دوق أنجو . وكان مقدرا أن تسترد البندقية امتيازاتها القديمة ، وأموالها كلها (٣٠) . ولم يكن الوقت قد أتىح للقوات المتحالفة أن تتجمع ، حين تفجرت الثورة المعروفة باسم Vepres siciliennes ( صلوات صقلية ) في ٣١ من

(٢٨) انظر الأصل اليوناني لهذه المعاهدة في :

— Miklosich et Muller, Acta et dipl. :

graec, III, 94 et ss.; la trad. en latin dans Taf, et Thom., II, 133-149. (٢٩)

Amari, La guerra del vespro siciliano (8e éd., 1876), I, 116-118; Archiv. stor. ital., 4e série, IV, 17, 174 et s.

Taf, et Thom., III, 287 et ss. (٣٠)

مارس ١٢٨٢ ، وهي انطلاقه للمشاعر الوطنية ضد الطاغية الأجنبي .  
 ونارت صقلية بأسرها ، واستلذت لحكمها بطرس الثالث ملك أراجون .  
 ولما كان هذا الأمير زعيما لحزب النجيبين فإنه سبق فأعد العدة لمحاربة  
 شارل دوق أنجو ، بالاتفاق ليس فقط مع اخوانه في الدين والنسيابية  
 في ايطاليا ، ولكن أيضا مع ميخائيل باليولوجوس . وحين مضى الجنوى  
 الافرانكو كاسانو Alafranco Cassano الى القسطنطينية حاملا معه  
 باسم شعب مسينا نبا هذه الثورة (٣١) ، ابتهج الامبراطور من كل قلبه  
 وكان محقا في ذلك ، لأن شارل دوق أنجو كان على أية حال قد أصبح  
 لا حول له ولا قوة لزمّن طويل . أما جمهورية البندقية فلم يكن في  
 عزمها أن تتحمل وحدها عبء هذه الحرب ، وكانت أيضا مضطرة لتأجيل  
 آمالها ، ووضع سلاحها (٣٢) . وحين توفي ميخائيل باليولوجوس  
 ( في ١١ من ديسمبر ١٢٨٢ ) ، ترك لابنه أندرونيك الثاني  
 Andronic II الامبراطورية في ظروف مواتية .

ولا يسعنا مع ذلك أن نترك ميخائيل باليولوجوس قبل أن نتحدث  
 عن علاقته مع الجنويين خلال السنوات الأخيرة من حكمه . وقد توقفنا  
 في اللحظة التي كان فيها غاضبا عليهم ، فطرد ألبانية الجنوية الى  
 هيرقلية . ولم يسم هذا الخصام طويلا ، فعندما لحظ أن البنادقة يرفضون  
 باضرار أن يعقبوا معه صلحا دائما ، رجع الى مشاعره السابقة . وكان  
 أول دليل على هذا التحول ايقاده في عام ١٢٦٧ مفاوضات الى جنوا .  
 وردت الجمهورية للتو على هذه المبادرة بأن أوفدت سفيرا هو  
 فرانتشيسكينو دي كاميللا Francescino de Camilla (٣٣) .  
 ونحن نجعل تفاصيل المفاوضات التي جرت ، والقرارات التي اتخذت .  
 ولكن الراجح أنه توجد علاقة مباشرة بينها وبين نقل الجنويين من هيرقلية  
 الى غلطة Galata (٣٤) . حسينا رواه باشيبييرس Pachymeres (٣٥)  
 يقول هذا الكاتب ان ميخائيل وجد أنه من الأفضل ، لصالح أمن الدولة  
 أن يكون حى الجنويين في غلطة . اقبالة القسطنطينية ، وبهذه الكيفية  
 يكون في استطاعته بالتاكيد مراقبتهم عن كثب ، وكبح ما يقع منهم .

Amari, l.c., p. 156. (٣١)  
 Hopf, art. Griechenland, op. cit., LXXXV, 327. (٣٢)  
 Annal Jan., p. 262. (٣٣)  
 (٣٤) السيد باسباتى Paspati . يجعل هذه الواقعة في عام ١٢٦٨ .  
 Pachym, I, 168. (٣٥)

انحراف في الوقت المناسب (٣٦) . وزيادة في الحيطه ، هدم برج غلطة الذي كان لهم بمثابة نقطة ارتكاز في حالة اندلاع ثورة ، وشتتهم خارج الأسوار في مجسوعة من المناسزل المصطفة على طول القرن الذهبي (٣٧) . وأنا لنجد في هذه الاجراءات تلك الريية التي أوحى بها الى الامبراطور ذلك العدد الكبير من الجنويين الموجود هناك وغطرستهم . واذا كانت ريبته من ناحية البنادقة والبيزيين أقل ، فذلك فقط بسبب عددهم الأقل ؛ ومن ثم تركهم داخل المدينة ، ولكنه حرص على عزلهم ، كما هدم بناء محصنا يشرف على السوق من جهة الشاطئ ، ويمكن أن يكون نقطة ارتكاز لهم . ورغم هذا الفرق ، فإن وضع الجنويين كان أكثر ملامة من عدة وجوه . أولا ، أتاح لهم سكنهم في ضاحية أن يتوسعوا بسهولة أكثر مما لم كانوا داخل المدينة ، خاصة وأن ميخائيل باليولوجوس قد جعل داخل الأسوار - كل الروم اليونانيين الذين كانوا يقيمون خارجها (٣٨) . ومن جهة أخرى ، لم تكن المسافة بين غلطة والمدينة سوى عقبة خفيفة ، لأن عبور القرن الذهبي لا يستغرق الا بضع دقائق (٣٩) ، كما أن الضاحية كانت على الأقل مماثلة للمدينة من حيث ملامتها لرسو السفن ، إذ كان في مقدور السفن الكبيرة الغاطس أن ترسو عند الرصيف (٤٠) . وعلى ذلك لم يكن لدى الجنويين من البواعث الا ما يحملهم على الرضا عن المعاملة الشديدة التي عوملوا بها ؛ وبمقادرتهم متفاهم في هرقليا الى ضاحية غلطة ، كان لهم أن يعتبروا أن الوعود التي تضمنتها معاهدة نيمفيوم قد تحققت ، على الأقل بصورة تقريبية .  
وأسمهم إيقاد سفارات جنوبية جديدة في عامي ١٢٧٥ ، ١٢٨٠ (٤١)  
في تعزيز العلاقات الطيبة بين الجمهورية والامبراطور ميخائيل . ونحن

(٣٦) كان عنده بواعث مختلفة لكيلا يتركهم يمدون لسفل جيهم القديم في داخل القسطنطينية . أولا كان من المتوقع دائما حدوث منازعات بين الجنويين واليونانيين ، وبين الجنويين والبنادقة وكان من الأفضل أن يجرى ذلك بعيدا بقدر المستطاع عن المدينة ، ولانيا . كانت الأسوار الجديدة التي أقامها حين كان يتوقع أن يهاجمه شارل دانجو تطلق قسما كبيرا من الحى الجنوى القديم :

(Paspali, op. cit. VII, 107, p. 208 et s.)

Nicéph. Grég. II, 841.

(٣٧)

Pachym. I, 163.

(٣٨)

Pegol., p. 14. Brochart, Advis directif (Coll. de chron. belges : Namur, Hainaut, Luxembourg, IV), p. 272.

(٣٩)

Clavijo, p. 70; Brochart l.c. p. 281; Bertrandon de Broquière, p. 556; Procop., De edific., I, 5.

(٤٠)

Annal Jan., p. 290.

(٤١)



لا نعرف من هذه العلاقات الا ما تنبئنا به معاهدة تفاوضت الجمهورية في عقدها (٤٢) ، ومع ذلك فربما هي لا تحيطنا علما الا بنصف ما فيها ، لاننا لا نجد فيها الا بيانا بالشروط التي وضعها الامبراطور وقبلها السفير ، ولا شيء يتعلق بمطالب الجمهورية ، وتنازلات الامبراطور ، وانما نرى فيها اشارة الى بودستات عينته الجمهورية ليدبر شئون مواطنيها في رومانيا ( أى في اقليم الامبراطورية الرومانية ) . ولكن ليس ثمة معلومات تشير الى الأماكن التي يسكنها هؤلاء المستوطنون . وتنتمي المسائل التي تعالجها المعاهدة الى مجال قانون الشعوب ( أى القانون الدولى ) أكثر مما تنتمي الى مجال القانون التجارى . وبالنسبة الى وجهة النظر الأخيرة ، لانتبين الاقترنين : فى احدهما يحتفظ الامبراطور لنفسه بالحق فى أن يحظر على الجنويين تصدير الذهب والفضة والحبوب الرومية المصدر ، أو السلع الغذائية بوجه عام . وعلى أية حال لا يجوز تصدير السلع الغذائية الا الى مواطنيهم ( أى اليونانيين ) لا الى أعداء الامبراطورية . أما الفقرة الثانية فانها تلج على ضروب الاحتيال التي يقترفها بعض الجنويين على خزانة الامبراطورية ، بأن يقرؤا ببضائع يملكها اجانب على أنها بضائعهم هم حتى تخضع لتفتيش الجمارك ، أو بأن يعقدوا صفقات خفية بقصد التهرب من سداد رسوم الانتاج .

وفى عام ١٢٧٥ ، أى فى السنة التي حررت فيها هذه المعاهدة ، تنازل ميخائيل باليولوجوس لجنوى يسمى مانويل زكاريا **Manuele Zaccaria** (٤٣) كان يتمتع عنده بحظوة كبيرة عن مدينة فوكايا (٤٤) **Phocee** ، ويسمىها الايطاليون فوجيا **Fogia** ، وفوليا **Folia** ، أو بان **Foia** (٤٥) ، وتقع عند مدخل خليج سميرن ، على الضفة

---

Sauli, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, doc. no. VIII, (٤٢)  
p. 204-208.

Sanudo, dans Hopf, p. 146 ; Pachym, I, 420; Hopf, art. Guls- (٤٣)  
tinioni, dans Ersch et Gruber, sect. 1, vol LXVIII, 310.

من المشكوك فيه أن يكون بنديتو شريكا فى ملكية فوكايا فى حياة اخيه مانويل ،  
ولكنه كان ورثته المنتظر .

Anne Commène, éd. Bonn., I, 361; Phocia dans Taf, et (٤٤)  
Thom., I, 118; Ibn-Batouta (II, 314) en fait Foudjeh. Hamilton (Voyage  
يتحدث هاملتون عن هذه الناحية ويسمىها  
Fouges  
en Asie — Mineure I — Fouges

l'Altante Luxoro, Atti della soc. lig. V, 95 ; Muntaner (trad. (٤٥)  
Lanz, II, 170-172).

الشمالية منه بجوار الجبال التي تحتوى على طبقات من الشبب الذي بدأ اليونانيون استغلاله من قبل ، وكان بمثابة منجم ذهب لسعيد الحظ الذي يمتلكه . ونجم ما توبيل زكاريا من تجارة الشبب ثروة هائلة (٤٦) . ويبدو أنه لم يكن هناك إلا نوع واحد من الشبب ينافس شبب فوكيا منافسة جديدة ، ذلك هو شبب البلاد التي تطل على البحر الأسود . كان الشبب ذو الجودة الأولى - كما يقول بيجولوتى Pegolotti - ويانى من سيرازونت Cerazonte (٤٧) . لذلك ازدري زكاريا بكل المشاعر الوطنية واستغل ما له من حظوة لدى الامبراطور فى صالحه الشخصى ، وحصل منه على أمر بمنع ما عده من الجنويين من استيراد الشبب من منطقة البحر الأسود . ولم يخزؤ الجنويون فى غلظة على الإحتجاج على هذا القرار خوفا من زوال حظوتهم لدى الامبراطور . وحدث أن انطلق من مدينة جنوا سفينة نقل كبيرة ، مرت أمام قصر الامبراطور فى القسطنطينية دون أن تؤدى له النجبة المعتادة (٤٨) ، ودخلت البحر الأسود ، واستولت على سفينة يونانية تحمل شحنة كبيرة من الشبب . ولم يكن من طبيعة ميخائيل باليولوجوس أن يتسامح فى مثل هذا النوع من الإحتجاج ، ومن ثم أطلق فى أعقاب سفينة القرصان هذه أسطولا تمكن من القبض عليها ، وهلك ضباطها بعد أن ذاقوا أقسى أنواع التعذيب (٤٩) . ويصعب التسليم بأن الامبراطور ألغى بنفسه الحظر الذى أثار الكثير من السخط فى جنوا ، بعد أن أبدى عزمًا قويا فى هذا الصدد . والحقيقة أن هذا الحظر لم يدم زمتا طويلا . ففى معاهدة عام ١٣٠٤ المنعقدة بين الامبراطور أندرونيك الثانى وجنوا نجد الشبب ضمن المواد التى يصرح الجنويين باستيرادها بحرية دون أن يدفعوا رسوما عنها ، من البلاد التى تشرف على البحر الأسود ، المستقلة عن الامبراطورية البيزنطية (٥٠) . وفى مناسبة أخرى ، تعرف الجنويون فى غلظة على صلاحية ميخائيل: فقد قتل جنوى يونانيا ، ومن ثم حاصر الامبراطور منازلهم بعسكره ، ولم يقبل العفو عنهم الا بعد أن قدموا له اعتذارهم ودفعوا غرامة كبيرة (٥١) .

Hopf, art Giustiniani dans Ersch et Gruber, sect. 1, vol. (٤٦)  
LXVIII, 310.

Chisende.: Pegol., p. 369. (٤٧)

Codin, Curopal., p. 75, éd. Bonn. (٤٨)

Pachym., I, 420-425; Nicéph. Grég., I, 134 et ss. (٤٩)

Lib. jur., II, 443. (٥٠)

Pachym., I, 425 et s.; Nicéph Grég., II, 134. (٥١)

وكان ميخائيل مضطرا بسبب المصاعب الخارجية للمحافظة على علاقات حسن الجوار معهم . من ذلك أن القسطنطينية كانت لعدة سنين عرضة لهجوم يشنه شارل دوق أنجو ، ولكي ينزع الامبراطور من نفوس مستوطنى غلطة (٥٢) الرغبة فى مشاركة هذا الأمير وقت ما ، بذل جهده ليثبت لهم عطفه عليهم ، ويكسب مودتهم (٥٣) . وكان فى الواقع يعرف أنه لا يخشى من جانب هؤلاء المستوطنين شيئا طالما حددوا موقفهم السياسى طبقا لموقف وطنهم الأصيل . وكان ملك نابولى قد أنذر جنوا وسائر الدول بأن يشتركوا معه فى الهجوم على الامبراطورية البيزنطية ، ولكن حكومة جنوا لم تقنع برفض انذاره ، بل بادرت بتحذير الامبراطور من الخطر الذى يتهدهد (٥٤) . ومن جهة أخرى كان هناك عدد من الجنويين المقيمين بالامبراطورية اليونانية . منهم بنديتو زكاريا Benedetto Zaccaria أخو مانويل ، مخلصين لسياسة وطنهم الأصيل . فعملوا على تكوين حلف بين الباليولوجوس وبين بعض الدول الغربية بقصد القيام بعمل مشترك ضد شارل دوق أنجو . وبوساطة جان دى بروتشيدا Jean de Procida من أهالى نابولى ، وهو لاجئ فى بلاط بطرس الأراجونى Pierre h'Aragon أجرى بنديتو مفاوضات لعقد معاهدة يتعهد فيها ميخائيل بالباليولوجوس بتقديم معونات مالية للملك أراجون اذا عبت لمحاربة شارل دوق أنجو (٥٥) . وتكفل بنديتو هذا فى عام ١٢٨٢ بأداء مهمة فى بلاطى أراجون وقشتالة باسم الامبراطور اليونانى ، بقصد توثيق الاتحاد السياسى بين الدولتين بعقد زواج بين ابن ميخائيل وابنة بطرس (٥٦) . ومع أن المعونات لم تدفع بالمرّة ، ولم يتم الزواج ، فان ذلك لم يكن من خطأ ارتكبه زكاريا ، اذ اسهم على كل حال اسهاما قويا فى فشل الهجوم الذى أعده شارل دوق أنجو . هذا الاهتمام الفعال الذى أبداه بعض الجنويين ذوى الشخصيات البارزة بنسئون الامبراطور ، والموقف الودى الذى اتخذته الجالية الجنوبية كلها قد اسهما فى أواخر حكم الباليولوجوس الأول فى مزيد من التقارب بين الجنويين واليونانيين .

(٥٢) فى هذا العصر كان الجنويون قد استقروا فى غلطة ( ١٢٦٩ ) .

Pachym., I, 366.

(٥٣)

Annal. Jan., p. 293.

(٥٤)

Ptol. Luc., dans Murat ss, XI, 1186 et s. et après lui Sanudo. (٥٥)  
Istoria del regno di Romania, dans Hopf, Chron. Gréco-rom., p. 132 et s.

(٥٦) خطاب من بطرس الى ميخائيل .

Saint-Priest, Hist. de la Conquête de Naples :  
par Charles d'Anjou, IV, 213 ; Amari, la guerra del vespro siciliano,  
8 éd., 299 et s.; p. 305.

وللخص في بضعة سطور نتائج حكم هذا الامبراطور بالنسبة الى لامم التجارية الغربية . ويدين له الجنويون بأفضال كبيرة : من ذلك أن لقضاء على تفوق البنادقة تفوقا عسغيا ، وإلغاء الرسوم الجمركية المرهقة اتاحا للتجارة نهضة كبيرة في المياه البيزنطية والبحر الأسود . ولا يسع الروم أن ينكروا أن الجنويين بعد أن كانوا زمنا طويلا أقل كفاءة من البنادقة في فنون الملاحة ، وفي الثروة والأبهة ، فانهم بزوا من ذلك الحين منافسيهم في هذين المجالين (٥٧) . ومن جهة أخرى وجه ميخائيل ضربة شديدة الى رخاء تجارة البنادقة في الشرق الأدنى . ولما لم يكن البنادقة يريدون أن يتخلوا عن مشروعهم الخاص باحياء الامبراطورية اللاتينية ، فانهم كانوا يراعون دائما حيال الأمير الذي يعتبرونه مغتصبا للعرش موقفا متحفظا على أقل تقدير ان لم يكن عدائيا فان الامبراطور لم يكن في وسعه الا أن يبدي من ناحيتهم ارتياحا كبيرا ، وكلما رأى واجبه أن يتنازل لهم عن شيء ، فعل ذلك دائما بيد شحيحة (٥٨) .

ومع ذلك لا يجوز أن ننسى أن ميخائيل لم يستطع أن يجمع تحت سلطته الا جزءا من امبراطورية الكومنينوس والأنجيلوس القديمة . والمعروف أن الصرب والبلغار قد انتزعوا قسما من الأقاليم الشمالية ، أما القسم الباقي فقد اقتسمه مع الأمراء الروم من آل انجيلوس الذين حافظوا على استقلالهم في تساليه وايروس Epire . وكانت اتيكا Attique وبيوتيا Béotia في أيدي دوقات من أصل برجندي . وفي جزيرة يوبية Eubée كان يحكم أمراء من سلالة المباردية . وأخيرا فاذا كانت غزوات الفارس ليكاريو قد آكسبته أرضا في هذه الجزيرة ، فان نجاحه هذا كان وقتيا . فعنى عام ١٢٧٨ كانت امارة المورة Moree في أيدي آل فيلهاردوين Villehardouin . وحين أسر ميخائيل باليلولوجوس الأمير جويوم (وليم ، غليوم) الثاني ، لم يحصل على فدية أكثر من ثلاثة أمكنة محصنة . وبعد وفاة جويوم ، استولى شارل دوق

Pachym., I, 419 et s.

(٥٧)

(٥٨) الفرق في المعاملة بين الجنويين والبنادقة في حفلات بلاط ميخائيل واضح كل الوضوح . فمتنما يستقبل الامبراطور في حفل رسمي لأول مرة بودستات جنويا ، يؤدي البودستات ركعتين ، ثم يسمح له بتقبيل يد الامبراطور وقدمه ، في حين لا يؤدي البابل البندقى سوى ركبة واحدة ولا يقبل يد الامبراطور أو قدمه . وفي المقابلات العادية يخلع كل من الاثنين قبعة ، الا أن البودستات الجنوى يؤدي فضلا عن ذلك ركعتين . وعند وصول سفينة جنوية يسمح لبحارتها بأن يحيوا الامبراطور بالصيحات : وهذا ما لا يسمح به للبنادقة . انظر :

— Codinus Curopal, De offic, palat Cpol, éd, Bonn,  
p. 75 et s.

أتجو على الامارة • وفي الأرخيبيل كان ميخائيل يمتلك الجزر المجاورة لتراقيا وآسيا الصغرى ، بينما بقيت الجزر المجاورة لليونان الأصلية تحت سلطة الأسر الفينيسية التي استولت عليها خلال الحملة الصليبية الرابعة • وأخيرا ، احتفظت جمهورية فينيسيا ( البندقية ) بجزيرتي مودون وكورون ، وجزيرة كريت بالإضافة الى مستعمرتها في نجر بونت •

وبالاجمال ، اذا كان من الثابت أنه من الأمتين التجاريتين الكبيرتين فى ايطاليا ، كانت جنوا تتمتع بأكبر قدر من النفوذ فى البلاد التي يحكمها ميخائيل باليولوجوس ، وذلك اضرازا بمصالح البندقية ، فان الدائرة التي كان يمارس بداخلها هذا التفوق كانت قاصرة على مقدونيا ، وتراقيا ، والشاطئ الغربى من آسيا الصغرى ، مع الجزر التابعة لها • وفى مقابل ذلك كانت هذه الدائرة تضم القسطنطينية ، المدينة العالمية ، والمنفذ الكبير الى البحر الأسود ، وتسالونيك بأسواقها الواسعة ، وجزرا مثل خيوس وزودس •

أما فى اليونان نفسها ، وفى الجزر اليونانية ، فالوضع كان على العكس من ذلك : فهنا ظلت البندقية ، وهى قوية بأملاتها المباشرة وغير المباشرة ، مسيطرة على محطات ذات أهمية كبيرة بالنسبة الى الملاحة التجارية ، والحرب البحرية • هنا كان حكمها فى نجر بونت يتصرفون ببراعة شديدة ، فما لبثت أن مارست ضريبا من الحماية على الجزيرة بأسرها ( ٥٩ ) • هنا ، منذ عام ١٢٦٢ كان حليفها جويوم الثانى ، أمير المورة ، وعملت بالاتفاق معه على منع تعدييات امبراطورية الروم ، على الأقل فى النطاق الذى تسمح به علاقاتها المتبادلة مع ميخائيل باليولوجوس ( ٦٠ ) •

نرى من ذلك أنه كانت هناك منطقتان متميزتان ، المنطقة الرومية فى شمال الأرخيبيل وشرقيه ، والمنطقة الإفريقية غربا وجنوبا ، وبين المنطقتين لم تكن تمر دقيقة فى سلام حقيقى طالما كان ميخائيل باليولوجوس حيا يرزق • وليس علينا أن نتهم هنا بالوقائع الحربية التي كانت القارة مسرحا لها ، وقد سبق أن تحدثنا عن الحملة البحرية الكبرى التي قام بها ليكاريو • غير أنه فى الفترات بين هذه الحروب الكبيرة ، استمرت حالة حرب صغيرة سببت للتجارة ضررا لم يسبق له مثيل ، وذلك بتشجيعها أعمال القرصنة بصورة هائلة فى المياه الرومية •

Hopf, art. Grichenland, op. cit., LXXXV, 307.

(٥٩)

Ibid, p. 284-290.

(٦٠)

وقد اكتشف حديثاً مصدر قيم لقصة هذه الحرب الصغيرة : ذلك هو المحاضر الرسمية للجنة شكلها عام ١٢٧٨ ثلاثة قضاة الدوج كونتاريني Giac. Contarini للتحقيق في أعمال النهب والعنف والجسائر التي عانى منها الرعايا البنادقة من جانب الروم وحلفائهم في غضون السنوات العشر السابقة . وقلما تصادف مثل هذه الأعمال في تواريخ أكثر قدماً . ولا بد أن شكاوى الضحايا التي تتلقاها اللجنة ، ويؤيدها شهود أو موظفون كونت ملقباً ليضعه بعض السفراء تحت أنظار الامبراطور تأييداً للمطالبة بتعويضات . هذه المحاضر لها أهمية كبرى (٦١) . فالى جانب فقرات تتحدث عن أعمال العنف التي ادتكبها بعض موظفى الجمارك ، أو دلالات السخبط التي بدت على بعض تجار الملح أو الحبوب ، فانها لا تعرض الا سلسلة من قصص القسطنطينية . ولا شك أن هؤلاء القراصنة كانوا مدفوعين الى ممارسة مهنتهم هذه على الأقل بكرامية قومية ، الى جانب ولعهم بالنهب والسلب ، ومن ثم راحوا يطاردون سفن البنادقة ، وينهبون ركابها ، ويسيطرون أحيانا معاملتهم ، ويجردونهم من كل ما معهم ، فلا يتركون لهم سوى ما عليهم من قمصان . كان أصغر سفينة ذاهبة من نجربونت الى شاطئ تسالية ، أو من اندروس الى نجربونت تتعرض للوقوع فى أيدي هؤلاء القراصنة ، فتترك لهم كل حمولتها ، حتى ولو كانت من الجبن أو الفاصوليا أو السمك . وكانت الرحلات الأطول من هذه تعرض البحار بالطبع لمخاطر أشد . ونقرأ ( فى المحاضر المشار إليها ) أسماء سفن تجارية كبيرة ، مثل بومبيزا Bombiza ، وزونيللا Zonella ، أسرت فى الأرخيبيل أثناء عودتها من سوريا وبها شحنة من القطن (٦٢) . ومن أسماء القراصنة ، نقرأ عددا كبيرا يدل على أنهم من أصل غربى . ومن السهل أن نفهم السبب فى هذا إذا فكرنا فى العناصر الغربية التي اختلطت بالجنسية اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة ، وبعدها أيضا ، وفى عدد الغربيين الذين خدموا فى البحرية الامبراطورية بصفتهم أمراء بحر ( اميرالات ) أو قباطنة . نذكر كمثال واحد لذلك الجنوى اندريا جافور Andrea Gaffore الذى نقرأ اسمه مرة بصفته قرصانا عاديا ، ثم بصفته قائد أسطول امبراطورى يضم ثمانى عشرة سفينة

Taf. et Thom, III, 159-281.

(٦١)

Sanudo, Istoria del regno di Romania, p. 132 ; Taf et Thom., (٦٢)

III, 337, 351.

حربية (٦٢) . وفي كل مرة يصادف محرر المحضر واحدا من هذه  
للأسماء التي تكشف عن أصل غربي أو تصحبها إشارة الى جنسيتها  
البيزية أو الجنوية أو غيرها ، لا يفوته أن يضيف أن الشخص المعنى  
يعمل في خدمة الأباطور ، أو أنه يقطن رودس أو تسالونيك أو  
آنيا ، الخ ، أو أن سفينة القرصنة التي يقودها جهزت في ميناء يونانية .  
هذه الدقة في البيانات قد روعيت طبعا لاثبات الحق في القاء المسؤولية  
على الامبراطور عن الأضرار التي سببها القرصنة . ولم يكن الذين من  
أصل يوناني بأقل عددا من الغربيين ، ولم يكن موظف الامبراطورية  
يتجولون من حياتهم ، بل ان منهم من كان يفعل أكثر من ذلك ، فيجهزون  
بأنفسهم السفن لأغراض القرصنة . مثال ذلك حكام تاسوس Thasos  
واسكوبيلوس Scopelos ، وسيريجو Cérigo ، وبخاصة حاكم رودس ،  
ويدعى كريفيكويتيس Krivikiotes ، وكان يحتفظ وقتا طويلا  
بالأسرى البنادقة الذين يقعون في قبضته ، فيوسعهم ضربا ، ويرغمهم  
على أداء أشغال شاقة ، بكالمجرمين . وبعد الجزر المذكورة بعاليه ، كانت  
الماوى التي يفضلها القرصنة هي جزر ساموتراس Samothrace  
وتريا Zia ، وساهوس Samos ، وموانى مالغوازيا Malvoisia  
( مومنازيا ، باليونانية - المترجم ) ، وتسالونيك على الساحل الأوروبى،  
وميناء آنيا على الساحل الآسيوى للأرخيبيل . ومن تسالونيك كان يوحنا  
سنسيرازون Jean Senserazon ينطلق مع طاقمه من القرصنة ، كانت  
آنيا تاوى بحارة يوحنا دى لو كافو Jean de lo Cavo المولود فى نامفيو  
Namfio ، والذي صار فيما بعد ملك هذه الجزيرة (٦٤) . واسما  
رئيسى القرصنة هذين هما اللذان يترددان كثيرا ، ولكننا نستطيع أن  
نذكر قرابة تسعين اسما آخر ، ويتبع اسم كل قرصان منهم قائمة طويلة  
أو قصيرة بالأعمال الشريرة التي اقترفها ضد البنادقة . وبخلاف هؤلاء  
القرصنة الذين يخرجون من موانئ اليونان وجزرها ، توجد مجموعة  
من القرصنة الجنوبيين الذين يتجولون حول نجرىون ، فلا يتركون  
المستوطنة الفينيسية فى سلام أف همدوء . وقد لخصت مغامراتهم فى  
مفكرة حررت بأمر من الولاية ( من ١٢٧٣ الى ١٢٧٥ ) (٦٥) .

Hopf, Urkunden und Zusätze zur Geschichte von Andros. (٦٢)  
(Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil. hist. Cl., XXI, 1826), p. 246,  
et s.

Sanudo dans Hopf, Chron., gréco-Romanes, p. 132 ; Hopf, (٦٤)  
Veneto - byzant., Analecten, dans les Sitzungsberichte der Wiener  
Akad., Phil. hist. Cl., XXXII (1859), p. 500.

Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 310, not 73. (٦٥)

وربما تسنى للجنوبيين والروم أيضا أن يضعوا قائمة مقابلة بأسماء القراصنة البنادقة أو حلفاء البنادقة . وكان سادة نجربونت ، حلفاء البندقية و « البايلى » الفينيسى نفسه (٦٦) يشنون غارات مفاجئة على سواحل الأمبراطورية اليونانية . وتكلمت احدى هذه الغارات ضد مدينة آنيا بنجاح باهر ، وأسفرت عن غنائم عظيمة من أحجار كريمة ولآلئ وأشياء ذهبية وفضية ، وعدد كبير من الأسرى . كذلك كانت الجزر الصغيرة فى الأرخيبيل ، التى يمتلكها سادة من أسر فينيسية تسهم بقراصنتها الأشداء الذين يغامرون بغاراتهم حتى أرمينيا وقبرص وكتبشاله (Scitia) Kiptchak (٦٧) .

هذه الحرب الصغيرة التى يشنها الطرفان دون هوادة ، دمرت البلد وسكانه ماديا ومعنويا . وزاد الطين بلة ثلة من القراصنة المحترفين ، تقاطروا من كل الأنحاء ، واستغلوا الفوضى الشاملة ، فراحوا يقتلون وينهبون بلا تمييز كل ما تصل اليه أيديهم . ومع أنهم كانوا يجدون أماكن يأوون اليها ، وخاصة فى نجربونت ، ونوبليا Nauplic . فقد كان لهم خصوم يطاردونهم بعزم وهمة . وفى هذه المهمة أبدى الاخوان مانويل ، وبنديتو زكاريا من فوكاية نشاطا عظيما ، ذلك لأنه كان من صالح تجارتهم فى الشبب تظهير البحار من اللصوص الذين يعمتون فيها فسادا (٦٨) .

وفى وسعنا أن نتصور الحسائر الجسيمة التى كانت تسببها هذه الولايات للتجارة بوجه عام ، وللقسطنطينية والبحر الأسود بوجه خاص ، وكذا لتجارة مصر وأرمينيا وسوريا وقبرص بطريقة غير مباشرة . ولم يكن هذا على ما يبدو سوى بداية حرب عامة نشهد فيها البندقية وهى تحارب الى جانب شارل دوق أنجو ، وجنوا تحارب الى جانب ميخائيل باليولوجوس . وكانت الثورة المسماة فى صقلية Vepres Sicilines وموت ميخائيل نديرا بوقوع الكارثة . وفى عهد أندرونيك الثانى مرت فترة تهديم من الطرفين . فمن جهة ، لم يكن هذا الأمير ذا نزعة قتالية بالمرّة ، ومن جهة أخرى ، بقيت الأمم التجارية هادئة فى العشر السنوات الأولى من حكمه ، رغم التفاوت فى المعاملة بينها فى بلاد الروم - وهو السبب الأول فى نشوب الحرب بينها . وفى هذا الصدد أتبع الامبراطور

Archiv. venet., XX, 81.

(٦٦)

Sanudo, dans Hopf, Chron. Gréco-romanes, p. 120, 127, 146 et s.

(٦٧)

Ibid, p. 127, 146 et s.

(٦٨)



الجديد الطريق الذى اختطه أبوه ، فقد اختص الجنويين بكل أنواع المراجعة مثلما فعل أبوه ، ومن ثم احتفظ هؤلاء ، بفضل هذا الوضع المتميز بتفوقهم فى السفور . وللأسف تعوزنا الوثائق المتعلقة بهذه الفترة الأولى من حكم اندرونيك ، ومن ثم فليس فى وسعنا أن نعرف بدلائل ثابتة الامتيازات الجديدة التى منحها لهذه الأمة . وليس من شك فى أن السفارة التى أوفدها جنوا عام ١٢٨٤ قد لقيت ترحيبا طيبا ، لأنها أتت ومعها ماركيزة من آل مونفيرا لتصبح زوجة الامبراطور الصغير (٦٩) . ونعرف أيضا سفارة نيكولو دى بالاتزو Nicolò di Palazzo فى عام ١٢٩١ (٧٠) ، غير أن نتائج هاتين السفارتين لم تتضح للأجيال التالية . وبعد مفاوضات طويلة استهلها فى القسطنطينية أنجيلو مارتشيللو Angelo Marcello . وماركو تزينو Marco Zeno وواصلها فى البندقية رئيس أساقفة لسبوس ، وقسطنطين فوسكامالوس Constantino Foscamalus تم أخيرا فى عام ١٢٨٥ التوقيع على معاهدة الصلح بين أندرونيك والبندقية . أما بنود المعاهدة فليست سوى نسخة من بنود ميثاق عام ١٢٧٧ ، غير أن مدتها المحددة بعشر سنوات تتميز بصورة مفيضة عن الهدنات القصيرة الأمد التى وافق عليها ميخائيل باليولوجوس . ويهذه المناسبة وافق أندرونيك على أن يدفع تعويضا قدره ٢٤٠٠٠ « هيربر » عن الأضرار التى سببها قرصنة الروم وحلفاؤهم فى عهد ميخائيل للبنادقة (٧١) ، ولكن لم يكن فى وسعه أن يتحمل المسئولية عن أعمال القرصنة التى ترتكب فى المستقبل ضدهم فى المياه اليونانية . والواقع أنه باهماله ، ترك البحرية الرومية تضعف حتى أصبح رعاياه عرضة لهجمات القرصنة ، بلا دفاع ، واضطر أن يأمر سكان السواحل بالانسحاب الى الداخل حتى لا يتعرضوا للسلب والنهب (٧٢) . ويتضح من ذلك أن الأجانب لم يكن فى وسعهم الا الاعتماد على أنفسهم .

ولم تفض عشر سنين على ارتقاء اندرونيك العرش حتى سقطت عكا فى أيدي سلطان مصر ، وسقط معها كل ما بقى من الدول الصليبية فى سوريا . هذه الكارثة سدت فى الجنوب طريق تجارة الشرق الأدنى ، أو جردتها على الأقل من كل أماكن فى هذه الناحية ، وكانت ضربة شديدة

Annal Jan., p. 311.

(٦٩)

Canale, Nuova istoria della republica di Genova, III, 202.

(٧٠)

Taf. et Thom., III, 322, et ss., 339 et ss.

(٧١)

Pachym., II, 105.

(٧٢)

على البنادقة ، خاصة ، وأن تفوق الجنوبيين في الشمال أقام العراقيين في طريق القسطنطينية والبحر الأسود ، وترتب على ذلك تفجر جديده في الحقد والكراهية بين البنادقة والجنوبيين (٧٣) ، وأصبحت أرض الامبراطورية الرومية من جديده مسرحا لأعمال القتل والنهب ، وشهد عام ١٢٩٤ بداية حرب طويلة بين القوتين ، وكانت البدايات في صالح الجنويين ، إذ أوقعوا بأعدائهم هزيمة ساحقة ، في معركة Lazazzo ، واستولوا عنوة على كانيا بجزيرة كريت ، ودمروا أسطولا تجاريا في ميناء مودون (٧٤) . ولكن بعد هذه الانتصارات الأولى ، تخل عنهم الحظ ، وانقلب لصالح البنادقة : فقد التقى أمير البحرية البندقية روجيرو موروسيني Ruggiero Morosini الملقب مالابرانكا Malabranca بأسطول صغير للعدو ، فطارده في البسفور حتى المضيق المعروف باسم هيرون Hieron (٧٥) ، ثم عاد الى غلطة ، ودمر كل ما صادفه في طريقه ( ١٢٩٦ ) . ولم تكن ضاحية غلطة قد اكتمل بناؤها ، ولم تكن لها أسوار (٧٦) ، وكان سكانها من الروم والجنوبيين قد لجأوا الى القسطنطينية بأسرهم وكل ما استطاعو حمله ، وانتظروا هناك العدو ، على استعداد لمقاومته . وتأهب سكان القسطنطينية اليونانيون للقتال ، وأغلقتوا بواباتهم ، وأقاموا حراسة متينة . واعتقل اندرونيك البنادقة المقيمين بالمدينة ليمنعهم من التواطؤ مع مواطنيهم (٧٧) . واعتبر أعداء الجنوبيين بمثابة أعدائه . أما البنادقة فقد أصبح من حقه أن يعتبر من أعدائه ، خاصة وأنهم قد خالفوا حكما من أهم أحكام المعاهدة ، ذلك الذي يحظر عليهم وعلى الجنوبيين أن يسووا خلافاتهم داخل المضائق المؤدية الى القسطنطينية (٧٨) . وبدأ موروسيني باشعال النيران في البيوت المهجورة بغلطة (٧٩) ، ثم وجه قواته الى القسطنطينية ،

Ibid, II, 232 et s.

(٧٣)

Dandolo, p. 404 et s.

(٧٤)

C'est le Lalgiro de Dandolo, p. 406.

(٧٥)

Jacq. de Vorag., dans Murat., SS, IX, 56 ; Nicéph. Grég., I, 134.

(٧٦)

(٧٧) ارتكب سكان القسطنطينية من اليونانيين في هذه المناسبة سرقات من السكان

البنادقة ، بلغت قيمتها ٧٠٠٠ هيبيربر : ويتبين ذلك ضمن بنود معاهدة الصلح في ٤

أكتوبر ١٣٠٢ - ٧ مارس ١٣٠٣ .

Taf. et Thom., III, 96, 141, 329, 346; Pachym., 11, 239.

(٧٨)

(٧٩) هذا الحريق اجبر الجنوبيين في بيررا اللاجئيين الى القسطنطينية ، أن يطيلوا

اقامتهم بها ، ونزلوا في حي البلاكيرن Blaquernes ، انظر : Paspatis, p. 215 ; Atti dell' soc. X, 498.

ولكنه واجه هناك مقاومة عنيفة ، فرأى من الصواب أن يتقهقر . وفى طريقه استولى بفترة على فوكاية التي كانت وقتئذ تابعة لبنديتو زكاريا المعروف ، أخى مانويل المتوفى عام ١٢٨٨ ، واستولى على المراحل وسائر الأدوات المستعملة فى صنع الشب (٨٠) . وبعد رحيل موروسيني ، وضع أندرونيك تحت الحراسة أموال البنادقة المقيمين بالقسطنطينية ضمنا لسداد مبلغ ٨٠٠٠٠ هيرير الذى طالب به تعويضا للبيوت التى أحرقت فى غلطة (٨١) . أما الجنويون فانهم أخذوا بثأرهم من المستوطنين البنادقة فى القسطنطينية ، وانتهزوا فرصة نزاع حرب بينهم وبين هؤلاء البنادقة فانقضوا عليهم . وانتزعوا منهم بالقوة برجا احتموا به ، وألقوا من فوق السطح « بايلهم » ( السيد بيمبو M. Bembo ) ، وقتلوا عددا كبيرا من أعيانهم (٨٢) . ونجا سواد الشعب من المذبحة .

ولكن الإقامة فى القسطنطينية لم تعد فى نظرهم مأمونة ، وفضلوا العودة الى البندقية . وخطر لأندرونيك أنه متهم بالتحريض على هذا التمرد ، ومن ثم بعث بوفد يشرح المسألة فى البندقية . ومع ذلك فالواقع أن هذا العدوان قد تم فى عاصمته ، وتحت أنظاره دون أن يلقى أى عقاب ، ومن ثم كان للجمهورية الحق فى أن تلقى على الأمبراطور تبعة هذه الأحداث . ولما كانت معاهدة عام ١٢٨٥ قد انتهت مدتها ، فانها رفضت تجديدها قبل أن يرد الأمبراطور الأموال التى وضعها تحت الحراسة (٨٣) . وبالإجمال ، ماذا كانت النتيجة التى حصل عليها البنادقة بهجومهم على المستوطنات الجنوبية ؟ (٨٤) لقد أنزلوا بخصوصهم فى التو واللحظة ضربات شديدة ، ولكنهم لم ينجحوا فى طردهم نهائيا من أى موقع من المواقع التى يحتلونها . أكثر من ذلك أن ما تركوه من خرائب أعيد بناؤه تحت أنظارهم ، وبخاصة غلطة التى أعيد بناؤها فى

(٨٠) Jacq. de Verag. l.c.; Dandolo, p. 406.

(٨١) يلاحظ باشيميريس Pachymérés بحق أن الامبراطور ، بتصرفه هذا ، كان يراعى أحكام المعاهدات التى تعطي الحق فى تمويل الضحايا على حساب المعتدين .

(٨٢) يذكر الأرمنى حيتوم Héthoum عدد ٥٦ :  
— Rec. des hist. descrois; doc. arménien, : I 490.

— أما مكمل جاك دى فوراجين فانه يذكر ٧٠ على الأقل :  
— Contin., de Jacq. de Voragine (Atti della Soc. lig., X 499).

(٨٣) Pachymérés, II, 237-244 ; Nicéph. Grég. (207 et s.); Jacques de Voragine et son continuatueu ; al charte d'Andronic publiée par Marin, VI, 305 et ss.

(٨٤) بينما حاجم موروسيني غلطة ، استولى سوزاتزو بقوة السلاح على كانا واستلبها (١٢٩٦) وسوف نرى ذلك فيما بعد .

زمن فصير على مساحات أوسع من ذى قبل ، فبدت وكأنها استمدت من كارتيتها دافعا قويا . أما بخصوصهم فإن الأعمال الثارية الفظيعة التي ارتكبها الجنويون دمرت مستوطنهم فى القسطنطينية ، كما تكبدوا هزيمة بحرية قبالة جزيرة كورزولا Curzola فى البحر الادرياتي ( ٧ من سبتمبر ١٢٩٨ ) (٨٥) . وأخيرا ، وبفضل وساطة ماتيوفيسكونتي Matteo Visconte ، سيد ميلانو ، عقدت الجمهوريتان الصلح من جديد عام ١٢٩٩ ، وتنازل كل منهما عن التعويضات التى قد يكون له حق فيها . ولم يكن للأمبراطور أى ذكر فى المعاهدة . كذلك قدر فى المعاهدة احتمال استقالة الحرب بينه وبين البندقية ، ذلك لأن الجنويين احتفظوا لأنفسهم ، بمقتضى المساهمات القديمة ، بالحق فى الاسهام بالدفاع عن كل موقع يهاجمه البنادقة فى بلاد الروم ، دون أن يعتبر هذا التعاون من جانبهم بمثابة انتهاك السلم (٨٦) . فالواقع أن البنادقة لم يكونوا فى هذا الحين قد تفاهموا مع اندرونيك ، وتثبتت البنادقة بالمطالبة باستعادة الضمانات التى استولى عليها الأمبراطور ، أو على الأقل انقاص التعويض الذى يطالب به ، وقدموا طلبهم فى عام ١٢٩٩ ، ولكن الأمبراطور لم يرحب بها ، ولم يرد عليها الا بإجراءات جديدة ضد المستوطنين البنادقة فى القسطنطينية (٨٧) . ولم يكن فى الامكان انهاء هذا الوضع الا باستخدام القوة : ففى عام ١٣٠١ ظهر أسطول بندقى بقيادة بيليتو جوستينيانى Belletto Giustiniani ، وجويدينو موروسينى Guidino Morosini أمام القسطنطينية ، وضرب كل شىء تحت أنظار سكان القصر الأمبراطورى ، وقبض على سكان جزر « الأمراء » المسالمين ، وعذبهم ، وحدث كل ذلك دون أن يجرؤ على الظهور الأسطول اليونانى الذى أصبح عاجزا بصورة مخجلة (٨٨) . وتنازل الأمبراطور أخيرا ، وأعاد الضمانات التى كان قد استولى عليها (٨٩) . وفى ٤ من أكتوبر ١٣٠٢ وقع سفراؤه فى البندقية على معاهدة الصلح . وفى ٧ من مارس

(٨٥) بخصوص هذا التاريخ ، انظر المناقشة التى جرت فى :

M. Yule, M. Polo, 1, plxxv et s.

Lib. jur., II, 344 et ss. ; voy. aussi Mavagero dans Murat., (٨٦)  
ss. XXIII, 1011; Taf. et Thom., III, 391 et s.

Pachym., II, 286 et s.; Dand p. 409. (٨٧)

Pachym., II, 322 et ss. ; Nicéph. Grég., I, 208-210; Dand., (٨٨)  
l.c. ; Commemorials della republica di Venezia regesti, 1, 20 (n. 79)  
et 24 (n. 102).

Pachym., II, 326. (٨٩)

١٣٠٣ صدق الأمبراطور على المعاهدة (٩٠) : فلم يتخل فقط عن المطالبة بتعويضات عن التخريب والدمار الذى أوقعه روجيرو موروسيني فى اقليم الامبراطورية ، ولكنه وعد أيضا بدفع مبالغ كبيرة تعويضا عن الأضرار التى سببها للبنادقة رعاًيا الأمبراطورية .

وفى غضون الحرب ، احتل البنادقة عددا من الجزر اليونانية (٩١) ، واحتفظوا بجزر تزيا Zia (سيا Cya) ، وسريفوس Sériphos (سارفوس Sarphus) ، وسانتورن (Sancta Erina) Santorin وأمورجوس Amorgos بعبارة أخرى ، اعترف اندرونيك بشرعية سيادة الأسر الفينيسية التى اقتطع لها منذ عام ١٢٩٦ امارات بهذه الجزر ، وهى أسر ميكيلي Michieli ، وجوستيناني ، وجيزى Ghisi وباروتزى Barozzi (٩٢) . وهناك على العكس من ذلك جزر مثل كوس (Lango) Cos التى غزاها حديثا بلليتو جوستينيانى (٩٣) ، ولم تكن أبدا تابعة للانيين ، عادت الى الامبراطور . ومن بين المسائل التى تهم التجارة ، نشير الى الحظر الذى فرض على التجار البنادقة ببيع الملح أو المستكة ( صمغ ) فى داخل الامبراطورية . وفى هذا الخصوص أبدى الأمبراطور صلابة ، حتى عاد السلام الى نصابه :

ولكن الأمور لم تتغير كثيرا بالنسبة الى البنادقة ، ولم تكن أعمالهم فى الامبراطورية فى حالة ترضيهم ، لذلك لم يكفوا عن تدبير الدسائس والمؤامرات ضد آل باليولوجوس . وفى عام ١٣٠١ تزوج شارل كزنت فالوا ، أخو فيليب ( الجميل ) ملك فرنسا حفيده الامبراطور السابق بولدوين الثانى ، وادعى أنه اكتسب بهسذا النسب حقوقا فى تاج القسطنطينية . وفى اليوم الذى أراد فيه أن يسعى لئيل هذه الحقوق ، وجد جمهورية فينيسيا مستعدة لمعاونته (٩٤) . وفى عام ١٣٠٦ ذهب

(٩٠) Taf, et Thom., IV, 12 et ss., 16 et ss ; Le premier livre de Misti v. Archv. Venet., XVIII, 324; XX 293.

(٩١) Navagero, p 1009.

(٩٢) Hopf, art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber, p. 303 et s. ; Zusatzet zur Gesch. von Andros, Op. Cit., p. 225 et ss; Veneto-byzant. Analekten, Op. cit., p. 237, 454.

(٩٣) Hopf, Giustiniani, op. cit.,

— لتلاحظ تلك الهجمات التى شنتها البنادقة على جزيرة كوس Cos فى عامى ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ( دانولو ، ص ٤٠٣ ) : وهذى واقعة ذات دلالة كبيرة .

(٩٤) لم يكن فى حاجة الى تشجيع البابا كليمنت الخامس :

عميله تيبو دي سيبوي Thibaut de Cépoय الى البندقية مزودا بسلطات مطلقة ، ووضع مع الحكومة برنامج حملة مشتركة. تنطلق في ربيع عام ١٣٠٧ (٩٥) . وفي انتظار الحملة قام عميلان من البندقية ، فيليبو مارشيانو Filippo Marchiano ، وماتيو بالبو Matteo Balbo بالتفاوض لعقد اتفاق سرى بين شارل وبعض أعيان امبراطورية الروم (٩٦) . وقام أسطول بندقى بمصاحبة تيبو دي سيبوي الى بلاد الروم ، وكان مكلفا بأن يمهدها هناك الطرق ، بصفته الوكيل العام لشارل وزوجته (٩٧) . وبنوع خاص أن يضم الى قضية المطالب بالعرش جماعة الجند المرتزقة القبطالونية (٩٨) . وذهبت هذه الجهود سدى : فقد راح شارل دوق أنجو يؤجل رحيله ستة شهور ثم ستة أخرى الى أن تخلى نهائيا عن المشروع . وفي هذه الأثناء ، عيل صبر الموج ، وهو ينتظر يوما بعد يوم ببدء العمليات ، وكان قد استدعى . في عام ١٣٠٨ التجار البنادقة الموجودين فى الامبراطورية ، وكانت أعمالهم كلها قد أصابها الشلل . ولكن نداءاته كلها ذهبت أدراج الرياح (٩٩) وأخيرا تبين أن الجمهورية قد تسلمت ، وعرضت مصالح تجارتها للضياع (١٠٠) ، وتعرضت هى للمخاطر ، كل ذلك نظير لا شيء . وكان الاصرار الذى تابعت به جملها باعادة الامبراطورية اللاتينية الى العرش ، اصرارا عجيبا لا يصدقه العقل . وفي عام ١٣٢٠ أجرت مفاوضات لهذا الغرض مع شارل ، صهر الأمير فيليب دوق نارانتو (١٠١) .

= (Commém. registi, I, 56 ; Taf. et Thom., IV, 38; d.d. 15 Janv, 1306)

- فضلا عن ذلك ، كان البابا بنوا الحادى عشر قد وجه نداء مشابها لكل المؤمنين :  
— Doc. sulle relaz. tosc., p. 112 et s.

— d.d. Paris, 28 juill, 1306 ; Taf. et Thom., IV, 48 et ss. (٩٥)

Ducange, Hist. de Cpel., p. 226 et Chartes, p. 50-53; Buchon, (٩٦)  
Recherches et matériaux. I, 49-50; Miklosich et Muller Acta groeeca,  
(٩٧) نجد هذا اللقب مقرونا باسمه فى ملحوظة على رأس موضوع :

M. Polo de Pauthier, p. 2.

Muntaner, trad. Lanz, II, 174 et ss.; Kunstmann, Studien (٩٨)  
uber Marino Sanudo d. alt, Obh der 3e Cl. der Bayer. Akad., XII 3,  
p. 775

Taf. et IV, 59 et s., 75-79; Commém., registi I, p. 85, (٩٩)  
no. 361, p. 172 et s., nos 10-15; Mas-Latrie, Coll. des doc. inéd., Mélanges,  
histor., 2e série, LII, 82 et ss. documents extraits des Commémoriaux,  
ou dans les Commém., Reg., I, 173 et s., nos 18-26, 28; p. 222  
et s., nos 243, 244.

Sanudo dans Kunstmann, Op. Cit., et dans Hopf, Chron. (١٠٠)  
gréco roman p. 173 : Romanin Storia di Venezia III, 9 et s.

Taf. et Thom., IV, 170 et s.; Coll. des doc. inéd. l.c. (١٠١)  
p. 72 et s. ; Hopf art Griechenland, Op. cit., LXXXV, 379, 405.

على أنه في مستهل القرن الرابع عشر ، تعرضت امبراطورية الروم  
 لخطر أفدح كثيرا من المؤامرات التي تحاك في الغرب : ذلك هو الغزو  
 التركي الذي كان يتقدم في آسيا الصغرى بقوة لا تقاوم . ولما يش  
 أندرونيك من أن يتغلب على هذا العدو بقواته وحدهما ، استغاث في عام  
 ١٣٠٢ بقائده المرتزقة زوجر دى فلور Roger de Flor وفرقته التي  
 اشتهرت باسم « السرية القطلونية » . هذه الواقعة ليست غريبة بالمرّة  
 على تاريخ مستوطناتنا التجارية ، فالواقع أن الجنويين رأوا باستياء  
 شديد وصول هؤلاء المرتزقة ، وأدركوا ، كما يقول رامون مونتانر  
 Ramon Muntaner (١٠٢) انه : « اذا بقيت هذه القوات في البلد ،  
 فانهم - أى الجنويين - سوف يفقدون الوضع القوى المشرف الذي كانوا  
 يتمتعون به حتى ذلك الحين ، لأن الامبراطور لم يكن يجرؤ على فعل أى  
 شئ دون موافقتهم » . واذا كان القطلونيون يتمتعون في الامبراطورية  
 بدور المنقذين ، فانه من الطبيعي أن تغدو أمتهم ، الأمة الأثيرة لدى  
 الامبراطور ، وكان في هذا منافسة تنهيا في المضمار التجارى . ألم  
 يمنحهم أندرونيك من قبل ( فى عام ١٢٩٠ ) حرية التجارة (١٠٣) ؟  
 وكان لا بد أن تفضى هذه الحالة النفسية الى الحرب : وهذا  
 ما حدث بالفعل . ولكن الجنويين خسروا هذه الحرب ، اذ راح ضحيتها  
 ثلاثة آلاف قتيل وجريح جنوى ، وكان لا بد من بذل جهود ضخمة لايقاف  
 المرتزقة الذين شرعوا فى نهب غلطة (١٠٤) . ولم يكن مناص من اللجوء  
 الى وسيلة أخرى : فاعتبارا من تلك اللحظة ، اهتم مستوطنو غلطة  
 باظهار كل ما يبيّن أن يثير رغبة الامبراطور من فرقة المرتزقة ، وكانوا  
 قد علموا باستعدادات شارل دو فالوا ، وكان هذا الأمير قد حصل فى  
 عام ١٣٠٢ من فردريك الثانى ملك صقلية على وعد بالمساعدة فى الحملة  
 التي اعتزم القيام بها (١٠٥) . وكانت عصابة روجر دى فلور فى خدمة  
 ملك صقلية ، ولم تنتركه الا حين قدمت الى القسطنطينية فى عام ١٣٠٢ :  
 ولم يفك الجنويون أن يصوروها على أنها طليعة متبكرة ، مكلفة بتهيئة  
 الساحة لجيش غاز . والثابت أن هذه الفكرة صحيحة الى حد كبير ،  
 ولكن اندرونيك رفض الاستماع الى تلميحاتهم هذه (١٠٦) ، ويرى فيها

Trad, Lanz, II, 106.

(١٠٢)

Voy. plus loin.

(١٠٣)

( انظر فيما بعد )

Muntaner, Op. cit., 107 et s. ; Pachym., II, 398 et s.

(١٠٤)

Ducange, Hist de Cple, Chartes, p. 43.

(١٠٥)

Buchon, Recherches et matériaux, etc., I, p. 48-50.

(١٠٦)

مجرد وشايات (١٠٧) . ومع ذلك فان عجرفة روجر ووقاحته ، هو ورفاقه تجاوزت كل الحدود حتى أحدثت انقلابا في نفسه . كان هؤلاء المغامرون يعتبرون رومانيا بلدا مغزوا ، وزودتهم وفاة روجر دي فلور (١٣٠٥) مقتولا بايعاز من الأمير ميخائيل ابن الامبراطور وشريكه في الوصاية على العرش بذريعة للتمرد ، ومن حاميتهم في جاليبولى أوفدوا مندوبين يحملان للامبراطور تحديا اصوليا . وثمة واقعة تثبت بكيفية واضحة استدامة عداة البندقية لبيزنطة : ذلك أن مندوبى القطلونيين قرأوا رسالتهم على الجالية الفينيسية فى القسطنطينية وسلموها نسخة منها (١٠٨) . وبقي الجنويون مخلصين لمناهجهم السلوكى ، وكانت مصالحتهم مختلطة بمصالح الامبراطور ، وكان اقصاء « السرية » ( القطلونية ) أو سحقها بالنسبة اليهم مسألة حياة أو موت . وهما كانت الخلافات والمنازعات التى تنشأ فى تلك الآونة بين اليونانيين وبين « البيروت Perotes ؟ (١٠٩) فانها لم تكن ذات أثر فى هذا الخصوص . فقد شن أميرال جنوى الحرب على القطلونيين فى بحر مرمره ، وأسر قائدهم بيرنجر دي انتنسا Berenger de Entenca وأميرال آخر هاجدهم فى عقر دازهم بجاليبولى ، تعاونه فرق يونانية ، ولكنه لقي مقاومة عنيفة واضطر أن يتقهقر (١١٠) .

ومع ذلك ، فبالنسبة الى أمة تجارية مثل الأمة الجنوبية التى كانت سفنها التى لا حصر لها تواصل حركة مستمرة ذهابا وإيابا بين الغرب والبحر الأسود ، كان من المؤلم أن تجد نفسها فى موقف عدائى مع فرقة حربية متمركزة بكيفية تتحكم بها على مضيق الدردنيل . لذلك انتهى الأمر بجنوى غاطة أن يصرحوا للامبراطور بعزمهم على عقد معاهدة صلح ، بأى ثمن مع القطلونيين ، وفعلوا كما قالوا ، دون أن يشغلوا بالهم بأن الامبراطور قد يستاء من تصرفهم هذا (١١١) . ومن جهة أخرى ضعفت صداقة البنادقة مع القطلونيين ، وازداد هذا التطور فى العلاقات (١١٢) كما يتبين فى المعاهدة المبرمة عام ١٣١٠ بين البندقية وامبراطور الروم ، إذ ادرج فيها البند الآتى ، حسب الرغبة التى أبداهها أندرونيك ، وموافقة

Pachym, II, 489 et s.

(١٠٧)

Muntaner, trad. Lanz, II, 132.

(١٠٨)

Pachym, II, 534-539.

(١٠٩)

Pachym., II, 533-557, 597 et ss. ; Muntaner, 133 et s, 150-155.

(١١٠)

Pachym., II, 624 et s,

(١١١)

Taf. et Thom., IV, 83.

(١١٢)



الاقطاعية : « يحظر على كل مواطن فينيسي - والا تعرض لعقوبة شديدة - أن يتجر مع السرية المشار إليها طالما كانت تحتل بالقوة أى موقع فى الامبراطورية » (١١٣) . والمعروف أنه أعقب ذلك جلاء القطلالونيين طوعا عن جاليبولى بعد أن أنهكوا ونهبوا البلدان المحيطة بهم ، واستقروا أخيرا عام ١٣١١ فى أتিকা وبيوتيسا ، وطردوا منهسا دوقات بيت لاروش La Roche وهكذا تخلص اليونانيون من جيرة مزعجة وجاء دور بنادقة نجربونت : ذلك أن شهوة الغزو عنده هؤلاء المغامرين ( أى القطلالونيين ) أصبحت لدى البنادقة فى نجربونت ماثارا للقلق المستمر . وامتدت غاراتهم الى داخل الجزيرة . وفى عام ١٣١٧ استولوا على عاصمة الجزيرة ، بصفة عارضة ، ولكن احتلالهم قلعة كارستوس Karystos كان أطول أمدا ( لم يخرجوا منها الا فى عام ١٣٦٥ ) (١١٤) .

ولم يكن هذا كل شيء ، فلم يعد يكفيمهم قطع الطرق البرية ، بل راحوا يمارسون القرصنة ، واتحدوا مع أتراك آسيا الصغرى فى تخريب جزر الأرخبيل حتى جزيرة كريت (١١٥) . وثمة العديد من أمراء الفرنجة الذين كانت مصالحهم فى هذه الظروف هى مصالح البندقية نفسها ، عرضوا على البندقية أن يكونوا معها رابطة للقضاء على السيطرة القطلالونية فى دوقية اثينا (١١٦) ، الا أن «الاقطاعية» لم تلبث أن اعترفت بأن كل ما فعلوه لم يكن سوى مفاوضات ، ومن ثم احتزرت من مهاجمة اقليم السرية القطلالونية ، ولكنها قامت بمطاردة القراصنة بسفنها الحربية (١١٧) ، ولجأت الى الطريق الدبلوماسى للحصول على تعويض عن الأضرار التى سببتها لتجارتها ، فخاطبت فى هذا الشأن قائده السرية الأمير الفونسو فادريك Alfonso Fadrique (١١٨) وأبيه فردريك الثانى ملك صقلية الذى أساء استقبال مندوبيها (١١٩) . وأخيرا ، فى ٩ من

Misti, Lib, 3 : extraits publiés dans l'Archiv, venet., XVIII, (١١٣)  
325.

Hoph. Ueberblick uber die Schicksale von Karystos, dans (١١٤)  
les Sitzungsberichte der Wiener Akad., phil hist, Cl, octobre 1853,  
p. 570 et ss. ; art. Griechenland, Op. Cit., LXXXV, 410 et ss.

Hopf. art Griechenland, Op. cit., LXXXV, 415 425 et s., 461; (١١٥)  
Dépêches de crête, dans Taf. et Thom., IV, 107-110.

Coll. des doc. inéd., Mélanges hist., iii, (1880), p. 32' et ss., (١١٦)  
34 et ss., 43 et s. Archiv. venet., XVII, 136 (4e paragr.).

Commem. Reg., I, 194, no 110. (١١٧)

Ibid et p. 193 ,no. 106. (١١٨)

Taf. et Thom., IV, 110-117 ; Coll. d. doc. inéd., 1.c., (١١٩)  
p. 36 et ss., 41 et ss.; Testa, De vita et rebus gestis Friderici II, Sicil.  
reg., p. 267-270.

يونيه ١٣١٩ انعقد الصلح ، وقعت معاهدة لسته شهر بين الفرنسيو فادريك والسرية القطاونية من جهة ، وبين فرانشيسكو داندولو ، البايل الفينيسى فى نجر بونت ، والسادة الاقطاعيين بالجزيرة من جهة أخرى . وتعهد القطاونيون بنزع أسلحة سفنهم البشراعية ، وألا يسلحوا سفنا غيرها ، وألا يساعدا القراصنة بكيفية مباشرة أو غير مباشرة . ومع ذلك صرح لهم بالاحتفاظ بالسفن الراسية فى ميناء ليفادوسترو Livahostro بشرط الا تكون مجهزة للقتال (١٢٠) ، ويقع هذا الميناء فى عمق خليج كورنثوس ، ومن هناك لم يكن فى استطاعتهم أن يهددوا جزر الأرخبيل ، أو يمدوا أيديهم الى الأتراك . وتجددت المعاهدة فى ١١ من مايو ١٣٢١ ، وفى ٥ من أبريل ١٣٢١ ( وربما أيضا فى مرات أخرى ) بعبارات متماثلة تقريبا ، فقط أضيف إليها بنده يتعلق بالأتراك : فقط حظر على القطاونيين أن يعقدوا معهم معاهدات جديدة ، وأن يساعدهم فى مشروعاتهم ضد نجر بونت أو الجزر الصغيرة التى يمتلكها أمراء من أصل بندقى ، من آل سانوتو Sanuto ، وآل جيزى Gijisi (١٢١) . ويبدو أن « السرية » تأثرت بجديفة متزايدة على تنفيذ هذه المعاهدة ذات الأهمية الكبيرة لآمن التجارة فى الأرخبيل ، ولهذا الأمر ما يبرره . فأولا ، لم تكن « السرية » سوى « جمهورية من قطاع الطرق » ، ولكنها اتخذت بالتدريج سمات الدولة القانونية ، ومن ثم تسنى للبندقية أن تتفاهم معها ، وأن تعيش معها فى مودة وثام .

كذلك أتاح القطاونيون للبندقية ، بطريق غير مباشر فرصة إضافة إقليم جديد على الأقاليم التى تملكها من قبل فى اليونان . وفى عام ١٣١٩ غزوا للمرة الثانية تساليا ، وضموا جزءا منها . وللتخلص منهم وضع سكان ميناء فتليون Phtelion الواقع على مقربة من زيتون Zeiton عند مدخل خليج فولوس Volo (١٢٢) ( فى بحر ايجه - المترجم ) ، وضعوا أنفسهم فى حياية البندقية (١٢٣) . ووافق أندرونيك (١٢٤) لعجزه عن الاحتفاظ بهذه المدينة ، والأمير الفرنسيو

Mas-Latrie, dans la Coll. des doc. inéd., l.c., p. 44 et ss. ; (١٢٠)  
Taf, et Thom; IV, 120 et ss. ; M. Thomas, Op. Cit., p. 335.

Coll. des doc. inéd., l.c., p. 49 et ss. ; Taf et Thom., IV, (١٢١)  
214 et ss.

Leake, Travels in northern Greece, IP, 341 ; Uzzano p. 224. (١٢٢)

Taf, et Thom., IV, 218. (١٢٣)

Sanut, Epist, 3, publ. à la suite des Secret fid. crue, p. 293. (١٢٤)

فادريك زعيم السرية (١٢٥) على أن تضع الجمهورية يدها على هذا الميناء ، وكان هذا التملك يحقق أمنيتها لأنه يزودها بمحطة بحرية جديدة على القارة في مواجهة جزيرة نجربونت ، وفيما مضى كانت سفنها التجارية ترسو كثيرا عند فتليون ، ولكن في عهد ميخائيل باليولوجوس أصبح هذا الميناء وكرا للقراصنة (١٢٦) . وإبتداء من الاحتلال أصبح هناك « خوري » بنديقي تابع لبايل نجربونت (١٢٧) .

أعقبت الاضطرابات التي أحدثتها حملة القطلونيين في اليونان فترة من الهدوء ، ومنتهد هذه الفرصة للدخول في بعض التفصيلات الخاصة بوضع مختلف الأمم التجارية الغربية في اليونان وأملاكها في مستهل القرن الرابع عشر ، وما طرأ عليها خلال هذا القرن ، وتنظيم مستوطناتها . ويحسن البده في هذا الخصوص بالجنوبيين ومستوطنهم في غلطة ، ذلك لأنهم هم الذين كانوا في هذه الحقبة يلعبون الدور الأول في البسفور . كانت غلطة في البداية تتكون من بضعة منازل معرضة دون دفاع لكل ضروب المهانة ، ودمرها موروسيني في عام ١٢٩٦ ، وهجرها نصف سكانها بعض الوقت في أعقاب الحريق الذي أشعله (١٢٨) . ثم بدأت تظهر من أطلالها ، فصارت مدينة حقيقية على الضفة المقابلة للقرن الذهبي . وفي شهر مارس ١٣٠٣ ، بناء على طلب الجنوبيين ، منحهم أندرونيك امتيازات لأراضي جديدة تضاف الى أراضيهم السابقة . وصار الكل يشكل من ذلك المين مجموعة متماسكة يطوقها سور وخنديق ، وترك فيما وراء الخندق منطقة جرداء منحدره عرضها ستون « أونا » (١٢٩) .

• (\*)

وشكل المدينة الجديدة يشبه تقريبا شبه المنحرف ، وقاعدته الكبرى ( طولها ٣٣٩ خطوة ) من ناحية البحر بعرض النتوء المستدير في نهاية القرن الذهبي وأول البسفور . ويبدأ هذا الخط من نقطة واقعة في القرن الذهبي على بعد حوالي خمس وعشرين خطوة من الحوض المسمى « الحوض القديم » ( Vetus tarsana ) ، وهو لا شك نفس الشكل الانسيابي الموضح على خريطة القسطنطينية لكوفر Kauffer ( التي نشرها السيد هامر

Hopf, art. Griechenland op. cit., LXXXV, 422. (١٢٥)

Taf. et Thom., III, 167, 214, 216, 235. (١٢٦)

Misti, dans l'Arch. Venet., XVIII, 329 ; XX 84 et ss. (١٢٧)

(١٢٨) جاك دي فوراجين Jacques de Voragine كبير أساقفة جنوا يذكر هذه الواقعة في مناسبة كنيسة القديس ميخائيل في بيررا التي تهدمت تماما في تلك الآونة .  
(١٢٩) الأون مقياس طول قديم يساوي حوالي ١٦٨٨ مترا - الترجمة .

( Hammer ) ( ١٣٠ ) ، وهو خليج صغير أقام عليه الـ Pérotés فيماً بعد ترساتهم البحرية ( ١٣١ ) : وتنتهي من ناحية البسفور عند النقطة التي يوجد فيها حالياً باب « كاراكوي Karakeui ( ١٣٢ ) ، على بعد ستين خطوة من برج غلطة . هذا البرج الذي يتردد اسمه كثيراً في تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ، وفي الوقائع البيزنطية لا بد أنه كان يقع خارج الحي الجنوى من الجهة الشرقية ( ١٣٣ ) ، ويرتفع على الشاطئ قبالة « لسان الإسراى » الداخلى فى البحر ، فإذا مدت سلسلة بين هاتين النقطتين ، أمكن غلق منخل القرن الذهبى ، وإذا مدت سلسلة أخرى بين برج غلطة وبرج لياندر Léandre فى جزيرة دوماليس Damalis أمكن منع السفن التى تعبر البسفور من الاقتراب من القسطنطينية .

أما قاعدة شبه المنحرف الصغرى ، وطولها ٢١٧ خطوة ، فإنها تسير موازية للقاعدة الكبرى بارتفاع قليل فوق الشاطئ ، وتجتاز بستان كرم ، وتمن أمام عدة كنائس منعزلة . وأما الجانبان فإنهما أقصر بكثير : فالجانب الخارجى ، وطوله خمس وسبعون خطوة فقط ، فانه يرتفع مكوناً خطاً منكسراً ، وأما الجانب الآخر ، ويبدأ من الحوض القديم ، فطوله تسعون خطوة . وعلى ذلك فان الطول الذى تشغله المدينة على الشاطئ يبلغ فى عمقه بنسبة أربعة الى واحد ( ١٣٤ ) .

وكان المخطور على كل جنوى ، حسب الأصول أن يسكن خارج الحدود التى أوصفتنا خطوطها ، وهى حدود يبينها بوضوح الخندق والمنحدر . غير أنه حدث بعد ذلك أن اشترى عدد من الجنويين أماكن للبناء ، وشيدوا عليها لأنفسهم مساكن خارج حيهم . ولما ترتب على ذلك إثارة بعض المتاعب ، اشتكى الإمبراطور من هذا الانتهاك ، والتزمت الجمهورية

( ١٣٠ ) ناحية Kalafat-yeri ، يشبهها السيد باسپاتى Paspatis ( ص ٢٢٠ )  
vetus targana هذه الناحية لا اثر لها فى أية خريطة أمكننى الحصول عليها .

Barbaro, Glorn, dell' assedio di Cpoli, p. 27 et s. (novarchio ( ١٣١ )  
di Pera).

Paspatis, 7, 89, p. 179 et s., 182.

( ١٣٢ )

( ١٣٣ ) لا يجوز الخلط بين هذا البرج وبين البرج المصن الذى لم يزل قائماً حتى وقتنا الحاضر ، ويقوم على مرتفع غلطة ، وهو مشهور بالمنظر الذى يجذب الأنظار الى ذروته : وقد شيده انسطاسيوس ديكوروس Anastasios Dikoros ، وأعاد الجنويون بناءه قبل استيلاء الاتراك على القسطنطينية بوقت قليل .

Sauli, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 209 et s. ; ( ١٣٤ )  
dans le Lib. jur. II, II, 435 et ss., et dans les Atti della Soc. Lig., XIII, 103 et s.

بالاعتراف بخطأ رعاياها (١٣٥) . ففي قانون صدر بتاريخ ١٤ من فبراير ١٣١٧ خصيصا لمدينة غلطة مادة تحظر على كل جنوى أن يبنى خارج الحى دون ترخيص من الأمبراطور .

أما بخصوص المنازل السابق بناؤها ، فلا بد من صدور قرار خاص بالاتفاق بين الامبراطور ومستشارى البودستات السنة (١٣٦) . وعلى العكس من ذلك . ترك أندرونيك للجنويين مطلق الحرية داخل الأرض الممنوحة لهم ، فيما عدا تشييد قلعة ، وهذا يثبت أنه كان يشعر بالخطر الذى يهدد القسطنطينية من مجاورة المدينة الجديدة (١٣٧) . ويادر الجنويون بالعمل بهمة ونشاط ، وسرعان ما اكتسى حيهم الجديد بصروح فخمة ، عامة وخاصة . وفى غضون شتاء ١٣٠٤/١٣٠٥ ، وتحت تهديد غزو يشنه القطلانيون ، أسرعوا باتمام وسائل الدفاع ، فجعلوا للخندق عمقا كافيا لا يصال ماء البحر اليه (١٣٨) . وفى عام ١٣١٥ اندلع فى المدينة حريق أحاله معظمها رمادا . وفى السنة التالية أعاد البودستات مونتانو دى مارينى Montano dei Marini بناء قصر البلدية ، ودور عامة أخرى ، كما شييد فى عهد سبور المدينة من اللاخل (١٣٩) .

والى جانب البناء المادى للمدينة ، كان لا بد من تأسيس المستوطنة على قواعد متينة ، ومن أجل هذا أنشئت إدارة مبنية ، وإدارة قضائية ، وتظلمت الشئون العامة . نجد برهاننا على ذلك فى مجموعة من الوثائق التشريعية التى وقعت فى أيدينا . والمجموعة المعروفة باسم *Magnum volumen Peyre* ليست الا ملخصا للقانون العرفى الجنوى الذى فرضه بأكمله على المستوطنة ، مع أمر صادر لموظفى المستوطنة بتطبيقه ، وهو عبارة عن مجموعة قوانين جنائية ومدنية وتجارية ، واجراءات جنائية (١٤٠) ، ويتكون من « تعليمات رسمية » *brefs* موجهة الى المحاكم القنصلية ، ولوائح وضعها « رؤساء الشعب » *Capitani del popolo* (١٤١) .

(١٣٥) مفاوضات بين الدوليك وجنوا فى ٢٢ مارس ١٣٠٨ :

Atti, I, c., p. 112, 114.

Sauli, II, 224 ; Atti, lc., p. 118. (١٣٦)

(١٣٧) امتياز منحة الامبراطور فى شهر مارس ١٣٠٤ :

Sauli, II, 211 et s. ; Lib. jur., II, 441 et s. ; Atti, I, c., p. 105.

Pachym., II, 495. (١٣٨)

Jaacq. de Vorag., Chron. cont. : Atti-della Soc. L'ig., X, 500 ; XIII, 321. (١٣٩)

M. Pardessus : Coll. des lois marit., VI, 582 et ss. (١٤٠)

Statut idella colonia genovese di Pera editi de Vinc. Promis, (١٤١) dans les Miscel di storia italiana, XI (1870), 513 et ss.

وبعض المراسم ، وكلها مؤرخة في القرنين الثامن عشر والثالث عشر (١٤٢) .  
 يضاف الى هذه المجموعة من جهة مجموعة من القرارات في موضوعات  
 متنوعة ، أصدرها في ٢٠ من ديسمبر ١٣٠٠ جافينو تارتارو Gavino  
 Tartaro ممثل الجالية الجنوبية في الأبراطورية البيزنطية والبلاد  
 المطلة على البحر الأسود للمستوطنات التابعة له ، وذلك حسب العرف  
 الذي يتبعه سبائر البودستات ، ومن جهة أخرى القوانين التنظيمية  
 الأساسية التي تسرى على كل المستوطنات والتي شرعت بجنوا في ١٦ من  
 مارس ١٣٠٤ . كل هذه اللوائح والقرارات التي ألحق بها منشور من رئيس  
 أساقفة جنوا ، ومرسوم خاص بمسائل القانون الجنائي ، أصدره في ١٨  
 من يولية ١٣٠٤ روسو دوريا Rosso Doria بودستات بيرا Pera  
 جمعت بمعرفة الإدارة التابعة لدوريا هذا في المجلد السادس والأخير لهذه  
 المجموعة القانونية (١٤٣) .

وفي حوزتنا أخيرا قانون بتاريخ ١٤ من فبراير ١٣١٧ (١٤٤) صادر  
 من الحكومة الجنوبية Consilium Gubernatorum ، ويسرى بنوع  
 خاص على بودستات بيرا والمستوطنين مرؤوسيه . وسنحاول اعتمادا على  
 هذا القانون ، وعلى بضع وثائق أخرى أن نوضح صورة للحياة الداخلية  
 في مستوطنة غاطلة .

**فالبودستات يتسلم أمر تعيينه في جنوا ، ولا تنحصر سلطته في**  
 دائرة بيرا الضيقة بل تمتد لتشمل كل المواطنين الجنوبيين المقيمين في  
 الاقليم اليوناني بصفة دائمة أو مؤقتة . أما القناصل الجنوبيون وسائر  
 الوكلاء الموزعين في الأبراطورية فانهم مرؤوسون له . وكان الأمر كذلك  
 في القرن الرابع عشر بالنسبة الى القناصل الموزعين على طول البحر الأسود  
 ( فيما عدا قنصل كافة وحده ) ، وفي آسيا الصغرى التركية حتى سيفاس  
 Sivas (١٤٥) . ولهذا السبب نرى لقب Potestas (vicarius) januensis

(١٤٢) أحدث تاريخ هو عام ١٢٩٠ .

(١٤٣) مرسوم ١٩ مايو ١٣١٦ بخصوص المسافرين الى كانا ( ص ٧٦٤ ) يبدو أنه  
 أضيف فيها بعد ؛ وهو نسخة طبق الاصل من بداية مرسوم كانا في مارس ١٣١٦ :  
 (Off. Gaz., p. 377 et s) .

(١٤٤) Sauli, II, 222-230 ; Atti della Soc. Lig., XIII, 116-123.

Statuti di Pera, l.c. p. 781 et s. (١٤٥)

نلاحظ أن Savasto ليست هي Sebastopoli . أما كانا فانها لم تصبج  
 الا فيما بعد العاصمة الادارية لكل منطقة البحر الأسود .

vicariud pro communi anua : : أو ذات مرة : in imperio Romania  
• (١٤٦) in toto imperio Romania et mari majori.

وكان يفسطلع الى حده ما بمنصب الوزير المقيم لوطنه لدى  
الامبراطورية ، الأمر الذي لم يكن يمنع حكومته من أن يمثلها سفراء  
مؤقتون في الأحوال الخطيرة • وبعد تعيين البودستات يقسم اليهين بين  
يدى الامبراطور • ولما كان ممثلا للدولة الغربية الأكثر رعاية ، فانه كان  
يظهر كثيرا في البلاط ، ويحضر بانتظام مع مستشاريه مائة الامبراطور  
أيام الاحاد ، والاعياد الدينية ، والحفلات وحسب قواعد ترتيب الأسبقية ،  
يتخذ مكانه في هذه المناسبات بعهد الاميرال الأعظم (١٤٧) • ولم تكن  
شخصية موظف له هذه الأهمية بمهملة في نظر الامبراطور • والواقع  
أن مبالغته في التحيز لمواطنيه ، أو قلة نشاطه يمكن أن يؤدي أى منهما  
الى عدم مراعاة الالتزامات التي تعهد بها الجنويون حيال الامبراطور • وفي  
كثير من الأحوال ، حين لا يتيسر للبودستات الوقت الكافي ليطلب تعليمات  
من جنوا ، فان عليه أن يتخذ قرارا من تلقاء نفسه • وفي وسعه أن يؤدي  
للامبراطور خدمات جليلة ، مسترشدا بروح المصالحة ، كما قد يسبب  
الكثير من الأذى اذا كان فظا ، عدواني الطبع • لذلك وضع ميخائيل  
باليولوجوس في معاهدة عام ١٢٧٥ شرطا يقضى بأن الشخص الذى يكلف  
بهذه الوظيفة يجب عليه أن يبدى اهتماما بمصالح الامبراطور بقدر اهتمامه  
بمصالح الجالية الجنوبية (١٤٨) • وفي بعض الأحيان يرفض الامبراطور  
أن يصدق على تعيين مرشح لهذا المنصب بسبب خلاف شخصى معه (١٤٩) •  
ويجمع البودستات بين يديه أعلى سلطة ادارية وقضائية • وكان له  
في ممارسة وظائفه أن يطبق قواعد القانون المدني والجنائى السارى في  
جنوا ، واللوائح الصادرة للمستوطنة في وطنه الاصلى (١٥٠) ، والمعاهدات  
القائمة بين جنوا وبيزنطة • ويساعده في ادارة المستوطنة « مجلس كبير »

Off. Gaz., p. 335 379 ; Lib. jur., II, 440 ; Sauli, II 260; Annal. (١٤٦)  
Jan. p. 276; Atti della Soc. XIII, 101, 102, 126, 123 etc., 936, 945, Statut  
di Pera I.c. p. 755, 763; Commem. Reg. II, 94, no. 538.

Codin Curapatat., p. 55 et ss., 65, 74-76; Cf. Cantacuz., I, 61; (١٤٧)  
Pachym., II, 539.

Sauli, II, 205.

(١٤٨)

(١٤٩) في عام ١٣٠٨ عين برايو سبيولا لثاني مرة لمنصب بودستات يرا ، وكان  
قد شغل هذا المنصب قبلا في عام ١٣٠٠ ، ورفض الدورينك التصديق على تعيينه لوجود  
خلافات بينه وبين أحد الشخص ، ومع ذلك تشبث رؤساء Capitani جنوا بتعيينه • انظر :  
Atti, I.c. p. 102, 113, 115.

Capitula communis Peyre : Atti, I.c., p. 177.

(١٥٠)

و « مجلس صغير » ، يتشكل أولهما من أربعة وعشرين عضوا (١٥١) ،  
 وثانيهما من ستة أعضاء يختار نصفهم من النبلاء والنصف الآخر من عامة  
 الشعب (١٥٢) . ولم يكن هذا النظام الديموقراطي قديما في أصله ، فقد  
 أنشئء درءا لميول اليهودستات القوية للنظام الارستقراطي . وبالطبع كان  
 للتغيرات العديدة التي طرأت على دستور الوطن الاصلى ردود فعل في  
 المستوطنة . فمنذ عام ١٢٧٠ نجده في جنوا من يطلق عليه لقب  
 Abbate del popolo وهو موظف له اختصاصات مماثلة لاختصاصات  
 قضاة الشعب tribun في روما ، وتتبع سلطته تطورات سلطة الحزب  
 الديموقراطي (١٥٣) . وأدخلت هذه الوظيفة أيضا في بيرا عام ١٣٠٦ ، كما  
 ينبئنا به الكاتب اليونانى باشيميرس الذى تكشف لنا أخباره عن علم  
 صحيح بهذه الأشياء (١٥٤) ، وبقيت هذه الوظيفة حتى أواسط القرن  
 الخامس عشر (١٥٥) . وكان اليهودستات يمارس مهام وظيفته القضائية  
 بنفسه أو بوساطة نائب عنه Vicarius curiae potestatis في دار البلدية .  
 وكان كل الجنويين في بيرا والقسطنطينية ، حتى من صار منهم أتباعا  
 اقطاعيين للامبراطور (١٥٦) خاضعين لقضاء هذه المحكمة . ولا يجوز  
 استدعاء أى جنوى أمام المحاكم اليونانية الا فى حالتين : أما بصفته متهما  
 بأحداث اصابات لأحد رعايا الامبراطور ، اذا رفض اليهودستات محاكمته ،  
 واما كمدعى ضد أحد رعايا الامبراطور فى قضية مدنية . وفى هذه الحالة  
 يتلقى شكاوى الجنويين موظفان روميان ، ولكن فى استطاعة اليهودستات  
 دائما استئناف الحكم الى الامبراطور ، اذا تبين له أنه مشوب بالتحيز ،  
 أو لا يستند الى أساس صحيح بسبب ضعف معرفة اللغة الايطالية (١٥٧) .  
 وأتبع اليهودستات النظام نفسه ، وعهد الى حكمين (mediatores)  
 بالفصل فى القضايا التى يكون فيها المدعى يونانى الجنسية والمدعى عليه  
 جنوى الجنسية . غير أن الامبراطور أندرونك احتج على هذا الانتهاك ،  
 وبأمر من الحكومة الجنوية ، عاد اليهودستات الى العرف القديم الذى يقضى

Statut de 1317; Sauli, II, 223 ; Atti, I, c., p. 116 et s. (١٥١)

Ibid et Lib. jur., II, 441 ; Not et extr., XI, 65 et s. 70. (١٥٢)

Canale, III, 161 et s. (١٥٣)

Pachym, II, 624. (١٥٤)

«Abbas Peyre» (1308); Atti, I, c. p. 113 et s.; Lib. jur, II, 441; (١٥٥)  
 Commem. reg., LI, 94 no 538. «Abazia di Pera (1427)»: Olivieri,  
 Carte e cronache manoscritte, p. 122.

Lib. jur., I, 1351; II 443; Atti, I, c. p. 108. (١٥٦)

Sauli, II, 205 et s., 227 et s. ; Atti della soc. Lig. XIII, 121, (١٥٧)



بأن يصدر هو الأحكام بنفسه (١٥٨) .

ولما كانت التجارة تلعب الدور الأول في حياة المستوطنين الجنوبيين ، كان معظم البشئون الادارية والقضائية التابعة للبودستات متعلقة بالتجارة ، لذلك كان يتبعه ليعاونه في هذه المهمة مكتب تجارى (officium mercancia) (١٥٩) . وكان عنده مهام كثيرة : فكان لا بد أولا أن يحترم موظفو الجمارك اليونانيون الاعفاء المطلق المكفول كتابة لصالح الجنوبيين (١٦٠) ، عند كل من التصدير والاستيراد ، وكذا عند البيع والشراء (١٦١) ، ومن جهة أخرى كان لا بد أن يراعى الجنوبيون القيود التى فرضها الأباطرة بخصوص بعض المواد تبعا لمقتضيات سياستهم التجارية . مثال ذلك كان تصدير الذهب والفضة محظورا الا بترخيص صريح من الأباطرة (١٦٢) ، وكان ممنوعا على الجنوبيين الاتجار فى الملح والصمغ ( المستكة ) فى كل أنحاء الامبراطورية (١٦٣) . وفى عام ١٢٧٥ كان تصدير القمح ولم يزل مصرحا به بشرط الا يصدر الى أعداء الامبراطورية ، ولكن فى عام ١٣٠٤ أصبح منع تصديره عاما (١٦٤) . ولعلنا نجد هذه القيود سيئة من وجهة نظر الاقتصاد السياسى ، وعلى أية حال فانها تضايق التجار الايطاليين كثيرا . ولكن لا يمكن من الناحية القانونية الاعتراض على أن يتخذ الأباطرة اجراءاتهم الكفيلة بمنع الغش والاحتيال ، فقد اعتاد الأجانب ذلك . مثال ذلك أن بعض الموظفين الجنوبيين فى المستوطنات كانوا يعطون التجار الأجانب شهادات بالجنسية الجنوبية تتيح لهم التهرب من الجمارك الرومية . وأخضع الامبراطور بطبيعة الحال اقرارات الجنسية لرقابة صارمة . ولم يكن بوسع الحكومة الجنوبية أن تفعل شيئا ازاء هذا سوى أن تصدر تعليماتها لموظفيها بأن يمتنعوا عن

Atti, I.c. p. 112, 114.

(١٥٨)

Off. Gax., p. 329-331, 337, 344, 351 et 419.

(١٥٩)

Atti, I.c. p. 107.

(١٦٠)

(١٦١) ومع ذلك لم تكن الحكومة الجنوبية تبدي أى اعتراض فى الحالة التى تطلب فيها الجمارك اليونانية من تاجر جنوى دفع رسوم لانه عمل على مرور حديد أو خشب أو ممالك بالاقليم البيزنطى لتصديرها الى الاسكندرية ، فقد كانت هذه الاعمال التجارية مخالفة لمراسيمها . انظر : Atti, I.c., p. 111.

Lib jur. I, 1355 et s. ; Atti, XIII 109.

(١٦٢)

Atti, XIII 107.

(١٦٣)

— لم يكن مصرحا للسفن الجنوبية الا بالمرور بملح البحر الاسود . المرجع السابق ، ١٢٠

SauB, II, 207; Atti XIII, 109.

(١٦٤)

مثل هذه المجاملات (١٦٥) . وثمة حالة أكثر تواترا ، تتمثل في أن يقر التجار الجنوبيون بأن البضائع الأجنبية تخصهم بالملكية ، أو أنها واردة بعامة من جنوا ، حتى تمر معفاة من الرسوم . وتقضى تعليمات بودستات بيرا بمعاقبة من يثبت خيانتهم هذه بدفع غرامة تساوى ضعف المبلغ المهرب من الجمارك (١٦٦) . وتلقى أصحاب السفن التجارية ووكلاؤها الأمر بأن يسلموا مندوبى الأمبراطورية اقرارا صحيحا بكل البضائع غير الجنوبية الموجودة فى سفنهم . وفى كل مرة تجرى عمليات بيع أو شراء بين تجار جنويين وتجار غير جنويين ، يجب على مندوبى مكتب بيرا العام للموازين أن يقدم عنها اقرارا لفتشى الجمارك اليونانية (١٦٧) :

ومن الوجهة الدينية كان الجنوبيون يتمتعون فى غلطة بحرية مطلقة ، فكان لهم الحق فى بناء كنائس خاصة بهم ، يقيم بها قساوستهم القديس تبعا للشعائر الرومانية . ولم يستثن الامبراطور من ذلك سوى ثلاث كنائس يونانية فى الأرض التى منحها اياهم أثناء توسيع المدينة ، وكان المفروض أن تبقى هذه الكنائس مخصصة للديانة اليونانية تحت سلطة بطاركة القسطنطينية (١٦٨) . وكانت مدينة غلطة تتبع دائرة اختصاص كبير أساقفة جنوا ، وكانت كاتدرائيتها التى هدمت فى عام ١٢٩٦ ، ثم أعيد بناؤها للفقور مكرسة للقديس ميخائيل S. Michel شفيع بيرا (١٦٩) . كذلك كان رئيس الكاتدرائية يودى وظيفة النائب العام لكبير أساقفة جنوا (١٧٠) وكانت غلطة تضم العديد من الأديرة الخاصة برجالك ينتمون الى طوائف دينية غربية (١٧١) . وقد نال بعض رجال الدين التابعين لهذه الدور شهرة عظيمة لدى الروم لعلمهم ، وتعمقهم

Atti, XIII, 111, 113 et s., 116 et s. (١٦٥)

Lib. jur., I, 1355; Sauli, 205, 225 et s.; Atti XIII, 111 et s. (١٦٦)  
114, 118 et ss.

Atti, XIII, 106, 119, et s. (١٦٧)

Lib. jur., II, 442, atti, 106; cf. Paspati, p. 271. (١٦٨)

Stella, p. 1113; Atti della Soc. lig., XIII, 153, 165, 167 174, etc. 948, 951, 972. (١٦٩)

Lib. jur., II 439, 445 ; Belgrano, Illustrazione del registro ardyvescovile, Atti, II, 374 et ss. (١٧٠)

Pachym., II, 616; Lib-jur., II, 437; Atti della Soc. Lig., XIII (١٧١)  
153 ; Coll. des doc. inéd., Mém hist., III, 282; Atti della Soc.  
lig., XIII, 934 et ss. ; ibid., p. 933, 949, 970.

في الفلسفة اليونانية القديمة ، ( فلسفة أرسطو ) ، وكلف العديد منهم بمهمات ، اما للمستوطنة ، أو حتى للإمبراطور ، وبخاصة حين جرت مفاوضات بين روما وبيزنطة بقصد اتحاد الكنيستين (١٧٢) . ويبدو أن كنائس الأديرة الرئيسية هي كنيسة القديس بطرس ، وكنيسة القديس فرانسوا ( حاليا J-ni Djani - بالتركية : الجامع الجديد - ) (١٧٣) ، ويحكى الرحالة كلافيجو Clavijo أن بهما ذخائر نفيسة ، وأنه شاهد بهما مقابر هامة (١٧٤) . وأخيرا ، كان من بين سكان بيرا عدد من المسيحيين الشرقيين التابعين للكنيسة الأرمنية (١٧٥) .

وبخلاف غلطة ، وعده ميخائيل باليولوجوس الجنوين أن يمنحهم محطات تجارية أخرى ، ولما كانت المصادر صامتة من هذه الناحية ، فانا نجهل مدى ما حققه من هذه الوعود . وعلى أية حال فان أندرونيك أوفى بنفسه بأحد هذه الوعود . ففي عام ١٣٠٤ وافق من جديد لصالح جمهورية جنوا على التنازل لها عن حي في مدينة سميرن ، به دار عامة ، وحمام ، وفرن ، وكنيسة ، الخ (١٧٦) . ويكفى أن نتذكر ما سبق أن قلبه بشأن تقدم الأتراك بأسيا الصغرى ، تقدما مخيفا ، لتدرك مدى ما كان لهذه الحيازة من طابع وقتي . ويكفينا أن نذكر جزيرة كاربادوس Karpathos (Searpanto) التي منحاها الإمبراطور أندرونيك الثاني اقطاعية للجنوي أندرياموريسكو Andrea Moresco مكافأة له على خدماته الجليلة ، وهو قرصان ثم أميرال . على أن موريسكو لم يتمتع طويلا بهذه الاقطاعية ، فقد طرده من الجزيرة أندريا كورنارو Andrea Camaro في مستهل القرن الرابع عشر ، ولما أراد أخوه لودوفيكو Ladovico أن يستردها ، كفر عن محاولته هذه بأن أمضى زمنا طويلا في سجون كريت (١٧٧) . وكانت أسرة زكاريا اسمه حظا ، اذ بقيت عدة أجيال مالكة لفوكاية (١٧٨) ومناجم الشعب الثمينة فيها ، وبلغت درجة كبيرة من الثراء . وفي الوسع أن نكون فكرة عن إيرادات هذه المناجم ، والسرعة التي نهضت بها فوكاية عام ١٢٩٦ من الحراب الذي حل بها ، وذلك بفضل روجيرو موروسيني ،

Cantacuz., II, 502 et ss. ; III, 62. (١٧٢)

Paspati, dans la Revue du Syllogos de Constantinople, (١٧٣)  
VII 115 ; Hammer Constantinople, II, 111.

Clavijo, p. 71 et s. (١٧٤)

Atti della Soc. Lig., XIII, 205 et s. (١٧٥)

Atti, XIII, 106. (١٧٦)

Hopf, Veneto-byzantinische Analecten, Op. cit., p. 479 et ss. (١٧٧)  
486 ; cf. Commem. reg., i, 208, 225 et s.; Archiv. Venet., XX, 294.

l'Hist. polit. Cpol., éd. Bonn., p. 26. (١٧٨)

حيث نعلم أنه في عام ١٢٩٨ باع بنديتو زكاريا ٦٥٠ قنطارا من الشب  
بسعر ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه (١٧٩) على أنه كان هناك في الموضوع نقطة سوداء  
تلك هي الأتراك الذين كانوا يتقدمون دون هوادة ، وبدت آسيا الصغرى  
أنها قضى عليها بأن تكون ضحيتهم . وكان لابده من اتخاذ الاحتياطات  
اللازمة لتوقى غاراتهم . ويحكى المؤرخ دو كاس Ducas الذى كتب بعد  
مائة وثمانين عاما من الأحداث التى نرويها ، وأجرى مع ذلك بصفته مالكا  
لمنزل فى فوكاية الجديدة أبحاثا كثيرة فى تاريخ هذه المدينة ، يحكى أن  
المشروع الأول اقتصر على بناء قلعة صغيرة تكفى لإيواء مالك المناجم وعماله  
الخمسين . ولكن ما ان بدأت أعمال البناء حتى أقبل يونانيو مقاطعة  
مينومينوس Mainomenos ، ومانيزيا Magnésie ، ونيمفيموم  
Nymphäum الذين نواشسهم الأتراك ، وتجمعوا حول اللاتينيين ،  
ووضعوا قواتهم تحت تصرفهم . ومن ثم نمت بصورة غير متوقعة ، وبدلا  
من القلعة البسيطة ، نشأت بلدة واسعة تكفى لسكنى اليونانيين  
واللاتينيين تحت حماية القلعة (١٨٠) .

ويبدو أن هذا التغيير فى الأوضاع الأولية قد طرأ فى عام ١٣٠٠  
لأن مونتانر Muntaner القطلونى الذى اشترك عام ١٣٠٧ فى حملة  
ضد فوليا Fuylla (Foglia) يقول انه كان يوجد قلعة ومدينة بها  
أكثر من ٣٠٠ ساكن يونانى يشتغلون فى تحضير الشب (١٨١) . وفى  
رأيه أن مؤسس المدينة الجديدة جنويان من أسرة كاتانيو Cattaneo  
أندريا ، وجاكوبو . والواقع أن بنديتو زكاريا انتدب قبل وفاته بخمس  
سنين ابن أخيه ( أو ابن أخته ؟ - المترجم ) تديزيو Tedisio ، ومانيزيا  
فوكاية ، وبعد وفاته (١٣٠٧) عهد ابنه ووريثه باليولوجوس ( المسمى  
أيضا بنديتو الثانى ) بسلطانه فى فوكاية الى ممثل جديده ، اندريولو  
كاتانيو Andreolo Cattaneo . وتوفى باليولوجوس عام ١٣١٤ ،  
وبموته انقرضت سلالة بنديتو زكاريا . عندئذ انتقلت فوكاية الى بيت  
جنوى آخر ، بيت آل كاتانيو ديلا فولتا Cattaneo della Volta  
من أقرباء آل زكاريا : وكان المالك الأول ، هو الممثل السابق لآل زكاريا ،  
اندريولو ( ١٣١٤ - ١٣٣١ ) الذى نقل الملكية الى ابنه دومينيكو  
Domenico ( ١٣٣١ - ١٣٣٦ ) . وبالعودة الى حكاية دو كاس ، يتبين

Hopf, art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber, 1e sect. (١٧٩)  
LXVIII, 310.

Duc, p. 162. (١٨٠)

Trad. Lanz, II, 172. (١٨١)

لنا أنها مطابقة للتاريخ الحقيقي من حيث أن ثمة أندريا ( اندريولو )  
تولى ادارة مستوطنة فوكاية سنين طويلة ، ولكن ليس فى القصة أية اشارة  
الى جاكوبو . وبخصوص توسيع فوكاية والتحصينات التى اجريت بها ،  
مما ذكره هذا المؤرخ ، اذا كانت قله تمت فى عهد اندريولو ، فانها لا يمكن  
ان تكون قله تمت الا فى السنة الاولى ( ١٣٠٦ ) ، لان مونتانو وجد المدينة  
قد تغيرت فى عام ١٣٠٧ . وعلى أية حال فان سبب تمرکز السكان  
المسيحيين فى هذا الموقع كان بالتأكيد تقدم الأتراك المستمر . على أن  
فوكاية لم تكن مهددة من جهة البر فقط ، فالقراصنة الأتراك كانوا  
يجوبون البحار على الدوام . وسواء أصبح الأتراك سادة على جزر الأرخيبيل ،  
أو سيطروا فقط على الجزر المجاورة لآسيا الصغرى ، مثل خيوس ، فان  
فوكاية وجدت نفسها منقطعة عن العالم الغربى ، وأصبح من المستحيل أن  
ترسل منها سفن مشحونة بالشب ، ولم يعد فى مقدور التجار الذين اعتادوا  
القدوم اليها لشراء الشب أن يصلوا اليها دون أن يتعرضوا لأكبر المخاطر .  
والح بنديتو زكاريا بشدة على الأمبراطور أن يتخذ الاجراءات الكفيلة بحماية  
فوكاية ، اللهم الا اذا فضل أن يترك له القيام بهذه المهمة . ولما تأخر  
الرد ، بادر بنديتو بنفسه ، دون انتظار ، وبدأ بوضع يده على جزيرة  
خيوس ( ١٣٠٤ ) . ولما لم يكن فى مقدور أندرونيك أن يطرده منها ،  
عهد اليه بحكمها لعشر سنوات ، دون أن يدفع جزية عنها واقترح بنديتو  
أن يستخدم إيرادات الجزيرة فى أعمال الدفاع ( ١٨٢ ) . وبعده انتقلت  
الجزيرة الى ورثته وخلفائهم ، ومع كل تغيير ، كان كل حاكم جديد يطلب  
من الأمبراطور أن يقلده منصبه ، واستمر علم الأمبراطور يرفرف دوما  
على أسوار العاصمة . ولكنهم كانوا فى الواقع يتصرفون تصرف الأمراء  
المستقلين . وتميز أحدهم ، مارتينو زكاريا ( ١٣١٤ - ١٣٢٩ ) بنوع  
خاص فى كفاحه ضد الأتراك ، تميز بشجاعته ونجاحه ، واكتسب لنفسه  
مركزا كبيرا بالحماية التى أحاط بها المسافرين الغربيين ، حتى ان فيليب ،  
المطالب اللاتينى بعرش القسطنطينية منحه لقب « ملك آسيا الصغرى  
وطاغتها » ، كما منحه البابا يوحنا الثانى والعشرين ، بالمخالفة للحظر  
العام المفروض على الاتجار مع مصر ، تصريحاً بتصدير المستكة الى  
الاسكندرية اعترافا بالخدمات التى أداها للمسيحيين ، وكذا لما وهبه من  
أموال كثيرة ( ١٨٣ ) . وهكذا فان خيوس التى لم يكن مصرح لها بمقتضى

Pachym, II, 558 ; Cantacuz, I, 370.

(١٨٢)

Jord, Catal., p. 63 ; Guill. Adoe ; De modo extirpandi Sara- (١٨٢)  
cenos (encore inédit ; cf. Giorn. lingust., 1878, p. 274) ; Minieri Riccio.  
Saggio di cod. dipl. Napol., Suppl., 2e part. (1883) ; p. 75 et s. ; Archiv

معاودة نيمفيوم بأن تتلقى أكثر من محطة جنوبية واحدة ، صارت كلها تحت سلطة الجنوبيين ، واستغلت أسرة زكاريا مناجم الشبب في فوكاية ، والمستكة في خيوس ، واحتكرت تجارة جنوا بيع هذين المحصولين ، وهما الثمن وأندبر محاصيل هذه المناطق .

ولننتقل الآن الى البنادقة . ففي القسطنطينية ، مركز الحياة التجارية ، بقي البنادقة في الدور الثاني الذي جعلتهم فيه الأحداث . ولم يعد رئيس المالية يحمل اللقب السامى ، البودستات ، فهذه الأصفة أصبحت من ذلك الحين قاصرة على رئيس التجارة الجنوبية . وفى عهد أسرة البيولوجوس لم يكن للبندقية فى القسطنطينية سوى « بايل » واحد ( ١٨٤ ) . وكان الفرق فى اللقب يجعل الباييل فى مرتبة أدنى من مرتبة البودستات . وفى البلاط مثلا لم يكن الباييل من الشخصيات التى تدعى الى مائدة الامبراطور فى الأعياد الدينية الكبيرة ( ١٨٥ ) ، ومنهم البودستات ، ولكنه كان مثل البودستات يذهب كل يوم أحد ليقدم للامبراطور فروض الاحترام ( ١٨٦ ) ، ويحضر أعياد البلاط ، ولكن لا يشغل ثمة المراتب الأولى . وكان أهم واجباته تمثيل مصالح وطنه ومواطنيه المنتشرين فى جميع أنحاء الامبراطورية . ولم تكن ثمة وسيلة لا يستخدمها الروم ، لشعورهم البدائى حيال البنادقة ، لمخالفة المعاهدات ، والتحايل عليها ، وكانوا يعتدون على البنادقة وعلى حقوقهم وأملاتهم ، بحيث ينشغل وقت الباييل فى مطالبات بالتعويض واحتجاجات . وكان من اختصاصه الفصل فى اعتمادات البنادقة على الروم ، والنسازعات بين البنادقة ، والشكاوى التى يرفعها أشخاص من أمم لاتينية أخرى ضد أعضاء الجالية الفينيسية ( ١٨٧ ) . ولهذا الغرض كان يعقد ثلاث جلسات فى الأسبوع ، أما فى محكمته ، أو فى المستودع ، أو تحت رواق كنيسة سانت ماريا . وكانت المقوبات التى يوقمها فى أغلب الأحيان غرامات ، تضاف اليها

---

= de l'or. lat., I, 272 M. Hojl.: Guistiniani génois, dans Ersch et Grüber, Op. cit.; Wolff (Giorn., Igust., VII, VIII, IX, 1981-82) ; Promis., La zecca di Scio durante il dominio dei Genovesi (Mem. dell' Accad. di Torino 2e série XXIII 1866).

«Rectorum, qui vocetur Bajulus.» Taf. et Thom., III, 83. «Ba- (١٨٤)  
julul seu rector.» Ibid. 97 et s. Cf. aussi, ibid., p. 139, 327; Nicéph.  
Brég., I, 97.

Codin Curop, 55 et ss., 74-76. (١٨٥)

Cantacuz, I, 61. (١٨٦)

(١٨٧) أحكام القضاء موجودة فى :

Le Capitulaire bajuli Constantinopolitani,  
Fillasi (Memorie dei Veneti primi e secondi, VI, 2, p. 191 et s.)

لتغذية الخزانة العامة للجالية حبصيلة مختلف الضرائب والأيجارات ، بحيث أن الخزانة كانت بصامة مملوءة بدرجة كافية لصرف مرتبات موظفي المستوطنة وسائر النفقات العامة . وكانت هذه الخزانة تتلقى أيضا الودائع النقدية ، والضمانات ، وكان البايل مدير الخزانة ، والمطلوب منه أن يقدم عنها حسابات دقيقة . ويلحق بالبايل أئمنسان من المستشارين (consilarii) ، مهمتهم ضمان سلامة تصرفاته الادارية ، واجراء رقابة مستمرة . وكان مرخصا لهم ، خارج وظيفتهم الاشتغال بالمسائل التجارية ، وهو أمر محظور على البايل ، لذلك فكثيرا ما كانوا يستغلون هذا الترخيص للاعتذار عن حضور الجلسات والاشتراك في الأعمال الرسمية . وفي حالة حدوث خلاف بين هذه الشخصيات الثلاث ، يتولى مجلس الاثنى عشر consilium majus الفصل بالاستئناف في المسائل المتنازع عليها ، وينتخب هذا المجلس كل عام من بين أعضاء الجالية (١٨٨) .

وفيما يختص بمساكن البنادقة بالقسطنطينية ، كان المبدأ الذي وضعتة معاهدة عام ١٢٧٧ وأيدته معاهدة عام ١٢٨٥ (١٨٩) ساري المفعول : فكان الامبراطور ملتزما بأن يوفر منزلا في حالة جيدة للبايل ، ومنزلا آخر لمستشاريه ، وثالثا لتخزين الاشياء التابعة للجالية ، بالاضافة الى خمسة وعشرين مسكنا أو أكثر حسب الحاجة (١٩٠) للتجار . هذه المفعول : فكان الامبراطور ملتزما بأن يوفر منزلا في حالة جيدة للبايل ، على ضفة القرن الذهبي ، بين باب

( حاليا باب سوق السمك -  
Balik Bazar-Kapoussi)

وبين باب la Pořa Drungarii وهو حاليا وفي الغالب باب زندان Zindan - Kapausai أى في موقع الحي البندقي القديم ، والراجح أن هذه المنازل لم تكن تشكل مجموعة مندمجة كما كانت في الأزمنة القديمة ، والثابت أن البنادقة لم يعد لديهم مكان مغلق يستطيعون بداخله أن يضعوا أشخاصهم وأموالهم في مأمن من الثورات الشعبية والحرائق (١٩١) . وكان لهم الحق من هذه الناحية أن ينظروا بعين الجسد الى وضع غلظة على الضفة الأخرى .

(١٨٨) المصادر التي استقينا منها هذه المعلومات هي اساسا :

Les rapports rédigés par le baile Marco Minotto, en 1317 (?) et 1320, et la Commission d'Andrea Gradenigo, 1374; Taf. et Thom., IV, 103 et ss., 164 et ss ; M. Diehl, dans les Mélanges d'archéologie et d'hist. publ. par l'école française de Rome, 3e année, mars 1883, p. 128-131.

Taf. et Thom., III, 139, 326 et s. ; Commemor., regist., I, 248. (١٨٩)

Diehl, l.c. p. 95, 103. (١٩٠)

Diehl, et Thom., IV, 187. (١٩١)

وكانت كنيسة القديسة مريم St. Maria والقديس مرقس S. Marc اللتان تتبعانهن منذ نشأة المستوطنة وإعادتهما اليهم المعاهدات (١٩٢) محصورتين بين المساكين ورعايتهما موكولة الى الأباطور . ولم يكن المستوطنون ملزمين بشغل المساكن التي يخصصها لهم الأباطور بالمجان ، أو أن ينزلوا داخل حى واحد ، فكانت لهم الحرية فى استئجار منازل على نفقتهم فى أماكن أخرى بالمدينة . وكانت هذه هى القاعدة أيضا فى تسالونيكيا ، فقط ، وبالنظر الى أن هذه المدينة أصغر حجما ، فان عدد المساكن التي يخصصها الأباطور للتجار البنادقة قد هبط من خمسة وعشرين الى خمسة عشر مسكنا على الأقل . ونعرف أن الأباطرة من آل باليولوجوس كانوا مقترين فى هباتهم للبنادقة ، لذلك فلا ندهش حين نعلم أن البيوت التي يخصصونها لسكانهم كانت صغيرة فلا يستطيع الذين تخصص لهم هذه البيوت أن يسكنوها ، ويفضلون أن يؤجروها من الباطن الى تجار السمك أو غيرهم من صغار التجار (١٩٣) . وكانت هاتان المدينتان هما الوحيدتين اللتين كان للتجار البنادقة الحق فى أن يخلصوا فيها على مساكن بالمجان ، ولكن كان فى وسعهم أن يقطنوا فى أية جهة أخرى على نفقتهم . نجد مثلا لذلك فى مدينة اينوس Oenos عند مصب نهر ماريتزا Maritza ، وفى جزر أخرى من الامبراطورية (١٩٤) .

ولسوء الحظ ، فانه بالرغم من الضمانات التي توفرها المعاهدات لكل من البنادقة والجنويين ، كان أمن الأشخاص والأموال غير مكفول كما ينبغي . ويبدو أن الأهالى اليونانيين كانوا يحملون دائما فى صدورهم ذكرى أليمة للزمن الذى كانوا يقاسون فيه من اضطهاد اللاتينيين لهم ، وكانوا يعملون المحاولات المتكررة التي كان البنادقة يقومون بها لاستعادة السيطرة اللاتينية على القسطنطينية . لذلك لم يكن يمر يوم دون أن يعتدى على أحد البنادقة أو يسلب ماله ، فإذا رفع شكواه الى المحاكم وجد القضاة أو بعض الحاضرين الذين لا شأن لهم بقضيته يصرخون فى وجهه ، فلا يستطيع حتى أن يسمع صوته . وكانت المعاهدات تعطى للبنادقة الحق فى أن ينالوا تعويضا من خزانة الدولة عما يصيب أملكهم من تلف بفعل الرعايا اليونانيين (١٩٥) ، ولكنهم حين يذهبون الى القسطنطينية للمطالبة

Taf. et Thom., III, 140, 327; IV, 188.

(١٩٢)

(١٩٣) شكوى جرهما ماركو سلسي Marco Celsi تفصل تسالونيك : راجع : Taf. et Thom., IV, 134 ; les Commem regist., I, 208, no 181.

Taf. et Thom., IV., 164, 166.

(١٩٤)

(١٩٥) معاهدة ١٣٠٣ فى :

Traité de 1303. Taf. et Thom., IV, 16 et ss.



بذلك ، يحالون للتنفيذ على أموال من تسبب في الاضرار بأملأكم ، وهذا لا يملك شيئا في الغالب ، ومن ثم يضطرون للتسفر ثانية الى القسطنطينية ليحصلوا على نقودهم ، وهناك يلقون تباطؤا وتسويبا ، وأخيرا ، بعد أن يكونوا قد ملوا من الانتظار ، يقبلون تخفيضا في ديونهم ، وعند السداد يقتطع موظف الخزانة أيضا جزءا من الدين . كانت حرية التجارة ، والاعفاء من الضرائب بالنسبة اليهم مجرد كلمات تقال ، يعترض تحقيقها كل أنواع العوائق . وكانت السلع الوحيدة التي يحظر عليهم فيها في اقليم الامبراطورية حسب المعاهدات هي الملح والمستكة (١٩٦) ، وكان بوسعهم تصدير القمح بشرط الا يكون ثمة غلاء ، والا يزيد السعر على عدد معين (١٩٧) ، ولكنهم كانوا يستوردون القمح أيضا من اقاليم البحر الأسود ، وبلغاديا بنوع خاص . وقد عالجت المعاهدات هذه الحالة ، فقد نص فيها على أن هذا القمح يمكن أن يعبر بمطلق الحرية اقليم الامبراطورية (١٩٨) . على أن الموظفين الروم كانوا يفسرون هذا البند على أنه يصرح للبنادقة فقط بنقل القمح عبر اقليم الامبراطورية ، لا يبيعه في أسواقها ، ويفرض على كل يوناني يشتري هذا القمح ضريبة قدرها ستة قراريط على كل « مودوس » modius ( مكيال قمح يساوي ربع بوشل - المترجم ) لذلك كان اليونانيون يفضلون طبعاً شراء القمح من جهات أخرى . وأصر البنادقة على أن تطبيق هذا الاجراء الظالم مخالف للمعاهدات ، لأن قمح البحر الأسود لم يكن ضمن السلع المستثناة من القاعدة العامة التي تنص على حرية البيع والشراء . ثم أن القمح لم يكن السلعة الوحيدة التي يجيز الموظفون اليونانيون لانفسهم ، دون أي حق واضح اما حظر بيعها للبنادقة أو اقتضاء ضريبة من المشتري . وثمة حق آخر كان معترفاً به للبنادقة دون أية قيود : ذلك أن يمارسوا أية حرفة ، ولكن شتان بين الحق والواقع ! فاذا أحضروا الى سوق القسطنطينية سروجاً صنعوها بأنفسهم ، صودرت هذه السروج عند الأبواب . وكان اليهود الذين يزاولون حرفة السراجة في حماية البنادقة يستهدفون بنوع خاص لمعاملات جائرة ، فكانت جلودها تحرق وتلقى في الماء . وكان في مقدورهم ، من الوجهة الرسمية أن يزاولوا حرفة الفراء ، على أن هذه الحرفة كانت في الواقع محظورة عليهم . ولم يكن مسموحاً لصياد بندقي

Taf. et Thom., IV, 17.

(١٩٦)

- كانت جزيرة جيوس ، وهي البلد المنتجة للمستكة تنتمي في تلك الفترة أيضا للامبراطور اليوناني ، الذي أنشأ احتكاراً لبيع هذه المادة .

Taf. et Thom., III, 98, 144, 332 et s., 349; IV, 82 et ss.

(١٩٧)

L.c. III, 144, 332 349.

(١٩٨)

أن يكون له منضدة فى سوق السمك ، ولجزار بندقى أن يكون له وضم أو منضدة فى السلخانة العمومية ، والأمر كذلك بالنسبة الى كل بائع بالقطاعى . وكانت الحكومة تبذل كل ما فى وسعها لاقامة حاجز بين الأجناس اليونانية والبندقية : فكان كل بحار يونانى يدخل فى خدمة البنادقة ، وكل عامل يونانى يشتغل مع بنادقة ، وكل منبج رومى يستعين فى تنقلاته بسفن بندقية يفرض عليه ضريبة أو يتعرض لمختلف ضروب الاهانة وسوء المعاملة . أما سائر الأمم الايطالية ، ليس فقط الجنويون ، ولكن أيضا البيزيون والآنكونيون فانهم كانوا يلقون معاملة طيبة تثير حفيظة البنادقة . وفى البلاط ، كانت شئون الجنويين تقضى دون عائق ، أما شئون البنادقة فانها لا تتحقق . وكان فى وسع الجنويين والآنكونيين أن يديروا حانات على أرصفة الموانئ خارج الأسوار ، أما البنادقة فلم يكن مصرحا لهم بذلك . وذات يوم اندلع حريق دمر مجموعة من البيوت الجاورة لكنيسة القديس بطرس التابعة للبيزيين ، ورخص لكل المنكوبين بأن يعيدوا بناء بيوتهم ، وكان البنادقة هم وحدهم الذين رفض الترخيص لهم بذلك (١٩٩) .

وهكذا ، وفى حين كان البنادقة فى اقليم الامبراطورية معرضين لنية الايذاء من جانب الامبراطور وموظفيه ، وكراهية الشعب ، وضروب الاذلال والاهانة ، كانوا فى المناطق اليونانية الواقعة تحت سيطرة الفرنجة يتمتعون على العكس من ذلك بمكانة متميزة . كانت مستعمرة نجرىونت التى يحكمها بايل بمعاونة اثنين من مستشاريه (٢٠٠) مركز نفوذهم ، كانت حسب تعبير بارع ورد فى خطاب حوره تاجر بندقى بمثابة « حبة عين » الجمهورية ، ويدها اليمنى (٢٠١) . وفى البداية كانت العقارات التى تملكها البندقية ملكية مباشرة محصورة داخل الحدود التى وصفناها قبلا ، أى أنها كلها ، بما فيها دار البلدية ، وكنييسة القديس مرقس (٢٠٢) ، ألغى لا تزيد على نطاق حى فسيح فى عاصمة الجزيرة . ومع ذلك ، وفى أيدى هؤلاء « البايلات » ، وهم من رجال الدولة الأكفاء ، ذوى العقول الراجحة ، الذين لا تفوتهم مصالِح الجمهورية ، أصبح هذا

Taf. et Thom., IV, 124-139; ibid. IV, 139-164; ibid IV, 187-191. (١٩٩)

Sanudo, dans Murat., SS XXII 797; Hopf, art. Grischenland, (٢٠٠)  
Op. Cit., LXXXV, 307, 371.

Hopf, dans les Sitzungsberichte der Berl. Acad., phil. hist. (٢٠١)  
Cl., 3 février 1862, p. 81, 89.

(٢٠٢) كان هذا الحى محاطا بسور حصن ، استغرق بناؤه من ١٣٠٥ الى ١٣٠٨ :  
Hopf art.Grischenland, Op., cit., LXXXV, 375.

وفى أعوام ١٣٣٨ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٣ أجرى توية التحصينات . ص ٤٣٨ .

الركن الصغير من المدينة قاعدة لمشروعات ضخمة ، فأولا ضعفت سلطة سائر السكان ، ملاك باقى الجزيرة ، بتغيرات طرأت على الأشخاص ، وتقسيمات ، ومنازعات داخلية ، واذ تركوا وشأنهم ، حين تخلى عنهم أمراء شبه جزيرة المودة الذين لم تكن تربطهم بهم الا علاقة تبعية اسمية تقريبا (٢٠٣) ، لم يلبثوا أن فهموا فى كفاحهم المتواصل ضد الروم والأتراك والقطالونيين أنهم لا يستطيعون أن يجدوا عوناً قوياً الا فى جمهورية البندقية التى لم تتخل أبداً عن مستعمراتها فى نجرىونت ، وكانت تزودها دواما بأسطول يحميها اذا تعرضت لأى خطر . وعلى ذلك كان هؤلاء السكان يشعرون أكثر فأكثر بأنهم فى حماية البندقية ، ويعتبرون أنفسهم سعداء اذ تتضمنهم المعاهدات التى توقعها مع غيرها من الدول . ومن جهة أخرى عرفت الجمهورية كيف تحصل على مقابل لخدماتها : فبعد أن طردت القطالونيين فى عام ١٣١٧ ، وضعت حاميات فى قلاع المدن ، فلم تترك لهؤلاء السكان الا بقية الجهات (٢٠٤) .

وعلى هذا النحو بلغت الجمهورية شنيهاً فشيهاً غاية مطامحها ، اى السيادة السياسية فى الجزيرة ، وكانت تملك هذه السيادة منذ زمن بعيد فى مجال التجارة : فبمقتضى معاهدة أبردت فى عام ١٢٦٢ ، كان على كل البضائع التى تصل الى الجزيرة عن طريق البحر ، مهما كانت نقطة تفريقها أن تدفع ضريبة جمركية (٢٠٥) مقدارها ٢٪ ، كما يقول بيجولوتى Pegolotti (٢٠٦) . على أن الشيء الذى كان يؤكد غالباً تفوقها ، هو أن نجرىونت هى المحطة التى يتردد عليها الغالبية من أسطولها التجارى ، فكانت السفن ترسو عندها عند مرورها ، ثم ترحل منها اى الى القسطنطينية أو تانا tana ، أو طربزون ، السبخ ، أو الى البندقية (٢٠٧) ، واما الى سواحل الأرخيبيل الأوروبية أو الآسيوية .

Hopf, Op. cit., p. 410. (٢٠٣)

Hopf, Op. cit., p. 413, 426, 438. (٢٠٤)

Taf. et Thom., III, 47, 53. (٢٠٥)

(٢٠٦) فى عام ١٣٤٨ ، اشتكى سكان الجزيرة

Pegol, p. 109; Hopf, Op. cit., p. 452.

من ارتفاع الرسوم الجمركية .

(٢٠٧) وفقاً للأسول التابعة ، اكان على السفن الحربية المتجهة الى القسطنطينية والبحر الأسود أن ترسو عند نجرىونت

(Arch. Venet., XVIII, 326, 327 ... Misti)

ومع ذلك ، وعلى الأقل فى عصور لاحقة ، حين كانت الرحلة تقتضى أن تكون سريعة ، كانت السفن تمر أحياناً بالكبيد ، على مرأى من سيريفو Sérifho انظر :

Sathas Doc. inéd. relat. à l'hist., de la Grece au moyen-âge, 1ère série, I, 67, 114, 134, 194.

وكان وضع دوقات جزيرة نكسوس Naxos ماثلاً تماماً لوضع سكان تجربونت tierciers . كان هؤلاء الأمراء الصغار يجمعون تحت سيطرتهم المباشرة وغير المباشرة العديد من جزر الكيكلاد ، وكانوا يتحدرون من أسرة سانودي Sanudi الفينيسية ، وادعوا زمناً طويلاً علم خضوعهم لوطنهم الأصلي ، ومن ثم أطلقوا على أنفسهم القاب الأتباع الإقطاعيين للامبراطور اللاتيني (٢٠٨) ، وأعيان إمارة شبه جزيرة المورة (٢٠٩) . وفيما بعد حين تعرضوا أكثر من غيرهم لغارات القراصنة ، اضطروا للالتجاء إلى البندقية التي جلبت اليهم من تجربونت معدات حربية . ومن ذلك الحين اقتنعوا بأن البندقية هي الدولة الوحيدة القادرة على حمايتهم ، فراحوا يبذلون كل جهودهم لتوثيق صلتهم بها (٢١٠) ، وفي ههنا كانوا يفتفون (٢١١) أثر العدد الكبير من أمراء الجزر الصغار ، من سلالة الأسر الفينيسية ، الذين كانوا في الكثير من الأحيان يمضون قسماً من السنة في البندقية ، ولما كانت إماراتهم لا تزدهم إلا بدخول قليلة لا تكفيهم ، فانهم يطلبون وظائف بالبندقية ، فكانوا ثمة أمراء بحر ( أميرالات ) ، وسفراء ، وحكاما في خدمة الجمهورية (٢١٢) . وكانت الجمهورية شديدة الحرص على ألا يعقد هؤلاء الأمراء زيجات لا تتوافق مع مصالحها ، إذ كان لا بد من منع انتقال هذه الجزر إلى أيدي أجنبية ، جنوية بنوع خاص (٢١٣) . لذلك فانها كانت تنظر في محكمتها كل القضايا الخاصة بالمطالبة باستحقاق الملكية والميراث . وكان كل ما من شأنه أن يسهم في تنمية سلطة الجمهورية ، وفتح محطات وموانئ جديدة في المياه اليونانية ، يعزز في الوقت نفسه مصالح تجارتها في الشرق الأدنى ، فضلاً عن أن منتجات هذه الجزر ، على قلتها ، كانت بمثابة إضافة الحركة التجارية .

وفي حين كان بايل تجربونت يمارس رقابة شديدة على القسم الشمالي من الجزر اليونانية ، كانت مصالح الجمهورية في القسم الجنوبي منها يرباعها دوق كريت . وكانت جزيرة كريت ، وهي أكبر هذه الجزر ، وتقع في الوقت نفسه في أقصى الجنوب منها بمثابة الحصن المنيح لهذه الجزر : ولما كانت في أيدي البندقية ، فانها كانت أداة ثمينة للسيادة

Hopf, Zusätze zur Gesch von Andros, Op. Cit., p. 242-245. (٢٠٨)

Hopf, art. Griechenland op. cit., p. 410. (٢٠٩)

Hopf, op. cit., p. 462. (٢١٠)

Hopf, op. cit., p. 378. (٢١١)

Hopf, Gesch, von Andros, p. 37 et s. 44 (٢١٢)

Ibid, p. 56-60. (٢١٣)

على هذه المنطقة كلها ، كما كانت بنوع خاص محطة وسطى ذات قيمة لا تقدر لتجارة سوريا . وقده سبق لنا الحديث في هذا الخصوص كما عدنا المنتجات التي كانت تزود بها التجارة ، ولا يبقى علينا الا أن نتناول تاريخ الجزيرة منذ أن صارت مستعمرة فينيسية .

فقد أراد ميخائيل باليولوجوس ، عاهل القسطنطينية أن يستعيد الجزيرة ، فبعث إليها بالجيوش . واذ أصح المستعمرون البنادقة هدفا لهجوم هذه الجيوش ، واعتداءات الأهالي اليونانيين ، فقد وجدوا أنفسهم في وقت ما في موقف حرج للغاية ( ١٢٦٤ ) ( ٢١٤ ) . ومع ذلك فقد أحبطوا هجمات أعدائهم حتى أن الأوان لعقد الصلح معهم . وبمقتضى معاهدات أعوام ١٢٦٥ ، ١٢٦٨ ، ١٢٧٧ تمهد ميخائيل بسحب قواته ، والا بنزاع البنادقة ملكية الجزيرة ( ٢١٥ ) . وفي الواقع لم يأت بعد ذلك أى تهديد للجزيرة من ناحية القسطنطينية . ومع ذلك بدأ عهد المشاكل الداخلية . ولئن نتكلم الا من قبل التذكرة عن الخلافات الداخلية التي نشأت عن واقعة ثارية فردية أثارت في عام ١٢٦٩ ثورة عدد من الأسرى الفينيسية ضد الدوق أندريا تزينو Andrea Zeno ( ٢١٦ ) ( ١٢٦٥ - ١٢٦٩ ) : الا أن عناصر المقاومة الرئيسية كانت في أسر « الارشوننتات » ( الحكام اليونانيين ) archentes grecs وهي أسر شديدة البأس بما تمتلكه من أقاليم ، وبنفوذها على سكان الأرياف . كان زعماء الثورة الأولى هم أفراد أسر كورتازي Cortazzi الذين أعلنوا عزمهم على طرد الأجنبي ، وكادوا يصيبون هدفهم مرتين ، المرة الأولى في عام ١٢٧٤ حين فاجأوا الدوق مارينو تزينو Marino zeno في شعبة ( ممر بين جبلين ) ، واستشهد في ساحة القتال زهرة الأسر النبيلة الفينيسية ، والمرة الثانية في عام ١٢٧٧ اذ ضيقوا الخناق على الدوق بينيترو تزينو Pictre zevo في كانديا العاصمة التي ضربوا الحصار عليها ، غير أن وصول مارينو جراد ينجو Marino Gradengo أجبرهم على رفع الحصار ، وما لبثوا أن استسلموا بعد الهزيمة ، وبعد أن استمرت ثورتهم سنتين سنوات

Taf. et Thom. III, 54; Laur de Monacis, Chronicon de rebus venetis, p. 158!

Taf. et Thom. III, 68, 80, 95, 137. (٢١٥)

(ibid, 325, 344). : جد ابنه الدرونيك هذا الوعد في عام ١٢٨٥

Laur, de Monacis, p. 158-160. (٢١٦)

— مسح السيد هوف Hopf ، الترتيب التاريخي للأحداث التي ذكرها هذا الكاتب، وحدد بالضبط عهد حكم تزينو ، وكذلك تاريخ تحرير الخطاب الذي أرسله تزينو الى الدوق (أول أبريل ١٢٦٩) بشأن هذه الثورة : انظر

Taf. et Thom., III, 102 et ss.

تقريبا (٢١٧) . وبعد بضع سنين ، قاد الكسيس كالجيس Glaxis Kalergis ثورة جديدة ، وواصل النضال ست عشرة سنة ( ١٢٨٣ - ١٢٩٩ ) ( ٢١٨ ) ، وانتهى الأمر بخضوعه بمقتضى معاهدة فى صالحه كفلت له توسيع أملاكه الى مدى كبير ، وحصوله على ايرادات كبيرة من أملاك الكنائس والأديرة (٢١٩) . ومن ذلك الحين ، أخلص الولاء للبنادقة ، واقتدى بهم فى ذلك خلفاؤه ، وبامتناعهم عن الاشتراك فى العصيان فشلت محاولات كثيرة للقيام بثورات تعاقبت من عام ١٣١٩ الى ١٣٣٣ . ومع ذلك ففي عام ١٣٤١ اندلعت ثورة عامة جديدة ، وفى وقت ما لم يبق للبنادقة من أملاك سوى العاصمة وبضعة قصور منعزلة (٢٢٠) . ومع ذلك فقد تغلب البنادقة على خصومهم فى النهاية ، ومع أن وطنهم الأصل لم يرفض تزويدهم بالمعونات ، الا أن الفضل الأكبر فى نجاحهم يرجع الى النبلاء ملاك الاقطاعيات وغيرهم ممن أدوا بحماس واجباتهم العسكرية . وفى الوسع أن نتصور حياتهم خلال هذه الفترة : فأحيانا كان من المستحيل عليهم فلاحه الأرض ، وأحيانا دمر الثوار المحاصيل فى الحقول . ولحسن الحظ كانت خصوبة التربة العظيمة عونا كبيرا لهم ، وسرعان ما سدت الفراغات . ولا بد أن التجارة قد عانت من آثار هذه الحروب الأهلية على إنتاج الجزيرة . ومع ذلك واصلت التجارة الكبرى مع سورية ومصر نشاطها المعتاد : ذلك لأن مدينة كانديا ، العاصمة والميناء الرئيسى للسفن الضخمة لم تسقط أبدا فى أيدي الثوار . وكان هناك أيضا ميناء آخر أقل أهمية هو مدينة كانيا Canée . وفى عام ١٢٩٣ أحرق الجنويون هذه المدينة وأحالوها رمادا . وفى عام ١٣٠٩ استولى عليها قراصنة بيزيون (٢٢١) ، الا أنه باستثناء هذين الحداث ، بقيت المدينة طول الوقت مفتوحة السفن التجارية . وهناك ، كما فى كانديا ، بنى البنادقة رصيفا حاجزا كبيرا لتيسير دخول السفن فى الميناء (٢٢٢) .

- Laur. de Monacis, p. 160 et s.; Hopf, Op. cit., p. 314. (٢١٧)  
 Laur. de Monacis, p. 161 et s. ; Hopf, Op. cit., p. 460. (٧١٤)  
 Taf. et Thom., III, 376 et ss. (٢١٩)  
 Laur. de Monacis, p. 164-171; Hopf, Op. cit. p. 460-462. (٢٢٠)  
 Hopf, Op. cit., p. 460. (٢٢١)  
 بعثة موفدة فى مهمة لجزيرة كريت ، بامر الراج دانولوفى فى عام ١٣٥٠ ، انظر :

Thomas, Abh. der bayer. Akad. Cl I. vol. XIV, sec. I, p. 208-212.  
 (Ordonnances des années 1312 et 1317); l'Archivi Venet, XVIII, 50 et ss.

وعلى اليابسة ، فى شبه جزيرة المورة ، نعلم أن البندقية لم تكن تملك سوى ركن من الأرض ، ولكن على هذا الركن قامت مدينتان عظيمتا القيمة لامة تهتم بتجارة الشرق ، وكانت السلطة الاقطاعية ( الفينيسية ) قد أحاطتهما بتحصينات قوية ، وأقامت بهما حامية دائمة . وتعتبر كورون أهم المدينتين ، تأوى الى مينائها السفن الحربية وغير الحربية ( ٢٢٣ ) ، وتحصل على دخول أكثر مما تحصل عليها مودون Modon حيث كانت الايرادات فى الكثير من الأحيان أقل من المصروفات ( ٢٢٤ ) . ومن الناحية الادارية ، تشكل المستعمرتان مستعمرة واحدة تحت سلطة كاستيلان Castellans ( حكام ) ، كانوا فى البداية ثلاثة ثم صاروا فيما بعد اثنين ، يتبادلان العمل فى المدينتين بالتناوب ، فى فترات محددة . ولم يكن لدى هؤلاء الحكام ما يشغلهم من شئون البلده بقدر ما يشغلهم من أمور تجرى فى البحار ، من سفن تنقل الحجاج ، وسفن تجارية ، وأساطيل حربية فينيسية وغيرها تقبل كثيرا تلتمس مأوى لها فى مواينها ، وكثيرا ما كان يطلب منهم المشورة أو المساعدة حين يكون ثمة خطر داهم من أساطيل معادية أو قراصنة ( ٢٢٥ ) . وكثيرا أيضا ما كان يعهد اليهم فى ظروف حرجة بحراسة بضائع واردة من مختلف أنحاء الشرق الأدنى ( ٢٢٦ ) ، ثم استرداد هذه البضائع فيما بعد .

والآن ، وقد عرفنا موقف الأمتين التجاريتين الايطاليتين الرئيسيتين فى بلاد الروم فى عهد ميخائيل باليولوجوس وأندرونيك الثانى ، فقد حان الوقت لنقول القليل الذى نعرفه عن « المستعمرة البيزية فى القسطنطينية » فى الفترة نفسها . فعندما داخل ميخائيل باليولوجوس القسطنطينية وجد بها تجارا بيزيين قليلين ، ووافق على أن يتركهم مقيمين بالمدينة مع قنصلهم ( ٢٢٧ ) . وينبغ أن حيهم كان هو حيهم القديم ، اذ نجد أن كنيسة القديس بطرس الذى كانوا يملكونه من قبل فى القرن الثانى عشر كانت تابعة لهم أيضا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ( ٢٢٨ ) .

( ٢٢٣ ) فى عام ١٢٨١ تلقى « كاستيلان » كورون أمرا ببناء ترسانة ... وتكرر هذا الأمر بين ١٢١٢ ، و ١٢١٧ (Archiv. Venet., XIX, 113). ونجد ثمة كذلك مجموعة من مراسيم أخرى خاصة بكورون ومودون .

Sathas, l.c. III, 376. (٢٢٤)

Hopf, art. Griechenland, Op. cit., LXXXV, 307 et s., 341 et s., 396, 440. (٢٢٥)

Sathas, l.c. III, 299 et s., 353 et s., 367, 441 et s. (٢٢٦)

Pachym., I, 162 et s., 168. (٢٢٧)

«In contrata S. Petri Pisanorum» : Tof. et Thom., 166. (٢٢٨)

وكان القنصل البيزى مرخصا له ، بصفته مثلا لدولته بشرف تقديم آيات الولاء للإمبراطور في الأعياد الرسمية (٢٢٩) ، ولكنه في غير هذا لم يكن يؤدي الا دورا متواضعا للغاية . ولم يحدث سوى مرة واحدة أن سجل في الحوليات البيزنطية خدمة مرموقة أداها قنصل بيزى للإمبراطور أندرونيك . فتمه رهبان فرنسيسكان كانوا قد اشتروا قطعة أرض في القسطنطينية ، وشيدوا عليها ديرا فخما وكنيسة ، وتم كل هذا بموافقة الإمبراطور . غير أن إقامة رهبان من الرومان الكاثوليك في قلب العاصمة أثار حنق البطريرك اليوناني وغضب السكان ، حتى قرعزم أندرونيك على إبعادهم ، ولو بالقوة اذا لم يكف الاقتناع لحملهم على الرحيل . وكان لتدخل القنصل البيزى الذي كان يقطن بجوار هذا المكان فائدة كبيرة ، اذ حصل من كهنة كنيسة القديس بطرس على تعهد بحراسة الأواني المقدسة الخاصة بالدير (٢٣٠) . ومع أنه اكتسب بهذا التصرف اعتراف الإمبراطور له بالجيميل ، فانه اجتذب إليه حقد البودستات الجنوى في غلطة ، الذي حرضه عليه الفرنسييسكان ، فحاول اغتياله (٢٣١) .

كيف يتسنى لنا أن نفسر أن البيزيين ، بعد أن أدوا في حوالى عام ١٢٠٠ دورا بالغ الأهمية في سوريا والقسطنطينية ، سمات حالهم في عاصمة الإمبراطورية لدرجة أنه لم يعد لهم شأن يذكر في البلاد الجديدة التي تفتحت للتجارة في هذه الفترة ؟ كان السبب في ذلك المنافسة الطويلة الأمد التي قامت بين الجنويين والبيزيين : فعلى مدى سنين طويلة اشتركت الجمهوريتان في حروب ، بدأت بقصد امتلاك جزيرتي سردينيا وكورسيكا ، ولكن السبب الرئيسى لهذه الحروب كان الحصول على التفوق البحرى في القسم الغربى من البحر المتوسط . وانتهى الصراع في عام ١٢٨٤ فى معركة ميلوريا Meloria البحرية ، وكان الأسطول الجنوى تحت امرة اوبرتو دوريا Oberto Doria ، وترك البيزيون فى الموقعة ثلاثا وثلاثين من سفنهم الحربية سقطت فى أيدي العدو ، وغرق سبع سفن أخرى ، وأسر المنتصر عشرة آلاف رجل من بينهم صنفوة النبلاء البيزيين . واذ اضطروا فى عام ١٢٨٨ أن يقدوا معاهدة مذلة لهم ، فانهم لم يقبلوها الا على مضض ، وواصلوا مع ذلك معارك ثانوية صغيرة .

Codinus Curopal, p. 57 .

(٢٢٩)

(٢٣٠) يضيف المترجم مع ذلك فى هذه الفقرة ، خطأ ، أن كنيسة القديس بطرس كانت كنيسة يونانية ، حقا انه كان يجهل أنها تنتمى الى البيزيين ، غير أن هذا الظرف الذى كان فيه لدى القنصل البيزى ، بحكم منصبه أوامر يعطياها لتساوسة هذه الكنيسة ، كان حقيقيا بأن يوجهه الى الصواب .

Pachym., II, 536-539.

(٢٣١)



وعقابا لهم على ذلك ، دمر كورادو دوريا Corrado Doria في ١٠ من سبتمبر ١٢٩٠ الميناء التجارى المسمى « الميناء البيزى » ( بين مصب نهر كالاامبريون Calambrione وحصن ليفورن Livourne القديم ) ( ٢٣٢ ) ، وأقام سدا عند مصب نهر أرنو arno ، وكان هذا ضربة قاضية على قوة بيزا البحرية والتجارية ، لم تنهض منه أبدا . وكان نهوضها عسيرا لأن تسكانيا كانت فى تلك الآونة مزقة الأوصال بالمنافسة التى أحتدمت بين الجويلفيين والجبليين ، وبلغت ذروتها آنثذ ، وكانت بيزا على رأس حزب الجبليين ، وفى حاجة الى كل قواها لمواصلة النضال ضد قوات الجولفيين التى تفوق قواتها .

ولا بد أن هذه الأحداث قد أثرت على نشاط البيزيين التجارى ، وامتد رد فعل هذا التأثير الى مدينة القسطنطينية ، الا أنه بدأ يظهر هناك بوجوازيون من فلورنسا ، المدينة الجويلفية ، وريثة بيزا مستقبلا . وقد ذكرها بيجولوتى Pegolotti على حدة ضمن الأمم التجارية التى لها ممثلون فى القسطنطينية ، فى فترة لم تكن تملك بعد ميناء أو سفينة حربية ( ٢٣٣ ) .

ومن مدن إيطاليا الوسطى كان لانكونا Ancône فى القسطنطينية مستعمرة تجارية متميزة ، يتولى ادارتها قنصل يعينه الوطن الأم لسنوات ثلاث ، يساعده قنصل للتجار ( ٢٣٤ ) . وكانت مرتبة هذا القنصل فى الاحتفالات الرسمية لبلاط بيزنطة تلى مباشرة مرتبة قنصل بيزا ، تبعا للأهمية النسبية للأمم التى يمثلها القنصل ( ٢٣٥ ) . وفى غير ذلك تبعت أنكونا سفارات خاصة حين يراد الحصول على تعويضات عن انتهاكات ارتكبت أو زيادة فى الاعفاءات ( ٢٣٦ ) . وفى مناسبة احدى هذه السفارات ألقى الامبراطور أندرونيك الثانى أحكام مرسوم سابق ، لم يبق له أثر

Atlante Luxoro, p. 52.

( ٢٣٢ )

Pegol p. 24.

( ٢٣٣ )

فى عام ١٢٤٨ كان لبنك البرتى Alberti الفلورنسى فرع فى القسطنطينية ، انظر : Perrens, Hist. de Florence, III, 258 et s.

Makusev, Monumenta hist. Slav. mérid, I, I, p. 161.

( ٢٣٤ )

et ss. Commem. reg., II, 69, lign. 2.

Codin, Curopal., p. 57.

( ٢٣٥ )

Makusev, Lc.

( ٢٣٦ )

الآن ، وحدد الرسوم (٢٣٧) المفروضة على التجار الأتكونيين بنسبة موحدة قيمتها ٢٪ عند دخول السلع وخروجها ، بما في ذلك رسوم الوزن والسمسة . وفي هذه المناسبة أيضا منع كل تحايل على القانون ، إذ كان بعض التجار الأتكونيين يدخلون بضائعهم خلسة تهربا من دفع الرسوم ، وذلك بأن ينشبوها الى مصدر فينيسى أو جنوى .

وأخيرا ، كان جنوب إيطاليا ممثلا في القسطنطينية بمدن منطقة بوليا ( أبوليا ) la Pouille ، وبخاصة مدينتى بارى Bari ، وترانى Trani ، ثم بتجار من أمالفي وصقلية (٢٣٨) .

وكان تجار راجوزة Roguse يقيمون دائما علاقات مع بيزنطة ، وجددوا امتيازاتهم القديمة ، أولا عن طريق ميخائيل باليولوجوس ، ثم فى عام ١٣٢٢ عن طريق أندرونيك الثانى (٢٣٩) . وكانوا يمارسون تجارتهم برا وبحرا بفضل امتيازات حصلوا عليها من أمراء البوسنة والصرب والبلغار (٢٤٠) الذين صرحوا لهم بأن يجتازوا ببضائعهم شبه جزيرة هيموس Hémos كلها .

كانت هذه الأمم كلها معروفة لزمان طويل فى بلاد الروم . ولكن فى الفترة التى نتحدث عنها نجد منها أمة جديدة ، أمة القطلالونيين Catalans ، ومن بين الذين وصلوا أخيرا من هذه الأمة ، برز بنوع خاص من أواخر القرن العاشر تجار برشلونة ، برزوا بروح المغامرة . ويبدو أن وحدة المصالح التى جمعت فى تجاه عدوانى واحد ضد أمراء أسرة انجو التى حكمت مملكة نابولى ، وأسرة باليولوجوس ، وملوك أراجون كان لها تأثير كبير فى تنمية التجارة فى هذه الدول . واستقبلت القسطنطينية بحفاوة قباطنة السفن القطلالونية ، وذلك حين اتحد ملوك أراجون مع توار صقلية فهزموا جيوش نابولى ، وشغلوها كثيرا حتى بددوا بكل ما كان فى نفوس سكان الامبراطورية البيزنطية من مخاوف الغزو . ومن جهة أخرى شكلت «مذبحة صلاة المساء» (ثورة صقلية على الملك شارل الأول - ذبح فيها الفرنسيون يوم الاثنين من عيد الفصح - المترجم )

---

Juill. 1308, publ. en grec par Miklosich et Muller, (٢٣٧)  
Acta graeca, III, xvi-xix en latin par Makusev, l.c., p. 156-158.

D'Avino, Cenni storici sulle chiese Napol., p. 676; Petroni, (٢٣٨)  
Storia di Bari, II, app., p. 537; Pegol., p. 24; Camera, Mem. di Amalfi,  
I, 540 et ss.

Luccari, Ristretto degli annali di Rausa, p. 40; Appendini, (٢٣٩)  
Notize sulle antichità dei Ragusei, I, 287; Engel, Gesch. d. Freistaats  
Ragusa, p. 118.

Miklosich, Monum. Serbica, passim.

(٢٤٠)

قاعدة الوحدة بين الأراجونيين والقطالونيين من جهة ، وبين الصقليين من جهة أخرى ، وكانت الأمتان يحكمهما أمراء من أسرة واحدة . وفي ميناء مسينا ، كانت السفن القطلونية تصرف كأنها في وطنها الأصلي ، كما تمتعت التجارة القطلونية ثمة بامتيازات غير عادية (٢٤١) . ولا ننسى أن مضيق مسينا كان من أهم الممرات التي يجتازها غالبية السفن المتجهة الى الشرق ، ويعتقد أن التجار القطلونيين كانوا بطبيعة الحال يستخدمون هذا الطريق . وعلى ذلك انتهى بهم الأمر الى انشساء مستعمرة في القسطنطينية ، ومن العسير تحديده تاريخ انشائها . والثابت أنه في حوالي عام ١٢٩٠ حظى قنصل قطلوني يدعى دالماشيو سونر Dalmacio Suner بمقابلة الأمبراطور أندرونيك الثاني ، وعرض عليه مشروعا وضعه سكان أراجون ، وقطلونيا ، ومايورقا Majorque ، وبخاصة بورجوازيو المدن الساحلية ، برشلونة ، وفالنسية ، وترتوسا ( طرطوشة ) Tortose من أجل تردهم على الامبراطورية اليونانية وعاصمتها ، ورغبتهم في الحصول أولا على حرية الدخول فيها بوجه عام ، ثم تخفيض الرسوم الجمركية بنوع خاص . ورخص لهم الأمبراطور بحرية التنقل في أراضيه ، وحدد نسبة ٣/١ للرسوم التي يتعين عليهم دفعها عند دخولهم وخروجهم ، وكفل لهم فوق ذلك أمن بضائعهم ، وبخاصة في حالة الغرق . وقد حفظت الوثيقة التي ذكرت فيها هذه الامتيازات ، وفي حوزتنا النص الأصلي لها باللغة اليونانية (٢٤٢) والترجمة باللاتينية (٢٤٣) ، ومن الأسف أنه لم يذكر بها اسم الامبراطور ، أو السنة .

غير أنه لما كان ملك أراجون قد ذكر بها على أنه ملك صقلية أيضا . فالواضح أنه لا يمكن أن ينتمي الى عصر خلاف العصر الذي اتحد فيه التاجان ، أي الفترة بين سنتي ١٢٨٢ ، ١٢٩٥ . ومن العسير أن نفهم كيف توصل السيد كابمانى M. Capmany الى تحديد سنة ١٢٩٠ تاريخا

(٢٤١) تشهد الوثائق الرسمية (دبلومات) للملك صقلية : جاك ( ١٨ و ٢٢ فبراير ١٢٨٦ ، ١٧ يولية ١٢٨٨ ) ، وفردريك الثاني ( ٣ أبريل ١٢٩٦ ) بصراحة بالوضع المتحاز للقطلونيين ، في حين ان الجنويين قد لعبوا حتى ذاك الحين الدور الأول في سوق صقلية . ولم تكن هذه الخطوة قاصرة على تجار برشلونة وقطلونيا بوجه عام ، ولكنها كانت تمتد فتمثل الى جزر البليار ، وكل بلدان جنوب فرنسا التابعة لتاج أراجون كرتنية روسيون. مع بيرينيان ، ولاسيرداني ، ومدينتي نابون ومونبيليه :

Pandetta delle gabelle di messina, éd. Sella, dans les Miscell di Storia ital., X. 120 et ss., et l'introduction de P. Vayra p., 33-37; ibid, p. 131-142.

Capmany, Mém. hist. sobre la marina, commercio y artes de (٢٤٢)  
Barcelona, II, 487 et s.; Zacharie, Jus graeco-romanum, III 97 et s.

Capmany, l.c. p. 367 et s. (٢٤٣)

لهذه الفترة ، ولا يمكن قول هذا التاريخ الا على أساس انه تقريبي .  
 وثمة تفاصيل معينة في هذه الوثيقة تدل على أن علاقات القطلونيين  
 التجارية مع الامبراطورية كانت وقتئذ في بدايتها ، وفي هذه الحالة يتعين  
 الافتراض بأن د . سوتن كان سفيرا مكلفا بمهمتين : بتأسيس المستعمرة  
 القطلونية في القسطنطينية وادارتها في فترة معينة . ولكن منذ عام  
 ١٢٦٨ حصلت السلطات البلدية ببرشلونة من الملك على ترخيص بتعيين  
 قنصل في البلاد التي لبحرية مدينتهم علاقات معها ، وذكرت اسم  
 « رومانيا » Romanic ( أى الامبراطورية البيزنطية ) بنوع خاص في  
 هذا الترخيص ( ٢٤٤ ) . ويصعب التسليم بأن هذا الترخيص بقي حبرا  
 على ورق بالنسبة الى عاصمة « رومانيا » ، وأنه لم يعين بها قنصل الا  
 في عام ١٢٩٠ . نضيف أيضا أننا نجد آثارا أكيدة تدل على وجود تجارة  
 بحرية بين قطلونيا وبيزنطة منذ عهد ميخائيل باليولوجوس .

والواقع أن هذا الامبراطور قد استغل ذات يوم وجود سفينة تجارية  
 قطلونية كبيرة في الميناء ليطارد بها قرصانا جنوبا ( ٢٤٥ ) . واستمرت  
 هذه الحركة التجارية في عهد أندرونيك الثاني . ففي عام ١٣٠٢ على  
 سبيل المثال ، عندما كان بعض تجار برشلونة يتأهبون للابحار الى  
 القسطنطينية ، سلمتهم سلطات المدينة خطابات توصية للبودستات  
 الجنوى ( ٢٤٦ ) : ولعلنا نتساءل : لم لم توجه هذه الخطابات الى القنصل  
 القطلوني ؟ لنا أن نفترض ، مع السيد كايماي أن منصب القنصل  
 القطلوني كان شاغرا في ذلك الحين ، أو ربما أن الوظيفة لم تنشأ بعد  
 بصفة دائمة . ويبدو أن وصول فرقة الجنود المرتزقة الذين طلبهم  
 روجر دي فلور Roger de Flor في سنة ١٣٠٢ كان الغرض منه انشاء  
 وضع متميز للأمة القطلونية في بلاد بيزنطة ، وبخاصة لأن اعتراف  
 الامبراطور بالخدمات الجليلة التي أدتها له هذه الفرقة ضد الأتراك قد  
 امتدت آثاره لتشمل كل القطلونيين الموجودين في القسطنطينية .

والحقيقة أن الجنويين خافوا من أن يطغى عليهم القطلونيون في  
 مجال الامتيازات التي يمنحها الامبراطور ، ومن ثم اتخذوا ازمهم للحال

Capmany, l.c. p. 34, no XIV.

(٢٤٤)

Pachym., I, 424 et s. ; la Chronique de Giov. Villani (éd. (٢٤٥)  
 Dragom., I, 439).

— من الراجع أن تكون السفن الجنوية قد أتت وحدها من رومانيا ، وأن السفن

العسقية والقطلونية أتت من صقلية .

Capmany, II, 375 et s.

(٢٤٦)

موقفا عدائيا . ولكن موت روجر دى فلور الذى اغتيل فى عام ١٣٠٥ بايعاز من الأمير ميخائيل قلب وجه الأمور . وقد رأينا أن « الفرقة » ( أو السرية ) أرسلت تهديدا الى الامبراطور من جاليبولى التى اتخذتها مقاما لها . وردا على هذا التهديد قتل الامبراطور قائدهم وكل القطلونيين والاراجونيين الموجودين فى القسطنطينية . الا أنه ليس من الثابت أن يكون هذا الاجراء القاسى قد أصاب التجار العاديين . ومع ذلك فطالما استمرت الحرب بين « السرية » والامبراطورية ، أى لسنوات عديدة ، كان من العسير على مستعمرة تجارية أن تبقى فى القسطنطينية دون أن تتعرض لأخطار جسام . ولا شك أن المستعمرين قد هاجروا ، وربما الى حصن السرية فى جاليبولى حيث وجدوا بها مزيتين : أولا الغنائم الهائلة التى ترد اليها فتغذى تجارتها بمادة لا تنفد ، ثم انهم أسهموا فى الدفاع عن الموقع ( ٢٤٧ ) . وبعده ذلك ، حين غادرت السرية جاليبولى واستقرت شى دوقية أثينا ( ١٣١١ ) ، لم يكن ثمة شك فى أن تلك الامارة صارت مقصدا للسفن التجارية القطلونية ( ٢٤٨ ) لأنها كانت على ثقة من أن تلقى بها ترحيبا . غير أن القسطنطينية كان لها أهمية أخرى من الوجهة التجارية ، لذلك كان التجار القطلونيون يعربون عن رغبتهم الخاصة فى توثيق علاقاتهم السابقة معها . ويبدو أن المصالحة المرغوبة لم يطل انتظارها ، ذلك لأنهم حصلوا قبل عام ١٣٢٠ على خفض الرسوم على الاستيراد والتصدير بنسبة ٣٪ الى ٢٪ . والواقع أن سلطات برشلونة أشارت فى وثيقة مؤرخة بسنة ١٣٢٠ هذه الى امتياز امبراطورى يكفل لمواطنيها هذا السعر ، ولكنها اشتكت من طلب سداد هذه الرسوم مرتين أو ثلاث مرات ، وتقول ان التجار القطلونيين ، حين لا يتسنى لهم تصريف بضائعهم فى أول ميناء يفرغون فيه بضائعهم فينتقلونها الى أسواق أخرى ، كان يقتضى منهم الرسم نفسه فى كل مرة . ولكى تحصل سلطات برشلونة على محو هذا التعسف ، فانها طلبت الى الملك جيمس الثانى James II أن يؤيد طلبها لدى الامبراطور .

وفي هذه الآونة كان البيت التجارى ج . كاربونيل G. Carbonell

(٢٤٧) (Muntaner, trad. Lanz, II 106 et s. 129 et s., 132, 144, 152.)

١٠. جعل مونتائر تجارا قطلونيين على رأس فرقة من النساء للسلاح للدفاع عن جاليبولى ضد الجنوبيين ، والثابت أن هؤلاء الناس لم يخرجوا من سرية المرتزقة .

(٢٤٨) les Commem. reg., II, p. 15, no 96, p. 22, no 129, p. 28 et s., no 165, p. 30, nos 171, 173, p. 139 et s., no 130, p. 325, no 269, p. 330. s., no 303. X

— فى هذه الأوراق نجد تجارا من برشلونة أو ماجورقة يقومون برحلات تجارية الى أثينا وطيبة أو مشتركين فى بعثات قائمة من دوقية أثينا .

et Civ. يشحن سفينة مبحرة الى القسطنطينية ، فنكفت بحمل .  
الرسالة الى الملك (٢٤٩) . ويعتقد السيد كابمانى أن الوثيقة الثانية-  
اصدرها أندرونيك الثانى لصالح القطلونيين ، على اثر هذا المعنى .  
وفى حوزتنا هذه الوثيقة . ولسوء الحظ فانها هى والوثيقة الأولى .  
لا يحمل أى منهما تاريخاً (٢٥٠) : ويجعلهما السيد كابمانى حسب رايه  
فى عام ١٣٢٠ (٢٥١) . ويبدو لأول وهلة أن كل شىء يبرر هذا الرأى :  
فالواقع أن الوثيقة هى الرد على خطاب الملك جيمس الذى أحضره المدعو  
كاربونيل وثلاثة تجار قطلونيين . ولكننا اذا أمعنا النظر فى الخطاب ،  
اكتشفنا أن الحرف الأول من اسم كاربونيل فى خطاب سلطات برشلونة-  
هو حرف G (Guillermo ?) فى حين أن اسم كاربونيل فى المرسوم  
الامبراطورى مدون بحروف كاملة Berangario ، فضلا عن ذلك .  
فان المرسوم يحدد الرسم الواجب سداده بنسبة ٢٪ ، يعقب ذلك حظر  
مطالبة القطلونيين برسم يزيد على هذه النسبة الا أن هذه الجملة مصوغة  
بعبارة عامة للغاية فلا يمكن أن نرى فيها استجابة لمطالب سلطات  
برشلونة . فى رأى اذن أن المرسوم الذى جعل السيد كابمانى تاريخه  
عام ١٣٢٠ هو أول امتياز خفف فيه اندرونيك الرسوم الجمركية من  
٣٪ الى ٢٪ ، وهذا هو الرد على عريضة أكثر قدما ، عززها الملك وأحضرها  
برنجر كاربونيل وشركاؤه .

أما بخصوص النتائج التى تم الحصول عليها بخطاب آخى من  
جيمس بتاريخ ١٣٢٠ وحمله جويرمو كاربونيل وشركاؤه ، بافتراض  
أن الملك كتبه بالفعل ، وهذا أمر محتمل للغاية ، فان رأى هو أننا  
لا نملك من الوسائل ما يساعدنا على معرفتها . وعلى أية حال (٢٥٢) .  
فلا شك أن بحرية برشلونة التجارية التى كانت وقتئذ فى فجر رخائها  
قد استغلت على نطاق واسع الترخيص الذى منحت اياه بالاتجار مع  
الامبراطورية اليونانية ، وأنها شغلت بجرأة مكانها الى جانب البحرية-

Capmany, II, 84 et s.

(٢٤٩)

Capmany, II, 468-471 ; Zachariae, l.c., p. 639 et ss.;  
Miklosich et Muller, l.c., III, 98-100.

(٢٥٠)

Mem., I, 73.

(٢٥١)

La Carta al Rey Andronico il Paleologo, publiée dans la  
Rivista de ciencias historicas de S. Sanpere y mique, l no 1,  
Avril 1880.

(٢٥٢)

-الجنوية والفينيسية (٢٥٣) : وسوف نرى أن ظهورها فى المياه اليونانية لم يلبث أن أعقبه ظهور أسطولها الحربى المكلف بحماية مصالح آل أراجون .

وأخيرا ، وفى تعداد الأمم التجارية المثلة فى مدينة القسطنطينية ، والذى دونه بيجولوتى ، نجد اسم « البروفانسيين » Provençaux (٢٥٤) . غير أنه يجب تفسير هذا الاسم بعناه الواسع الذى أعطاه العصر الوسيط . من ذلك أن هذا الاسم يذكرنا أولا بسكان مرسيليا ، المدينة الأولى فى مقاطعة بروفانس Provence بالمعنى الصحيح ، ولكن أيضا ، وربما أكثر من ذلك مدينتى مونبيليه ، وناربون . وثمة ثلاث وقائع من أعمال القرصنة ، أدت الى مطالبات ودعاو ، تعرفنا بما كانت عليه التجارة بين مدن جنوب فرنسا والقسطنطينية ، وتعطينا فكرة عن المواد التى كانت موضوعا للتجارة بين البلدين . وفى عام ١٣٣٤ أبحر تجار من ناربون ومونبيليه وبيزير Béziers على متن سفينة ناربونية ، ومعهم شحنة من الشب والشمع والجلود والقمح ، وفى الطريق وقعوا فى أيدي قراصنة أسبان (٢٥٥) .

وفى عامى ١٣٥٣ ، ١٣٥٥ كان ثمة تاجر فرنسى كبير يدعى ريمون سيراليه Raimond Scraller (Serailier) له محل تجارى فى مونبيليه ، ويوضى من حين الى حين بعض الوقت فى ناربون (٢٥٦) : أصيب مرارا -بخسائر جسيمة بفعل قراصنة من البنادقة يجوبون المياه اليونانية .

وكانت جنوا والبندقية وقتئذ فى حرب ، كما سنرى فيما بعد ، وكان هؤلاء القراصنة يطاردون بنوع خاص السفن الجنوية ، ولم يمنهم ذلك من تفتيش أية سفينة يصادفونها ترفع علما محايدا بالدعوى الاستيثاق

---

(٢٥٣) جرى فى القسطنطينية عام ١٣٢٥ مفاوضات دعوية بين البنادقة والقاليونين ، ساعد فى تهديتها الاسقف بيروتميس Hieronymus اسقف كانا : Coll. des doc. inéd, Melanges hist; II (1880), p. 96. Pegol., p. 24. (٢٥٤)

ذكروا أيضا فى معاهدة عام ١٣٣٢ بين اندرونك الثالث والبندقية ، انظر : Miklos et Muller, Acta graeca, III, 108.

Germain Hist. du commerce de Montpellier, I, 509 et ss. (٢٥٥)  
Port, Essai sur l'hist du comm.

تجد مثلا مشابها (حوالى ١٣٥٠) فى :  
marit, de Narbonne, p. 117.

(٢٥٦) نجد تفاصيل عن هذا الشخص فى  
Francisque Michel, hist du commerce et de la navigation de Bordeaux, II, 159 ; Germain, Hist du commerce de Montpellier, II, 218, not.

من أنها لا تحمل بضائع جنوبية ، فإذا أعجبهم ما فيها من شحنات صرحوا :  
 بأنها غنيمة مشروعة لهم ، مهما كان مصدرها . واليكم مثالا لذلك .  
 في عام ١٣٥٣ التقى أسطول فينيسي تحت امرة لورنزو تشيلو Lorenzo  
 Celso ذات يوم بسفينة تجارية رودسية عائدة من رومانيا ومتجهة  
 الى ميناء قيدها ، فاستولى عليها واقتادها الى كانديا . وكان لريسون  
 سيراليه في هذه السفينة بضائع قيمتها ألف ريال ذهبي ، لم يستطع  
 أن يستردها (٢٥٧) . مثال آخر : في ١٨ من فبراير ١٣٥٥ ، التقى  
 ثلاثة قراصنة من البنادقة في مضيق الدردنيل بمركب من مسينا ذاهب  
 من رودس الى القسطنطينية ، فاستولوا عليه ، وارتابوا في أنه يحمل  
 بضائع جنوبية ، وكان بين الركاب شخص يدعى يوحنا تاسكر Jean  
 Tascher وكيل ريمون سيراليه ومن أقربائه ، كان قد شحن على هذا  
 المركب بضائع يبلغ ثمنها حوالي ٦٠٠٠ ريال ذهبي ، وصادر القراصنة  
 الفينيسيون للحال ، ليس فقط بضائع تاسكير مع غيرها من البضائع ،  
 ولكن أيضا ما كان يحمله من نقود (٢٥٨) .

وتبيننا قائمة البضائع التي يحملها تاسكير الى سوق القسطنطينية :  
 أو بيرا بنوع المواد التي كانت تصدر من جنوب فرنسا الى امبراطورية  
 الروم : نجد فيها أقمشة صوفية من فرنسا والفلاندر ، ونسيج كتاني  
 من ريمس Reims ، وشملات صوفية . وعلى قدر علمنا كانت ناربون  
 هي المدينة الوحيدة من بين مدن جنوب فرنسا التي حظيت بامتيازات  
 من الابطارة اليونانيين ، أول هذه الامتيازات منحه اياها أندرونيك  
 الثاني . وفيما يختص بالرسم الجمركية ، لم تكن الامتيازات التي  
 تتضمنها ذات أهمية ، لأن رسوم السنول والخروج حددت فيها بنسبة  
 ٤٪ ، فضلا عن أن الامبراطور أضاف اليها في صالح خزائنه تنبيها على  
 الناريين بالا . يحاولوا تهريب بضائع أجنبية خاضعة لرسم أعلى ، مع  
 بضائعهم ، ورخص لجاليتهم بأن يكون دار عامة وقنصل ينتخبه أفراد  
 الجالية ليدير شئونهم ، وله حق الفصل في كل المنازعات التي تقع  
 بين رعيته ، ولكن لا يجوز له أن يفصل في القضايا الهامة .

Commém. reg., II, 276 no 5, suppl. A ; ibid. p.  
 293, no 92; ibid. p. 264, no 238.

(٢٥٧)

Coll. des doc. inéd., Mélang. hist., III, 121-134; Commém. (٢٥٨)  
 reg., II, 277, no 6, suppl. ; no 7, suppl. A ; ibid., p. 293, no 92, suppl.  
 ibid., p. 307, no 163, suppl. ; Coll. des doc. inéd., I.c., p. 134 et ss.  
 141, 147 ; Commém. reg., II, p. 275-277, nos 3-7, 9; p. 296, no 102;  
 p. 297, no 106 et s. ; p. 300, no 121; Commém. reg., ibid., p. 293, no 92;  
 p. 299, no 114; ibid. p. 264, no 238, p. 283, no 38 et s., p. 307, no 163;  
 Commém. reg., III, p. 11, no 51; p. 78, no 470; p. 91, no 563; p. 102,  
 no 654; p. 132; p. 133, no 28; p. 190, no 279 ; p. 234, no 8; p. 280,  
 no 202.



ولا يريد الامبراطور أن يجعل التجار الناربونيين مسئولين عن الأضرار التي يوقعها قراصنة من بنى أمتهم في الامبراطورية ، ويعطى فضلا عن ذلك الضمانات المعتادة لسلامة الأموال في حالة غرق السفن . ولم يكن من المنتظر على ما يبدو صدور هذا المرسوم (٢٥٩) لإنشاء المستعمرة رسميا ، لأن الامبراطور يتحدث عن قنصل تم تعيينه من قبل . وبقيت المستعمرة بعد وفاة أندرونيك الثاني ، إذ نرى فيما بعد قنصلا للناربونيين يطلب من الامبراطور يوحنا الخامس ، ابن أندرونيك تجديده هذا المرسوم ، ويتم له ذلك (٢٦٠) .

يمكن إذن القول بحق ان مجموعة من الأمم التجارية كانت تتردد على أسواق القسطنطينية وضاحتها بيرا ( غلطة ) . وتوعدت الشروط المفروضة على كل من هذه الأمم . وكالمعتاد كانت الأمم الكبرى تحظى برعاية أكبر مما تحظى به الصغرى . كان البنادقة والجنويون يتمتعون بالاعفاء التام من الرسوم الجمركية (٢٦١) . أما البيزيون فكانوا يدفعون في القسطنطينية وبيرا ٢٪ من قيمة البضائع ، عند الاستيراد وعند التصدير . وكان الفلورنسيون ، والبروفنسيون ، والأتونيون ، والصقليون وسائر الأجانب يخضعون للرسم نفسه ، أي ٢٪ ، فقط كان يقتضى من هؤلاء سداد ضريبتين عند الوصول . وكان رسم التصدير يحسب بسهولة . فهناك أمران .

أما أن التجار الأجانب يبيعون بضائعهم ثم يشترون بالمبلغ الذي يحصلون عليه بضائع أخرى للتصدير ، أو يجلبون مع بضائعهم المستوردة ذهباً وفضة من أجل مشتريات جديدة : فهذه المبالغ تخضع أيضا

Ducange, Familiae byzantinae, p. 237 et s., éd. Paris, in fol (٢٥٩)

le Musée des archives départementales (Paris 1878), (٢٦٠)  
Texte, p. 282 et s.;

Miklosich et Muleir, Acta et dipl. graeca, III, 120 et s.  
Tables, no XLIV; Ducange Famil. buy. p. 239 et s; Gacharic Jus, graeco-romanum III, 712 et s;

(٢٦١) المسألة هنا ، بطبيعة الحال ، لا تتعلق بضرائب تفرضها في المستعمرات حكومات الاطمان الأصلية . كانت جمهورية جنوا تصدق فحسب على هذه الضرائب . وكان على سكان بيرا ، وكذا التجار وقباطنة السفن الجنوبيين الذين يقيمون بها إقامة عابرة أن يدفعوا الضريبة للتمزي جبايتها أو حصليهم . أما بخصوص أمال بيرا ، فإن الضريبة كانت تحدد من عام الى عام بمعرفة لجنة ، على أساس قيمة املاكهم العقارية والمنقولة ، وكانت تقدر للتجار بالنسبة الى قيمة بضائعهم مهما كان نوعها ، وسواء كانت سلعا مستوردة أو للتصدير ، أو مارة بالاقليم ، وعلى ربانبة السفن أن يدفعوا الضريبة لحظة وصولهم أو اقلامهم ، حتى ولو رسوا فقط بسفنهم . انظر في ذلك :  
Atti della Soc., Lig., XIII 2,85 et s.

للمضائيب ، ومن ثم تكون عرضة لتفتيش موظفي الجمارك . وبعد سداد هذه الضريبة المزدوجة ، والحصول من موظفي الجمر على إيصال بالسداد ، لا يبقى على التجار أى تكليف آخر ، الا اذا اشتروا بحصيلة يبيعونها بضائع أخرى ليبيعوها فى سوق أخرى من أسواق الامبراطورية ، وفى هذه الحالة يلتزمون ثانية بسداد رسم ال ٢٪ ، والأمر كذلك اذا انصرفوا طلبا لبضائع فى البلاد المطلة على البحر الأسود لاجتماعها بالتالى الى الامبراطورية (٢٦٢) ويضيف بيچولوتى الذى ندين له بهذه المعلومات أنه حين يقدم تاجر هدية لموظفى الجمارك ، من وكلاء تجارين وتراجم ، فان هؤلاء يتصرفون بأدب جم ، ويقدرون الرسوم على البضائع المستوردة منخفضة . وعند بيچولوتى بوجه عام معلومات غزيرة وصحيحة ، ويمكن الاعتماد على ما يقوله عن تنوع الرسوم المفروضة ، ومع ذلك يتبين من الامتياز الذى منحه أندروتيك الثالث أنه بالنسبة الى الناربونيين الذين يعتبرون فى عداد البروفانسيين ، كان الرسم ٤٪ عند الدخول والخروج ، وبالنسبة الى أمم أخرى ، كان الرسم أعلى من ذلك : وقد رأينا فى الواقع أن الامبراطور يصير على أن يمنع الناربونيين عن ادخال بضائع خاضعة لرسوم أعلى مع بضائعهم تهربا من دفع هذه الرسوم .

وكان فى أسواق القسطنطينية وبرا العديده من المصروفات التى يتحملها البائع والمشتري مناصفة ، كرسوم الوزن والكيل ( وكان الجنويون فى برا معافين من هذين الرسمين حين يستعملون موازينهم ومكاييلهم ) ، ورسوم غربلة التوابل ( سحقها ودقها ) وبخاصة بالنسبة الى الأنواع التى يتخلف عنها نقايات ، وأجور السمسارة (  $\frac{1}{4}$  ٪ ) والحمالين والحزامين ، الخ .

كانت برا هى السوق الرئيسية : وكانت الصفقات فى القسطنطينية أقل بكثير منها فى برا ، الا أنه لم يكن هناك فرق بين السوقين من حيث السلع المعروضة للبيع . ومن المستحيل عرض قائمة كاملة ، او حتى تقريبية بهذه السلع . ويعطى بيچولوتى (٢٦٣) فكرة عن تنوعها اللانهائى ، ومع ذلك فقصده من ذلك ليس وضع قائمة بها ولكن فقط ذكر ما يباع منها بالرطل أو الصاع أو القطعة ، الخ والمصروفات التى تتحملها حتى تصل الى يد المشتري . نذكر أول كل شىء التوابل ، وجمود الصباغة ، والنباتات العطرية من الهند وفارس ، المستوردة عن طريق طربزون ، أو تانا . فبالنسبة الى هذه المواد لم يكن لسوق القسطنطينية ، أو

بالأحرى سوق بيرا منافس سوى سوق الاسكندرية على أكثر تقدير ،  
وكذا سوق فاماجوستا Famagouste . ولم يوجد فى أى مكان آخر .  
مثل هذه التشكيلة من الشب ، وكان هذا أمرا طبيعيا لأن الجزء الأكبر منه  
كان يرد من آسيا الصغرى التى كانت تنتج أيضا العفص ( ثمر البلوط ،  
وهو دواء قابض مجفف ، ربما اتخذ منه خبر أو صمغ - المترجم ) .  
وكان فراء الشمال وجلوده تصل عن طريق تانا Tana ، وكافا Caffa  
وكانت القسطنطينية هى المستودع الكبير لقمح القرم ، وبلغاريا ،  
وتراقيا ، وكانت صناعة النسيج الغربية تتزود عندها بالمواد الأولية ،  
من حبرين فارس ، والصفوف ، ووبر ماعز آسيا الصغرى ، وكتان  
الاسكندرية أو اليونان ، وتصدر إليها أيضا منتجاتها : من جوخ الفلاندر  
،فرنسا وتيسكانيا ، ومنسوجات شمبانيا ، والخيوط الذهبية والفضية  
من لوكا Luques وجنوا ، وأنسجة بخارى من أذربيجان ( أرمينيا )  
وقبرص . وكانت ألبنة إيطاليا تنافس بها ألبنة اليونان وكانديا ،  
وصابون البندقية ، وأنكونا ، وبوليا ، وقبرص ، ورودى ، وتين ،  
اسبانيا ، وجوز نابولى ، وزيت زيتون إيطاليا تتقايض فيها بشمع اليونان  
وتاتاريا Tatarie ( تانا ) ، ولودانوم ( عقار مزوج بروح الأفيون -  
المترجم ) قبرص ، وصمغ ( مستكة ) خيوس . وبسبب ضخامة حركة  
منتجات الشرق والغرب فى هذا المكان ، رأى بيجولوتى من الضروري أن  
يضع للتجارة قائمة مقارنة بالموازين والمكاييل والنقود المستعملة فى بيرا  
والقسطنطينية ، وفى سائر الأماكن التى تسنى له أن يحصل على معلومات  
عنها ، ولم يقنع بالمقارنة بين هذين السوقين والجهات الرئيسية بإيطاليا  
وجنوب فرنسا ، ولكنه مد أبحاثه إلى أشبيلية وقادس ، وحتى إلى بوج  
Borges ولندن .

**ولكنف عن هبلنا الاستطراد الطويل ، ونعود إلى سرد الوقائع**  
**التاريخية ، ونبدأها فى عهد أندرونيك الثانى ، ونمر على الأحداث فى**  
عشر السنوات الأخيرة من حكمه . وعلينا أول كل شيء أن نشير إلى نزاع  
خطير قام بين المستوطنات الجنوبية فى الشرق الأدنى وبين وطنها الأصلي .  
ففى جنوا ، وبعد خلافات داخلية طويلة بين الجولفين والجبلين انتهت  
بانتصار الأولين وإخضاع المدينة لحكم زعيم الحزب فى إيطاليا ، روبرت  
ملك نابولى ( ١٣١٨ ) وبقيت المستوطنات فى الشرق الأدنى وبقية للحزب  
الجبلي ، كما بقى الإمبراطور أندرونيك أيضا منحازا لهذا الحزب ، وهو  
أمر مفهوم ، فلم يكن له أية مصلحة فى تشجيع نمو سلطة ملك نابولى  
الذى أصبح أخوه فيليب دوتارنت Philippe de Tarente بزواجه من

كاترين دو فالوا Catherine de Valois ( ١٣١٣ ) ( ٢٦٤ ) وريثة  
 لمطالبة بلدوين الثاني Baudouin II بعرش الامبراطورية . لذلك نراه يقدم  
 اعانات مالية كبيرة ، من جهة الجنوبيين الذين طردوا المناصرتهم قضائية  
 الجبيليين ، ومن جهة أخرى لفردريك الثاني ملك صقلية (٢٦٥) عدو روبرت  
 المباشر . ولم يكن في وسع الحزب الجويلفي المسيطر على جنوا أن يتساعل  
 في تنظيم هذه المعارضة الجبلية في الشرق ، خاصة وأن عدد الجبيليين  
 المطرودين من المدينة أصبح يشكل خطرا عليه .

وعلى ذلك قر عزم الحزب على القيام باستعراض من شأنه ارباب  
 الامبراطور والرعايا الجنوبيين المقيمين باليونان وعلى شواطئ البحر  
 الأسود . ففي عام ١٣٢٤ أبحر أسطول جنوى جويلفي متجها الى الشرق  
 تحت امرة كارلو جريمالدي Carlo Grimaldi ، وحين وصل قبالة  
 بيرا ، وجد المستوطنين مستعدين لاستقباله ، واذ لم يجزؤ كارلو جريمالدي  
 على مهاجمتهم ، فانه اكتفى بأخذ بعض الاسرى ، ثم توغل في البحر  
 الأسود ، وأوقع خسائر شديدة بالمستوطنين في تانا وبيسكي Pesce  
 (ميناء جنوبي تانا على نهر بي - سو - Bei-sou) . ولكنه حين أراد  
 الرجوع ، وجده ملئح البسفور مغلقا : فقد كان في انتظاره عند مضيق  
 هيرون Hiéron أسطول أكبر عددا من أسطوله ، جهزه جنويو بيرا . ولما  
 لم يستطع المرور اتجه الى سينوب Sinope بأمل أن يجد بها مددا :  
 ووعده أمير المنطقة ، الغازي شلبي Ghazi Tchélébi بأعطائه كل  
 ما طلبه . على أن هذا الوعد لم يكن سوى خدعة ، اذ تمكن الأمير من  
 الاستيلاء غدرا على قسم كبير من بحارة الأسطول ، ومعظم القادة ، وقطع  
 رؤوس بعضهم ، وألقى الآخرين في السجن ، واستولى على كل السفن  
 تقريبا ، وهربت بقية السفن ، ونجحت في التسلل بين اطرادات بيرا  
 والعودة الى جنوا (٢٦٦) . وما كادت مستوطنة غلطة تهدأ بالا من هذه  
 الناحية ، حتى اضطرت الى الدفاع عن نفسها ضد هجوم شنه البنادقة .  
 ونجحت في صد الهجوم دون خسائر كبيرة . وكان ذلك في عام ١٣٢٨ ،  
 وكان الخصمان يعيشان في سلام منذ زمن بعيد . ولكن البندقية اذ آثار  
 حفيظتها أعمال القرصنة العديدة التي كان يقوم بها البحارة الجنوبيون ،  
 فقد قر عزمها على أن تأخذ بثأرها ، ونظمت حملة كبيرة عهدت بقيادتها  
 الى جوستينيانو جوستينياني Gustiniano Giustiniani

وقسم الأميرال البندقي أسطوله قسمين ، ونجح في امرار القسم الأول

Buchon, Recherches et matériaux, I, p. 52 et ss.

(٢٦٤)

Texta, Vita Friderici II, p. 183.

(٢٦٥)

Contin de Jacq. de Voragine, l.c., p. 505 et s. ; Stella dans Murat., SS. XVII 1051 et s. ; Giustiniani, Annali di Genova, p. 122.

(٢٦٦)

تحت أسوار غلطية ، واحتل هذا القسم مضيق هيرون وأسر عددا كبيرا من السفن الجنوية . وكمن جوستنتيانى مع القسم الثانى من أسطولها قبالة برج لياندر ( بالقرب من اسكوتارى ) ( ٢٦٧ ) ، وأعلن أنه لن يتحرك من هناك حتى يحصل من الجالية الجنوية على وعد بدفع تعويض حربى قدره ١٨٠٠٠ دينار ذهبى ، يسدد فى ثلاث سنين . ولم يطل مقامه هناك أكثر من اسبوعين أو ثلاثة ، وعنده انسحابه أطلق سراح السفن التجارية الجنوية ( واليونانية ) التى كان قد أسرها . وابتهج أهالى القسطنطينية حين تبين لهم أن شحنات القمح والسمك المملح التى أتت بها هذه السفن من سواحل بحر أزوف ومصب كوبان والدن بقيت سليمة . وكانت الدهشة كبيرة وسارة حين تبين أيضا أن عاصمة الأمبراطورية أصبحت مضطرة للحصول على زادها أن تذهب فى طلبها الى تلك البلاد البعيدة ، وذلك منذ أن فتك بالسهول الحصبة فى تراقيا ومقدونيا مرة بعد أخرى الفرقة القطالونية ، وإترك آسيا الصغرى ( ٢٦٨ ) .

وبعد بضعة شهور ، أسقط أندرونك الثانى المعجوز من عرشه ، وأسقطه حفيده أندرونك الثالث الصغير ( مايو ١٩٢٨ ) . ويبدو ان هذا الانقلاب حقق دماء جديدة فى الأمبراطورية . كان الأمبراطور الجديد ذا طبيعة محاربة ، وعمل بنوع خاص على رفع البحرية من مستوى الاحتياط التى وصلت اليه بسبب اهمال سلفه ، ولم يستغرق هذا العمل الا وقتا قليلا . وكان من أوائل أعماله استرداد جزيرة خيوس التى كانت أسرة زكاريا الجنوية قد استولت عليها تعسفا . وقد رأينا قبلا الظروف التى نم فيها ذلك .

وكان سكان الجزيرة اليونانيون قد أرهقتهم الضرائب التى فرضها عليهم هؤلاء السادة الجدد ، وكانوا فضلا عن ذلك يكرهونهم بسبب أصلهم اللاتينى ، ومن ثم التمسوا من الأمبراطور أن يخلصهم من ربة الأجنبي . وفى عام ١٣٢٩ جهز أندرونك أسطولا لم يشهد أحد مثله من زمن بعيد ، يسأبه سكان الجزيرة اليونانيون ، فأجبر دون مشقة الأمير الحاكم وقتئذ ، مارتينو زكاريا على التسليم واقناده أسيرا الى القسطنطينية . أما بنديتو زكاريا أخو مارتينو فقد خان أخاه لأغراض شخصية ، ومن ثم طرد من

Nicéphore Grégoras dit «dans la Corne d'or». (٢٦٧)

Dandolo, p. 412 ; Sanuto, Vite déi ducki, p. 599; Contin de Jacq, de Voragine, p. 507 et s. ; Nicéph, Grég., I, 416 et s. (٢٦٨)

Niccolo Sanuto, duc de Naxos) (٢٦٩)

زود نيقولا سانوتو ، دوق ناكسوس الأسطول اليونانى بتميز من أربع سفن : (Nicéph, Grég. I, 430) :

الجزيرة ، وحاول بعد ذلك استرداد الجزيرة لحسابه الخاص ، ولكنه فشل  
ومات كمدا في عام ١٣٣٠ (٢٧٠) .

واذ استتب سلطان أندرونيك في خيوس ، فكر في بسط سلطانه  
ايضا على مدينة فوكااية . وراينا أن هذه المدينة قد انتقلت في عام ١٣١٤  
من يدى باليولوجوس زكاريا الذى توفى بلا عقب الى يدى اندريولو كاتانيا  
Andréolo Cattanea . وكان الأخير على قيده الحياة حين أقبل  
أندرونيك وضرب الحصار أمام المدينة ، ولكنه كان حينئذ غائبا ، وعهد  
بحراسة المدينة الى عمه أريجو تارتارو Arrigo Tartaro . ولم يبد  
أريجو أية محاولة ، ولو شكلية للدفاع عن المدينة ، بل سلم للإمبراطور  
فوكااية الجديدة كلها ، مدينة وقصرا ، وأقسم يمين الولاء بين يديه ،  
ومعه الحامية الجنوبية كلها .

ودخل أندرونيك القصر ، وعقد بلاطه يومين ، وعندما وطد على هذا  
النحو سيادته ، أقام أريجو حاكما على المدينة لمدة غير محدودة ، بصفته  
مثلا لاندريولو الغائب (٢٧١) . وهكذا احتفظت أسرة كاتانيو بملكيتها  
لفوكااية ، بفضل ما أبدته من خضوع مناسب . ومات أندريولو بعد هذا  
بقليل ( ١٣٣١ ) ، ونسى ابنه وخليفته دومنيكو Domenico أنه ليس أكثر  
من حاكم ، فلم يلبث أن تصرف في فوكااية باعتباره سييدا وعاهلا ، ولم  
يقنع بذلك ، بل استولى بقوة السلاح على جزيرة من أجمل جزر  
الإمبراطورية . كان ذلك فى مناسبة العمليات التى أجراها بايعاز من  
البندقية الكثير من القوى المتحالفة ضد أتراك آسيا الصغرى ، وكان  
القصد أولا وضع سواحل الأرخبيل وجزره فى منأى من غارات  
قراصنتهم، ثم اذا أمكن إبعادهم من الساحل ودفعهم داخل الأراضى (٢٧٢) .

ورغم بدايات موفقة ، لم يلبث الحلفاء أن عدلوا عن المضى فى حمايتهم  
هذه . غير أن فرسان رودس ودوق ناكسوس Naxos ، وسيد فوكااية ،  
وقد ثار غضبهم بعد أن أنفقوا أموالا ضاعمت هباء ، قر عزيمهم على تعويض  
خسارتهم بالاستيلاء على لزبوس Lesbos ، رغم أن هذه الجزيرة كانت

---

Contacuz., I, 371-388, 390 et s.; Nicéph., Grég., I, 438 et s.; (٢٧٠)  
Contin. de Jacq de Vorag. p. 510 .

- أشار بعض المسافرين الى أسر مارتينو :

Ludolf von Suthen, p. 23 et s.,  
et Jord. Catalani, p. 63 et Brochart, dans son Advis directif (en tête  
de l'Oeuvre de Piloti), p. 281.

Cantacuz., I, 388-390.

(٢٧١)

(٢٧٢) نجد مزيدا من التفاصيل فى الفصل الخاص بآسيا الصغرى .

تابعة للأمبراطورية ، وأن أندرونيك كان من أعضاء الحنف . ونجحوا في ذلك ، إلا أن فرسان رودس ودوق ناكسوس اضطروا بعد قليل الى التخل عن غنيمتهم . أما سيد فوكاية فإنه استستخدم الحيلة حيناً ، والحموة أحياناً ، واستطاع بذلك أن يضمن لنفسه ملكية الجزيرة ، ملكية مطلقة ، ثم بادر بتوطيد مقامه فيها ، ولم يترك بفوكاية سوى حامية ( ٢٧٣ ) .

كان غزو لزبوس على أيدي أحد مواطني الجنويين في غلطة أمراً يسر هؤلاء بلا شك ، كان نوعاً من التعويض عن فقدهم جزيرة خيوس . وكان في أسلوبيهم الذي عبروا به عن فرحتهم إهانة وتهديدا للأمبراطور . والحقيقة أنهم كانوا ناقمين عليه ، أولاً لأنه انتزع خيوس من آل زكاريا ، وأهان آل كاتانير في فوكاية ، ثم أنه تخلى عن السياسة الحذرة المعتادة التي كان يتبعها سلفه حيمال البندقية ( ٢٧٤ ) . فالواقع كان أول تظلم لهم أن أندرونيك ، في الوقت الذي تأهب فيه لخلع جده عن العرش كان قد لجأ الى أمير البحر البندقي جستينيانى ليحصل منه على تجدة رفض هذا أن يقدمها اليه ( ٢٧٥ ) . والتظلم الثانى : أنه انضم الى الحلف المشكل ضد الأتراك وهذا الحلف هو فى الأصل من ابتكار البندقية ، وأنه فى المؤتمرات التي انعقدت فى رودس عام ١٣٣٢ ، جعل ممثلاً له السفير البندقي بييترو داكانيه Pietro da Canale ( ٢٧٦ ) . ثالث تظلم : أنه فى شهر نوفمبر من السنة نفسها ، صدق على المعاهدات القديمة المنعقدة بين الأمبراطورية والبندقية ، وأبدى استعداداً لتلقى مجموعة من طلبات التعويض المقدمة اما من حكومة البندقية أو من بعض البنادقة ( ٢٧٧ ) .

وفى هذه الأحوال ارتأى للجنويين أنهم غير ملتزمين بمراعاة المعاهدات الخاصة بهم مراعاة دقيقة ، ومن ثم عملوا على تقوية التحصينات القديمة

Nicéph Grég., I, 525 et s. ; Cantacuz.

( ٢٧٣ )

( ٢٧٤ ) كان اندرونيك الثانى قد أظهر مشاعر سليمة حيال البنادقة : فبمقتضى معاهدة عقدتها فى شهر أكتوبر ١٣٢٤ مع الدوج جيوفانى سورايزو ، سبب شيكوى من أكبر شكاويهم ، وذلك بأن رخص بيع قمح بنطس وغيره بوجه عام فى كل أنحاء الإمبراطورية ؛ فيما عدا فى سوق الجيوب بالقسطنطينية ؛ ويوجد النص اليونانى لهذه المعاهدة فى : Miklós et Muller. Acta graeca, III, 199 et ss.

والنص اللاتينى فى :

Taf. et Thom., IV, 200

Niceph., Greg. I, 417.

( ٢٧٥ )

( ٢٧٦ ) له سلطات مطلقة ، فى ٢٦ اغسطس ١٣٣٢ :

Taf et Thom., IV, 227.

Texte grec dans Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 105-111; texte latin dans Taf. et Thom., IV, 230 et ss. ( ٢٧٧ )

فى غلظه ، ثم وجدوا أنها غير كافية فشيّدوا خارج حبيهم على المرتفع المشرف على غلظه حصونا كالقلاع كدسوا بها أسلحة مختلفة أنواعها (٢٧٨) . وما أن بلغ الإمبراطور نبأ ما جرى فى لزبوس حتى أصدر أمره بعمل الترتيبات اللازمة لاستعادة الجزيرة ممن غزوها ، إلا أنه أراد ألا يرحل قبل أن يعطى أهالى بيرا درسا قاسيا ، فبدأ باشعال النيران فى القلاع التى شيّدوها على المرتفع ، ذلك لأنه لم يكن من الجائز لهم أن يبنوها بالمخالفة التامة لامتياز عام ١٣٠٤ ، وكان بوّده أن يضى الى أكثر من ذلك ، ولكنه توقف أمام ما أبداه السكان من عزيمة قوية ، إذ كمنوا خلف أسوارهم وهم محصنون تماما من ناحية القسطنطينية ، وأعدوا عدتهم لحصار حسب الأصول المرعية .

وفى المستطاع أن نرى فى هذه الظروف ما كانت عليه التجارة بين العاصمة وضاحتها ، وأهمية هذه التجارة فى الوفاء بالحاجات . ولما كان سكان غلظة يتزودون من القسطنطينية بالأشياء الضرورية لمعيشتهم ، لذلك وجدوا أنفسهم بعد بضعة أيام مهددين بالمجاعة ، فضلا عن أن جماعة من صغار التجار الذين يتعيشون من التجارة وجدوا أنفسهم محرومين من وسائل معيشتهم . ههذه الحال حملت قادة الحركة على التفكير ، ولما انقضى أسبوع فى صياح وضجيج ، اعترم القادة على الإذعان للإمبراطور . وهكذا صار فى وسع أندرونيك أن يرحل وهو مطمئن من ناحيتهم ، فأبحر مع أسطول كبير لكى يؤايب دومينيكو كاتانيو (٢٧٩) . وبدأ بالاستيلاء على خمس سفن تابعة للمتمرد على طول سواحل لزبوس ، وبعد أن أنزل فى الجزيرة عددا من الفرق العسكرية التى كلفها بمحاصرة ميتلين Mityline عاصمة الجزيرة الجديدة ، اتجه الى فوكاية هدفه الرئيسى . وفى هذه الناحية وجد تابعا ذا فائدة عظيمة له فى شخص صاروخان Sarou-Khan (٢٨٠) سلطان مانيزيا Magnésic كانت علاقة هذا السلطان بمستعمرة فوكاية غريبة فى نوعها ، إذ كانت المستعمرة تدفع له كل سنة ، على شكل هدية (٢٨١) مبلغا من المال حدده معاهدات قديمة ، الأمر الذى لم يمنع قيام منازعات دائمة بينها وبينه . وكانت فى هذه الأونة بالذات تحتجز ابنا للسلطان ، ورهائن أخرى . وكان

Nicéph. Grég., I, 527.

(٢٧٨)

Nicéph. Grég., I, 528; Cantacuz., I, 476 et s.

(٢٧٩)

• بخصوص هذا السلطان وإمبراطوريته ، انظر فيما بعد : آسيا الصغرى .

(٢٨١)

Ibn-Batouta, II, 314; Ducas, p. 162 et s.

— يحدد هذا الأخير رقم الجزيرة . وتبعاً للتواريخ التى يذكرها ، بدأ آل زكاريا

دفع الجزيرة فى أواخر القرن الثالث عشر .



السلطان قد اختبر مرارا شجاعة حامية فوكاية (٢٨٢) ومتانة قلعتها ، فلم يجرؤ على مهاجمتها . ومع ذلك سارع بقبول دعوة الامبراطور ، وقامت قواتهما المشتركة بحصار المدينة : وقام الموقع أكثر من ستة شهور ، وأصبح المحاصرون مهدين بالمجاعة ، ولم يتقوها ، ولبضعة أيام فقط. إلا بإلقاء السكان اليونانيين خارج الأسوار . وأخيرا قر عزمهم على التفاوض (١٣٣٦) . وأطلق الحاكم الجنوى سراح الأسرى الأتراك ، وتعهد بالحصول من كاتانيو على قرار بالجلء عن جزيرة لزبوس . واعتزم كاتانيو بالفعل ترك الجزيرة ، أو بالأحرى العاصمة ، فهي كل ما تبقى له ، الا أنه لا يبدو أن المعاهدة أثرت فيما اعتزم فعله : ذلك أن ما حمله على اتخاذ قراره هذا هو تخلي جنوده عنه بعد رشوتهم بالذهب البيزنطي (٢٨٣) . وعلى ذلك عاد الى فوكاية التي وافق الامبراطور على ترك حق استغلالها له ، لا حق ملكيتها . ومع انكماش ممتلكاته على هذا النحو ، لم يستمتع بها زمنا طويلا . فبعد أربع سنوات (١٣٤٠) ، كان ذات يوم يصطاد ، فثار السكان الروم وقتلوا جنود الحامية اللاتينية الصغيرة ، وأعلنوا أنهم لن يعترفوا بسيد عليهم الا الامبراطور . وجاء حاكم رومي Megaduca أرسله الامبراطور ، وتسلم باسمه مقاليد الحكم (٢٨٤) .

ولدينا من المعلومات ما يكفي لنفهم ما كان لهذه الأحداث من أثر في هياج النفوس في غلطة . ففي عام ١٣٣٧ حين تجرأ أورخان « الأمير العثماني الأكبر » الذي كان مسيطرا منذ زمن بعيد على الضفة الآسيوية لهلسنيونتس Hellepont (الدرديل) فعبر المضيق عند نقطتين بقصد ضرب الحصار أمام القسطنطينية نفسها ، كان قد أدخل في اعتباره تدمير أهالي غلطة (٢٨٥) . فهل كان قد اتفق مسبقا مع سكان غلطة ؟ وهل كان على حق في اعتماده بصورة ايجابية على معاونتهم له ، أو على مجرد حيادهم ؟ لا ننعنا أن نجيب على ذلك ، ثم ان الأمر لا أهمية له ، لأنه هزم وارتد قبل أن يصل الى أسوار العاصمة . غير أن هذه الواقعة مفيدة

(٢٨٢). في عهد اندريولو كاتانيو كانت الحامية تتكون من ٥٢ فارس ، و ٤٠٠ جندي من المشاة : Catal. p. 63.

(٢٨٣) ما تقدم مقتبس من :

Nicéph. Grég., I, 529-535, et à Cantacuz., I, 477-495 :

ولابد من القول بان بين الحكايتين فروقا كبيرة .

(٢٨٤) Nicéph. Grég., I, 553; Hopf, art. Giustiniani, p. 313, 315.

(٢٨٥) Nicéph. Grég., I, 539.

للمغاية اذ توضح لنا مدى تراخي الحلف المتعقد بين بيزنطة وجنوا بمقتضى معاهدة نيمفيوم فى عهد الباليولوجوس الثالث .

وتوفى أندرونيك الثالث فى عام ١٣٤١. تاركا الامبراطورية ليوحنا الخامس ، وهو طفل فى التاسعة من عمره ، بوصاية أمه الامبراطورة آن Anne ( من سافوا ) . وبعد وقت قليل رفع « الخادم الأكبر » يوحنا كانتا كوزين Jean Cantacuzène علم الثورة ، وبعد سنين طويلة من الصراع نجح فى استلام التاج بالنيابة بانتظارا لبلوغ يوحنا الخامس سن البلوغ ( ١٣٤٧ ) . هذه الحرب الأهلية الطويلة شملت التجارة والصناعة فى البلد ، وأهلكت الشعب ، وأضعفت الامبراطورية ، وأتاحت لأعدائها فرصة التوسع على حسابها . عندئذ مد استيفان دوشان Etienne Douchan ملك الصرب سلطانه حتى الأرخيبيل ، واتخذ لنفسه لقب امبراطور القسطنطينية . ولما كان مسيطرا على حوض ستريمون Strymon ( ستروما Struma حاليا ) ، فإنه حتى يتم له غزو تراقيا وعاصمة الامبراطورية ، لم يكن ينقصه - وهذا ما بدا له على الأقل - سوى التحالف مع قوة بحرية . ومن أجل ذلك اتصل مرتين بالبندقية ( فى ١٣٤٦ ، ١٣٥٠ ) ليحصل على معاونتها ، وفى المرة الثانية عرض عليها ثمنا لتعاونها السيادة الكاملة على بيرا أو ابيروس ، ولكنه تلقى فى المرتين رد الجمهورية بأنها لا يمكن أن تتنكر لمعاهداتها ، وأنها تفضل أن تقوم بدور الوسيطة ( ٢٨٦ ) .

وعلى العموم كانت علاقات البندقية فى هذه الفترة بأباطرة الدولة البيزنطية ذات طبيعة ودية . وعندما تسلمت الامبراطورة آن مقاليد الوصاية على العرش ، تلقت تهانى سفيز بندقى جدد معها المعاهدات القديمة سبع سنوات ( ٢٨٧ ) . وعندما تولى يوحنا كانتا كوزين العرش الامبراطورى أثنت عليه الجمهورية ( ٢٨٨ ) وطلبت منه مدا جديدا لامتيازاتها القديمة ( ٢٨٩ ) والحقيقة أن هذا الشئ لم يكن الا وسيلة لمبعوته

Monum. hist. Slav. merid., II, 164, 178, 192 et s., 326 et s. ; ( ٢٨٦ )  
III, 119, 175, 177, 181.

Texte grec dans Miklosich et Muller, Acta III, 111-1144 : date ( ٢٨٧ )  
25 mars 1342 ; texte latin dans Taf et Thom, IV, 257 et ss. Voyez aussi Hopf, art. Griechenland, Op. Cit., p. 443 et s.

وفى هذا المرجع الأخير حديث عن قرض سلمت آن للبندقية كرهن عنه جواهر التاج .  
( ٢٨٨ ) كلف بهذه المهمة ( ١٤ يولية ١٣٤٧ ) سفراء مضوا لاقباله الخسان جنبك Khan Djanibek وتواجدوا فى طريقهم بالنسططينية :  
Taf. et Thom., IV, 310.  
( ٢٨٩ ) بوساطة زكاريا كونتارين ، ٩ من سبتمبر ١٣٤٩ :

Miklos et Muller, l.c.,  
p. 114-120: Taf. et Thom. IV, 341 et s.

الى النظر في طلبات تعويض ومطالب منوعة . مثال ذلك أن التجار الهنادة كانوا يصيدون قمحا من آسيا الصغرى عن طريق فوكاية ، وكان موظفو الجمارك اليونانيون يجبرونهم على دفع الرسوم ، ومن ثم ادعت الجمهورية أنها ترى في هذا التصرف انتهاكا لما لها من إعفاءات جمركية . وكان بيع النبيذ في الحانات محظورا على الهنادة ولكنه مصرح لليونانيين وحدهم ، وهذا مخالف للمعاهدات . وفي عام ١٣٤٤ كلفت حكومة البندقية « البايالات » بالسعى في إلغاء هذه الاجراءات . وفي عام ١٣٤٥ أرسلت الى الامبراطور خطابا بهذا المعنى (٢٩٠) .

أما الجنويون فانهم لم يهملوا الفرصة التي أتاحتها لهم الاضطرابات الداخلية في الامبراطورية ، وكانوا يتوقون الى استعادة ملكيتهم لجزيرة خيوس التي كان بها حاكم يوناني منذ عام ١٣٢٩ ، على أن مارتينو زكاريا حاكم الجزيرة الأسبق كان أكثر الناس حماسة لاستعادة الجزيرة ، وكان في تلك الآونة أسيرا في القسطنطينية ، ثم أطلق سراحه ، ووضعت له الدولة المتحالفة ضد الأتراك على رأس الجيش الذي غزا فيما بعد تحت امرته مدينة سميرن . وخطر له أن ينتهز هذه الفرصة ويستعيد جزيرة خيوس ، إلا أن البابا حظر على الصليبيين تنفيذ هذا المشروع ، لأنه يناه عن الهدف الرئيسي للحملة . وكان لا بد من الملء عن المشروع (٢٩١) ، ولم يعد في الامكان طرح المسألة على بساط البحث بعد الاستيلاء على سميرن ، وقد قتل بها زكاريا في عام ١٣٤٥ . ومع ذلك ، فبعد مضي سنتين على وفاته عادت الجزيرة من جديد الى أيدي الجنوين . وهذا ما حدث : ففي عام ١٣٤٥ اندلعت ثورة بين سكان سواحل ليغوريا Liguria ، ولاخضاد هذه الثورة كان لا بد من استخدام أسطول ، إلا أن خزنة الدولة كانت خاوية . واستجابة لنداء الدولة تكفل عدد من الوطنيين الأثرياء بتجهيز أسطول بشرط أن تضمن لهم الدولة سداد ما أدوا من نفقات ، وأقاموا على رأس الأسطول رجلا باسلا من رجال الشعب يدعى سيمون فينوزي Simone Vignosi . وبعد أن تشتت التمردون دون أن يبذلوا أية مقاومة ، أريد الاستفادة من التسليحات المجهزة ، ومن ثم أرسل الأسطول الى البحر الأسود حيث كانت الجاليات الجنوبية في حاجة الى حماية . وغادر الأسطول جنوا في ربيع عام ٢٣٤٦ ووصل في ٨ من يونيو الى نجربونت ، المحطة الوسطى ، ووجد بها اسطولا آخر يتأهب للاقلاع ، في حملة يقودها همبرت الثاني Humbert II

Tafel et Thomas, IV, 273 et s., 287.

(٢٩٠)

Raynold, Annal eccl, ad an 1344, no. 2.

(٢٩١)

ولى عهد فيينا لانتقاد سميرن التي أطبق عليها الأتراك . وكان ولى العهد عند وصوله الى نجر بونت قد عقد على الأرجح مفاوضات مع آن ( أو انا الوصية على عرش الامبراطورية بقصد الحصول منها على التنازل له عن جزيرة خيوس لمدة ثلاث سنوات ، وهى المدة المحددة للحملة التى يتولى قيادتها (٢٩٢) . وكان لا بد أن تكون هذه الجزيرة قاعدة لعملياته اللاحقة فى آسيا الصغرى . ويبدو أن الامبراطورة ، بعد أن رحبت أولا بهذا المطلب غيرت رأيا . ومن ثم تأهب ولى العهد لاحتلال الجزيرة بالقوة وذلك فى الوقت الذى دخل فيه فينوزى ميناء نجر بونت بأسطوله الذى يضم تسعا وعشرين سفينة . وعرض عليه همبرت كما عرض على رفاقه قباطنة السفن مبالغ ضخمة للحصول على معاونتهم ، أو على الأقل حيادهم : ولم يكن فى ذلك جدوى . ولم يكن ثمة جنوى لا يذكر أن جزيرة خيوس كانت منذ وضع سنوات مضت تابعة للأمير من مواطنيه ، ولا يغذى فى نفسه الرغبة فى استعادة هذه الجزيرة الى أملاك جنوا ، ولا يريد تقديم مساعدته لكىلا تقع الجزيرة فى أيدي أجنبية . ورأى فينوزى ورفاقه بحق فى مشروع ولى العهد عملية دبرها البنادقة خفية ، وهم حلفاؤه الرئيسيون فى هذه الحملة (٢٩٣) . وكان المعروف أن البنادقة لو استقروا مرة فى الجزيرة بعد احتلال ولى العهد إياها ، فلن يكون من السهل اخراجهم منها ، وأن فى سيطرة البندقية على خيوس تهديدا خطيرا لعلاقات جنوا بالقسطنطينية وبالبحر الأسود . لذلك رفض الأميرال ورفاقه هذه العروض ، وبادروا بالعمل ، ولما وصلوا الى خيوس اكتفوا أولا بعرض مساعدتهم للأهالى لصد هجوم همبرت والبنادقة اللوشيك الوقوع ، ولم يطلبوا منهم مقابل ذلك سوى رفع العلم الجنوى ، واستقبال فرقتهم . واذ تلقوا من الأهالى رفضا قاطعا لعروضهم ، فانهم لجأوا الى العنف (١٦ من يونية ١٣٤٦) واستولوا فى أربعة أيام على الجزيرة كلها ، فيما عدا قلعة العاصمة التى ما لبثت أن استسلمت بدورها بعد حصار استغرق ثلاثة شهور (١٢ من سبتمبر) (٢٩٤) . أما همبرت ولى العهد ، فان هذه الحملة انتهت نهاية

(Valbonais) Mémoires pour servir l'histoire du Dauphiné. (٢٩٢)  
 Paris 1711. in fol. p. 577, 580; M. Petigny, la Bibl. de l'école des chartes, 2ème série, I, 274-280 ; Stela (Murat., XVII, 1085 et s, 1088) et les Istorie Pistolesi, Prato 1935 p. 453 et s. ; Taf et Thom., IV 298, 300; U. Chevalier, Chrox de doc. hist sur le Dauphiné (Lyon 1874) p. 95 et ss. ; Archives de l'Or. lat, I, 537 et s.

Taf, et Thom, IV, 298, 300 ; Commem. reg., II, 149, no 173. (٢٩٣)

Lib. jur., II, 558-572 (et dans C. Pagano D'elle (٢٩٤)  
 imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 271-285) et  
 la Chronique de Giorgio Stella, l.c., p. 1086-1089.

غير مشرفة له ، فلم يعدل فقط عن الغزو الذي كان يحلم به ، ولكنه فقد في الحملة أيضا خيله ، وجواهره ، ومعداته ، وأشياء ثمينة أخرى انتزعها القراصنة الجنيون (٢٩٥) . وكان نجاح حملة فيثوري ورفاقه حقيقا بأن يوعز اليهم بفكرة استعادة « مدينتي فوكاية » اللتين اجتماعنا لزمان طويل مع خيوس تحت سيادة أسرة واحدة من أمراء جنويين ، وكان عليهم أيضا أن يثأروا من سكان هاتين المدينتين الذين لم يكفوا عن مناوشتهم أثناء حصار قلعة خيوس . وسقطت المدينتان كلتا حصا في أيديهم في شهر واحد ، فوكاية القديمة في ١٨ من سبتمبر ، والجديدة في ٢٠ منه (٢٩٦) . وأراد قنيوزي أن يمضي الى أبعد من ذلك ، ويعد غزواته حتى لزبوس وتينيدوس Ténédos . غير أن القسم الأكبر من رجاله رفضوا المضي معه ، ومن ثم اضطر الى العودة الى خيوس (٢٩٧) .

ولكى يحمل الغزاة سكان خيوس وفوكاية على قبول نظام حكم جديد يحولهم للفر من رعايا الامبراطورية اليونانية الى مواطنين جنويين ، فانهم أبدوا لهم كرما كبيرا ، فاحترموا بقدر المستطاع الملكيات الفردية ، وأعطوا الأفراد كل الضمانات المرغوبة ليتمتعوا بحرياتهم المدنية والدينية (٢٩٨) ، كما بذلوا الجهد لتشكيل حاميات كافية لحراسة الجزيرة ومدن القارة . وبعد أن أنجزوا على هذا النحو كل متطلبات الحالة الراهنة ، عادوا الى وطنهم . وكان لا بد من تسوية حساباتهم مع « القومون » : كان هذا موضوعا لمفاوضات طويلة انتهت أخيرا بتسوية حاسمة وقعت في ٢٦ من فبراير ١٣٤٧ (٢٩٩) . ولم يكن القومون كما رأينا من قبل قد قدم أى مبلغ لتجهيز الأسطول بالجنود والمعدات ، ولكنه تعهد بتعويض أعضاء الحملة عن كل ما يصيبهم من خسائر ، ويدفعوا لمجهزي السفن كل ما أدوه من نفقات وذلك بمبالغ تستقطع من إيرادات الدولة . وبعد تسوية الحسابات كلها ، بلغت نفقات الحملة ٢٠٣٠٠٠ جنيه ، غير أن الخزانة لم تزل خاوية . ولتعويض قادة الحملة ، تخلت لهم الحكومة عن ملكية الجزيرة وفوكاية ، ملكية كاملة ، وتلقى كل ربان سفينة لقبيا يكفل له نسبة في الإيرادات العامة . وهكذا وجد غزاة خيوس وفوكاية أنفسهم

Biblioth de l'école des chartes, l.c., p. 284-287. (٢٩٥)

Stella, l.c., p. 1089 et s.; Lib jur., II, 560; Pagno, l.c., p. 266-270. (٢٩٦)

Stella, p. 1989. (٢٩٧)

(٢٩٨) انظر معاهدة ١٢ سبتمبر بشأن خيوس ، ومعاهدة ٢٠ سبتمبر بشأن فوكاية في : — Pagno, p. 261-270.

Lib jur., II, 558-572, p. 1498 et ss. ; Pagno, p. 271-285. (٢٩٩)

أعضاء في شركة مساهمة . على غرار الكثير من سائر الشركات المماثلة في ذلك العصر ، باسم ماؤنى Maone أو ماهونى Mahons (٣٠٠) ، وأطبق على المساهمين اسم « ماهون » Mahons . واحتفظ الكومون لنفسه بالحق في استرداد الأسهم شيئا فشيئا بالشراء بحيث يندو مالكا لها في مهلة معينة بعد تعويض الماهون بالكامل . إلا أنه بسبب العديد من الحروب التي اشتركت فيها الجمهورية ، والنفقات التي استلزمها ، بقي هذا التحفظ حبرا على ورق (٣٠١) . ولم تخرج « ملكية الانتفاع » *dominium utile* بخيوس وفوكاية من أيدي الشركة . إلا أنه طرأ على تنظيمها ، وعدد المساهمين ، وأسمائهم ، وعدد الأسهم وقيمتها بمرور الزمن تغيرات كثيرة : فبعد أن كانت الأسهم في البداية مركزة في أسر ربانة السفن التي غزت خيوس وفوكاية ، انتقلت بالبيع من أسرة إلى أخرى (٣٠٢) . وعلى الرغم من هذا التشتت ، بقيت المصالح المشتركة قائمة . وفي عام ١٣٦٢ انعقدت معاهدة جديدة بين الكومون وبين « الماهون » (٣٠٣) ، ورأى هؤلاء أنه من الأفضل أن يعلنوا على الملأ الملاقة التي تربطهم بعضهم ببعض ، ومن أجل هذا تخلى كل واحد منهم عن لقب الأسرة الذي يحمله ، واستبدل به لقب جوستينياني (٣٠٤) . ولا شك أن الأصل في اختيار هذا اللقب يرجع إلى قصر جوستينياني الذي كان ملكا مشتركا للشركة في جنوا (٣٠٥) . واعتبارا من تلك اللحظة بدأ أن الماهون يشكلون طائفة كبيرة .

وعلى العكس من العادة المتبعة لدى الماهون القدامى الذين كانوا

(٣٠٠) نجد تفسيرات منوعة لهذا الاسم عند الكتاب الآتي بيانهم :  
 Serra, Storia, dell'antica Liguria e di Genova, IV, 103 (éd. Capolago);  
 Pagano, Delle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 132;  
 Canale, Nuova istoria di Genova, I, 277 ; Alivieri Carte e cronache  
 monoscritte, p. 68 ; Hopf, art Giustiniani, p. 327; Promis, La zecca  
 di Scio, p. 336; Amari, Dipl. arab p. XXV; Amari, Storia de Musulmani  
 in Sicilia, III, 886, not 4; et. Dozy et Englemann, Glossaire des mots  
 espagnols et portugais dérivés de l'arabe, 2e éd. (1869), p. 179 et s.  
 - في اللغة العربية ، كلمة يشبه نطقها نطق كلمة Maone ومنها أكثر ملامحة  
 لطبيعة الشركة المشار إليها من أية كلمة أخرى ، تلك هي كلمة ( مونة ) ، وإماری  
 هو الذي اقترح هذا الأصل لاسم الشركة .

- Amari (٣٠١)  
 Lib. jur. II, 782 et ss, 790 et ss. ; Hopf, Guistinian, p. 318.  
 (٣٠٢)  
 Lib. jur., II, 714. et ss., 682 et ss., 790 et ss., 1016 et ss., et  
 dans l'étude si complète de M. Hopf sur les Giustiniani, p. 317-320.  
 (٣٠٣)  
 Lib. jur., II, 714 et ss.  
 (٣٠٤)  
 Agost Giustiniani od, an. 1362, fol. 137 à ; Hopf, Op. Cit.,  
 (٣٠٥)  
 Hopf., Op. cit., p. 327.

يقطنون غالبا في جنوا ، ويعهدون الى ملتزمين بتحصيل دخولهم ، فان  
الجوستينيانيين كانوا كلهم تقريبا يقيمون في خيوس ، تجارا ، ومصرفيين ،  
وأصحاب دخول يتقاسمون في الشؤون المالية والادارية الوظائف التي  
تخصهم . وفيما عدا استثناءات قليلة ، كانت كل الوظائف في خيوس  
وفوكاية يشغلها أفراد من الماهون . ومن قبل ، في زمن المعاهدة الأولى  
المبرمة مع سيمون فينوزي وشركائه ، لم يشترط قومون جنوا الا ثلاثة  
تحفظات : السيادة على مجموع الممتلكات الجديدة ، والقضاء المدني  
والجنائي ، وحق الملكية المباشرة لمدينة خيوس وقلعتها ، ومدينتي فوكاية  
وقلاصهما .

وتبعاً لهذا التنظيم لم يكن يتبعه من حيث التعيين سوى عدد محدود  
من الموظفين : أولا ، بودستات لجزيرة خيوس ، ثانيا بودستات لمدينتي  
فوكاية ، ثالثا ، ثلاثة حكام ( كاستلاني Castellani ) لقلع خيوس  
ومدينتي فوكاية . وكانت الشخصيات التي تدعى لشغل هذه المناصب  
تنتخب حسب نظام تحدده المعاهدات ، ويعهد في اختيارها بالنصيب  
الأكبر الى الماهون بحيث كان من المستحيل الوصول الى هذه المناصب  
دون موافقتهم . فضلا عن ذلك كان بودستات خيوس ، في كل الشؤون  
التي لم تكن ذات طبيعة قانونية بحتة ملزما بأن يأخذ رأي هيئة من  
المستشارين يختارهم الماهون فيما بينهم . وهكذا كانت سلطة الحكومة  
المركزية دائما محدودة جدا ، وفي مقابل ذلك لم تكن رعاية المستعمرة  
تكلفها شيئا على وجه التقريب ، فكانت طائفة الماهون هي التي تنفق على  
شؤون الإدارة ، والشرطة ، والقوات البرية والبحرية ، وبالتحصينات ،  
والوانى ، الخ ، بل كانت تتولى أيضا تدريب الموظفين الذين ينتخبهم  
القومون .

ومن المفيد أن نعرف الموارد التي كانت طائفة الماهون تستخدمها  
لتغطية كل هذه المصروفات وتستهلك في الوقت نفسه نفقات الغزو ، ومن  
أجل ذلك ينبغي لنا أن نتذكر ما قلناه قبلا عن خصوبة الجزيرة ، وبالأخص  
ثرائها الكبير في مزارع « المستكة » ، ونتاج مناجم الشب في فوكاية .  
وفي المتوسط كان بيع المستكة لا يصل سنويا الا الى ٤٣٠ قنطارا ، اذ  
كان من المتبع الاقتصاد في استخدام المزارع خشية استهلاكها المبكر .  
الا أن القنطار كان يساوي من ٤٠ الى ٤٥ جنيها ، بحيث تثمر هذه المادة  
وحدها إيرادا قدره من ١٧ ألف الى ١٩ ألف جنيه . كذلك كانت الضرائب  
تأتي بدخل كبير ، وكانت على الأخص تثقل كاهل السكان اليونانيين ،  
ولكنها كانت أخف عبئا على الغربيين ، وتأتي بعدها الرسوم على الرزادات  
والضادرات .

وفي عصر جوستينياني كان بالجزيرة عدة موانئ تتردد عليها سفن كثيرة : أولها ميناء خيوس ، ثم الموانئ الأقل أهمية : ميناء بورتو - فينو Perto-Fino ( دلفينو ، دلفينيوم القديم ) ، وميناء ليشي Lithi ( لاويوس القديم Lauius ) ( ٣٠٦ ) كانت هذه الموانئ تعج بالقرابين والشرقيين ، من كل الأجناس ، يفد البعض إليها بحثاً عن منتجات الجزيرة الثمينة ، وكانت الجزيرة للبعض الآخر مرسى في الطريق من مصر أو سوريا أو الغرب إلى القسطنطينية والبحر الأسود ، أو بالعكس . وثمة ترتيب خاص ، جعل لتيسير رخاء خيوس ، يأمر السفن الجنوبية التي تقوم بالرحلة إلى الشرق الأدنى أن تتوقف يوماً عند خيوس . وكان الجنوبيون يتمتعون بعامة بالمعافاة من الرسوم .

ولكن بالنسبة إلى تصدير الحاصلات الطبيعية ، كالمستكة مثلاً ، كانوا يدفعون نفس الرسوم المفروضة عليهم في عهد الحكومة اليونانية . وكان الأمر كذلك في فوكاية ( ٣٠٧ ) . أما سائر الأمم فكانت تدفع رسوما مرتفعة ، ويبدو أن أقل رسم كان خمسة « هيرير » عن كل قنطار ( ٣٠٨ ) . وعندنا وثيقتان تبياناً بكيفية مناسبة عن المبلغ الاجمالي الذي كانت هذه المصادر المختلفة من الإيراد تدخله في خزائن الماهون . ففي وثيقة فرنسية نشرت حديثاً ، يقلد هذا المبلغ بسبعين ألف فلورين ، وفي فوليتا Foglietta بستين ألف « جنوفين دورو » ( جنوفين دورو ) ( فقد جنوى قديم - المترجم ) ، وكانت قيمة جنوفيني دو رو تساوي قيمة الفلورين ( ٣٠٩ ) . ويذكر « كائنا كوزين » رقماً أعلى قليلاً في أواخر عهد آل كاتانيو ( ١٣٢٩ ) ، فيتحدث عن مبلغ ١٢٠٠٠ هيربرر ذهبي ( ٣١٠ ) . ولما كان الهيربرر الذهبي يساوي في ذلك العصر ثلثي الفلورين ( ٣١١ ) ، فإن هذا المبلغ يعطى دخلاً سنوياً قدره ٨٠٠٠٠ فلورين . فإذا جعلنا للدنار الذهبي ecu في ذاك العصر قيمة ١٢ فرنك ، نرى من هذه المصادر الثلاثة أن المبلغ الاجمالي يصل إلى ٧٢٠٠٠٠ حتى ٩٦٠٠٠٠ فرنك .

Hopf, Op. cit., p. 335, et Fustel de Coulanges, dans les Archives des missions scientifiques, V. 500, 503 et s. (٣٠٦)

Lib. jur. II, 568, 802. (٣٠٧)

Hopf, Op. cit., p. 331. (٣٠٨)

Bibl. de l'école des chartes, 1e série, I, 285; Fogl. p. 582. (٣٠٩)

Cantacuz, I, 371. (٣١٠)

Desimoni, dans la Giorn ligust., 1874, p.158, not. (٣١١)



وعاشبت المستعمرة التي أنشأها فنيوزى (٣١٢) أكثر من مائتي سنة . ولما كانت خاضعة لسيادة جنوا ، كان يحكمها ويدبر شئونها ويستغلها هيئة مكونة من أسر جنوبية ، ويمتد نفوذ هذه الهيئة فيشمل بالإضافة الى خيوس ومدينتي فوكاية جزرا أخرى أقل أهمية : سادوس ، ونيكاريا Nikaria ، وسنتا باناجيا Santa Panagia . ومن الوجهة التجارية ، كان هذا الوضع كسببا لا يقدر بشئ . كانت خيوس تشكل أول حلقة في سلسلة طويلة من المستعمرات ، ربما تعتبر ببرا مركزا لها ، وفي طرفها كافا وتانا من جهة ، وطربزون وطوريس Tauris من جهة أخرى . وأدى امتلاك خيوس الى تعزيز أمن المواصلات بين جنوا ومستعمراتها البعيدة . ولم يكن مناص من هذا ، على الأقل لموازنة تفوق البندقية في الأرخيبيل . ولكن ، حتى في غير هذه الاعتبارات الخاصة بالسياسة العليا ، فإن تجارة جنوا وجهت غذاء وفيرا في منتجات خيوس وفوكاية . وإذا لم يكن لهذه الأخيرة الا لما بها من شب ، فإن هذا المحصول يكفي وحده لاعطائها قيمة كبيرة ، ويمكن أن نقرن به كمادة للترانزيت قمع آسيا الصغرى .

أما بخصوص جزيرة خيوس ، فإن حاصلات التربة ومنتجات الصناعة متوفرة بها ، نذكر في مقدمتها راتنج المستكة ، ويستخلص من البحوث التي أجراها م . هوف M. Hopf أن « الماهون » كانت تصدر كل سنة الى الغرب في المتوسط ١٢٠ قنطارا ، و ١١٤ قنطارا الى أرمينيا وقبرص ورودس وسوريا ومصر (٣١٣) ، و ٢٠٠ قنطار الى امبراطورية الروم وآسيا الصغرى التركية . ولما كانت هذه المادة لا توجد الا في خيوس ، فإن المسافرين في العصور الوسطى ينسون بعامة ، بعد أن يتحدثوا عنها ، أن يذكروا سائر منتجات الجزيرة . ومع ذلك يذكر كلافيو Clavijo بستائين الكروم (٣١٤) . ويكمل م . هوف معلوماتنا في هذا الخصوص بمعلومات استقفاها من وثائق مختلفة ، فيقول : « تنتج الجزيرة كميات كبيرة للتصدير من أنبذة ممتازة ، وزيت ، وتين ، وفواكه أخرى من فواكه الجنوب ، وكان تحرير خيوس يحظى بتقدير كبير ، وكانت

M. Hopf., dans l'art. Giustiniani, dans Ersch et Gruber (1ère section., LXVIII, 308-341).

(٣١٣) في عصر بيلوتي Piloti كان صندوق المستكة يباع بمبلغ ١٠٠ دوكا

Piloti, p. 375. في سوق الاسكندرية :

Clavijo, p. 42.

(٣١٤)

مهاجر بيلينيون Pelinan تنتج رخاما ، وكان يصدر الى جهات بعيدة  
فخار لا يقل قيمته عن فخار لمنوس Lemnos (٣١٥) .

ولا بد أن الامبراطورية الرومية كانت وقتئذ في حالة من الضعف  
يرئى لها ، حتى تترك الغربيين ينتزعون منها بسهولة هذه الجزيرة العظيمة  
الحصص والانتاج . لقد مزقت الحرب الأهلية البلد . وكانت الامبراطورية  
آن مجردة من كل شيء ، من المال اللازم لتجهيز أسطول ، والرجال  
القادرين على قيادته ، فلم تكن في حالة تسمح لها بالتصدى بالقوة لمشروع  
فنيوزى . حقا ، لقد أقلعت بضع سفن بقيادة الإيطالي فاتشيولاتي  
Facciolati في محاولة لتموين الجزيرة ، ولكنها وصلت متأخرة كثيرا .  
وانتقما لفشله ، هاجم بضع سفن تجارية جنوبية مسالمة وقتل عددا من  
بحارتها . وأثار هذا العمل الخليق بقرصان حفيظة الجنوبيين في غلظة ،  
واعتبروا فاتشيولاتي خارجا على القانون ، فلم يعد يجرؤ على الخروج الا  
في حراسة مسلحة . وكاد الجنوبيون يوقعون العاصمة في مجاعة بإيقافهم  
ارساليات القمح الذى كانوا هم الموردان الوحيدين له (٣١٦) . ولكى  
تضع الامبراطورة حدا لهذه الحال ، اضطرت أن تعيد اليهم ما أخذ منهم ،  
وتعطيهم فوق ذلك تعويضا (٣١٧) .

وفي خصوص الأحزاب التى جزأت الامبراطورية ، كان سلوك  
المستعمرين الجنوبيين في غلظة حافلا بالمتناقضات ، فكانوا تارة يساندون  
حزبا ، وتارة حزبا آخر (٣١٨) . ولما كانت الحرب الأهلية مضرّة  
بتجاريتهم ، فانه يبدو أنهم ارتاحوا لانتصار كانتا كوزين الذى أنهى هذه  
الحرب فى عام ١٣٣٧ ، بعد أن استمرت خمس سنوات ، وأعاد الأمن  
الى نصابه فى الامبراطورية . وكان من الوسائل التى استخدمها الوصى  
الجديد على العرش لاصلاح مالية الدولة ، وسيلة لا ترضيهم ، تتمثل فى  
خفض الرسوم التى يحصلها جمرك القسطنطينية من المنتجات الأجنبية ،  
وكان يستهدف بذلك حمل الأمم التجارية على العودة الى طريق  
القسطنطينية . فمرور الزمن نمت تجارة غلظة نموا كبيرا على حساب  
تجارة العاصمة ، فبلغت ايرادات جمركها ٢٠٠ ٠٠٠ هيبيربر ، فى حين

Art, Giustiniani O.p. cit., p. 333.

(٣١٥)

Remarque de Nicéph. Grég., II, 766.

(٣١٦)

Nicéph. Grég., II, 766 et s. ; Cantacuz., II, 583 et s.

(٣١٧)

Cantacuz., II, 502-522, 607 et s.; Nicéph. Grég., II, 734 et s.,  
775 et s.

(٣١٨)

لم تتجاوز في جمرك القسطنطينية ٣٠.٠٠٠ هيببر (٣١٩) ، وكان الغرض من خفض الرسوم في جمرك القسطنطينية قلب هذه النسبة في وقت قصير . وثمة أمر آخر استاء له الجنويون في غلطة : ذلك أن كانتا كوزين انهمك في اصلاح البحرية اليونانية وتجديدها : ذلك لأنه كلما قل ما في حوزة اليونانيين من وسائل النقل ، ازدادت سيطرة البحرية الجنوية على سبيل التجارة ، وكلما قل ما لدى اليونانيين من سفن حربية تستطيع تشغيلها ، قل ما تخصصها خيوس وفوكاية من ناحيتها . واهتم سكان غلطة بهذا الأمر اهتماما كبيرا حتى انهم تابعوا للنضال بقوة لكي يحافظوا على تفوقهم التجاري والبحري . غير أن النضال لم يكن كل شيء ، فلم يكن في مقدورهم أن يعتمدوا على نجاحهم في ذلك طالما لا يكونون مسيطرين على المرتفعات الواقعة خلف غلطة وتشرف عليها . وحاولوا أولا أن يتدروا بالمطف ، فقدموا لكانتا كوزين التماسا عرضوا فيه أن جيهم لم يعد يسمع سكانه . الا أن الوصي لم يكن بالمرّة مستعدا للتخلي عن وضع يعرف جدا قيمته . ولما فشلت هذه الوسيلة ، انتهزوا فرصة بقاء كانتاكوزين في ديديموتيشوس *Didymoteichos* لمرضه في صيف عام ١٣٤٨ ، وبدأوا العدوان .

ولم يكن في وسع اليونانيين الا قبول التحدي على مضض ، وكان بين الجنويين عدد منهم يودون حفظ السلام لصالح أشغالهم ، واجتهدوا حتى آخر لحظة أن يتداركوا انقطاع الصلات ، وذلك بإيفاد سفارة الى القسطنطينية ، الا أنهم صمموا على مطالبة اليونانيين بالكف عن الاجراءات التي اتخذوها لتجديده أسطولهم . وفي حين انتظر سكان القسطنطينية بقلق خلف أبوابهم المغلقة ما تسفر عنه الأحداث ، أشعل الجنويون النيران في بيوت اليونانيين القائمة على ضفة القرن الذهبي من ناحية غلطة ، والسفن التجارية الراسية في المرفأ ، والحوانيت الواقعة خارج أسوار العاصمة ، ودمروا في أحواض المرفأ السفن الجارية بناؤها أو ترميمها ، ولم ينج منها سوى ثلاث سفن كبيرة ، ويضع سفن صغيرة أمكن امرارها في جنت الظلام في مواقع يصعب عبورها عند الموضع الذي تصب فيه المياه المعبدة في القرن الذهبي (٣٢٠) .

وبعد هذه الغارة ، عمل الجنويون على مد جيهم الى داخل الأراضي حتى قمة التل . ولكي يؤمنوا سلامة الأرض التي ضموها ، بادروا ببناء

Nicéph, Grég., II, 842.

(٣١٩)

Hammer, Constantinopel und der Bosphorus, II, 35.

(٣٢٠)

وكانت أعمال الترميم تجرى في الزاوية القصوى من القرن الذهبي .

سور مرتفع ، وكانوا منذ وقت بعيد قد بدأوا في هدمه يكدمسون المواد والمعدات اللازمة . وحيثما لم يكن السور كافيا ، أضافوا اليه مبان وحضائر . وتتويجا لهذه التحصينات أقاموا برجاً على ذروة التل . وتتبعبت هذه الأعمال ليل نهار ، وتنافس في أدائها بحماسة وطنية النساء والرجال ، النبلاء وعمامة الشعب . وفي هذه الأثناء شغلوا سكان العاصمة بغارات موجهة تارة الى الأبواب ، وتارة الى السفن التي بقيت سليمة ، وعلى هذا النحو لم يكن لدى الجنود اليونانيين القليلي العدد من الوقت ما يتيح لهم أن يعرقلوا الأعمال الجارية في حي الجنويين ، وكل ما استطاعوا أن يفعلوه هو أن يحرقوا بيوت الجنويين الواقعة خارج أسوار غلطة . وكان الجنويون ياملون في قيام اسطولهم بدور شديد الفعالية ، بمنع وصول أى سفينة الى المدينة ( القسطنطينية ) . وكانوا يعتمدون بهذه الوسيلة على كسب نصر سريع على خصومهم ، ولكنهم اصطدموا بمقارنة عنيفة غير متوقعة . فقد استخدم سكان القسطنطينية كل مواردهم لاكمال وسائل دفاعهم ، بحيث لم يبق للجنويين وسيلة للتغلب على أعدائهم سوى الهجوم المباشر . ومن ثم جمعوا عددا كبيرا من السفن والجنود ، من بينهم فرقة قدامها مواطنوهم في خيوس ، وهاجوا القسم من المدينة الذي يشرف على القرن الذهبي ( خريف ١٣٤٨ ) .

ودافع اليونانيون عن أسوارهم وأبوابهم ببأس شديد ، حتى اضطر الجنويون ، رغم ضراوة قتالهم أن يتقهقروا متحملين خسائر كبيرة . وعندئذ قر عزمهم على طلب الصلح ، ولكن دون جدوى . ولسوء حظهم فان الامراطور لم يكدم يشفى من مرضه حتى عاد في هذه الأثناء الى عاصمته . واكسب عودته المدافعين شجاعة جديدة ، وأحضر الامبراطور معه مالا ، وتميزات وسفنا لتحل محل السفن التي دمرت . ومن جهة أخرى ، قامت السفن الجنوبية المصطفة على طول شاطئ غلطة لتأمين الضاحية كثيرا من القذائف التي أطلقت عليها من القسطنطينية ، حتى اضطرت الى الاتسحاب تاركة السور في هذه الناحية مكشوقا بلا حماية .

وأراد الجنويون عقد صلح من جديد ، وطلبوا وساطة قرسان رودس ، ولكنهم لم يقبلوا الجلاء عن الأرض التي استولوا عليها أو دفع تعويضات عن كل ما دمروه . وسرعان ما انقطعت المفاوضات وعادت السفينة التي أتت بمندوبي القرسان تحمل تحفا ثمينة ، ونساء وأطفالا أرسلهم سكان غلطة الى رودس لابعادهم عن الأخطار ، اذ كانوا يتوقعون وقوع أسوأ الكوارث . وفي الشتاء أتم كانتاكوزين تسليحاته . وفي الربيع أصبح مستعدا ، ليس فقط لاطلاق سفن جديدة تصدى للسفن

الجنوية ، ولكن أيضا لمحاصرة قلعتهم الجديدة بفرق عسكرية فتيية . ولم يشعر الجنويون في أنفسهم القدرة الكافية على القتال على الساحتين البرية والبحرية ، فكروا تفكيرا جديدا في العدول عن القتال في البحر ليركزوا جهودهم كلها للدفاع عن القلعة .

غير أن قائد بحريتهم أدرك بنظرة خاطفة الناحية الضعيفة في الأسطول اليوناني : ذلك أنه لم يكن بوسعها التحرك بكفاءة ، إذ كان الجدافون في السفن غير مدربين على تسييرها . وعلى ذلك أصر على استمرار الصراع بحرا . وساعده عاصفة شديدة فأنزل بالأسطول اليوناني هزيمة منكرة ، دب على أثرها الفزع في نفوس أهالي القسطنطينية والجنود الذين كانوا يحاصرون قلعة غلطة ، وفروا من ثمة هارين في فوضى شديدة .

وفي اللحظة التي أخذت فيها الأمور اتجاها ملامتا لأهالي غلطة ، وصل من جنوا سفارة موفدة في الوقت الذي كان الناس فيه لم يزالوا متأثرين بالهزائم السابق ذكرها . ولم يكن الوطن الأم ( جنوا ) قد وافق على سلوك المستعمرين ، لذلك لم يرسل لهم إمدادات أو سفراء لتسوية النزاع . وكانت السفارة التي أشرنا إلى وصولها مكلفة بمطالبة المستعمرين برد الأرض التي احتلوها بغير حق ، وأن يدفعوا تعويضا عن الخسائر التي تسببوا في وقوعها ، ومبلغا كبيرا بصفة غرامة . ولكن بعد كل الذي حدث ، لم يكن في المستطاع إجبار أهالي بيرا ، وهم في نشوة النصر على طلب الصلح بهذه الشروط . ولم يكن كاتنا كوزين في حالة تسمح له بفرض هذه الشروط . ولم يسعه الا أن يترك للجنويين الأرض موضوع النزاع ( ٣٢١ ) .

ولتحقيق حلم من الأحلام التي داعبت عقول الجنويين ، كان لا بد أن تبقى البحرية اليونانية في حالة من الضعف والخضوع ، ولكن كاتناكوزين لم يكن ليسمح لهم بالاستمتاع بتحقيق هذا الحلم . ففي الوقت الذي كان يعمل فيه دون هوادة على تعويض خسائره ، لم يغرب عن باله مشروع إعادة ضم فوكايا الى الإمبراطورية .

وبدأ بأن أوفده الى جنوا سفارة مكلفة بعرض مطالبه ضد احتلال الجزيرة احتلالا غير مشروع . وكان رد الدوج هو الرد المتوقع ، إذ قال ان القومون لا علاقة له بهذا الأمر ، فخيوس قد احتلتها شركة خاصة ،

أما هو ، أى الدوج ، فلم يكن فى تلك الآونة فى حالة تسمح له بأجبار هذه الشركة على إعادة ما استولت عليه ، الخ . ولم يقبل كاتباتكوزين هذا «الدفع بعدم سماع الدعوى» ، كما أن حقه فى تلك القضية كان واضحا لدرجة لا تسمح بالاعتراض عليه بأية حجة . وعلى ذلك وافقت حكومة جنوا على أن توقع معاهدة نص فيها على أنه ترد الشركة فى الحال جزيرة خيوس إلى الأمبراطور ، على أن يبقى لها حياة عاصمة الجزيرة حتى عام ١٣٧٥ ، بشرط الاعتراف بسيادة الأمبراطورية ، ودفع ضريبة سنوية قدرها ١٢٠٠٠ هيبير ذهبي (٣٢٢) .

والواضح أن هذه المعاهدة لم تكن جدية من جانب جنوا ، إذ كان من المؤكده أن فينوزى أو رفاقه لم يكونوا على استعداد لتنفيذها . لذلك لجأ اليونانيون إلى وسائل أشد فعالية . فقلد عمل الأرخنت ( الوالى ) archante الخيوسى زيوس Zybos الذى ولاه فينوزى حكومة فوكاية القديمة ، عمل غدرا على انتزاع خيوس لحساب الأمبراطور ، بالتواطؤ معه بلا شك ، ولكن محاولته فشلت (٣٢٣) . وهكذا لم تنجح الدبلوماسية ولا القوة ، وبقيت الشركة مملكة خيوس ، ونجح الروم فقط فى طردها مؤقتا فى مدينة فوكاية ( ١٣٤٨ ) . ونجد حكاما يونانيين فى احدهما حتى عام ١٣٥١ ، وفى الثانية حتى عام ١٣٥٨ (٣٢٤) . وأخيرا اضطر الأمبراطور يوحنا أن يوقع معاهدتى ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ اعترف بهما بسيادة الماهون على جزيرة خيوس فى مقابله جزية سنوية قدرها ٥٠٠ هيبير (٣٢٥) .

ومع انهماك الجنوبيين فى ابقاء البحرية العسكرية والتجارية للأمبراطورية الرومية على حالها من العجز المطلق ، كانوا يجدون أيضا وقتا يكفى لمرقلة نمو قوة البندقية فى الشرق الأدنى . وكانت جمهورية البندقية تعمل سنين طويلة على تركيز نشاطها الكلى فى توسيع أملاكها من الأرض اليابسة فى ايطاليا (٣٢٦) ، ولكنها فى الآونة التى وصلنا إليها بدأت من جديد تحول أنظارها صوب الشرق الأدنى . ولدينا البرهان على ذلك فيما بذلته من جهود لمحاربة الأتراك السلاجقة . ولكنها كانت فى

Cantacuz, III, 82.	(٣٢٢)
Cantacuz, III, 80-85.	(٣٢٣)
Hopf, Op. cit., p. 316 .	(٣٢٤)
Sperone, Real grandezza di Genova, p. 206 et s.	(٣٢٥)
Franc. Dandolo ١٣٣٩ - ١٣٢٩	(٣٢٦)
Romanin III, 108 et ss.	

ذلك أكثر نشاطا في البحر الأسود ، وأصبحت المدن التجارية الساحلية هناك مسرحا لمنافسة شديدة بين الخصمين ، وكانت علاقاتهما من قبل متوترة حين سبق الجنويون البنادقة فنجحوا في الاستيلاء على خيوس ، ولم يكن من شأن ذلك أن يخفف من سحق البنادقة المتزايد حدة .

وكانت الحرب على وشك أن تندلع وقتئذ لو لم يعترض دوج جنوا جيوفاني دي مورتا Giovanni di Murta على قطع العلاقات : وساعده في ذلك الطاعون الرهيب الذي انتشر عام ١٣٤٨ فحسّل حركة جيوش الأمتين (٣٢٧) . ولكن في عام ١٣٥٠ كان لجنوا دوج آخر ، جيوفاني دي فالنتي Giovanni di Valente : فما كاد يتسلم مقاليد الحكم حتى تناول من جديد المشروع الأثير لدى أمته ، بطرد خصمها نهائيا من البحر الأسود (٣٢٨) ، وأسر بضغ سفن فينيسية في ميناء كافا (٣٢٩) : وأصبحت الحرب من ثمة لا مناص منها .

وأوفد الأيرال ماركو روتزيني Marco Ruzzini من البندقية ومعه خمس وثلاثون سفينة حربية ، ففاجأ في ميناء الكاستري Alcastri ( سبتمبر ١٣٥٠ ) أسطولا من أربع عشرة سفينة تجارية جنوبية قاصدة الى بيزا وكافا (٣٣٠) ، واستطاعت أربع سفن منها فقط النجاة ، والتجأت الى خيوس . ولم يحظ روتزيني بمثل هذا النجاح في غلطة ، إذ كان المستعمرون في انتظاره باستعدادات انتزعت من نفسه الرغبة في مهاجمتهم ، ومن ثم عدل عن ذلك وواصل عملياته في البحر الأسود .

وفي هذه الأثناء قام سادة خيوس ( فينوزي وشركاه ) بتسليح أسطول انضم اليه السفن الأربع التي نجت من كارثة الكاستري ، وأرسلها تهاجم الأملاك الفينيسية في جزيرة يوبية Bubeé ولم تكن مدينة نجر بونت ، الهدف الرئيسي لهذه الحملة تتوقع أي شيء ، ومن ثم دخل جنود خيوس بقوة السلاح في الحى البندقي ، وقام مواطنوهم ، أسرى الكاستري الذين تركهم روتزيني في حراسة سكان المدينة ، قاموا

Romanin III, 156 et s., 158 ; Stella, p. 1090; Commem. reg., (٣٢٧)  
II, 168, no 265; ibid. p. 175 no 303, p. 185 no 354, p. 192 no 384, p. 195  
no 400, p. 196 no 403, p. 217 no 20, p. 218 nos 24, 25.

Dandolo, p. 420; cf. Nicéph. Grég., II, 877. (٣٢٨)

Romanin, III, 158. (٣٢٩)

Eubée يتحدث Nicéph. Grég. الذي كان وقتئذ بنفسه في يوبية (٣٣٠)  
في الناحية التي فوجيء عندما الأسطول الجنوي ، فيعين بالتحديد ميناء واقما بين  
Aulis, و Oropus, ومن ثم فهو على الساحل الشرقي ليوبية : (III, 43 et s.)

بنهب البيوت والسفن المربوطة في الميناء وحرقها ، وعادوا منها محملين  
بالغنائم ، ومعهم العديد من الأسرى ومفاتيح نجربونت التي علقوها على  
أبواب خيوس تذكارا للنصر (٣٣١) .

ولم تكن هذه الوقائع سوى مقدمة لأحداث أهم : فقد تأهب البنادقة  
لشن الحرب على نطاق أوسع (٣٣٢) . ولما كانوا على وعى بضعفهم ، إذ  
كانت قوة جنوا وقتئذ تفوق قوتهم ، فقد راحوا يبحثون عن حلفاء لهم .  
كانوا يعرفون أن بطرس الرابع Pierre IV ملك أراجون كان حاقدا على  
خصوصهم بسبب المساندة التي كان يحظى بها اتباعه الذين توردوا عليه  
في جزيرة سردينيا ، وكذا في قومون جنوا ، ومن ثم جسوا نبضه ليعرفوا  
ها إذا كان على استعداد للتحالف معهم ضد الجنويين ، فوجدوه مستعدا  
لذلك .

وتعاقب سفيران جنويان أوفدا لمقابلته وثنيه عن عزمه ، ولكنهما لم  
يوفقا الى ذلك . وفي ١٦ من يناير ١٣٥١ وقع مع البندقية معاهدة صدق  
عليها اللوج في ١٢ من يولييه ، والتزم فيها باشغال الجنويين بشارت  
متتابعة على سواحل إيطاليا وجزرها بكيفية تجبرهم على توزيع قواهم ،  
ومن ثم يكفل للبنادقة على هذا النحو حرية العمل في الشرق  
الأدنى (٣٣٣) .

وفي الوقت نفسه كان البنادقة على علم بما عند يوحنا كانتا كوزين  
من شكاو عديدة ضد الجنويين ، ومن ثم قاموا بمحاولات لدى هذا  
العاهل لجذبه الى حلفهم . غير أنه لما كان في ذاك الحين منهكاً في حرب  
ضد الصرب ، فان مساعيهم الأولى لم تكلل بالنجاح المرغوب (٣٣٤) .  
واذ دعى البيزيون أيضاً للانضمام الى الحلف فانهم رفضوا أولا ، ذلك

---

Dandolo, p. 420 ; Sanuto, Vite dei Dogi, p. 621 et s., Stella, (٣٣١)  
p. 1091 ; Giustin, fol. 135 ; Fogli, p. 448; Nicéph. Grég., II, 878; III, 43  
et s.; Thom. Viaro (voy. aussi Marin, VI, 94 et s. ; ; Romanin, III, 159  
et s.)

«Ad confusionem, destructionem et exterminium finale  
Januensium» (٣٣٢)

— عنى العبارات الواردة بالمعاهدة المبرمة مع بطرس الرابع الأراجوني

Curita, Anales de la corona de Aragon (éd. de 1610), II, (٣٣٣)  
241 et s. ; marin, VI 99-91 ; Romanin, III, 160; Memorial historico  
espanol, II (Mardid 1851), p. 274 et ss. ; les Commem. reg., II p. 187  
no 368, p. 191 no 381, p. 192 no 385 et s., p. 193 no 387, 389 et s.,  
p. 194 no 392, 395 p. 195 no 398.

cantacuz, III, 118.

(٣٣٤)



لأنهم كانوا من قبل قد ضعفوا ، ومن ثم خشوا أن يستنفدوا في حرب جديدة ما بقي لهم من قوة ، ثم وافقوا بعد ذلك على الانضمام ، ولكن جاءت موافقتهم متأخرة كثيرا (٣٣٥) .

ثم ان البندقية كانت على ثقة من تحالف الأراجونيين معها ، وهؤلاء بحارة أكفاء ، وجنود مدربون ، ومن ثم شعرت بأنها قوية بدرجة تسمح لها ببدء الأعمال الحربية . وفي خلال صيف عام ١٣٥١ وصل ذات ليلة أسطول فينيسي قوامه خمس وعشرون سفينة حربية بقيادة نيكولو بيزاني أمام غلطة (٣٣٦) .

ولما كانت أبواب المدينة تبقى عادة مفتوحة ، فقد دخلها البنادقة بسهولة ، واستيقظ السكان فزعين على صيحات الانذار ، وناضلوا نضالا شديدا حتى استطاعوا القاهم خارج الأسوار . وبخلاف هذه الغارة اكتفى الأسطول الفينيسي بالتجول في البحار . ومع ذلك فقبل أن يبتعد عن القسطنطينية ترك فيها السفير جيوفاني دولفينو الذي أجرى من جديد المحاولات التي بذلت لأول مرة مع كانتا كوزين (٣٣٧) . واذ أبدى الأمبراطور مرة أخرى رغبته في أن يبقى على الحياد ، فقبل عقد البنادقة عزمهم على القيام بعمل أكثر فعالية ، فاستدعوا بإيلهم في القسطنطينية وأركبوه إحدى سفنهم . وعندما سعى البنادقة ، بهذه الحركة التهديدية الى حبل الأمبراطور على التفكير في النتائج الخطيرة التي سوف تعود عليه من جراء موقفه المحايد ، جعل سكان غلطة ، من المستحيل عليه بوقاحتهم أن يتخذ هذا الموقف . فقد نظروا اليه بحق على انه في السر صديق البنادقة ، وذات يوم أرادوا أن يثبتوا له أنهم لا يخافون منه ، فأطلقوا باحدى آلاتهم الحربية حجرا كبيرا على القسطنطينية ، وكرررو هذا العمل في اليوم التالي .

وإزاء هذا التحدى لم يعد في وسع كانتا كوزين الا أن يضم قضيتته صراحة الى قضية البنادقة (٣٣٨) . وكان أسطوله محدودا باثنتي عشرة سفينة حربية ، ووعده البنادقة أن يدفعوا له ثلثي النفقات ، مثلما فعلوا

Matt, Villani (éd, Dragomannj) I ,148; cf, Sauli, I, (٣٣٥)

326 et ss; Hopf, art, Griechenland, Op. cit., p. 447.

Dandolo, p. 421 ; M. Sauli (I, 330 et s). (٣٣٦)

Cantacuz, III, 186. (٣٣٧)

Cantacuz, III, 185-191 (Nicéph. Grég., II, 880), Nicéph. Grég. (II ,1031). (٣٣٨)

مع ملك أراجون ، فضلا عن ذلك أبدوا له رغبتهم في أن يعيدوا له الجواهر التي كان قد رهنها في البنديقية منذ بعض الوقت .

وأخيرا تم الاتفاق على أنه اذا تم الاستيلاء على حى غلطة فان الحى سوف يدمر ، وأن تعاد خيوس وفوكاية الى الامبراطور (٣٣٩) . وبعد انتهاء هذه الترتيبات بدأت القوات اليونانية والفينيسية الحملة معا ، فطارد قسم من القوات السفن الجنوبية بنجاح جعل من الحملة عملية مثمرة ، فى حين بدأ القسم الثانى حصار غلطة برا وبحرا ، حصارا منظما . وكانت عمليات الحصار تجرى بصورة جيدة ، واتخذت كل التدابير اللازمة للهجوم حين تسلم أمير البحر البندقى اخطارا باقتراب أسطول جنوى كبير ، كما تلقى فى الوقت نفسه تحذيرا بأنه اذا أصر على البقاء أمام غلطة فان سفنه سوف تكون عرضة لأن تطوق وتفترق . لذلك فقد ترك كل شئ هناك ، وأسرع بالاقلاع صوب الأرخيبيل ، بينما واصل كانتاكوزين الحصار الى حين وصول اشعار آخر (٣٤٠) .

والواقع أن حجم الأسطول الجنوى كان لا يستهان به ، اذ يضم ستين سفينة حربية ، يعمل بها بحارة من الصفوة يقودهم أمين البحر المشهور باجانينو دوريا Paganino Doria (٣٤١) . وحين وصل هذا الأسطول ، كان الأسطول الفينيسى قد أتيح له الوقت لأن يحتفى خلف تحصينات نجر بونت . ولم يتردد دوريا فى ضرب الحصار على الموقع واستمر الحصار شهرين ( من ١٥ أغسطس الى ٢٠ أكتوبر ١٣٥١ (٣٤٢) حتى اضطره اقتراب أسطول فينيسى جديد تحت امره بانكراز يوجوستينيانى Pancrazio Giustiniani وأسطول أراجونى تحت امره بونتشى دى سانتابو Ponce de Santa Pau الى الابتعاد (٣٤٤) ، فأطلق رحيله حرية

(٣٣٩) Martin, VI, 91-93 ; Romanin, III, 160 et s.; Taf et

Thom., inéd.; Ommem, reg., II, 196, no 402.

Cantacuz., III, 193-200; Nicéph. Grég., III, 45 et s., (٣٤٠)

Stella, p. 1091 ; Giustin., p. 135 ; Fogl., p. 449, Le contin, de (١٦٣)

Dandolo donne le chiffre de 66 galères, p. 421.

Dand., l.c. ; Fogl., l.c. (٣٤٢)

— ويقول Nicéph. Grég. (III, 46-51) ان ناحية أوريوس أويس شمال الجزيرة

حاصرها الجنويون ودافع عنها بيزانى Pisani بمساعدة ٣٠٠ فارس من دوقية أثينا .

(٣٤٢) هذا هو الشكل الاسبانى لهذا الاسم ، حسب سوريتا Curita وكامبانى

Capmany

Dand., l.c. : Curita, p. 244 et s. (٣٤٤)

— أخذ أيضا من البنادقة ، وهو فى طريقه ناحية فيتلون Phtèlion فى خليج

فلوس. (Sanut, p. 624)

الحركة لبيزانى ، فاستطاع أن يتصل بالتعزيزات التى وصلت فى الوقت المناسب ، وقرر أن يتولى القيادة العليا (٣٤٥) . ولكن الشتاء يقترب ، ولم يكن لدى أميرى البحر فى هذا الوقت من عمل عاجل سوى وضع أسطولهم فى مأمن من الأحوال الجوية السيئة فى هذا الفصل فى موانى الأرخيبيل (٣٤٦) . وتأجلت الموقعة الحاسمة الى عام ١٣٥٢ ، وكان لا بد أن تجرى فى مجاورات القسطنطينية :

وكلما اقتربت اللحظة الحاسمة استشعر الجنويون الأخطار الناجمة عن عزلتهم وقاموا بعدة محاولات لانتزاع كانتاكوزين من الحلف الثلاثى ، ولكن دائما دون جدوى : ويبدو أنهم كانوا يريدون القضاء على كل محاولة للتقارب : ألم يقوموا فى اللحظة التى كانوا يتفاوضون فيها لهذا الغرض باحتلال مدينتى هيرقليسا Héraclée وسوزوبوليس Sozopolis فى بحر مرمره (٣٤٧) ؟

ويجدر القول تبريرا لعملهم هذا ، فى خصوص هيرقليسا أن ما دفعهم الى ذلك هو موقف السكان العدائى لهم . وكانوا أطيب حالا من ناحية الأتراك ، فقد عقدوا معاهدة تحالف مع خضر بيك Khidrbeg - عاهل الطولوجو Altoluogo (٣٤٨) ، كذلك أوفد دوريا فى مهمة لدى أورخان Orkhan أمير العثمانيين اثنين من بيرا : فيليبو ديلوميدي Philippo Delomede ، وبونيفاتسيو صولى Bonifazio Sauli . وكان اقليم هذا الأمير يمتد حتى الساحل الآسيوى للبوسفور . وبدأ المندوبان باكتساب مودته بهلأيا ، ووعد بدفع جزية ، وانتهيا بحمله على توقيع معاهدة أصولية لم يصلنا نصها الاصلى (٣٤٩) . وفى ذلك يقول كانتاكوزين ان الجنويين لم يتحالفوا مع أورخان الا بعد الموقعة الكبرى التى سوف نتكلم عنها بعد قليل ، وعندئذ فقط ، وهم يتوقعون هجوما جديدا على بيرا - هجوم لم يحدث فى الواقع - التمسوا منه مددا وحاولوا عليه .

أما نيقفور جريجوراس Nicéphore Grégoras فإنه على العكس

Dandolo, l.c. ; Cantacuz., III, 219. (٣٤٥)

Matt, Villani, I 158 ; Nicéph. Grég., III, 51, 78. (٣٤٦)

Niceph. Grtg., III, 78-82; Cantacuz., III, 209-218. (٣٤٧)

Traité inddit, signalé par Hopf, ort Griechenland, Op. Cit., (٣٤٨)  
p. 447.

Cantacuzène (III, 228 et s.) et Nicéph Grég. (III, 84); Lib. (٣٤٩)

jur., II, 602; Not et extr., XI, 59; Atti della Soc. lig., XIII, 125 et ss.

من ذلك يجعل توقيع المعاهدة قبل الموقعة الكبرى ، ولا بد أنه محق في ذلك . ويبدو واضحا أن أورخان اشترك ذلك اليوم في المعصية مع فرقة اتخذت موقعها على الساحل الجنوبي من البسفور ، ذلك لأن ثمة وثيقة جنوبية بتاريخ لاحق تثنى على الدور الذى أداه فى تلك المناسبة (٣٥٠) . وانتظر الامبراطور بفارغ صبر وصول الأسطولين الفينيسى والقطالونى ، وهذا أمر طبيعى .

وأخيرا فى ١٥ من فبراير ١٣٥٢ شوهد الاسطولان متجهين بكل سرعة من جزر « الأمراء » *iles des Princes* الى القسطنطينية : وتجنب باجانينو دوريا الصدام بأن انسحب الى الخلف : فعلى الرغم من أنه تلقى من مستعمرة غلطة تعزيزات جعلت تحت امرته ٦٥ سفينة ، الا أن أسطوله لم يزل أقل عددا من أساطيل خصومه التى يدفعها ربح ملائمة ، وتتقدم منطلقا فى طريقها بحرية .

واتصلت هذه الأساطيل بالأسطول الرومى قبالة ترسانة هبتاسكالون *Heptaskaolon* ، وهى رصيف بحر المرمرة المسمى حاليا كاترجا - ليمانى *Katerga-Limani* ( أى ميناء السفن الحربية ) ( ٣٥١ ) . وفى الحال ، أى فى اليوم ذاته نسبت المعركة ، وتقهر الجنويون بداية ذى بدء ، تحت ربح معاكسة ، وبضغط شديد من الأعداء ، وصارت غلطة من ثمة مكشوفة بسبب حركة الانسحاب هذه ( ٣٥٢ ) . ومع ذلك فإنهم عندهم وصلوا بإزاء سالى - بازار *Sali-Bazar* وهى الجزء من الساحل المحصور بين توب - هانىسه *Top Hané* وبشسيك - تاش *Bechik-Tach* ( ٣٥٣ ) قرروا مواجهة العدو ، ومن ثم صارت المعركة عامة ، اشترك فيها ما لا يقل عن ١٣٠ الى ١٤٠ سفينة حربية ، تتقاتل فى مجموعات فى القناة الضيقة التى تشكل البسفور . وجرى القتال بضراوة ، واستمر فى جنح الظلام ، وفقد القطالونيون اثنتى عشرة سفينة ، كما فقتل يرا أكثر من نصف جنودها . وأخيرا كانت المعركة من نوع المارك المتأرجحة التى يدعى كل طرف فى نهايتها أنه هو المنتصر ، وينسحب منهوك القوى غير راغب فى مواصلة القتال . وبعد انقضاء بضعة أيام عاد أمير البحر الفينيسى فى طريق

Atti, l.c., p. 127, 129.

(٣٥٠)

Hammer, Constantinople und der Bosphorus, I, 123 et s.

(٣٥١)

Stella, p. 1092.

(٣٥٢)

M. Paspati ... p. 277.

(٣٥٣)

الغرب ، يتبعه عن كذب الأراجونيون حاملين جثمان قائدهم الباسل مونثشي  
دى سانتايو الذى مات متأثرا بجراحه (٣٥٤) .

أما الروم فقد تركوا بجين ساحة القتال فى أشد الأوقات ضراوة ،  
وبذلك لم يقدروا أية سفينة من سفنهم . ومع ذلك لم يكن فى عزم  
الامبراطور بعد رحيل حلفائه ، وسلامة قواته أن يتحمل عبء القتال ،  
فلم يكن راغبا فيه ، خاصة وأن الأتراك الذين دعاهم الجنويون لمساعدتهم ،  
ضاعفوا من غاراتهم وصاروا مصدر ازعاج شديد ، وبدأوا بالاشتراك مع  
حلفائهم يتأهبون لحصار القسطنطينية (٣٥٥) .

وعلى ذلك عقد الصلح مع باجانيو دوريا . وفى التسوية التى تمت  
بينهما ، وعهد الامبراطور من جهة بمنع السفن الفينيسية والقطالونية من  
الرسو والتزود بالمؤن على طول اقليمه ( اللهم الا لانزال سفير أو بايل ) ،  
ومن جهة أخرى أن يحظر على السفن اليونانية أن تزور الموانئ الفينيسية  
والقطالونية ، ولا يسمح مستقبلا للراعي اليونانيين أن يخدموا على سفن  
تنتمى الى أعداء جنوا ، أو أن يشتركوا فى منازعات تقوم بين جنويين من  
جهة وقطالونيين وبنادقة من جهة أخرى .

وفىما يختص بالتجارة ، يتعهد الامبراطور وقومون جنوا بأن يمنحا  
الاعفاء من الرسوم الجمركية عن السلع التى يشتريها رعايا أى منهما من  
رعايا الآخر . واذا باع راعيا يونانيا نبيذا فى غلطة فعليه أن يدفعوا  
الرسوم لموظفى الانتاج فى الجهة ، مثلهم مثل الجنويين ، والعكس  
بالعكس . وتم التصديق صراحة على التنازل بالمجان عن غلطة ، وتعيين  
حدودها بخندق السور ، وتذكر الوثيقة ثلاث نقط يرميها خط الحدود :  
رأس غلطة *caput Gallata* ، وبرج ترافيروس *Traverius* ، والقلعة  
التي تحمل اسم الصليب المقدس *Ste Croix* . ولا شك أن هذه التسمية  
تطلق على القلعة المشيدة على المرتفع ، وهى سبب النزاع الرئيسى ، بحيث  
أن مجرد ذكرها يشكل بذاته موافقة غير مباشرة على يناجها . ولم يتخذ

(٣٥٤) قبل ان يموت ، حرر تقديرا نسب فيه النصر الى حزبه ، وتاريخ التقرير ، مارس

١٣٥٢ .

— وصف السيد سوريتا *Curita* سمات هذه المعركة عن طريق تقارير مختلفة  
من نفس النوع وكذا عن طريق :

*La Chronique de D. Pedro IV. Cantacuzène, III, 218-234;*

*Nicéph. Grégoras, III, 86-94 et M. Villani, I, 184-187 (éd. Dragomanni);*  
*Lorenzo de Monacis, p. 214.*

*Cantacuz., III, 233 et s.; Nicéph. Grég., III, 91 et s., 99, 144. (٣٥٥)*

*et s. ; M. Villani, I, 200.*

وقتلند أى قرار بشأن خيوس وفوكاية ، ومن ثم بقى المجال مفتوحا بشأنها  
للنشاط الدبلوماسى (٣٥٦) .

وما أن حقق باجائينو دوريا مهمته على هذا الوجه حتى ابتعد بدوره  
عن الشرق الأدنى . ومع ذلك فالحرب لم تنتهه ، وكل ما هنالك أن  
كانتاكوزين لم يعد يسهم فيها اسهاما فعالا . وظهر بيزانى مرة أخرى  
فى خلال السنة نفسها أمام أسوار غلطة مع أسطول مكون من سفن  
فينيسية وقطالونية ، ولكن المدينة كانت متأهبة للدفاع ، ومن ثم عاد  
من حيث أتى (٣٥٧) .

وفى السنة التالية جرت الاستعدادات للتسلح على قدم وساق فى  
أراجون وجنوا والبندقية . الا أن المعركة الكبرى لم تقع هذه المرة فى  
الشرق الأدنى ، وانما وقعت بالقرب من سواحل سردينيا ، بازاء ميناء الجيرو  
Alghero . وانتهت بالنسبة الى الجنوبيين بهزيمة منكرة . وزادت فداحة  
هذه الكارثة باستمرار الانقسامات الداخلية ، وانهاك القوى والمجاعة .  
وفى هذا الضيق ، ومع يأس الجنوبيين من الحفاظ على أمن وطنهم ، أبدوا  
خضوعهم ليوحنا فيسكونى Jean Visconti - ملك ميلانو . كان هذا  
الأمير ثريا وقويا ، وعمل على إعادة تنظيم البحرية .

وفى عام ١٣٥٤ كان أسطول جنوى على أهبة الانحار مرة ثانية ،  
وأصبح فى مقدور دوريا أن يتجول بسفينته رافعا بفخار علم جنوا ، فتوغل  
هذا الملاح الجسور فى البحر الإدرىائى ، حتى وصل الى القرب من  
البندقية ، واستولى عنوة على مدينة بارنزو Parenzo وأحرقها ، وأنهى  
حملته بعمل بطونى بأربع ( ٤ نوفمبر ) ، إذ فجأ فى ميناء زونكيو  
Zonchio ( نافارين Navarin القديمة ) أسطولا فينيسيا فى مثل  
قوة أسطوله ، فاستولى بعد مقاومة ضعيفة على الخمس والثلاثين سفينة  
التي يتشكل منها ذلك الأسطول ، وعاد الى جنوا بكل بحارتها أسرى ،  
ويزيد عددهم على خمسة آلاف رجل (٣٥٨) .

هذه الضربة التي تلقاها البنادقة على يدى عدو كانوا يعتبرونه نصف  
ميت أثار مشاعرهم . كانوا فى العام الماضى قد رفضوا باحتقار عروضاً

(٣٥٦) تاريخ وثيقة الأسلح ٦ مايو ١٣٥٢ ، وتجد الوثيقة فى :

Sauli, II, 216 et ss., et dans le *Lib. jur.*, II, 601 et ss.

Sanut, p. 625 ; Navag., p. 1036; Nicéph. Grég., III, 171 et s. (٨٥٤)

Matt. Villani, I, 333-335 ; Stella, p. 1093; Fogl., p.  
452; Dand., p. 424; Sánut, p. 629 et s.

(٣٥٨)

للصلح من قبل يوحنا فيسكونتي ، ولكنهم في هذه المرة ، حين عرض ورتبه وخلفاؤه في السلطة الاخوة الثلاثة مايتو ، وبرنابو ، وجالياتزو فيسكونتي استثناف المفاوضات كانوا اقل غطرسة عن ذى قبل ، وقبلوا ان يوقعوا أولا هدنة ( في ١٥ من يناير ١٣٥٥ ) ، ثم معاهدة صلح ( في أول يونيه ) ( ٣٥٩ ) .

وإذا تأملنا في الأحداث الجسيمة التي جرت في هذه الحرب ، بدت لنا البنود المنصوص عليها في هذه المعاهدة قليلة الأهمية . وأهم نقطة في المعاهدة هي التزام الأمتين بالألا ترسلا على مدى ثلاث سنوات أية سفينة تجارية الى « تانا » . ولم تتعرض المساعدة لمسألة حقوق الايطاليين وممتلكاتهم في رومانيا ( بلاد الروم ) فيما عدا نقطة تتعلق بدوق ناكسوس Naxos : اذ تعهد الجنويون برد كل ما كانوا قد أخذوه منه أثناء الحرب ( ٣٦٠ ) . غير أن مجرد عقده الصلح كان فيه الكفاية لممارسة تأثير عظيم الأهمية على علاقات الايطاليين بالشرق الأدنى ، وأصبح في وسع التجارة وقد تخلصت من العوائق التي كانت دائما تعرقل نموها بسبب الحروب التي وضعت الآن أوزارها أن تحظى بتقدم جديد .

وفي هذه الأثناء كانت ثورة جديدة على أهبة الاندلاع في القسطنطينية ، واتضح أكثر فأكثر مشروعات كاتناكوزاين ، وعزمه على الاستيلاء على الامبراطورية لصالحه وصالح أسرته ، وطرده آل باليولوجوس منها ، واهتم بإبقاء يوحنا الخامس باليولوجوس الامبراطور الشرعى بعيدا عن مقر الحكم . ولكن كلما اقترب هذا الأمير من سن البلوغ ، صار يتحمل بفروغ صبر آلام نفيه ، وبدأ في وقت مبكر يبحث عن حلفاء يمكنه الاعتماد على مساعدتهم في اليوم الذي يرى في نفسه القوة الكافية ليطالب بحقوقه ، ويعود الى داره وسلاحه ، ويطرد المعتصب . ويبدو أنه اتجه أولا الى البنادقة . فحينما قام أمير البحر نيكولو بيزاني بحملته الثانية في الشرق الأدنى ضد الجنويين ، فاضه يوحنا على أن يأخذ منه قرصا قدره ٢٠ . ٠٠٠ دوكا ( نقد ذهبي قديم في البندقية - المترجم ) وأعطى اللوج كرهن جزيرة تينيدوس Ténédos مع حق السيادة والانتفاع بالكامل ( ٣٦١ ) . واذ تزود بهذا التبلغ فإنه أراد أن يذهب الى القسطنطينية ويظهر بها بأمل أن يشعل بها ثورة لصالحه ، ولكنه فشل .

Sanut p. 630 et s.

(٣٥٩)

Lib. jur, II, 617 et ss.

(٣٦٠)

Tar. et Thom., inéd., à la date du 10 oct. "VI Ind. (1352) (٣٦١)  
in burgo Enib; les Commem. reg., T. 2, p. 214 no 5 : Cantacuz., III, 208.

أما جنويو غلطة الذين يخفوا تعاطفهم ، فانهم أعطوه ملجأ عندهم ، هو ونصيره البطريرك كاليستو Callisto ، وزودوهما بالوسائل الكافية بوصولهما سالميلى الى جزيرة تنيديوس (٣٦٢) . وهناك انتظر يوحنا ظروفها أفضل . وحلت اللحظة المرغوبة فى عام ١٣٥٤ : ذلك أن ثمة جنوى من أسرة غنية محترمة ، يدعى فرانيسكو جاتيلوزيو Francesco Gattilusio غادر جنوا ومعه سفينتان طلبسا للثروة فى الشرق الأدنى ، فقدم الى تنيديوس ليرسو عندهما . ولم يكن يجهل ما فعله مواطنوه فى غلطة من أجل يوحنا بالبولوجوس ، وكان يعلم أنه من أول يوم لاقامته فى الجزيرة ، لم يكف جنويو غلطة عن الاتصال به ، والعمل سرا فى سبيل مصلحته (٣٦٣) .

وإخلاصه ، اتفق مع الإمبراطور الشاب على القيام بهجوم مفاجئ على القسطنطينية . وبفضل خدعة نفذها جاتيلوزيو ، نجح يوحنا فى التسلل داخل العاصمة وتثبيت أقدامه بها : فأخذ كاتاكوزين على غرة ، وأجبره على الاعتراف بحقوقه ، والتخلص عن اقتسام السلطة معه ، وبذلك بقى يوحنا وحده إمبراطورا . واعترافا منه بالخدمات التى أداها له جاتيلوزيو وزوجته الأميرة ماري ، وأعطاه جزيرة لسبوس بصفة بائنة (٣٦٤) ، وكانت هذه هى الأصل فى إمارة عاشت قرنا كاملا من الزمان .

وقد حكم لسبوس على التوالى خمسة أمراء من آل جاتيلوزيو ، من عام ١٣٥٥ الى ١٤٦٢ ، وكان حكمهم خيرا عظيما على الجزيرة ، اذ كفل لها إدارتهم الحكيمة رخاء غير عادى (٣٦٥) . ولا مجال هنا لسرد تاريخهم ، لكننا لا نستطيع أن نهمل الإشارة الى حدث أسهم بقدر كبير فى انماء سلطة الجنويين ونفوذهم فى الامبراطورية ، وكذا فى رفع شأن أسرة

Cantac., II, 255, 275; Nicéph. Grdg III., 234 et s. 257. (٣٦٢)

- فى رسالة موجهة من البايلى القينيسى ماتيو فيريو من القسطنطينية الى حكومة يذكر البايلى مساندة الجنويين قضية يوحنا ( ٦ أغسطس ١٣٥٤ ) :

Mon. hist. Slav. merid, III, 266.

Nicéph. Grtg., III, 554. (٣٦٣)

Ducas, p. 40-٤٤, 46 ; Nicéph. Grég., III, 554 ; Laon. (٣٦٤)

Chalco., p. 520; matt. Villani, I, 348 et s.; Giustin., p. 136; Fogli., l.c.

(٣٦٥) حسب شهادة الكاتب اليونانى Chalcoec ص ٥٢١ .



خرجت من أحضانهم ، فوجدت نفسها فجأة في صفوف الأمراء المسيحيين  
 الروم ، وأصبحت من أغنى أسرهم وأرفعها مكانة (٣٦٦) .  
 كان أفراد آل جاتيلوزيو حلفاء أسر الأباطرة في القسطنطينية  
 وطربزون ، وبينهم وبين هؤلاء صلات عظيمة من المودة ، يتمتعون بنفسود  
 كبير على الأباطرة اليونانيين ، الأمر الذي لم يمنعهم من استغلال انحطاط  
 الامبراطورية المتفككة لانماء ممتلكاتهم على حساب الأمراء البنادقة في  
 الأرخبيل (٣٦٧) . ولم يكن فرانشيسكو ، أول هؤلاء الأمراء يملك غير  
 لسبوس ، ولكنه استأجر لنفسه ولذريته من بعده فوكاية القديمة التي  
 يملكها ماهون خيوس (٣٦٨) . وضم أخوه نيكولو Niccolo الى أملاكه  
 قبل عام ١٣٨٤ (٣٦٩) مدينة اينوس Aenos الأهلة بالسكان على  
 ساحل تراقيا ، وتم هذا الضم لفرع ناجح من آل جاتيلوزيو ، في حين  
 استمر الفرع الأكبر من الأسرة يحكم لسبوس . وكانت مدينة اينوس  
 بموقعها بجوار نهر مارتيزا الصالح للملاحة مركزا للحركة التجارية بين  
 الأرخبيل وتراقيا ، ومحاطة بمياه زاخرة بالسماك ، كما كانت تحصل  
 على إيراد كبير من ملاحاتها ، فكانت هي التي تزود تراقيا ومقدونيا كلها  
 بالملح (٣٧١) .

وفي الفترة التي أشعل فيها الامبراطور يوحنا الثورة التي رقعته  
 على العرش ، استولى العثمانيون على قصر تزيمبيه Tzympe على شاطئه

Ducas, trad. it (éd. de Bonn.) ; M. Friedlaender, M. Pinder (٣٦٦)  
 (Beiter zur älteren Muenzkunde, I, Berl, 1851, p. 29 et ss.); une mono-  
 graphie récente de M. Schlumberger, Numismatique de l'Orient latin,  
 p. 432 et s. ; Documenti riguardanti alcuni dinasti dell'Arcipelago, dans  
 le Giorn, lig., I, 81 et ss. 217 et ss., II, 86 et ss., 292 et ss.; III, 313 et ss.

(٣٦٧) أشر فرانشيسكو جراتيلوزيو بكيفية أخرى مصالح الجمهورية الفينيسية ، بان  
 سلك تقودا على نمط الدوكا ducats الفينيسية . وقد كتب اليه دوج جنوا خطابا  
 بهذا الخصوص (8 août 1357; Commem. reg., II, 266, no 252) كلنه بالبح ان  
 يكف عن هذا السوء ، ومن المحتمل ألا يكون هذا الإنذار قد أسفر عن نتيجة مثمرة ، حتى  
 في زمن فرانشيسكو ، وعلى أية حال فان ابنه نيكولو Niccolo وحفيده دورينو Dorino  
 قاما من جديد بسك نقود من هذا النوع . انظر

— Schlumberger, l.c. p. 436, 439, 441;

Gradenigo, Della moneta veneta-imperiale. (Udine 1869), p. 23.

Hoff., art Giustiniani, p. 319. (٣٦٨)

Le Giorn, ligust., I, 86 et s. (٣٦٩)

Laon Chalcoe, p. 520. (٣٧٠)

Critobul., éd. Muller, p. 112 et s. (٣٧١)

— هذه التزايا أوحث الى البنادقة في فترة سابقة بفكرة احتلال اينوس :  
 Taf. et Thom., III, 70, 81.

الدردينيل ، والأخطر من ذلك أنهم استولوا على مدينة كاليبوليس ( جاليبولي ) ، ومنها انتشروا ليس فقط على خيرسونيز تراقيا ( الآن شبه جزيرة جاليبولي - المترجم ) كلها ولكن أيضا على الساحل الشمالي لبحر مرمرية حتى رودستو Rodosto وفي الوقت نفسه تقدموا في الجانب الآخر على طول نهر ماريتزا ، واستولوا على اندرينوبيل Andrinopie ( حاليا ادرنة - المترجم ) - وفيليبوبولي Philippopoli ، واحتلوا أخيرا شريطا عريضا من الاقليم بين نهر ماريتزا والبحر الأسود . كل هذا كان شؤما على العهد الجديد ، فقد تقلصت املاك الامبراطور حتى صارت دائرة ضيقة حول عاصمته .

وليس ثمة شيء في فتوحات البلغار ، أو في غزوات الصرب يمكن أن يقارن بالنتائج التي حصل عليها العثمانيون المظفرون بوثباتهم السريعة . وترتبط هذه الأحداث بالسنين الأخيرة من عهد السلطان أورخان Orkhan ( المتوفى عام ١٣٥٩ ) والسنين الأولى من عهد مراد الأول . وكانت الأهم التجارية تتمتع في الامبراطورية بامتيازات كبيرة ، فلم يكن في وسعها أن تشهد انهيار الامبراطورية دون مبالاة . فمن جهة ، حاول تجارها أن يتوغلوا في داخل تراقيا ومقدونيا فاصطدموا على الفور بسادة البلد الجدد الذين لا يسمح تمصهم الشديد بأن يحصل هؤلاء التجار منهم على امتيازات ملائمة لتجارهم .

ومن جهة أخرى ، كان أمن التجارة معرضا للخطر على طريق من أكثر الطرق البحرية رواجاً ، وذلك منه أن سيطر الأتراك على ضفتي الدردنيل ، ومن ثم فرضوا سيادتهم على جاليبولي ، مفتاح البسفور وبنطس ، وكان هذا خليقا بأن يثير قلقا شديدا في البندقية وجنوا ومع ذلك فإن الامبراطور هو الذي تأثر من هذه الأحداث أكثر من غيره ، وبصورة مباشرة ، فأرسل الجندي ميشيل مالاسبينا Michele Malaspina إلى بلاط روما يلتمس عون البابا ( ١٣٦٥ ) ( ٣٧٢ ) .

وكان أوربان الخامس يراوده منذ زمن بعيد فكرة استشارة حركة في الغرب لصالح الامبراطور اليوناني ، واستجاب للنداء أمير واحد فقط ، ملك صغير ، هو الفارس المغوار « الكونت الأخضر » أميديه السادس ، أمير سافوي Comte vert. Amédé VI de Savoie ( ٣٧٣ ) . واذا صمم على

فجندة قريبه الامبراطور يوحنا الذي كان على وشك الانهزام امام العدو الكبير من أعدائه ، فانه قام على رأس جيش مجهز تجهيزا جيدا ( ٣٧٤ ) .  
وفي شهر أغسطس ١٣٦٦ كان سعيدا اذ استطاع أن ينتزع جاليبولي من الأتراك ، ولكن عند وصوله الى القسطنطينية علم أن الامبراطور وقع في أسر ملك البلغار ، ومن ثم انطلق لغوره ، ومعه عدد من سفينتين زودته بهما مستعمرة بيرا ( ٣٧٥ ) ، في حملة في البحر الأسود . وشن هجمات مفاجئة على مدن ساحلية محصنة حملت ملك البلغار على اطلاق سراح الامبراطور .

عندئذ عاد أميديه الى مشروعه الأول فاستولى على موقعين تركيين صغيرين ( مايو ١٣٦٧ ) . ولسوء الحظ اقتربت نهاية تكليف جنوده المرتزة ، وكانت موارده المالية قد نفذت ، فاضطر أن يقفل راجعا الى وطنه . وبالاجمال لم تات هذه الحملة الصليبية بأية نتيجة مستديمة .  
وعند رحيل الكونت وضح جاليبولي بين يدي يوحنا باليولوجوس ولكن ما فائدة هذه الغزوة اذا كان الامبراطور الضعيف قد قدر له أن يتقدمها ثانية في مدة قصيرة ؟ وضاعف البابا جريجوري الحادى عشر ، خليفة أوربان الخامس من مساعيه لدى الأمراء اللاتينيين واليونانيين في الشرق الأدنى لينظموا حلفا كبيرا ضده الأتراك ، ولكن جهوده أخفقت كلها .

كان لابد من جيوش قوية ، وحملات كثيرة لايقاف تقدم العثمانيين ، ولم تكن جنوا والبنديقية ، القوتان البحريتان في حالة تسمح لهما بتعبئة مثل هذه الجيوش . وكانت البنديقية في تلك الآونة بنوع خاص مضطرة الى حشد كل قواها في كريت التي كانت تعاني منذ عام ١٣٦٣ من ثورة عارمة ، وكان الباعث على هذه الثورة المسلحة فرض ضريبة جديدة . ولم يترك سكان الجزيرة اليونانيون ، وهم دائما متأهبون للقيام بثورة ، لم يتركوا هذه الفرصة تمر ، وفي هذه المرة اشترك معهم في ثورتهم عدد كبير من المستعمرين البنادقة تحت قيادة زعماء طموحين ينتمون الى اجسن

---

( ٣٧٤ ) يزعم داتا Datta ( ص ٥٩ ) أن الكونت لم يكن عنده سوى سفن حربية استأجرها من مجهزى سفن بنادقة ، وجنويين ، ومرسيليين ، وغير أن رومانين ينبتنا بان ( Romanin, III, 232 ) الجمهورية زودته بسفينتين حربيين ، ومبلغا من المال .  
Datta p. 192. ( ٣٧٥ )  
Raynald, ad an. 1372, no 29 ; Buchon. Nouv. recherches.  
II. 1, p. 218 et ss. Hopf, art Griechenland, Op. cit., LXXXVI, p. 23, 24.

الأسر ( تيتو فينييه ، وماركو جرادينجو ، الخ ) • وكانت المستعمرة.  
على وشك الانفصال عن الوطن الأم ( ٣٧٦ ) •

وتمكنك البندقية أخيرا من القضاء على الثورة ، ولكن ذلك اقتضاها  
عدة سنوات من الصراع والجهد الشاق ( ١٣٦٤ - ١٣٦٦ ) ( ٣٧٧ ) • وفي  
هذه الظروف لم يكن في مقدورها أن تفكر في الأثراك • ولم يكن أمامها  
فضلا عن ذلك سوى بديلين : إما أن تعي جيوشا ترسلها لخدمة  
الامبراطور اليوناني العاجز عن الدفاع عن نفسه بنفسه ، أو أن تضم  
ما تبقى من الامبراطورية ، وتعتمد على مواردها الخاصة دون أية مساعدة  
تأتيها من الخارج لتدافع بأي ثمن عن القسطنطينية ضد أعدائها.  
الجدد ( ٣٧٨ ) • ولم يتناسب أي من الأمرين مع سياستها ، وكل ما كانت  
ترغبه هو أن تحافظ على علاقات طيبة مع الامبراطور بحيث تستخاض  
منه أقصى ما تستطيع من مزايا • وبخلاف هذا كانت تترقب ما تسفر  
عنه الأحداث •

ولم تكن العلاقات الدبلوماسية بين البندقية والامبراطور سارة  
بالنسبة الى الأخير ، ذلك لأن مبعوثي الجمهورية كانوا مرة بعد أخرى  
يذكرونه حينما بتعويض لم يدفعه ، وأحيانا يدين لم يسدده ( ٣٧٩ ) •  
وكان هناك دائما مشاكل جديدة بين حكام المستعمرات ( البالات )  
البنادقة وبين الحكومة اليونانية • وضجر الامبراطور من هذه الأحوال ،  
فكلف في عام ١٣٦٢ سفره في البندقية اندرونيك اينرتي ( اينوتو ؟ )  
( ? ) Andronic Inerti ( Incoiti ) أن يطلب نسخة من المعاهدات القديمة  
حتى يمكنه التحقق من مدى صحة ادعاءات هؤلاء الحكام • وكان من بين

( ٣٧٦ ) دير بعض النبلاء مشروعا يهجون بمقتضاه الجزيرة لجمهورية جنوا ، ولكن  
الجمهورية رفضت مساندة هذا التمرد ، وكان من اخلاص الدوج جيوريل ادوتو أن حفظ  
على كل الجنويين أن يتعاملوا مع اجزاء الجزيرة التابعة للمتمردين :  
( Commem. reg., III, 22, no 103 )

( ٣٧٧ ) دون رومان قصة هذه الثورة تبعا لائق المصادر •  
Romanin, III, 217-227.

( ٣٧٨ ) في ١٦ ابريل ١٣٥٥ اقترح مارينو فالير ، بايل القسطنطينية  
( Marino Falier ) تبني هذا الرأي الأخير • انظر :  
— Hopf, art Griechenland, Op. cit., LXXXV, 448.

( ٣٧٩ ) حينما كانت البندقية توفد سفراء لطلب مد فترة معاملة • كانت الطلبات المالية  
التي تبدو انها ليست سوى الجزء الثانوي من مهمتهم ، كانت على العكس من ذلك • في  
الكثير من الأحيان ، الموضوع الرئيسي • انظر على سبيل المثال : تعليمات زكاريا كونتراني :  
Zaccaria Conlarini ( 9 sept. 1349, publ. en grec dans Miklosich et  
Muller, Acta graeca, III, 114 et ss.; en latin dans Taf. et Thom., IV, 341  
347 ets. ) ; Giovanni Gradenigo ( 8 oct. 1357, publ. en grec. dans Mikl.  
et muller, l.c., III, 121 et ss.; extraits en italien dans les Commem. reg.,  
II, 269; no 265 ) .

النقاط المتعلقة بشكاوهم رسم الانتاج المفروض على الرعايا اليونانيين. بشأن عمليات البيع والشراء التي يجرونها مع بنادقة . وفى التعليمات التي سلدها الامبراطور لانيرتى ، يعلن الامبراطور أن هذه المطالبة لا سند لها ، لأن اليونانيين رعاياه هم ، ومن حقه أن يقتضى منهم ما يشاء ، وأن هذه الضريبة تسرى على كل العمليات ، سواء جرت مع بنادقة أو غيرهم من الأجانب . ثم ان عنده الكثير من الشكاوى ، ومن أكثرها ظهورا أن بعض الرعايا اليونانيين يقبلون دون سبب معقول أعضاء فى الجالية ( الفينيسية ) ، وأن أفرادا من غير البنادقة يمارسون التهريب بادعاء أنهم بنادقة . وهاتان مخالفتان تضران بصالح الخزانة الامبراطورية . ويشير الامبراطور الى مخالفة ثالثة : ذلك أن عددا كبيرا من البنادقة يمتلكون منازل أو عقارات أخرى فى القسطنطينية أو فى جهات أخرى من الامبراطورية ، اما لأنهم اشتروا هذه العقارات ، أو لأنهم استلموها على شكل بائنة زواجهم من يونانيات ، أو لأنهم ورثوها من أقارب يونانيين .

هذه العقارات كانت حتى تلك الآونة تدفع الضريبة العقارية ، ولكنها عندما انتقلت الى ايدى بنادقة وقفت عن الدفع . وكان الامبراطور ينكر حق البنادقة فى شراء أملاك عقارية فى الاقاليم اليونانية ، ويطلبهم بسداد الضريبة على هذه العقارات ، أو التخلي عن ملكيتهم لها . ورددت السلطات الفينيسية بأن شراء المنازل أو الأراضى أو الحدائق حق لمواطنيها بمقتضى المعاهدات ، وأنها مراعاة للحالة الحاضرة للامبراطورية توصى مواطنيها بالكف عن المشتريات من هذا النوع حتى ينقضى أجل المعاهدة ، أى فى غضون خمس سنوات . وعلى الامبراطور الا يفرض أية ضريبة على العقارات التي يملكها حاليا بنادقة .

وفى عام ١٣٦٢ قدم الى البندقية سفيران يونانيان تيوفيلاكس درموكيتس Théophylacte Dermokaiter ، وقسطنطين كافالاروبولو Constantin Cavalloropoulo (٣٨٠) مزودين بسلطات مطلقة ، ووقعا فى ١٣ من مايو ١٣٦٣ (٣٨١) معاهدة جديدة تؤيد المعاهدات السابقة وتضيف اليها كالمعتاد نصوصا جديدة . وفى مناقشة المواد أصرت سلطات البندقية على مبدئها . وكان هناك أيضا عتبة ، ذلك هو العدد الكبير من الحانات الليلية التي يديرها بنادقة ، ويبيعون فيها كميات كبيرة من الخمر التي أعفيت من الرسوم والضرائب : وهنا كان الضرر يصيب كلا من المالية الامبراطورية وزراعة الكروم فى الامبراطورية . وفى هذه

Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 129 et s.

(٣٨٠)

Marin, VI, 152-156; Romanin, III, 215 et s.

(٣٨١)

النقطة وافق الدوج على تحقيق رغبة أبدأها الامبراطور ، بأن ينقص عدد الحانات الليلية الفينيسية في القسطنطينية الى خمس عشرة حانة في فترة الخمس السنوات القادمة ، كما وعد بأن يصدر تعليمات مشددة الى الباليات بالا يعنونوا مستقبلا أن شخصا ما بندقي في حين أنه لا يستحق هذه الصفة (٣٨٢) .

وإذا كان يبدو في العاصمة العديد من فرص النزاع بين الخزانة التي تطالب بحقوقها ، والبنادقة الذين يطالبون بحقهم في الاعفاءات ، فإنه لم يكن من النادر في ضاحية بيرا حدوث مثل هذه المنازعات بين أهم متنافسة ، تحركها مصالح متعارضة ، وتلأ نفوسها مشاعر عداوية . كانت بيرا اقليما جنويا ، ومع ذلك كان على البنادقة أن يذهبوا اليها لأنها سوق أكثر أهمية من سوق القسطنطينية ، ويرسو عندها العدد الأكبر من السفن التي تؤدي خدماتها في البحر الأسود .

وكان يصل الى البندقية من القسطنطينية مجموعات من الشكاوى بخصوص المعاملات السيئة التي يلقاها منذ سنين بعض البنادقة من البودستات الجنويين ، بالمخالفة للعادات المتبعة في كل زمان ، ومن ثم أرسلت السلطة الحاكمة في البندقية الى جنوا في عام ١٣٦٠ سفيرا خصا يدعى داميانو اندريا Damiano Andrea وكلفا بعرض هذه الشكاوى (٣٨٣) . واليك بعض الأمثلة : كان بودستات بيرا قد احتجز مدة أطول مما ينبغي سفننا فينيسية عنده عودتها من تانا ، وجعل يفتش حولتها بكيفية تثير الغضب ، وكان لشخص من أهالي كانديا بضاعة مخزونة في بيرا ، فاستعمل لوزنها موازين فينيسية ، فهده البودستات ومنعه من هذا العمل ، بل وحطم هذه الموازين . ومع ذلك فإن هذا الشخص لم يفعل شيئا مخالفا للعرف العام الذي يتبعه البنادقة حتى ذلك الحين . وكان السماسرة البنادقة يمارسون دواما مهنتهم في بيرا دون أن يصادفوا أية عواقب ، ولكنهم طردوا من هناك .

وإذا كان لبندقي قضية في بيرا ، فإن المصروفات التي ينفقها على الشهود وتحضير المستندات أكثر بكثير مما يتحمله الجنويون أمام محاكم

(٣٨٢) Taf. et Thom., inéd ; le Commem, reg., II, 331 et s., no 308.  
- وثمة بندد محررة في المعنى نفسه ، موجودة في مواضع مختلفة من الماعدة المبرمة في أول فبراير ١٣٧٠ بين جمهورية فينيسيا ، والامبراطور اليوناني الذي كان وقتئذ يمر بروما : Taf. et Thom., inéd.

(٣٨٣) تعليمات بلا تاريخ ( أواخر ١٣٥٩ ) .

Commem, reg. II, 30 et s. no. 169.

وعهدى النص الكامل بفضل السيد توماس Thomas

القسطنطينية • وإذا كسب بندقى قضية ضد جنوى ، وحكم على خصمه بالدفع ، فانه ، أى المدعى يحكم عليه مع ذلك بالمصروفات ، رغم ثبوت حقه والاقرار به ، وكثيرا ما كانت المصروفات تزيد على المبلغ موضوع النزاع • وإذا قام بندقى بأعمال مقلقة للراحة ، أو تشاجر فى شوارع بيرأ ، يلقى به البودستات فى السجن ، ويحقق موضوعه بنفسه بدلا من إحالته الى قضائه المختصين بالقسطنطينية •

ولما كان بودستات بيرأ لا يتلقون كما ينبغي لهم شكاوى بايلات القسطنطينية ، ويبرزون سلوكهم هذا بأنهم يتبعون ما لديهم من تعليمات ، فان المسألة كان لا بد من النظر فيها وتسويتها بين حكومتى المستعمرتين • ووعد دوج جنوا بتحقيق المسألة وأوصى سلطات بيرأ بأن تحسن فى المستقبل معاملة البنادقة (٣٨٤) • وبالاتفاق مع دوج البندقية ، أوفد الى بيرأ ، وكافا ، وتانا فى مستهل عام ١٣٦١ تعليمات تميل الى التوفيق والمصالحة ، جدهما فى عامى ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ (٣٨٥) • ولنا مع ذلك أن نفترض أن هذه التعليمات ظلت حبرا على ورق ، ذلك لأنه حدث فى عام ١٣٦٤ أن انتهز الدوج لورنزو تشلسى Lorenzo Gelsi فرصة إيفاد سفارة الى جنوا بشأن موضوعات أخرى ، فجدد شكاويه بشأن ضروب الظلم والعنف والمعتف التى يعانى منها البنادقة من جانب بودستات بيرأ (٣٨٦) •

وهكذا أصبح قطع العلاقات وشيكا : اذ كان لابد أن تؤدى المناقشة بين البندقية وجنوا الى منازعات سافرة • وإذا كان فى الامكان فصل الأحداث المتزامنة ، وقصر الكلام على الأحداث التى كان الشرق مسرحا لها ، فانه يمكن حقا أن تسمى الحرب التى سوف نتبع تاريخها « حرب تنيديوس » Ténédos • وتنيديوس ، من جزر الأرخييل القليلة التى بقيت تحت سلطة الأباطرة اليونانيين ، أو عادت الى سلطتهم ، واكتسبت بفضل موقعا عند مدخل مضيق ابيدوس Abydos أهمية كبيرة للامم التجارية التى لها علاقات بالقسطنطينية والبحر الأسود •

واذ أصبح العثمانيون مسيطرين على ضفتى المضيق ، كان فى

(٣٨٤) Commem. reg., III, 309, nos 175, 177.

(٣٨٥) Ibid. II, p. 509, nos 175, 177; III, p. 7, nos 16, 17; p. 17, no 79.

(٣٨٦) Mas-Latrie, Hist. de Chypre. III, 748 et s.

— ردا على ذلك تلقى الدوج من جنوا تأكيدات سلمية للغاية :  
Commem. reg., III, p. 37 et s, no. 194.

وسمهم منع هذه الأمم من المرور بالمضيق • وكانت تيندوس ، بالنسبة إلى أسطول حربي مكلف بفتح الممر بالقوة ، قاعدة مناسبة للعمليات ، وملجأ قريبا تأوى إليه السفن التجارية المتجهة إلى أعالي البحار هربا من مطاردة الأتراك ، كما كانت موقفا ممتازا لمراقبة الحصون القائمة على السواحل وحامياتها ، ومعرفة مشروعات الأتراك •

ومنذ زمن بعيد كانت البندقية تترقب سنوح الفرصة لكي تستولى عليها • وقد رأينا من قبل أنه في عام ١٣٥٢ أعطى الإمبراطور يوحنا الخامس الجزيرة رهنا مقابل قرض (٣٨٧) • وفي عام ١٣٦٦ ، حين قام الكونت أميديه دي سافوي بحملته ضد الأتراك ، مر بالبندقية ، ونظير المساعدة التي قدمتها له الجمهورية ، عرض أن يتنازل لها عن جاليبولي التي أزمع على غزوها ، ولكن جاليبولي كانت موقعا يصيب الدفاع عنه • ومن ثم رفضت الجمهورية باستخفاف هذا العرض ، وصرحت له بأنها تفضل تيندوس (٣٨٨) •

ومع ذلك لم يكن في وسع الكونت أن ينتزع هذه الجزيرة بقوة السلاح من الإمبراطور ، ابن عمه ، والذي قام بحملته هذه دفاعا عن إمبراطوريته • غير أن الإمبراطور كان سيد الموقف في الجزيرة • وفي عام ١٣٦٩ - ١٣٧ قام بنفسه برحلة إلى الغرب ليطلب معاونات ، ومر في طريقه بالبندقية ، ولم تنزك الجمهورية هذه الفرصة تمر دون أن تجدد طلبها ، وعرضت أن تعيد إليه نظير موافقته الجواهر التي كان قد سلمها إليها بمثابة رهن (٣٨٩) •

وفي عام ١٣٧٥ قدمت سفارة تطالب بتعويض ، وقام أسطول إلى القسطنطينية ليمارس بوجوده أمامها ضغطا على إرادة الإمبراطور • وفي هذه المرة عرض البنادقة ، بالإضافة إلى إعادة الرهن الذي كان في حيازتها ، أن تعطيه مبلغ ٣٠٠٠٠ دوكا ، وتعهدت برفع العلم اليوناني فوق الجزيرة إلى جانب العلم الفينيسي ، وإلا تتعرض لرجال الدين اليونانيين (٣٩٠) • كانت هذه الشروط طيبة تغرى الإمبراطور ، فوافق عليها •

(٣٨٧) للملحوظة رقم ٢ تتعلق بهذه الوثيقة ، إلا أن التاريخ المذكور بها ، وهو عام Romanin, III, 255. غير صحيح • (٣٨٨) Romanin, III, 232. (٣٨٩) Caraldo, p. 227, cité par Cicogne Iscrizioni, venez, VI, 95. (٣٩٠) Romanin, III, 255.



أخيرا (٣٩١) • وغير أن كل هذا قد تم دون أى اعتبار للجنويين : وكان هؤلاء على علم تام بكل ما يدبر ، ولم يكن فى عزمهم بأية حال أن يتركوا لمنافسيهم محطة فى مثل هذه الأهمية للتجارة مع الشرق الأدنى ، وبدلا من أن يسلموا بما تم الاتفاق عليه ، صمموا على أن يأخذوا الجزيرة لأنفسهم ، ولم يخشوا أن يؤدى عملهم هذا الى اندلاع ثورة .

وكان اندرونيك ، الابن الأكبر للإمبراطور قد حاول مرة أن يسقط أباه من العرش ، وعقابا له عن هذه المحاولة حكم عليه بسمل عينيه ، ولكن الحكم لم ينفذ منه سوى نصفه • وفى أثناء رحلة الإمبراطور يوحنا الى الغرب ، اعتقله بعض دائنيه من البنادقة ، واذ لم يكن أندرونيك مشغفا على والده فى محنته هذه ، فانه رفض أن يسدد دينه ، وعهد بذلك الى أخيه الأصغر مانويل Manuel (٣٩٢) • وعندما عاد يوحنا ، القى باندرونيك فى السجن تكفيرا له عن جريته هذه ، وعين مانويل خليفة له • وتسلس الجنويون فى ثنايا هذه الخلافات العائلية ، واتفقوا مع أندرونيك ، وزودوه بالوسائل الكفيلة بهروبه من سجنه ، وفقد يوحنا صديق البنادقة تاجه وحريته ( ١٣٧٥ ) • وزج فى السجن البابل بيترو جريمانى Pietro Grimani والتجار البنادقة الموجودون وقتئذ فى القسطنطينية ، ونهبتم أموالهم (٣٩٣) •

أما الجنويون فانهم أخذوا نظير ما كانوا قد أدوه للمغتصب جزيرة تينيدوس وقلعتها ، وأرضا قبالة حيههم فى بيرا (٣٩٤) • وحتى هذا الحين تم كل شئ بنجاح ، غير أنهم حين أرادوا وضع يدهم على الجزيرة ، اصطدموا بمقاومة لا سبيل الى التغلب عليها من جانب الحاكم السكان الذين ظلوا كلهم على ولائهم للإمبراطور الشرعى ، لدرجة أنهم ، وهم يعلمون رغبة الإمبراطور فى التنازل عنها للبنادقة ، وبعد صدمه محاولة الجنويين ،

La Vita Cardi Zeni (Murat., XIX, 216); Romanin, (٣٩١) III, 258-261.

(٣٩٢) اسلوبنا فى عرض هذه الأحداث يختلف قليلا عن الأسلوب للقبول بوجه عام ، ولكنه مبنى على البحوث التى أجراها السيد بيرجيه دو زيفرى :

— M. Berger de Xivrey, dans son Mém. sur la vie et les ouvrages de Manuel Paléologue (Mém. de l'Acad. des inser., XIX, 2), p. 30-39.

(٣٩٣) وضع أيضا تحت الحراسة فى بيرا بناء على طلب اندرونيك بضائع ومبالغ تخص بعض بنادقة القسطنطينية :

Casati, Guerra di Chiaggia, p. 226.

Voy le document du 23 août 1376 dans le Lib (٣٩٤)

jur., II, 819-821.

هذا ليس الا تصديقا لوثيقة تنازل اول لم تصل اليها •

سلموا جزيرتهم لأبى البحر الفينيسى ماركو جوستينيانى الذى كان يتجول.  
آنثذ فى الأرخيل ، ولم يضع البنادقة لحظة واحدة ، واشتغلوا فى  
تحسين تينيدوس ، وأوقدوا اليها البابل فينييه ant. Venier  
( يناير ١٣٧٧ ) ( ٣٩٥ ) .

واجترأ سفير جنوى يدعى داميانو كاتانيو Damiano Cattaneo  
على الذهاب الى البندقية مطالباً بتينيدوس باسم الامبراطور أندرونيك ،  
وقد أجيب ببساطة برفض مناقشة هذه المسألة حتى اليوم الذى يعود  
فيه الامبراطور يوحنا الى عرشه . ووصلت الأمور على هذا النحو الى درجة  
لم يعد معها مجال لحل سلمى .

وحدث وقتئذ ما من شأنه قطع العلاقات ، وذلك لوقوع نزاع شديد  
الخطورة فى قبرص بين الأمتين المتنافستين . وبدأت الحرب جهارا ، حرب  
ملينة بكوارث فادحة توالى بسرعة لم يشاهد مثيلا فى أية جهة أخرى .  
وكان الحظ أولا فى صالح البنادقة ، وصد بايلهم فينييه بقوة فى تينيدوس .  
هجوماً شنه الجنويون ( نوفمبر ١٣٧٧ ) ( ٣٩٦ ) ، ونال أمير بحرهم  
فيتورى بيزانى Vettore Pisani انتصارات باهرة فى البحر التيراني ،  
والبحر الأدياتي ( ١٣٧٨ ) : فقد استولى أحد أساطيلهم فى الشرق الأدنى  
على فوكاية القديمة ، وأحرق ضواحي خيوس ، وميتيلين Mitylène  
( ١٣٧٩ ) ( ٣٩٧ ) .

ولكن فى خلال هذه السنة ١٣٧٩ ، تعظم الأسطول الفينيسى تقريبا  
هذه بولا Pola ، وظهر الجنويون المنتصرون بقوات ساحقة على مرأى من  
البندقية ، واستولوا على كيوجيا Chioggia جنوبى بحيرات شاطئيه ،  
من هناك مدوا يديهم بالمعونة الى فرانسوا دى كارارا François de Carrara  
والملك لويس ، ملك هنغاريا ، حليفهم . وعمل هؤلاء بالاتفاق مع  
الجنويين ، فاستولوا على أراضى الجمهورية الخلفية . وحوصرت البندقية  
من جميع الجهات ، وضارت محرومة من أسطول يحميها ، وبلت على وشك  
السقوط . ومع ذلك فبعد مرور لحظة من الوهن ، تشجع البورجوازيون  
فجأة ، وتأهبوا بحزم وقوة للدفاع ، وبفضل اخلاصهم ، وكفاءة قادتهم ،  
البندقية ، واستولوا على كيوجيا Carlo Zeno جنوبى بحيرات شاطئية  
محسلا بغنائم استولى عليها من سفن جنوية ، لم تلبث الحرب أن اتخذت

Stella, p. 1106; Romanin, III, 258. (٣٩٥)

Sanuto, p. 680; Vita di C. Zeno, p. 217. (٣٩٦)

Lettre du doge Andrea Contarini à la commune de Pércuse (4 (٣٩٧)  
janv. 1380), dans l'Archiv. stor., ital., XVI, 2 part, p. 554 et s.

وجهة أخرى : فقد أصبح الجنويون الذين كانوا يحاصرون كيوجيا ، أصبحوا بلورهم محاصرين ، وحلت بهم المجاعة ، ومن ثم قر عزيمتهم على الاستسلام ، واضطر الأسطول الجنوي أن يتقهقر ، ووجه البنادقة أنفسهم وهم ينتقلون من نصر الى نصر ، قادرين على تهديد جنوا ( ١٣٨٠ ) . ومع ذلك لم تقع موقعة كبيرة (٣٩٨) .

وتكلفت الحرب ضياع الكثير من الأرواح والأموال ، ونجم عنها الكثير من التخريب والتدمير عند كل الأمم التي تهتم بتجارة الشرق الأدنى . ومن ثم عرض البابا أوربان السادس ، وأميديه السادس كونت سافوي ( وهو الذي التقينا به بلقب الكونت الأخضر ) وساطتهما (٣٩٩) . وكانت للحلظة ملائمة ، إذ كان المتحاربون وقد أصبحوا منهوكي القوى ، لا يطلبون الا وقت الصراع . ومع ذلك فإن المفاوضات الأولى التي بدأت في تشيتاديللا Cittadella في صيف عام ١٣٨٠ ، واستؤنفت في فبراير وأبريل ١٣٨١ لم تنته الى شيء (٤٠٠) . ولكن الكونت أميديه لم ييأس بهذا الفشل (٤٠١) ، بل استدعى من جديد مندوبي الدول المعنية لاجتماع في قصره بتورينو Turin ، وانعقد المؤتمر الأول في ١٩ من مايو ١٣٨١ (٤٠٢) . ويعد أن ترك الأمير للطرفين الوقت اللازم لعرض مقترحاتهم ، واعتراضاتهم عليها (٤٠٣) ، أصدر حكمه (٤٠٤) : ودون

Les chroniques des Trévisé et de Padoue ; Stella, (٣٩٨)  
p. 1106 et ss.; Daniele da Chinazzo, dans sa Cronaca della guerra di Chioza (Murati SS, XV 699-804) ; el comte L.A. Casati; La guerra di Chioggia e la pace di Torino, Fir, 1866.

Casati, l.c. p. 134 et ss.; Cibrario, Storia della monarchia di Savoia, III, 255 et ss., 350 et ss. (٣٩٩)

Casati, l.c. p. 134-166; Dan, da Chinazzo, l.c. p. 779. (٤٠٠)  
la chronique de l'écrivain padouvan Galeazzo Gattaro (Murat., ss. XVII, 409) .

Monum, Hung. hist., Acta extra, 282 et s., 289, 298 et ss.

(٤٠١) الحدت جمهورية فلورنسا على الكونت أميديه الا يكف عن وساطته ، وأعلنت أنها سوف يسعدها أن تتوقف هذه الحرب المشؤومة حتى تستطیع سبغها أن تمتز عسباب البحر من جديد ، ولها في ذلك خطاب بتاريخ ٤ يوليو ١٣٨١ :

(Giornale degli archivi toscani, VII 179 et s.)

وخطاب آخر موجه لملك هنغاريا بتاريخ ٤ ديسمبر ١٣٨٠ بهذا المعنى :  
Monum, Hung., l.c., p. 416 et ss.

Casati, p. 175 et s. ; voy aussi les lettres publ. par M. (٤٠٢)

Cibrario, l.c., p. 387 et s. 359 et s.

Casati, p. 18/-228. (٤٠٣)

Ibid, p. 228 et ss. (٤٠٤)

هذا الحكم دون تغيير يذكر في البروتوكول الذي وقعه الطرفان في ٨ من أغسطس .

والقسم الذي يهنا الآن في هذه الوثيقة الضخمة (٤٠٥) هو الذي يتضمن شروط الصلح بين جنوا والبندقية ، وقطع فيما يختص بالأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية . أما الشروط الخاصة بقبرص وتانا فقد خصص لها موضع في فصل آخر . ولما كان امتلاك تينيدوس هو نقطة البداية لهذه الحرب ، فلا بد أن مصير هذه الجزيرة كان من الموضوعات الأكثر أهمية التي نوقشت في المؤتمر : فقد طالب الجنويون البندقية بإعادتها الى جنوا ، وهي في رأيهم المالكة الشرعية للجزيرة ، ورد البنادقة بأنهم لم يستخدموا العنف في الاستيلاء عليها ، بل ان السكان أنفسهم هم الذين توسلوا اليهم . أن يأخذوها . وبغير ذلك كان لابد أن تقع الجزيرة في أيدي الأتراك ، وأنهم قرروا الا يخرجوا منها .

ووجد الكونت أميديه وسيلة للتغلب على الصعوبة ، فقرر الا ينسحب موضوع النزاع لطرف أو لآخر ، وأدرج الحكم في معاهدة الصلح بالصيغة الآتية : تسلم البندقية الجزيرة الى المندوب المفوض لهذا الغرض من قبل الكونت ، ويتم هذا التسليم في ظرف شهرين ونصف شهر ( ومدت هذه المهلة بعد ذلك خمسة عشر يوما ) ، ويتولى الكونت هدم الحصون وكل المساكن في الجزيرة بحيث تصير غير قابلة للترميم ، ويجرى هذا العمل على حساب جنوا . وعلى الجمهورية ( البندقية ) أن تودع ، ضمانا لجسنة قيامها بتسليم الجزيرة للكونت في المهلة المتفق عليها جواهر قيمتها ١٥٠٠٠٠ دينار ذهبي : ٤٠٠٠ لدى دولة محايدة ، وعلى الدولة المودع لديها الضمان أن تعيده الى البندقية بعد اخلاء الجزيرة ، وفي حالة عدم تنفيذ الاتفاقية تسلمه لجنوا .

وعندما قدم المندوب المفوض نفسه في جزيرة تينيدوس بمصاحبة مندوب من البندقية ، رفض البابل جيوفاني مواتزو Giovanni Muazzo بغطرسة أن يسلمه الجزيرة (٤٠٦) . وأول ما يتبادر الى الذهن في هذا الخصوص هو أن البابل لم يتصرف على هذا النحو من تلقائه ، وأنه أتبع تعليمات سرية من قبل حكومته : ولم يفت المندوب الجنوي الذي قدم مع المندوب المفوض أن يعبر جهارا عن شكوكه في هذا الأمر ، وقفل راجعا

Verci, Storia della Marca Trivigiana e Verones, XV app., (٤٠٥)  
p. 71-112, dans le Lbi jur, II, 859-906 et dans les Monum, spect, hist, merid., IV, 119-163.

Commém. reg., II, 155, nos 120, 121.

(٤٠٦)

دون أن يفعل شيئا ( مارس ١٣٨٢ ) . وأوفدت السلطة الفينيسية سفراء الى حكومة جنوا والى الكونت أميديه وكلفتهم إبلاغهما أنه ليس فى عزمها بالمرّة أن تلعب على وجهين ، وأنها سوف تجبر الحاكم المتعطرس على الامتثال لأوامرها (٤٠٧) . وثمة خاصية غريبة فى هذه القضية كلها : ذلك أن بانتاليونى باربو Pantaleone Barbo المندوب الفينيسى الذى حمل مواثرو الأمر بتسليم الجزيرة ، وازيكو داندولو Enrico Dandolo ربان السفينة التى سافر عليها اتهما فى البندقية بعد انقضاء بعض الوقت وأدينا اذ ثبت أنهما شجعا ومواتزو سرا على المقاومة (٤٠٨) .

فهل أعطتهما السلطات الفينيسية تعليمات سرية محررة بمعنى يخالف المعنى المقصود بمهتهما الأصلية ، ثم سلمتهما بالتالى الى يد العدالة حتى تستبعد عن نفسها الشكوك التى ذاعت جهارا ؟ أو أن التعسفين ، وقد استاء من التنازلات التى نصت عليها معاهدة تورينو ، اعتزما التصرف على نقيض ما كلفا بتنفيذه ، حتى يحافظا بقدر المستطاع على تبعية تنيدوس للجمهورية ؟ هل يمكن معرفة الحقيقة ؟

أما بخصوص مواثرو ، فاليكم المعنى الذى يتضمنه دفاعه : فهو أولا كان مستعدا للامتثال لما أمر به ، غير أن الحامية تمرت ورفضت إخلاء القلعة قبل أن يتسلم الجند مرتباتهم ، ولم يكن معه ما يكفى لدفع تلك المرتبات ، ثم أن سكان الجزيرة ، من يونانيين وبنادقة قرروا أول الأمر ، على كره منهم ، أن يهاجروا ، ولكن وصل رسول من قبل فرانسيسكو جاتيلوزيو Francesco Gattiluso سيد لسبوس ، أثار مشاعر الناس بقوله ان الجزيرة سوف تصير آخر الأمر تابعة لجنوا .

ومع أن البنادقة القادمين مع المندوب المفوض من قبل كونت سافوى ومعهم مندوب السلطة الفينيسية أصروا على ضرورة تنفيذ الأوامر ، فانهم أكدوا مع ذلك تلك الاشاعة : أما هو ( أى مواثرو ) فإنه أراد رغم ذلك أن ينفذ الأوامر الصادرة اليه ، الا أن السكان والحامية وبحارة السفن ثاروا وسمموا على الاحتفاظ بتنيدوس للجمهورية مهما كلفهم ذلك ، وهم الذين اختاروه رئيسا لهم ، وهو قد قبل هذا الاختيار ، ولم يكن فى ظنه

Andr. Gattaro, l.c., p. 462 et s. ; Commem. reg., III, 158, nos (٤٠٧) 180, 181.

Sanudo, Vite de Duchi, p. 768; Cicogna Inscriz, venez., VI 97 (٤٠٨) et s

- فى ١٧ من مارس ١٣٨٢ أعلن أنه لا يجوز أن يشغل باربو أية وظيفة لمدة عشر سنوات ، وفى حوالى هذا التاريخ نفى داندولو من كانديا لمدة خمس سنوات ، والقيت عقوبة باربو فى عام ١٣٨٥ بالنظر الى ما آداه من خدمات .

بالمرأة أن سلوكه في هذه الظروف يمكن أن يجعله في عداد  
 المتمردين (٤٠٩) . ومع ذلك تصرفت السلطة البندقية معه بحزم شديد ،  
 وأوفدت إليه كارلو تزينو ، فقام بمحاولة ثانية لحمله على الرجوع عن  
 عناده ، والامتنال لما أمر به ، ولكنه وجدته ثابتا لا يتزعزع ، ومع انسكان  
 الذين صمموا على الا يتركوا ديارهم . ولم يبق ما يمكن عمله سوى ضرب  
 الحصار على الجزيرة ، والاعلان عن مكافأة ضخمة لمن يسلم الحاكم العاصي .  
 حيا أو ميتا (٤١٠) . ولتنفيذ الحصار كان من الضروري استخدام اسطول  
 وانزال قوات ، وأقلع الاسطول من البندقية في ١٤ من أغسطس ١٣٨٢  
 تحت امرة فانتيو جورجي Fantino Giorgi . وبعد حصار طال أمده ،  
 استسلم مواتزو في ١٨ من ابريل ١٣٨٣ (٤١١) .

وفي انتظار هذه النتيجة ، وجد كومون فلورنسا المودع لديه المبلغ  
 المحدد كضمان لتنفيذ المعاهدة في موقف شديد الحرج . واذ لم يتم تسليم  
 تيديوس في المهلة المنصوص عليها ، طالبت جنوا بالضمان (٤١٢) ، ولا  
 رفض الكومون تسليمها الضمان ، وضعت تحت الحراسة كل ما وصلت  
 اليه من أقمشة صوفية وأجواخ ، وسائر البضائع التي يملكها رعايا  
 فلورنسيون (٤١٣) . وأوفدت فلورنسا الى جنوا مندوبين ليقدموا لها  
 تفسيرات ، فوصلوا اليها في ١٤ من سبتمبر ١٣٨٢ (٤١٤) ، وصرخوا  
 بأن حكومتهم لا تستطيع أن تسلم الضمان لأنها لم تستلمه بالفعل ،  
 وأكدت بأن احتجزة لدى كواب القديس مرقس (٤١٥) S. Marc  
 وأضافوا مع ذلك أنها توافق على أن تدفع الغرامة بشرط اعطائها مهلة  
 قدرها ثمانية عشر شهرا . وبعد سماع هذه التفسيرات أبرمت معاهدة بين  
 الكومونين ( جنوا و فلورنسا ) (٤١٦) .

Lettre du doge; Commem., reg., III, 156 et s., no 122, nos 121,  
 123, 124. (٤٠٩)

Andr. Gattaro, p. 463 et s.; Lettre du doge A. Contarini (٤١٠)  
 à la Commune de Florence, du 1 mai 1382; Doc. sulle relaz tosc., p. 127.

Andr. Gattaro, l.c.; Hopf, art. Griechenland, op. (٤١١)  
 cit., LXXXVI, 28.

20 mai 1382; Giorn de'li archivi toscani, VII, 184; Commem. (٤١٢)  
 reg., III, p. 160, nos 138-140; p. 161, no. 145.

2 août 1382; Casati, p. 330 et ss. (٤١٣)  
 Casati, p. 335. (٤١٤)

Casati, p. 344, confirmé par le Giorn. degli archivi tosc.,  
 VII, 181 et s. (Documents du 22 et du 23 août 1381) et pas les docu-  
 ments des Archiv. stor. ital. XIII, (1847), p. 119 et ss.; Commem rég, III, p. 150,  
 nos 96, 98. (٤١٥)

Du 24 nov. 1382 au 21 Janv. 1383 (ratif. 7 févr.); Castati, (٤١٦)  
 p. 334 et s., 336 et ss.

وبعد أن استسلم مواتزو ، وعدت جمهورية البندقية جمهورية جنوا بأن تتم في غضون ستة شهور هدم كل المباني الموجودة في تينيدوس ( ١٣ من أغسطس ١٣٨٣ ) . ونفذت هذه العملية بالفعل تحت أنظار مندوب جنوى ، حرر بعد ذلك محضرا مؤرخا (٤١٧) « من ضفة ميناء الجزيرة حيث يوجد المخزن حتى هذا اليوم » . ووضع هذا التنفيذ نهاية لمظالمة جنوا بالضمآن الذي قدمته البندقية (٤١٨) التي كان لابد لها من أن تضحى بأمنية داعبتها زمنا طويلا ، ولم تجد النفوس الوطنية عزاء كافيا في فكرة أن موضوع أمانيتهم قد أفلت أيضا وعلى الأقل من أيدي خصومهم . وكان سكان الجزيرة الذين أجبروا على الهجرة في حالة يرثى لها ، ووجدوا ملجأ لهم في كريت (٤١٩) ، ونجربونت ، والقسطنطينية ، وأماكن أخرى ، وعوضتهم الجمهورية طبقا للاتفاقية ، باعطائهم منازل أو عقارات أخرى أو أموالا .

وفي عام ١٣٩٧ ، وبحجة متطلبات الدفاع عن العالم المسيحي ضد الأتراك ، وضع الدوج بيترو ايمو Pietro Emo مشروعا لاعادة بناء تحصينات تينيدوس ، وقام بإجراءات تستهدف الحصول على موافقة حاكم جنوا (٤٢٠) على أن المشروع لم يتحقق بالمره ، اما لأن جنوا بقيت ثابتة الإرادة ، واما لظهور عقبات أخرى . وفي القرن الخامس عشر ، زار كلافيو Clavijo وبوندلمونتي Buondelmonti جزيرة تينيدوس فوجداهما جرداء مهجورة ، وعزا الاثنان هذه الحال صراحة الى معاهدة تورينو (٤٢١) .

لم تكن الامبراطورية البيزنطية ممثلة في المؤتمرات التي سبقت إبرام معاهدة الصلح في تورينو . ومع ذلك كان وضعها الداخلي بين موضوعات المناقشة ، وأدى الى مشارطات بين جنوا والبندقية . وأرادت البندقية أن تدرج الامبراطور يوحنا في معاهدة الصلح ، وطالبت بأن

Doc. sulle relaz. tosc., p. 128 et ss. (٤١٧)

Décharge donnée à Florence, ibid., p. 135 et ss. (٤١٨)

(٤١٩) أولئك الذين لجأوا الى كريت ، ذهبوا اليها على سفينة خاصة بهم . وسكن

معلمهم في كانديا التي أطلق عليها في هذا الظرف اسم تنديا Tenedea

Lettre du duc. Don. Tron. du 29 mai 1384; Commem. reg., III, 170  
s., no 186.

Romanin, III, 302; Hopf, art. Griechenland, dans Erch et (٤٢٠)

Gruber LXXXVI 63, ; Sathas, Doc. inéd. série, I, II et s.

— في عام ١٤٠٥ رفضت اقطاعية فينيسيا طلبا أبدها كبير فرسان القديس يوحنا ببناء  
معلمة في تينيدوس لحماية المسيحية .

Glavijo, p. 45-57; Buondelmonti, Lib. insul. archipel., éd. (٤٢١)  
Sinner, p. 116.

يستعيد كل حقوقه التي كانت له قبل أن يفتصب أندرونك العرش ، وأن تعترف جنوا له بهذه الحقوق . أما جنوا فانها كانت تعتبر هذا الأمير دائما صديق البنادقة وعدوها هي ، وطلبت من البنادقة أن يتركوه لوأرده الخاصة ، ويمتنعوا عن توثيق أية علاقة تجارية مباشرة مع القسطنطينية . وحتى تتم تسوية مسألة توارث العرش ، دعتهم الى أن ترسو سفنهم في ييرا ، ووعدتهم بخصوص الرسوم الجمركية ، ورسوم الانتاج بأن يلقوا نفس المعاملة التي يلقاها رعاياها هي (٤٢٢) .

وبينما كان القوم يتناقشون على هذا النحو ، جرت شائعة بين أعضاء المؤتمر بأن الامبراطور يوحنا عقد صلحا مع مستعمرة غلطة (٤٢٣) بعد أن ظل زما طويلا في نزاع معها ، وأصابه ضرر كبير من جراء ذلك (٤٢٤) . وكان الخبر صحيحا : فقد تم أخيرا الصلح بين أندرونك ووالده المسن، في شهر مايو ١٣٨١ على أن يرتقى يوحنا العرش ويحفظ بالتاج حتى وفاته ، وينتقل التاج بعده الى أندرونك ، لا الى مانويل الذي سبق تعيينه خليفة لعرش الامبراطورية (٤٢٥) .

وكانت النتيجة الطبيعية للصلح بين الأب وابنه تقاربا بين الامبراطور الشيخ وبين سكان غلطة ، حلفاء ابنه . وفي وقت التوقيع على معاهدة تورينو ، لم يكن قد تبين بعد ما اذا كانت شائعة هذا الصلح صحيحة أم غير صحيحة ، وفي هذا الشأن يمكن التكهن بأمرين : فاما أن أميديه قد رفض مطالب جنوا بأن يتعهد البنادقة ألا ترسو سفنهم عند القسطنطينية، والباعث على ذلك أنه اذا هم أقاموا علاقات ودية مع تلك المدينة فانهم لن يساندوا أية مؤامرات تنسج ضد جنوا . واما أنه أبدى رغبته في أن تعقد جنوا في أقرب وقت مستطاع الصلح مع الامبراطور يوحنا ، بشرط أن يعفو عن ابنه أندرونك ويعترف به خليفة له . وهكذا ففي تورينو ، سويت على الورق مشاكل القسطنطينية بكيفية تمشي تماما مع ما جرى بالفعل (٤٢٦) . فقط ، حينما وقعت جنوا اتفاقية الصلح مع الامبراطور يوحنا في ٢ من نوفمبر ١٣٨٢ تنفيذا لنصوص معاهدة تورينو ، كانت حريصة على أن تشتترط الا يفعل شيئا من شأنه أن يؤدي

Casati, p. 189 et s. 191, 200.

(٤٢٢)

Stella, p. 1113, ad. an. 1379.

(٤٢٣)

Casati, p. 191.

(٤٢٤)

Les Sitzungsberichte der Wiener Akad. phil. hist. Cl., 1851, (٤٢٥)  
VII, p. 345 et s. (M. J. Muller) ; Ducas, p. 46 et s. ; Ducas, p. 48 et s.  
Voy. les commentaires de M. Muller, p. 328 et 35.

Casati, p. 232 et s., 253.

(٤٢٦)



الى القطيعة مع أندرونيك ، وتعهدت بأن تسانده ضد أعدائه كلهم ، بما  
قيهم ابنه وحفيده عند الضرورة ، ما عدا ضد مراد الأول ، الأمير العثماني  
الكبير الذي حرصت الجمهورية على أن تبقى معه في سلام (٤٢٧) .

وفي الامكان أن نرى قلة اهتمام الجنوبيين بهذه المعاهدة ، وذلك  
في مذكرة صغيرة كتبها الامبراطور بيده أسفل النسخة الأصلية من  
المعاهدة ، بعد مضي عدة سنوات ، واعتنى بتأكيد بياناته بذكر بعض  
الأمثلة . ولا بد أن هذه المذكرة قد كتبت قبل وفاته بوقت قصير ، أي قبل  
عام ١٣٩١ . وتسجل معاهدة صلح تورينو نهاية الحرب الكبرى التي  
استشارتها المنافسة بين جنوا والبندقية في الاقليم اليوناني ، ونعتبره  
أيضا بمثابة ختام لعصر من العصور .

لا يبقى علينا بعد هذا الا أن نوجه اهتمامنا الى جزيرة لم يكن  
تاريخها الى الآن في نطاق بحثنا هذا ، لأنه لم يكن مرتبطا بالروم ولا  
باللاتين ، ولأن موقعها منعزل بنوع ما : نقصد بها جزيرة رودس Rhodes  
كانت هذه الجزيرة ملكا لفرسان القديس يوحنا ، وهي هيئة عسكرية في  
أصلها . ومع ذلك لم تكن الجزيرة بعيدة عن تيار الحركة التجارية بحيث  
يمكن أن يتغاضى عنها تاريخ التجارة ، على الأقل خلال الفترة التي  
ندرسها . وكان عدد كبير من السفن التجارية يرسو عندها ، ذهابا وإيابا  
في رحلاتها الى آسيا الصغرى ، وسورية ، وحصر ، وقبرص كما ذكرنا  
من قبل . الا أن عددا معينا من التجار كانوا على صلة مباشرة بالجزيرة :  
نذكر منهم أولا وقبل كل شيء أصحاب المصارف ، اذ كانت حركة مستمرة  
من الأموال بين مركز الهيئة ومؤسساتها المنتشرة في أوروبا كلها ، من  
جهة ، وبين بلاط روما من جهة أخرى .

وكثيرا ما كان يحدث أن المبالغ المرسلة من المؤسسات الى « الرئيس  
الأعلى » للهيئة ، بالإضافة الى إيرادات الجزيرة لا تكفي لتغطية النفقات  
التي تتطلبها الحملات المرسلة ضد الأتراك : عندئذ تجد الهيئة نفسها  
ملزمة للانتجاء الى القوى المالية ، مثال ذلك : كانت الهيئة في عام ١٣٢٠  
مدينة لشركة باردى وبيروتزي Bardi et Peruzzi بمبلغ ضخم قدره  
٥٧٥٩٠٠ دينار ذهبي (٤٢٨) ، وكان هذا الأمر كافيا لأن يكون للشركة  
المذكورة مندوبون في رودس . وكان الأمر كذلك بالنسبة الى بيت

Sauli, Della colonia di Galata, II, 260 et ss., Atti della Soc., (٤٢٧)  
Lig., XIII, 133 et ss.

Bosio, Storia dell' ordine Gerosolimitano, II, 29; p. 32. (٤٢٨)

اتشيايولي التجارى Acciaiuoli ، وهى شركة فلورنسية (٤٢٩) .  
 وفى عام ١٣٣٥ ، وبناء على رغبة « الرئيس الأعلى » أقامت هاتان الشركتان  
 فى رودس بيتا تجاريا بنفقات مشتركة (٤٣٠) . والى جانب هذه  
 البيوت التجارية الإيطالية ، كان بالجزيرة صيارفة من هونيبلييه وناربون  
 يملكون أسامسا كوسطاء للهيئة فى إرسال الأموال من فرنسا  
 وقبرص (٤٣١) . وكانت التجارة نفسها تجد هناك حقلًا خصيبًا تستغله :  
 ذلك أن السفن المارة كثيرا ما تترك بالجزيرة بعضا من شحناتها المستوردة  
 من الشرق ، وكانت آسيا الصغرى (٤٣٢) ترسل إليها ، لقربها عددا من  
 المنتجات . ومن جهة أخرى كانت فلورنسا تجد بها سوقا لتصريف  
 أجواخها التى تصدرها عن طريق البندقية ، إذ لم يكن لديها سفن  
 تستخدمها لهذا الغرض (٤٣٣) . وكان حكام الجزيرة على خبرة كبيرة  
 بمصالحهم ، فلم يسعوا الى اجتذاب التجار الأجانب وتوطينهم الجزيرة :  
 منهم روجر دى بان Roger des Pins ، منح فى عام ١٣٥٦ امتيازًا  
 « لبورجوازي ناربون وتجارها » (٤٣٤) ، وبمقتضى هذا الامتياز كان عليهم  
 أن يقيموا فى عاصمة الجزيرة مستودعا كبيرا به مقصورة ودار للقنصلية .  
 وكان للقنصل الذى ينتخبونه الحق فى النظر فى كل القضايا المتعلقة  
 بالتجارة والملاحة ، والحكم بقرامات تصل الى مبلغ خمسين دينار بيزنطى ،  
 ويفصل فى القضايا التى يكون فيها المدعى عليه مواطنًا ناربونيا . وفى  
 هذه الحالة يكون للمدعى عليه الحق فى استئناف الحكم فى الغرفة التجارية .  
 وكانت السلع الاستهلاكية كالنبيذ ، والقمح ، والزيت ، واللحوم المملحة  
 يصرح بدخولها معفاة من الرسوم ، ولكن هذا الاعفاء لا يسرى على استيراد  
 الصابون (٤٣٥) والعبيد . وكان للناربونيين الحرية فى تصدير منتجات  
 الجزيرة (٤٣٦) ، أما المواد الغذائية فإن كميتها كانت محدودة بقدر

Peruzzi, Storia del commercio e dei banchieri di Firenze, p. (٤٢٩)  
 251, 282 — 284; Buchon, Nouvelles recherches sur la principauté fran-  
 çaise de Morée, II, 1, p. 46 et s.

Pegoluz, l.c. p. 203, 337 et s. (٤٣٠)

Mas-Latrie, Documents sur le commerce maritime (٤٣١)  
 du midi de la France, Bibl de l'cole des chartes, 2e série, III, 208  
 et s. (Doc. des années 1351, 1356 1365).

Altoluogo, Ania, Palatchā, Satalia, Pegol., p. 94. (٤٣٢)

Benedetto Del, dans (Pagnini) Della declina dé Fiorentini, II, (٤٣٣)  
 240; Romanin, Storia di Venezia, IV, 94.

Port, Essai sur l'hist du comm. marit. de Narbonne, (٤٣٤)  
 p. 118-121.

Pegol., p. 93 et s. : يصنع منه فى رودس نفسها :

(٤٣٦) يذكر بيجول من بين هذه المنتجات الانسجة الكفائية (ص ٩٤) .

استهلاكهم الشخصي ، ولا تخضع لأية ضريبة ، الا فى حالة واحدة ، عندما يتحمل سكان الجزيرة نفقات صيانة الموانئ وترميمها ، وفى هذه الحالة يتعين على الناربونيين أن يتحملوا نصيبهم فى هذه النفقات . وأخيرا كانوا ملزمين بالمساهمة فى الدفاع عن المدينة ضد أعدائها الخارجيين .

ولنا أن نتصور أن التجارة بين رودس وناربون فى مثل هذه الظروف الملائمة قد نمت نموا كبيرا : ومع ذلك فلسنا نملك كتابات تثبت ذلك ، كما لا نعرف عدد المدن التجارية المثلثة فى رودس بتجار خرجوا من قلب هذه المدن (٤٣٧) . غير أن الثابت أن الحركة التجارية كانت نشيطة بها للغاية ، فقد بحث بيجولوني Pegolotti (٤٣٨) طويلا فى موضوع الموازين والمكاييل والنقود المستعملة فى تلك السوق ، وقارن بينها وبين نظيراتها فى كانديا ، وفاماجوستا وبوليا ، وناپولى ، وفلورنسا .

---

(٤٣٧) لدينا ما يثبت وجود قناصل فينيسييين فى رودس فى سنتي ١٣٧٤ ، ١٤٩٩ :

— Comem. reg., III, p. 117, no 768; Sanudo, Diarii, II, 698.

Pegol., p. 92-96, 80.

(٤٣٨)

## ثانيا - بلغاريا

أقام البلغار لأنفسهم منذ عام ١١٨٦ أمبراطورية جديدة جنوبي الدانوب السفلى على حساب الامبراطوريتين الرومية واللاتينية . وطالما بقي التحالف المنعقد بين القياصرة البلغار وبين أباطرة نيقية بهدف طرد فرنجة القسطنطينية ، منذ كانت البندقية حليفة الفرنجة وسندهم بطبيعة الحال في الحرب مع بلغاريا . ويعطينا الهجوم المفاجيء الذى قام به فى عام ١٢٥٦ على مدينة ميزمبريا Mesembria البلغارية أسطول فينيسى تحت امرة جاكوبو دورو (١) Jacopo Doro لمحة عن هذا الوضع ، ويشهد أن ذلك العصر كان على الأقل موافيا لاقامة علاقات تجارية بين الامتين . أما من ناحية الجنويين ، فان تفوق البنادقة فى القسطنطينية أبعدهم عن هذه

---

(١) نيقية Nicaea وتقع على مبعده ثلاثين ميلا جنوب حسن الغبراء الواقعة على خليج بسفور القسطنطينية ( من أهم بلاد العثمانيين التى أخذها السلطان أورخان من الروم ، وامتدت إليها غزوات السلاجقة واتخذوها مدة قصيرة من الزمان كعاصمة لهم حتى ردوا على اعتابهم فى الحملة الصليبية الأولى ، فترجعوا الى حضبة الأناضول الوسطى ، فاتخذوا قوتية دار ملكهم سنة ١٤٧٧ هـ ( المراجع )

النواحي ، وقلما كان اسطولهم التجارى أو الحربى يظهر فى البسفور ،  
ونادرا ما كان يظهر فى بنطس Pont ( البحر الأسود ) .

وهكذا ففى غضون القرن الثالث عشر ، وكانت التجارة الايطالية  
الكبرى تهمل بلبساريا ، بقى المجال مفتوحا أمام مشروعات الراجوزيين  
Ragusans ، وكان لهؤلاء مزية الوطن الأصلى ، وهى مزية كفلت لهم  
معاملة طيبة فى هذا البلد ، وسماهم القيصر يوحنا آسن الثانى  
Jean Asen II ( ١٢١٨ - ١٢٤١ ) « هؤلاء الضيوف المحبوبون الأوفياء »  
منحها اياهم ملوك الهرسك والبوسنة وصربيا ، كبارهم وصغارهم (٢) .  
هيموس Hémus قد احتله أمراء وأهالى سلاف ( صقالبة ) ، كان  
الراجوزيون ، وقد أصبحوا نصف صقالبة يعاملون كمواطنين حتى فى  
داخل البلد ، وتجل هذا التعاطف معهم فى مجموعة من الامتيازات التى  
منحها اياهم ملوك الهرسك والبوسنة وصربيا ، كبارهم وصغارهم (٣) .

هذا الوضع الملائم بصورة غير عادية رفع عنهم العراقل التى كانت  
بدون ذلك - تقوم على الطريق البرى بين راجوزة والبحر الأسود ، ولذلك  
فكثيرا ما كانوا يفضلون استخدام هذا الطريق بدلا من السفر عن طريق  
البسفور ، رغم أنهم كانوا يملكون فى القسطنطينية منشأة هى لهم الى  
حد ما بمثابة محطة .

وفى أواخر القرن ، سقطت الامبراطورية اللاتينية ، كما انهارت  
الامبراطورية البلغارية من المجد الذى بلغته فى عهد الملوك الآسينيين  
Asenides . ومن ذلك الحين تسنى للدول التجارية الايطالية أن توثق  
علاقاتها مع بلغاريا . ويبدو أن الجنويزيين هم الذين اتخذوا الخطوات الأولى  
فى هذا السبيل ، فهم الذين سيطروا بنوزهم على البحر الأسود ، وكانت  
سفنهم الحربية والتجارية تزور سواحلها كلها . واقتدى بهم البنادقة ،  
وكايت القسطنطينية قاعده. لعملياتهم ، وكانوا يصلون الى بلغاريا أيضا  
بطريق البحر . ويمكننا أن نذكر بعض الأمثلة لتجار بنادقة يدخلون بلغاريا  
عن طريق دالماشيا Dalmatie متبعين الطريق البرى عبر الأقطار السلافية  
حتى البحر الأسود ، غير أن هذا كان طريقا استثنائيا .

حقيقة أن ميلوتين اوروش الثانى Miloutine Ouroch II ملك صربيا

Miklosich, Monum. Serb, p. 2 et 3.

(٢)

- فى عام ١٢٥٣ جدد يوحنا ابن ميخائيل آسن هذه الامتيازات فى مناسبة عقد تحالف

سياسى مع راجوزة (Ib. p. 35 et ss)

M. Miklosich, dans ses Monumenta Serbica spectantia his- (٣)  
toriam Serbioe, Bosnoe, Ragusue (Vienn, 1858).

( المتوفى عام ١٣٢١ ) دعا البنادقة لأن يملوه فى طريقهم الى البحر الأسود (٤) ، ولكن ربما كان فى فكره ، أو على أية حال فى فكر خلفائه ستيفن أوروش الثالث Etienne Ouroch III ، وستيفن دوشان اللذين جددا هذا العرض فى عامى ١٣٣٠ و ١٣٤٠ (٥) أن الغرض من هذه الدعوة لم يكن توثيق العلاقات بين البنادقة وبلغاريا ، ولكن توثيقها مع القسطنطينية أو الإمبراطورية اليونانية بوجه عام . والسواقع ان أوروش الثالث رفض رفضا قاطعا أن يضمن حمايته للمسافرين الذين يقصدون بلغاريا : وينبغى القول بأنه كان وقتئذ فى حرب مع ملك هذا البلد (٦) .

فصلا عن ذلك - وهذى هى النقطة الهامة فى الموضوع - فإن الموقف الحذر ، والمراوغات ، والاجابات الغامضة من قبل البندقية (٧) ، كل ذلك يدل بوضوح على أن البنادقة كانوا يعرفون تمام المعرفة عادات شعوب هذه الأصقاع ، فلا يمكنهم من ثمة أن يطمئنوا الى الأمن فى هذا الطريق ، ولكنهم يشعرون بمنتهى الأمان وهم فى سفنهم . ثم ان مادة التصدير الكبرى فى بلغاريا ، المحصول الأكثر وفرة ، وهو القمح ، كان نقله بحرا أسهل بكثير من نقله برا ، بسبب طول الرحلات ، وسوء حالة الطرق بنوع خاص . وكانت فارنا ، وميزميريا ، وانكياالسوس ، وسوزوبوليس (Varna, Mesembria, Anchialos, Sozopolis) وهوانى أخرى هى فى الوقت نفسه أسواق هامة للقمح (٨) ، ولكنها موجودة فى اقليم قيصر بلغاريا . نعم ، لقد أعاد اليونانيون فى فترة ما غزو هذه الموانئ كلها ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها (٩) . وكانت القسطنطينية تستورد من هناك جزءا من تموينها فى الحبوب ، وكان الايطاليون هم الذين نقلوا هذه الحبوب (١٠) . وبالإجمال فإن أعمال التجار البنادقة والجنوبيين فى هذه الناحية كانت قاصرة على شراء القليل من القمح وبيعه فى القسطنطينية :

(٤) 5ème livre perdu des Misti (ann. 1317-1320), dans l'Archiv. Venet., XVII, 266; XXIII, 77.

(٥) Monum. Slav. merid., I, 337; II, 75 et s.; Monum. Hung-hist., Acta extera, I, 282, 394 et s.

(٦) Jorecek, Gesch. der Bulgaren, p. 293

(٧) Monum. Slav. merid., I, 162 (bis), 167 (bis), II, 77.

(٨) Pegol., p. 25; Uzzano, p. 88; Taf. et Thom., III, 179, 219-246.

(٩) Jirecek, Op. Cit., 272, 286, 289, 290, 298, 299, 325.

(١٠) Taf. et Thom., IV, 165.

وبالرجوع خلفا مع التاريخ ، نجد أن أقدم دلالة نملكها لوجود هذه التجارة هي انقطاع أصابها في عهد القيصر تيودور سفيستسلاف ( ١٢٩٥ - ١٣٢٢ ) Théodore Svetislav . وفي حوالى عام ١٣١٤ ، سلب بعض رعايا انقيصر تجارا جنوبيين ، وسعت جمهورية جنوا مرتين لدى القيصر للحصول على تعويض ، وأخفقت في المرتين . عندئذ قطعت الحكومة الجنوية كل علاقة معه ، وأرسلت الى رعاياها المقيمين ببلغاريا أمرا بمغادرة البلد . وأمهلتهم لذلك أربعين يوما ، وحظرت عليهم أن يدخلوها بعد ذلك ومعهم بضائع أو بدون بضائع ، والا حكمت عليهم بغرامة كبيرة ، وضمنت لهم الاعفاء من العقوبة عن أى أذى يوقعوه بالقيصر ورعاياه ( ٢٢ مارس ١٣١٦ ) .

وفي هذه الآونة غزا سفيستسلاف ميزميريا وانكيالوسوس . وسوزوبوليس ، واستعادها من اليونانيين (١١) ، وعلى ذلك أصبحت هذه المدن بطبيعية الحال موجودة فى داخل الاقليم الذى فرض عليه الحظر . ذلك فالأمر الغريب انه يوجد فى المرسوم الصادر بسريان هذا الحظر فقرة خاصة بمدينة سوزوبوليس Sozopolis ؟ ولما كانت هذه المدينة سوقا مفضلة من أسواق التجارة البحرية الجنوبية ؛ فلاشك أنه رأى من الضرورى النص عليها بنوع خاص فى المرسوم (١٢) . وتوفى سفيستسلاف عام ١٣٢٢ ، ولا نعرف ما اذا كان هذا الخلاف قد تمت تسويته فى أثناء حياته . ولسنين طويلة ، كانت المصادر صامتة صمتا مطلقا بشأن العلاقات بين جنوا وبلغاريا .

وعلى العكس ، ابتداء من هذه الآونة ، انتقل البنادقة الى المرتبة الأولى . ففي عام ١٣٥٢ نرى المدوج اندريا داندولو ماريانو فاليريو Marino Faliero فى مهمة لدى يوحنا الكسندر آسن Jean Alexandre Asen قيصر البلغار ( ١٣٣١ - ١٣٦٥ ) ليعقد معه معاهدة تجارية جديدة . أقول معاهدة جديدة لأنه من الواضح أن هذه البعثة لا يمكن أن تكون أول مسعى بذل لربط علاقات تجارية مع بلغاريا ، إذ كان فى فارنا من قبيل قنصل بندقى يدعى داركو ليوناردو Marco Leonardo وهو الذى كلف بمهمة أن يحمل الى البنتيقية نص المعاهدة ومعها خطاب من

Jirecek, Op. Cit., p. 286.

(١١)

(١٢) فى عام ١٣١٧ حظرت السلطات الجنوية على مواطنيها أن يشتروا من فارسا وانكيالوس anehales جنوبا لتصديرها الى القسطنطينية طالما تمسبت حاتان اللديتان بتوقيعها ضد الامبراطور اليونانى :

Atti della Soc. Lig. XIII, 120.

القيصر مرفق به مذكرة بشأن قيمة النقود البلغارية . ومن قبل أيضا ،  
 فى عام ١٣٤٣ ، كان هناك عدد من البنادقة يقيمون فى بلغاريا ، ذكر من  
 بينهم شخص يدعى اورساتو دى بوننسينيا Orsrto di Boninsegna  
 ونحن نعرفهم لانهم كانوا ضحية السرقات (١٣) . ولكن معاهدة ٤ أكتوبر  
 ١٣٥٢ تضمنت امتيازات جديدة ، أقسم القيصر اليمين على تنفيذها .  
 واشتملت المعاهدة أولا على ضمانات عادية لأموال التجار البنادقة فى حالة  
 غرق السفن أو الوفاة ، ثم التأكيد بعدم مسئولية أى منهم عن اساءات  
 أو ديون واحد من مواطنيه ، وعدم مصادرة ما فى منزل بندقى دون أن  
 يكون ذلك تنفيذا لحكم . وأخيرا تعطى المعاهدة للجمهورية الحق فى بناء  
 كنائس ، ومستودعات أينما تريد ، حتى فى داخل البلد . وكانت الرسوم  
 الجمركية محددة بنسبة ١/٣ ، كما حددت من جديد رسوم الوزن  
 والحمل (١٤) .

وبقيت مسألة المدى الذى بلغه نمو هذه العلاقات مجهولة : ومعاهدة  
 عام ١٣٥٢ هى البرهان الوحيد على وجود هذه العلاقات . وبعد وفاة  
 ألكسندر انحطت الأحوال فى بلغاريا ، وسارت بخطى سريعة نحو الانهيار  
 التام . كان هذا الأمير هو آخر من استطاع أن يحمل بفخار لقب قيصر  
 البلغار ، ووصفته الوثائق اللاتينية (١٥) ، والكتاب الغرييون (١٦) بعبارة  
 Imperator de Zagora (١٧) . ونعده انقسمت بلغاريا الى ثلاث  
 أمارات مستقلة ، فمِنطقة السواحل (١٨) آلت الى الطاغية دوبردترا

Monum. Slav. merid., II, 208; les Monum. Hung., I.c. II, (١٣)  
 37 et s.

Ibid., III, 246-248; Marin, IV, 174 et ss.; M. Filiasi (Mem. stor. dé-Veneti, VI, 2, p. 236). (١٤)

Off. Gaz. I.c. Mon. Slav. merid., I.c. (١٥)

Sanuto Secr. fid. cruc p. 72; id. Istoria del regno di Romania, (١٦)  
 dans Hopf, Chron. grec-rom., p. 142; id. Epist 6, dans Kunstmann,  
 p. 801; Laur. de Monac., p. 146 et s.

(١٧) لم يأت هذا الاسم من أن القياصرة البلغار كان مقرهم المتعاد مدينة زاغوزا  
 Zagora كما يفترض السيد كنتسمان M. Kuntsmann ( المرجع السابق ص ٧١٣ )  
 لانهم كانوا يقيمون عادة فى تيرنوفو Ternovo ، ولكن لأن نواة إمبراطوريتهم كانت  
 مويسى moesie القديمة التى كان يطلق عليها أيضا فى ذلك العصر اسم زاغورج  
 Zagorje ( أى البلد وراء الجبل ) ، انظر : Jirecek, Op. cit., p. 375.

(١٨) كانت عاصمتها كالياكرا Kalliakra ( على رأس كالياكرا فى شمال شرقى

فارنا ) .

— أرى فى : les Belletins de le societe I. R de Géographie de vienne.  
 ان السيد ماكوفيك Makovic يقر بتماثل (Harvelle-suite vol XI, p. 490).  
 مالياكرا ومدينة كارنال cartal الحالية .



( دوبروتز ) : Doborditza (Dobrotitz) (١٩) وكان يملك في عهد القيصر الكسندر قسرين حصينين في ضواحي ميزميريا ، ويتمتع بروح المغامرة ، وأدت بين ملوك البلاد المجاورة لاقليم بنطس دورا لا يخلو من الأهمية . ومن ذلك أنه تدخل في شئون طربزون ، وشن الحرب على الجنوبيين في القرم ، مرة أولى في عام ١٣٧٥ (٢٠) ، ومرة ثانية ، ويعنف أشد في عام ١٣٨٤ : وفي هذه الظروف تصرف بوحي من جيوفاني موانزو ، حاكم تينبوس المشهور ، الذي رفض أولا ، استنادا الى سلطته ، ورغم أحكام معاهدة تورينو وأوامر حكومته أن يسلم الجزيرة للجنوبيين ، ثم اضطر أن يرضح للقوة ، ولجأ اليه ( أى الى دوبروتز ) (٢١) .

واستمرت الأعمال الحربية طوال حياة دوبروتز . ونذكر من بين أعماله أنه القى في السجون كل الجنوبيين الذين استطاع أن يقبض عليهم في اقليمه . وعند وفاته ، أورث ابنه ايفانكو Ivanko (Juanchus) (٢٢) امارته ، وما كان في صدره من حقد . ومع ذلك تم أخيرا تسوية المشاكل في عام ١٣٨٧ . فقد انقصد في بيرا بقصر البودستات جيوفاني دي ليتزانو مؤتمر ضم مندوبين عن ايفانكو ، همسا كوستا Costa وجولباني Jolpani من جهة ، والبودستات ومندوبين من جنوا ، همسا جنتيلي دي جريمالدي Gentile de Grimaldi ، وجيانوني ديل بوسكو Gianone del Bosco من جهة أخرى ، واستطاعوا بالاستعانة بمرجم أن يتفقوا على تحرير معاهدة ، اليكم ملخصا لها : يتعاهد الطرفان بتناسى الماضي ، ويتعهد ايفانكو بنوع خاص باطلاق سراح الجنوبيين الذين قبض عليهم بأمره ، ورد أموالهم اليهم . وبالنسبة الى المستقبل ، يكفل للجنوبيين الرعاية والمعاملة الطيبة ، وحماية أرواحهم وأموالهم . وأصبح في وسع الجمهورية الجنوبية من تلك الآونة أن تعين قناصل دون أن يعترض الأمير

(١٩) Laon, Chalc, p. 326; Jirecek, Op. cit., p. 12, 320.

(٢٠) نجد في حسابات مستعمرة كافا لهذه السنة ، نفقات تسليح سفينة جهزت

لحاربه ؟

— Canale, Della Crimea, II, 59 et. ss.

(٢١) Hópt, Griechenland dans Ersch et Gruber, LXXXVI, 28.

(٢٢) هذا الأمير البلغاري غير معروف كثيرا ، اذ كان عهد حكمه قصيرا للغاية ؛ ويبدو

أن املاكه في داخل الأراضي لم تصل الى سيلستري . Silistri ، وكان خليفته ميرزا Mirza هو الذي ضم هذه المدينة الى الامارة : ( Jirecek, Op. cit., p. 324, ' 342 et s.) ؛ وليس هناك أى تماثل بين ايفانكو هذا والحاكم (Bon) يانكو (Janowka) الذي تقول المصادر التركية إنه سلم مدينة صوفيا الى الأتراك ( ١٣٨٢ ) ؛ وكانت هذه المدينة الواقعة بعيدا في الداخل ، جزءا من امارة القيصر سسمان الثالث Sisman III.

على اقامتهم ، وسوف يكون هؤلاء القناصل على ثقة من أن يجندوا عندهم  
عونا في ممارستهم وظائفهم القضائية . وعلى الأمير أن يمنح الجنويين  
قطعة أرض ملائمة يشيرون عليها كنيسة ومستودعا ، ويستقروا بها في  
أمن وسلام ، ويخصص لهم بأن يبيعوا في الاقليم البلغارى ويصدروا منه  
كل أنواع السلع ، حتى السلع الاستهلاكية ( الا في حالة المجاعة التي  
يتمتع فيها خروج المواد الغذائية ) . وحددت رسوم الدخول والخروج بسعر  
منخفض قدره ١٪ من القيمة ، وصرح باعفاء السفن والمواد الذهبية  
والفضية ، واللآلئ ، والمجوهرات اعفاء تاما من الرسوم والضرائب (٢٣) .  
ولم يتمتع الجنويون طويلا بالمزايا التي كفلتها لهم المعاهدة ، فبعد انقضاء  
بضع سنين اتم الأتراك فتح بلغاريا ( ١٣٩٣ - ١٣٩٨ ) ، ولم تلبث  
الآثار الأخيرة للمنشآت الجنوية أن اختفت من الاقاليم الواقعة جنوبى  
مصاب الدانوب .

ويجب ، قبل أن نترك هذه المنطقة ان نلقى نظرة سريعة على الدراع  
الشمالى لمصاب نهر الدانوب ، ولو أن هذا يؤدى بنا الى ما بعد حدود  
الأراضى البلغارية . كان هناك ميناء يتردد عليه الجنويون والبنادقة ، وهو  
من المستودعات العديدة لحبوب منطقة بنطس : ذلك هو ليكوستوموم .  
Lycostomium الذى يسميه الايطاليون بعامة ليكوستومو  
Licostomo (٢٤) . وفى مجموعة من الشكاوى التي قدمتها فى عام  
١٣٦٠ حكومة البندقية الى حكومة جنوا ، نرى أن الأولى تتهم تجار الحبوب  
الجنويين بأنهم يمنعون زملاءهم البنادقة من اجراء مشتريات في هذه السوق  
الا اذا قبلوهم شركاء لهم : فاذا قبلوا ذلك ، فإن الجنويين يخضعونهم بأن  
يجروا من جانبهم مشتريات فى السر ، بحيث لا يجد البنادقة شيئا  
يشترونه ، ويضطرون غالبا للعودة وسفنهم نصف فارغة (٢٥) . وكانت  
ليكوستومو مدينة محصنة ، ويبدو أن الجنويين استولوا عليها فى تلك  
الآونة : وكان قنصل منهم يتولى ثمة مهمة الحاكم فى عام ١٣٣٢ (٢٦) .

(٢٣) نشر Silvestre de Sacy هذه المعاهدة مع وثائق أخرى فى « وثائق جنوة » .  
في : (les Not. et extr., XI, I, p. 65-71) ، واعطى تفسيرات لها فى :  
les Mém. de l'Acad. des Inscr., VII (1824), p. 282 et ss; Voy. Atti  
della Soc. Lig. XIII, 145 et s., 152.

(٢٤) Lelewel, Portulan, p. 12; Thomas, Periplus des Pontus Euxi-  
nus, p. 258; Atl. Luxoro, p. 123, 246.

Taf et Thom. inéd. (٢٥).

Lird du Cartolario della masseria di Caffa, dans Desimoni, (٢٦)  
Atl Lux p. 123.

وبجانب ليكوستوهو يرد ذكر سوق كبيرة للحبوب ، تلك هي سوق  
مونكاسترو Moncastro ( حاليا أكيرمان Akkerman ) ، ففي عام  
١٤٢١ كانت هذه الناحية تتبع الفويفود voivod ( موظف كبير في بلاد  
البلقان وبولونيا - المترجم ) الكسندر ، أمير فالاشيا الصغرى la petite  
Valachie ، ومولدافيا Moldavie . وفي عام ١٤٤١ وجد الرحالة  
البلجيكي جيبير دو لانوى Guillebert de Lannoy هناك جنوبيين  
مقيمين اقامة دائمة (٢٧) وفي عام ١٤٤٥ ، حين شن فاليران دي فافرن  
Valeran de Wavrin قائد أسطول صغير لدوق برجنديا حربا على  
الأتراك عند الدانوب السفلى ، كانت مدينة مونكاسترو وقلعتها في أيدي  
الجنوبيين ، وكان في الميناء سفن يملكها أهالي طربزون وأرمن (٢٨) .

---

Oeuvres de Lannoy ; éd. Potvin, p. 59.

(٢٧)

Jehan de Wavrin, Anciennes chroniques de l'Angleterre,  
éd. Dufont, II, 95.

(٢٨)

### ثالثا - آسيا الصغرى التركية

ذكرنا قبلا ما كان عليه وضع بودستات البنادقة فى القسطنطينية فى عهد الامبراطورية اللاتينية ، وراينا أنهم استغلوا النفوذ الذى منحهم اياه هذه الامبراطورية فى تيسير دخول مواطنيهم فى اقصى نواحى آسيا الصغرى ، عن طريق معاهدات أبرموها مع أباطرة نيقية وسلطينه ايكونيوم ( حاليا قونية ) . عندئذ دخل الغربيون البلاد بطريقين فى آن واحد : فدخل الايطاليون عن طريق أرمينيا الصغرى وممرات جبال طوروس ، وغامروا لأول مرة بعبورها وتجاوزها ، فى حين نظم البروفانسيون حركة تجارية بين الساحل الجنوبي لسلطنة قونية وجزيرة قبرص وفى غضون القرن الثالث عشر ، حدث بلا انقطاع تغير مزدوج فى وضع هذا القطر . وكلفت موقعة ارزنجان Erzizingian ( ١٢٤٤ ) امبراطورية السلاجقة استقلالها ، وأصبحت مجرد تابعة لخانات المغول ، ولم يبق لها وجود خاص . وأكملت المنازعات من أجل ارتقاء العرش والانقسامات انهيارها ، وتجزأت فصارت عشر امارات يحكمها سادة من أصل تركمانى ، وكان التوسع هو الغاية التى تعمل من أجلها كل امارة ، خاصة اذا كانت صغيرة .

ولم يكن فى الشرق ما يمكن الحصول عليه ، فالامبراطورية المغولية

الكبرى كانت سدا منيعا يتصدى لكل محاولة من هذا القبيل . وكان هناك من ناحية الغرب فرص متاحة للغزو . ولم يعد لامبراطورية نيقية وجود بحكم الواقع منذ عودة ميخائيل باليولوجوس الى القسطنطينية ، المقر القديم للإباطرة . وكانت تلك فترة قاسية مرت بها الأقاليم اليونانية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ، وناضلت بقوة في سبيل البقاء تحت حكم أمراء ذوى بأس وعزم ، وعندما رحل هؤلاء الأمراء صارت مجرد مقاطعة . واذ حولت الشؤون السياسية صوب الغرب كل اهتمام الإباطرة من أسرة باليولوجوس ، فقد أهملت كثيرا مصالح هذه المقاطعة ، لذلك لم تبد سوى مقاومة ضعيفة لغارات الأمراء التركمان . وكان مجرى نهر مندريس ( مياندر Meandre ) منذ عدة سنين يفصل بين اليونانيين والسلاجقة ، وجنوبى النهر كان الاقليم يتبع سلطان أيكونيوم ( قونية ) . وبعد انحلال هذه الامبراطورية انتقل الى سادة منتشا Mentchè الذين يبدو أن مقرهم كان فى ميلازا Mylasa ( بالتركية milâs ميلاس ، وباليونانية ميليسوس Melissos ) وهى كارية القديمة على السواحل الايحية - المراجع ) عاصمة كاريا Carie (١) القديمة .

وفى عهد الإباطرة من آل باليولوجوس انتهك الأمراء التركمان هذا الحد وغيره من الحدود . ولايقفهم قام الامبراطور أندرونك الأسبق بترميم حصون « ترال » Tralles ، وكانت تلك محاولة غير مجدية (٢) ، اذ ما لبث أن استولى عليها ودمرها سالبوكيس Salpokis (٣) سيد منتشا ، وعلى انقاضها قامت مدينة أيدن Aidin (٤) التركية التى أصبحت مركز امارة تركمانية جديدة أعطتها اسماها : وكانت هذه الامارة منتشا تضم تقريبا اقليم ايونيا Ionie القديم . وفى القسطنطينية أشرق الأمل لحظة فى الاحتفاظ بالاقليم اليونانى فى آسيا الصغرى ، وذلك حين أوفد أندرونك الى هناك قائد المرتزقة الشهير روجر الفلورى مع فرقته القطلونية الباسلة .

Sanato, Istorie della Romania, dans Hopf, Chron. gréco-rom., (١)  
p. 145 s.; 167 ; Pachym., I, 472 ; Ducas, p. 13 ; Ibn Batouta, II, 278-  
280 ; Chehabeddin, p. 338 et s. 370; Defrémery, dans les Nouv. annal  
des voyages, 1851, I, 13, 14.

Pachym., I, 468-474; Nicéph. Grég., I, 142. (٢)

(٣) لم يصل الينا اسم سادة منتشية المعروفين لدى البيزنطيين إلا فى هذه الصورة  
اليونانية .

Vivien de Saint-Martin, Asie-mineure, II, 516 Roman Mun-  
taner, trad. Lanz, II, 119 et s. (nomme cette ville Atia). (٤)

وكادت مدينة فيلادلفيا Philadelphia الهامة تستقطب أمام الهجمات المتوالية التي شنها أحد أمراء التركمان العشرة ، على شه Alicher سيد كرميان Kermian . وفك روجر الحصار عن المدينة ، وهزم أتراك آيدن ( ١٣٠٣ ) ( ٥ ) . ولسوء الحظ استدعى روجر ، وهو في أوج انتصاراته ، وأصبح القطر الواقع شمالي نهر مياندر ، بعد أن هجره المدافعون عنه ، نهبا للأتراك ( ٦ ) . وبعد وقت قليل أعاد الأتراك غزو واحتلال الاقليم الواقع بين هذا النهر ونهر كويستروس Koystros وبعد هذا النهر أيضا بقليل .

وكان آيدن مؤسس الأسرة التي تحمل هذا الاسم ( ٧ ) قد جعل مقامه في مدينة آيدن على مسافة قريبة من نهر مياندر . وفي عام ١٣٣٣ حين زار الرحالة ابن بطوطة ( ٨ ) آسيا الصغرى ، وجد ابنه محمد سلطانا على يركي Berki ( ٩ ) وهي مدينة كائنة وراء نهر كايستروس ، بين ثيرا Thyra ، وساردس Sardes . وكان لمحمد هذا ثلاثة أبناء ( ١٠ ) . اقتصم معهم في حياته قسما من امارته ، وتلقى أحدهم خضر - بيك Khidr-Beg مدينة افيس ( افسس ) Ephèse ( ١١ ) ، وآخر عمر بيك Omar-Beg تلقى سميرنا ( أزمير ) ( ١٢ ) : وكان هذا التقسيم قد تم قبل عام ١٣٣٣ ، وفي وقت الوصية ، أبدى محمد رغبته في أن يسرى مفعولها بعد وفاته ، وطوال حياة ولديه .

وفي حين وسعت أسرة ديادوش Diadches سليلة آيدن أجيالها على حساب الامبراطورية اليونانية حتى خليج سميرنا ، راحت أسرة

( ٥ ) Pachym II, 421 et ss. ; Nicéph. Grég., I, 221 et ss.; Muntaner, Op. cit., II, 115 et ss.

( ٦ ) Duc p. 13; Contacuz, I, 388, 481.

( ٧ ) M. Karabacek dans la Wiener numismatische Zeitscher, II, (1870), p. 530 et ss.; IX (1877). p. 207 et ss.

( ٨ ) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٢٩٨ ، ويتفق معه تماما شهاب الدين (Not. et extr., XIII, 339, 369)

( ٩ ) حاليا بيرجه Birgeh

— Pachym., II, 436; Miklosich et Muller, Acta graeca, I, 228;

235, 461, 497, II, 104; voyez Hadji-Khalifa, dans vivien de Saint Martin, Asie-mineure, II, 696.

( ١٠ ) يتفق ابن بطوطة وكانكاكوزين في خصوص عدد أبناء محمد هذا واسمائهم بما لا يدع مجالا للشك في ذلك .

( ١١ ) ابن بطوطة : الجزء الثاني ، ٣٠٩ .

( ١٢ ) المرجع السابق ، ٣١٠ ، Doc. p. 27.

تركمانية أخرى تتقدم صوب الشمال وتستقر بثبات على ضفاف نهر هيرموس Hermos ، واستولى صناروخان Sarou-Khan مؤسسها على ماينزيا Magnésie ( ١٣١٣ ) وجعلها مقرا له ( ١٣ ) : وانطلاقا من هناك استولى على طول السواحل ، وعلى ضفتي الهيرموس على اقليم يقابل تقريبا اقليم ليديا اليوناني ، وانتقلت أملاكه الى خلفائه ، ومن هناك حتى هلسبونتس ( الدرديل حاليا ) شكل القطر امارة من الامارات العشر ، تحكمها أسرة كارازي Karasi ، وهذا هو الاسم الذي يطلق عليها عادة ، ولكن مؤسسها كان اسمه « كالام » Kalam ، وكان كارازي خليفته ، وكان وريث كارازي ابنه ديمير - خان Demir-Khan ( ١٤ ) ، ومقر هذه الأسرة « بالي - كيرسي » Bali-Kersi ( شرقي أدرايميتي Adramytti ) غير أن فرعا أصغر يمثل في شخص أياكشي Iakchi أخى ديمير خان ( قى زمن ابن بطوطة ، وشهاب الدين ، وكانتاكوزين ) اتخذ مقره في برجماه Bergamah ، أو برجام Pergame ( ١٥ ) .

وأخيرا ، واصل الأمراء العثمانيون فتوحاتهم الى شمال شرقي آسيا الصغرى ، ومن ١٣٢٦ الى ١٣٣٠ استولوا بالتوالي على مدن بروسة ( بالتركية بورصة - المترجم ) Brouse ، ونيكوميديا Nicomédie ( حاليا ازमित - المترجم ) ، ونيقية Nicée ، وعلى ما تبقى من اقليم بيثنيا Bithynie اليوناني . ويحافظ من الحركة التي دفعت جيوشهم صوب أوروبا ، ضموا الى أملاكهم ممتلكات جيرانهم من أسرة كارازي .

وهكذا انتشر الاسلام في بضع سنين من نهر مياندرا الى البحر الأسود ، واستقر بها . وفي ختام « مجموعة أخبار رومانيا » يقول سبانودو Sanudo ( ١٣٣٤ ) ، ان فيلادلفيا كانت في ذلك الحين المدينة الرومية الوحيدة في كل القسم الغربي من آسيا الصغرى ( ١٦ ) . ومع اتساع العالم الاسلامي ، لم يحدث فقط انكماش كبير في الامبراطورية الرومية ،

Nicéph. Grég., I, 214; Duc., p. 13 ; Chehabeddin, p. 339, 368; (١٣)  
Ibn. Batouta, II, 313 et s.

كان لانيه ايضا امارة في نيمفيوم ، شرقي سميرن . انظر في ذلك :

— Chehabeddin, p. 367 et Defréremy, Nouv. annal des ; voyag., 1851, II, p. 19.

Nicéph. Grég., I, 214; Duc. p. 14; Chehabeddin, p. 339, 365; (١٤)  
Ibn-Batouta, II, 317.

Ibn-Batouta, II, 316; Cantacuz., II, 70; Chehabeddin, p. 366. (١٥)

Hopf, I.c., p. 146. (١٦)

— لم تفتح المدينة الا بعد زمن بعيد ، على يدى بايزيد Bajazet

وانما كان في هذا التوسع أيضا خطر شديد على الامارات الفرنجية في الأرخيبيل ، وأتيكا attique ، والمورة • ولابد أن الأتراك ، وقد أصبحوا مسيطرين على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ، راحوا يعملون على إخضاع الجزر المجاورة • ففي حوالى عام ١٣٠٠ انتزع سادة منتشيه من اليونانيين جزيرة رودس كلها تقريبا • وفى عام ١٣٠٩ حين أرادت هيئة فرسان القديس يوحنا التوطن بالجزيرة كان لزاما عليها غزوها وانتزاعها من من الترك واليونانيين ، وكان عملها هذا جريشا ، ودليلا على المبادرة التركية (١٧) •

**وفى رودس كانت هيئة فرسان القديس يوحنا (الاستبارية) بمثابة معقل للمسيحية (١٨) :** فقد شملت الهيئة بحمايتها جزر الأرخيبيل الجنوبية ، وجعلتها فى مأمن من مشروعات الأتراك ، وكفلت بما لديها من قوات سلامة الملاحة ، وهيات مأوى للسفن التى تنقل حجاج الأرض المقدسة ، وكذا السفن التجارية العديدة (١٩) التى تضطر لعبور تلك النواحي حتى تصل الى أرمينيا الصغرى ، وجزيرة قبرص ، وسوريا ، ومصر • ومع ذلك كانت السواحل التى يملكها الأتراك طويلة جدا ، فى حين أن سفن الهيئة وقواتها قليلة • ولما كان أمراء آسيا الصغرى العشرة يمارسون القرصنة على نطاق واسع ، كان من المستحيل على الهيئة أن تتصدى فى كل المواقع بمقارنة فعالة •

**والحقيقة أن هذه المنطقة كانت دائما مأوى لعدد كبير من القراصنة .** كما كان ميناء آنا ania الواقع بجوار مدينة كوش - اداسى (Seala nova) Kouch-Adassi جنوبى مدينة افسس القديمة (٢٠) ، فى عهد السيادة البيزنطية مأوى حقيقيا للقراصنة من الروم والقرنجة (٢١) •

Hopf, art. Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 393 (١٧),  
et s; mas-Latrie, Hist. de Chypre, III, 602 et s.; la Chron. Astense,  
publ. dans les Misc di storia ital.

Bosio, Istoria della sacra religione di S. Giovanni Gieroso. (١٨)  
limitano, 2e part. p. 18.

Clavijo, p. 40. (١٩)

(٢٠) حدى مدينة آنا ana اليونانية وقد عرفها البلدانون العرب باسم  
افسوس أو ايسوس - المرجع •

Taf. et Thom., III, 71, 161 et s., not : Uzz., p. 232; Lelewel,  
Géogr. du Moyen-Age, portulan, p. 15.

Decisiones piraticae, dans taf. et Thom., III, 179, 180, 184 (٢١)  
-et S., 194, 207, 220, 225, 248, 257, 261 et s., 264.



ومنهذ الغزو التركي ، أطلق سادة البلاط الجديد أسباطيل حقيقية مزودة بما يلزم من العتاد للاغارة على جزر الأرخيبيل الكبيرة والصغيرة وتخريبها . ولم يكن ثمة ما يحول بين هذه الأسباطيل وبين استيلائها على السفن التجارية التي يوقعها حظها السوء في طريقها : وبلغ من جرأة هذه الأسباطيل أن تطوف بسواحل الامبراطورية البيزنطية ، والمورة ، وبيوتية Beatie ، وخليج كورنتوس ، واضطر بايل نجرونت أن يدفع لهم جزية (٢٢) . وكان الإخوان من آل آيدن ، خضريك في أفسس ، وعمر بيك في سميرنا (٢٣) . يقومان بتجهيز هذا النوع من الأسباطيل . ولابد من القول بأن الشركة القبطالونية المقيمة في اتيكا كانت - ويا للعار - أول من شجعهما في هذا السبيل ، واشتركت معها فيه (٢٤) .

وكانت كل القوى الفرنجية التي تقاسمت أرض اليونان : جمهورية البندقية ، وأمراء جزر الأرخيبيل ، وسادة شبه جزيرة المورة ، تعاني كثيرا من هذه الآفة ، حتى انها تمنى اللحظة التي يتمنى فيها طرد الأتراك من سواحل آسيا الصغرى ، ودفعهم الى داخلها . وحين خطط ملك فرنسا فيليب السادس لمشروع حملة صليبية ، واتصل في هذا الشأن بالدوج فرنشيسكو داندولو ، أوصاه هذا بالا ينسى أنه لابد ، قبل القيام بالحملة ، البله بشن الحرب على الأتراك ، لأنه سوف يحتاج من أجل تموين جيوشه ، أن يكفل حرية مواصلاتاته ، وصلاته بمستودعات الحبوب الكبرى على سواحل البحر الأسود ، وأن هذه المواصلات سوف تكون مهددة طالما لم يضع حدا لجرأة هذا الشعب من القراصنة ، تلك الجرأة التي تشتد يوما بعد يوم (٢٥) .

وفي هذه الآونة وضعت الأمم الأكثر اهتماما بهذا الموضوع قواعد

Giovanni Villani, III, 137 (éd. Dragomanni) et Sanudo (Epist. (٢٢) dans Kunstmann, Studien ueber Sanudo d. Aelt, p. 778); Hopf, Giechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 376, 422, 425 et s., 449, 456, 461, 462 et s.; Hopf, Gesch. V. Andros, p. 52 et s.; Commem. reg., I, 193 no 107, p. 198 no 133; Chehabeddin, p. 354, 366 et ss.

Ibn-Batouta, II, 311. (٢٣)  
Commem., I, p. 191 no 100, p. 194.  
No. 110, p. 195 no. 116, p. 198 no 133.

(٢٤) رسالة من الملك في ١٨ نوفمبر ١٣٣١  
(Coll. des doc. inéd., Mdlang, hist., III, p. 97.

(٢٥) رأى السفارة الفينيسية ، دون بناء على طلبه في ١١ مايو ١٣٣٢ :  
(ibid., p. 98 et ss.)

توجد هاتان الوثيقتان أيضا في :  
Taf et Thom., IV, 219-222

« اتحاد » (٢٦) يتولى الاتفاق على أسطول يتجول في الأرخبيل . وكان أعضاء هذا الاتحاد الأتراك هم دوج البندقية ، ملهم الحركة ، والامبراطور أندرونيك ، والرئيس الأكبر لفرسان الاستتارية ، وانضم إليهم بعد عام ملك فرنسا (٢٧) . وأعقب هذا التشكيل الأول للاتحاد في عام ١٣٣٤ مجموعة قائمة على المبادئ نفسها ، دخل فيها ملكا قبرص و نابولي ، وتولى البابا يوحنا الثاني والمشرعون التوجيه العام (٢٨) . وفي تلك السنة لم يكن هناك مجال للتفكير في القيام بهجوم في بلاد العدو ، إذ لم يكن التسليح كافيا غير أن « الشيفاليرية » يوحنا دي سيبيوي Jean de Cépoi قائد أسطول صغير مشترك مكون من سفن جهازها كل من البابا وفرنسا شن حربا على الأتراك ، وأغرق لهم عددا كبيرا من السفن . ومن جهة أخرى تشيد أخبار دلفينو Delfino ببسالة قائد الأسطول البندقي بييترو تزينو لأنه كفل للعالم المسيحي في هذه الأنحاء أمنا لم يكن معروفا منذ زمن بعيد (٢٩) .

من الطبيعي أن تستفيد البحرية التجارية من هذه التهدة . ولسوء الحظ توفي البابا يوحنا الثاني عشر ، وحل خمول كبير محل النشاط الذي كان يبذله في تنظيم النضال ضد الأتراك . وانتهز الأتراك هذه الفرصة وعادوا إلى رحلاتهم وأعمالهم التخريبية على سواحل الأرخبيل ، ولم يعد هناك من يتصدى لهم .

وأخيرا ، في ربيع عام ١٣٤٤ وجه البابا كليمنت السادس نداء إلى ملك قبرص ، والرئيس الأكبر لفرسان الاستتارية ، ثم إلى جمهورية البندقية . وفي هذه الآونة نظم الحلفاء أسطولا من عشرين سفينة حربية لمدة ثلاث سنوات ، على أن تبقى بتشكيلها هذا حتى في فصل الشتاء (٣٠) ، وعهد بالقيادة العامة إلى مارتينو زكاريا ، قاهر الأتراك . وبعد أن طهر زكاريا البحر من القراصنة الذين كانوا يعيشون فيه فسادا ، اختار سميرنا

Rhodus (6 sept 1332 : Taf, et Thom., IV, 225 et ss.; v. les (٢٦)  
Rubriques des livres perdus des Misti; Archiv. Venet., XVII, 271, XVIII,  
66, 333, XX 89.

nov. 1333, Coll. des doc. inéd., Mel. hist., III, 101 et s., (٢٧)  
Taf. et Thom., IV, 240.

8 mars 1334 : Coll. des doc. inéd., l.c., p. 104 et ss.; (٢٨)  
Taf. et Thom., IV, 244 et ss.

Raynald, Annal eccl. ad an. 334 no 10; G. Villani, Cron., éd. (٢٩)  
Dragomanni, III, 235; Cron. Delf, cit., danc Taf. et Thom., IV, 247.

Commém. reg., reg., II, p. 147 no 17, p. 118 no 22; Paoli, Cod. (٣٠)  
dipl. dell'ord Geros., II, 86 et s., Taf et Thom., IV, 263-266, 269-273.

مقر الأمير عمر هدفا لهجومه (٣١) . وفى ٢٨ من أكتوبر ١٣٤٤ أغار على الموقع بنجاح تام (٣٢) واشتعلت النيران فى ترسانة عمر وأسطوله . وعاتت سميرنا الى أملاك المسيحيين ، وبقيت معهم خمسين عاما . وفى عام ١٣٤٨ قام عمر بمحاولة لاستعادتها ، ولكنه دفع حياته ثمنا لهذه المحاولة (٣٣) .

وإذا عرفنا أهمية سميرنا ( أزمير ) التجارية فى الوقت الحاضر ، فسوف نتساءل عما إذا لم تكن هذه الفترة الطويلة ، من عام ١٣٤٤ الى عام ١٤٠٢ قد أكسبتها ، بسبب السيادة الغربية عليها ، رخاءا كبيرا . ولكننا إذا أعينا النظر ، نجد أن هذا لم يكن أمرا مستطاعا . ولم يطل أمد الفرجة بالنصر : ذلك أن صعوبة الاحتفاظ بالفتح الجديد ما لبثت أن أحدثت منذ السنوات الأولى فى نفوس الأمم المتحالفة ارهاقا شديدا حتى انها فكرت جديا فى هدم المدينة حتى توفر على نفسها هذا العناء(٣٤) . ولم يكن ثمة من يرضى بضياح أمواله فيها . واضطر البابا مرارا أن يبذل جهودا جبارة ليحصل من الأمم المتحالفة على أموال وسفن . وإذا لم يبد أدواج البندقية حماسة كافية ، واضطر البابوات مرارا وتكرارا الى تقديم الالتماسات لحملهم على الوفاء (٣٥) بالتزامات تتجدد دائما فى معاهدات الاتحاد (٣٦) ، فانما يدل ذلك على الفائدة الزهيدة التى تتوقعها التجارة من الاحتفاظ بمدينة سميرنا .

وتدلنا دراسة المصادر على أن من أسباب النفقات الهائلة التى تتكلفها صيانة هذا الموقع هو انعدام إيراداته الخاصة انعماما شبه تام (٣٧) . وثمة حجة أخرى تؤيد رأينا هذا : ذلك أن سميرنا لم يكن لها كسوق فى ذلك العصر أية أهمية (٣٨) . وحتى بالنسبة الى منتجات وسط آسيا الصغرى ، كان من المستحيل وصول هذه المنتجات الى المدينة .

(٣١) كان يسكن فى القلعة ، انظر : ابن بطوطة ، الجزء الثانى ، ٣١٠ .

(٣٢) Villani, I.c., IV, 68-70; Taf, et Thom., IV, 286; Nicéph. Grég., II, 689; Bosio, Istoria della relig. di S. Giovanni, 2e part., p. 42,

(٣٣) Nicéph. Grég., II, 834 et s.

(٣٤) Bosio, II, 50; Rayn, a.a, 1348, no. 27.

(٣٥) Commem. reg., II, p. 151.

No. 182, p. 184 no 352, p. 261 no 225.

(٣٦) Taf, et Thom., IV, 350; Commem. reg., II, p. 185 no/

354, 356, p. 187, no. 366, p. 217 no 21, p. 218 no. 23, p. 246 no. 153, p. 264 no. 241.

(٣٧) Bosio, II, 57.

(٣٨) Traité de Nymphoeum 1261; Lib, jur., I, 1352.

بصورة منتظمة ، لأن الأترك لم ينقطعوا عن التجول حولها (٣٩) : والشئ العجيب ، أنه في حين أن سميرنا ، البلد المسيحي ، لم توفق في أن تشغل مكانه بين الأسواق التي تتعامل معها تجارة الشرق الأدنى ، كان هناك مدينتان تركيتان واقعتان في نفس المنطقة ، تتمتعان بهذه المزية : ميناء الطولوجو altoiuogo (٤٠) ، وميناء بالاتيا Polatia . ولم تكن مدينة الطولوجو التي كانت في القرون الوسطى تابعة لايطاليا سوى مدينة أفسس القديمة (٤١) \*

ولكن ما أصل اسم الطولوجو هذا ؟ كان روم بيزنطة يطلقون كثيرا على أفسس اسم أشهر شخص من سكانها تحافظ على مقبرته (٤٢) ، (٤٣) ، أو أيضا لأن القديس يوحنا S. Jean كان من بين الحواريين عالما لاهوتيا ممتازا (٤٤) . وتحول الاسم الاغريقي في اللغة التركية الى أيا صولوك Ayasolouk وفي الايطالية الى الطولوجو Altoluogo (٤٥) .

ونرى عند بحثنا عن أصل اسم الطولوجو أنه ينبغي الاحتراز من أن ننسب الى المقطع الطو Alto معنى كلمة élevé ( المرتفع ) ، ومقطع luogo معنى كلمة lieu ( مكان ) ، ففي العصور الوسطى كان الناس يجهلون هذه المعاني ، ويستخدمون الترجمة التي تبدو طبيعية للغاية ، أي « المكان المرتفع » ، وتبدو كذلك صحيحة لأن مدينة أفسس في العصور الوسطى لم تكن في موقعها القديم ، في سهل كايستروس Kaystros وإنما كانت فوق جبل (٤٦) .

والواقع أن الأترك شيّدوا المدينة الجديدة على صخرة تشرف على قرية أبا صولوك الحالية ، وذلك تيسيرا للدفاع عنها ، وامتدت المدينة حتى

Bosio, II, 57, 71, 79, 80, 90, 96 et s., 101, 103 et s. (٣٩)

Ducas, p. 192, et ss. (٤٠)

Ludolphi de Suchem, De itinere terroe sanctoe liber, éd. Deycks, p. 25. (٤١)

L'Orient, Relation rhénane de la fin du XIV si; cle, publiée dans Orient und Occident, de Benfey, I, 636; Ramon Muntaner, ed. Lanz, p. 377

Cf. Procop., De adif., p. 310; Theophanes, Chronogr., I, 728. (٤٢)

Wibaldi Epist., éd. Jaffé, Biblioth. rer. german., I, 153; Guill., de Tyr., XVI, 23. (٤٣)

Taf. et Thom., I, 118 ; Ludolph., l.c. ; Bembo, l.c. (٤٤)

Sanuto dans Hopf, p. 145. Dans Taf. et Thom., III, 193. (٤٥)

Ludolph., p. 25. (٤٦)

كنيسة القديس يوحنا القديمة . وفي موضع خورس الكنيسة كان يشار أيضا الى قبر الرسول ، ولكن باقى الكنيسة تحول الى سوق كان الأتراك يبيعون فيه القطن ، والكتان ، والقمح ، الخ (٤٧) . كانت افسس القديمة التى صارت مهجورة ، بعيدة بمسافة ما عن البحر ، وكان لابد من بناء ميناء صناعى لها ، أما المدينة الجديدة فكانت أكثر بعدا . نذكر مع ذلك أنه كان يوجد على الساحل مدينة أخرى تسمى أيضا الطولوجو ، انشئت فى مستهل القرن الرابع عشر ، ويسكنها ايطاليون (٤٨) كانوا لبواعث سياسية منفصلين عن وطنهم الأصيل . وينعى الحاج لودولف Ludolphe على هؤلاء الايطاليين أنهم شاركوا فى مصالهم الأتراك ضد المسيحيين ، وكانت القرصنة فى الغالب حرفة الرئيسة . ولم يقل لودولف ان التجارة كانت هناك مزدهرة ، ولا يذكر بيجولوتى معاصره فى مذكراته أى شئ عن مدينة الطولوجو الثانية هذه . وكانت الصفقات التجارية قبل منتصف القرن الرابع عشر تعقد فى المدينة التركية القائمة على صخرة أيا صولوك .

ويقول بيجولوتى ان التجار الغربيين كانوا مضطرين الى نقل بضائعهم من المدينة الى الساحل ، وبالعكس . ولم تكن الطولوجو سوقا من الدرجة الأولى ، ومع ذلك كان لها بعض الأهمية بحيث يرى بيجولوتى من المفيد أن يزود التجارة الايطالية ببعض المعلومات عن الكيفية التى تتم بها الأعمال التجارية ، ويصف الموازين والمكاييل المستعملة فيها ، ويضع جدولا مقارنا لهذه الموازين والمكاييل بالنسبة لنظيراتها فى جنوا ، وبيزا ، وفلورنسا ، والقسطنطينية ، وقبرص ، ورودس ، ويذكر أصل صبغة وطول الأقمشة الصوفية التى يمكن بيعها هناك بربح كبير . والواقع أن التجار الغربيين كانوا يصلون الى هناك ومعهم أقمشة صوفية من نابون ، وبربنيان Perpignan ، وتولوز ، وكذا أوان فضية ونبيذ ، وصابون ، ويعودون منها ومعهم شب من كوتاهية Koutaïh ، عاصمة

Relation rhenane, dans Benfey, op. cit., p. 637; Arundell, (٤٧)  
Discoveries in Asia minor, II, 252 et ss. Odo de Diogilo, dans les  
Monum. Germ., SS, XXVI, 71.

Ludolph, p. 25.

(٤٨)

— نلاحظ أن لودولف يعتبر أن الجنوبيين والبيزيين تجمعهم التسمية العامة \* اللدمبارديون \* ( ص ٤٢ ) ونذكر أيضا أن الميناء المجاور لآنيا Ania كان وكرا للقرصاة الجنوبيين والبيزيين .

امارة كرميان Kermian (٤٩) ، وقمح (٥٠) ، وشحم ، وأرز ، وقنب  
غير مفتول . وكان رسم الخروج بعامة ٤٪ ، وبالنسبة الى الشحم ٢٪ ،  
ولم يكن هناك رسم للدخول الا على الخمر والصابون (٥١) .

والثابت أن هذه التجارة كانت تعاني من انقطاعات كثيرة بسبب  
غارات القرصان : وكان عاجل الطولوجو ينظم هذه الغارات ، كما ينظمها  
أخوه عاجل سميرنا . وغير أن الحرب التي شنها اتحاد الدول المسيحية  
على الأمراء التركمان ، وهي الحرب التي روينها قبيلا ، تسببت في  
انقطاع أطول من غيره . وأخيرا ، وبعد سقوط سميرنا ، وهزائم فادحة  
وقعت له في البحر ، وفقد أخيه عمر الذي مات وسلاحه في يده ،  
وجد أمير الطولوجو نفسه مجبرا على عقد الصلح مع سفير البابا ،  
والرئيس الأكبر لهيئة الفرسان الاستنارية : فبعث الى البابا بصفته  
رئيس « الاتحاد المقدس » بوفد مهمته الائتماس منه بقبول بنود المعاهدة  
كما هي ، أو بعد تصحيحها ، وتعهده بسحب السفن التركية كلها ، حتى  
سفن أخيه ، ونزع عتادها ، بل وتدميرها اذا صمم البابا على ذلك .  
ولم يلتزم بعدم السماح بممارسة القرصنة وتشجيعها فحسب ، ولكنه  
كفل أيضا سلامة أرواح التجار المسيحيين وأموالهم على الأراضي  
التركية ، وكذا الأتراك الذين يسافرون الى بلد مسيحي على سفن  
مسيحية . وعليه فضلا عن ذلك إن يتنازل للدول المتحدة عن نصف  
إيرادات جمرك الطولوجو وغيرها من موانئ امارته ، ويوافق على اقامة  
قناصل لقرص ورووس والبندقية والسماح لهم بتولى القضاء بين  
مواطنيهم (٥٢) .

وبعد أن تردد البابا قليلا ، صدق على المعاهدة (٥٣) ومن نتائج  
هذه المعاهدة اقامة قنصلية فينيسية في الطولوجو ؛ ويؤيد العديد من

Pegol, p. 370.

(٤٩)

(٥٠) في عام ١٢٥٥ سعى تاجران من انكونا الى شراء هذه السلع في الطولوجو  
روبلاتيا ، مع أن الطرف لم يكن مناسباً ، ومن ثم عادوا صفر اليدين :

Comm. reg., II, 231, no 85.

— Pegol, p. 40-42, 79 et s. 94.

(٥١)

M. de Mas-Latrie dans al Coll. des doc. inéd. mél. hist., III, (٥٢)  
112 et s.; Taf, et Thom IV, 313 et ss.

Taf et Thom., IV 345 et s., 349 et s.; Coll. des doc. inéd., (٥٣)  
l.c., p. 119 et s. Taf, et Thom., IV, 318.

المصادر هذه الواقعة (٥٤) وانتهت جنوا أيضا بالصاح مع أمير الطولوجو في عام ١٣٥١ ، وعقدت معه معاهدة (٥٥) في مناسبة الحرب التي شنتها في المياه اليونانية ضد البنادقة والقطالونيين . وكان الحفاظ على الاتفاق الودي مع الإمارات التركية في آسيا الصغرى ضروريا لجنوا والبندقية ، لصالح مستعمراتها وإمارات جزر الأرخبيل التي تلتزمان أديبا بحمايتها ، لذلك جددت البندقية مرارا معاهداتها مع أمراء الطولوجو (٥٦) ، وابتداء من اللحظة التي تم فيها عقد الصلح ، بذلت كل عنايتها ليجنبها ما من شأنه أن يؤدي إلى نزاع (٥٧) . أما سادة الطولوجو فانهم لم يهتموا كثيرا بمراعاة المعاهدات ، وواصلوا بنوع من الصفاقة حرفتهم ، حرفة القرصنة (٥٨) ، بل راحوا أيضا يسكون نقودا على نمط اللوكات . ( نقد ذهبي قديم في البندقية - المترجم ) ، ولم يمنع هذا تجارة القرب من أن تمارس هناك نشاطها ، بل يبدو أنها بلغت هناك درجة مامن الازدهار .

فالواقع أننا نطالع في مؤلف سبق لنا مرارا الإشارة إليه « أخبار رينان » Relation Rhénane عن الشرق ، والذي كتب في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ؛ أنه كان في تلك الآونة بين سكان مدينة الطولوجو الجديدة التي بنيت على الساحل عدد كبير من التجار المسيحيين الأثرياء ، وأن هذه المدينة يتردد عليها تجار من جميع البلاد ، وتصل إليها بضائع من قلب آسيا الوسطى (٥٩) وتضيف

(٥٤) Commem. reg., II, 231 no 85; J. Bembo, Epist. ad Andr. Anesinum, 1536, Op. cit., p. 600.

(٥٥) M. Hopf, (Griechenland dans Ersch et Gruber, LXXXV, 447).

— على الرغم من المعاهدة قضى الأسطول القطلالوني البندقي الشتاء عام ١٣٥١ - ١٣٥٢ في الطولوجو وبالاتيا :

— Matteo Villani, éd. Dragomanni, I, 158.

(٥٦) في أول أكتوبر ١٣٧٠ أبلغ دوق كريت ومجلسها اللوج أنه في شهر سبتمبر ،

أبرم جيوفاني مورو معاهدة مع سيد الطولوجو :

— Taf et Thom., inéd.; Commem. reg., III, p. 95 no 598

(٥٧) Mas-Latrie., Hist de Chypre, III, 752 et s. ; Vita S.

• Petri Thomasil dans les Acta SS, Boll., 29 Janv., p. 1013; dans Sathas, Bibl. graec, med, œvi, II, 128.

— عندما طلب الملك لويس ماك هنغاريا إلى البندقية أن تزوده بسفن لحاربة الاتراك

( ١٣٦٦ ) أبلغ أن الجمهورية مرتبطة بمعاهدة مع سادة الطولوجو وبالاتيا :

— Monum, Hung, hist., Acta externa, II, no. 485.

Hopf, Op. cit., p. 449, 456.

(٥٨)

Benfey, Orient und Occident, I, 637.

(٥٩)

« الأخبار » أنه يوجد مجرى مائي كبير يصل عن طريقه الحرير ، والمنسوجات الحريرية ومواد أخرى . وقد يتبادر الى الذهن لأول وهلة أن هذا هو نهر كايستروس ، لأن الطولوجو كانت واقعة على مصب هذا النهر ، ولكن باعان النظر نرى أن « الأخبار » تصف هذا « المجرى المائي الكبير » بأنه عريض كنهر الراين ، وطويل جدا (٦٠) . وعلى هذا لا يمكن أن ينطبق هذا الوصف الا على نهر مياندر ( حاليا مندريس ) . ويؤدى بنا هذا الى نطاق آخر ، من الوجهتين الجغرافية والتجارية . فالمنتجات التي ترد عن طريق نهر مياندر (٦١) لم تكن غايتها سوق الطولوجو ، بل سوق بالاتيا Palatia

كانت مدينة بالاتيا ( بالتركية بلات Balat ) التي نجدها في الكثير من خرائط العصور الوسطى (٦٢) قائمة على أطلال مدينة ميليتوس Milet القديمة ، بالقرب من مصب نهر مياندر ، على ضفته اليسرى (٦٣) . وقد وجد في هذه السوق منتجات آسيا الصغرى الطينية ، مثل الزعفران ، والسوسم ، والعسل ، والشمع ، والغص ، وعب تمشق ، وشب كوثاهية ، ومواد مصنعة مثل الماروكان الأحمر ، والسجاجيد . ويباع هناك أيضا العبيد من الجنسيتين ، ويصدر القمح الى رودس ، وقبرص . أما السلع الأخرى فيشتريها جنويون من خيوس ويصدرونها الى مصر ، ويستوردون في مقابلها الى بالاتيا جوجا ، وضابوتا ، وقصديرا ، ورضاصا ، الخ (٦٤) .

وكانت بالاتيا تابعة لاقليم سادة « منتشيه » ، وبعد سقوط سلطنة ايكونيوم ( قونية ) ، استخلص هؤلاء الأمراء الصغار لأنفسهم

(٦٥) هنا يتابع المؤلف النص الذي كتبه لودولف فون سوزن الذي يصف القناة المعنية بمبارات تكاد تكون ماثلة ، ص ٢٥ .

(٦٦) يذكر شهاب الدين سفا من كورمان تهبط مجرى نهر مياندر حاملة شحبات من البضائع ( ص ٣٥٤ ) .

Atlante Luxoro, dans Affi-della Soc. Lig., V. 112; Ielewel, (٦٧) Portulan, p. 15.

Vivien de Saint-Martin, Asie-mineure, III, 519; Mas-Latrie, (٦٨) Commerce d'Éphèse et de Milet au Moyen-Age, dans la Bibl. de l'École des chartes, 5e série, V. 219; Buondelmonti, Lib. insul. archipel., éd. Sinner, p. 104, 108, 204, 209.

Pegol, p. 80, 94, 370; Piloti, p. 371, 376; le traité de 1403. (٦٩) Bibl. de l'École des Chartes, I.c., p. 229.

- كان تجار راجوزا يمارسون التجارة غالبا مع بالاتيا :

— Luccari Ristretto degli annali de Rausa, p. 36.



في جنوب غربي آسيا الصغرى اقليما يقارب في سعته اقليم كارييا القديم ، وليس هنا مجال لسرد تاريخ هذه الامارة قبل العصر الذي ندرسه ، وحسبنا أن نذكر أنها أسهمت بنصيب كبير في حملات القراصنة التي كانت كازنة على الجزر اليونانية (٦٥) .

ولكى تؤمن جمهورية البندقية أملاكها من غارات هؤلاء القراصنة ، وتفتح في الوقت نفسه لتجارتها مجالا تستطيع ولوجه في يسر ، وتجد فيه الكثير من الربح ، لم تجد أفضل من أن توثق علاقاتها مع سادة بالاتيا عن طريق دوقها في كريت ، مارينو موروسيني . وانتهت هذه المساعي الى معاهدة لانعرف عنها سوى أمر واحد (٦٦) : ذلك أن البنادقة حصلوا على امتياز بكنيسة للقديس نيقولا St. Nicolas واقعة في داخل بالاتيا ، أو في خارجها . ولعله من الصواب أن نرجع الى زمن عقد هذه المعاهدة انشاء قنصلية فينيسية في بالاتيا ، ثبت وجودها في عام ١٣٥٥ (٦٧) ، ولا يمكن أن يكون تاريخ عقد المعاهدة سابقا لهذا التاريخ .

وتبصفح قائمة الحكام البنادقة في كريت ، تلك التي وضعها السيد هوف M. Hopf (٦٨) ، نرى أن مارينو موروسيني قد شغل منصبه مرتين : الأولى من ١٣٢٩ الى ١٣٣١ ، والثانية من ١٣٥٢ الى ١٣٥٥ . ولابد لنا أن نسلم ، تمشيا مع ماحدث لأطولوجو ، أنه في غضون الفترة الثانية أبرم موروسيني المعاهدة المشار اليها : ذلك لانه في عام ١٣٥٠ قام أمير بالاتيا بتجهيز معدات حربية ضد سميرنا مما أثار قلقا شديدا في نفس الدوج أندريا داندولو (٦٩) .

ولم يكن للبنادقة مطلب سوى مراعاة هذه المعاهدة باخلاص ، وأبدوا لهم في أن يمتنع أصدقاؤهم وحلفاؤهم عن مهاجمة بالاتيا (٧٠) .

(٦٥) كان أمراء كرميان ( وعاصمتها كوتاهية ) المقيمين في داخل آسيا الصغرى ، يرسلون مع ذلك أساطيل من القراصنة عن طريق نهر مياندر تنهب جزر الأرخبيل ، وكان أمراء منتشية يحترزون من اعتراض طريقهم . انظر : شهاب الدين ، ص ٣٥٤ .

Mas-Latrie, p. 229, (٦٦)

Commém. reg., II, p. 231 no 85. (٦٧)

Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXV, 459; LXXXVI, 174. (٦٨)

Lettre de Dandolo à la Commune de Pérouse : Archiv. stor. ital, XVI, 2e part., p. 536. (٦٩)

Mas-Latrie, Hist. de Chypre, III, 752 et s.; mon. Hung. hist., Axtera, extera, III, no 485. (٧٠)

وسوف نرى في الفترة اللاحقة التطورات التي حدثت للعلاقات بين البندقية وهذا الميناء . ولكن ينبغي لنا ، قبل أن نبتعد عن امارات آسيا الصغرى العشر ان نقول بضع كلمات عن التأثير الذي مارسته التجارة على نظام النقد . لقد تكلمنا من قبل عن نقود سككت في الطولوجو على نمط دوكات البندقية ، واحتجاج الجمهورية في هذا الشأن ، ولكن هذا ليس كل شيء . ففي غضون القرن الرابع عشر ، خرج من مصانع ماجنسيا Magnésic على جبل سيبولوس (٧١) ، وتيولوجوس Théologos ( افسيس ) (٧٢) ، وبالاتيسا (٧٣) نقود عليها كتابات لاتينية منقوشة ، تستنسخ بدقة نمط الـ Gigliati (٧٤) التي سكتها في نابولي أمراء آل أنجو ، ويستنتج من هذا أن سادة صاروخان Sarou-Khan ( ليديا ) ، وآيدن ( ايونيا ) ، ومينتس ( كاريا ) سكوا نقودا خاصة لتسهيل معاملات رعاياهم مع الايطاليين :

ولننتقل الآن الى الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى . وفي حوزتنا بخصوص القسم الكائن بين برييا Prefpia (٧٥) ، وخليج الاسكندرونه دليل ممتاز : ذلك هو سانودو Sanudo السابق : فهو لا يغطي فقط قائمة بمحطات الساحل ، ولكن ، رغبة منه في خدمة ملاحى بلده ، يحدد المدة التي تستغرقها الملاحه من جهة الى أخرى ، والاتجاه المتبع ، وطبيعة أماكن الرسو ، وصخور البحر ، وأغواره . ومنذ أن أمسى الأتراك سادة هذا القسم من الساحل ، لم يعد الأجانب يلقون به معاملات متماثلة ، وكثيرا ما يضيف سانودو مذكرة ينبه فيها الى أنه يمكن في ميناء أو آخر الاطمئنان الى الأهالى ، أو الاحتراز منهم .

وتدل كمية المعلومات التي جمعها هذا الكاتب ودقتها ، وهي معلومات لا يمكن أن تكون قد وصلت اليه الا عن طريق ربابنة السفن ،

Pinder et Friedlander ,Beitrage zur aelteren Muenzkunde, (٧١)  
p. 52 et ss.

M. Karabacek, dans la Wiener numismatische Zeitschr., (٧٢)  
(2e année, 1870), p. 525 et ss.

Karabacek, Op. cit., 9e année (1877), p. 200 et ss. (٧٣)

M. Schlumberger (Numism. de l'Or, lat. p. 478 et ss. (٧٤)

Sanudo, p. 90 (٧٥)

- تبعا لوصف سانودو ، كان هذا الميناء الذي يشحن منه الخشب لمر ، واقعا عند مصعب

نهر عميق ، وهذا وصف يمكن أن ينطبق اما على قناة تصريف بحيرة

Keuidchès

Doloman-Tchaï أو على

تدل على أن المخاطر المحتملة لم تكن عقبة كافية لإبعاد الغربيين عن الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى . والواضح أن من هذه المعلومات ما لا يمكن قبوله إلا بتحفظ شديد ، مثال ذلك أن ميناء *prodensalium Portus* ( فى الجنوب الغربى من سلفكيه *Sélefkèh* ) كان فى عام ١٣٠٠ ملتقى عدد كبير من السفن البروفانسنية أو أن *Portus januensis* ( فى القسم الغربى من خليج ساتاليا *Safatia* ) (٧٦) كان محطة يتردد عليها الكثير من السفن الجنوبية . والثابت أنه فى تلك الآونة لم يكن هذان الاسمان يسترجعان سوى ذكرى ماضية ، والأمر كذلك ولاشك بالنسبة الى الموانئ الأمالفية والأفريقية التى تضعها بعض خرائط العصور الوسطى المتأخرة على الساحل شمالى جزيرة رودس وقبالتها (٧٧) .

غير أن المصادر المعاصرة تزودنا مثلا بالبرهان على أن أهالى تجربونت كانوا يحضرون القمح والنبيد وسلع أخرى من ماكرى *Makri* على الخليج الذى يحمل هذا الاسم (٧٨) . والثابت أنه فى عام ١٢٨٩ عبرت سفينة جنوبية البحر من الاسكندرية الى كانديلور *Candelore* وعليها شحنة من السكر ، والكتان ، والفلفل (٧٩) ، وأنه فى عام ١٣٣٢ حملت سفينة ابن بطوطة من لاوديكييا ( بسوريا ) الى الأجا *Alaja* (٨٠) . وتتيح لنا هذه الحقائق أن نستنتج وجود حركة تجارية نشيطة يفذيها الجنوبيون بين مصر وسوريا من جهة ، وبين الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى من جهة أخرى . والجدير بالذكر أيضا ، فى كل من الحالات التى ذكرناها أن ميناء الوصول هو نفسه ، ذلك لأن الميناء الذى سماه الأتراك وقتئذ « الأجا » كما يسمونه كذلك فى الوقت الحاضر ، كان

(٧٦) *Sanut.*, p. 89; *Uzz*, p. 234; sur les cartes du Moyen-Age (atlante *Luxoro*, p. 113, 235; *Lelewel*, l.c., p. 16 ; *Muenchen. Karten*, éditées par M. Thomas dans les *Abh. der Muenchen. Akad.*, cl. I; vol. X, sect. 1, p. 285 et s.); *Ritter, Khleinsien*, II, 750.

(٧٧) *Lelewel, Portulan*, p. 15 ; *Atlante Luxoro*, p. 115; *Nicolo da Este, Viaggio a Gerusalemme*, p. 114; *Lannoy, éd. Potvin*, p. 176. *Uzz.*, p. 233., indique un *Capo di Malfetam*.

(٧٨) *Taf. et Thom.*, III, 196, 208, 262.

(٧٩) *Annal. Jan.*, p. 324.

(٨٠) *Ibn-Batouta*, II, 254.

الغربيون. في العصور الوسطى يسمونه « كانديلور » (٨١) ، وهي مدينة تركية تجارية ، يتردد عليها تجار من القاهرة والاسكندرية وسوريا ، وكان المصريون يتزودون منها بالخشب (٨٢) .

وبطبيعة الحال كان الغرب من جزيرة قبرص يتيح مجالاً لعلاقات كثيرة ، لذلك لم يفت بجولوتي أن يضع ، خدمة للتجار قائمة مقارنة للنقود ، والموازين ، والمكاييل في كانديلور وفاماجوسته (٨٣) . ومع ذلك تفوقت ساتاليا على كانديلور ، إذ كانت أكثر الأسواق التركية على الساحل الجنوبي رواجاً . وكانت Lajazzo الميناء المسيحي هو وجهه الذي نجح في منافستها بفضل موقعه عند منطلق طرق الهند ووسط آسيا . وكانت ساتاليا مدينة متسعة ، متينة البنيان ، محاطة بجدران زاهرة بأشجار الفاكهة ، وقائمة في مؤخرة خليج فسيح ، ويشمل أهلها الكثيرون ثلاثة عناصر رئيسية متميزة : العرب المسلمين ، والروم ، واليهود ، ويقوم كل عنصر في حى خاص تحيط به أسوار ؛ وفي ضاحية مينا Mina (٨٤) تجار مسيحيون ، من أصل غربي (٨٥) ، لأنهم يذكرون على حدة الى جانب اليونانيين ، ويضطرون الى غلق أبواب حجهم عندما يجز الليل ، ووقت صلاة الجمعة عند المسلمين . وكانت الأسواق والمتاجر الجميلة المنسقة قائمة في حى الأتراك (٨٦) .

وكان أنشط حركة تجارية هي تلك التي تجرى مع مصر ، وذلك لاستباب عديدة : أولها وحدة الدين ، ثم التعاطف السياسي ، وإذا كان الأمراء التركمان مضطرين للنضال دون هوادة ، أولاً ضد

(٨١) Sanut, p. 89; Uzz., p. 234 ; Atl. Luxoro, p. 114; Muenchen, Karten, Op. cit.; Lelewel, l.c., p. 16; Laon, Chalcoc., p. 244, 377; lehel, l.c., et Mas-Latrie dans la Biblioth de l'Ecole de chartes, 2e série 315.

(٨٢) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٢٥٧ ، أبو الفدا (Géogr., II, 2, p. 135) شهاب الدين ص ٢٤١ ، ٢٧٣ .

(٨٣) Pegol., p. 79 ; Assises de Jérus. II 360.

(٨٤) Edrisi, (II, 134) le nomme Minā imuta.

(٨٥) مع ذلك يذكر Ghistele ص ٣٢٩ أيضاً من سكان ساتاليا مسيحيين يقيمون الكنيسة الأرمنية .

(٨٦) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ٢٥٨ - ٢٦٠ ، كذلك :

— Ludolf von Suthen, p. 35 ; Benfey, Orient und Occident, I, 636; M. Villani, éd. Dragomanni, II, 358; Aboulf. Géogr., II, 2, p. 138, 125.

المقول ، تم ضد العثمانيين الذين واصلوا تقديمهم بجرأة ، فانهم شعروا  
 بالحاجة الى الاستناد الى حليف قوى ، مثل مصر ، وتصديق هذه  
 الملاحظة بنوع خاص ، كما تقول المصادر على أمراء سياتاليا والأجا (٨٧)  
 ومن جهة سلاطين مصر ، فانهم كانوا مرتاحين لزيادة نفوذهم في آسيا  
 الصغرى ، وحصولهم فيها على كل التسهيلات لاستيراد الأشياء الضرورية  
 لبناء قوتهم العسكرية والحفاظ عليها . والواقع أن مينائى سياتاليا  
 وكانديلور كانا يصدران اليهم عبيدا من المسيحيين وأتراكا يجندون بهم  
 جيوشهم . وخشبا ، وقطرانا لبناء سفنهم .

كان سانوتو اذن على حق فى رأيه حين كتب يقول انه لا بد لقطع  
 المؤن عن سلطان مصر من معاملة أترك آسيا الصغرى على أنهم أعداء (٨٨) .  
 ولسوء الحظ لم يكن لدى العالم المسيحي قوة يستطيع بها منع تجاره من  
 تهريب المواد الحربية من آسيا الصغرى الى مصر ، ولم يكن فى مقدوره  
 بالأحرى منع الأتراك من مزاوله هذه التجارة . كانت هذه التجارة  
 تكفل لسياتاليا وكانديلور رخاءا ناميا ، وكانتا ، فى مقابل ما تصدرانه  
 الى مصر من سلع ، تستوردان منها توابل ، وكتان ، وسكر ، الخ (٨٩) .  
 وقد يؤدي هذا بنا الى خلط علينا أن نحترز منه . فعندما نجد مذكورا  
 بين المواد المحمولة الى سوق سياتاليا الفلفل والنيلة ، فان هذا لايعنى بالمره  
 أنه كان يوجد بين هذا المكان وبين الهند حركة تجارية برية ، كما كان  
 الحال بالنسبة الى لاجازو : فلم تكن سياتاليا من حيث المنتجات الداخلية  
 تتلقى مباشرة سوى منتجات آسيا الصغرى ، كالشمع ، والغصن ،  
 وصمغ الكثيرة ، والشب الذى يرد من كوتاهية ويستغرق خمسة عشر  
 يوما ليصل الى غايته (٩٠) .

ومن جهة أخرى كانت أجواخ شبالون Châlons ، وناريون ،  
 وبرنيان ، ولبارديا تباع بسهولة فى هذه السوق ، فقط يتعين أن  
 تكون ألوانها زاهية ، وتكون نصف مجزوة ، فلم يكن فى سياتاليا من  
 يجز الصوف . نرى من ذلك أن تجارة الغرب كان لها مجال تمارس فيه .  
 وهناك ما يدعو الى الافتراض بأن الجنوبيين والبنادقة كانوا بعامة يلعبون  
 أهم دور فى هذه السوق ، كما فى غيرها من الأسواق . وفى عصر

(٨٧) شهاب الدين ، ص ٣٣٧ ، ٣٤٩ ، ٣٣٧ ، وبصفة عامة ص ٣٧٥ وما بعدها .

Sanut., p. 28 et s. (٨٨)

Ibid. p. 29. (٨٩)

Pegol., p. 42, 370, 376. (٩٠)

بيجولوتى ، حصلت شركة باردى Bardi الفلورنسية على امتياز  
بالا تدفع سوى ٢٪ كرسوم للدخول فى ميناء ساتاليا ، ولاتدفع شيئا  
عند الخروج ، فى حين أن التجار القبارصة (٩١) كانوا يدفعون لخبوطهم  
الذهبية ، وشملاتهم ٢٪ عند الدخول والخروج . ويخلاف الرسوم  
الجمركية ، كان المعتاد أداء رسم السمسة بنسبة ١/٤٪ (٩٢) .

وعلى قدر علمنا لم تكن هذه الرسوم الجمركية مبالغاً فيها ، ومع  
ذلك كان التجار المسيحيون يجدون أنفسهم كثيراً عرضة لمضايقات فى  
سوق ساتاليا هذه ، لأن حاكم البلد كان السيد تكيه Tekhe وهو أمير  
تركى وبدأ وضعهم فى وقت ما يبشر بالتحسن ، وذلك فى عام ١٣٦١ . وفى  
أحدى حملات بطرس الأول ملك قبرص ضد المسلمين ، استولى على هذه  
المدينة . ولسوء الحظ لم يدم الاحتلال القبرص هذا سوى اثنى عشر عاماً ؛  
كما أن الهجمات المتواترة التى جعل يشنّها الماهل القديم فى تلك الفترة  
لم تترك السكان المسيحيين لحظة واحدة من الهدوء والسكينة ، وأصبح  
من المستحيل القيام بأية رحلة لأغراض تجارية فى داخل المدينة .

وفى السنة نفسها التى تم فيها فتح ساتاليا ، حظى ملك قبرص  
بنصر آخر ، إذ استولى على مدينة جوريجوس ( كوريكوس ) Gorhigos  
(Corycos) فى أرمينيا : ذلك أن سكان المدينة كانوا يخشون  
الهزيمة أمام هجمات أمير كرمان Caraman القوى ، ويرون ملكهم غير  
قادر على أن يرسل لهم نجدة ، وأنهم أصبحوا يعتمدون على قواهم  
الخاصة ، ومن ثم دب فى نفوسهم اليأس من الخلاص ، فآلقوا بأنفسهم  
فى أيدي بطرس الأول المقدم . وكانت كل فتوحات هذا الأمير فى  
البر تعود سريعاً الى أيدي المسلمين ، وكان الاستيلاء على هذه المدينة  
استثناء من ذلك ، إذ بقيت مستعمرة قبرصية حتى عام ١٤٤٨ ،  
وازدهرت التجارة فيها سريعاً ، خاصة وأن الأهم التجارية المستقرة فى  
قبرص لم تهمل أبداً ملاماً كهذا مفتوحاً على آسيا الصغرى ، وأن أمراء  
كرمان بقوا طوال هذه المدة تقريباً على وئام مع قبرص . وفى حوالى  
١٣٧٥ ، كما يقول المؤرخ سترامبالدى Strambaldi سجل جمرك

(٩١) كان تجار هذه الأمة يزورون بكثرة ساتاليا ، انظر فى ذلك :

els Assis de Jérus., II, 360.

Pegol. p. 42 et s.

(٩٢)

جوريجوس دخلا قدره ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ دوكا ، مما يدل على وجود حركة تجارية كبيرة (٩٣) .

لقد استعرضنا سواحل آسيا الصغرى كلها ، من البسفور الى صقلية ، من وجهة علاقاتها مع تجارة الغرب ، منذ أن خضعت لسلطة الترك . وليس ثمة فائدة من أن نفعل الشيء نفسه مع وسط هذا القطر ( آسيا الصغرى ) ، إذ لا توجد كلية واحدة تحمل على الافتراض بأن التجار المسيحيين قد جالوا به ، أو أقاموا به منشآت (٩٤) . ولكن التجار المصريين والسوريين كانوا وحدهم الذين خاطروا بالتجوال فيه ، وتزلوا كثيرا في مينائي ساتاليا والجا (٩٥) ومن هناك يصلون الى موانئ الشمال ، الى سينوب Sinope وسمسون Samsoun ومنها يبحرون الى سوداك Soudak ، وكافا ، وبيرتش ، ويزورون دولة خانات التتار (٩٦) . وعلى السواحل الشمالية بين بيبثيا القديمة التي احتلها العثمانيون ، وامبراطورية طربزون ، كانت امارة كاستيموني Kastemouni التركمانية تشكل اقليما محصورا شامعا ، يجدر بنا أن نترث عنه قليلا . كانت المدن الساحلية المتراصة على طول هذا الساحل ، وبخاصة ساماسترو Samastro ( اما ستريس القديمة Amastris ، والآن اما سيراه Amasserah ) ، وسينوب ، وسيميسو Simisso . ( اميسوس Amisus القديمة ، واليوم سامسون Samsoun ) . معروفة جيدا لدى ربابنة السفن التجارية الغربية على أنها مواقع للرسو على طريق طربزون ، وكافا ، وتانا ، واحداها ، سينوب كانت مشهورة بانها وكر القراصنة ، ولتبدأ بها . ففي عهد آخر سلاطين إيكونيوم ، تلقى وزيرهم القوي النفوذ معين الدين سليمان المعروف أكثر بلقب يرفانية Pervanèh ( توفي عام ١٢٧٨ ) ، تلقى مدينة سينوب بمشابة اقطاعية له

---

(٩٣) Etude de Mas-Latrie ( 2 et 3 articles ) : Des relations politiques et commerciales de l'Asie - Mineure avec l'île de Chypre Bibl de l'école des chartes 2<sup>e</sup> série, I et II : l'île de Chypre, Paris 1870, p. 205et s.

(٩٤) ومع ذلك فإن الجنوي، دومنيكو دوريا قد تجول في جميع أنحاء البلد ، لأنه زود شهاب الدين بمعلومات عن آسيا الصغرى أكثر وأدق من المعلومات التي زود بها شيخ آخر من شيوخ آسيا الصغرى ، انظر :

Chehab., p. 347 et s., 338.

(٩٥) شهاب الدين ، ص ٣٧٢ ، ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٢٥٧ .

(٩٦) شهاب الدين ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ابن بطوطة ، الجزء الثاني ٣٥٤ .

ركب في سينوب سفينة يونانية انزلته في كيرتس .

ولوزنته (٩٧) . ولم نزل المدينة ملكا له ولذرايه في العصر الذي كتب فيه أبو الفدا كتابه الجغرافي ، أي في حوالي عام ١٣٢٠ .

ووقع خفيد بيرفانيه في نزاع مع الغربيين ، غالبا بسبب أعمال القرصنة التي يزاولها . ففي عام ١٢٩٩ . فاجأه وأسره في قصره بحارة سفينتين تجاريتين ( ربما جنويتين ) ، ونقلوه أسيرا الى أوروبا ، ولم يسترد حريته الا في مقابل فدية كبيرة (٩٨) . وثمة سليل آخر لبيرفانيه ، معاصر لأبي الفداء ، اشتهر بأنه قرصان لا يرجي صلاحه (٩٩) ، ولعله هو نفس الشخص الذي تلقاه باسم غازي شلبي Ghazi-Tehélebi وهو غواص بارع ، أغرق سفنا يونانية ، بشق فتحات في قاعها ، تدخل منها المياه (١٠٠) ، أو باسم زلبي Zalabi ، أو شلبي (١٠١) ، هاجم مرة بعد أخرى في عامي ١٣١٣ ، ١٣١٤ بدرجات متفاوتة من النجاح سفنا جنوبية بالقرب من كافا (١٠١) .

وعندما شن أولى هذه الغارات كان حليفا لأمبراطور طربزون ، الأمر الذي لم يمنع أتراك سسينوب أن يغيروا على هذه المدينة بعد بضع سنين ( في عام ١٣١٩ ) ويحرقوها كلها تقريبا (١٠٢) . ولاشك أن غازي شلبي هذا هو الذي استضاف في عام ١٣٢٤ بعض الجنوبيين الجولقيين ، ثم نصب لهم غدرا وخيانة ذلك الكفين الذي سبق أن تكلمنا عنه في وقته (١٠٣) . وبعد وفاة هذا الرجل الشرير ، انتقلت سينيوب في حوالي عام ١٣٣٠ الى سليمان أمير كاستموني ، وبقيت في أسرته حتى النهاية . واستمرت القرصنة في عهد هذه الأسرة كما كانت في الماضي .

Defrémery, étude sur Ibn-Batouta, dans les Nouv. annal. (٩٧) des voyagè (1851, II, 57; D'Ohsson, Hist. des Mongols, IV, 500.

D'Ohsson, l.c.

(٩٨) أبو الفدا ، Géogr II, 2, p. 146.

(١٠٠) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ٣٥٠ . خطأ السيد هامر Hammer

(Gesch. des osm Reichs, I, 37, 39).

إذ يقول إن غازي شلبي هذا هو آخر سلالته ، سلاطين أيكونيوم

(١٠١) معاهدة عام ١٣١٤ بين جنوا وطربزون :

inédi, et Contin de Jacq. de Voragine (Atti X) p. 502.

Chronique de Panaretos, publ. par M. Feilmerayer, p. 15, 45.

(١٠٣) Le Contin. de Jacq de Voragine, p. 506; Stella p. 1051 et s. et Gius-tinianl, p. 122.

(١٠٤) ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ . شهاب الدين ، ص ٣٤٠ ،

=

٣٦١



وفي عام ١٣٤٠ أسر أسطول يضم اثنتي عشرة سفينة حربية من سينوب (١٠٥) الكثير من السفن الجنوبية والفينيسية وغيرها ، وبقي الأسطول بالميرصاد مستعدا لمهاجمة قافلة أخرى ينتظر قدومها من تانا ، حين وصل الأميرال الجنوي سيمون دي كوارتو Simon de Guarto الى البحر الأسود ومعه سبع سفن كبيرة محملة بالبضائع .

وما أن دخل ميناء كافا حتى أنزل الى البر حمولة السفن وجهزها بعتدات حربية ، وأكمل أسطوله بضم عشرين سفينة أقل حجما ، جهزها في كافا ، واذ تاهب على هذا النحو ، فانه مضى لملاقاة السفن التركية ، فأغرق عشر سفن منها ، واستولى على ما فيها من غنائم ، وقتل كل بحارتها . هذا المثال يثبت أن السلاجقة لم يكونوا في البحر الأسود ، وفي الأرخييل جيرانا مناسبين لتجارة الغرب . ورغم كل شيء ، كانت سينوب تتمتع بميزة أنها في الشمال ، مثل الطولوجو في الغرب ، سوقا لتجارة الغرب ، كما كانت وكرا للقراصنة ، ذلك لأن ميناءها كان ممتازا ، وموقعها قد أحسن اختياره ليكون مأوى للسفن التجارية المتجهة الى طربزون . ثم أن وفرة السمك على طول السواحل ، والثروات المنجمية في الضواحي كانت تشكل شحنة متاحة لن يطلبها . وعلى خريطة لورنتيانا Laurentiana لعام ١٣٥١ نرى فوق سينوب علما جنوبيا (١٠٦) ، الأمر الذي يثبت بالتأكيد أنه كان يوجد في تلك الآونة قنصلية لتلك الأمة ، مع أن أول وثيقة تشهد بوجودها ترجع الى عام ١٤٤٩ .

وكان للبنادقة أيضا في سينوب مستعمرة تجارية يدير شئونها قنصل ، يساعده مستشاران ، ومجلس مكون من اثني عشر عضوا : وفي حوزتنا محضر جلسة من جلسات هذا المجلس ، انعقدت في كنيسة القديسة ماري في سينوب (١٠٧) ، وكان موضوع الجلسة يتعلق بهدية تقدم لسيد المدينة ، وكان المفروض أن يحمل الهدية شخص يدعى جوجلييلمو دي

= ويطلق شهاب الدين على الحاكم الذي أقامه على سينوب ابراهيم أمير كاستموني . ابن سليمان اسم « الغاري شلبي » ، ولعل هذا خلط في الأسماء . وفي هذا الخصوص نشيح تردد كبير لدى المستشرقين .

Stella, dans Murat., XVII, 1076.

(١٠٥)

- تطلق المصادر الغربية كثيرا على السادة ( الحكام ) لسينوب لقب « شلبي » .  
Tchélebi ( سيد ) ، وهذا ما سبق إن رأيناه في خصوص أمراء الطولوجو .

Atti della Soc. Lig., V, 133.

(١٠٦)

Filiasi, Memorie storiche dé Veneti primi e secondi, VI, 2, et Marin, IV, 90 et s.

سكاربانغو Guglielmo de Scarpanto فد في مهمة لدى الأمير . ولما لم يكن لسيثون أمير الا في العصر التركي ، وكانت قيمة الهدية مقدره بالدوكات التركية ، فان هذه الوثيقة التي لا تحمل لسوء الحظ تاريخا لا يمكن أن تنتمي الى عصر السيادة اليونانية التي تخلصت منها سينوب منذ عام ١٢١٤ (١٠٨) ، ولا بد أنها كانت في عصر السيادة التركمانية . ولا بد أن المستعمرة الفينيسية في سينوب عاشت فيها زمنا طويلا ، وهذا على الأقل ما قد يستخلص من قراءة الوثيقة المشار إليها : فكلمة consolida يسبقها رقم ٩٩ (١٠٩) ، وفي ذلك يقول ماران Marin ان هذا الرقم الذي دونه القنصل جريجنولو Greignuolo الذي كان يشغل منصبه وقتها رقم يدل على الترتيب في سلسلة رؤساء المستعمرة في سينوب . غير أننا لا نجد هذا النظام الرقمي في أية وثيقة حررها القناصل . ونفترض أن هذه العلامة ليست الا ايجازا اصطلاحيا اعتبرها السيد فيلياس رقم ٩٩ ، وليس الغرض من هذه الملاحظة التشكيك في طول حياة هذه المستعمرة .

والى الشرق من سينوب ، يصادف الملاح منباء آخر له علاقات نشيطة للغاية مع القرم ، ولا شك أيضا مع طربزون وأميسوس القديمة (١١٠) التي سماها الغربيون في ذات العصر سيميسو Simiso وبامعان النظر في هذا الاسم نجد أنه بالأجمال ينطبق على مدينتين متجاورتين ، مدينة سيمسون التركية Samsoun التي كانت فيما مضى تابعة لأمير كاستيموني التركماني ، ثم أصبحت تابعة لسلاطين آل عثمان (١١١) ، ومدينة سيميسو المسيحية .

وفي العصر الذي قام فيه أمراء يونانيون طردهم اللاتينيون من القسطنطينية بتأسيس امبراطوريتي طربزون ونيقية الجديدين ، كان في مدينة أميسوس المسيحية حاكم يتمتع ازاء الامبراطوريتين باستقلال شبه تام (١١٢) . ترى في أى عصر وبأية وسيلة استطاع الجنويون أن يصيروا

Fallmerayer, Geschichte von Trapezunt, p. 94 et s. (١٠٨)

M. Filiasi. (١٠٩)

(١١٠) كانت السفن الحربية الفينيسية المتجهة الى طربزون ترسو أيضا عند سيميسو ،

كثيرا ، أو بانتظام :

Misti, lib. 7 (1322-1324), dans l'Archiv. Venet., XVIII, 329.

Hammer, Gesch dans des osman, Reichs, I, 227, 374. (١١١)

Fallmerayer, Gesch von Trapezunt, p. 55-57. (١١٢)

سادة المدينة ؟ وهل حلوا مباشرة محل الروم أو الترك ؟ هذى نقاط يفشاها ظلام لا قدرة لنا على تبديده . على أنه فى وسعنا أن نثبت بما فى أيدينا من مستندات وجود قنصلية فى سيميسو اعتبارا من عام ١٣١٧ (١١٣) ، غير أن انشاء هذه القنصلية يرجع غالبا الى تاريخ سابق .

وعلى خريطة لورنتيانا لعام ١٣٥١ ، يعلو موقع هذه المدينة أيضا علم جنوى ، والبيان هنا له ما يبرره أكثر مما فى حالة مدينة سينوب ، فالواقع أن القنصل فى سينوب كان فى أرض أجنبية ، فى حين أن منصب القنصل فى سيميسو فى أرض جنوية .

وسوف نعود الى هذه النقطة فى الفترة التالية ، ونتكلم فيها أيضا عن مستعمرة جنوية أخرى ، هى مستعمرة سامسترو Samastro

ونحن اذا تتبعنا الساحل الشمالى لآسيا الصغرى متجهين ناحية الشرق ، نصل الى امبراطورية طربزون المسيحية . الا أن تاريخ هذا البلد يستحق أن نفرده له فصلا خاصا ، مثله مثل تاريخ مملكة أرمينيا المسيحية . وكان فى وسط آسيا الصغرى أيضا ، بين امبراطورية طربزون وأرمينيا منطقة تركية ، ولكنها ليست ذات أهمية فى دراسة الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، اللهم الا لأن الطريق التجارى الكبير الممتد من آسيا الصغرى الى فارس يجتاها ، وهناك على مشارف آسيا الصغرى توجد سيفاس Sivas التجارية ، وسوف نتكلم عنها فى فصل آخر .



## الجزء الثاني الفترة الثانية

٢ - نمو تجارة الشرق الأدنى

على أثر انفتاح القارة الآسيوية

- ( من أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر القرن الرابع عشر )
- (ب) تيار التجارة القديم من الشرق الى البحر المتوسط عن طريق الجنوب .



## أولا - قبرص

فى الفترة السابقة ، كانت سورية ، وهى تحت سيطرة الفرنجة ، مركزا من أهم المراكز التجارية . وفى غضون الفترة التى ندرسها الآن ، بدأت جزيرة قبرص ، وأرمينيا الصغرى وهما بمثابة حارسيتين لمراكز العالم المسيحى الأمامية (١) ترثان معا الرخاء التجارى الذى كانت تتمتع به الدول التى أسسها الصليبيون . كانت أرمينيا الصغرى تتمتع - تبعا لموقعها فى القارة بجزيرة كبيرة تتمثل فى تلقى البضائع الواردة من داخل آسيا عند ملتقى طرق القوافل ، فى حين كان من الضرورى عبور البحر ، ولو أنه لمسافة قصيرة للوصول الى قبرص ، وتحمل كل المتاعب الناجمة عن نقل والبضائع على متن السفن وارتفاع نفقات النقل . غير أن وضع أرمينيا الصغرى كان من ناحية أخرى وضعاً شاذاً وكانت الطرق الواقعة فى أقصى الشمال ، بين كل الطرق التجارية المتجهة صوب البحر المتوسط . هى وحدها التى تنتهى عندها .

(١) يصف فيليب دوميزير

(Mas Latrie, Hist. de Chypre, H, 387) Philippe de Malzières.

قبرص . يأتيه « الحد القوى الضرورى للعالم المسيحى الكاثولىكى » .

أما قبرص ، فعلى العكس من ذلك كانت بمثابة مركز تدور حوله كل هذه الطرق ، وحسبنا اثباتا لذلك أن نرسم على الخريطة اتجاهات الرحلات بخطوط تمتد من الجزيرة الى موانئ الجوزات Iajazzo واللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، والاسكندرية . وثمة عيب آخر فى موقع أرمينيا الصغرى ، ذلك أنها كانت شديدة التعرض لغارات جيوش سلطان مصر ، والدمار الذى تسببه ، فى حين كانت قبرص ، لاحاطتها بالبحر من كل الجهات ، فى حى من هجمات ، لأن قوة مصر كانت غالبا فى جيوشها البرية . أكثر منها فى جيوشها البحرية . وأخيرا كانت قلبه Cilicie معروفة بمناخها الضار بالصحة ، فى حين كان مناخ صقلية أكثر ملاءمة لها .

وسوف نتحدث طويلا فى الفصل التالى عن القراوات ( البرابات ) البابوية التى صدرت بعد سقوط عكا مباشرة ، تحظر كل تعامل تجارى مع المسلمين . وكان لهذه الأنواع من التحريم بالضرورة أثرها فى عالم التجارة : فاعتقد بعضهم أنهم ملزمون بإيمانهم أن يبتعدوا عن السواحل التى شملها التحريم ، وخشى البعض الآخر العقوبات الصارمة التى تتهددهم ، وحرص آخرون على تجنب الوقوع فى أسر السفن الحربية المكلفة بطاردة « المسيحيين الفجار » . أما ملوك قبرص فانهم تحمسوا لتنفيذ الحظر ، حساسة لا تخفى ما تتضمنه من أغراض نفعية . فالواقع أنه اذا كانت التجارة مع مصر وسورية قد أصبحت عرضة للتوقف أو محفوفة بالصعاب ، فقد اضطر التجار المسيحيون للبحث عن سوق أخرى ، ومن ثم كانت قبرص « آخر بلد مسيحي » متاح لهم بطبيعة الحال ، حسب تعبير لودولف دو سوديم Ludolphe de Sutheim

وتبين للكثير من البيوت التجارية التى كانت فيما مضى تملك فروعا ناجحة فى عكا ، وبيروت ، وطرابلس أن قبرص سوف ترث القسم الأكبر من التجارة بين الشرق والغرب ، ومن ثم اتخذوها مقرا لهم (٢) - وحين اضطر سكان مدن سوزية الساحلية الى الفرار ، لجأوا الى قبرص مؤقتا ، وارتاح بها معظمهم فعدلوا عن العودة الى أوطانهم ، ورأينا أكثر من بارون أفرنجي يتعزى عن ضياع قصر له فى سورية ، ويطلب من الحكام من أمرة لوزينيان Lusignans اقطاعية جديدة ، أو وظيفة فى البلاط .

وسرعان ما أدركت حكومات الأمم التجارية الغربية ازدياد أهمية جزيرة قبرص ، فبادرت بما يانشاء مستعمرات بها ، والمطالبة بمزايا لمواطنيها ، واما بزيادة الامتيازات التى حصلت عليها فيما مضى من ملوك

Doc. sulle relaz tosc., p. 110 et s (no D et G).

(٢)



الجزيرة ٠ أما عكا فانها سقطت في ١٨ من مايو عام ١٢٩١ : وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها حصل التجار القطلونيون من الملك هنرى الثانى من أسرة لوزينيان على امتياز يكفل لهم رسماً منخفضاً قدره ٢٪ على الاستيراد والتصدير ، يخفض بمقدار النصف للتجار المارين بالجزيرة (٣) . وفي الشهر نفسه حصل البيزيون على الامتياز نفسه ، بالإضافة الى الحق فى انشاء قنصليات ، وغير ذلك فى كل ما يطيب لهم من أنحاء الجزيرة (٤) ، ولعل هذا تعزيز للامتيازات القديمة التى منحها اياهم جى دولوزبينان ، وعلى أية حال فثمة مجموعة من الموائيق الخاصة لسنوات ١٢٩٣ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣١٠ ، ١٣٢٠ تكشف لنا البيزيون المقيمين بجهات مختلفة من الجزيرة وهم يزاولون بهمة أعمالاً تجارية ٠ ويبدو أن ليماسول Limisso كانت فى العهود الأولى مقرهم المفضل ، يمتلكون بها داراً عامة Logia Pisani comunis domus ، يمكن القول عنها ، دون خوف من الخطأ أنها كانت قنصلية (٥) ، بينما لا نجد فى حوالى عام ١٣٠٠ فى لافامجوستا الا القليل من البيزيون المنعزلين ، وليس بها أى موظف استعماري (٦) .

وبخصوص جمهورية جنوا ، فإن سقوط الدول الصليبية فى سورية كان متزامناً مع أحداث ضارة ، فقامت مصاعب خطيرة بينها وبين الملك هنرى الثانى ، وشيئاً فشيئاً ، فى عهد ( الثنائى ) ايبلان Ibelin ازيداد تراخى الحلف المنعقد المعزز خلال الفترة السابقة . فهل نحتاج الى دليل يثبت ذلك ؟ كان بنديتو زكاريا Benedetto Zaccaria مزوداً من قبل الجمهورية بأوسع السلطات التى تخوله الدفاع عن مصالحها فى الشرق الأدنى حيث كان يقيم بصفة دائمة ، ومن ثم عقد فى ٢١ من سبتمبر ١٢٨٨ معاهدة مع الملك ، ولكن حكومته تنصلت من تصرفه هذا اذ بدا لها أن المعاهدة تفرض على الجمهورية التزامات ثقيلة ٠ وبئذ الملك جهوداً غير مجدية لحمل الجمهورية على التصديق على المعاهدة ، ولكنه أدرك أنه سيصطلم برفض تام ، ومن ثم قرر إلغاء المعاهدة من ناحيته ( ١٧ من مايو ١٢٩٢ ) (٧) ، وهذا هو ما كان فى وسعه أن يفعله .

Capmany, Memor., II, 56 et s. (٢)

Doc. sulle relaz. tosc., p. 109 et s. (٤)

Ibid. p. 109-111. (٥)

Archiv de l'Or. lat. II, 2, p. 10, 80, 38 et s., 52 74, 8, 6, 103. (٦)

Anna. Jan., p. 322; Lib. jur., II, 275 et s. (٧)

واستمر النزاع حتى عام ١٢٩٨ ، وأخيرا نجح سفيران جنويان ، لانفرانكو سبينولا Lanfranco Spinola و ايجيديدو دي كوارتو Egidio di Quarto في حمل الطرفين على الموافقة على تسوية تحدد بنودها بدقة المزايا القنصلية للجمهورية ، بحيث تزيل أسباب الخلاف (٨) .

وبعد سقوط عكا ، اهتم البنادقة اهتماما شديدا بالتجارة مع قبرص . وفي عام ١٢٩٢ ، استشعروا قرب اندلاع حرب مع جنوا ، فبادروا بارسال قافلة من خمس عشرة سفينة كبيرة مسلحة الى قبرص وأرمينيا الصغرى تحمل تجارا وبضائع (٩) . ونشبت المعارك فعلا بعد قليل ، وتركزت بنوع رئيسي في هذه البقاع ( معركة « الجوزات » البحرية عام ١٢٩٤ ) .

وزاد الطين بلة ظهور القراصنة الجنويين في مياه قبرص (١٠) ، وكانوا يفضلون مهاجمة السفن الفينيسية (١١) ، فان تجارة البندقية مع قبرص عانت كثيرا من الأزمات خلال السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر . وفي الجزيرة نفسها ، حاق بالبنادقة في عام ١٣٠١ ضرر كبير ، على أثر رفع ثمن الملح الى ضعف ما كان عليه في السنة السابقة (١٢) . ومع ذلك اهتمت الجمهورية اهتماما كبيرا بالمحافظة على علاقاتها القديمة بهذه المملكة . وفي عام ١٣٠٢ قرر مجلس الشيوخ ايفاد سفير الى الملك هنري الثاني . وفي حوزتنا نص التعليمات التي دونت له (١٣) .

نجد في هذه التعليمات المطالب الآتية : أولا ، أن يعفى البنادقة من ذلك الحين من الضريبة المقررة عند وصولهم ، وعند رحيلهم ، وعند اقامتهم بالبلد . ثانيا ، يمكنهم أن يحصلوا بالمجان ، أو بمقابل عند اللزوم على كنائس ، وأحياء ، ومستودع lobia وسوق Platea في مدن نيقوسيا ، وليماسول ، وفاماجوستا ، وإذا استدعاهم للثول أمام القضاء بعض مواطنيهم ، أو بعض الأجانب ، فلا يجوز احوالهم الى محاكم خلاف محاكمهم الخاصة . وأخيرا ، فان أموال البنادقة الذين يتوفون أو يفرقون

Pagano, Delle imprese e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 24 ; Canale, Nuova istoria di Genova, III, 230. (٨)

Annal. Jan., p. 353. (٩)

Assis, de Jérus; 11, 363, 368. (١٠)

M. de Mas Latrie, dans les Nouvelles preuves de l'hist. de chypre, Biblioth. de l'Ecole des chartes XXXIV, 1873, p. 50 e tss.; Romanin, 400 et s. (١١)

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 99 et s. (١٢)

Ibid, Nouvelles preuves, l.c., p. 54 et ss. (١٣)

تبقى في حوزة ملاكها الشرعيين . وفى مقابل ذلك تأذن حكومة البندقية لسفيرها أن يعقد صلات صداقة قوية مع الملك ، وعليه فضلا عن ذلك أن يصرح بأن البنادقة المقيمين بالمملكة على استعداد لأن يسهموا بأشخاصهم في الدفاع عن أماكن إقامتهم ضد أى عدو يغير عليها ، بشرط ألا تمنعهم هذه الخدمة من السفر .

ولم تتم الموافقة على هذه الاقتراحات دون مشقة لأنه كان لا مناص من إيفاد بعثات متعددة من أحد الطرفين الى الطرف الآخر (١٤) . ولم يتم النص على بنود المعاهدة الا فى عام ١٣٠٦ ، وكان هنرى الثانى وقتئذ ضحية دسائس أخيه أمورى Amaury الذى استقبل السفير البندقى فيتالى ميشيل Vitali Michiel ، بصفته وصيا على العرش ، ووافق على إلغاء الضرائب على التجارة إلغاء تاما . وبخصوص الكنائس ، والمستودعات ، ودور الادارة (١٥) ، والأراضى الفضاء التى طلبتها الجمهورية فى المدن الثلاث المذكورة بعاليه ، فانه اشترط أن تشتريها الجمهورية ، وأذن للبنادقة الذين يريدون الإقامة بها أن يشيدوا منازل فقط ، لا قصورا حصينة ووافق الوصى على الفقرات الخاصة بالقضاء ، وبأموال البنادقة المتوفين والغرقى ، ولكنه احتفظ لمحاكمه بالاختصاص فى الدعاوى الجنائية ، ووافق على بعض مطالب الادارة المالية ليراث المتوفين ، وقبل عروض الخدمات المقدمة باسم الجمهورية بكل حذافيرها طبقا لتعليمات عام ١٣٠٢ ، ووضع فوق ذلك شرطا اضافيا يقضى بأن يقسم كل بايل اليمين عند استلامه الوظيفة ألا يعطى أجنبيا شهادة الجنسية الفينيسية ليستمتع بالمزايا المخصصة لمواطنيه ( أى البنادقة ) ، وأن يقسم المستوردون البنادقة اليمين وهم يقدمون للحزب اقرارا بوضائعهم أمام موظفى الملك بأنه ليس فيها شيء يخص رعايا غير بنادقة (١٦) . وعندما استعاد الملك هنرى الثانى سلطته ، قدمت البندقية اليه هذه المعاهدة ليصدق عليها ، وليس ثمة ما يدعو للشك فى أنه لم يصدق عليها . وكان على المندوب الموفد بمهمة تقديم المعاهدة ليصدق عليها الملك أن يبقى فى قبرص بصفة بايل (١٧) اذ نجحت مهمته . ثم ان هذا المنصب كان موجودا من قبل .

Publiques des Misti, dans l'Archiv. Venet., XVII, 134; XVIII, (١٤)  
315.

Voyez le decret du sénat de 1333 : Bibl de l'Ecole des chartes, (١٥)  
1874, p. 99.

Mas Latrie, Hist de Chypre, II, 102-108. (١٦)

Arch. Venet., XVIII, 317. (١٧)

وهكذا فالثابت أنه قبل انقضاء عشر سنوات على سقوط عكا ، كانت المراكز التجارية الأربعة الكبرى في ذلك العصر ، البندقية ، وجنوا ، وبيزا ، وبرشلونة قد نجحت في نقل مستعمراتها السورية الى جزيرة قبرص ، كما أن جالياتها التي كانت تملك من قبل بالجزيرة متاجر . وسعت هذه المتاجر وضاعفت أعدادها (١٨) ، غير أن هذا البيان لا يكفي ، ولا بد من بذل جهد كبير لرسم صورة واقية للحياة التجارية في قبرص في بضع السنين هذه ، ولا يتيسر ذلك الا بعد نشر العقود الجنوبية المسجلة في فاماجوستا بالكامل ، وهو العمل الذي تولاه السيد ديزموني M. Desimoni . ولسنا نعرف الا بداية هذا النشر الذي يضم قرابة ٢٢٠ وثيقة من ٢٦ ديسمبر ١٢٩٩ الى ٢٧ من أغسطس ١٣٠٠ (١٩) . وانا لندهش اذ نرى منذ السنين الأولى لمعهد الرخاء في قبرص جمعا خليطا من التجار ، والصيارف ، وأصحاب السفن الغربية يعملون بهمة ونشاط . وكان الجنويون بديارهم ومجالسهم وموظفيهم الاستعماريين يحتلون بطبيعة الحال المرتبة الأولى في الجزيرة ، كما أن البنادقة مع بايلهم وفي مجالسهم ، والآنكوثيين مع قناصلهم ، والبيزيين ، والفلورنسيين ، وأهالي مسينا ، وكلاء البيت التجارى الكبير « سكوتى » Scotti (٢٠) كانوا يظهرون فيها بمظهر لائق . ويمثل فرنسا بالجزيرة أهالي من ناربون ( ولهم فيها قنصل ) ، ومونبيليه ، ويمثل أسبانيا تجار من برشلونة ، وساراجوسا ( سرقسطة ) Saragossa ، وتاراجونة Tarragone . وسوف نتكلم بنوع خاص عن معظم هذه الأمم ، ولا نريد هنا الا لحة عن تشكيل هيئة التجار في قبرص في عام ١٣٠٠ .

بينما كانت معالم الحياة التجارية مركززة في فاماجوستا (٢١) ، كان مقر البلاط ، والنبلاء ، والحكومة في نيقوسيا ، داخل الجزيرة . وكان موقع

Arch. de l'Or. lat., II, 2, p. 85, 89, 73-75. (١٨)

(١٩) عقود مبرمة في فاماجوستا أمام موقف العقود الجنوي لامبرتو دي سامبوتشيتو ( الجزء الأول ) في : .

— Archiv de l'Or. lat. II, 2, 1882, p. 1-120.

Ibid, p. 55.

(٢٠)

يمتضى عقد مبرم في ٢١ من يولية ١٣٠١ في فاماجوستا بين هذا البيت وبضعة بيوت أخرى في المدينة نفسها من جهة ، وبين صاحب ( أو مجهز ) سفينة جنوى من جهة أخرى . يلتزم هذا الأخير بشحن بضائع تخص تلك البيوت ، وذلك في الجوزات وينقلها مباشرة الى مرسيليا وايج مورت . والبضائع المشار اليها هي القطن والسكر وشجر البقم ، والقرفة ، والماج ، والزنجبيل ، والبخور ، والنيلة ، والصوف .

Ludolph, p. 32 ; Pegol., p. 64

(٢١)

فاما جوستا على الساحل الشرقي يضمن لها مزية كبيرة على ليميسو القائمة على الساحل الجنوبي . ولأنها قريبة كثيرا من موانئ سوريا كلها ، وقبلتها ميناء الجوزات في أرمينيا الصغرى ، كانت مركزا تتجه إليه كل منتجات الشرق . وفي العصر الذي عاش فيه بيلوتى Piloti (حوالى عام ١٤٤٠) كان أزهى عصور فاما جوستا مجرد ذكرى ، ومع ذلك اليكم الصورة التي يرسمها عنها ، اذ يقول : « كانت كل القوافل المحملة بالتوابل تصل الى بيروت وطرابلس السورية حيث يشحنها الأهالى على متن سفنهم لتنقلها الى فاما جوستا ، وتحمل هذه السفن أيضا القطن وسائر منتجات سوريا . وفي فاما جوستا تتلاقى أهم المغرب كلها ، وتمارس أعمالها التجارية » (٢٢).

وفي تاريخه الذي يمتد الى عام ١٤٣٢ ، يذكر ليونتيوس ماشير Leontios Machaires القبرصى أنه فى عهد بطرس الأول كان يرد من سورية بضائع الى فاما جوستا ، وكان البنساذقة والبيزيون والجنويون والفلورنسيون والقطلونيون يأتون ثمة طلبا لهذه البضائع لأن البابا حظر عليهم المضى الى أبعد منها ، فكان ذلك كسبا « لفقراء القبارصة » (٢٣) . ويعرض علينا بيجولوتى Pegolotti (٢٤) الذى أقام فى جزيرة قبرص فترتين ، الأولى من ١٣٢٤ الى ١٣٢٧ ، والثانية عام ١٣٣٥ بصفته وكيلًا لبيت باردى ، قائمة طويلة للسلع الموجودة بالسوق : فلم يغف عنها شيء من منتجات الشرق النفيسة التى يطلبها الأوروبيون فى العصور الوسطى .

وفي هذا العصر وجد السائح الألماني لودولف دو سوديم Ludolphe de Suthem فى فاما جوستا كميات هائلة من التوابل ، ويؤكد أنها كانت هناك شائعة شيوع الحيز فى ألمانيا ، وكان فى قباه تاجر من تجار السلع الغذائية فى المستعمرات كميات من خشب الصبر أكثر مما يمكن جملة على خمس مركبات ، وآثر ألا يتحدث عما رآه من أحجار كريمة ، ودياج مذهب ، وأشياء أخرى ثمينة من هذا النوع ، لأن مواطنيه لن يصدقوه . وفى رأيه أن تجار هذه المدينة يتمتعون بثراء فاحش ؛ وأنهم أغنى من تجار أية مدينة أخرى ، غير أن الرفاهية والإباحة كانا متناسبين مع ما بها من ثروة . وكانت هناك منافسة كبيرة بين التجار .

Reiffenberg, Monuments pour servir à l'histoire des provinces de Namur, de Hainaut et de Luxembourg, IV, 366. (٢٢)

Chronique de Chypre, texte grec, éd. Miller et Sathas (Paris 1882), p. 48 et s. (٢٣)

Pratica della mercatura, p. 48 et s. (٢٤)

والمسافرين من كل البلاد : ففي فاماجوستا ، وفي جزيرة قبرص بوجه عام ، يمكن دائما معرفة كل ما يجرى تحت الشمس (٢٥) .

ولم يكن يجذب هذه الجموع الكبيرة من التجار الى قبرص ، وبخاصة فاماجوستا السلع النفيسة المستوردة من قلب آسيا فحسب ، ولكن أيضا منتجات الجزيرة نفسها . ومن هذه المنتجات ، يشغل السكر والملح المرتبة الأولى . وكان قصب السكر متوفرا للغاية في ضواحي ليميسو ، وبافو Baffo ، وتجرى صناعة السكر بوجه عام وسط المزارع نفسها .  
ومن كبار ملاك العقارات ، زارعى السكر ، والقائمين بتكثيره أسرة كورنارو Cornaro . وكان الملك في حقوله ، وفرسان القديس يوحنا في أراضيهم الشاسعة في كولوسي Colossi يصنعون السكر الذي يشتري البنادقة معظمه ، وينتشر من البندقية الى الغرب كله (٢٦) .

أما الملح فكان يستخلص على ضفاف البحيرتين الواقعتين بالقرب من ليماسول ولارناكا Larnaca ( ملاحات ) (٢٧) ، فيدخل فيهما ماء البحر ، ويترسب الملح ثمة بعد تبخر المياه في حرارة الصيف . وكانت هذه الملاحات الطبيعية في العصور الوسطى (٢٨) أكبر مما هي عليه في الوقت الحاضر ، ويحتكر الملك إنتاجها ويبيعه (٢٩) . ويبدو أن البنادقة أيضا هم الذين يشترون أكبر الكميات من الملح (٣٠) . والحقيقة أن الملح كان في كل زمان من السلع الرئيسية في تجارتهم (٣١) .

ولا يجوز ، في مجال الحديث عن منتجات قبرص الطبيعية أن ننسى

---

Ludolph, p. 32-34

(٢٥)

(٢٦) مزيد من التفاصيل انظر مادة « السكر » بالفصل الخاص بالسلع التجارية ..

(٢٧) نجد في هذا الخصوص شروحا في قصص الرحالة :

— Steph. v. Gumpeneberg, p. 244 et s., Ghsitele, p. 250 et s., Georg. Gemnicensis, p. 614, Pietro Casola, p. 86, 87, Hans Stockar (Schaffh. 1839), p. 32-34. Rahrict et Meisner, Deutsche Pilgerfahrten, p. 325, 382 et s., Conrady, Vier rheinische Pilgerfahrten, p. 245.

MM. Unger et Kotschey, Die Insel Cyprn, p. 8 et ss.

(٢٨)

Mas Latrie, II, 100; III, 237, not. 1, 554 et ss., 560 et ss.; Pegol., 37;

(٢٩)

Monumenta spectantia historiam Slayorum meridionalium, I, 142; Mas-Latrie, II, 100.

(٣٠)

Marin, V, 42-58.

(٣١)

تبيئها الممتاز (٣٢) ، أو القطن ذا الجودة المتوسطة بين قطن سوريا وقطن جنوب إيطاليا ، وصفلية ، ومالطة ، أو « النيلبة » التي تقل كثيرا في جودتها عن نيلة بغداد ، أو « لادن » ( صمغ راتنجي يستعمل في صنع العطور - المترجم ) ، أو الحنظل (٣٣) ، أو الحروب (٣٤) .

فإذا انتقلنا من الحاصلات الطبيعية الى المنتجات المصنعة ، صادفنا غالبا منسوجات تدل أسماؤها العربية (٣٥) على أن نماذجها الأصلية واردة من قارة آسيا . وفي فاما جوستا ونيقوسيا (٣٦) ، تصنع من مواد مختلفة « الشملات » القبرصية المشهورة (٣٧) المطلوبة في مصر وسوريا (٣٨) ، وآسيا الصغرى (٣٩) ، وتباع بأثمان مرتفعة في الغرب (٤٠) . وفي عام ١٣٩٨ أوفد لويس الثاني دوق بوربون دليلا له الى قبرص ، وكلفه أن يشتري له « شملات » رقيقة ، حمراء وبضياء . ونجد في الكثير من الدفاتر التجارية ، وقوائم الجرد المحررة في الغرب اشارة الى عدد من قطع الشملات . ونجد كثيرا الى جانب هذا البيان اشارة الى جزيرة قبرص باعتبارها المصدر الأصلي .

وكانت صناعة الخيوط الذهبية ، والاقمشة الحريرية المختلطة ، أو المطرزة ، أو الموشاة . بشرائط متناسبة مع جزيرة قبرص حتى أن

---

(٣٢) في العصور الوسطى كان نبيذ قبرص يعتبر ملك الأتربة ، ويقدم على موائد الأمراء ، وكان كل الحجاج الذين يمرون بقبرص يلهجون بمدح هذا النبيذ : Pegol., p. 67.

— Schultz Hopsches Leben, I, 298 et ss; Ludolph de Southeim, p. 34, Boldensele, p. 241. Wilber. v. Oldenb. p. 180; Innominatus III, dans Tobler, après Théodoricus, p. 129, 130.

Pérol., p. 64; Pasi, p. 141 b-142 a; Mas-Latrie, III, 535. (٣٣)

Pegol., p. 67; Pasi, l.c.; Casola, p. 49, 88; Mass-Latrie, II, 499; III, 300 et s. (٣٤)

Voir le chapitre de Pegolotti sur Chypre, p. 65. (٣٥)

Mas-Latrie, Hist de Chypre, III, 244, 497, 535, 775, 777. (٣٦)

Ghistele p. 254; Assis, de Jérusalem, II, 361, 365. (٣٧)

(٣٨) بالنسبة الى الاسكندرية والقاهرة وبيروت ودمشق انظر : Piloti, p. 358, 376.

Pegol, p. 42. (٣٩)

Mas-Latrie, II, 448-451 ; Bibl de l'Ecole des chartes, série (٤٠) VI, vol. I, p. 348, et s; Pasi, p. 886, 142, a; Chiarini, p. LXXIX a.

الخيوط الذهبية كان يطلق عليها « ذهب قبرص » (٤١) ، كما عرفت. المنسوجات الحريرية هناك باسم « جوخ قبرص الذهبى » (٤٢) . ومن قبل ، فى عام ١٣٠٠ كانت كنيسة القديس بطرس بروما تملك زخارف تسمى « مشغولات قبرصية » de opere Cyprensi (٤٣) . وسوف نتحدث فى فصل خاص عن منسوجات حريرية وقطنية وكتانية أخرى منتشرة فى سوق قبرص . ولم يكن عند الغرب ما يقدمه عوضا عن هذه الأقمشة الفاخرة سوى أجواخ الفلاندر ، وفرنسا ، ولبارديا ، الخ . ونرى بالفعل ، حسبا هو مسجل فى الدفاتر التجارية الخاصة ببعض تجار الغرب أن هذا الجوخ هو السلعة الرئيسية الواردة من هذه البلاد (٤٤) . حقا ان مصانع الحرير التى أقيمت فى إيطاليا طبقا لنموذج مصانع قبرص تقدمت تقدما سريعا ، الا أن منتجاتها كانت توجه الى الغرب فقط . ومع ذلك كانت قبرص تتلقى أنبذة من اليونان وإيطاليا ، وخرودات وأدوات حديدية ونحاسية من ميلانو (٤٥) .

وفى فاما جوستا مستودعات كبيرة تديرها بيوت تجارية شرقية (٤٦) - وتتم المبادلات التجارية بوساطة سماسرة . ولاعتبار صفة تجارية أنها بائة ، لايكفى دفع العزبون ، بل لابد أيضا من أن تسجل فى دفاتر موظفى الجمرى . ولم تكن هناك ضرائب على المبيعات والمشتريات ، أما الرسم الجمرى العادى المفروض عند الدخول والخروج فكان ٤٪ . وهو السعر المفروض على كل التجار التابعين للأمم التى لا تتمتع بأى امتياز . ولكن فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، كانت الامتان التجاريتان ، البندقية وجنوا تتمتعان بالاعفاء الكامل ( من الرسوم والضرائب ) ، وكان البيزيون والإنكوبونيون والبروفنسيون والنربونيون والقطالونيون قد حصلوا على تخفيض ضرائبهم بمقدار النصف . وأما الشركتان الفلورنسيتان الكبيران باردى Bardi ، وبيروتزى

Francisque Michel, l.c., I; 255, 307; II, 187. (٤١)

Ibid, I, 306 et ss., II, 174, 189, note 2, 458., (٤٢)

Archiv. della soc. rom. di storia patria, VI (1883), p. 11 et s. (٤٣)

Pegolotti, p. 66, 74; Chiarini, p. LXXIX a; Pasi, p. 142 a; Mas-Latrie, III, 774 et ss. (٤٤)

Pegol. p. 67; Chiarini, l.c.; Pasi, l.c. (٤٥)

(٤٦) كان الاخوة Lachas النسطوريون ، مثلا يربحون من هذه التجارة اموالا طائلة ، وفى الاعياد يفرشون كميات من خشب الصبر ، والياقوت ، والآله ، والتلح الذهبية التى تحملها بها حنازتهم .



Peruzzi فانهما تتمتعان بنفس الخطوة (٤٧) . وبالبحاح من وكيل شركة ياردى ، بالدوتشى بيجولوتى ، امتد أثر هذا الامتياز فشمحل كل الفلورنسيين (١٣٢٤) (٤٨) ، ولم يكن هؤلاء حتى هذا التاريخ قد تخلصوا من دفع الضرائب كلها ، الا بأن يدعوا ، غشبا وخداعا أنهم بيزيون ، غير أن البيزين كانوا يعاقبونهم على ذلك بشدة .

ومنذ أن منحوا تخفيض الرسوم ، كان يكفى أى تاجر أن يقدم للجمرك شهادة تثبت جنسيته الفلورنسية ، موقعا عليها من وكيل بيت ياردى فى فاما جوستا ليحصل من موظفى الجمرك على أن يدفع الرسم بسعر ٢٪ . وفيما عدا هذا الاستثناء كانت القواعد العامة المطبقة على الأهم غير المعفاة من الضرائب هى ما يأتى : البضائع الملقاة على الأرض والباقية لحساب التاجر يمكن نقلها دون دفع رسم عند الخروج ، والبضائع التى تشحن فقط من سفينة الى أخرى فى ميناء فاما جوستا ، وتنتقل من ثمة الى جهة أخرى دون أن توضع على الأرض تدفع رسم مرور بنسبة ١٪ (٤٩) .

وهناك أخيرا رسم « عام » لجزيرة قبرص ، يسمى *la Missa* ، وهو « ضريبة » ، الغرض منها تعويض ملك قبرص عن النفقات التى يضطر الى صرفها لتطهير البحار المجاورة من القراصنة الذين يرتادونها : هذه الضريبة التى تقدر بالنسبة الى الشحنة ، تحصل من السفن القادمة من آسيا الصغرى التركية ، ورودس ، وأرمينيا ، وسورية ، ومصر ، وكانت فى الواقع تخص ربان السفينة ، ولكن الربان يضيفها الى أجرة السفينة بحيث يتحملها التاجر فى النهاية . أما البنادقة والجنويون فكانوا معافين من هذه الضريبة ، اسوة بغيرها من الضرائب .

وقد استقينا المعلومات السابقة من بيجولوتى الذى نثق به كل الثقة لأنه كان بصفته وكيل بيت تجارى كبير فى وضع أكثر ما يكون ملائمة لمعرفة كل التفاصيل التى تهتم تجارة قبرص معرفة دقيقة . ويذكر

(٤٧) Les Archiv de l'Or. lat., II, 2, p. 60; Peruzzi, Storia del commercio e dei banchieri di Firenze, p. 251, 276, 321 (aux années 1335, 1339, 1345);

Mas-Latrie II, 147, 149, 164; Bibl de l'Ecole des chartes 1874, p. 59.

(٤٨) لم يمنح هذا الامتياز هذه المرة الا لستين ، ثم أعيد منحه فى عام ١٣٢٥ لسنة واحدة ، وفى عام ١٣٢٦ لخمس سنوات ، وأخيرا فى عام ١٣٢٧ الى الأبد .

(٤٩) توجد هذه القاعدة من قبل فى الامتياز المنوح لصالح بيزا فى عام ١٢٩٦ .

بيجولوتى من البلاد والمدن التى لها علاقات تجارية بالجزيرة الى جانب ييزا وهى دولة انحطت وقتئذ قواها ، يذكر أمة ظهرت حديثا ، ولها طاقة فتيحة : تلك هى فلورنسا ، وفى حوزتنا رسالة كتبتها حكومة فلورنسا بعد وفاة هوج الرابع Hugues IV من أسرة لوزينيان الذى آقام فى عهده بيجولاتى فى جزيرة قبرص ، وهى موجهة لخليفتيه يطرس الأول (١٣٦٠) ، وتمتدح الكرم الذى أبداه الملك المتوفى حيال مواطنيه ، وتوصى الملك الحالى بتاجر ذهب الى قبرص لتحصيل بعض الديون (١٣٦٥) (٥٠) . ومن بين الأمم التى تتمتع بامتيازات الأنكوتيون ، فكانت سفنهم تقوم برحلات كثيرة الى قبرص . ويبدو أن مدنا ايطالية أخرى كانت تستفيد من هذه الظروف فتصدر بضائع الى الجزيرة وتستورد بضائع منها (٥١) .

والتجارة الفرنسية كان يمثلها تجار من عدة مدن ، وبخاصة ناربون ومونبيليه (٥٢) ، فتستورد هذه المدن من قبرص منسوجات صوفية وكتانية وغيرها ، وزنجيلا ولفلا وسكرا . وفى عام ١٣٣٤ كانت سفينة عائمة من فاماجوستا الى « ايج - مورت » Aigues-Mortes وعلى ظهرها تجار فرنسيون ، و ١٠٧ أكياس لفلل ، ف وقعت أسيرة فى أيدي قراصنة قطلونيين (٥٣) . وفى عام ١٣٥٠ كانت سفينة أخرى استأجرها تاجر من ناربون تنقل شحنة من الفلفل والزنجبيل ، وتيلة بغداد من فاماجوستا الى فرنسا ، فنهبها قراصنة صقليون (٥٤) . ومن كسبيالات وخطابات توصية محفوظة الى يومنا هذا نعرف أسماء تجار من جنوب فرنسا مقيمين فى قبرص ، نذكر منهم بيت سيراليه الكبير

Doc. sulle relaz. tosc. p. 118, 123.

(٥٠)

— فى العقود الموثقة باماجوستا ، والمذكورة آنفا ، نجد عددا كبيرا من الأسماء الفلورنسية :

— P. 8, 24, 37, 55, 58, 60, 65, 84, et s., 86 et s., 89, 108.

(٥١) يذكر بيجول (Pegol., p. 154 et S) أسماء النقل فى السفن الأنكوتية غير المسلحة ، وتزودنا هذه المعلومة بقائمة بسلع التصدير والتوريد . وتجد أسماء أنكوتية فى العقود الموثقة المشار إليها فى البيان السابق :

34 et s., 46, 65, 66, 77, 90 et s., 97, 106 et ss., 111.

(٥٢) نجد أسماء بورجوازيين من هاتين المدينتين فى العقود الموثقة باماجوستا :

l.c. p. 33, 44, 63, 92, 94-96, 105 et ss.

Mss-Latrie, III, 728.

(٥٣)

Ordonnances des Rois de France, IV, 425.

(٥٤)

Seraller من ناربيون (٥٥) . وجالية تجار مونبيليه هي الوحيدة التي نعرف بالتفصيل تنظيمها وامتيازاتها . وقد زال الامتياز الذي منحه اياها الملك هوج الرابع ( ١٣٢٤ - ١٣٥٩ ) ، ولحسن الحظ أمكن الحصول على مضمونها من تحذير وجهه قناصل مونبيليه الى خليفة بطرس الأول . وتتوافق البنود المتعلقة بالرسوم الجمركية التي تحصل عن البضائع عند دخولها قبرص وعند خروجها منها ، وكذا البضائع غير المبيعة أو المعاد تصديرها دون انزالها برا ، تتوافق تماما مع بيانات ببجولوتى حتى اننا لانرى فيها سوى نسخة من القواعد المتبعة منذ زمن بعيد فى هذا الموضوع .

وفيما يخص القناصل ، كانت العادة المتبعة فى بلدية مونبيليه أن تلحق بسفنها التجارية قناصل حتى يكون الركاب تابعين دواما لقضائهم، عند سفرهم وعند عودتهم . وعندما يصل القناصل إلى الميناء المقصود يؤدون به وظيفة المديرين والقضاة طوال فترة اقامة من معهم من الركاب، وكذا بالنسبة الى مواطنيهم الموجودين فى هذا البلد المقصود اليه . وعند عودتهم يعينون واحدا أو اثنين أو أكثر من أعضاء الجالية ليؤدوا نيابة عنهم هذه الوظائف الى حين وصول قنصل آخر . وقد أذن الملك هوج لجالية مونبيليه بأن تتبع هذا النظام أو بعبارة أصح تحتفظ به فى قبرص ، وينح هؤلاء القناصل اختصاص القضاء المدني والجنائى حيال مواطنيهم ، ويؤدون وظائفهم فى أروقتهم ( دار القنصلية loggia ) فى فيناجوستا ، وفى مدن أخرى ، يتبعهم فى تنفيذ أحكامهم اثنان الى أربعة من الضباط (٥٦) bastonniers ou sergans .

وثمة خطابات توصية تعرفنا أسماء هؤلاء القناصل الذين أوفدتهم بلدية مونبيليه الى قبرص خلال أعوام ١٣٤٥ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٦ ، ١٣٨١ (٥٧) . ولانظن أننا مخطئون اذا قلنا ان لقب regentes mercatorum Montispezzulani (٥٨) الذى منح باجازه قبرصية فى عام ١٣٥٢ لآرنولدس رينودى Arnoldus Raynaudis وريموندس سمولاتشى

Mas-Latrie, Documents sur le commerce maritime (٥٥) de midi de la France, dans la Biblioth. de l'Ecole des chartes, série II, vol. III, p. 207; Germain, Hist de la commune de Montpellier, II, 541 et ss.; Mas-Latrie, Nouv. preuves de l'histoire de Chypre, I.c., p. 85.

Germain, Hist. de la commune de Montpellier, II, 506 et ss. (٥٦)

Mas-Latrie Hist de Chypre, II, 208 et ss., note; Germain, (٥٧) I.c., . . . c. s.

Germain, I.c., p. 541. (٥٨)

Raymundus Sclacii قد خصص لائنين من هؤلاء النواب الذين يعينهم القناصل عند رحيلهم ، وثمة اجازة قنصلية أخرى فى عام ١٣٥٨ تنبئنا أن الاخير كان أحد بورجوازي مونبلييه ، وتاجر للسلع الغذائية فى قبرص (٥٩) . وكانت الامور بين تجار مونبلييه وموظفى قبرص لاتجرى فى يسر دون أن تحدث بعض المتاعب من حين الى حين . من ذلك أنه حدث فى عهد هوج الرابع أن تظلم التجار من طريقة وزن الاشياء (٦٠) . وفى عهد بطرس الأول ( ١٣٥٩ - ١٣٦٩ ) طولب هؤلاء التجار بان يؤدوا ضعف ما كان عليهم أن يؤدوه من الرسسوم الجمركية انتهاكا للحقوق الممنوحة لهم كتابة . وفى غضون رحلة بطرس الأول الى الغرب ، توقف بعض الوقت فى مونبلييه (من ٢٩ مارس الى ٣١ مايو ١٣٦٣) (٦١) ، وانتهم قناصل المدينة هذه الفرصة فقدموا له شكاوى بهذا الخصوص (٦٢) . وللحال كتب بطرس الى أخيه يوحنا دو لوزينيان القائم بشئون الحكم نيابة عنه فى غيابيه وأن يعمل على منع هذه المخالفة (٦٣) . وعندما عاد الى نيقوسيا أعطى أهالى مونبلييه أمرا ( دبلوما ) جديدا أكد فيه من جديد امتيازاتهم فى كل من الشئون للجمركية والقضائية (٦٤) .

ونعلم من قبل أن القطلونيين (٦٥) كانت لهم نفس المزايا التى يتمتع بها تجار مونبلييه بالنسبة الى الجمارك ، والقنصلية ، وترجع امتيازاتهم الى عام ١٢٩١ ، ولم يحصلوا على امتيازات أخرى من ذلك

- 
- Biblioth de l'Ecole des chartes, série II, vol, p. 207. (٥٩)  
 Germain, l.c., p. 542. (٦٠)  
 Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 240. (٦١)  
 Germain, l.c., p. 596 et ss. (٦٢)  
 Lettre écrite da'vignon le 21 avril, dans Germain, l.c., p. 544. (٦٣)  
 Germain, Histoire du commerce de Montpellier, II, 261. (٦٤)  
 - جمل جيرمان تاريخ هذا الدبلوم ١٤ يناير ١٣٦٥ - ومع ذلك يبدو ان هذا التاريخ مشكوك فى صحته ، لأن « بيب » لم يعد الى قبرص قبل شهر أكتوبر (Mas-Latrie, l.c., II, 241)  
 وربما ينبغي أن نقرأ التاريخ ١٣٦٦ او ١٣٦٧ .  
 (٦٥) نجد أسماء لهذا البلد فى العقود الوثيقة بفاماجوستا :  
 - l.c., p. 60, 62 89, 97, 101, 111, 114.

الحين (٦٦) . على أنه في حوزتنا جوازات مرور وخطابات توصية سلمتها سلطات برشلونة لبعض التجار والبحارة (٦٧) ، وبعض القرارات الصادرة بتعيين قناصل في فاماجوستا ليشرفوا بها على مصالح القطلونيين في قبرص وأرمينيا الصغرى (٦٨) . هذه الوثائق تثبت أن التجارة بين برشلونة ومملكة قبرص كانت مستمرة كمادتها دون انقطاع أو صعوبات . ولم يكن التجار القطلونيون يتوقفون دائما عند فاماجوستا ، فكثيرا ماكانوا يفامرون بمواصلة الإبحار حتى دمشق ، ولنا في ذلك مثل جرى في عام ١٣٣٨ (٦٩) فإذا انتقلنا من الأمم الأقل مراعاة الى الأمم التي تتمتع بالاعفاء التام من الرسوم ، الى الجمهوريتين التجارييتين الكبيرتين تبين لنا أول كل شيء أنه كان يوجد بين جمهورية جنوا وملوك قبرص سلسلة من المنازعات التي قد تبعث على الظن بأن جنوا كانت تفكر منذ زمن مبكر أن تقيم بالقوة مستوطنة لها في قبرص .

فالواقع أنه في أعقاب بعض أعمال القرصنة التي اقترفها جنويون عند سواحل الجزيرة تجددت المنازعات القديمة بشدة حتى أمر الملك ( ١٣٠٥ ) تجار هذه الأمة أن يتعدوا عن الشاطئ وينقلوا سكنهم الى نيقوسيا ، مهدداً بالغاء كل مالهم من امتيازات اذا لم يكفوا عن هذه الغارات (٧٠) . ورأى سالفيجو بيساينو Salvaigo Pessagno الموفد عام ١٣٠٦ بمهمة من قبل الجمهورية لدى الملك أن كل طلباته قد رفضت ، فامر مواطنيه أن يفادروا الجزيرة ، قائلا لهم بصراحة انه لم يعد ثمة مجال لمعاملة الجزيرة الا على أنها عدوة لهم ، ولا بد من شن حرب ضدها . أما الملك فإنه منع خروج أى جنوى من مملكته ، ووضع أموالهم تحت الحراسة ، وحظر على رعاياه أن يشتروا أو يحتفظوا بأشياء تخصهم . وفي اللحظة التي بدا فيها أنه لا مفر من نشوب الحرب ، أطاح أمرى .

(٦٦) حين انهك جيمس الثانى ملك أراجون بتنظيم حملة صليبية ، بعث بيدرو دسيبورت في سفارة الى جايناخو ، شان تثار فارس ، وكذا الى ملوك قبرص وأرمينيا الصغرى طالبا تحالفهم معه ( ١٢٩٣ ) . وفي هذه المناسبة طلب من ملك قبرص أن يمنع التجار القطلونيين فندقا وحيا ، ويخفف الضرائب التي يجيبها على البضائع الباقية لتسايهم والتي يعاد تصديرها (Navarrete, I,c. p. 177) سنا نعرف رد هنرى الثانى ، والأمر كذلك بالنسبة لما منحه للسفراء الأراجونيين في عام ١٣١٦ .

Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 734 et s.; Capmany, II, 111. (٦٧)

Campany, II, app. p. 66 . (٦٨)

Mas Latrie, II, 734. (٦٩)

Assis, de Jéru., II, 363-368. (٧٠)

Amaury أخاه هنرى من العرش (٧١) ، ومع ذلك لم يدم السلام طويلا إذ انبثقت خلافات جديدة بسبب وقوع مشاجرات بين بعض الجنويين وبعض بورجوازي فاماجوستا ، سالت فيها الدماء .

وطالبت الجمهورية بترضية ، ولكن أمورى الذى جرت الأحداث فى عهد وصايته (١٣٠٦ - ١٣١٠) ، وهنرى الثانى حين استرد عرشه ، رفض كل منهما بدوره طلب الجمهورية بحجة أن الاثارة صدرت من جانب الجنويين . وادعت جنوا أنها قد أهيئت بهذا التصرف ، فأمرت رعاياها أن يخرجوا من الجزيرة ، وأذنت لكل منهم أن يعامل القبارصة معاملة الأعداء ، ويوقع بهم كل أذى مستطاع ، دون أن يناله أى عقاب : وأدى ذلك الى استيلاء طائفة من الجنويين على « بافو » ( بافوس ) .  
Baffo (Poppos) وأعدت جنوا عدتها مرارا لارسال حملات الى قبرص ، ولكن كانت كل حملة تتوقف قبل رحيلها ، أحيانا نتيجة لمساعى البابا الذى لم يدخر وسعا للوساطة (٧٢) ، وأحيانا بسبب الخلافات الداخلية فى الجمهورية نفسها . وأخيرا توفى الملك هنرى الثانى ، ملك قبرص ، وخلفه هوج الرابع ، وأمكن عقد الصلح عام ١٣٢٩ (٧٣) . وكان المفاوض الجنوى هو نيكولونوفيسكى دى كاردينالى Niccolino Fieschi dei Cardinali الذى سبق له أن أدى فى عام ١٣٢٠ مهمة فى بلاط نيقوسيا مع بييترو جريللو Pietro Grillo (٧٤)

وجرت المفاوضات أساسا فى مسائل خاصة بالتعويضات . ومع ذلك فالمعاهدة إذ أعادت الى الجنويين كل الحقوق والممتلكات التى كانت تتمتع بها فى عام ١٢٢٣ ، وأكدتها من جديد ، تفاضت عن كل البصائب التى ظهرت عند تفسير المعاهدة القديمة (٧٥) . ولم يمنع هذا الجمهورية من الالحاق على الملك بمطالب تتعلق بأمر حديثه العهد بدرجة ما ، حتى بعد أن دفع لها مبالغ كبيرة ، ولم تبد حماسا فى منع أعمال القرصنة التى يقوم بها رعاياها كل يوم اضرارا بمصالح القبارصة . وفى عام ١٣٣٨

Amadi, dans Mas Latrîe, III, 681 et s. (٧١)

Raynald, a. a. 1313 no 10, 1317, no 25, 1919 no 10, 1320 no 47, 1322 no 13, 1328 no 88. (٧٢)

M. Pagano (p. 28); Canale, Nuova istoria di Genova, III, 231, note 2. (٧٣)

Raynald, a. a. 1320 no 47. (٧٤)

Lîb, jur. II, 483 et ss.; Mas Latrîe, II, 150 et ss. (٧٥)

عقد صورليوني سبينولا Sorleone Spinola سفيرا جنوا معاهدة جديدة (٧٦) ، ولم تأت هذه المعاهدة بتغيير محسوس في الموقف .

**وفي مرة أخرى كان الملك هو الذي أوفد سفراءه الى جنوا حيث استقبلوا بحفاوة ، ولكن حين طال أمد المفاوضات ، صرفوا بأسلوب غير لائق .** واذا راحت جنوا تعبير أسلحتها ضد قبرص ، عرض البابا كليمنت السادس وساطته مرة أخرى ، ونجح بمشقة في ارساء قواعد الصلح ( ١٣٤٤ ) ، وتلاحقت المفاوضات أمام الكرسي الرسولي (الفاتيكان) : وأصر الجنويون بنوع خاص على ثلاث نقاط صرحوا بأنه لامناص منها : أولها حق الجنويين في أن يكون لهم سجون في جزيرة قبرص (٧٧) ، ثم حرية الدخول في أي وقت في مرانيء الجزيرة دون أن يلتزموا بطلب تصريح بالدخول من الموظفين الملكيين ، وأخيرا حرية صنع الخبز في فرن المستوطنة الجنوبية للجنويين الغرباء على المستوطنة .

ولم يقبل المفاوضاتون القبارصة هذه المطالب الا على مضض ، و فقط لفترة مؤقتة قدرها ثلاث سنوات ، ولم يسلموا بذلك الابناء على الحاح البابا الذي ضغط عليهم حتى يبتوا في المسألة ، ولأن الطرف الآخر أبدى تساهلا في نقاط أخرى ( مثل فرض ضريبة على عقود البيع التي تبرم بين جنويين وأجانب ) ، وأخيرا لأن الطرف الآخر قبل أن يخضع الرعايا الجنويون العاملون في خدمة الملك أو التابعون له تبعية اقطاعية لقضاائه المباشر ، وهذا ما طلبه الملك (٧٨) . ولستنا نعرف ما اذا كان الصلح قد تم على أساس هذه القواعد ، فهذا أمر مشكوك فيه ، ولا توجد وثائق من عهد هوج الرابع يمكن الرجوع اليها لالتقاء الضوء على علاقات هذا الأمير بجمهورية جنوا .

وفي رحلة طويلة قام بها خليفته بطرس الأول في أنحاء أوروبا ، أقام عدة أسابيع في جنوا ( منذ أواخر شهر يناير حتى منتصف

Mas Latrie, II, 166 et ss.

(٧٦)

(٧٧) اكوا ، تأكيدا غير صحيح أن ثمة معاهدات سابقة كفلت لامتهم الحق في أن يكون لها سجون خاصة بها ، وهذا امتياز لم يكن ملوك قبرص يمنحونه عن طيب خاطر ، بل كانوا يطلبون من الموظفين المستوطنين ، البيزيين والبنادقة ، في حالة ما اذا حكم على أحد من مواطنيهم بالسجن من محاكمهم ، أن ينفذ العقوبة في سجون البلد التي كانت دائما تحت تصرفهم :

Doc. Sulle relaz. tosc, p. 108; Mas Latrie II, 10E.

M. de Mas Latrie : la Biblioth. de l'Ecole des chartes, 1873, (٧٨)  
p. 65 et ss.,

شهر مارس ١٣٦٣) (٧٩) : انتهز الدوج هذه الفرصة فطلب تأكيد الامتياز الأساسى الممنوح عام ١٢٣٢ ( ٥ مارس ) (٨٠) . وبينما كان بطرس يواصل رحلته ، ظهر فى قبرص نزاع كاد يهدد السلام من جديد ( ١٣٦٣ - ١٣٦٤ ) : ذلك أن أمير البحر القبرصى يوحنا دى صور Jean de Sour قطع الأذن اليمنى لبحارين فرا من الخدمة ، وتبين أن هذين البحارين جنويان ، وترتب على ذلك حدوث مشاجرات دامية بين البحارة الجنوبيين والقبارصة . واعترزم البودستات الجنوى جوجلبيلمو ايرميريو Gugli Ermirio أن يثار للبحارة مواطنيه ، فقبض على بحار بيزى يخسّم فى الاسطول الملكى ، واشترك فى الشغب (٨١) ، فأمر بقطع لسانه . ولما علم أمير البحر يوحنا الصورى بتنفيذ هذا الأمر ، توجه الى رواق الجنوبيين بصحبة يوحنا دى سواسون Jean de Soissons قاضى فاماجوستا لتأنيب البودستات على اصداره هذا الحكم الهمجى . وفى هذه الأثناء تجمع الجنويون حول زعيمهم : فغضب أمير البحر وأمرهم بالانسحاب ، والامتناع عن العراك والا تعرضوا لعقوبة الاعدام .

وثار غضب ايرميريو ، وأصدر أمره الى كل الجنوبيين بمغادرة الجزيرة فى شهر أكتوبر ، وبأدر هو بالذهاب الى جنوا وتقديم شكوى اليها . ورغم هذا الموقف التهديدى ، صرح ضابط الملك بأن كل جنوى يرغب فى أبقاء مكانه أن يبقى دون أن يناله أى أذى (٨٢) . ولم يكن ثمة شىء بغيبضا الى الملك مثل الذى حدث ، وبخاصة فى تلك الآونة التى كان على البندقية أيضا أن تقضى فيها على ثورة نشبت فى كانديا ، ومن ثم كان يخشى أن تؤجل مشروعاته الخاصة بالقيام بحملة صليبية . أما جنوا فأنها اهتمت بالأمر ، وأزادت شن الحرب ، واستقبلت ببرود شديد الشخصيات التى أوفدها بطرس لتسوية الأمور تسوية سلمية ، وكان هؤلاء هم بيتروس تومى Petrus Thomoe بطريرك القسطنطينية ، وبيترو دى بائيولو Pietro di Bagnolo من ريجيو Reggio طبيب الملك الخاص (٨٣) .

Mas Latrie, II, 240.

(٧٩)

Lib. jur., II, 720 et ss., Mas Latrie, II, 248 et s.

(٨٠)

(٨١) نجد أيضا أسماء بيزيين ذكرت فى مناسبة مشاجرات جرت عام ١٣٣١ فى

فاماجوستا بين جنويين وقبارصة :

— Contin, de Jacq. de Voragine, Atti della Soc. Litg., X, 510:

P. 75 de la nouvelle édition de Machairas.

(٨٢)

Acta SS., 29 Janv. II, 1012.

(٨٣)



ومع ذلك فقبل أن يغادر بطرس البندقية ليقوم بحملته الصليبية ، ابتهج حين بلغه أن السلام قد استتب : وقد تم الوصول الى هذه النتيجة الطيبة أولا بفضل فصاحة بيتروس تومي ، ثم بفضل تدخل البندقية دبلوماسيا (٨٤) ، والحاج البابا أوربان الخامس ، وفرض الجنويون شرطا لموافقته (على الصلح) يبدو مع ذلك أنهم لم يتمسكوا بتنفيذه فيما بعد ، ويقضى هذا الشرط بنفى قاضى فاهاجوستا يوحنا دى سواسون ، وأمير البحر يوحنا دى صور اذ اتهموهما بأنهما المحرضان على المعاملة السيئة التى لقيها مواطنوهم فى قبرص وتحدد المعاهدة بدقة فئات الأفراد الذين يستحقون الاعفاءات والاستثناءات والحصانات الممنوحة للجنويين بوجه عام ، وتشمل ليس فقط كل سكان « الريفيرا » من موناكو الى الطرف الجنوبي لخليج سببزيا Spezia ، ولكن أيضا كل الأفراد ، أينما كانوا يقيمون ، الذين يعيشون تابعين للسلطات الجنوبية ، أو يخضعون للتكاليف المفروضة على مواطنى الجمهورية ، بالإضافة الى ذرية هؤلاء الأفراد ، سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين ، وكذا خدمهم ، وأرقائهم ، وعتقائهم ، اذا كانوا فى خدمة أسيادهم ، وتترك الحالات المشكوك فيها لتقدير البودستات ومستشاريه . فاذا حدث فى حالة ما أن رفض الملك أو نوابه حكمهم ، كان لهم أن يلجأوا الى دوج جنوا ، ومجلسه ، وأعضاء المجلس البلدى ليجروا تحقيقا محايدا . والمواطنون الجنويون الذين يشترون مالا (أرضا) يجعل ملكيتهم له أتباعا اقطاعيين لملك قبرص ، يبقون مع ذلك خاضعين لقضاء بودستات جنوا ، ويظل الملك حرا فى أن يسحب منهم اما ملكيتهم المال ، أو التمتع الكامل أو الجزئى بالأرض الاقطاعية ، وفى حالة الجرائم التى يرتكبها مواطنون جنويون فى خدمة الملك ، اما بصفة بحارة أو بأية صفة أخرى ، تملك السلطات القبرصية الحق فى اعتقالهم ، وعليها أن تسلم المذنب الى البودستات ليحاكمه وينفذ فيه الحكم .

فاذا قامت منازعات جديدة ، فانه لايجوز للملك أو لعملائه أن يقبضوا على مواطنين جنويين أو يحجزوا بضائعهم أو سفنهم بأية حجة . ويصرح الملك للجنويين بأن يكون لهم سجون خاصة للمجرمين التابعين لأنهم . وعلى الملك أن يلغى الأوامر الضارة بالبحارة ، والتي تلزم ربان السفن قبل دخولهم أى ميناء أن يحصلوا على تصريح من موظفى الميناء بالدخول ، ولم تنفذ هذه القاعدة الا فى الحالة التى تتقدم فيها ثلاث سفن كبيرة بخلاف السفن التجارية . ومع ذلك يحتفظ موظفو الملك بالحق فى

التحقق من شخصية المسافرين عند وصولهم ، ويجب أيضا اخطارهم مقدما برحيل السفن الجنوية حتى يتوفر لهم الوقت الكافي للتأكد من أن جميع الأشخاص الموجودين على ظهر السفينة معفون من الالتزام بالحصول على إذن خاص من الملك بالرحيل (٨٥) .

وهكذا ففي ختام الفترة التي ندرسها ، كان الجنويون قد نالوا كل مايرغبون . لقد كادوا يهاجرون هجرة جماعية مرتين ، في أكتوبر ١٣٦٤ ، ثم في فبراير ١٣٦٥ (٨٦) ، ولحسن حظهم استطاعوا في كل مرة أن يتجنبوا هذه النهاية . وكفلت المعاهدة الجديدة لجالياتهم ظروفًا معيشية ملائمة كل الملامة . ومرت الظروف المعيشية لهذه الجالية في عدة مراحل : ففي البداية ، بعد سقوط عكا بقليل أوفدت جمهورية جنوا « بوتستات ٠٠٠ » potestas et visecomes . هو ماتيو زكاريا (١٢٩٢) Matteo Zaccaria ولا بد أن هذا اللقب الرفيع قد أثار في أعين الغرب الأهمية التي حظيت بها حديثا مملكة الجزيرة (٨٧) ( أي قبرص ) ، صار الشخص الذي نال هذا اللقب رئيس الجنويين كلهم في قبرص . ونجد في عام ١٣٠٠ تنظيما آخر ، فثمة اثنان يحملان لقب *rectores januensium in Cypro* ( وهما شبيهان بالمتصلين العموميين في سوريا في أواخر عصر الدول اللاتينية ) ، وإلى جانب هاتين الشخصيتين ، أو بالأحرى تحتها حاكم *rector* يذكر أحيانا بلقب قنصل ، ملحق بنوع خاص بجالية فاماجوستا (٨٨) .

غير أن هذا النظام لم يدم طويلا ، وحل محله نظام آخر نهائي . فمئذ عام ١٣٢٩ (٨٩) وحتى النهاية ، دون انقطاع كان في قبرص بؤدستات ، وهو رئيس الجنويين كلهم في الجزيرة ، يعاونه ستة مستشارين (٩٠) ، ويساعده ضباط *sergents* يصل عددهم الى عشرة .

(٨٥) انظر وثيقة الصلح الموقعة ١٨ أبريل ١٣٦٥ في :

— *Le Lib jur.* II, 132 et ss.; *Mas latric*, II, 254 et ss.;

— ويذكر ماشير النقاط الرئيسية في :

*Machairas*, *Chronique*, op. cit., p. 80-83 :

*Machaires*, p. 77. (٨٦)

*Lib. jur.*, II, 276. (٨٧)

*Archiv. de l'Or lat.* II, 2, p. 11, 20, 24, 25 et s. (٨٨)

*Mas Latric*, II, 158; *Assises de Jérusalem*, II, 385, *Machairas*, p. 62 75 et ss., etc. (٨٩)

*Off. Gaz.* p. 340. (٩٠)

حسب المعاهدة التي لخصناها (٩١) ، وقرره فاما جوستا ، وتعطيه المعاهدة الحق في منزل يبنى على نفقة الدولة ، ويتصل برواق خارجي عن طريق بوابة ، ويدير شئون كل الجنويين الموجودين في الجزيرة من تجار وغيرهم ، ويدافع عن مصالحهم أمام موظفي المملكة ، وهو القاضى الذى يتولى الفصل فى القضايا المدنية والجنايئة كالسرقة والقتل والخيانة التى يكونون طرفاً فيها (٩٢) . ويضم الى هذه الوظائف العامة الادارة المباشرة لأكبر جالية ( فى الجزيرة ) . وفى المدن الأخرى حيث توجد جاليات أصغر عددا ، يوجد قناصل أو دديرون recteurs يؤدون وظائفهم بموجب انتداب من اليودستات .

ويبدو أن البنادقة قد لعبوا فى قبرص فى تلك الآونة دورا أقل شأنًا من دور الجنويين فيها ، الأمر الذى لم يمنهم مع ذلك من أن تتور منازعات كثيرة بينهم وبين ملوك البلد . وقد فتحت معاهدة عام ١٣٠٦ - المفيدة كثيرا لهم - فتحت للتجارة بين البندقية وقبرص عهدا من الرخاء السريع (٩٣) . ومع ذلك فمئذ بداية حكم هوج الرابع (١٣٢٤ - ١٣٥٩) ، انشق خلاف وقتى : ذلك أن بيتروزينو Pietro Zeno الذى كلف بأن يحمل الى الأمير تهاى الجمهورية بمناسبة ارتقاؤه العرش طلب فى هذه المناسبة زيادة كبيرة فى الحقوق الممنوحة لأمتة فى اقليم قبرص دون أن يقدم شيئا فى مقابل ذلك ، ومن ثم صاغ الملك اجابته بعبارات غامضة تسويقية (٩٤) ولم يقبل مجلس شيوخ البندقية هذه الاجابة ، وحظر على اتباعه الذهاب الى قبرص ، وأمر الموجودين منهم فى الجزيرة بمغادرتها على الفور (٩٥) .

ولكن هوج لم يفزع من مثل هذا التصرف القليل الأهمية : فالواقع أن المعاهدة التى أنهت الخلاف فى عام ١٣٢٨ (٩٦) بعد مفاوضات عسيرة

Mas Latrie, II, 259.

(٩١)

(٩٢) لم يعد للملكية من نفوذ ، حتى ان الموظفين الملكيين لم يعد لهم من عمل سوى تنفيذ الأحكام التى يصدرها اليودستات فى القضايا الهامة تنفيذا أعمى ، وهى القضايا الخاصة بجنويين .

Actes du Sénat publiés par M. de Mas Latrie, II, 133 et s.;  
l'Archiv. Venet., XVIII, 317-319.

(٩٣)

Mas Latrie, II, 137 et ss.

(٩٤)

Ibid, II, 135 ; Archiv. Venet., XVIII, 319 (extr. du livre IX  
des Misti)

(٩٥)

Mas Latrie, II, 142 et s.; Archiv. Venet. XVIII, 320 et s.

(٩٦)

ليست الا نسخة من معاهدة ١٣٠٦ مع تغييرات واطافات لا اهمية لها . ولم يكتسب البنادقة سوى منشأة جديدة فى بافو ( بافوس ) ( ٩٧ ) ، وتسنى للتجارة مع ذلك أن تستعيد سيرتها الأولى ، وواصلت نشاطها بلا انقطاع ( ٩٨ ) فيما عدا واقعتين : فى عام ١٣٤٩ اضطربت المشاعر فى وقت ما لوقوع فتنة لم يعرف لها سبب ، اغارت فيها عصبة مسلحة من أمالي صقلية وقبرص رواق البنادقة فى فاماغوستا ( ٩٩ ) . وفى عام ١٣٥٠ اندلعت الحرب البحرية الكبيرة بين البندقية وجنوا ، وفى هذه الحرب نجحت البندقية ذات مرة فى أن ترسل الى فاماغوستا قافلة من تسع سفن تجارية مكلفة بأن تحضر منها تجارا وبضائع . على أن مثل هذا العمل كان عرضة لمخاطر كبيرة فلم يتسن تكراره . ولم يستتب أمن الملاحة بالكامل الا بصلح عام ١٣٥٥ ( ١٠٠ ) .

وعندما خلف بطرس الأول ( ١٣٥٩ - ١٣٦٩ ) هوج ، حملت اليه البندقية تهانها بمناسبة توليه الحكم ، حملها اليه جيوفانى دانولو Giov Dandolo وبيانتاليونى باربو Pantaleone Barbo ( ١٣٦٠ ) ، وأبدى الملك الجديد استعدادا أكبر من استعداد أبيه لتحقيق رغبات الجمهورية ، فلم يكتف بتجديده معاهدة ١٣٢٨ ، بل منح البنادقة امتيازا يقضى بأن الذين يدانون لارتكابهم جرائم قتل يجب مستقبلا الا يقدموا الى محاكم البلد ، بل يحالوا الى قضاء الملك الذى يباشره بنفسه ، وأصدر الى عملائه فضلا عن ذلك أمرا شديدا بأن يعاملوا المعاملة الواجبة للرعايا البنادقة كل شخص يطالب بهذه المعاملة بشرط أن يقدم شاهدين يضمنان جنسيته ، وأن ينجزوا أوراق السفن الفينيسية المسافرة بمجرد أن تنفذ هذه السفن لوائح أمن الميناء ( ١٠١ ) . وأبدى من جهته أمل فى أن تتخذ الجمهورية اجراءاتها لمنع دخول أى شخص بصورة مخالفة للقوانين مما يسبب اضطرابا فى المملكة ، ومنع أى

L ib-Pact; Taf. et Thomas, Der Doge Andr. Dandolo, p. 126. (٩٧)

Mas Latrie dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 90 (٩٨)  
et ss. : Monum. spect. hist. Slav. merid., II, 214.

— فى ذلك العصر لم تكن القوافل التى تتكون كل منها من ثمانى سفن شرعية حربية ( قواديس ) والمرسلة الى قبرص. بالحدث الشاذ .

Mas Latrie, dans la Bibl. de l'Ecole des chartes, 1874, p. 102 (٩٩)  
et s.

Sanuto, Vite dei dogi, dans Munrat., SS. XXII, p. 625, 640. (١٠٠)

Mas Latrie, II, 228-232. (١٠١)

تهرب من الضرائب والرسوم . وفى عام ١٣٦١ ، أوفد سفارة الى البندقية  
تحمل عدة شكاوى فى هذا الخصوص :

ولم يسع حكومة البندقية أن ترفض اعطاء ضمانات عن الموضوعات  
التي ذكرها ، ووعدت بأنها سوف تبذل فى المستقبل مزيدا من الدقة  
والعناية فى اعطاء شهادات الجنسية الفينيسية ، وأن رباينة سفنها  
لن يسمحوا بركوب رعايا قبارصة ، سواء كانوا جنودا مرتزقة أو عبيدا  
ليس معهم جوازات سفر ، وأن تجارها لن يشتركوا فى الغش والاحتيال  
بأن يصرحوا بأن ثمة بضائع هى بضائعهم فى حين أنها تخص أفرادا  
خاضعين للرسوم الجمركية . وبعد تسوية هذه المسائل طلب السفراء  
القبارصة فى مقابل ذلك اعفاء مواطنيهم من الرسوم الجمركية فى  
البندقية كما يعفى البنادقة منها فى قبرص ، ولكن مجلس الشيوخ رفض  
هذا الطلب رفضا باتا بدعوى أن دولا أخرى سوف تطلب  
بهذا الاعفاء (١٠٢) .

ولم تصل المزايا الممنوحة للبنادقة للمرة الى مدى الامتيازات التي  
منحها بطرس الأول للجنويين عام ١٣٦٥ : من ذلك مثلا أنه لم يكن  
محصلا « بايلاتهم » بالفصل فى جرائم القتل . ومع ذلك كان وضعهم  
هاما لانهم يمثلون أمة من الأمتين الأكثر رعاية ؛ فوظائفهم ووظائف  
مستشاريهم الاثنى عشر (١٠٣) المكلفين بالتدخل رسميا فى كل أنحاء  
الجزيرة التي يوجد بها بنادقة ، ووظائف عملائهم الثانويين فى نيقوسيا ،  
وليميسو ، وبافو لم تكن وظائف بلا سلطة ، لأن مواطنيهم يستفيدون من  
المزية التي يتيحها لهم الاعفاء من الضرائب ليزاولوا مع الجزيرة تجارة  
نشيطة . وكان هناك من جهة أخرى عدد من الأسر النبيلة ، نذكر منها  
فقط أسرة كورتارو Cornaro اشترت فى قبرص ممتلكات أقامت  
فيها اقامة دائمة .

والثابت أن قبرص كانت فى عهد رعايها ملتقى السفن التجارية  
والتجار الذين ينتمون الى كثير من الأمم الغربية الأخرى ، ولكن ليس هناك  
فى ذلك أسانيد مكتوبة ، وبخاصة فى شأن أولئك الذين لم يكونوا يتمتعون  
باعفاءات وامتيازات خاصة . وفى القوائم المقارنة للنقود والموازين  
والكاييل التي رأى بيجولوتى ضرورة وضعها لعدد كبير من البلاد من  
جهة ، ولغاماجوستا من جهة أخرى ، اذ كان تحويل هذه القيم ضرورة

Ibid. II, 233-235.

(١٠٢)

Ibid. II, 228, 23٤, 358.

(١٠٣)

يومية للتجارة ، لانجد سوى أسماء بارليتتا Barletta ، و نابولي ،  
ونيم Nimes ، و مونبلييه .

ويضيف بيجولوتي الى قائمته بيانا بمصاريف النقل من هذه المدن  
الى قبرص ، وبالعكس (١٠٤) ، وهذا برهان أكيد على وجود نشاط كبير  
فى المبادلات التجارية . وفيما يختص بنابولي ، نجد أيضا فى مناسبة  
الأحداث الدموية التى عكرت صفو أعياد التتويج فى فاما جوستا عام ١٣٧٢ ،  
أن ماشيراس Machairas يتحدث عن الأدم التى كان لها منشآت دائمة  
فى هذه المدينة فيذكر أهالى نابولي الى جانب القطلونيين والبروفنسيين ،  
والفلورنسيين .

### ثانيا - مصر وسورية

أثار سقوط عكا مشاعر العالم المسيحى الغربى كله . وكما يتوقع  
المراء ، أعقب لحظة الدهول الأولى مجموعة من الاتهامات التى وجهت أساسا  
الى البلدان التجارية لأنها كانت تقيم حتى آخر لحظة علاقات تجارية مع  
مصر ، وبذلك أسهمت فى زيادة و وارد العدو . غير أن بلاط روما لم يشأ  
أن يترك فورات الغضب هذه تتبخر فى عبارات لا جدوى منها ، إذ أرادت  
استشارة العالم المسيحى من جديد وتنظيم صلات صليبية جديدة .

ولابد من التسليم بأن حملة جديدة على فلسطين أصبحت من ذلك  
الحين عملية شديدة الصعوبة لأن الفرنجة لم يعودوا يملكون ثمة قيراطا من  
الأرض ، وأن جيشا غازيا سوف يجد نفسه معزولا ، لا يملك فى القارة  
نقطة واحدة يرتكز عليها ، سوى أرمينيا ، وهى بلد غير صحى ، بعيد  
كثيرا عن ساحة النضال . وكان البابوات يعرفون ذلك ، ويعرفون أيضا  
فتور شعوب وأمراء ذلك العصر ، مما يشكل عقبة كؤود فى سبيل تعبئة  
الجيوش الكبيرة التى يتطلبها مثل هذا المشروع ، ومن ثم أرادوا ، دون  
أن يفقدوا رؤية هذا الهدف ، أن يراعوا كل ضروب الحذر والتأنى فى  
اعداد الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية . ولم تعوزهم الآراء ، سواء  
التي طلبوها أو التي لم يطلبوها : ونصح الرجال الذين كانوا أعرف  
من غيرهم بشئون الشرق بالعمل قبيل كل شيء على اضعاف العدو  
باستنزاف مصادر قوته ورخائه .

وللحصول على هذه النتيجة ، كانت هناك المراسيم الكنسية القديمة التي تحظر بيع أى شيء الى المسلمين ، مما يمكن تحويله الى أداة حربية ، فاذا أمكن تنفيذ هذه المراسيم ، ومراعاتها كان ذلك كسبا كبيرا . فالواقع انه لا كان المصريون قديلي المعرفة بفنون القتال ، لا يقدرون على تحمل اعباء الحرب ، فقد عبا السلاطين جيوشهم باستخدام العبيد الذين يشتريهم العملاء أو التجار المسلمون والمسيحيون من بلاد الشمال ، وبخاصة من صفاق البحر الأسود ، ويتدربون فى مصر على الفنون العسكرية (١٠٥) فلو أمكن تحريم هذه التجارة بصفة ، ومنعها بغارات بحرية ، لوقع السلاطين فى ضيق شديد ، واضطروا لتعيين جيوشهم من مصر أقل كفاءة . ولذلك نعتقد ثانية هامة : ذلك أن مصر لا تنتج حديدا أو خشبا ، فكيف يتسنى للسلاطين أن يسلحوا جيوشهم ويبنوا سفنهم الحربية اذا توقف ورود هذه المواد ؟

وليس هذا كل شيء : فهذا البلد ( أى مصر ) يقطعه فى كل الاتجاهات قنوات وترع ، وتجرى غالبية الحركة التجارية فيه بواسطة المراكب : ويدين البلد بالجزء الأكبر من خصوبته لهذه القنوات المنظمة بعناية : هذه المراكب ، وهذه القنوات مصنوعة من خشب ، وهذا الخشب لايد من استيراده (١٠٦) . وعلى ذلك كان يكفى تطبيق الحظر الذى أصدرته الكنيسة ضد توريد الحديد وخشب البناء والأسلحة لبلاد المسلمين لاضعاف القوة العسكرية فى مصر ، والرخاء المادى للسكان . وحتى اذا أريد تطبيق القانون بأقصى مداه ، فلايد أن يشمل الحظر المواد الغذائية (١٠٧) التى كانت مصر تأخذ معظمها من الخارج رغم خصوبة تربتها .

وكان أولئك الذين اعتزموا شن حرب حقيقية ضد المسلمين يريدون دفع الأمور الى مدى أبعد من هذا ، فكانوا يرون ضرورة منع المسيحيين كلهم من أن يحملوا الى المسلمين أو يحضروا من عندهم بضائع من أى

Mas Latrie, Hist, de Chypre, II, 120, et s., 274; Sanuto, Secr. (١٠٥) fidel, cruc., p. 27; Haythou Hist orient, cap. 50, 54; Piloti, p. 331 et s.; Lannoy, éd. Potvin, p. 118; Tafur, p. 80.

المعروف أن سلاطين مصر ونوابهم يخرجون من صفوف هؤلاء العبيد ، أى المالك .

Mas Latrie, Op. cit., p. 120 et s. (١٠٦)

انظر فى هذا المرجع ملاحظات السفراء الذين أرسلهم هنرى الثانى ملك قبرص الى البابا كليمنت الخامس ، فى عصر مجمع فينا ، وملاحظات سانوتو ، ص ٢٥٠ وما بعدها .

Capmany, Memor, II, 36 et s. (١٠٧)

نوع ، وباختصار قطع كل علاقة تجارية معهم . وكان في عزم أولئك الذين فكروا في هذه الخطة الكبيرة أن يقتصر تطبيق هذه الاجراءات أول الامر على رعايا سلطان مصر . غير أنه لما كان أتراك آسيا الصغرى من جهة ، وعرب البربر (١٠٨) وأسبانيا من جهة أخرى يمارسون التجارة مع مصر ، كان لا بد منطقيا من وضع حدود للعلاقات بين هذه الشعوب ، بمعنى الامتناع عن شراء بعض منتجاتهم اذا ثبت ، أو ثار الشك فقط في أن هذه المنتجات وودت مباشرة من مصر ، أو من الهند عن طريق مصر ، وبمعنى الا تظل التجارة القديمة كما كانت ، مع فارق واحد ، هو خلق وسطاء آخرين . وبالطبع لا يجوز التساهل مستقبلا في وجود بضائع مصرية المصدر في مخازن جزر البحر المتوسط أو اليونان (١٠٩) .

كل هذا أعد بناء على حسابات بالغة الدقة . فالواقع أن مصر في ذلك الأوان كانت تستمد جزءا كبيرا من ثروتها من تجارتها مع الغرب ، وخاصة من حاصل المبادلات التي تتم بوساطتها بين آسيا وأوروبا . فكان توقف هذه التجارة حقيقياً بأن يقضى على أحد مصادر الثروة العامة . فضلا عن ذلك ، كانت البضائع التي ترد على اقليم السلطان تدفع رسوم دخول وخروج مرتفعة جدا حتى ان المبالغ التي تدفعها ثلاث أو أربع سفن تساوي قيمة شحنة سفينة كاملة منها (١١٠) ، وكانت المراكب التي تنقل البضائع على القنوات والترع تخضع لرسم يبلغ ثلاثة دنانير ذهبية ونصف دينار عن كل مركب (١١١) ، ومن ثم كان توقف التجارة يحدث فراغات كبيرة في خزائن الدولة .

هذه هي الفكرة التي كانت توجه نيقولا الرابع حين نشر في العام الذي سقطت فيه عكا مرسوما يحرم توريد الأسلحة والخيول والحديد والخشب والمواد الغذائية وغيرها للبلاد كلها الخاضعة لحكم السلطان ، والا وقع على المخالفين أولا عقوبة الحرمان ، وثانيا الاعلان بانهم ملعونون .

(١٠٨) في العصر الذي كان فيه رامون مونتائر Roman Muntaner في خدمة فردريك ملك صقلية حاكما لجزيرة جربة الواقعة بالقرب من الساحل الأفريقي بين تونس وطرابلس (١٣٠٨ - ١٣١٣) ، كان في تلك الجزيرة مستودع للبضائع المصرية ، ولا بد ان الصقليين والقطالوتيين كانوا ينتفعون بهذا المستودع . انظر :

Zurita, Anales de Aragon, Saragossa 1610, II, fol. 19.

Sanut, p. 28 et s. (١٠٩)

Sanut., p. 23, 25 ; ibid, p. 24 ; Mas Latrie, Op. cit., p. 121 ; Baluze, Vitoe paparum Avenionensium, II, 180. (١١٠)

Sanut., p. 25. (١١١)



الى الأبد ، ومجردون من حقوقهم المدنية والوطنية ، ومن أهليتهم لأن يوصوا أو يرثوا (١١٢) . وجدد البابا هذا الحظر في مرسوم بابوي موجه الى حنوا ، حيث أعلن صراحة أن تحريم زيارة البلاد الاسلامية هو في معناه تحريم مطلق ، الغرض منه اضعاف موارد السلطان بخرمانه من الأموال التي يحصل عليها من التجارة (١١٣) ، وفي جنوا ، اعتبر هذا المرسوم قاسيا جدا *sententia durissima* (١١٤) . وفيما بعد أنقص نيقولا الرابع الى عشر سنوات مدة الحظر فيما يختص بالمواد الغذائية ، الا ان هذا لم يؤد الى أية نتيجة . وفي عام ١٢٩٩ مد بونيفاس الثامن Boniface VIII الى عشر سنوات الحظر الخاص بتصدير المواد الاستهلاكية الى مصر (١١٥) ، ومدت المهلة بعد ذلك الى مالا نهاية . ومن جهة أخرى ، وباستثناء النبيذ والزيت والقمح ، الخ فان عبارة *alia quoecumque mercimonia* شملت بعموميتها مجموعة من المواد الأخرى التي كان يبيعها للمسلمين يعود بأرباح للتجار الغربيين . وأبقى على هذا الحظر باقصر مداه العام بونيفاس الثامن (١١٦) (١٢٩٤-١٣٠٣) ، وبنوا الحادي عشر Benoît XI (١١٧) (١٣٠٣ - ١٣٠٦) .

ومع ذلك ففي هذه الأثناء أعاد الأول منهما في عام ١٢٩٥ قوانين مجامع دينية قديمة تنطبق فقط على توريد الأدوات الحربية (١١٨) ، كما صرح الثاني شفاهة بأن في إمكان البنادقة أن يصدروا الى مصر كل المواد التي لم نذكر بنوع خاص في قراره البابوي (١١٩) ، كالجوخ

Raynald., Annal. ecl., a. a. 1291, no 27. (١١٢)

Raynald, Op. Cit., no. 26. (١١٣)

Annal, Jan, p. 341. (١١٤)

Bullarium romanum, éd. Taurin, IV, 152-155. (١١٥)

Bref. de l'an 1297 aux évêques de Barcelone et de Tortosa, (١١٦) communiqué par Navarrete, dans les Memorias de la R. Academia de historia. V. Madr. 1817, p. 179, et Bulle du 16 Avri 1199, dans le Bullarium romanum, éd. Taurin l.c.

Bulle de 1304 (Taf. et Thom., IV, 20 et s.) communiquée (١١٧) aux Venitiens avec avis de s'y conformer, le 5 avril de la Même année (Ibid, IV, 19 et s.)

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 92. (١١٨)

Commem., I, p. 38, no 166 ; Registres de Bevoit XI, éd (١١٩) Grandjean, p. 84 et s., 87, 249.

والثياب وعلى ذلك فما الذى حدث ؟ اما أن التعبيرات التى وردت فى القرارات البابوية كان من طبيعتها أن تفسر بأن الحظر لا ينطبق إلا على المواد المصنفة على أنها من مواد التهريب الحربى ، واما أن القرارات البابوية لم تنشر بدرجة كافية (١٢٠) . كذلك كان هناك عدد كبير من الناس يعتقدون أن التجارة مع مصر مشروعة طالما لاتتناول سنوى مواد غير ضارة بلا شك . ومع ثم فإن البابا كليمنت الخامس Clement V حين راح يعد العدة للقيام بحملة صليبية جديدة ، بدأ فى خريف عام ١٣٠٨ بنشر العديد من القرارات البابوية التى يتضح منها بصورة لاتقبل الشك أن البضائع كلها دون استثناء تقع فى نطاق التحريم ، وأنذر المخالفين بمصادرة أموالهم ، وفقد حريتهم ، وتسليمهم كركيق لمن يقبض عليهم ، ووصنهم بالعار وما يترتب على ذلك من نتائج ، بالإضافة الى الحكم عليهم بالحرمان الكنسى الذى لا يمكنهم التحلل منه الا بالتنازل لصالح الحملة الصليبية عما حصلوا عليه من مكاسب من تجارتهم غير المشروعة ، وبشرط أن يحصلوا بذلك على اذن خاص من البابا (١٢١) .

ويبدو أن هذه الأعمال تمت تنفيذها للنصائح التى أسداها وطورها البندقي مارينو سيانوتو الكبير Marino Sanuto l'ancien الملقب بتورسيللو Torsello . فى الكتاب الأول من مؤلفه *Secreta fidelium crucis* : ويكفى فى الواقع أن نذكر أنه اذا كان المؤلف الذى يشكل هذا الكتاب جزءا منه لم يتم الا فى عام ١٣١٣ ، فان الكتاب نفسه قد تم وضعه قبل ذلك بزمن طويل : اذ حرر بين شهر مارس ١٣٠٦ وشهر يناير ١٣٠٧ ، ووجهه مؤلفه فى صورة مذكرة الى البابا كليمنت الخامس (١٢٢) ، وكان تأثيره اذن واضحا كل الوضوح .

ولما استشار البابا فى هذه الآونة الرئيس الأكبر لرهبان المعبد « مولاي Moay » ، سرر بهذا مذكرة موجزة تنتهى بأنه يجب أن يفرض على الأمم التجارية أن توقف تجارة تعود بالربح على

(١٢٠) Sanuto, p. 21 ; Voyez aussi le manuscrit de Sanuto d'Emeram, publié par M. Kunstmann dans ses Etudes sur Marino Sanuto l'ancien.

(١٢١) Encyclique du 12 oct. 1308, dans Taf et Thom., IV, 74 et s.; brefs spéciaux dans les Commem. reg., I, p. 89, no 381, et dans Raynold, Annal. eccl., a 1308, no 36.

Kunstmann, Op. cit., p. 705 et s.

(١٢٢)

المسيحيين (١٢٣) . وقد عرض ريمون لول Raymond Lulle في كتابه بعنوان De fine الذي كتبه في مونبلييه عام ١٣٠٦ أفكارا مماثلة : ففي رأيه أنه يكفي أن يمتنع المسيحيون ست سنوات فقط عن شراء توابل من المصريين ، والا يزوروا بعامة الاسكندرية أو سورية ، وذلك لايقاع الخراب بالسلطان وأمراطوريته حتى تغدو الحملة الصليبية دشروعا خاليا من الصعوبات (١٢٤) .

ولابد أخيرا أن البابا كان على علم بتاريخ الشرق الذي كتبه في أغسطس عام ١٣٠٧ الأمير هيتون Hayton (Hethoun) رئيس دير كهنة يواتيه Premonties de Poitiers (١٢٥) : فهو أيضا يوصي - كأعداد فعال للحملة الصليبية - باتخاذ اجراءات تستهدف إيقاف التصدير الى مصر ، من شأنها بالضرورة حرمان هذا البلد من المعدات الحربية وكمية من أشياء أخرى ، ومع ذلك لا يسالغ في منطقه الى حد تحريم التجارة تحريما تاما (١٢٦) . وبعد بضعة سنين ، وعند عرض موضوع الحملة الصليبية على مجمع فيينا الديني ( من أكتوبر ١٣١١ الى مايو ١٣١٢ ) ، طلب كليمنت الخامس رأى هنرى الثانى ملك قبرص فى الحملة والاستعدادات اللازمة لها : وتوضح المذكرة التى قدمها الى المجمع سفراء الملك ، بأمثلة ملحقة بها كيف أن « المسيحيين الآثمين » أسهموا فى انهاء مقاومة سلطان مصر بامداده ليس فقط بالمعدات الحربية، ولكن أيضا بىواد أخرى ، وانتهت بتحريم كل تجارة مع هذا البلد (١٢٧) .

لكن كيف يتسنى الوصول الى هذه النتيجة ؟ لقد رأى كل انسان أن تهديدات البابا على قدر شدتها لم تكن كافية . وقال الأشخاص الذين استشيروا فى هذا الشأن بضرورة تجهيز عشر مسفن حربية تجول باستنزاف فى البحر المتوسط ، وخاصة بين أسسيا الصغرى ومصر ، وتهاجم فى عرض البحر ، وتطارد عند الضرورة الى الموانئ السفن

Baluze, Vita papar. Avenion, II, 180.

(١٢٣)

M. Kuntsmann, Op. cit., p. 723 et s.

(١٢٤)

R. Lulle فان ر. لول (Hist. du commerce, II, 192)

- فيما لديبين

يكون قد قدم للبابا نيقولا الرابع فى عام ١٢٨٨ الأفكار والمقترحات نفسها . ومع ذلك فمن الصعب التسليم بأنهم انهمكوا فى وضع خطة ل حرب صليبية عامة قبل سقوط عكا .

Histoire littéraire de la France, XXV, 481.

(١٢٥)

Historia orient., cap. 56.

(١٢٦)

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 118 et ss.; Mas Latrie, p. 128 et s.

(١٢٧)

التجارية المسيحية أو المسلمة التي تضبط متلبسة بجريمة الاتجار مع هذه البلاد . ولما كان من المتوقع الاستيلاء على غنائم كبيرة ، فيجب لاستئازة حماسة البحارة ، مع عدم صرف مرتبات كبيرة لهم أن تترك لهم الغنائم كلها . ويجب الا يتولى تمويل هذا الأسطول احدى الجمهوريات الكبيرة أو احدى الممالك التي تمارس نوعا من التجارة ، كما لا يجوز أن يكون قائدها من رعايا واحدة من هذه الجمهوريات أو الممالك ، اذ يخشى الأ يهاجم إلا الأجانب ، ويترك مواطنيه يمرون بسلام فيستفيد هؤلاء فائدة مضاعفة : كما لا يجوز أن يتولى هذه الوظيفة أى شخص يخشى أمرا من جانب الأمم التجارية (١٢٨) .

كل هذا قد فهمه نيقولا الرابع ، قبل كليمنت الخامس ، وقبل وفاته بقليل أصدر أمرا الى فرسان القديس يوحنا ، وفرسان الهيكل بأن يجهزوا عشرين سفينة في مياه قبرص ، لحماية هذه المملكة ، ومملكة أرمينيا ، ومجارية، المسلمين والقبض على كل سفينة تحاول الوصول الى بلد خاضع للسلطان . وبعد وفاته ( ١٢٩٢ ) عكف الكرادلة على تحقيق رغبته ، وكلفوا مانويل زكاريا بتشكيل أسطول يتولى قيادته ، وأن يزود الأسطول باثنتي عشرة سفينة ، ويزوده مواطنه الجنوى تديزيو دوريا 'edisio Doria' بثماني سفن . وفي البداية خلق بودستات جنوا بعض المصاعب ، وهدد هذين النبيلين بغرامة لأنهما قبلوا أن يؤديا خدمة في الخارج دون تصريح منه . ومع ذلك حصل الكرادلة على عفو عن هذين الجنويين لما بدلاه من الحاح وتهديد ، ونال الاثنان اذنا بالالتحاق بخدمة الكنيسة لسنة واحدة (١٢٩٩) ، وارتحلا على رأس عشرين سفينة انضم اليها في قبرص خمس عشرة سفينة أخرى ، وضعها الملك تحت تصرفهما : وبهذه القوات مضيا يستعرضانها أمام كانديلور Candelore والاسكندرية ، دون أن يحصلوا على نتيجة فعالة (١٣٠) .

وبعد هذه المحاولة الأولى ، جرت محاولة ثانية على ما يبدو في عام ١٢٩٣ بست سفن فينيسية مجهزة على نفقة فرسان الهيكل لحماية قبرص (١٣١) . وبعد قليل الغيت هيئة فرسان الهيكل ، وورثت

Sanut., p. 27-31; Mas Latrie, II, 118 et ss.; Baluze, Op. cit., (١٢٨)  
p. 179 et ss.; Raim, Lulle, cité par M. Kunstmann, Op. cit., p. 723.

Annal. Jan., p. 342. (١٢٩)

Sanut, p. 232. (١٣٠)

Annal. Jan., p. 362. (١٣١)

رسالتها هيئة فرسان القديس يوحنا • وفي عام ١٣٠٨ عهد إليها البابا كليمنت الخامس صراحة بمراقبة القسم الشرقي من البحر المتوسط ، وضبط المسيحيين الذين يتجرون مع مصر ، وكفل لها إعانات مالية خاصة لهذه الخطة (١٣٢) • ونقلت هيئة فرسان القديس يوحنا مقرها الرئيسي من قبرص الى رودس (١٣١٠) ، ولم تهمل مع ذلك المهمة التي عهدت إليها (١٣٢) ، ومن ثم نشأ كما سترى نزاع شديد بينها وبين جنوا • ومن جهة أخرى طارد ملوك قبرص بسفنهم السفن الغريبة التي تصادفها على طريق مصر ، في الذهب والأوبى • وأنبأ سفراء الملك هنرى الثانى فى مجمع فيينا الدينى (١٣٤) بأن السفن الحربية القبرصية أسرت على هذا النحو عددا كبيرا من السفن التجارية ، وضربوا مثلا لذلك سفينة جنوبية أسرت أخيرا بينما كانت مبحرة من آسيا الصغرى الى مصر وعليها شحنة من خشب البناء (١٣٥) ، وأضافوا أنه لم يجرؤ انسان على الخروج من قبرص أو من الموانئ المجاورة فى هذا الاتجاه خشية الوقوع فى أسر سفن الملك الحربية التى كانت تؤدى مهمة كلفها بها البابا نفسه • يبدو اذن أن سانوتو لم يكن على صواب تام حين كتب أن ملك قبرص قام بعدة جولات بحرية فى سفينه الحربية دون أن يتعرض له أحد (١٣٦) واتبع هوج الرابع سياسة سلفه ، ولما اشتكت جمهورية جنوا من الأضرار التى لحقت ببعض رعاياها ، برر ذلك بأنه لم يفعل سوى « تنفيذ أوامر كنيسة روما » •

وأخيرا (١٣٧) ، يبدو أن بعض القباطنة مارسوا أيضا عمليات

Raynald, a. a. 1308, no. 34; Paoli, II, p. 19, 31. (١٣٢)

Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 683; Aboulféda (Annal. muslim., éd. Reiska, V, 211. (١٣٣)

Mas Latrie, II, 121 et ss. (١٣٤)

(١٣٥) نجد مثلا آخر من هذا النوع فى وثيقة نشرها كاسمانى :

Capmany, II 374 et s. :

فى شهر نوفمبر عام ١٣٠٠ ، قبضت أربع سفن حربية قبرصية على سفينة من ماجورقا امتدادا بأنها ذاهبة الى مصر ، فى حين أنها كانت قاصدة كانديا . انظر أيضا :

Capmany, II, 374 et s. :

(١٣٦) ص ٣١ ، ملحوظة هامشية . يبدو غالبا أن هؤلاء السفراء كانوا يشيرون الى

الكتاب البابوى الذى حرره البابا بونيفاس الثامن الى الملك فى عام ١٢٩٩ ، انظر : Raynald, a. a. 1299, n. 38.

Mas Latrie, II, 156. (١٣٧)

— ترجع هذه الواقعة الى عام ١٢٢٩ ، ولكن فى عام ١٢٢٢ ، ١٢٢٤ استلم الملك من

البابا يوحنا الثانى والعشرين أوامر جديدة للتحرك :

— Raynald, a. a. 1323, no. 12, 1324 no 43.

المطاردة هذه باسم الكنيسة : فهل كانوا يستجيبون دائما لبواعث دينية ، أو يسعون فقط للحصول على مكاسب مادية ؟ مثال ذلك أنه في عام ١٣٠٣ جال شخص يدعى مارينو بولجارو Marino Bulgaro وهو في الغالب جنوى النشأة ، في مياه جزيرة كريت ، وطارد كل السفن المتجهة الى الاسكندرية (١٣٨) كانت هناك اذن لحظة حرجة بالنسبة الى أهم القرب التجارية : فالطريق الجنوبي ، ذلك الذي يقر سانتوتو بأن أوروبا تتلقى منه الجزء الأكبر من توابل الهند ، كان يبدو أنه أصبح غير صالح بالمرة ، وكانت الكنيسة التي طالبت بتحريم استخدامه في التجارة قوية (١٣٩) . فما هو الموقف الذي اتخذته الأمم التجارية ازاء مراسيم البابوات ؟ هل أدخلت في تغييرها دون مناقشة أحكاما تحظر على التجار زيارة البلاد الخاضعة للسلطان ؟ هل قبلت عن طيب خاطر الاجراءات التي أمر بها الكرسي الرسولي (الفاتيكان) وتستهدف الغاء التجارة ؟ هدى مجموعة من الأسئلة التي سنحاول أن نجد اجابة لها .

ولنبدا باسبانيا التي ارتقى فيها جيمس الثاني Jaime II عرش أراجون في فترة سقوط عكا تقريبا . ولما حكمت عليه الكنيسة بالحرمان ، وأحاط به الأعداء من كل الأنحاء ، لم يتردد عام ١٢٩٢ في تجديد معاهدة التحالف التي كائن قد أبرمها منذ عدة سنوات مع سلطان مصر ، مثلما فعل من قبل أخوه وسلفه الفونس الثالث : وفي المعاهدة الجديدة ، لم تمس الشؤون الخاصة بالعلاقات التجارية (١٤٠) . وفيما بعد ، حين نال عفو البابا بونيفاس الثامن ، تعهد بالوفاء بالالتزام الذي يفرضه عليه لقبه : « حامل العلم ، وكابتن ، وأميرال عام الكنيسة الرومانية » بالمعمل على إعادة فتح الأرض المقدسة (١٤١) . وفي عام ١٣٠٢ ، أصدر ، من أجل الحرب ، وشرف خدمة الكنيسة ارموانية المقدسة قرارا يحرم بصفة عامة على رعاياه كل تجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان (١٤٢) . وكان ذلك تنفيذا للوعد الذي أعطاه . ولم يكن هذا القرار - حسبما يتبين من عباراته نفسها - لم يكن استثناء للمراسيم

Taf. et Thom inéd.; les commémoriali, p. 40, no. 176. (١٣٨)

Más Lafrie Archiv des missions scientif., II, 374; Makrizi, (١٣٩)  
dans de Sacy, Chrestom-arab, II, 48 ; Well, Gesch. der Chalif, IV,  
353, 360.

Campany, IV, 17-19. (١٤٠)

Raynald, a.a. 1297, nos 19 et ss. (١٤١)

Navarrete, dans les Memorias, 1.c., p. 180, et s. (١٤٢)

السابقة التي بطل مفعولها بسبب ضعف العقوبات التي توقع على المذنبين ، فلم يكن الأمر سوى مراسيم صدرت من قبل ضد تزويد مصر بالعتاد الحربى .

ويمكن القول بأن هذا الحظر الجديد لم يكن فى خاطر الملك أكثر جدية من سوابقه ، ويمكن تأييدنا لهذا الرأى أن نستعرض مع فايوس Wappoeus نوعين من الرقائع ، فهناك أولا « دبلوم » ( مرسوم ) لهذا الملك ، فى عام ١٣١٥ يتضمن قائمة بالسفن المسجلة عند مدخل ميناء برشلونة ومخرجه (١٤٣) ، ونفرا على رأس القائمة أسماء السفن المحررة الى مصر : وينبغى تفسير عبارة *ultra mar* على هذا النحو ، على الأقل تبعا للغة المتداولة فى ذاك الحين ، وعلى ذلك تثبت التجارة مع مصر بموجب وثائق رسمية ، ودون جدال . ويمكن الرد على ذلك بأن عبارة *ultra mar* ذات معنى مطاط : ففى عصر الحروب الصليبية كانت هذه العبارة تنطبق بوجه عام على الرحلات الى مسورية ، طالما كانت رحلات أفريقية ، كما استخدمت كثيرا فى جهات أخرى بمعنى أوسع ، فتشمل عندئذ مصر وسورية وأرمينيا الصغرى وقبرص . وعلى ذلك فى الحالة التى ندرسها لا تكون هذه الحجة دالة على التواطؤ الملكى . وثانيا ، لما كان جيمس قد أوفد الكثير من السفارات الى السلطان ليحتفظ بصداقته ، فالراجع أن المصالح التجارية قد عولجت أكثر من مرة ، على الأقل معالجة ثانوية ، غير أن عناصر الايضاح فى شأن هذه النقطة الثانية لا وجود لها بالمرّة .

فالحطبان اللذان عهد بهما الملك الى سفرائه فى عامى ١٣١٤ ، ١٣٢٢ والموجهان الى السلطان الناصر محمد لا يحتويان الا على عبارات للمجاملة ، ولا يتبين منهما الغرض الحقيقى من مهمة الوفود (١٤٤) ، أما الفقرات الخاصة بالمهمة فانها لا تتحدث الا عن تسليم بعض المسيحيين الاسرى لدى المسلمين ، أو عن تدخل لصالح الكنائس المسيحية الكائنة فى اقليم السلطان (١٤٥) . ولكن ها هى ذى واقعة ثابتة : ففى كل مرة يسافر فيها سفراء ملك أراجون ( وأغلبهم من أهالى برشلونة ) الى مصر ، كان يجهز لهم سفينة فى برشلونة ، ولما كان الملك يهتم برخاء هذه المدينة ، فقلما ترك مثل هذه الفرصة تمر دون أن يعطى بعض التجار - مقابل عوض - اذنا بأن ينتهزوا هذه الفرصة فيرسلوا الى مصر ، أو

Capmanv, II, 76 et ss.

(١٤٣)

Ibid, IV, 64 et s., 73 et ss.

(١٤٤)

Navarrete, p. 182 et ss; Capmany, IV, 80.

(١٤٥)

يحضروا منها كمية من البضائع ، فيما عدا المواد المنوعة في كل الأزمان بطبيعة الحال ، وكان أحيانا يطلب ترخيصا خاصا من البابا (١٤٦) .

وفي أواخر عهده تخلى عن كل فكرة لحرب صليبية ، لذلك فمع مراعاته لقواعد الحظر التجاري ، كان يبدى مزيدا من التسامح مع المذنبين . من ذلك أنه في السنة السابقة لنهاية حكمه ، أوقف سير المحاكمة التي بدأت ضد بورجوازي من برشلونة اتهم بنقل بضائع من قبرص الى مصر ، واكتفى بالحكم عليه بغرامة قدرها ٢٥٠٠ « صول » sol: (١٤٧) .  
ويذكر البعض أمثلة أخرى لقرارات « بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى العمومية » أصدرها خلفاء جيمس ، الفونس الرابع ، وبطرس الرابع لصالح تجار اتهموا بأنهم ذهبوا الى سوريا ( الى بيروت أو دمشق ) عن طريق قبرص لأعمال تجارية (١٤٨) .

وأخيرا ، في عام ١٣٣٨ ، وبالخاص من بلدية برشلونة ، اتخذ بطرس الرابع خطوة حساسة ، إذ أمر بإيقاف كل المحاكمات التي بدأت ضد الذين تاجروا مع البلاد الخاضعة للسلطان ، والامتناع مستقبلا عن محاكمة أمثالهم (١٤٩) . والحقيقة أن هذا القرار لم يوقف سوى الإجراءات في المحاكم المدنية ، فلم يكن من سلطة الملوك رفع الأحكام الكنسية بالتوبيخ والحرمان ، وكان لهم على أكثر تقدير أن يتوسطوا لصالح رعيتهم الذين صدر ضدهم قرار بالحرمان (١٥٠) . وسوف نعود الى هذه المسألة فيما بعد ، ويكفي حاليا أن نتابع موقف ملوك أراجون في هذه الظروف .

---

Document des années 1305, 1317, 1321 dans Navarrete, Op. (١٤٦) cit, p. 182-186.

في ذات مرة ، وكان البحر المتوسط يرتاده القراصنة ، رأى جيمس الثاني من الفلطة أن يصبح بمنتهى سفينتان حربيّتان جعلتا ، باذن من البابا ، في خدمة التجارة :  
— Capmany, IV, 79 et s.

في عام ١٣٢٧ ، اندزوا فرصة مرور سفارة فرنسية ذاهبة الى مصر عن طريق برشلونة :

— Nivarrete, p. 18 et s

(١٤٧) وثيقة بتاريخ أول أغسطس ١٣٢٦ في :

(١٤٨) وثيقة بتاريخ ١٣٢٥ في :

Mas Latrie, Hist de Chypre, III, 720 et ss.

— Mas Latrie, III, 732; de 1338, ibid, 734.

Capmany, II, 107-109; Ibid IV, 96 et s. (١٤٩)

(١٥٠) مثلما فعل . على سبيل المثال الفونس الرابع في عام ١٣٣٤ :

Capmany, IV, 96.



ومن الملائم في شرح هذا الوضع أن نبين أن أكبر مدينة تجارية في مملكتهم كانت تتمتع بقدر كبير من الاستقلال يتيح لها أن تسمح الناس كلمتها عند الأزمات . فإذا هي لم تبد رأيها بصراحة ضد حظر التجارة ، فإنها لم تتوان في السعي لإلغاء هذا الحظر ، وفي هذه الأثناء لم تستدع بالمرّة جاليتها في الاسكندرية ، وتركت قنصليتها في تلك المدينة . وبعد انقضاء عشرة أعوام على سقوط عكا ، نجد فيها بالفعل قنصلا للقطالونيين ، تخاطبه بلدية برشلونة ، هو وأمير الجمرك فتوصيهما ببورجوازي له مطلب قديم يريد تحقيقه في الجمرك (١٥١) . ويمكن الاعتراض بأن المثال الذي ذكرناه يسبق بسنة قرار جيمس بالحظر العام على ممارسة التجارة .

ولكننا لا نجد أثرا لإلغاء القنصلية ، حتى في تواريخ لاحقة ، بل على العكس نجد في عام ١٣٢٢ راهبا فرنسيسكانيا أيرلنديا ، هو سيمون سيميونس Simon Simeonis ذاهبا للحج في بيت المقدس ، فيمر بالاسكندرية ويجد بها الى جانب الفنادق الجنوية ، والفينيسية ، والمرسيلية ، الخ فندقا قطالونيا ، وقناصل لهذه الجنسيات المختلفة . وكان هذا الراهب مسافرا مع تجار غربيين ، ورأى تجارا آخرين يقطنون الفنادق ، وجعل يلاحظ أسلوب معيشتهم (١٥٢) . وبخلاف هؤلاء السكان المقيمين بصفة دائمة ، كان الفندق القطالوني يستقبل من وقت لآخر تجارا من برشلونة ، لم يكن في وسعهم دائما الحصول على إذن من البابا أو الملك ، ولكنهم يأمرون بمخالفة الحظر ، معتمدين على حظهم في المرور دون أن يلحظهم أحد ، أو على حصولهم على أرباح ضخمة يستطيعون منها دفع الغرامة اذا ضبطوا . وكانت بلدية برشلونة أقل صرامة من الملك في مثل هذا النوع من مخالفة اللوائح .

ومند أن نقل البابوات مقامهم الى أفينيون Avignon أصبحت المدن التجارية في جنوبي فرنسا تحت أيديهم تقريبا . فهل تزيلون معرفة ما كانوا يفعلونه بقرارات الكنيسة بحظر التجارة مع مصر ؟ اليكم بعض الأمثلة : فسيمون سيميونس الذي ذكرناه منذ هنيهة ، أقام من ١٤ الى ٢٢ من أكتوبر ١٣٢٢ في فندق المرسيليين بالاسكندرية (١٥٣) . وفي غضون رحلته في عام ١٣٢٣ علم أنه بالحاح من بورجوازي من مونبيلييه

Capmany, II, 372 et s.; Appendice, p. 66.

(١٥١)

Itineraria Symonis Simonis et Willemi de Worcestre éd.  
Nasmith, Cantabr. 1778, p. 19-22.

(١٥٢)

Ibid., p. 21.

(١٥٣)

يدعى جويوم بونمان Guillaume Bonnesmains اذن السلطان الناصر محمد الذى كان منذ قليل قد اضطهد المسيحيين اليعاقبة ، اذن باعادة فتح كنيسة سانتا ماريا دو لا كاف Santa Maria de la Cave بمصر القديمة (١٥٤) . والثابت من بعض الوثائق أن بونمان هذا لم يكن من مواليد مونتيليبه ، وانما هو من فيجياك Figeac ، ورغم أنه ينتمى الى طبقة التجار ، فانه قبل أن يتولى من ١٣٢٧ الى ١٣٢٩ باسم « شنارل الجميل » Charles le Bel ملك فرنسا مهمة تتعلق بالدفاع عن مصالح المسيحيين بمصر . وقد طلب تضريحا بذلك من البابا يوحنا الثاني والعشرين ، ولكنه لم يركب السفينة وحده ، بل كان فى رفقته تجار من قطلونيا وجنوب فرنسا ، انتهزوا فرصة سفرهم ، فحملوا معهم سلعا لبيعها فى مصر (١٥٥) .

ولقد رأينا من قبل ، فى الفقرة السابقة تجارا من جنوب فرنسا ، وبخاصة بورجوازيين من مرسيليا يمارسون التجارة مع مصر . وكان أيضا من أهالى جنوب فرنسا أولئك الذين كشفوا سر الاجتماعات المشبوهة التى انعقدت فى ليون بين « فيليب الجميل » Philippe le Bel والبابا كليمنت الخامس بقصد القيام بحملة صليبية ، فحذروا السلطان ، وبادروا بتزويده بأدوات حربية ، وعبيد ، الأمر الذى كان مبررا لاصدار مرسوم ٢٨ أغسطس ١٣١٢ الذى جدد به الملك الحظر ، واستنكر هذه الأعمال التى لا تليق باسم المسيحي (١٥٦) .

ولابد أن الموقف الذى إتخذته الجمهوريات التجارية الإيطالية كان له تأثير قوى على هذه الأزمة ، وهذا شيء واضح : فلننظر أولا فى موقف جنوا . فيتأثير الانفعال الذى سببه سقوط عكا (فى ١٨ من مايو ١٢٩١) . وربما أيضا تحت ضغط النداء الذى وجهه البابا الى الجنويين مباشرة (فى ١٣ من أغسطس) يستحثهم فيه على حمل السلاح لتخليص الأرض المقدسة ، وقطع كل علاقة تجارية مع مصر (١٥٧) ، اضطرت جمهورية جنوا أن تقرر بوجه عام تحريم التجارة مع ولايات السلطان . والواقع

Ibid. p. 53

(١٥٤)  
Navarrete, l.c., p. 186 et s.; Lot, dans la Biblioth. de l'Ecole des chartes, 4 série T.V. (1865), p. 503 et ss., et T. XXXVI (1875), p. 588 et ss.

(١٥٦)  
Ordonnances des rois de France, I, 2/5; ordonnance de St Louis (12٤4), ibid XI, 331.

(١٥٧)  
Raynold, a.a. 1291, nos 23-28.

أنه في خلال هذه السنة حكمت السلطات الجنسوية بالغرامة على شركة ليركارى Lercari التي أرسلت بضائع من جنوا الى الاسكندرية في سفينة مسلحة ، وذلك لمخالفتها المرسوم الذى أصدرته البلدية ، وعصيان أوامر البابا (١٥٨) .

وبعد وقت قليل ، استولى تيديزيو دوريا ، وهو نفس الشخص الذى دخل فيما بعد مع مانويل زكاريا فى خدمة الفاتيكان ، استولى ، زبما بإرادته الشخصية على سفينة بيزية كانت عائدة من الاسكندرية بشحنة ثمينة وتجار من بيزا وناربون ومرسيليا وغيرها ، وأعلن القضاة أجنويون أن السفينة غنيمة لمن استولى عليها ، باعتبار أن القوانين الكنسية ترخص لأى انسان أن يقيض على أى شخص متلبسا بجريمة الاتجار مع مصر ، ويحتفظ به عبدا له ، كما يحتفظ ببضاعته ملكا له . ومع ذلك ففى هذه المرة أهديت رغبة فى العفو عن هؤلاء التجار ، فأطلق سراحهم ومعهم جزء من بضائعهم (١٥٩) . يبدو اذن أنه فى البداية تبنت جنوا بالكامل آراء الكرسي الرسولى ، ومن ثم ترى أكثر البابوات حساسة فى ذلك العصر ، هو كليمنت الخامس يهنتها دون قيد أو شرط (١٦٠) ، نقول مع ذلك أنه لا يوجد بين قوانين جنوا التى بقيت محفوظة الى يومنا هذا قانون يحرم بصفة عامة التجارة مع مصر ، فى مستهل القرن الرابع عشر .

وقد رأينا من قبل القانون الوطنى الذى تكون بالتدريج فى غضون القرنين السابقين ، وطبق فى مستعمرة غلطة (١٦١) : هذا القانون لا يحتوى بالمرّة على أى نص يحمل على الافتراض بأن الحظر القديم بتصدير معدات حربية الى مصر قد امتد فيما بعد ليشمل سائر المواد التجارية ، بل نجد فيه على العكس من ذلك ، ودون أى تغيير ، نص مرسوم لعام ١٢٩٠ يذكر الأسلحة وحدها باعتبارها بضاعة محرمة (١٦٢) .

نستخلص من ذلك أنه اذا كان لدى جنوا الرغبة فى قطع علاقاتها بالكامل مع مصر ، فانها لم تثبت طويلا على هذه الرغبة . ففى عام ١٣٠٤

Annal Jan, p. 338.

(١٥٨)

Annal. Jan. 341.

(١٥٩)

Paoli, Cod. dipl. dell'ordine gerosolem., II. 33.

(١٦٠)

Statuti della colonia Genovese di Pera, editi da Vinc. Promis (١٦١) dans les Miscellanæ di storia italiana, XI, 1870, p. 513 et ss.

Ibid, p. 738 no CC. Canale Nuova Istoria della repubblica di Genova, III, 173. (١٦٢)

الذى نسق فيه أكبر جزء من القوانين التى شكلت مجموعة قوانين Péra وبالتأكيد فى عام ١٣١٦ ، تاريخ آخر القوانين الملحق بهذه المجموعة ، عادت الحال الى ما كانت عليه قبلا ، وبقيت الأدوات الحربية هى وحدها المحرمة . نجد التحفظ نفسه فى ال Devetum Alexandria بتاريخ ١٩ من مارس ١٣١٦ ، وهو قانون يطبق بنوع خاص فى غلطة وكافا Caffa كما تجده فى المرسوم التالى بتاريخ ٣٠ من ديسمبر ١٣١٧ ، والمحور بنوع خاص لجنوا والريفيرا ، وأخيرا فى Devetum Hispaniae et Barbaria بتاريخ ١٨ من مارس ١٣٤٠ ، والجريمة الوحيدة المقصودة التى تستحق العقوبات المنصوص عليها فى كل هذه القوانين هى توريد الحديد ، وخشب البناء ، والأسلحة ، والعييد من الجنسين للمسلمين فى الشرق أو الغرب (١٦٣) . فهل كانت هذه العقوبات تطبق دائما بدقة ؟ انه لسؤال هام . فلو طبقت كذلك لما وجد البابا يوحنا الثانى والعشرون حججا كافية لتعزيز شكاويه ضد الجنويين الذين يتهمهم بمراة بمساعدة « الكفار » ( بقصد المسلمين ) بتزديدهم بالعبيد والعتاد الحربى ، والعيش مع السلطان فى جو من الود والصفاء (١٦٤) .

وعلى كل حال فى جنوا لم تكن القوى المكلفة من قبل البابا بالقيام بجولات فى البحر المتوسط لمطاردة المسيحيين الفجار تعتبر بمثابة قوات متعاونة ، وانما بمثابة أعداء . من ذلك أنه فى شتاء عام ١٣١١ الى ١٣١٢ أسر فرسان هيئة القديس يوحنا سفينة جنوية عائدة من الاسكندرية تحمل شحنة من التوابل ومواد أخرى ، وللغور أبحر سفير جنوى ، هو أنطونيو سبينولا للمطالبة بتسليم السفينة ، إلا أن الفرسان رفضوا تسليمها دون إذن من البابا ، ومع ذلك وعدوا بأن يطلبوا قرارا من الفاتيكان فى أقرب وقت عن طريق ممثلهم . واستشاط سبينولا غضبا ، وذهب الى آسيا الصغرى مع رفاقه الجنويين ، وقابل السيد منتيشيه Mentèchè التركمانى (١٦٥) ، وطلب منه القبض على تجار رودس وغيرهم من رعايا هيئة القديس يوحنا الموجودين فى اقليمه والقائهم فى السجن ، وينبؤ

(١٦٣) Les Monumenta hist patr., Leges municipales, p. 371-377 .

(١٦٤) Raynald, a.a. 1317, no 36 ; Guill Adoe Demodo extirpandi Saracenos.

(١٦٥) Madachias, le Mandachia de Sanuto (Hopt. chroniques greco-romanes 145 (167) ; Ducas p. 13, 66, 106; Laon Chalcoe, p. 65 et s. 168, 244 ; Sanuto l.c., p. 187.

أنه قد عرض عليه اعانة مالية قدرها ٥٠ ٠٠٠ دينار ذهبي ان هو غزا  
جزيرة رودس وطرد الفرسان منها .

ولم يكتف سبينولا ورفاقه بذلك ، فقد التقوا في عرض البحر بعدد  
من الفرسان فأسروهم ، وقرروا ألا يخلوا سبيلهم الا في مقابل فدية .  
وكان غريبا أن يصدر هذا التصرف من سفير ، ولكنه يعلم أنه يعتمد على  
حكومته ، آية ذلك أنه بعد أن انتظر الأشخاص الموقدون من قبل الهيئة  
ليطالبوا الجمهورية أن تعترف بحقوقها ، أكثر من شهر دون أن يقابلوا  
أحدا من المسؤولين ، اضطروا الى العودة كما جاءوا ، ولجأوا الى البابا الذي  
أرسل الى جنوا تعنيفا شديدا ، وأندرها باطلاق سراح فرسان رودس  
بلا فدية ، ومعاقبة المواطنين الجنوبيين الذين ارتكبوا هذا العدوان الأليم  
ضد هيئة الفرسان ، وأن يتخلوا عن التحالف مع الأتراك (١٦٦) .  
ولسنا نعلم ما تم في هذا الأمر .

واستولى ملك قبرص أيضا على سفن جنوبية فاجأها على طريق مصر ،  
عند ذهابها أو عند عودتها ، وتصرفت جنوا معه مثلما تصرفت مع فرسان  
رودس . وفي عام ١٣٢٩ ، وبناء على اقتراح الملك عرض النزاع على تحكيم  
البابا يوحنا الثاني والعشرين ، وأصدر البابا حكمه في عام ١٣٣١ ، فحكم  
من جهة على الملك بأن يدفع للجنوبيين تعويضا قدره ١٠٠ ٠٠٠ دينار  
بيزنطي ، وحكم من جهة أخرى على الجنوبيين بأن يدفعوا تعويضا عن الطلبات  
المضادة التي قدمها الملك في حدود هذا المبلغ (١٦٧) .

وربما نتساءل عما اذا كانت المستوطنة الجنوبية في الاسكندرية  
مازالت موجودة في هذه الفترة المرجحة : والاجابة على ذلك سهلة ، لما نعرفه  
عن موقف الوطن الأم : فان كانت قد زالت ، فان ذلك لم يكن ليحدث  
الا في السنوات الأولى التي أعقبت سقوط عكا ، وهذا غير محتمل : وعلى  
كل حال فهناك وثيقة جنوبية بتاريخ ٤ أكتوبر عام ١٣٠٤ (١٦٨) تثبت  
أنه كان يوجد في هذه الفترة قنصل جنوى يقيم في الاسكندرية ، اسمه  
جيزولفو دى جيزولفى Ghisolfo dei Ghisolfi . كذلك رأى سيمون

---

Le bref du pape Clément V, du 26 nov 1312, dans Paoli, Cod. (١٦٦)  
dipl., II, 31-33; Mas Latrie, Hist de Chypre II, 21-33 : Sanuto, Secr.  
fidel. cruc., p. 31.

Mas Latrie, Op. cit., II, 156 et s., 173; Raynald, a.a. 1331, (١٦٧)  
no 30.

Taf. et Thom., IV, 31. (١٦٨)

سينميونيس في عام ١٣٢٢ في الاسكندرية قنصلية جنوبية وفندقا جنوبيا  
منظمين كما كان الحال من قبل .

أما فيما يخص بيززا ، فإن اللوائح التنظيمية لهذه المدينة تزودنا  
بمعلومات مزدوجة . فمن جهة ، تجدد لوائح ادارة التجارة البحرية لعام  
١٣٠٥ ، ١٣٢٢ الأوامر القديمة ضد توريد الأدوات الحربية لمصر (١٦٩) ،  
بينما تخيطنا هذه اللوائح من جهة أخرى بوجود قنصلية بيزية في  
الاسكندرية عام ١٣٠٥ ، مما يعنى بالنال وجود جالية بيزية بها . فضلا  
عن أنه قد طبق في هذه الآونة المرسوم القديم الذي كان يقضى بالزام  
القنصل بأن يدفع لخزينة كاتدرائية بيزا ايرادات فرن الجالية البيزية ،  
وذلك للانفاق منها على شعبة تكريما للقديسة ماريا (١٧٠) .

ولنتقل الآن الى جمهورية فينيسيا . فليس في الامكان القول  
بانقطاع علاقاتها بمصر بعض الوقت ، في الفترة التي أعقبت مباشرة  
سقوط عكا . حقا أن المصادر صامتة في هذا الشأن ، ولكن من الثابت  
أنه كان لديها بواعث للغضب من السلطين : فقد وقعت في الأسر في غزة  
سفينة تجارية فينيسية ( كانت غالبا قد هربت من عكا وبها شحنة ذات  
قيمة كبيرة تتكون من معادن نفيسة مسكوكة ، أو في شكل سبائك )  
أرسلت السفينة الى القاهرة حيث احتفظ بها كغنيمة (١٧١) .

كذلك كان في سجون القاهرة منذ عدة سنوات مواطنون بنادقة  
سقطوا في أيدي المصريين اما وقت الاستيلاء على عكا ، أو في ظروف  
أخرى (١٧٢) . ومع ذلك فان كان هناك فتور في العلاقات فان ذلك لم  
يديم وقتا طويلا . ففي عام ١٣٠٢ ، بعد انقضاء أحد عشر عاما فقط على  
سقوط عكا حضر سفير بندي من بديد في بلاط مصر ليطلب بالأساليب  
العتادة تجديد الامتيازات القسدية ، وكان يدعى جويدو دي كاتالي  
Guido de Canali (١٧٣) ، وسلمه الملك الناصر محمد الذي ارتقى  
العرش آنئذ للمرة الثانية دبلوما ( اجازة ) يؤكد الامتيازات التي منحها

'Sanut ined. Pic., éd. Bonaini, III, 426, 578.

(١٦٩)

Ibid., III 395.

(١٧٠)

Mas Latrie Traités de paix et de commerce, Suppl.,  
p. 86 et s.

(١٧١)

Commém., I, 116 et s.; Taf. et Thom., IV, 88 ; Commém.,  
I, 106;

(١٧٢)

Archiv. Vennet., XVII, 134; XIX, 110.

(١٧٣)

قلاوون (١٧٤) ، ووافق أيضا ، بناء على اقتراح رئاسة الجمهورية  
Seigneurie باقامة فرانثيسكو دى كانالى Francesco de Canale  
قنصلا للبندقية بالاسكندرية ، كما تنازل عن نصف ايرادات الجمارك  
عن البضائع التى تنتمى لرعايا بناذقة فى حدود المبلغ المستولى عليه فى  
غزة (١٧٥) .

والواقعة جديرة بالاهتمام لأن حكومته كانت تبذر تبذيرا شديدا  
حتى انه لم يكن فى وسعه أن يستغنى عن ايرادات الجمارك . وكان من  
بين المواد المستوردة التى تخصص فى احضارها البناذقة ، تلك المواد  
المطلوبة أكثر من غيرها ، وكان يبيعها للمسلمين محظورا على مسيحي  
الغرب .

وقررت الاجازة كذلك اعانة لتوريد هذه المواد ، وذلك بالترخيص  
بخروج البضائع المشترية بحصيلة بيع هذه المواد دون دفع أية  
رسوم (١٧٦) . ويبدو أن هذه الفقرة لم تثر أى اعتراض من قبل السفير  
البندقى ، وربما لم تتح له فرصة للاعتراض ؛ فضلا عن ذلك ، كانت  
الجمهورية تراعى بدقة تطبيق أحكام الحظر . ووجد جويدو دى كانالى الذى  
عين دوقا لكريت بعد سنة من انتهاء مهمته فى مصر ، وجد نفسه مسوقا  
لتطبيق المراسيم التى صدرت حديثا بحظر تصدير الرقيق خارج دائرة  
حكومته : فثمة عدد من الرقيق ابتيعوا فى القسطنطينية لارسالهم الى  
مصر ، وجرى بهم الى كريت فى سفينة جنوبية ، فاحتجزهم ، واعتراض على  
ارسالهم الى مصر . وكاد هذا التصرف من قبل السلطة يتسبب فى نشوب  
حرب ، فقد طالب أمير الاسكندرية بتسليمه الرقيق ، فرفض طلبه ، ومن  
ثم اعتقل القنصل الفينيسى ، فعين بانجرازيو فينيو Pangrazio Venier  
بدلا من فرانثيسكو دى كانالى ، ولكنه رفض أن يدفع له المرتب كما جرى

(١٧٤) فقد الامتياز الذى منحه قلاوون ، وليس عبدنا منه سوى تصريح يخص سوريا ،  
ميواف تتكلم عنه فيما بعد .

(١٧٥) تنص تراديج الوثائق الاربعة التى حررها جويدو دى كانالى فى نهاية  
سفارته بين ٦ و ٢٢ من ذى القعدة عام ٧٠١ هـ ، أى بين ٢ و ١٨ من أغسطس عام  
١٢٠٢ م ، ونشرت فى :

— Mas Latrie, *Traité*, append. p. 82-88, et dans *Taf.* et *Thom* IV, 5-12

— Mas Latrie, p. 86; *Taf.* et *Thom*, p. 10; *Amari*, *Dipl. arab.*, p. 484,  
not. 29.

Mas Latrie, *Op c.*, p. 83, n°8; *Taf.*, et *Thom*, IV, 6. (١٧٦)

العرف (١٧٧) . وفي عام ١٣٠٤ أوفد سفير بندقى اسمه جيوفانى سورانزو Giovanni Soranzo الى مصر ليحاول فى الغالب تسوية هذه المشكلة ،  
والمعتقد أنه حقق هذه الغاية (١٧٨) .

وهكذا يتبين من دراسة الوثائق التى استقينها منها المعلومات السابق ذكرها أنه تعاقب على الاسكندرية من ١٣٠٢ الى ١٣٠٤ قنصلان بندقيان .  
وثمة واقعة أخرى تؤكد وجود هذه القنصلية ، ذلك أنه فى حوالى هذه الفترة ، وعلى الأصح بين عامى ١٣٠٣ ، ١٣٠٧ نوقش فى مجلس الشيوخ الفينيسى مشروع لائحة خاصة بالقنصل الذى يعين فى هذا المنصب ،  
ولسوء الحظ لم تحصل على نص هذه اللائحة (١٧٩) . فإذا كان هناك قنصل ،  
فذلك لأنه توجد جالية من التجار من واجبه أن يدافع عن مصالحها .  
كما نلاحظ فى تلك الآونة وجود عدد الملاحقين بالقنصل بنجرازيو فينير ( أو مستشاريه ) بلغوا سبعة من مواطنيه فى الاسكندرية  
• omnes mercatores Alexandriae (١٨٠) .

وكانت التجارة البحرية وقتئذ فى أوج نشاطها : فثمة سفن حربية وتجارية ،  
مسلحة أو غير مسلحة تبحر الى الاسكندرية ، ودمياط ، وتينيس ،  
وتعود منها ليس فقط بمنتجات مصر ، كالكتان ، والبلح ، والعنبر ،  
وأوراق السنا (١٨١) ، ولكن أيضا بمنتجات من الشرق الأقصى ، كالغفل ،  
والزنجبيل ، وشجر البقم ، والقرفة ، والبخور كانت هذه التجارة تعتبر مشروعة طالما أنها تتناول أشياء غير محرمة .  
وصدرت فى تلك الآونة بشأن السفن التى تعمل على خط مصر لوائح جديدة تحدد  
مواعيد الاقلاع ، والشحنات ، ومدة الإقامة ، الخ (١٨٢) .

ولم يلبث البنادقة أن حاولوا أيضا تثبيت أقدامهم فى سوريا .  
وكانت غالبية الأماكن التى ازدهرت فيها تجارتهم فيما مضى قد أصبحت

---

Taf. et Thom., IV, 23 et ss. ; Commém., reg., I, 40 ét. ss., (١٧٧)  
no 176, 183 et s., 187, 216 et s, 221; Rubriche del Misti, dans l'Arch.  
Venet., XVIII, 59; XIX 111 et s., XX 293 et s.

Taf. Thom., IV, 31 et s.; Commém., reg., I, p. 47, no 215; (١٧٨)  
Arch., Véné., XIX, 111.

Arch. Venet., XIX, 111, XX, 294. (١٧٩)

Taf. et Thom., IV, 32. (١٨٠)

(١٨١) أوراق جشم من الشجر تستعمل لعلاج الاسهال ( المترجم ) .

Arch. Venet., XVIII, 315 ; XIX, 103 et s., 111 et s. (١٨٢)



اطلالا مهجورة . ومع ذلك لم يكن المصريون قد أموا فتح القسم الشمالي من البلد ، وإذا بالبنادقة يطلبون امتيازات لرعاياهم الذين يريدون الذهاب الى هناك . ومنحهم السلطان قلاوون الامتيازات التي طلبوها ( ١٢٨٨ ) وأعلن أنه يتولى حماية اشخاصهم وأموالهم ، ولم يطلب منهم في مقابل ذلك سوى دفع الضرائب والرسوم العادية ( ١٨٣ ) .

وفيما بعد ، حين لم يعد للدول الصليبية وجود ، وتقت البندقية علاقاتها بالأمير الذي يتبعه القسم الأكبر من فلسطين . ولم تعد عكا مركز الثقل السياسي للبلد ، بل صار هذا المركز هو صفد ، وهو موقع حصين في جبال الجليل غير بعيد عن طبرية ، اختاره السلطان بيبرس بعد الغزو مباشرة ليجعل منه مقلا من معقل الاسلام ( ١٨٤ ) . وكان الأمير الذي يعينه السلاطين في هذا الموقع يحكم من هناك باسمهم شواطئ عكا وصبور وصيدا وجزء من سورية حتى دمشق ( ١٨٥ ) .

وفي عام ١٣٠٤ زار اثنان من البنادقة فرانثيسكو فيرمانوس Franciscus Fitmanus ، وقسطنطينوس Constantinus أمير صفد من قبل الدوج الذي كلفهما برسالة شفوية للأمير . ونحن لا نعرف اسم هذا الأمير ، ولكننا نعرف فقط لقبه Baylius et admiralius castelli de Safet et omnis contrate Accon : وبعد أن تلقى الأمير تعليمات السلطان الناصر محمد ، كتب رده باللغة العربية في خطاب يوجه الى الدوج . وفي هذا الخطاب نقرأ أن رعايا الدوج يمكنهم الحضور الى ممتلكاته ، في أمن تام لاشخاصهم وأموالهم ، وأنه إذا أراد البنادقة أن يزوروا قبر السيد المسيح ، فإنه يزودهم بحرس يرافقهم ، يذهبون ويعودون معه في أمن . وإذا كان منهم من يريد الاستقرار في اقليمه فإنه يكفل له الحماية والمعاملة الكريمة ( ١٨٦ ) .

ثم ان البنادقة لم ينتظروا اتمام هذه الترتيبات فأرسلوا سفنا الى سنورية . ففي عام ١٣٠٠ وقعت سفينة منها عند عودتها في أسر بعض

( ١٨٣ ) هذا « الدبلوم » الذي منح بالعامرة في ٢٩ من شوال ٦٨٧ هـ . ( ٢٦ )  
نوفمبر ١٢٨٨ م . نشره لأول مرة السيد ماس لاتري :

— Mas Latrie, Traités, suppl., p. 81 et ss.

Weil, Gesch. d. Chalf., IV, 55, 58-60.

( ١٨٤ )

Burchard, de Monte-Sion, éd. Laur., p. 34; Ricoldo de Monte ( ١٨٥ )  
Crucis, ibid., p. 106; Frescobaldi, p. 130; Jacques de Vérone, dans Roehricht et Meisner, Deutsch Pilerreisen, p. 62; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 22; Chemseddin Dimichki, p. 286 et ss.

Taf. et Thom., IV, 30 et s.; Archiv, de l'Or, lat., I, 406-408. ( ١٨٦ )

القراصنة (١٨٧) . وفي محاضر جلسات مجلس الشيوخ في ذلك الحين ، دون ما يأتي Galeoe Syrioe الى جانب Galeoe Alexandrioe وكانت الفينيسية تزور موانئ البلد وتمكث بها كما كانت تفعل في الماضي : وشوهد هناك أيضا سفن فردية ، بعضها غير مسلح ، وكان مجلس الشيوخ يسمح للسفن الحربية المتجهة الى قبرص بالمرور في طريقها على سوريا (١٨٨) .

كل التصرفات التي ذكرناها آنفا تثبت عزم الحكومة الفينيسية على الاحتفاظ للتجارة الوطنية بأسواق مصر وسورية ومع ذلك ، فبين عامي ١٣١٣ ، ١٣١٧ ظهر مرسوم لمجلس الشيوخ يحظر على مواطني البندقية أن يذهبوا بأنفسهم أو أن يصدروا بضائع الى ممتلكات السلطان الواقعة بين دمياط وبورتيللا Portella . ولم يبق لسوء الحظ النص الكامل لهذا المرسوم ، وكان موجودا في الكتاب الرابع من ال Misti الذي لا يوجد منه سوى قائمة بالموضوعات ، وقد ذكر بايجاز في أربعة مواضع مختلفة من هذه القائمة (١٨٩) ، ويختلف شكل التنويهات من موضع الى آخر . وبتجميع المواضع الأربعة ، يمكننا إعادة تشكيل عنوان المرسوم كما يلي :

«Non eatur nec mittatur aliquid ad terras Soldani scilicet a Damiatia usque ad Portellam Armenioe par riperiam sub penal pro-centenario».

ولنتريث برهة عند هذا النص ، ونحاول تحليله . نرى أولا أن أهم الأسواق التي يتردد عليها التجار الغربيون في امبراطورية السلاطين ، وهي الإسكندرية بقيت خارج نطاق الحظر ، والأمر كذلك بالنسبة الى دمياط : لأن عبارة : usque ad Portellam Armenia a Domiata تفسر بمعنى أن النقطتين المذكورتين ليستا ضمن الاقليم المحظور دخوله . فالواقع لا يمكن أن يطرأ على ذهن الجمهورية أن تفرض الحظر على الأبواب القليقية ، وهي مقر مكتب جمرك أرمني واقع خارج سيادة السلطان .

وعلى ذلك اذا كان في فكر واضع المرسوم أن جمرك الأبواب القليقية ليست ضمن المنطقة المحظورة ، فإن دمياط لم تكن كذلك ضمن هذه المنطقة . ومن ثم فالميناءان اللذان كان الغربيون يدخلون عن طريقهما

Commem. I, p. 13 no 44.

(١٨٧)

Archiv, Venet, XVII, 260; XVIII, 315-317; XIX, 103 et s.

(١٨٨)

Ibid, XVIII, 52, 317; XIX, 105, 112.

(١٨٩)

في أهم ممتلكات السلطان ، بقيا كما كانا من قبل مفتوحين للبنادقة . ولم يكن الاقليم المحظور يبدأ الا فيما وراء دلتنا نهر النيل ومعنى ذلك أن المرسوم اجمالا لم يستهدف سوى قسم ثانوى من أملاك السلطان ، ولم يكن الاقليم المحظور يبدأ الا فيما وراء دلتنا نهر النيل ؟ ومعنى ذلك أن المرسوم اجمالا لم يستهدف سوى قسم ثانوى من أملاك السلطان ، ولم يكن الغرض منه على ما يبدو واضحا الحاق الضرر بالكفار ( يقصد المسلمين ) بقدر ما كان يتغيا وضع التجار البنادقة وبضائعهم بعيدا عن الأخطار التي قد يتعرضون لها في سوريا ، لأن هذا البلد كان آنئذ مسرحا لحروب دامية متواترة بين المصريين والمغول (١٩٠) .

ولم يكن التفاهم الودى بين البندقية ومصر في تلك الآونة بالذات يعكر صفوه شيء ، حتى ان أمير الاسكندرية أطلق سراح كل المسيحيين البنادقة الذين كانوا تحت سلطته ، وذلك بناء على طلب الدوج جيوفانى سورانزو ، وكفل للتجار البنادقة أحسن حفاوة ، وأرسل هدايا الى الدوج (١٩١) .

وفي روما ، اعتبر هذا الاتفاق الودى بين البنادقة والمسلمين أمرا بغيضا الى أقصى درجة . وسمى الدوج لدى البابا ليحصل منه على تصريح للبنادقة بأن يصدروا الى مصر ذهباً وفضة وقصديرا ونحاساً وأصواقا وزعفرانا ومواداً أوروبية أخرى ، وتميزا لطلبه ذكر التصريحات الشفوية التي أعطاها بنوا الحادى عشر (١٩٢) والتي ذكرناها من قبل ، بل انه أذن لسفرائه بأن يقدموا في نظير الترخيص المطلوب مبلغا كبيرا يصل الى ٥٠٠٠ دينار اذا لزم الأمر ، كل ذلك دون جدوى (١٣١٧) . فبدلا من أن تستسلم الادارة البابوية ، أصرت أكثر من ذي قبل أن ينفذ بقسوة القانون فى البندقية الحكم الذى يصدره البابا ضد كل شخص يزاول أى نوع من التجارة مع المسلمين .

وتعلم انه تبعا لأوامر كليمنت الخامس ، يوقع على المخالفين أشد العقوبات الكنسية ، وكان محظورا على من يتلقون الاعتراف أن يمنحهم الغفران ، الا اذا وافقوا على أن يدفعوا حزانة الكنيسة أو يتخذوا الاجراءات

Well, Gech, d. Chaiff., IV, 309 et ss.

(١٩٠)

Litèra domini Hermedini d.d. 13 Raboe 717 (1817) dans Taf. et Thom, IV, 103.

(١٩١)

Commem., I, p. 183 et s., nos 64, 65; Archiv. Venet., XIX; 112 (١٩٢) Archiv. Venet., XXIV, 310.

الإبصائية ( المختصة بالوصية ) الكفيلة بأن يدفع ورثتهم لخزانة الكنيسة مبالغ تساوى المبالغ التى استثمرتها فى تجارتهم مع المسلمين . ولما كان البنادقة ضمن الذين يزاولون هذه التجارة بنشاط كبير ، كانت الغرامات التى يطلبها منهم الكرسي الرسولى تصل الى أرقام هائلة ، فتساوى أحيانا مجموع الأموال التى يتركها المتوفى . وبالطبع كان الورثة ومنفذو الوصية يجدون هذا الأمر قاسيا للغاية ، ولا يدعون له بسهولة .

وللتغلب على مقاومتهم أوفد البابا يوحنا الثانى والعشرون الى البندقية أديمار تارجا Adhémar Targa كبير كهنة سانت أفريك Ste Affrique ( أسقفية فابر Dioc. de Vabres ) الذى أصبح من ذاك الحين عميد تول Tulle ، والراهب الدومينيكي فولكو Folco من سسترون Sisteron (de Sistarico) ( ١٣٢٢ ) ، وكانت مهمتهما أولا تحصيل المبالغ المودعة أو المتروكة بوصايا لتسلم الى الكنيسة ، ولكنها لم تدفع حتى ذاك الحين ، وثانيا للحكم بحرمان كل البنادقة المعروفين جهارا بمزاولة التجارة مع المسلمين : ويجب عليهما قبل أن يمنحاهم الغفران أن يستوثقا من صحة تويبتهم وأنهم دفعوا الغرامات المحكوم بها عليهم ( ١٩٣ ) ، وبالفعل أصدر تارجا قرارات الحرمان ضد عدد كبير من النبلاء البنادقة ، وضد نواب كنيسة القديس مرقس الذين يتخذهم عادة من يتوفون منفذين لوصاياهم ، هذا التدخل من قبل محكمة كنسية أجنبية فى البندقية بدت لرياسة الجمهورية تسفلا لا يحتمل ، ومن ثم دعت الى الاجتماع لجنة مكونة من رجال الدين والقانون ، وأعلنت اللجنة أن تارجا قد تجاوز سلطاته ، وأنه من المناسب وقف تنفيذ العقوبات التى حكم بها .

وحررت المطامعة وعلى رأسها الدوج وعدد كبير من الأفراد احتجاجا قدم الى البابا الذى كلف بالتحقيق الميريك Almeric (Almeri) ( ١٩٤ ) أسقف رافينا Rovenna ، ويبدو أن الحكومة الفينيسية كانت تريد أن تضع مبدأ يقضى بإباحة تزويد المسلمين ببضائع لا تساعد على انماء قوتهم الحربية . الا أن يوحنا الثانى والعشرين أعلن أن هذا الاقتراح ملحد

Ibid, p. 250, no 361 ; p. 257 et s., no 406; p. 260, no 415; (١٩٣)  
p. 250, no 360.

Ibid, p. 250, no 361 : p. 257 et s., 110 406; p. 260, no 415, (١٩٤)  
Taf. et Thom IV, 196 et s. : Archiv Venet. XXIV, 312 ; Opere, T.  
III, Helmet 1763, Cecchetti, La repubblica p. 45 et ss.; Bartolommeo  
Venezia et la corte di Roma nei rapporti della religioni, I (Venez, 1874),  
p. 286 et s.

( ١٣٢٦ ) ( ١٩٥ ) ، ورجح نفوذه القوى المبدأ العكسى • ورضخت البندقية للضغط المترتب على وجود مندوبين من الكرسي الرسولى ، وأصدر مجلس البريجادى Pregadi والكوارانتا Quaranta بالاتفاق فيما بينهم فى ١٨ من يناير ١٣٢٢ مرسوما يقضى بوجه عام بحظر التجارة مع مصر ، ومع كل البلاد الخاضعة للسلطان ، ولم يرفع هذا الحظر زمنا طويلا : ففى عامى ١٣٥٠ ، ١٣٧٤ أعيد فرضه بعبارات أشمسه صرامة على موظفى المستعمرات (١٩٦) •

وربما يفسر هذا السبب فى أنه فى غضون تسع سنوات على الأقل ، ابتداء من نشر هذا المرسوم لم يعرض على مجلس الشيوخ اللوائح الخاصة بالتجارة مع مصر (١٩٧) ، وكذلك السبب - وهذا شئ عجيب - فى أنه فى شهر فبراير ١٣٤٥ تبين لسلطان مصر أنه منذ ثلاث وعشرين سنة لم ير أحد فى امبراطوريته سفينة تجارية فينيسية (١٩٨) • ولقد اعترانى لزمنا طويل الشك فى امكانية حدوث توقف طويل بهذا القدر فى العلاقات التجارية بين البندقية ومصر ، وتذكرت أنه فى عام ١٣٢٧ طلب اللوج جيوفانى سورانزو من يوحنا الثانى والعشرين الاذن بارسال ثلاثين سفينة كبيرة وعشر سفن نقل لاحضار بضائع من مصر ، وأن يرسل اليها كذلك فى كل من الخمس السنوات التالية ثلاث سفن تجارية تقلع من جزيرة كريت (١٩٩) •

غير أن هذا المثال انما يثبت شيئا واحدا ، ذلك أنه اذا كانت الجمهورية قد خضعت للقوة فقبلت أن تصدر تشريعات بالحظر ، فانها لم تأس مع ذلك من أن توجه للبابا من حين الى حين طلبات بترخيصات استثنائية • أما معرفة ما اذا كانت قد حصلت هذه المرة على ما تريد ، فهذا أمر آخر .

---

Commém., I, p. 272, no 465; Colle, Storia dello studio di (١٩٥)  
Padova, I, si et ss ; comme, I, p. 250 no 361, p. 257 et s., no 406; Archiv.  
venet., XVII, 137 et s.; XIX, 113; XXIV, 313-315.

Instruction pour un conseiller nommé pour l'île de Crète. (١٩٦)  
(1350), publ. par M. Thomas Abh. d. bayr. Akad., Cl I, XIV, sect.  
I, p. 215. Commission d'Andrea Gradenigo, baile de Constantinople  
(1374), publ. par M. Diehl, dans les Mélanges d'archéol. et d'hist. de  
l'Ecole française de Rome, 3e Ann., 1883, p. 130.

(١٩٧) تبين هذه الرواية من مطالعة عناوين كتب Misti المقفودة :

— Archiv, Venet., XIX 113.

Taf. et Thom IV, 291. (١٩٨)

Ibid, 208 et s.; v. Archiv, Venet., XIX, 113. (١٩٩)

ويلاحظ في أية جهة ما يثبت أن البابا منحها الترخيص . ينبغي إذن التسليم بأن السلطان قال الحقيقة الواقعة .

ومهما بدت هذه الواقعة لأول وهلة غير صحيحة ، فانا نلاحظ أنها ليست كذلك اذا تفكرنا في أمرين : أولا أن في إمكان البنادقة أن يعوضوا إلى حد ما عما يفقدونه من ناحية مصر ، بمضاغفة رحلاتهم إلى الجزرات وطربزون وتانا ، لأن هذه الموانئ بقيت مفتوحة لسفننا ، ثانيا ، أن التوقف المؤقت للحركة التجارية مع مصر لم يتضمن كنتيجة مباشرة قطع كل علاقة بهذا البلد . فقد رأى سيمون سيهونيوس في الاسكندرية في شتاء عامي ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ جالية تجارية فينيسية ، وقنصلية فينيسية (٢٠٠) ، وهكذا ظلت هذه الجالية موجودة ، ولو في ظروف أكثر صعوبة : ولا شك أن أعضاءها احتفظوا بعلاقات غير مباشرة مع الوطن الأم ، وكان يكفي لذلك تحويل البضائع عن طريق قبرص ، أو كانديا ، أو أرمينيا الصغيرة .

ومع ذلك فقد جاء وقت أصبح فيه الالتزام بالامتناع عن رسال السفن الفينيسية إلى مصر ثقيل الوطأة على البنادقة . كان ذلك في عام ١٣٤٣ : فقد حدث شقاق بينهم وبين سيد تانا لم يلبث أن اتخذ طابع العنف ، وسوف نعود إلى الكلام عنه فيما بعد ، ونتج عن ذلك أن أصبح الطريق الشمالي الذي تسلكه تجارة الشرق غير صالح للاستخدام لمدة طويلة ، وفي الوقت نفسه وقعت أحداث سياسية قلبت أحوال فارس ، وانعدم الأمن على الطريق الأوسط الذي يجتازها . ولم تبق وسيلة أخرى سوى إعادة فتح الطريق الجنوبي الذي يمر بمصر . وبعد قليل من كارثة تانا أوفد الدوج مارينو فالبيرو ، وأندريا كورنارو في سفارة لدى البابا كليمنت السادس للدفاع عن قضية البنادقة الذين كانت التجارة عماد حياتهم ، وكان من شأن هذه الأحداث أن تؤدي بهم إلى الخراب .

وفي ٢٧ من أبريل ١٣٤٤ صرح البابا لفترة خمس سنوات برسالة ست سفن كبيرة ، وست سفن نقل إلى الاسكندرية وسائر الأنحاء التابعة لسلطين مصر بشرط ألا تحمل سوى بضائع مسموح بها . وفي سبيل الحصول على هذا الترخيص لم تتورع الجمهورية عن توزيع هبات سخية على حاشية البابا . وما أن استلمت الترخيص حتى قام وفد جديد إلى القاهرة ( ١٣٤٤ ) ، وكان السفير نيكولو تريزو Niccolo zeno مكلفا

بالتفاوض مع السلطان الملك الصالح اسماعيل ( ١٣٤٢ - ١٣٤٥ ) في شأن منح مواطنيه امتياز جديد .

وأبدى السلطان تسامحا ، ورحب بمجموعة من الرغبات التي قدمها السفير باسم بعض التجار البنادقة ( فبراير ١٣٤٥ ) وفي الخطاب المرفق بالامتياز ، طلب منهم العودة بكل اطمئنان الى الاسكندرية ودمياط . وما كاد نيكولو تزينو يرحل ، حتى خلفه سفير آخر ، هو انجيلو سيربي Angelo Serbi . وعند عودة هذا السفير الى البندقية احضر معه خطابا من اسماعيل بتاريخ ٦ أغسطس ١٣٤٥ يحدد به السلطان وعده بان يحسن وفادة التجار البنادقة ، وبإذن للجمهورية بان تقيم قناصل لها ، ليس فقط في الاسكندرية ، ولكن ايثما تشاء ( ٢٠١ ) . وعندما تم تسوية الأمور كلها من جانب كل من البابا والسلطان ، أرسلت البندقية بعثة أولى من سفينتين كبيرتين لكل منهما حمولة كبيرة غير عادية ( ١٣٤٥ ) : وأقلمت البعثة وعلى رأسها سورانزو سورانزو Soranzo Sotanzo ( Superantius Superantio ) الى الاسكندرية وعلى ظهر السفينة قنصل جديد للجالية الفينيسية بهذه المدينة ( ٢٠٢ ) ، سلمه مجلس الشيوخ تعليمات اضافية بوضع حد لتصرفات سيئة شاعت في الجالية ، وتذليل بعض الصعوبات الآتية من الخارج . وفي هذه المناسبة وضح المجلس قواعد جديدة لصالح السفن التي تبحر الى الاسكندرية ( ٢٠٣ ) .

وقد يبدو أنه من تلك الآونة عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبلا : ولكن ذلك لم يكن الا في الظاهر . فمن حيث المبدأ لم يرفع الحظر على التجارة ، وباستثناء بعض الحالات التي منح فيها البابا بعض التراخيص ، بإذن خاص ، أقيمت محكمة أفينيون بشدة على الحظر . وفي الأصل ، كان لهذا الموقف ما يبرره . فقد كان يجرى بهمة اعداد حملة لغزو الأرض المقدسة ، وكان من الضروري اضعاف العدو بقطع موارد قوته ، وأسباب معيشته ، غير أن البابوات ، باصرارهم على الإبقاء على الحظر في حين كان الأمل في حرب صليبية جديدة يتضاهل شيئا فشيئا ، ومع أن أحد أبطال الحظر الشديدي التحمس له ، وهو مارينو سانوتو الكبير أبدى النصح

Taf, et Thom., IV, 296 et s.

(٢٠١)

Dandolo, l.c.; Laur de Monac., l.c., Sanuto, l.c.

(٢٠٢)

Taf, et Thom., IV, 308 et S.; Biblioth de l'École des chartes, XXXV (1874), p. 101.

(٢٠٣)

منذ زمن بعيد ( ١٣٢٦ ) بالكف عنه ( ٢٠٤ ) ، تجاهلوا ( أى البوابات ) أو استخفوا بالتغيرات التى حدثت فى الموقف بمرور الزمن ، ولم يعد الأمر من جانبهم سوى عناد وأناية يستحقون عليهما اللوم ، الغرض منهما ببساطة اجبار الأمم التجارية على السعى لاكتساب الحظوة لديهم ببذل الهيئات لحزائنتهم أو لحاشيتهم .

وقد أعطينا فيما سبق مثلا لذلك ، وهاكم مثلا آخر : ذلك هو إيصال المخالصة الذى حرره أمين خزانة البابا بمبلغ ٩٠٠٠ دينار ذهبى دفعه فى عام ١٣٦١ الدوج جيوفانى دلفينو Giov. Delfino تعبيرا عن شكره من أجل ترخيص منحه البابا ( ٢٠٥ ) . ويبدو أن الخزانة البابوية كانت وقتئذ فى ميسيس الحاجة الى هذا المبلغ . غير أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد : فالتراخيص أصبحت سلعة حقيقية تتداولها الأيدي . من ذلك أن رخصة منحها فى البداية البابا اينوسنت السادس لشخص يدعى جيراردو دى روستيشيللو دى ديبه ، تنازل عنها هذا لبعض الجنوين ، وأخيرا دفع أحد سكرتيرى دوج البندقية عن نصفها مبلغ ألف « دوكا » ( ٢٠٦ ) . وفى هذه الحالة كان الأمر يتعلق بسفينتى شحن . ولكن فى مرة أخرى بلغ الثمن المطلوب للحصول على رخصة بازسال ثلاثين سفينة كبيرة وعشر سفن شحن الى مصر ١٢٠٠٠ دينار ذهبى : هذه الرخصة منحها البابا كليمنت السادس لقربيه جويوم روجير الثالث Guillaume Roger III كونت بوفور Beaufort وفيسكونت تورين Taurenne ( ٢٠٧ ) ، وهو من أغنى ملاك جنوب فرنسا ، ولالينور دو كومانج ( دو كونفيس ) Aleinor de Comminges ( de Convenis ) زوجته . ولكن البابا كان يعلم تمام العلم أن أملاك الكونت بعيدة عن البحر ، وأنه لا يستطيع أن يستخدم الرخصة بنفسه ، وعلى ذلك كان لابد للرخصة من البداية أن تنتقل الى أيدي أخرى ، ثم أن البابا أذن للكونت بذلك صراحة على الرخصة ، ووهب الكونت الرخصة لشخص يدعى ستيفانوس دى

Epist., à la suite des secr. fidel cruc., p. 207.

( ٢٠٤ )

Commém. reg., II, p. 321, nos 244, 245, 246; p. 319, no 233; p. 329 no 241.

( ٢٠٥ )

Commém., p. 323, nos 256, 258.

( ٢٠٦ )

Anselme, Hist générale de la maison royale de France, 3e éd., VI, 317.

( ٢٠٧ )



باتوتو نظير خدمات اداها هذا اليه ، وباعها سستيفانوس هذا لدوج  
البنديقية (٢٠٨) .

وبالإضافة الى الأعباء المالية التي تفرضها هذه الأمور على الأمم  
التجارية ، كان هناك اجراء بنقيض : ذلك أن البايوات كانوا يقرنون بكل  
رخصة شرطا يقضى بأنه قبل اقلاع السفينة التي منح الترخيص من  
أجلها ، كان على صاحب الامتياز أن يؤكد بقسم يؤديه أمام أسقفه عدم  
وجود أية أدوات حريرية ضمن الشحنة ، وعلى الأسقف أن يستوثق بنفسه  
من صدق القسم (٢٠٩) . وهكذا لم يكن يكفي البابا أن البنديقية قد  
أدرجت في تشريعها حظر نقل الأدوات الحريرية الى بلاد المسلمين ، بل  
فرض أيضا رقابة صارمة على السلطات الكنسية .

وفي عام ١٣٥٩ ارتكبت في البنديقية مخالفة لهذا التحريم ، وللحال  
سحب البابا اينوسنت السادس كل التراخيص التي منحها من قبل لمصر  
وسوريا ، هو أو أحد أسلافه . وبالإجمال كان البايوات يعتبرون تراخيصهم  
قابلة للسحب في أي وقت ، وكثيرا ما كانوا يفرضون حظرا كليا على  
التجارة ، أحيانا بمناسبة ارتكاب مخالفة ، كالتي ذكرناها ، وأحيانا عند  
نشوب معارك بالأسلحة بين المسلمين والمسيحيين (٢١٠) .

وقد تثير الملل اذا ذكرنا ل الرخص التي حصل عليها البنادقة ،  
وبخاصة في فترة معينة ( من عام ١٣٦٤ تقريبا ) حيث تتابع صدورها  
بانظام تقريبي من عام الى عام ، وأحيانا كانوا يحصلون على عدة رخص  
في عام واحد . وكانت هذه الرخص كثيرا ما تشمل عددا كبيرا من  
السفن ، ويبدل البنادقة قصارى جهدهم ليستفيدوا منها بالكامل ، وكانوا  
من جهة أخرى يجتهدون باخلاص في الا يتجاوزوا العدد المخصص لهم من  
السفن ، أو المهل المحددة (٢١١) .

وإذا كان البنادقة قد استطاعوا ببذل المال ، وطيب المقال تذليل  
الصعوبات التي نجت عن الحظر الذي استنته الكنيسة على التجارة .

---

pidces publiées par M. Thomas dans l'Archiv. Venet. XVII, (٢٠٨)  
99-125, d'après les commémoraili V. Mas Latrie, Hist. de Chypre III,  
compléments, p. 749 et s., et dans les Doc. inéd. Mélang. hist. III,  
156-158.

Taf. et Thom., IV, 278-307; Commem. reg., II, p. 320, no  
241; III, p. 42, no 227; p. 76, no 452. (٢٠٩)

Commem. reg., II, p. 305, no 153; III, p. 49, no 274. (٢١٠)

Commem. reg., II, p. 237, nos 116, 117. (٢١١)

فانهم لم يكونوا أقل براعة في المحافظة على علاقاتهم الطيبة بسادة مصر ،  
يشهد بذلك المعاهدات التي أبرمها معهم ايرمولاو فنير Ermolao Venier  
عام ١٣٥٥ ، ونيكولو كونتارينى Niccolo Contarine عام ١٣٦١ .

المعاهدة الأولى (٢١٢) وهي نسخة مطابقة تماما لمعاهدة عام ١٣٤٤  
مرفق بها خطاب يعلن فيه قاضى القاهرة لأمير الاسكندرية وقاضيهما عودة  
البنادقة ، ويوصيهما بالترحيب بهم (٢١٣) . ولا تختلف المعاهدة الثانية  
عن الأولى الا فى بعض التغييرات والاضافات القليلة الأهمية : فالسلطان  
الملك المنصور ، أو بالأحرى الأمير يلبغا Ylbogha (٢١٤) الذى كان  
يجكم باسمه يرخص للقنصل البندقى بالاسكندرية أن يحول نقودا الى  
بضائع فى حدود ٢٠٠٠ بيزانت ( بدلا من ١٠٠٠ وهو الحد المسموح به  
من قبل ) دون أن يدفع رسما عن ذلك ، ويوافق على اخلاء بعض الحانات  
الليلية التى تزجج البنادقة لوجودها بجوار فنادقهم (٢١٥) .

وفى حين عمل البنادقة فى أواسط القرن الرابع عشر على تعزيز  
وضعهم فى مصر بإبرام ثلاث معاهدات تجارية جديدة مع هذا البلد  
( ١٣٤٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١ ) فضل الجنويون أن يبحثوا عن أسواق جديدة  
على الطرق الشمالية التى تمر بمدينتى كافا ، وتانا عن طريق سورية  
وفارس . ومع احتفاظهم بمنشباتهم فى الاسكندرية ، كما يشهد بذلك  
سيمون سيجوينيس ، أهلوا معاهداتهم مع السلاطين حتى سقطت بمضى  
المدة دون أن يحاولوا تجديدها . ومع ذلك كانوا يطلبون دائما الى البابا .  
من وقت لآخر الترخيص لهم بعمل رحلات الى بلاد خاضعة للسلاطين .  
ففى عام ١٣٢٦ ، كان الحزب الجويلفى السائد وقتئذ فى جنوا فى نزاع  
مع كل من امبراطور الروم اندزونيك الثانى ، والمستعمرات الجنوبية فى  
البسفور والبحر الأسود . ومن ثم أصبحت المياه الرومية وبنطس مغلقة  
فى وجه البحرية الجنوبية ، ولم تجد الحكومة ( الجنوبية ) وسيلة سوى أن  
تفتح لها طريقا عبر بسلاط المسلمين ، فلبت الى البابا يوحنا الثانى  
والعشرين . واذا راعى البابا الأزمة الحادة التى تعانىها الجمهورية فانه

(٢١٢) Mas Latrie, Traités suppl., p. 88 et ss. ; Marin, VI, 137-141.

(٢١٣) Mas Latrie, Traités suppl., p. 92; Mas Latrie, dans les Archiv,  
des miss. scient, II, 373.

Weil Op. cit., IV, 506 et ss.

(٢١٤)

(٢١٥) Marin, VI, 141 et s.; Mas Latrie, Traités, p. 93; de Sacy,  
Abdallatif, Relation de l'Egypte, p. 324 note 38 et suppl. p. ٤7 et s.;  
Chrestom, arab., I, 150 et s.; Quatremère, Makrizi, I, 2, p. 6, nol.

سمح للبحرية الجنوبية أن تتوقف عند الساحل الشمالي لسورية  
(Laocéina ora) وتدخل من هناك في علاقات تجارية مع فارس  
والهند : ومنح هذا الترخيص لمدة سنتين (٢١٦) .

ومع أن الأمر لم يكن متعلقا الا باجتياز الأقاليم التي تشكل في  
الشمال حدا لدول السلطان وأن الهدف المقصود هو فارس اذ كان النضال  
الكبير ضد تثار الشواطئ الشمالية لبتطس في أوجه في ذلك الوقت ،  
أى في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر ، اتجه اهتمام الجنويين  
فجأة نحو مصر . وحتى يعوضهم كليمنت السادس عن النفقات التي  
تحملوها في سبيل الدفاع عن كافا ضد التثار (١٣٤٦) (٢١٧) منحهم  
ترخيصا بالاتجار مع هذا البلد . والراجع أنهم استفادوا على قدر المستطاع  
من هذا الترخيص .

وفي عام ١٣٣٨ رخص ملوك أراجون بإعادة علاقات برشلونه مع  
مصر . واعتبارا من تلك الآونة استعادت الحركة التجارية بين البلدين على  
ما يبدو نشاطا جديدا . ولم يبدأ بال تجار برشلونه حتى استطاعوا أن  
يحصلوا في خصوص الرسوم الجمركية على نفس المعاملة التي يتمتع بها  
الجنويون والبنادقة . وفي حوالي عام ١٣٥٠ نجحوا في خفض الرسوم  
بالنسبة اليهم والى القطلونيين من ١٥٪ الى ١٠٪ ، وهو سعر مخصص  
للأمم الأكثر مراعاة . وتكلفت السفارة الموقدة الى السلطان في هذه  
المناسبة ٨٠٠ بيزانت ذهبي . ولتغطية هذا الاتفاق فرضت ضريبة اضافية  
قدرها ١٪ على كل البضائع المرسله من برشلونه الى مصر وبالعكس (٢١٨) ،  
تدفع للقناصل : وثبت وجود هذه الضريبة الاضافية ، ووجود الفندق .  
وفي وثائق رسمية ( ٢١٩ ) .

تتيح لنا اللوحة الموجزة التي قدمناها أنفا عن العلاقات بين الأمم  
التجارية الرئيسية وبين مصر أن نصدر الآن حكما اجماليا على نتائج الحظر  
الذي فرضه البابوات . ولا ننكر أنه في الفترة التي أبقى فيها على هذا  
الحظر بشدة من جهة ، وروعى من جهة أخرى ، كف عدد من التجار عن  
زيارة الاسكندرية ، واهتموا بالبحث عن أسواق أخرى لتجارهم . ولكن  
حتى في هذه الفترة كان هناك عدد لا بأس به من التجار استمروا في

Raynald, a. a. 1326, 'no 25.

(٢١٦)

Canale, Storia dei Genovesi, (1ère ed.), IV, 346.

(٢١٧)

Capmany, Mem., IV, 107 et s.

(٢١٨)

Ibid, II, app., p. 66 : brevet de 1358.

(٢١٩)

التردد فرادى على البلد الممنوع زيارته ، يجذبهم اليه الأرباح الضخمة التي تكفلها التجارة مع مصر ، وأيضا بسبب الصعوبات التي تحيط بهذه التجارة ، ولم يبالوا بالتهديدات الكنسية الرهيبة ( ٢٢٠ ) .

وبالتأكيد اسهم الضغط الذي مارسه البابوات لفترة زمنية معينة في تحويل السياسة التجارية التي تنتهجها الأمم المهتمة بهذه التجارة الى بلاد أخرى ، فبذلت اهتماما أكبر بالطرق الجديدة المفتوحة عبر المناطق التي يحتلها التتار ، وكفت عن ارسال أساطيلها الى مصر . ولكن حتى في أشد أوقات هذه الفترة ، لم تفقد الاسكندرية بالكامل الأهمية التي لوضعها . من الوجهة التجارية العامة . ففي هذه الفترة رأى بيجولوتي الذي كان يقيم وقتئذ في قبرص من الضروري أن يضع قائمة مقارنة بالنقود والوازين والمكاييل المستعملة في الاسكندرية من جهة ، وفي عشرة أماكن تجارية في إيطاليا ، وبروفانس ، وأسواق شامباني Champagne من جهة أخرى ( ٢٢١ ) . وحين نرى في كتابه كميات التوابل المكسدة في سوق الاسكندرية ، نقول انها حقيقة بالأا تكون كذلك لو لم يكن تصريفها الى الغرب مكفولا .

وكان رعايا الأمم التجارية يجدون هناك في كل العصور نواة من مواطنيهم . مستقرين في مصر ، وقناصل . وفنادق تابعة لأرطانهم . ذلك لأنه حتى في الزمن الذي كان فيه الحظر أثقل ما يكون عبئا على التجارة ، لم تقطع السلطات البلدية في البندقية وجنوا وبرشلونة ومرسيليا علاقاتها البتة مع مصر لدرجة الغاء قنصلياتها ، أو اغلاق فنادقها ، أو استدعاء تجارها .

وتقدم الأخبار الغربية برهانا على وجود تجار من الفرنجة في الاسكندرية ، إذ تحكى نزارعا قام في عام ٧٢٧ هـ ( ١٣٢٦/١٣٢٧ م ) بين هؤلاء التجار وبين الأهالي المسلمين بالمدينة : فنسب المقرئى الخطا الى المسيحيين ، ولكن من الراجح أن التخصب والغيرة لعبا دورا من ناحية المسلمين ( ٢٢٢ ) ، وفيما بعد ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر :

( ٢٢٠ ) من بين ما ذكر في هذا الخصوص ثلاثة تجار من راجوزة ، قبض عليهم في عام ١٣٠٤ متلبسين بجريمة الاتجار مع مصر . وقد صفع عنهم بنوا الحادى عشر بشرط أن يتخلوا عن جزء من أرباحهم لبناء دير للدومينيكان في بلدهم :  
— Theiner, Monum. hist. Slav. merid. illustr., I, 121.

Pegol., p. 56 et ss.

( ٢٢١ )

Relations de Nouveiri et de Makrizi (de Sacy, Chrestomathie, ٢٢٢) arabe, II, 48) reproduites par M. Weil (Gesch. d. Châif., 360 et s.). Ibn-Batouta (voyages, I, 45 et s.).

حين ضاعف البايوات التراخيص ، أقبل الغربيون من جديد الى الاسكندرية  
في جموع كبيرة ، وعادت بالتدريج حركة السفن التجارية في هذا الميناء  
نشيطة كما كانت من قبل ، أو يجوز لنا على الأقل أن نعتقد ذلك ، مع أنه  
لا توجد احصائيات في هذا الخصوص .

وما كادت الأعمال تستعيد سيرتها الأولى حتى انقطعت فجأة من  
جديد بسبب وقوع حادث لا يمكن أن نصفه بأحسن من أنه خاتمة من  
خواتم الحروب الصليبية . ذلك أن بطرس الأول ملك قبرص المحب للقتال  
يجعل من نفسه ، بمؤازرة البابا أوربان الخامس المحرض الأول لنشوب  
حرب مسيحية ضد المسلمين ، ومن أجل هذا جال في معظم البلاد الأوروبية  
من ١٣٦٢ الى ١٣٦٥ ، وحاول بشخصه وبرسائله أو عن طريق مندوبيه  
أن يضم الى مشروعاته كل ملوك الغرب . وفي مثل هذا المشروع كانت  
القوة البحرية لجنوة والبندقية حليفا له قيمته ، ومن ثم لم يدر وسما  
في أن يزور هاتين المدينتين ، إلا أنه لم يجد بهما صدى كافيا لندائه .  
وكانت المصالح التجارية كافية لأن تثير في هاتين الجمهوريتين نفورا من  
هذه الحملة .

ولكن الى جانب هذا الباعث كان عند البندقية وقتئذ مشاغل أخرى ،  
إذ كانت منهكة في القضاء على ثورة خطيرة نشبت في كريت (٢٢٣) .  
أما بخصوص جنوا فانها كانت وقتئذ على خلاف مع الملك بخصوص بعض  
المشاكل التي لا تدخل تفاصيلها في دراستنا هذه . ومع ذلك فان فصاحة  
يتروس تومي Petrus Thomoe الداعي للحملة الصليبية ومستشار  
قبرص فيليب دي ميزير Philippe de Maizières تغلبا أخيرا على  
ترددات البنادقة الذين وعدوا بتجهيز عدد من السفن يكفي لحمل النفي  
فارس ، النصف على نفقتهم ، والنصف الآخر على نفقة الملك (٢٢٤) .

أما الجنويون فانهم بعد أن استقبلوا في البداية يتروس تومي  
استقبالا فاترا انتهوا بالاعتناع بالصلح مع الملك ، وتعهدوا بتزويد الحملة

Cōmmem. reg., III, p. 14, no 60; p. 23, no 110 et s.; p. (٢٢٣)  
25 no 126 et s.; p. 55, no 316; p. ٤6, no 316.

Phil. Mazzerius, Vita S. Petri Thomasi, dans les acta SS; (٢٢٤)  
Boll., 29 Janv. II, p. 1007, 1011; Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 742 et  
ss.

الصليبية بثلاث سفن (٢٢٥) . ولمسوء حظ الملك طال أمد الاستعدادات (٢٢٦) ، وتفرق عدد كبير من الذين كان من المنتظر أن يشتركوا في الحملة . وفي اللحظة الحاسمة اقتصر اسهام جمهورية البندقية على سفينة حربية واحدة ، واضطر الملك أن ينفق على تجهيز سفينتين أخريين وباقى السفن (٢٢٧) . وأخيرا ، في ٢٧ من يونيو ١٣٦٥ استطاع أن يبحر الى البندقية ، وضرب موعدا ليقابل فيه جيشه في رودس .

وكانت الاسكندرية هي النقطة التي اعتزم الهجوم عليها : ففي ١٠ من أكتوبر استولى عنوة على المدينة ، ونهبها (٢٢٨) . ولما كان جيشه قليل العدد ، وغير متين البنيان ، فلم يستطع الاحتفاظ بنصره ، ومن ثم إعادة بعد بضعة أيام الى السفن ، قبل وصول قوات العدو التي هزعت للمقاومة ، وكر راجعا الى قبرص (٢٢٩) . وفي البندقية استاء الناس كثيرا (٢٣٠) من الخطة التي انتهجتها الحملة ، إذ اغار بطرس على الاسكندرية دون أن يتيح للجالية الفينيسية بها الوقت الكافي لأن تتخذ

Phil, Mazz., Op. cit., p. 1012; Lib. jur., II, p. 732-744; (٢٢٥)  
Magrizi.

(٢٢٦) انتظارا لبدء العمليات ، ارسل الدوج لوردونتشيلزي الى قنصل البندقية في الاسكندرية . في شهر أبريل عام ١٣٦٤ اخطاروا بترك مقره . وبناء على خطاب وارد من الملك من باريس يدل على أنه لن يتخذ أى عمل جدى في تلك السنة . أعطى الدوج أمره للفصل أن يبقى ، وطلب من البابا عدة تصريحات لسفن تجارية بالأبحار الى مصر في تلك السنة . انظر :

— Biblioth. de l'Ecole des chartes, 1873, p. 72 et s. ; Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 252, not; Taf. et Thom., inéd.

Phil Mazz., Op. cit., p. 1013; Makrizi, dans de Sacy., Chres. (٢٢٧)  
tom. arab. II, 49.

— يتحدث المقرزي في الواقع عن ٢٤ سفينة بندقية ، ولكن هذا يثبت فقط أنهم في مصر لم يكونوا يميزون بين السفن التي تجهزها الجمهورية والسفن التي تؤجرها للملك . (٢٢٨) تتحدث بعض الأخبار الإنجليزية :

(walsingham, dans les Scrit. rer. britann. XXVIII, a., :  
p. 301 et s.; Monach. S. Alban., ibid LXIV, p. 55 et s.)

عن أقمشة حريرية ، وبروكار مذهب ومحمل بالأبحار الكريمة أحضرها بعض الإنجليز والأوكتانيين من هذه الحملة .

Phil, Mazz, Op. cit., p. 1013-1017 ; Machaut Laprise d'Alex- (٢٢٩)  
andrie, publ. par Mas Latrie (1877), p. 86-109; Machairas, p. 90 et ss.;  
Piloti p. 389 et s.

Mas jatrue, op. cit., III, 751 et s., (٢٣٠)

لنفسها اجراءات الأمن الكافية (٢٣١) حتى راح القنصل نفسه اندريا فينير  
والكثير من البنادقة ضحية لأعمال النهب (٢٣٢) .

وتدل هذه الواقعة على ضعف التفاهم بين الملك والبنادقة . أما  
الجنويون فقد كان لهم في ميناء الاسكندرية وقت الهجوم عليها سم  
سفن بها عدد كبير من البحارة ، ولكنهم لم يشتركوا في الغارة ، وفتح  
ذلك فما أن تمت الغزوة حتى اشتركوا في نهب المدينة (٢٣٣) . وهكذا  
كان دور الجمهوريتين في هذه الحملة دورا ثانويا للغاية ، ومع ذلك كانت  
وطاة انتقام السلطان شعبان أثقل عليهما منها على غيرهما : فقد نشر  
املانا دعا فيه التجار المسيحيين الى الإقامة في أمن وسلام دون أن يغشوا  
سوا ، ولم يكن هذا الا خدعة منه ، فبعد انقضاء بضعة أيام ، القى  
القناع ، وأصدر أوامره بالقبض عليهم والقائهم في غياهب السجون ،  
وتم ذلك . وابتداء من هذا الحين لم تجرؤ أية سفينة تجارية بطبيعة الحال  
أن تضاطر بالذهاب الى الاسكندرية . وعانى الغرب كله من هذا التوقف  
في التجارة : ولما شححت التوابل في السوق ارتفع ثمنها للحال (٢٣٤) .

والعجيب أن السلطان نفسه هو الذي بدأ يطلب فتح باب  
المفاوضات للصالح ، فأوقد مفاوضات الى البندقية وجنوا . وأدرك البابا  
أوربان الخامس للحال من هذا الأسلوب في التصرف أن السلطان يحاول  
أن يلقي بذور التفرقة في العالم المسيحي ليضعف وسائله العملية ، فكتب  
من فوره الى الجمهوريتين يحذرهما من اقتراحات السلطان الماكرة (٢٣٥) ،  
ولكنه كان في ذلك متأخرا : فالقوتان التجاريتان كانتا تصبوان الى سرعة  
استعادة النشاط التجاري مع مصر . وقبل وصول الرسالة البابوية الى  
البندقية بوقت طويل كان الدوج ماركو كورنارو قد كتب الى شعبان  
يشكره على اقتراحاته ويعلن اليه ايفاد سفيرين ، فرانشيسكو بمبو  
Francesco Bembo ، وببييترو سورانزو Pietro Soranzo ،  
وتلقى جوابا على رسالته بأنهما سوف يلتقيان كل ترحيب (٢٣٦) .  
ورحل السفيران بالفعل رغم تحذيرات البابا (٢٣٧) .

(٢٣١) وعد بطرس الدوج الا يقوم بأى عمل ضد الاسكندرية قبل نهاية شهر أكتوبر .  
ولكنه لم يف بوعده : — Bibl. de l'École des chartes, 1873, p. 79.

Ibid., 1873, p. 78 et ss. (٢٣٢)

Phil. de Malzières, dans Latrue II, 388 et s. (٢٣٣)

Les chroniques anglaises ... et Machauf., Op. cit., p. 115 et s. (٢٣٤)

Daynald, a. a. 1366, no 12; Commem. reg., III, p. 45, no 251; (٢٣٥)

(٢٣٦) هذا في الحقيقة هو الغرض من الخطاب الذي لا يحمل تاريخا والوجود في :  
Les commem. reg., III, p. 48, no 268.

(٢٣٧) من وثائق اعتماد ما يحمل تاريخ ٢٩ يناير ١٣٦٦ Mas latrue, III, 753.

وليس لنا علم بنص الأوامر التي أعطيت لهما \* ولكن تبعا للتاريخ المنظوم لجويوم دوماشو Guillaume de Machaut فان هذه الأوامر كانت قاصرة على طلب اطلاق سراح مواطنيهما ، والتأكيد بأن التجار البنادقة الذين يرغبون في الذهاب الى مصر سوف يلقون بها المعاملة التي تكفلها لهم الامتيازات القديمة (٢٣٨) ، وقد حقق لهم السلطان على الأقل هذا المطلب \* وفي شهر يونية عام ١٣٦٦ ، أرسلت الحكومة الفينيسية الى سفرائها في بلاط البابا نص معاهدة أبرمتها مع السلطان ، وكلفتهم بأن يضعوا هذا النص تحت أنظار البابا لاقناعه بأن موضوع هذه المعاهدة هو فقط تسوية المسائل التجارية (٢٣٩) \*

وسرت اشاعة في الأوساط الكنسية بأن الأمم التجارية تفضل قضيتها على قضية ملك قبرص ، وأنهما تستعد لعقد صلح منفرد مع السلطان (٢٤٠) ، لذا حرصت الجمهورية على احاطة البابا علما بأن الوفد الذي بعثت به الى السلطان لم يكن له أية صيغة سياسية \* غير أنه من غير المعقول أن تجرى مفاوضات دون أمل في الوصول الى عقد صلح حقيقي ، فقط كان في بلاط مصر حزب ذو نفوذ قوى يريد الحرب (٢٤١) ، وأبدى السلطان أنه لن يوقع على معاهدة صلح مع الجمهورية إلا اذا اشترك في المعاهدة عدوه الرئيسي ملك قبرص \* وعلى ذلك انتقل السفراء الى قبرص حيث كان الملك يستعد لارسال حملة الى سواحل سوريا ، ففتحوا في اقتباعه بالعدول عنها ، واجراء مفاوضات مع السلطان (٢٤٢) .. الا أن هذه الجهود كلها لم تسفر عن شيء لأن السلطان لم يكن في الواقع يريد الصلح (٢٤٣) \*

وفي هذه الأثناء توجه مارينو فينير ، وجيوفاني فوسكاريني الى أفينيون ليشرحوا للبابا أوربان الخامس باسم جمهورية البندقية أنه

Machaut, Op. c., p. 116. (٢٣٨)

Mas Latrie, III, 755; Makrizi, dans Weil, op. cit., IV, 518 et s. (٢٣٩)

— ينفي قراءة ١٣٦٦ بدلا من ١٣٦٨ \*

Phil. Mazz., l.c., p. 1017; Raynald, 1366, no 16. (٢٤٠)

(٢٤١) لتهدئة الأمير يلغا ، أعدته الجمهورية صقورا مدربة على الصيد :

— Weil, Op. cit., p. 512 et s.; Mas Latrie, II, 285.

Machaut, p. 118 et s.; Machairas, p. 94 et s. (٢٤٢)

Machaut, p. 122 et ss.; Machairas, p. 97 et ss.; Mas Latrie, II, 292. (٢٤٣)



يمكن اعتبار الصلح قد تم ، وأن الأمر لا يتوقف الا على ملك قبرص ، وأن الجمهورية مصممة في هذه الظروف على استعادة التجارة مع مصر دون انتظار القرارات الأخيرة التي يصدرها الملك ، ولكنها نريضة قبل كل شيء على الحصول على اذن من قداسته (٢٤٤) . وعلى ذلك منح البابا ترخيصا بأربع سفن شاحنة ، وثمانى سفن كبيرة ، ولكن لرحلة واحدة فقط ، وصرح بأنه يعتبر أى اتفاق بين البندقية والسلطان ، تم عقده ، أو جرى عقده باطلا وكانه لم يكن اذا كان من شأنه أن يعرقل استمرار الحرب الصليبية ضد المسلمين (٢٤٥) .

وبعد انقضاء بضعة أسابيع (١٧ أغسطس) علم البابا بالاستعدادات الجارية فى مصر وسورية ضد قبرص ورودس (٢٤٦) ، فأعلن عن حظر عام جديد (٢٤٧) ، حتى لا يقال ان الأمم التجارية تتآخى مع المسلمين فى الوقت الذى تتعرض فيه المراكز المتقدمة للعنالم المسيحي لغاراتهم . واذ قررت حكومة البندقية منع مرور الفرق العسكرية الثانوية والخييل والأسلحة قاصدة قبرص ورودس ، فقد أُنذرها البابا بإلغاء قرارها هذا ، كما احتج ملك قبرص على ذلك (٢٤٨) .

ومع ذلك عاد الكثير من التجار الغربيين يزاول التجارة مع مصر . ويحكى فيليب دو ميزير Philippe de Maizières أن الطواهر الطبيعية تجلت قاسية للغاية مع هؤلاء التجار ، ورأى فيها عقابا أنزلته بهم السماء . والشئ الذى يبسده أقرب الى المنطق أنهم لم يلقوا لدى المسلمين سوى مقابلة سيئة . وفى خريف عام ١٣٦٦ كانت خمس سفن فينيسية راسية فى ميناء الاسكندرية بين سفينة جنوبية وسفينة قطالونية ، فارتابت السلطات فى وجود قبارصة بها ، وأُنذرت السفن بتسليم القبارصة . ورفضت السفن ، وأعقب ذلك معركة قصيرة تغلبت فيها البحرية المصرية . واتهمز السلطان هذه الفرصة للتنديد بالبنادقة

Mas Latrie, III et SS. (documents des 6, 14 et 25 Juin 1366). (٢٤٤)

Commem. reg., III, p. 47, no 267 (23 juin 1366). (٢٤٥)

(٢٤٦) منذ الربيع

Archives de l'Orient latin, I, 391 et s., Paoli, Cod. dipl. II, 95.

Commem. reg., III, p. 49, no 274; cf. Phil. Mazz., l.c., (٢٤٧)  
p. 1017.

Commem. reg., III, p. 51, no 296; p. 53, no 305, Mas Latrie, (٢٤٨)  
Hist de Chypre, II, 285-289.

الذين وعدوا بأن يكونوا أصدقاء له ، ولكنهم تعاونوا مع أعدائه ، وأصدر أمره بالقبض على كل من وجد منهم في اقليمه : فاعتقل ستة وأربعين بندقيا في بيروت (٢٤٩) ، ولقي آخرون نفس المصير في طرابلس .  
 وطال سجن كل من اعتقلهم السلطان بعد حادث الاسكندرية (٢٥٠) .

أصبح واضحا أنه طالما لم ينعقد الصلح انعقادا متينا بين السلطان وملك قبرص ، فإنه لا أمل في استتباب الأمن لصالح التجارة . وفضلا عن ذلك أعلن السلطان جهارا للجنويين (٢٥١) والبنادقة بأنه لا يمكن أن يعقد صلحا حقيقيا معهم طالما هو في حالة حرب مع قبرص . وبذل البنادقة والجنويون والقطالونيون كل مافي وسعهم لبث روح السلام في نفوس الملكين ، ولكن في اللحظة التي انتعش فيها الأمل ببلوغ هذه الغاية ، انقطعت المفاوضات بسلسلة من الهجمات التي شنها ملك قبرص على مدن سوريا الساحلية ( ديسمبر ١٣٦٦ ، سبتمبر ١٣٦٧ ) (٢٥٢) . وتشبت هذا الأمير ، مدفوعا بميوله القتالية ، بمشروعاته الصليبية العامة : ولكي يحققها قام بجولة ثانية في الغرب ، وقام بعض الوقت ، عام ١٣٦٨ لدى البابا في روما (٢٥٣) حيث أوفدت اليه جنوا والبندقية سفراهما ليبدلوا الجهد لحمله على التصالح مع السلطان . وتحدث البابا نفسه بهذا المعنى ، وقبل أن يتوسط بين هاتين الدولتين ، وأذن لمفوضيه الذين عينهم لهذا الغرض أن يعقدوا الصلح باسمه ، مع بعض الشروط (٢٥٤) . وكلفت جنوا لهذه المهمة كاسانو تشييجالا ، وباولو جستنياني ، و Paolo Giustiniani ، Cassano Cigala ، وانتدبت البندقية نيكولو جستنياني ، وببيترو مارتشيللو ، ولكن عناد السلطان قضى على كل الجهود .

Commem. reg., III, p. 52, nos 301, 302; Taf. et Thom (٢٤٩)

inéd.; Machairas, p. 100; Commem. reg., III, p. 55 et s., no 319.

Mas Latrie, III, 319. (٢٥٠)

Machairas, p. 106 et s.; Strambaldi, dans Mas Latrie, II, (٢٥١)

347; Makrizi; de Sacy, Chrestom., p. 50, et Weil, Gesch. der Chalif., IV, 513 not 2.

Machairas p. 102 et s. 113 et ss. Machaut, p. 205 et ss., (٢٥٢)

Makrizi, dans Weil, IV, 523.

Mas Latrie, II, 241, not. (٢٥٣)

(٢٥٤) انظر وثيقتي ١٩ ، ٢٠ من مايو ١٣٦٨ في :

— Mas Latrie, II, 291 et ss., 302 et ss.; Machaut, p. 219 et ss. ;

Machairas, p. 119 et ss.

ولم يكن الصلح قد انعقد بعد حين اغتال أحدهم بطرس الأول ( ١٧ يناير ١٣٦٩ ) ( ٢٥٥ ) . وفي هذه الأثناء استمر السلطان يسجن ، وينهب ، ويسء المعاملة ، وأحيانا يقتل التجار الذين يقعون في يديه . واثارت حفيظة الجمهوريتين ، فاعتزمتا أخيرا التخلي عن دور الوساطة ، وأن ترسلا الى مصر سفنا حربية لاجبار السلطان على اطلاق سراح السجناء ( معاهدة التحالف في ٢٨ من يوليية ١٣٦٩ ) ودعيتا الوصي على عرش قبرص ، والرئيس الأكبر في رودس أن ينضما اليهما . وتعاهد الجنويون والبنادقة على الغناء كل تجارة مع مصر طالما استمر هذا النزاع : ونص على ذلك صراحة في المعاهدة . وفيما يخض سائر الأمم التجارية ، فإن البابا عزم معها هذا الاجراء بإصداره مرسوم ٢٧ يولييه من نفس السنة ( ٢٥٦ ) . وكان لابد أن ينتهي كل شيء ، حسب الظاهر ، ولكن بعد هذه المبادرة العظيمة ، وبعد ملاء أوراق كثيرة بالكتابة ، انتهى كل ذلك بارسال ثمانى سفن خليفة ، اتخذت لها مواقع قبالة الاسكندرية ، وأرسلت الى السلطان انذارا حاسما باطلاق سراح المسجونين . ولما لم يظهر في رده أى استعداد للامتثال ، انسحبت السفن بعد أن تركت له اعلانا بالحرب ( ديسمبر ١٣٦٩ ) ( ٢٥٧ ) .

ومع ذلك فان توقع السلطان نشوب حرب جديدة في عام ١٣٧٠ ضد الغرب المتحالف نجح في اخافته ، فأنبا قبرص بأنه على استعداد للصلح . وقوبل هذا النبأ بالفرح ، وأوفد سفراء جدد الى مصر للمفاوضة باسم ملك قبرص ، والرئيس الأكبر برودس ، وجنوا ، والبنطقية ، نجحوا في وضع أسس لسلام دائم بين السلطان وهذه الدول كليها ( نوفمبر أو ديسمبر ١٣٧٠ ) ( ٢٥٨ ) ورغم كل الجهود التي بذلت الى اليوم لم يمكن العثور على وثيقة الصلح هذه .

Machairas ; Mas Latrie, III, p. 304; Taf et Thom. inéd. (٢٥٥)

Commém. reg. III, p. 82-86, nos 503, 506 509, 510, 512-215 (٢٥٦)  
517-521.

تحكى المصادر العربية أنه في عام ١٣٦٩ قامت أربع سفن حربية افريقية بالهجوم على الاسكندرية ، ولكنها ردت على أعقابها خاسرة : هذه الواقعة لا صلة بينها وبين الحملة التي أعدتها الأمم المتحالفة ، ذلك الحلف الذي لم يتم كما ذكرنا بعاليه إلا في ٢٧ يولييه : والحقيقة هي قيام سفن قبرصية بمحاولة غزو الاسكندرية في أثناء سلسلة من الغارات التي شنتها على طول سواحل سوريا ( في ١٠ من يولييه ) .

Machairas, p. 161-164; weil, Gesch. der Chalif., IV, 523 et s.; (٢٥٧)  
Machairas, p. 159 et s.

Makrizi dans de Sacy, Chrestom arab., II, p. 50 et dans (٢٥٨)  
weil, IV, 524, Machairas, p. 164-171; Mas Latrie, II, 347 et ss.

وعلى كل حال حصلت الأمم التجارية على نتيجة مزدوجة كانت مطلوبة بشدة : فقد استرد التجار الغربيون الذين ظلوا مسجونين منذ زمن بعيد أو قريب في سجون مصر وسوريا (٢٥٩) ، استردوا حريتهم ، وفتحت المعاهدة للتجارة البحرية عهدا من الأمن كان مغلقا منذ زمن بعيد - واذ كف البابا أوربان الخامس عن إقامة العراقيل في وجه التجارة مع مصر ، فانه رفع الحظر الذى كان قد جده أخيرا بقرار فى عام ١٣٦٩ ، ومنح رخصا جديدة (٢٦٠) \* والثابت أن الغربيين أسرعوا بحماسة أشد من ذى قبل الى السوق التى أعيد فتحها للتجارة ، وتنافسوا فى بذل الجهود لاستخلاص أقصى ما يستطيعون من ربح \* ومن بين الذين تذكرهم الوثائق نجد أهالى راجوزة Ragusans ؛ فبناء على توصية الملك لويس ملك هنغاريا ، نجح هؤلاء فى الحصول على إعفاء من الحظر البابوى . ( ١٣٦٦ ) ، ( ٢٦١ ) وبعد انعقاد الصلح طلبوا من السلطان شعبان أن يمنحهم امتيازًا لتجارتهم ، وحصلوا على هذا الامتياز (٢٦٢) \* .

وسوف نتناول فى فصل آخر قصة تطور التجارة بين أوروبا ومصر بعد سنة ١٣٧٠ ، أما الآن فلا بد أن نضع خاتمة للفترة التى درسناها حتى الآن ، ولا يبقى علينا بعد ذلك الا أن نلقى نظرة سريعة وعامة على الأقاليم والأسواق التابعة لامبراطورية سلطان مصر حيث يتلاقى الغربيون والشرقيون كما اعتادوا أن يتلاقوا ، وعلى الطرق التجارية التى كانوا يسلكونها \* .

ففيما يختص بالاسكندرية ، أولى هذه الأسواق ، فانا قلنا كل ما يمكن أن يقال عنها كلما ورد اسمها فى حكاية الأحداث التى نكتب عنها \* ولكن دمياط التى تحدثنا عنها قليلا ، فانها تستحق أكثر من مجرد تنويه \* فنقل المدينة ، وإعادة بنائها على موقع من النيل بعيد عن البحر أفقدها كما رأينا مزبة موقعها الأول على الخط الذى تسلكه التجارة . ومع ذلك مازالت إيرادات جماركها كبيرة ، تزود خزانة السلطان بمعونة

(٢٥٩) وسجون دمشق أيضا ، تبعاً لما ذكره ابن قاضي شهباء ؟

Ibn ûadhi Chouhbah

-- Weil, Op. cit.

Commém. reg., III, p. 94, no 587. (٢٦٠)

Theiner, Mon. hist. Slav. merid., I, 285. (٢٦١)

Luccari, Ristretto degli annali di Rausa, p. 63. (٢٦٢)

- يطلق المؤلف على شعبان اسم « مليش سيراف » Melech Seraf والحقيقة أن السلطان كان يحمل لقب الملك الأشرف \* .

قيمة (٢٦٣) ، وعندما زارها ابن بطوطة في عام ١٣٢٦ وجدها ممونة بسلع من كل نوع (٢٦٤) . ويتحدث عنها بيجولوتي كثيرا (٢٦٥) ، ويكفي هذا لاثبات انها كانت ومازالت قبلة الكثير من الغربيين . ومع ذلك ففي القرن الرابع عشر قلت زياراتهم كثيرا عما كانت في عصر الحروب الصليبية ، ولم تسترد التجارة قليلا من الحياة من هذه الناحية الا في نهاية العصور الوسطى .

وفي ديمياط ، كما في الاسكندرية ، كانت المواد المطلوبة والثمينة أكثر من غيرها في السوق هي الواردة من الهند ، وكانت البضائع تتبع دائما الطريق التي تكلمنا عنها في معرض الحديث عن العصور القديمة ، فمن عدن كانت البضائع تصعد البحر الأحمر حتى عيذاب Aidab ، ومنها تنقلها قوافل الى قوص Kous ، ومن هذا الموقع الأخير تتبع مجرى نهر النيل حتى البحر المتوسط ، وينبغي عدم الاستعانة بالمصادر الغربية للعثور على وصف صحيح لهذا الطريق ، ذلك لأن الرحلة بالنسبة الى الأوروبي في ذلك العصر كانت محفوفة بمخاطر شديدة ، حتى ان القليل جدا منهم ، هم الذين نجحوا في التوغل داخل تلك المناطق . من ذلك على سبيل المثال أن سانوتو الأكبر يتصور أن عدن واقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وفي رأيه أن منتجات الهند كانت تنقل من عدن الى قوص على ظهور الجمال في تسعة أيام (٢٦٦) ( وهذا زمن قليل جدا بالتأكيد ) ومثال آخر يتبدى في «الخريطة القطالونية» Carte catalane التي يرجع وصفها حسب الرأي المسلم به بوجه عام الى سنة ١٣٧٥ يخلط بين القصير وقوص ، وليس ذلك لأنها تضع القصير على النيل في الموضع الذي توجد فيه قوص ، والعكس بالعكس ، فالدينتان مثبتتان تماما في موضعهما الصحيحين : فنحن نتبين تماما على الخريطة خطأ يمثل مجرى النيل ، وخطا آخر موازيا له يمثل ساحل البحر الأحمر ، ونقرأ اسم Cassa أى قوص Kous على الخط الأول ، واسم Chos أو قصير Kossair على الخط الثاني الى جانب Aidab ( عيذاب cdydip

Haythou, Hist, orient., cap. 54.

(٢٦٣)

Ibn Batouta, I, ٤9.

(٢٦٤)

Pegol, p. 59, 77, 191; Nicc. da Pogg., Libro d'alframare, II, 185.

(٢٦٥)

Ed. Bongars, p. 22; p. 260; Zurla di Marco Polo.

(٢٦٦)

— كان الاخوة بيزيجاني اكثر علما بهذا الخصوص ، فخرطتهم ( المرسومة عام ١٣٦٧ ) مصحوبة بشرح نجد فيه أن ثمة سفنا تحمل حاصلات الهند الى عدن ، ومنها عبر البحر الأحمر حيث تصل الى نهر لا يمكن قراءة اسمه ( هو النيل ، يقينا ) .

وإنما هناك شرح للخريطة نقرأ فيه : « فى مدينة Chos تجلب الأفاويه الواردة من الهند ، ومن هناك تنقل الى بابليون ( القاهرة ) الى الاسكندرية » ( ٢٦٧ ) .

هذا النص واضح ، وإذا أخذنا به ، فلا بد من التسليم بأن السفن القادمة من عدن لم تكن تنزل شحنتها الى البر الا فى القصير . غير أن الخلط واضح فالشرح يطبق على ميناء القصير Chos البحرى ما كان يجب أن يطبقه على مدينة قوص Cossa على النيل . وفى هذا الخصوص تتوافق شهادات الجغرافيين والمؤرخين العرب بالاجماع ، وهى وحدها الجديرة بالثقة : فالسفن المحملة بالتوابل لم تكن تصعد حتى القصير ، ولكن فقط الى عيذاب . ولناخذ أولا بشهادة كاتبين فى مستهل القرن الرابع عشر ، أبو الفدا ، وشهاب الدين . فالأول يذكر عيذاب على أنها ملتقى تجار اليمن ( التى كانت عدن هى أهم سوق فيها ) ( ٢٦٨ ) . أما الثانى فيقول ان « قوافل بحار الهند والحبشة واليمن والحجاز » تحتاز صحراء عيذاب وتتوقف عند قوص ( ٢٦٩ ) . وللمقريزى ، الكاتب فى العصور الوسطى الذى عرف أحسن من غيره مصر وتاريخها يصدق على أقوال الاثنى السابق ذكرهما ، ويزيد عليها فيعرفنا بأن عيذاب هى الموقع الذى كانت تفرغ عنده منتجات الهند حتى عام ٧٦٠ هـ ( ١٣٥٩ م ) ( ٢٧٠ ) ، وأنه اعتبارا من هذا التاريخ اتخذ المسار التجارى اتجاها آخر : فمن عيذاب كانت التوابل تحمل كما كانت من قبل على ظهور الجمال حتى قوص ، مقر حكام مصر العليا ، فهذه المدينة التى كانت أقل قليلا من القاهرة من حيث أهميتها التجارية ، تضم عددا كبيرا من المخازن ، وأسواقا فاخرة ( ٢٧١ ) ، ويذكر أبو الفدا قوص باعتبارها ملتقى تجار عدن ، وكان من بين سكانها عددا من التجار الأثرياء .

وكان فى مصر اتحاد لتجار الجملة له فروع تمتد الى أنحاء بعيدة ، يطلق عليها اسم Karémities ويمارس أعضاؤها التجارة مع اليمن ، وبنوع خاص مع عدن ، وكانت تجارة التوابل أهم فرع فى أعمالهم

Ed. Buchon et Tasiu, p. 114.

( ٢٦٧ )

Aboulf., Géogr., trad. Reinand, I, 167.

( ٢٦٨ )

Mesalek-el-Absar, cité par Quatremère, Mém. sur l'Egypte, I, 194.

( ٢٦٩ )

Quatremère, Mém. sur l'Egypte, II, 162 et s.

( ٢٧٠ )

Aboulf., trad. Reinand, I, p. 151; Ibn Batouta, I, 106 et s.;

( ٢٧١ )

Quatremère, Mem. sur l'Egypte, I, 194.

التجارية (٢٧٢) ، ويملكون مستودعا في قوص ، وهذا دليل على ما لهذه المدينة من أهمية تجارية . وهناك تشحن منتجات الشرق في مراكب (٢٧٤) تهبط مجرى النيل في خمسة عشر يوما حتى القاهرة ، ومنها تصل بطريق الماء الى الاسكندرية ، باستثناء نقلة قصيرة على اليابسة في نهاية الرحلة ، على طول الفرع الذي يتجه نحو الشمال الغربي (٢٧٥) . ذلك هو ، الى نهاية الفترة التي تهمننا في هذه الدراسة الطريق العادي الذي تسلكه منتجات الهند والفضين ، على الأقل بالنسبة الى القسم الذي يمر بمصر . وثمة سفن قليلة تنزل شحناتها في الطور Tor بشسبه جزيرة سيناء ، أو في السويس حيث تنقلها قوافل الى النيل (٢٧٦) . وفي بدايات هذه الفترة أظهر عدد من قباطنة السفن ايثارهم الصعود حتى الطور سيرا بالقرب من الساحل العربي . وفيما بعد امتنع هذا الاستثناء ، ولكنه عاد في الفترة التالية فأصبح القاعدة العامة .

واعتقد أنه لا فائدة من الإصرار على اثبات أن مكة كانت تتمون عن طريق عدن بمنتجات الهند والصين ، وأنه في الأعياد السنوية التي تقام

Les notes de Quartemère, dans les Not. et extr., XII, 639; (٢٧٢)  
XIII, 214 et s;  
Amari, Dipl. arab., p. lxxiii; Makrisi, Hist. des sult. mamlouks, II, 1,  
p. 92 et s.; II, 2, p. 167; Chroniken der Stadt Mekka, publ. par  
Wuestenfeld, II, 285.

Quatremère, dans les Not. et extr., XIII, 215. (٢٧٣)  
germe, (٢٧٤) يشار اليهم باسم Zerne العربية في نص السيد بولو ، ص ٥٩ ،  
في : أماري (Amari, Dipl. arab, p. 339) و glarme في Frescobaldi  
(p. 32) و cerme أو sarme في بيلوتي ، ص ٣٤٦ ، ٢٩٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ،  
germes في لاني Lannoy ص ٦٨ ، ٧١ ، ١١١ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ،  
Pegol., gerba في gierno; Ghistele, p. 192 في éd. Potvin. و  
p. xxiii. Tafur, p. 76 ، وأعطى الأخير عن ذلك وصفا تفصيليا  
(٢٧٥) سمي هذا الفرع taligiata (Sanuto, p. 22) calizene ، عند السيد  
Calis, Caliz, Sigoli, p. 168.

عند بيلوتي ص ٣٤٥ ، ٣٩١ .  
- كلمة خليج العربية تعني قناة بوجه عام ، ولكنها تطلق بنوع خاص عنى فروع  
النيل . انظر :

Viaggi alla Tana, p. 144; les notes de Poggi, dans l'éd de Sigoli,  
p. 120; M. de Sacy dans l'éd. d'Abdallatif, p. 429 ; M. Yule, éd. de  
M. Polo, II, 374.

Ludolph., p. 64. (٢٧٦)

بمناسبة الحج حيث يفد إليها المسلمون من كل الأنحاء ، يجرى ثمة بيع كبير . وبالنسبة إلى المصريين كانت سوق مكة مورداً إضافياً . ولكن بين القوافل كانت سوق دمشق تلعب دوراً كبيراً من حيث عدد الحجاج فيها ، وبالتأكيد كانت القوافل تحمل عند رحيلها جزءاً كبيراً من السلع الثمينة . وثمة حاجان ألمان زارا دمشق في الفترة التي ندرسها ، هما جويوم دي بولدنسيل Guillaume de Boldensele ( ١٣٣٣ ) ، ولودولف دي سوذيم Ludolphe de Southem ( ١٣٤٠ ) ( ٢٧٧ ) ، ذهلوا من كميات التوابل والعطور والحراير ، والبروكار المذهب ، والأحجار الكريمة التي رأياها . ولم يهتم لودولف دي سوذيم بمصدر هذه البضائع ، ولكن بولدنسيل ، الأكثر فضولاً أشار إلى الطريق الذي أتت منه ، ولم يكن هو الطريق الذي ذكرناه من قبل ، ولعله تتبع الطريق الأكثر أهمية . فالواقع أن أكبر جزء من منتجات آسيا كان يصل إلى دمشق لا بطريق قوافل مكة ، وإنما عن طريق الخليج الفارسي وبغداد ( ٢٧٨ ) ، أو بطريق البر فقط عبر فارس وبلاد ما بين النهرين . وبخلاف هذه المواد الأجنبية ، كانت التجارة في دمشق تتمون بمنتجات وطنية ، لأر هذه المدينة كان بها عمال حرفيون على درجة كبيرة من المهارة في مختلف الفروع ، ولم يفت الحاجان أن ينوها بذلك .

على أن هذه اللحظة لا تناسب الدخول في التفاصيل ، لأن الحركة التجارية المباشرة بين دمشق والغرب كانت قاصرة على الشيء القليل . فتاجر برشلونة الذي يجازف في عام ١٣٣٥ بالانتقال من قبرص إلى سوريا ، ويتوجه إلى دمشق ليعقد صفقات تجارية مع المسلمين رغم قرارات الحظر الكنسية ( ٢٧٩ ) لا يبدو أنه يجد كثيرين يفعلون كما يفعل . وحتى حلب ، ثاني سوق سورية من حيث الأهمية ، وتمتلئ أسواقها بكمية هائلة من سلع الهند ، وأطلق عليها البعض اسم « الهند الصغيرة » ( ٢٨٠ ) لم تذكر إلا نادراً في المصادر الغربية في ذلك العصر ، ومع ذلك لا بد لنا أن نذكر أن الراهب « المتأمل » ( يتبع طائفة من رهبان

Ludolph. p. 98.

( ٢٧٧ )

( ٢٧٨ ) من بين شروح الخريطة الطالونية لعام ١٣٧٥ ( ص ١٢٢ ) ما يقول أيضاً أن اللؤلؤ ومنتجات الهند التي تصل من الخليج الفارسي إلى سوريا تمر ببغداد ، وكذا بدمشق بنوع خاص .

Mas Latrie, Hist. de Chypr III, 734.

( ٢٧٩ )

Hammer, Itchame, I, 183.

( ٢٨٠ )



القديس فرنسيس - المترجم ) الفلورنسي جيوفاني دى مارينوللى  
Giov. dei Marignolli مر بتلك المدينة عند عودته من رحلة فى الصين  
والهند ، ورأى فيها الكثير من المسيحيين يلبسون الزى الغربى ويتكلمون  
الفرنسية بلهجة قبرصية (٢٨١) ، وكان معظم هؤلاء من القبارصة دون  
شك .

وبين فاماجوستا والسواحل السورية المجاورة لها ، كانت تجرى  
بطبيعة الحال حركة تجارية نشيطة . وكان من شأن الغارات المتواترة التى  
تقوم بها الأساطيل القبرصية على المدن الساحلية السورية فى أواخر  
الفترة التى ندرسها أن تقطع هذه الحركة مؤقتا . لذلك فإن القليل  
الذى يعرفه بيجولوتى عن سوريا ، بقوله فى مجال حديثه عن فاماجوستا :  
فهو يشير (٢٨٢) الى عدد من السلع التى يجدها المرء فى أسواق هذا  
البلد ، بل ان أسماءها تدل على مصدر قبرصى : تلك هى الخيوط  
الحريرية ، والسमित ( نسيج حريرى تخالطه خيوط ذهبية وقضية -  
المترجم ) ، والشملات ( الشملة نسيج من الصوف ووبر الماعز ، ويلقى  
على الكتفين - المترجم ) ، الخ . وكانت سوريا ممثلة هناك بقطنها ،  
وهو على الجودة ، كما نعرف ، والتوابل التى تأتى بها القوافل . وجاء  
زمن كان فيه تجار بيروت وطرابلس يركبون البحر للذهاب الى فاماجوستا  
ليبيعوا بها منتجات بلادهم ، وبخاصة القطن والتوابل الواردة من داخل  
آسيا (٢٨٣) . كان ذلك عصر ازدهار فاماجوستا ، ويقع ضمن عصرنا  
هذا . ولما كان التجار الغربيون من جهة يجدون بها فى سهولة السلع  
الشرقية النادرة المطلوبة ، وأنهم من جهة أخرى اذا حاولوا التوغل فى  
أراضى المسلمين يتعرضون لتهديدات الكنيسة لهم بالحرمان ، وغارات  
الطرادات القبرصية ، فإن معظمهم كانوا يتوقفون هناك ويتجنبون  
الذهاب الى سوريا .

غير أن قبرص لم تكن البلد الوحيد الذى يحول الغربيين بعيدا  
عن طريق سوريا ، فمملكة أرمينيا الصغرى المسيحية كانت من حيث  
موقعها تشكل رأس الحربة لطريق تجارى جديد ، وتمتاز بأمن أوفر مما  
فى سوريا ، ومسافة يقطعها المسافر أقل طولا للوصول الى البلاد المنتجة  
للتوابل ، وأخيرا امكانية سلوك هذا الطريق دون المرور بالمنطقة المحرمة

Dobner, Monum. hist. Bohem., II, 92.

(٢٨١)

Pegol., p. 55, 77 et ss.

(٢٨٢)

Piloti, p. 366.

(٢٨٣)

الخاضعة لسلطان مصر . فطالما كانت فاماجوستا مفتوحة لكل الغربيين . بلا تمييز ، وطالما كانت أرمينيا باعتبارها مسيحية ، وفارس باعتبارها بلدا صديقا يرحب بهم ، فانهم ( أى الغربيين ) لم يكونوا يهتمون بسوريا . ولكننا نشهد بعد قليل انقلابا يحدث فى هذا الموضع . ففى بداية الفترة التالية ، سقطت فاماجوستا فى أيدي الجنوبيين ، واعتبارا من هذه اللحظة تحولت عنها الأمم التى تنافس جنوا . وفى هذا الوقت تقريبا ، دمر سلاطين مصر مملكة أرمينيا الصغيرة .

وفى فارس أعقب التعصب والفوضى التسامح والنظام السائدين فى العهود السابقة . وكانت نتيجة هذه التغيرات أن ظهر الغربيون من جديد فى سوريا بصورة مستمرة . ومع ذلك يبالغ بيلوتى بعض الشيء إذ يقول انه اعتبارا من احتلال الجنوبيين فاماجوستا أن بدأ سائر اللاتينيين يترددون على دمشق وباقى مدن سورية ( ٢٨٤ ) .

وقبلا ، فى أواخر الفترة التى نتحدث عنها ، بدأت العلاقات المباشرة لتجارة الغرب مع سورية تتضاعف . وعندما أعطى البابا الاذن بزيارة البلاد الاسلامية ، انتهز البنادقة هذه الفرصة ، ليس فقط بارسال سفنهم الى مصر ، ولكن أيضا بالقيام من وقت لآخر برحلات الى سورية ، وبخاصة بيروت : مثال ذلك فى عام ١٣٤٥ ( انظر بعاليه ) وعام ١٣٦٦ . وكانت الارسالية الأخيرة تتكون من ثلاث سفن كبيرة على ظهرها سبعون تاجرا ، وشحنة ثمينة ، ومبلغ كبير من المال . وعند وصول القافلة ، استقبل التجار فى الظاهر أحسن استقبال ، ولكن ما أن بدأت المبادلات التجارية حتى قبض الأمير غدرا على كل من كان موجودا منهم على الأرض . ولقى آخرون نفس هذا المصير فى طرابلس ( ٢٨٥ ) . وعندما دفع البنادقة ملك قبرص بطرس الأول الى أن يعقد الصلح مع السلطان ، كان ذلك كما نرى نصحا من أجل مصلحة ، وكانت غايتهم تجنب مواطنيهم عواقب أعمال كيدية من هذا النوع . ولم تكن للحمية التى أبدتها القطلالونيون فى اقرار السلام باعث غير هذا ( ٢٨٦ ) ، وبدأ البعض منهم بالفعل يزورون بيروت .

Piloti, p. 367.

(٢٨٤)

Mechairas, p. 100; Commem. reg. III, p. 43, no. 234; p. 52, nos 301, 303.

(٢٨٥)

Mechairas, p. 94, 100.

(٢٨٦)

بل ودمشق منذ زمن مبكر (٢٨٧) ، في فترة كان التجول في بلاد المسلمين حدثا نادرا ودليلا على الجرأة .

وإذا تساءل البعض عن مدن سوريا التي استفادت من عودة الحركة التجارية ، نجيب بأن بيجولوتي لا يذكر سوى أربعة موانئ : عكا ، بيروت ، وطرابلس ، واللاذقية ، وخمس مدن داخلية : رمله Ramla ( ليدا Lyda ) ، ودمشق ، وحماة ، وأنطاكية ، وحلب ، ويقارن موازين ومكاييل هذه المدن بنظيراتها في أماكن أخرى . وفي خصوص بعض هذه المدن يذكر الرسوم الإدخولية الواجب دفعها عند الدخول والخروج ، ولكن هذه المعلومات تتسم بجفاف الإحصاء ، ولا تفتح لنا رؤى كافية عن حالة التجارة في البلد . أما أهم الموانئ في مملكة بيت المقدس القديمة ، تلك التي ازدهر فيها النشاط التجاري في الأحياء الأوروبية ، فإنها صارت خرائب مهجورة .

وفي عام ١٣٣٠ ، وعام ١٣٤٠ ، بعد انقضاء حوالى نصف قرن على سقوط الدول اللاتينية ، زار بعض الحجاج عكا ، وصور ، وحيفا ، وقيصرية ، وعسقلان ، ويافا ، ووجدوا في هذه الأماكن مناظر الخرائب الكئيبة (٢٨٨) . ولم تعمل حكومة المسلمين شيئا لاعادة بنائها ، ومع ذلك فبالنسبة الى عكا مثلا ، لم يكن الأمر يتطلب بذل جهود كبيرة : ذلك أن الحكومة لم تكن تريد أن تفرى هذه المدن الغربيين لاعادة غزوها ، وأنهم اذا عادوا فاستولوا عليها بحملة صليبية جديدة فإنها لن تترك في أيديهم سوى خرائب . ومن بين هذه المدن ، كانت عكا وحدها هي التي لم يزل بها القليل من الحركة التجارية . غير أن الحياة التجارية أصبحت من ذلك الحين متركة في دمشق وحلب ، وكان هناك مستقبل ينتظر المدن الساحلية التي لها صلة بتلك الأسواق الكبيرة ، مثل بيروت وطرابلس واللاذقية ، أو أنها بدأت بالفعل تكتسب بعض الشهرة ، وبنوع خاص بيروت التي يصفها جويوم دي بولدنسيل (٢٨٩) بأنها مدينة متألمة .

(٢٨٧) نجد أمثلة لذلك بالنسبة لسنتي ١٣٣٥ ، ١٣٣٨ في

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 732-734.

Boldensele, p. 242-244; Ludolphe de Suthem, p. 38, 46; Ibn (٢٨٨)

Batouta, I, 129; Aboufleda, Géogr., II, 2, p. 17, 20, 22.

Op. cit., j. 286.

(٢٨٩)

## (ج) أسواق وطرق جديدة ينشئها التتار

### اولا : ظهور التتار ( المغول )

كان لظهور المغول ( التتار ) فى الساحة العالمية تأثير حاسم على نمو التجارة بين الشرق والغرب . هذه القبيلة التى لم تكن بالكاد معروفة حتى ذلك الحين ، بدأت باخضاع عدد من القبائل المجاورة لها وضمها اليها . وعندما نمت قواتها بدرجة كافية ، وانطلقت خارج آسيا الوسطى بقيادة خاتها تيموجين الملقب بجنكيزخان ( أى القوى ) ، سادت الاعتقاد بعودة عصر الفتوحات الكبيرة . وتمثل طبيعة جنكيزخان وخلفائه فى عجرفة لا حدود لها توحى اليهم بالطموح الى بسط سيادتهم على العالم كافة . ولكي يحققوا هذا المشروع الهائل جندوا جماعات لاحصر لها من المحاربين المدربين تدريباً جيداً ، واستخدموا خليطاً من العزيمة والرياء للتغلب على كل العقبات التى تعترض مسيرتهم ، واستخفوا بأرواح البشر بدرجة لم يعرفها أحد حتى ذلك الحين . كانوا وهم منتصرون يهتمون لفتوحاتهم بمدائح بشرية حقيقية ، ويوقعون الخراب بمن يبقى على قيد الحياة باستنزافهم بأساليب بارعة لم يسمع بها أحد .

ولم يلبث المغول أن ظهوروا فى المراكز المتقدمة من العالم المسيحى . وفى عامى ١٢٢٢ - ١٢٢٣ اجتازوا كالعاصفة الهوجاء القوقاز ، والقرم ، وجنوب روسيا . غير أن ظهورهم هذا كان مجرد ظهور عابر ، فظهروا ثانية بعد بضع سنين ، وعلى رأسهم باطوخان . وفى هذه المرة مدوا غزواتهم المدمرة حتى سيليزيا Silésie ، وبوهيميا Bohémie ، وهنغاريا (١٢٤١) ، وأنشأوا لهم مستوطنة دائمة فى جنوب روسيا .

ولما كان العالم المسيحى فى الغرب قد تعب من الحروب الصليبية ، وانقسم الى حزبين بسبب النزاع بين البابوية والأمباطورية ، فانه لم يفكر فى شئ سوى أن ينهض بجموعه ليحارب العدو المشترك . وبدأ البابوات بالدعوة الى حرب صليبية ضد المغول ، ولما رأوا أن جهودهم غير مجدية ، خطر لهم أن يستخدموا ضددهم الأسلحة الروحانية ، ولهذا لجأوا الى جماعات « الصدقة » التى نشأت حديثاً ، وتميزت بحماسة دينية قوية . وكان الأمر يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة لوعظ هؤلاء الخانات التتار الذين يعتبرون أنفسهم سادة العالم حتى يخضعوا لشرعة المسيح وممثله على الأرض . وكان لابد أيضاً من شجاعة كبيرة للاقدام على

مزاولة أى نوع من التجارة مع جنس بشرى كانت شراسته وعاداته الثورية تمتع العرب فى نفوس البشر كلهم . ولكن النجاح معهم فى هذا السبيل كان نصرا لا يقدر بثمن .

والواقع أن اعتناق المغول الدين المسيحى لم يبد مستحيلا حتى تكون كل محاولة تبذل فى هذا السبيل غير مجدية . وبالفعل تكون فى وسط آسيا حول نواة هذا الجنس المسيطر كتلت من عشائر تضم أكثر من عنصر مسيحى . فمن بلاد ما بين النهرين وفارس حيث مزارعهم الرئيسية ، نشر النسطوريون حولهم بلا ضوضاء فكرة المسيحية ، وتبلى تأثيرها فى تلك النواحي . من هذا أن الـ Karaites ، وهى قبيلة كبيرة استقرت على حدود الصين ، اعتنقت منذ زمن بعيد الديانة المسيحية ، يشهد بذلك المؤرخ المسيحى أبو الفرج (Aboulfaradj (Bar Hebraeus) (٢٩٠) . والمؤرخ المسلم رشيد الدين Rachideddia (٢٩١) ، ويردد الأخير هذه الواقعة مرارا . هذه الشهادة المزدوجة الصادرة من معسكرين متضادين تبدو لنا كافية لاثبات هذا الأمر (٢٩٢) .

وقمة قبيلة أخرى لاتقل ضخامة عن السابق ذكرها ، وهى قبيلة النايمان Naimans التى استقرت على المجرى العلوى لنهر ارتش Artich ، يزعم البعض أنها كانت تعتنق المذهب النسطورى ، يؤكد هذا الزعم على الأقل جويوم دو روبروك Guill de Roubrouk . وبعض الكتاب الشرقيين . الا أن ثمة مبشر آخر ، أقوى ملاحظة من جويوم دو روبروك ، وهو يوحنا دو بيانو Ouigours دو كاربين Jean de Piano de Carpine . يقول لنا ان النايمان كانوا وثنيين (٢٩٣) . وعلى أية حال فالثابت أن المسيحيين كانوا يعيشون بأعداد كبيرة وسط العشائر التى لم تعتنق المسيحية ، مثلا عند الاويجور Ouigours (٢٩٤) . ويواجه عام فإن الرحالة الغربيين الأوائل الذين زاروا بلاد التتار وجدوا

Hist. dynast., éd., Poccoke p. 427; Chron. Syr., éd. Bruns (٢٩٠)  
2e partie, p. cccxxxv et s.; Voy les remarques de M. d'Avezac dans  
2e partie, p. cccclxxxv et s. ; Voy les remarques de M. d'Avezac dans  
l'introd de Joh. de Plan, Carpin., p. 534 et s.

Hist des Mongols de la Perse, éd. Quatremère, I, 93. (٢٩١)

M. Zarncke (op. cit., p. 65 et ss ). (٢٩٢)

G. de Rubr. p. 260, 295; Erdmann, Temudschin, (٢٩٣)  
p. 563; Zarncke, Op. cit., p. 67.

G. de Rubr., p. 282, 288; Hayton, De Tartaris, cap. 2. (٢٩٤)

مسيحيين من المذهب النسطوري منتشرين في كل أنحاءهم ومعهم  
فأساوستهم وكنائسهم (٢٩٥) . ويشغل بعض النسطوريين في بلاط  
الخانات التتار مناصب الوزراء والأطباء والمعلمين ، ويتمتعون ثمة  
بنفوذ كبير (٢٩٦) .

وأخيرا لانسى ماكان يؤديه بعض النساء المسيحيات ، أمهات  
الخانات أو زوجاتهم . ونتوقع من هذه الناحية نتائج عظيمة من الأتحاف  
التي انعقدت بين ذرية تيموجين ( جنكزخان ) وأسرة زعماء قبيلة الكيرايت  
Keraite الذين أصبحوا تابعين للتتار . هذه الأسرة المسيحية  
أنجبت أم خاني مانجسو Mangou الشهيرين قبلاى ، وهولاكو .  
وزوجة هذا الأخير ، وزوجة أرجون خان Argoun-Khan : وأسماؤهن  
هي : سيوركوكيتي Siourkookiti ، ودوكوز - خاتون Dokouz  
Khatoun- ، وأوروك Ourouk ، وكان الثلاثة يعتنقن المسيحية  
صراحة ، وللاثنين الأخيرتين الفضل في تمتع المسيحيين بحظوة كبيرة  
لدى زوجيهما (٢٩٧) . وفى عام ١٢٤٥ سافر المبشرون الأوائل الذين  
أوفدهم الكرسي الرسولي الى بلاد التتار : ولم يكن هناك في هذا الوقت  
أية معلومات عن هذا الشعب ، فلم يؤخذ في الاعتبار بعض العناصر التي  
كان من شأنها أن تكون ذات أثر فعال في هداية هذا الشعب الى الدين  
المسيحي .

ومع ذلك انطلق راهبان : اسيلان Ascelin الدومينيكانى ،  
ويوحنا دو بيانو كاربيني الفرنسيسكانى بشجاعة الايمان ، وتوغلا مع  
رفاقهما ، أحدهما في المواقع الأمامية للتتار في فارس ، والثاني الى

---

(٢٩٥) G. de Rubr., p. 292, 301 et ss., etc. ; M. Polo, I, 153, 160  
et s., 165 et s.; 203, 206, 214. Lettre de Sempad. dans Guillaume de  
Nangis (Bouq., XX, 360 et ss).

(٢٩٦) Abulfarague, Hist. dynast. éd. Poccocke, p. 321; Assemani,  
Biblioth. or., III, 2, p. 105; Rachideddin, citation dans Saint-Martin,  
Mém. sur l'Arménie, II, 280 et dans d'Ohsson, Hist. des Mongols, II, 234  
et s. ; G. de Rubr., p. 293, 320, 338; Orpélian, dans Saint-Martin, Op.  
cit au bas de la p. 135.

(٢٩٧) Quatremère, Rachideddin, I, 90; Saint-Martin, Op. cit.  
Rachideddin, I 94 et s. ; De Tartaris, cap 27; Malakia, dans Brosset,  
Hist. de la Géorgie addit. et éclairciss p. 455; Kiracos de Ganzag, dans  
Brosset, Deux historiens Arméniens (S. Pétersb. 1870-1871), p. 185,  
194 et dans Dulaurier, Les Mongols d'après les historiens Arméniens,  
dans le Jour. asiat., V série, T., XI, p. 491; 507; Vartan, dans la Suite  
de cet article, Ibid. T. XVI, p. 209 et s., 308 et s. ; Hayton, Op. cit.,  
cap. 45 ; Hammer, Gesch. des Ilchane, I, 360, 395.

معسكر خانات التتار أنفسهم . وفشلت هذه الارشالية الأولى تماما ،  
 ورفض التتار رفضا باتا أن يعتنقوا الدين المسيحي ، وأجابوا اجابة  
 قاطعة بأن على مسيحي الغرب أن يخضعوا لسطانهم . وفشل كذلك  
 المبشران اللذان أوفدهما القديس لويس S. Louis ، وهما أندريه دو  
 لونجيمو André de Longjumeau ( ١٢٤٩ ) ، وجويوم دو روبروك ،  
 وهو راهب فلمنكي ( ١٢٥٣ - ١٢٥٥ ) . وعلى أثر ذلك ضعف الأمل في  
 الغرب بصورة واضحة في هداية التتار الى المسيحية .

وفي هذا الخصوص ، كان مسيحيو الشرق أشد مثابرة . وماليت  
 أن ذاع بين النسطوريين المنتشرين في معسكر البلاط أن خانا أو أميرا ما  
 صار مسيحيا في السر ، أو أنه على وشك أن يصير مسيحيا ( ٢٩٨ )  
 والثابت أن هؤلاء كانوا يببالغون في اظهار نفوذهم ، وينخدعون  
 بتصرفات الأمراء التتار . والواقع أن هؤلاء الأمراء كانوا يبدون الكثير  
 من العطف على التساوسة المسيحيين ، ويزورون كنائسهم ، ويحضرون  
 احتفالاتهم : فقط فات هؤلاء النسطوريين أن مايفعله الأمراء مع المسيحيين ،  
 يفعلونه بالمثل مع الكهنة الشامانيين والبوذيين والمسلمين ، فكانوا يمنحون  
 كل هؤلاء نفس الامتيازات . ولم يكن هذا السلوك يدل على تغيير في  
 الدين ، وإنما يخفى لامبالاة شديدة بأمور الدين والعقائد والشئون  
 السياسية ( ٢٩٩ ) . واذ خرجت هذه الشائعات من بين صفوف  
 النسطوريين فانها ذاعت لدى مسيحي غرب آسيا ، من أرمن وجورجيين  
 ممن كانت لهم مصلحة خاصة في نشرها في الغرب ، إذ كان يهجم فوق  
 كل شيء أن تكون هناك علاقات ودية بين مسيحي الغرب وبين التتار .  
 وعندما خف الرعب الذي استثارته الغزوات الأولى ، لم يلبثوا أن يعترفوا  
 بأن نير التتار أهون عليهم من نير المسلمين الذي كان ثقيلا على البعض  
 منهم ، وكان الباقون مهددين به ، وكأنه قدر لامفر منه .

وبفضل وساطة قوية أداها سوري نسطوري ذو نفوذ ، هو الدكتور  
 سيميون Siméon ( ١٢٤١ ) وملك أرمنيا حيتوم الأول Hétoum Ier  
 ( ١٢٥٤ - ١٢٥٥ ) عاملهم الخانات العظام معاملة طيبة غير عادية ،

Joh. de Plán, Carp. p. 766; G. de Rubrouk, p. 260. (٢٩٨)

Mon étude sur les Colonies de l'église romaine dans les pays (٢٩٩)  
 Tatares, dans la Zeitschrift J. hist. Theol., 1858, p. 260 et ss., p. 269,  
 275 et s.

Kiracos, dans Brosset, Op. cit., p. 137 et s. 178; Lettre du (٣٠٠)  
 connétable arménien Sempad, l.c. p. 362; l'Hist. de Sempad Orpélian,  
 dans Saint Martin, Op. cit., p. 129 et ss.

ومنحورهم بلا مقابل حرية ممارسة طقوسهم ، بل وصرحوا لهم أن يشيدوا كنائس جديدة على نفقتهم (٣٠٠) . وراعى هولوكو خان فى العديد من المدن التى استولى عليها أن يحافظ بقدر المستطاع على أرواح المسيحيين وأموالهم وكنائسهم (٣٠١) . ومع أنه لم يكن مسيحيا (٣٠٢) ، إلا أن تصرفاته يظهر فيها تأثير زوجته النسطورية ، دوكوز خاتوم ، وكان يميل بفضلها الى معاملة المسيحيين بالحسنى ، وأظهر لهم اعترافه بما أبداه المقاتلون الجورجيون والأرمن من شجاعة فى قتالهم المسلمين الى جانب التتار (٣٠٣) . وأنا لنلمس هنا سببا ثانيا ، سياسيا ودينيسا لايثار المسيحيين الشرقيين التتار بصورة واضحة .

ويبدو أن التتار قدر لهم أن يقضوا على تفوق الاسلام فى آسيا . لذلك فبعد الضربة المباشرة التى أنزلها هولوكو بقلب الاسلام بقضائه على الخلافة فى بغداد ( ١٢٥٨ ) واصل فتوحاته فغزا سوريا ، وانضم اليه الجورجيون وسكان أرمينيا بأوامر من أمراءهم ، ثم سكان جنوب أرمينيا الصغرى بقيادة ملكهم حيتوم الأول ، انضموا اليه فى حماس . وبقوتهم تحت أعلامه عدو العالم المسيحى (٣٠٤) لم يكونوا يفكرون فى أنهم يؤدون واجبا مفروضا عليهم كأتباع ، وإنما يؤدون واجبا مقدسا . ولسوء الحظ فإن المسيرة المظفرة التى قام بها التتار وحلفاؤهم المسيحيون بلغت نهايتها .

فبعد زمن قصير ، أوقعت أقوى دولة فى الاسلام وهى مصر بالتتار هزيمتين ساحقتين ، ودخلت سوريا ( ١٢٦٠ ) دخول السادة العظام ، ودفعت أرمينيا الصغرى غالبا لمن نجاحها العابر . وكان منجو Mangou قد وعد ملك أرمينيا بغزو الأرض المقدسة ، واعدتها بالتالى الى المسيحيين .

(٣٠١) Kiracos, p. 185 et s., 188; d'Ohsson Hist. des Mongols, III, 241 ; Ricold, de Monte Crucis, dans Laurent, Peregrinatores medue oevi, p. 120.

(٣٠٢) Hayton, De Tartaris, p. 424 ; Vartan, l.c., p. 306-308.

(٣٠٣) Malakia, l.c., p. 456; Vartan, l.c., p. 304 ; Hayton, p. 420; Orpélian, dans saint-Martin, Op. cit., p. 123, 152; Bar-Hebreous, Chron. Syr., p. 543 Rachideqdin, I, 94 et s.

(٣٠٤) استقبل المسيحيون احتلال المغول دمشق بفرح ، وانتهزوا هذه الفرصة لمعاملة المسلمين بمجرقة . واهانتهم ، وسبهم ، وتركهم القائد المغولى ، وهو مسيحى ، يفعلون ذلك . انظر ، القرينى :

Hist. des sultans mamlouks, éd. Quatremère, I, 1, p. 98; cf. p. 106.



ويبدو أن هولاء تكفل بتنفيذ ما وعد به أخوه (٣٠٥) ، ولكنه أخفق . غير أن فشل هذه الحملة أثار في نفوس مسيحي الشرق رغبة حارة بأن يوحدوا بأى ثمن قوى التتار ، والعالم المسيحي الغربى ضد العدو المشترك ، مصر .

وعكف ملوك أرمينيا بهمة من الجانبين على تحقيق هذه الفكرة ، ووجدوا لدى خانات التتار استعدادا تاما لذلك . وانتهى العصر الذى كان فيه الخانات العظام يندرون أمراء الغرب بالخضوع لهم دون قيد ولا شرط ، وانقسمت امبراطوريتهم الهائلة الى خانات مستقلة وكلها شاسعة وقوية ، ولكن كثيرا ما كانت أعمالهم الخارجية تعرقها ما بينهم من منافسات داخلية . ولم يعد فى وسع سادة هذه الامارات الصغيرة أن يتكلموا باللهجة المتعجرفة التى كان يستخدمها الخانات العظام . كآثر لنشوة انتصاراتهم . على أنه لكى يتسنى القيام بالحملة المطلوبة ضد سوريا ومصر لم يكن فى المستطاع الاستعانة بغير امير واحد من هؤلاء الأمراء ، ذلك هو سيد مملكة التتار التى أسسها هولاء فى فارس . فالخان الأكبر الذى أقام فى الصين لم يزل يمارس على هذه المملكة نوعا من السيادة الاقطاعية ، ولكنه لم يعد يهتم بشئون غرب آسيا .

وكان خليفة هولاء المباشر أباقا Abaka ( ١٣٦٥ - ١٢٨٢ ) ملتزما بسيرة سلفه ، متبعا تصرفاته الطيبة مع المسيحيين (٣٠٦) ، ومن ثم اتخذ الخطوات الأولى فى تنفيذ هذه السياسة ، فأوفد مرارا سفراء الى البابا وبعض أمراء الغرب يحثهم على التحالف معه وتنظيم حملة مشتركة . وأبدى ابنه أرجون Argoun ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ ) المشاعر نفسها التى كانت لوالده من ناحية المسيحيين ، ووجه الى أمراء الغرب الدعوة اثر الدعوة للقيام بحملة صليبية ، واعداء اياهم بتقديم جيوش ومؤن . ومن بعده واجه خانية آخر ، اعتنقوا الاسلام ، منهم قازان Ghazan ( ١٢٩٥ - ١٣٠٤ ) واولجايتو Oldjaitou ( ١٣٠٤ - ١٣١٦ ) ، واجهوا دون خوف فكرة محاربة عدوهم الأكبر سلطان المصاليك (٣٠٧) . ومعهم جيش مسيحي .

ولم يفت السفراء المكلفون بحمل رسائلهم الى الغرب ، وهم

Hayton, p. 418 et s., 421.

(٣٠٥) .

Biographie du patriarche nestorien Yabalaha III (mort en (٣٠٦) 1318), trad. Siouffi, dans le Journ. asiat., 7e série, T. XVII (1881), p. 89 et ss.

Le livre sur les Tatars, écrit en France en 1307 par l'Ar- (٣٠٧) ménien Hayton (Héthoum), voy. Cap. 55, 58, 60.

مسيحيون في الغالب أن يلمحوا بأن سادتهم قد تحولوا تحولا نصفيًا أو بالكامل إلى العقيدة المسيحية ، سواء كان ذلك مثبتًا أو غير مثبت في التعليمات المزودين بها . والواقع: أنه لم يكن هناك شيء من هذا ، غير أن هذا التلميح كان له أثر طيب ، وكان السفراء يطلعون من البابا التفضل بإيفاد مبشرين لهداية شعب التتار إلى المسيحية . وكان الباباوات سعداء بأن يجدوا أعوانا لهم في المسائل التي تهانهم فوق كل شيء . العودة إلى شن الحملات الصليبية ، وهداية التتار إلى المسيحية ، ومن ثم أحسنوا وفادة هؤلاء السفراء ، أيدهم بحماس .

على أن الأمراء الدنيويين اقتصروا على بسذل وعود لم تنفذ بالمرّة (٣٠٨) . وبدلا من الجيوش الصليبية التي كان الحانية ينتظرونها ، فانهم لم يستقبلوا سوى مبشرين يحملون توصيات من البابا أو من أمير مسيحي . وكان هؤلاء المبشرون يؤدون مهمتهم بهمة يستحقون عليها كل ثناء ، وكانوا يحضرون معهم إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عددا كبيرا من المسيحيين الشرقيين ، ويشيدون الكنائس والأديرة ، وينشئون مطرانيات وأبرشيات . غير أن جهودهم كلها لم تمنع جمهور الشعب التتاري الكبير من أن يعتنق الدين الإسلامي . وعند عام ١٢٩٥ اعتنق الخانات الذين بقوا حتى ذلك الحين أوفياء لدين آباؤهم ، اعتنقوا الدين الإسلامي ، ولم يتخلوا بعد ذلك بالمرّة عن الإسلام ، باستثناء واحد فقط منهم ، هو تاجودار أحمد (١٢٨٢-١٢٨٤) Tagoudar Ahmed .

ولحسن الحظ كانت الاعتبارات السياسية التي تفرض سلوكيات طيبة مع الغرب تخفف من التعصب الديني الملازم لهذه الديانة ، وكان ذلك بتأثير ملوك أرمينيا ، وبروح التسامح الديني الذي لم يزل حيا في نفوس الجنس المغولي ، وإذا كان هناك بعض الاضطهادات التي اقتربت ضد المسيحيين ، فانها لم تكن طويلة الأمد .

وهكذا ففي غضون النصف الثاني من القرن الثالث عشر تحولت الضغينة التي شاعت بين التتار وبين العالم الغربي إلى نوع من التجاذب ،

---

(٣٠٨) لم ينفذ الملك جاك الثاني ، ملك أراجون العود بالنجدة التي أبداهما في عام ١٣٠٠ لحان غزان عن طريق بندو أوليفيرو ( من برشلونة ) ، انظر : Capmany, Memorias, IV, 28 :

وكان قد فرض شرطا أن يحصل على جزء من البلاد التي يتم فتحها ، وأن يؤذن لرعاياه بالسفر إلى سوريا والتجوال بها وزيارة الأراضي المقدسة دون أن يدفعوا أية جزية . وفيما يختص ببرشلونة ، لا شك في أن لفظة « اسفار » voyages» تعني ليس فقط رحلات الحج ، ولكن أيضا الرحلات التجارية .

فصار كل منهما يسعى الى الآخر : الغرب بفكرة تحويل التتار الى الدين المسيحي ، والتتار بأمل الحصول من الغرب على امدادات ليخارباو عدوهم القوي ، مصر . وانتهت هذه المحاولات كلها بالفشل ، من كلا الطرفين ، الا انها أسفرت في بضع سنين متعاقبة الى تبادل الخطابات والرسائل ، ونتج عن ذلك تقارب بين العالمين تجلّى اثره بالحسير ، في غير المسائل السياسية والدينية .

وفي اثر المبشر القادم الى بلاد التتار ، أقبل التاجر ، وقام أمثال يوحنا دابيانو دي كاريني ، وأندريه دو لونجيمو ، وجويوم دو روبروك برسم الطريق الذي سلكه بعدتهم ليس فقط العديد من رجال الدين المشتغلين بالتبشير ، ولكن أيضا العلمانيين الذين اجتذبهم الى تلك البلاد انثائية الرغبة في الربح : فقد فتحوا لمن ساروا على نهجهم الطريق الى أقطار شاسعة ، بأن توغّلوا حتى مقر الخان الأكبر في مجاورات قره قوروم ، وهي مدينة واقعة جنوبي بحيرة بيكال Baikal في بلاد الكلكاس Khalkhas . على بعد أربعة أو خمسة أميال انجليزية من المجرى العلوي لنهر اورخان Orkhan في الموضع المسمى الآن قره بلغاسون Kara-Balghassoun (٣٠٩) . ولم يدخل قلبهم أى تاجر أروبي في قلب قارة آسيا ، ومن المستحيل اثبات أن التلجاري المقيمين في موانئ الدول الصليبية قاموا برحلات كبيرة داخل آسيا : بل انه ليس لدينا مثال واحد يثبت أنهم خاطروا بالذهاب فقط الى بغداد أو حتى الى ضفاف الخليج الفارسي .

وكانت دمشق وحلب الواقعتان على بعد يومين أو ثلاثة أيام من البحر المتوسط تمثلان الحد الأقصى الذي لم يتجاوزه من ناحية الشرق أكثر التجاري الغربيين ، ولم يكن التجاري يسلكون هذا الطريق ليستطيعوا التوغل كان بعض التجاري الايطاليين قد صعدوا مجرى نهر جيهان Bjihan وتوغلوا عن هذا الطريق في أرمينيا الصغرى ، في حوض نهر الفرات ، الا أنه من المستحيل تحديده النقطة التي وصلوا اليها . وكانت سواحل البحر الأسود وبحر أزوف وقتئذ لا يتردد عليها الا القليل النادر من التجاري الغربيين ، ولم يكن التجاري يسلكون هذا الطريق ليستطيعوا التوغل في وسط آسيا . وكان لابد لهؤلاء التجاري من بذل جهد كبير ليتعرفوا

Obel Rémusat, Recherches sur la ville de Kara-Koroum (٣٠٩)  
(Mém. de l'Acad des Inscr., VII (1824, p. 234 et ss.), p. 288 et s.;  
Pauthier, M. Polo, p. xxxvii et s., et p. 171; et Journ. Asiat., 6<sup>e</sup> série,  
T. IX, p. 50; Yule dans le Geographical Magazine, juill, 1874.

- يعتمد المؤلف على معلومات المسافر الروسي بادرين Paderin التي زار  
اطلال هذه المدينة في عام ١٨٧٣ .

بأنفسهم على بلاد آسيا التي بسط عليها الخانات سلطانهم : وان لم يكن ما وراء الفرات كله أرضا مجهولة عندهم ، فان كل تلك النواحي كانت على الأقل أرضا عذراء .

وأخيرا ، فحتى ذلك الحين لم يكن أى أوروبى قد زار البلاد التي تمتد شرقى آسيا ، خلف اقليم الخلفاء . ولم يكن ذلك بسبب أن هؤلاء التجار الغربيين تنقصهم روح المغامرة ، فان ما كان يمنعهم ينوع خاص من التوغل داخل القارة الآسيوية هو التعصب الاسلامى الأشد عنفا فى الداخل منه على الحدود حيث كان سلاطين حلب وايقونوم ( قونية ) على الأقل يقبلون عقد معاهدات تجارية مع الايطاليين . وفى خارج سوريا وآسيا الصغرى كانت كل خطوة يخطوها المسافر تعرضه لمزيد من الأخطار . وعلى العكس من ذلك لم يعرف المغول كما سبق أن قلنا هذا الهوس بالاضطهادات الدينية ، فالعديد من المسيحيين الذين انتزعوهم من اوطانهم ، وأتوا بهم قسرا الى وسط آسيا ، وكذا المسيحيون الذين استقروا بإرادتهم فى امبراطوريتهم ، استمروا يمارسون دون أى عائق عاداتهم الدينية ويتمتعون بوجه عام بمعيشة يحسدون عليها : وتسنى للمبشرين أن يستوثقوا من ذلك بأنفسهم .

وكان فى مقدور المسافرين المسيحيين المزودين بجسوايات مرور يحصلون عليها من الخانات ، وبصحبة حرس من المغول ، وفى حماية الموظفين أن يتوغلوا فى أقسام المملكة الشاسعة التي يسكنها اقوام أغلبهم مسلمون ، مثل بلاد ما بين النهرين ، وفارس ، وبخارى ، وتركستان . ومن حيث الحضارة ، لم يكن المغول متخلفين بدرجة لا يستطيعون معها أن يعرفوا قيمة منتجات البلاد الأخرى . وثمة حقيقة واحدة تكفى لاثبات رأى مسبق فى صالحهم ، ذلك أنهم كلما استولوا على مدينة كانوا يراعون بعامة سلامة العمال من سكانها وينشئون العديد من المستوطنات الصناعية وينقلون العمال الى مواقع مختلفة من امبراطوريتهم (٣١٠) . وعلى ذلك كان فى مقدور التجار الأجانب أن يطهئثوا الى أنهم سوف يجدون هناك كل ترحيب . وكان جنكزخان فى عصره حريصا على ألا يعرقل شيء مسير القوافل ، وكان السبب فى نشوب حرب من أكبر الحروب التي خاضها ، المعاملة القاسية التي لقيتها فى اقليم بعض سلاطين خوارزم قافلة كان قد جهزها هو بنفسه : فقد قبض على التجار الذين يشكلون القافلة عند

---

(٣١٠) Les missionnaires Jean de Piano de Carpine (p. 697, 711) et Simon de S. Quentin (voy. Vinc. Bellov., Spec. hist., lib. 29, cap. 77); Rachideddin, éd. Quatremère, p. 181, 339, 389; d'Ohsson, Hist. des Mongols, III, 77, 80, etc. Guill. de Rubrouk, p. 279 et s., 350.

وصولهم الى اوترار Otrar ، وسلبوا ، وقتلوا ، ذلك فى حين أنه كان يعامل تجار هذا البلد أحسن بماملة ممكنة (٣١١) . وكان قد أقام مراكز على طول الطريق لحماية التجار (٣١٢) . وسوف نرى خانات فارس يرعون بهمة هذا التنظيم و يقيمون قوات عديدة لحفظ الأمن فى الطرق . وكانت ارادة سادة البلد تقضى بأن يلقى التجار الأوروبيون فى كل مكان عوناً ومساعدة . وعلى الأقل حرص خانات فارس الذين هم من أصل مغولى على مراعاة هذا السلوك لاجتذاب مسيحي الغرب الى حلفهم ضد مصر .

وعندما غزا الخانات القسم الغربى من آسيا ، عكفت الأمم التجارية الغربية على ملا الفراغ الذى حدث بعد ضياع سوريا ، لأن الشريط الضيق من الأرض ، وهو آخر ما تبقى للدول اللاتينية على الساحل ، كان مقدراً له السقوط ان عاجلاً ام آجلاً فى يد مصر . وعلى ذلك وجهت هذه الأمم أنظارها بطبيعة الحال صوب امبراطورية المغول الشاسعة ، ونحن نعرف عن ذلك ما فيه الكفاية ، فلا يثير هذا الأمر دهشتنا .

ولم يكن دخول الامبراطورية أمراً عسيراً : فعند الخروج من أرمينيا ، لم يكن على المرء الا أن يعبر سلسلة جبال طوروس ، وعلى السفح المقابل بظا أرض المغول . وكان لأرمينيا مزية أخرى ، باعتبارها نقطة بداية : ذلك أن ملوكها كانوا فى آن واحد أصدقاء للعالم المسيحي الغربى ، وأتباعاً للخانات المغول . واذا فضل المرء أن يبدأ الرحلة من امبراطورية طربزون الصغيرة التى اضطر ملوكها أن يسلموا بسيادة الخانات المغول ، فإن مسيرة بضعة أيام تؤدى به الى اقليمهم (٣١٣) . وأخيراً ، كانت امبراطورية المغول تمتد فتشمل قسماً من أوروبا ، وتضم هناك مساحة من السواحل يمكن الوصول إليها بسهولة من ناحية البحر ، وكذا الساحل الشمالى للبحر الأسود ، وسواحل بحر آزوف كلها . ولما كان التتار حقيقة من أبناء السهوب (٣١٤) ، فانهم لم يستفيدوا من امتلاكهم الموانئ ليبينوا لهم أساطيل ، ومن ثم كان فى وسع السفن الأجنبية أن ترسوا عندها دون أن تخشى لقاء من ينافسها .

ومن ذلك الحين انفتحت للتجارة طريقان سلكتهما الغربيون فتوغلوا فى قلب عالم التتار : أحدهما يبدأ من أرمينيا الصغرى أو امبراطورية

---

Erdmann, Temudschin der Uner-schutterliche, p. 355 et s. (٣١١)

Ibid. p. 356. (٣١٢)

Guill. de Rubrouck, p. 216. (٣١٣)

Cantacuz, III, 192. (٣١٤)

طربزون فيؤدى أولا الى فارس ، ومن هناك ، قد يركب المسافر البحر فيعبر الخليج الفارسى ، ويواصل رحلته حتى الهند أو الصين . والطريق الثانى يبدأ من جنوب روسيا الحالية ويجتاز وسط آسيا وينتهى الى الصين . ونبدأ بدراسة الطريق الأول (٣١٥) .

## ثانيا - أرمينيا الصغرى

### باعتبارها الطريق الى وسط آسيا

بعد ازدهار امارة أنطاكية ، الحوض الشمالى للدول الصليبية ، ازدهارا مؤقتا ، انكشبت منذ بضع سنوات حتى أصبحت قاصرة على مدينة أنطاكية وبضعة حصون الى أن سقطت نهائيا تحت ضربات سلاطين مصر المظفرين . وكان ذلك قبل سقوط عكا بزمن طويل . وأدت هذه الحسارة الى انتزاع تجارة الغرب من سوقى أنطاكية واللاذقية ، فكان من الضرورى العمل على ايجاد أسواق جديدة ، ولكن لا بد من استيفاء عدة شروط : فهذه الأسواق يجب أن تكون واقعة على جزء من الساحل بعيد عن غارات الكفرة ( يقصد المسلمين ) ، ويجب التأكد من حسن استقبال التجار بها ويجب أخيرا أن تهىء الأسواق منفذا ميسورا للمنتجات الواردة من داخل القارة الآسيوية حتى تصدر الى الغرب . ولحسن الحظ كان هناك بلد يجمع كل هذه المزايا : وهى مملكة مسيحية تقع على رأس الزاوية المكونة من سواحل آسيا الصغرى وسورية . ونحن نعرف أن الأمم التجارية كانت منذ زمن بعيد على علاقات ودية مع هذا البلد . وكان هناك على الساحل المحيط بخليج الاسكندرية ميناءان ، أقلهما أهمية هو ميناء بالي ( بالس )

Palli (Pals), Pottus Pallorum, Portus de Pallibus

ويقع على بعد عشرة أميال من انطاكية شمال غربى نهر جيحان . وثمة عقود موثقة فى سنتى ١٣٧٤ ، ١٣٠٠ تعرفنا بأن هذا الميناء كان بمثابة محطة يتردد عليها عدد من السفن التجارية القادمة من جنوا وبرشلونة (٣١٧) .

ولا يبدو أن فترة نشاط هذا الميناء قد طال كثيرا بعد سنة

Sanuto, dans Bongars, II, 88 et s., et les Portulans du Moyen-  
Âge. (٣١٥)

١٣٠٠ ، ذلك لأن الأرخ بروشار Brochart يتحدث في تقرير له عن موانئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط التي يمكنها أن تحتوى أسطولا في حالة تنفيذ مشروعات الحروب الصليبية التي كان يجري اعدادها وقتئذ ، فيقول عن ميناء بالورس Palores انه ميناء مهجور ، كما أنه صغير وضيق بالنسبة الى مثل هذا الأسطول (٣١٨) . نجد هذا الاسم أيضا على الخرائط البحرية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وكذا خرائط القرن الخامس عشر . وليس من الجائز أن نستنتج من ذلك أن هذه الناحية قد احتفظت بأية أهمية كميناء بحرى : ذلك لسبب بسيط ، وهو أن واضع هذه الخرائط قد اكتفوا بنسخ خرائط من سبقوهم .

وعلى بعد عشرة أميال فقط من هناك ، نحو الشمال الشرقي ، غير بعيد عن أطلال ايجيه القديمة Egée قامت مدينة هامة ، تلك عى ثفرا وقلعة آياس Lajazzo ، الواقعة داخل الخليج الذى يحمل هذا الاسم ، وتمتاز على جارتها بأن لها ميناءا فسيحا ، ويذود عنها حصنان ، أحدهما قائم على جزيرة قبالة المدينة (٣١٩) . وعندما يخرج المسافر من هذه المدينة ذاهبا الى شمال سورية ، لم يكن عليه الا أن يسير محاذيا ساحل خليج آياس ويجتاز مور بيلان Beilan وتستغرق هذه المسيرة بضعة أيام .

ومن الناحية الأخرى يجد المسافر نهر جيحان ، وهو صالح للملاحة على جزء طويل ، ويصب في الخليج على مسافة ليست ببعيدة من آياس (٣٢٠) ، وتتصل هذه الناحية من جهة بأقليم الفرات العلوى ،

V. Sanuto, l.c. et les remarques de MM. Desimoni et Rey (٣١٦)  
dans les Archives de l'Or. lat., I, 436; II, 1, 349.

Archiv. de l'Or. lat., I, 451, 473, 474, 475; II, 2, 40. (٣١٧)

Adys directif, p. 303. (٣١٨)

Sanut., Epist., à la suite des Secret., fidel. cruc., u. 289 et s., (٣١٩)  
297; Weil, Gesch. der Chalif., IV, 351; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 27;  
Archiv de l'Or lat., I, 495, 505.

(٣٢٠) ثفر آياس بلدة قديمة على الساحل الغربى لخليج آياس (الاسكندرية حاليا) ، وكان الملاحون والتجار الإيطاليون فى القرون الوسطى يعرفونها باسم « اجاززو » أو لاجاززو « Ajazzo/Lajarro » وكانت جزءا من امارة أرمينيا الصغرى ، تركزت فيها التجارة بين الغرب والشرق ، وكانت تربطها بالشام وبلاد الجزيرة طرق برية جيدة ، ومنها بدأ خرج ماركوبولو فى رحلته الى آسيا سنة ١٢٧١م ، كما كانت مقر المقيم البندقى لدى آل عثمان .

وقد ذكرها ابن آياس فى تاريخه باسم قلعة آياس التى كانت مدخلا بحريا وتجاريا لأرمينيا الصغرى - للترجم -

( انظر دائرة المعارف الإسلامية - خورشيد الجزء الأول ، ص ١١٥ ) .

ومن الجهة الأخرى بأقاليم آسيا الصغرى التي تفصلها عن أرمينيا سلسلة جبال طوروس ، وأخيرا يمكن بطريق البحر الاتصال بسهولة بقبرص وسوريا .

ويتحدث أبو الفدا عن الجوازات باعتبارها ميناة مشهورا ، وملتقى التجار ، يهرعون إليها من البر والبحر ، ولكنه ينسب الأصل في رخائها إلى عصر لاحق للعصر الذي قضى فيه قضاء مبرما على الدول الصليبية ، وهذا غير صحيح (٣٢١) .

وقد مر ماركو بولو بهذه المدينة قبل سقوط عكا بعشرين سنة ووجد بها حركة تجارية نشيطة ، ويقول انه شاهد بها « كل أنواع التوابل ، والحرائر ، والبروكار المذهب ، وسلعا أخرى ترد إليها من داخل آسيا » ، ويأتى إليها تجار جنوا والبندقية وغيرها ومعهم منتجات الغرب يبادلونها بمنتجات الشرق . وفى زمن هذا الرحالة المشهور كانت لاجاتزو نقطة انطلاق التجار والمسافرين الغربيين (٣٢٢) الذين يقصدون التوغل فى داخل آسيا ، وكانت أيضا الميناء الذى يأتون إليه ليجروا منه غايدين الى بلادهم . وفى الرحلة الأولى التى قام بها الاخوان نيكولو ومافيو بولو Niccolo et Maffio Polo فى الصين ، انطلقا من سواحل البحر الأسود ، ولكنهما مرا بآياس فى عام ١٢٦٩ عند عودتهما الى وطنهما . وكانت هذه المدينة هى التى اختارها كنقطة انطلاق لرحلتهما الثانية التى قاما بها عام ١٢٧١ بصحبة ماركو بولو الشاب (٣٢٣) .

والذى يعمنا كثيرا من كل ما رواه ماركو بولو عن آياس أنه يذكر هذا الميناء على أنه سوق فى الدرجة الأولى من الأهمية لتجارة مختلف أنواع التوابل . وتتأكد هذه المعلومة بامتياز منح للجنويين فى عام ١٢٨٨ ، ونطالع فى هذا الامتياز تعسدا لبعض السلع مثل الفلفل ، والجنزبيل ، وخشب البقم ، والنيلة التى اعتاد الجنويون أن يشتروها فى الجوزات ويصدروها من ناحية ايكونيوم ( قونية ) (٣٢٤) . وبعد عشر سنوات اشترى اثنان من البنادقة ، وهما ماركو ميشيل الملقب لوتاتارو Marco Michiel (Lo Tataro) ، وباولو موروسيتي

---

Abouf., Géogr., l.c. (٣٢١)

V. le Liber pergrinations de Ricoldo di Monte Croce, dans Laurent, Pereinatores, p. 113, 122. (٣٢٢)

Marco Polo, éd. Pauthier, I, 15, 18 et s., 34 et s. (٣٢٣)

Recueil des historiens des croisades, Documents arméniens, éd. Dulaurier, I, 752, 754. (٣٢٤)



Paolo Morosini اشتريا من الجوزات ست بالات من الجزيريل ، من النوع المسمى بالبلدى (٣٢٥) . غير أن في هذه البراهين ما يكفينا . والثابت أن الجوزات كانت على صلة بالبلاد المنتجة للتوابل عن طريق القوافل .

والمطلوب أن نبحث أولا عن رسم الطريق الذى تسلكه التوابل ، هل كانت تمر بالخليج الفارسى ، ثم تصعد مجرى نهر الفرات لتصل عن طريق الأبواب القليقية Portella الى الجوزات في خليج الاسكندرونة ؟

الجواب نعم اذا سلمنا مع السيد بوتيه M. Pouthier أنه ينبغي قراءة الفقرة التى كتبها ماركو بولو في هذا الخصوص كما على : « اعلموا أن كل التوابل والأقمشة الحريرية والمذهبة الواردة من بلاد الفرات تحمل الى هذه المدينة » (٣٢٦) ونقرأ بعد هذا بقليل ، كنتيجة لذلك أن « كل من يريد الذهاب الى أرض الفرات من تجار أو غيرهم ، يتخذ طريق هذه المدينة » . غير أن السيد يول Yule أثبت ببراهين قوية (٣٢٧) أن معنى الفقرة الأولى قد حرف بملاحظة هامشية أضيفت فيما بعد ، وأن الأمر لعلقة لة أبدا بالفرات : وقد فهمها المترجم اللاتينى الأسبق أحسن مما فهمها صاحب التعليق : فقد ترجمها ببساطة بهاتين الكلمتين : *infra terram (Orienti)*

والواقع أن ماركو بولو كتب في الفقرتين *fraterre* وهذا التعبير يشير في فكره الى داخلية آسيا . وعلى ذلك فمن العبث محاولة العثور في هذه الفقرة على أية اشارة محددة الى البلاد التى تمر بها القوافل .

وعلى أية حال فالحقيقة التى يمكن انكارها هى وجود حركة تجارية بين سورية وآسيا الصغرى . ورغم ما كان يصيب هذه الحركة كثيرا من معوقات وصعوبات بسبب الغارات التى يشنها خانات هولوكو ، وأباقا ، وقازان ( ١٢٦٠ - ٣٠٠ ) وحملات سلاطين مصر ضد أرمينيا الصغرى ، فانها كانت مستمرة ، وكان جمرک الأبواب القليقية ( بورتيللا ) يجمع

---

Romanin Stor, di Venez., III, 400 et s.; M. de Ma Latrie, (٣٢٥) dans la Biblioth. de l'Ecole chartes, 1873, p. 50-54; les Commem., I. p. 87 et s., no 298.

(٣٢٦) ما لا شك فيه أن التركيز على الأهمية التجارية لهذه المدينة على الطريق بين أرض الفرات وخليج الاسكندرية قد عمل على الاعتقاد بأن المقصود بها مدينة « سيس » عاصمة أرمينيا الصغرى . ولكن سياق الحديث يؤكد أنها هى ميناء أباس البحرى السابق الاشارة اليه فى هامش ٣٢٠ .

M. Polo, I, 43, note 4.

(٣٢٧)

لملوك أرمينيا إيرادات كبيرة (٣٢٨) . وكان عدد من التجار البنادقة يجتازون أيضا الحدود عند هذه النقطة ويدفعون الرسوم المطلوبة (٣٢٩) ، وتجار آخرون يصلون الى أرمينيا عن طريق البحر ، ويتزودون من آيأس بالمنتجات السورية . يشهد بذلك ميشيل ، وموروسيني اللذان ذكراهما قبلا في مناسبة شراء ست بالات من الجزنبيل ، وحملها معهما أيضا من حلب ثمانية عشر كيسا من القطن . ولكن كان هناك دائما تجار يسافرون الى سورية بعد انجاز أعمالهم في أرمينيا .

وتدخلت جمهورية البندقية في عام ١٣٢٠ لصالح مواطنيها لدى الملك لأوون الخامس Léon V حتى لا تقام الصعوبات في وجه من يريد منهم الانتقال من أرمينيا الى سورية . وأبدى الملك استعداده لمنحهم الحرية المطلقة في هذا الخصوص طالما لم يكن في حرب مع المسلمين (٣٣٠) .

نقول بعد ذلك ان سورية لم تذكر بالاسم في فقرة الوثيقة التي نعطيها هنا معناها العام ، فقد استبدل باسم البلدة كلمة تبدو غامضة في ظاهرها : Jusem ، غير أن النص في مجموعه يدل على أن المقصود هو بلد اسلامي مجاور ، وفي هذا ما يكفي لاستبعاد سلطنة قونية ، ثم ان كل ما قيل ( في هذا النص ) ينطبق بوضوح على سورية . ويجب قسراءة in Sem : فالنص الأصلي به كلمة Sem ( أو Scham بمعنى الشام ) بوضوح ، التي كان يستخدمها الأرمن ويقصدون بها سورية بوجه عام ، وبخاصة الاقليم الذي به مدينة دمشق (٣٣١) . وقد يبدو عجيبا أن ينقل المترجم اللاتيني هذا الاسم الشرقي دون أن يترجمه ، مع أن هذا الاسم كان مألوفاً أيضا في الغرب ، واستعمله سانوتو كثيرا ، ويقرنه دائما بانهم سسورية ، مما يدل على أن الاسمين ينطبقان على موضوع واحد (٣٣٢) .

- 
- (٣٢٨) منذ عام ١٣٢٢ أجبروا على النزول عن نصف إيرادات چمارك بورتيلسلا ،  
والجزوات لسلطين مصر ، انظر :  
— Raynald, Annal. eccl., a.a. 1323, no 9, T. XXIV, p. 221.  
Traité de 1307 et de 1321, dans Langlois, Trésor, (٣٢٩)  
p. 167, 183.  
Langolls, ibid., p. 181. (٣٣٠)  
Dulaurier, dans le Journ. asait, 5<sup>e</sup> série, T. XVI, p. (٣٣١)  
293, 294 et dans le Recueil des historiens des croisades, Doc. armén.,  
I, 303 : Brosset, annotations de Kiracos, dans Deux historiens  
Arméniens, p. 145, not. 4; Haython, Hist. Orient., cap. 14, p. 11, éd. de  
Helms. (1985); Mas Latrie. Traité. Suppl. p. 81.  
Secr. fid. cruc. p. 36, 37, 56, 92, 97, 243; Kunstmann, (٣٣٢)  
Marino, Sanudo, Suppl., Epist. V. p. 795 (Tirage à part, p. 99).

ويطلق بيجولوتي أيضا عبارة Sciamé di Soria في خصوص  
 انتاج القطن ، ويقارن بين منتجاته في حماة ، وحلب ، وعكا ، والبلاذقية ،  
 الأمر الذي يدل ، حسب قوله على أن هذه المدن الأربع لم تشملها مقاطعة  
 Scham (٣٣٣) . وعلى العكس من ذلك ، في المعاهدة المذكورة قبلا ،  
 تظهر كلمة Sem على أنها تعني سورية بوجه عام . وقد أوضحنا أنه  
 حتى في الأزمنة الأكثر اضطرابا ، ما أن تهدأ الأحوال حتى تسترد الحركة  
 التجارية نشاطها من سورية الى أرمينيا ، وبالعكس .

أما بخصوص معرفة ما اذا كان النصيب الأكبر من منتجات الهند  
 قد استمر يستخدم إقليم سورية ، أى ما اذا كانت آياس تتلقى توابل  
 الهند عن طريق سورية ، فإن هذه مسألة ينبغي معالجتها على حدة ، إذ  
 ترتبط ارتباطا وثيقا بمسألة أخرى يجب أولا إيجاد حل لها : فمنذ  
 انقضاء على الخلافة في بغداد ، هل احتفظت بلاد الدجلة والفرات ، من  
 ناحية التجارة ، بنفس الأهمية التي كانت لها من قبل ؟ فمنذ غزو هولوكو  
 هذه المنطقة ، انتقل مركز النقل السياسي الى شمال بلاد ما بين النهرين .  
 أى الى إيران : فبين تبريز Tauris وبغداد ، العاصمتين القديمة  
 والجديدة ، لم تلبث المنافسة في التجارة أن تجلت بتدرج بطيء ولكنه  
 منظم . وطالما احتفظ كل من الخلافة من جهة ، والدول اللاتينية من جهة  
 أخرى بكيانه الخاص ، كانت منتجات الشرق المستوردة عن طريق الخليج  
 الفارسي تمر ببغداد وتصل الى البحر المتوسط عن طريق أنطاكية  
 والبلاذقية (٣٣٤) .

ومع ذلك نلاحظ أنه مع أن حركة منتجات الهند من الشرق الى الغرب  
 تتبع دائما نفس الاتجاه ، عن طريق الخليج الفارسي ، وبصرة وبغداد ،  
 فإن ماركو بولو يشير الى وجود علاقات بين تبريز والهند (٣٣٥) .  
 ويقرر سانوتو في الجزء الأول من كتابه Secreta fidelium Crucis  
 الذى ألفه في عام ١٣٠٧ أن منتجات الهند التي تجتاز القسم الغربي من  
 امبراطورية المغول لتصدر الى الغرب كانت تمر اما ببغداد واما بتبريز .  
 ولكن في عصره كان هذا الطريق أقل الطرق استخداما في التجارة ،  
 أما الجزء الأكبر من البضائع فكان يتخذ طريق الاسكندرية . واحتفظت

Pegol. p. 367.

(٣٣٣)

Sanut. p. 22.

(٣٣٤)

(٣٣٥) وقد مر ( ماركو بولو ) بطورس ( تبريز ) عند عودته من الصين عام ١٢٩٣

أو ١٢٩٤ -

Ed. Pauthier, p. 47 et s., 60.

بغداد وتبريز بالأسبقية في تجارة التوابل الدقيقة ، مثل الكبابية ( حب العروس : نبات من الفصيلة الفلقلية يستعمل في الطب - المترجم ) ، والنادرين ( نردن : نبات صغير طيب الرائحة - المترجم ) ، وما شابه هذه الأنواع ، ذلك لأن قيمة هذه المواد لا تتوقف على وزنها • ومن ثم فإن نفقات نقلها برا لمسافات طويلة لا تؤثر تأثيرا محسوسا على سعر التكلفة •

وثمة سبب آخر لتفضيل هذه الأصناف : ذلك أنه لما كان ثمنها مرتفعا ، فلا بد أنها كانت تدفع في مصر رسوما مرتفعة كثيرا ، في حين أنها لم تكن خاضعة في امبراطورية المغول الا لرسم معتدل • وأخيرا فإذا كانت التوابل الثقيلة الوزن تتبع بعامة طريق الاسكندرية ، فان الأنواع الرقيقة منها مثل الزنجبيل والقرفة كانت تصدر بطريق البر ، أى عن طريق امبراطورية المغول لغم طول المسافة ، وذلك لتجنب أسباب التلف ( ٣٣٦ ) •

وحتى بداية القرن الرابع عشر كانت بغداد وتبريز تقاسمان «زوية» نقل منتجات الهند الى الغرب ، ولكن فيما بعد اجتذبت تبريز بالتدريج هذه التجارة ، في حين تراجعت بغداد والبصرة الى المرتبة الثانية ( ٣٣٧ ) • وعندما أقام بيجولوتى فى قبرص وأرمينيا صار أقدر من أى انسان آخر على متابعة تقلبات التجارة فى الشرق فى الفترة بين عامى ١٣٢٠ ، ١٣٥٠ • ويبدو أنه لم يكن يعرف بغداد بالاسم ، بينما أفرد لتبريز فقرة طويلة يتبين منها أنه كان يجرى فى هذا الموقع تبادل كل أنواع التوابل ، وفرزها قبل عرضها للتجارة ، ولا تجرى هذه العملية الا فى المخازن الكبيرة • وكانت تبريز تتلقى أيضا ، غير التوابل منتجات فارس ووسط آسيا ، وكان معظم هذه البضائع يعاد تصديره صوب البحر المتوسط عن طريق آياس • ويحدد بيجولوتى كل المراحل المتتابعة بين هاتين المدينتين ، وكل الرسوم التى تدفع على طول الطريق • وفى الفترة التى كان يقم أثناءها فى أرمينيا ( ١٣٣٥ ) كانت الحركة التجارية بين المدينتين فى أوج نشاطها ، وكان ملك أرمينيا وقتها هو لاؤون الخامس ، وكان بيجولوتى يمثل لديه بيت باردى ، وكان خان فارس يدعى أبو سعيد Abou Said ، ومن ثم أطلق بيجولوتى على امبراطورية المغول اسم Terra di Bou Saet أرض بوسعيد

Sanut. l.c. p. 23.

(٣٣٦)

(٣٣٧) حين زار ابن بطوطة هتين المدينتين ( ١٣٢٧ ) كانت بصرة قد بلغ التدهور منها مبلغه ، أما بغداد فلم تزل تواصل المنافسة ، ورأى فيها أسواقا يدمع : ابن بطوطة : II, 8, 100 et s, IV, 575

ولما كان هذا الطريق لا يمر بإقليم أرمينيا الا بجزء صغير جدا من طوله ، فانه من الأنسب لنا أن نصفه مع دراستنا هذه لفارس . أما الآن ، فانا لا نقدم سوى معلومة واحدة : ذلك أن مدينة سيواس ( سلفاسترو ، سافسترو ) ( Sivas, (Salvastro, Savastro) الواقعة على هذا الطريق كان لها في ذاك الاوان أهمية تجارية كبيرة . يؤيد ذلك واعتان : اولهما أن بيجولوتى اهتم بوضع قائمة بالموازين والمكاييل المستعملة فى هذا المكان مع مقارنتها بنظيراتها فى قبرص وعكا ( ٣٣٨ ) ، وثانيتهما أن جمهورية جنوا كان لها هناك قنصل فى حوالى عام ١٣٠٠ ( ٣٣٩ ) .

وإذا كان بيجولوتى قد اهتم بأن يصف بهذه الدقة الطريق التجارى من الجوزات الى تبريز ، فهو قد فعل ذلك خدمة لمواطنيه الايطاليين . فالواقع أن كل التجار الغربيين الذين ينزلون برا عند آياس لم يكونوا يتوقفون عندها ، بل كان عدد كبير منهم يواصل سيره الى تبريز ، بل والى ما بعدها . لهذا كلفت جمهورية البندقية ميشيل جستينيانى Michele Giustiniani سفيرا لدى لاؤون الخامس أن يطلب من الملك ، لصالح مواطنيها تصريحاً رسمياً بأن يجتازوا البلد للذهاب الى تبريز ، وقد منحهم الملك هذا التصريح ووعدهم بتقديم كل ما يلزمهم من تسهيلات ( ٣٤٠ ) .

من جهة أخرى كان التجار الغربيون الذين يقصدون قونية يبدؤون رحلتهم من الجوزات . وفى عام ١٨٨ قامت من آياس قوافل من جمال وخيل وبغال محملة بتوابل يملكها تجار جنويون فعبرت ممرات حصن جوجلاج Gouglag على حدود أرمينيا وسلطنة قونية ( ايكونيوم ) ( ٣٤١ ) ، وربما اجتازت مثل هذه القوافل آسيا الصغرى بانحراف حتى تصل الى القسطنطينية ، وربما كان عبور ممرات جوجلاج

Pegol, p. 7-13, 48, 50, 79.

(٣٣٨)

- فى مصر الجغرافى ابن سعيد ( المتوفى عام ١٢٧٤ ) ، كانت سيواس ذات أهمية تجارية ، وثمة طريق للقوافل يربط منه المدينة بقمصرية : انظر ابو الفدا : Aboulf., Géogr., II, 2, p. 139.

وفى عام ١٢٧٤ قام جنوى يدعى سيمون ليركارى برحلة من الجوزات الى سيواس .

انظر :

Archiv. de l'Or. lat., I, 448 et s.

Miscell. di storia patria, XI, 761.

(٣٣٩)

Langlois, Trésor, p. 181; Dulaurier, dans el Recueil des hist. des crois., Doc. armén., I, p. ciii, net 1.

(٣٤٠)

Recueil des hist. des crois., I.c., p. 754.

(٣٤١)

أسهل اذا بدأ من مدينة طرسوس Tarse . غير أن ميناء هذه المدينة قد بدأ حينئذ على ما يبدو يمتلئ بالرمال ، وصار الدخول اليه بطريق البحر مستحيلا . ومن ثم تحول المرور الى ناحية آياس رغم طول المسافة الواجب قطعها (٣٤٢) .

وعاد نمو العلاقات مع داخل آسيا عن طريق آياس بالفائدة على سكان الأقاليم الواقعة وراء أرمينيا . فصار في مقدورهم هم أيضا ، باستخدام الطرق التجارية المؤدية الى تلك المدينة ، أن يذهبوا الى الشاطئ ويتاجروا مع أمم الغرب التجارية . وفي عام ١٢٦٧ . استولى أمير البحر الجنوبي لوكيتو جريمالدي Luchetto Grimaldi في ميناء قريبا قوس Korykos (curco) الأرمنى على سفينة كبيرة محملة ببضائع ثمينة (٣٤٣) ، فطالب أصحاب البضائع بتعويض عنها ، وكان من بينهم أرمن من آياس ، وسوريون من عكا وصور ، وأنطاكية ، وبعض رعايا الخان المغولى أباقا (٣٤٤) . وكان مسلمو سورية يجلبون الى سوق آياس كميات كبيرة من القطن (٣٤٥) . وثمة شخص من بغداد يدعى يوسف كان يملك بها على ما يبدو متجرا مستديما (٣٤٦) .

وهكذا كان ميناء آياس وشوارعها مكتظة بالتجار من جميع الجنسيات . وهناك كان الأفرنجي يتاجر علنا مع المسلم . والشئ الذى كان يفضى على هذا الملتقى جاذبية قوية لمسيحي الغرب فى فترة كان دخول موالى المسلمين فيها محظورا بأمر البابا ، والا وقع على المخالف عقوبات صارمة ، وذلك لأن موقع الميناء كان فى أرض مسيحية . ويقول سانوتو ان التجار الذين يخشون الحرمان الذى توقعه عليهم الكنيسة ، كانوا يذهبون الى آياس (٣٤٧) . واذا كان عصر ازدهار هذه المدينة يقابل

Note de Dulaurier, Ibid, introd., p. xlii.

(٣٤٢)

Annal. Jan. p. 261.

(٣٤٣)

Document du 22 oct. 1268; Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 74-79; Langlois, Trésor, p. 149-151; Archiv. de l'Or. lat., I, 441.

(٣٤٤)

— لا بد التسليم انه بين التجار الشرقيين من البلاد الاسلامية الذين كانوا يزورون الدول الصليبية وأرمينيا كان يوجد عدد كبير من سكان الموصل ، واعتاد الغربيون أن يطلقوا عليهم اسم : Mossoulans, (Mosolini)

Langlois, Op. c., p. 197 et s.

(٣٤٥)

Ibid., p. 175.

(٣٤٦)

Epist. V, à la suite des Secr. fidel. cruc., p. 297.

(٣٤٧)

العصر الذى يطبق فيه بصرامة الحظر الذى أصدره البابورات ، فان ذلك لم يكن نتيجة لعامل الصدفة وحده ، وانما كان نتيجة مباشرة لهذا الحظر .

ولنتناول الآن على حدة كلا من الأمم التجارية الأوروبية التى كانت تردد على أرمينيا فى هذا العصر . وقد عرضنا من قبل تاريخ علاقات البندقية بهذا البلد حتى معاهدة عام ١٢٤٥ ، وأبرمت المعاهدة التالية فى عام ١٢٧١ ، وهى بوجه عام منقولة من المعاهدة السابقة ، غير أن ما يعطيها أهمية خاصة هو أنها لأول مرة تذكر قضاء بايل بندقى مقيم اقامة ثابتة فى البلد (٣٤٨) . وحتى هذا الحين كانت الحالية الفينيسية فى أرمينيا تعتبر اما تابعة لنظيرتها فى عكا ، أو تابعة للوطن الأم مباشرة . واعتبارا من هذه اللحظة أصبح لها ادارتها الخاصة ، كما أصبح الانفصال بينها وبين جاليته فى سورية أمرا واقعا سابقا لسقوط عكا . ولما كانت أهم لحظة فى تاريخ هذه الجالية هى تلك التى كانت تملك فيها استقلالها ، والتى وصلت فيها الى أقصى درجات الرخاء ، فان المرغوب فيه هو الحصول على أوفر المعلومات عن هذه الفترة . لذلك فانا نأسف كل الأسف للفراغ الذى نتج من فقد محاضر مجلس شيوخ البندقية (Misti) عن السنوات من ١٢٩٣ الى ١٣٣٢ .

وفىما تبقى من السجلات فى خصوص هذه الفترة (٣٤٩) ، نجد بضعة أسماء لباليات وإشارة الى بضع سفارات ، وطلبات تعويض ، وهدايا مرسلة الى بلاط أرمينيا . غير أننا لا نجد فى غير هذه الوثائق ذات الأهمية الثانوية أثرا للتعليمات المحررة للسفراء ، والأوامر الصادرة الى الباليات . ولم تكن المنازعات بين جمهورية البندقية وهلوك أرمينيا نادرة الحدوث ، ولسنا نقدم برهانا على ذلك سوى المرسوم الذى تجدد ثلاث مرات ، ويحظر على الرعايا البنادقة الذهاب الى أرمينيا . وتميز عام ١٣٠٣ أو ١٣٠٤ بنزاع قوى بنسوع خاص : فعلى حين غرة استولى بايل بندقى ( اندريا سانوتو ؟ ) على رأس عدد من مواطنيه التجار ، وبحارة سفينتين على الحصن القائم أمام بوابة آياس . حيث توجد الترسانة ، وسلبها للنهب والسلب ، كما استولى على الكثير من المنازل التى يملكها مواطنون وأجانب (٣٥٠) . ولم يتضح الباعث على أعمال العنف هذه ،

Langlois, Op. cit., p. 151 et ss., Taf. et Thom., III, 115 et ss.; (٣٤٨)  
des actes du sénat de Venise des années 1274 et 1279.

Arch. Venet., XVIII, 134, 139; XVIII, 315-323; XX, 294. (٣٤٩)

Mas Latrie, Hist de Chypre, III, 677 et s., 684-687; Langlois, (٣٥٠)  
Trésor, p. 165 et s., 170 et ss.; Langlois, au haut de la page 171; Arch.  
Venet., XVIII, 316; Langlois, p. 173; Commem. reg., I, p. 67, no 297;  
Arch. Venet., XVIII, 315.

ولعلها من أعمال النار . وفى تلك الآونة بالذات ، وعلى الرغم من منح  
البنادقة اعفاء من الضرائب والرسوم ، فرض الملك رسماً قدره ٤٪ على  
كل السلع التى يستوردونها (٣٥١) . ورغم قلة المصادر المتاحة لنا ،  
حاولنا استخلاص بضعة معلومات عن تصرفات البنادقة فى أرمينيا فى  
هذا العصر . وفى كل عام ، فى تواريخ محددة ، تقلع من البندقية إلى  
آياس سفن تمر بقبروس (٣٥٢) : وتجرى هذه الخدمة بانتظام شديد ،  
حتى انه فى عدد كبير من الحالات ، وبالنسبة إلى الصفقات التى تعقد فى  
آياس كانت مواعيد الاستحقاق تحدد بتاريخ وصول هذه  
السفن (٣٥٣) .

كانت الجوزات هى غاية رحلات هذه السفن ، والمركز الرئيسى  
للجالية ، ومقر البائل البندقى . ومنذ عام ١٢٧١ صار للبنادقة بالمدينة  
كنيسة يتولى خدمتها تسييس منهم (٣٥٤) ، وملحق بالكنيسة مقبرة كان  
لا بد من توسيعها فى عام ١٣٢٠ (٣٥٥) : هذه المعلومات تثبت وجود جالية  
كبيرة العدد . وتذكرنا ضرورة توسيع المقبرة أيضاً برداءة مناخ أرمينيا  
والأحياء الفقيرة المجاورة للساحل ، والتى كانت الإقامة فيها مضرة بصحة  
الأوروبيين ، بل وتقضى على حياتهم فى بعض الأحيان (٣٥٦) . على أنه  
إذا كانت آياس ( لاجازو ) مركزاً تجارياً ، فانها لم تكن تستغرق  
كل اهتمام البنادقة ، إذ كانوا يمارسون نشاطهم فى كل أنحاء أرمينيا ،  
فى سيس ( سيسية ) Sis ، والمصيصة Mamistra ، وأذنة ( أضنة  
Adana ) ، وطرسوس Tarse ، وحصلوا ثمة على ممتلكات  
وامتيازات ، وأظهروا غيرة فى عملهم ، ونجحوا فى الحصول لتجارتهم فى  
هذه المدن على نفس التسهيلات التى كانت لهم فى آياس (٣٥٧) .

وكان لهم فى هذا الشأن أسباب وجيهة : فقد كان فى الإمكان  
الحصول بالداخل بسعر أقل مما فى آياس (٣٥٨) على الكثير من

Arch. Venet., XVIII, 315.

(٣٥١)

Mas Latrie, Hist. de Chypre, II, 133 et ss., Marin, Storia del  
Commercio de Veneziani, IV, 104; V, 193; Arch. Venet., XVII, 259 et  
s., 263; XVIII, 315 et ss.; XIX, 105.

(٣٥٢)

Langlois, Op. c., p. 198; Archiv. Venet., XIX, 105.

(٣٥٣)

Langlois, p. 153, 169, 176, 184.

(٣٥٤)

Ibid. p. 181.

(٣٥٥)

Mas Latrie, Op. c., III, 118 et 122; Sanut, p. 37; M. Polo,  
I, 34, éd. Pauthier.

(٣٥٦)

Langlois p., 177.

(٣٥٧)



المواد ، كالفراء والجلود والحريز والصوف مما يستعمل في صنع  
 الشملات ، وكان لهاتين المادتين الأخرتين قيمة خاصة منذ أن تعلم البنادقة  
 من الأرمن صنع الشملات ، واشتغلوا بصناعتها (٣٥٩) ، ونمت هذه  
 الصناعة بدرجة كبيرة حتى انهم تجنبوا تبعيتها بأية درجة للصناعة  
 الأجنبية ، بأن نجحوا في تشغيل عمال منهم محليا في معالجة المواد الأولية  
 الخام الموجودة في البلد ، فنشأ في داخل الجالية طائفة من الصناع ،  
 كسب التجار كثيرا من عملهم . غير أنهم كانوا ، أكثر من البنادقة أنفسهم  
 في حاجة الى حماية فعالة من جانب حكومة الوطن الأم ، لأن فقرهم كان  
 يعرضهم كثيرا لمكائد الموظفين الأرمن (٣٦٠) .

وأسوة بالبندقية ، لم تنتظر جنوا سقوط الدول اللاتينية نهائيا  
 حتى توثق علاقاتها بأرمينيا الصغرى ، فمارست مع هذه المملكة حركة  
 تجارية نشيطة جدا : ولدينا عقود موثقة جنوبية ، صادرة بتاريخ في  
 الجوزات نفسها (٣٦١) تحيطنا علما بالنمو المبكر لهذه التجارة ، والتشكيلة  
 الكبيرة من الأشياء التي تتضمنها . كان التجار الجنوبيون يستوردون من  
 الغرب الى أرمينيا نبيذا وزيتا وجبنا وشعيرا وجوخا وأقمشة من جميع  
 الأنواع (٣٦٢) ، ويصدرون منها توابل كالجوزبيل والفلفل والثيلة والسكر  
 وخشب البقم (٣٦٣) والقطن الخام والمغزول (٣٦٤) ، وبخارية (٣٦٥)  
 ( نسيج مصمغ كان يصنع أصلا في بخارى ) وحديدا وجلودا وأغنادا  
 وأبقارا وحميرا وخيلا وعبيدا (٣٦٦) . ولم يكن مسموحا ببيع العبيد  
 المسيحيين للمسلمين ، مباشرة أو بطريق غير مباشر .

Ibid. p. 181, 194.

(٣٥٨)

Ibid. p. 191, 193.

(٣٥٩)

Langlois, p. 180 et s.

(٣٦٠)

(٣٦١) عقود مبرمة في أعوام ١٢٧١ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٦ في Aias (أرمينيا

الصغرى و بيروت أمام موثقي عقود جنوبيين ، نشرها :

— Corn. Desimoni, Arch. de l'Or. lat., I, 434, 534.

Rec. des hist. des crois., Doc. armén., I, p. 752-754; Arch.  
 de l'Or lat., I, c., p. 530, 532 et ss.

(٣٦٢)

Rec. des hist., I, c., Arch. de l'Or. lat., I, 455, 501-503, 507-509.  
 516 et s., 519, 525.

(٣٦٣)

Arch. de l'Or lat., I, 455, 532 et s.

(٣٦٤)

Ibid. I, 455, 503.

(٣٦٥)

Ibid. I, 503; Rec. des hist., I, c.

(٣٦٦)

ولم يكن التجار الجنوبيون يجلبون هذه المواد كلها الى بلادهم ، بل يبيعونها على طول ساحل أرمينيا ، فى قرياقوس ( سوق الكركى ) ( ٣٦٧ ) Korykos أو على شاطئ سورية ، فى بيروت وعكا وصور ( ٣٦٨ ) على سبيل المثال . وكانوا ينقلون خشب البناء من سلوقية ( قليقية ) Selefkèh الى دمياط ، وهى من الموانئ التى يترددون عليها فى يسر ( ٣٦٩ ) ، ويقومون برحلات عديدة الى الداخل . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك ، وسوف نتاح لنا الفرصة للعودة الى الكلام عنه .

ونمت الجالية الجنوبية فى أرمينيا نموا سريعا ، ونالت استقلالها فى زمن مبكر ، وفى اللقب الذى يطلق على رئيس الجالية ما يكفى لاثبات ذلك : اذ كان أولا مجرد « نائب قمص » Vice-comes ، وفى العصر الذى تحدثت عنه أصبح قنصلا ، وكان لقبه بالكامل « قنصلا ونائبا » Consul et vice-comes, consul et vicarius : وهذا هو اللقب الذى عرف به فيليبيو تارتارو Filippino Tartaro فى عام ١٢٧٤ وليو دى نيچرو Leo di Negro فى عام ١٢٧٩ ( ٣٧٠ ) . ونرى أولهما فى مناسبة قضية حكم فيها ، يرفض استئناف حكمه ليودستات جنوا فى صور ، ولم يكن يعترف بدرجة من القضاء أعلى من درجته سوى محكمة « قباطنة » الجمهورية Capitaines de la Rep. ( ٣٧١ ) .

لنا أن نستنتج من هذا أن الجالية الجنوبية فى أرمينيا لم تنتظر تفكك الدول اللاتينية حتى تنفصل عن السلطة المركزية القائمة فى سورية . ولا يبدو أن القنصل الجنوى فى آياس كان عنده مجلس يساعده ، ومع ذلك كان يدعو فى بعض الحالات رجالا من أهل الخبرة boni Homines ينتخبهم من بين أعضائه الجالية ( ٣٧٢ ) ، ويحمل منفذ أحكامه لقب Placarius . ويتولى هذا أيضا شئون البيع بالمزاد ( ٣٧٣ ) . ويسمى

---

Ibid, I, 532 et s.	( ٣٦٧ )
Ibid, I, 453, 503, 528.	( ٣٦٨ )
Ibid, I, 449, 459, 465, 509 et s.	( ٣٦٩ )
Ibid, I, 445, 451, 456, 458, 476, 483, 501, 505, 524 : Atti della soc. Lig., XIII, 101.	( ٣٧٠ )
Arch. de l'Or. lat, I, 483.	( ٣٧١ )
Rec. des hist. des crois., I,c.	( ٣٧٢ )
Arch. de l'Or lat., I, 470, 497, 503 et s., 509, 513, 515, 524, 529. 531 et s.	( ٣٧٣ )

البناء الذي به المحكمة القنصلية (logia in qua regitur curia consularis) Loggia (٣٧٤) وتمتلك الجالية كنييسة مكرسة للقديس لوران St. Laurent (٣٧٥) وملحق بها مقبرة (٣٧٦) • وينظم علاقات الجالية بحكومة البلد اتفاق عقد عام ١٢٨٨ بين الأميرال بنديتو زكاريا (٣٧٧) ، مفوض جمهورية جنوا في الحوض الشرقي للبحر المتوسط والملك لاؤون الثالث (٣٧٨) • وبعد أن رحل زكاريا ( في ٦ من فبراير ١٢٨٩ ) توفي الملك ، ولما عاد في ربيع السنة نفسها ، وجد على العرش حيتوم الثاني Hétoum II ابن لاؤون • وبناء على طلب زكاريا وهب الملك للجنويين سوقا كانت مملوكة لأرملة رجل يدعى جوجلييلمو ستريجييا بوركو • ويقال له سلقاتيكو ، وخفض رسم الخروج على البضائع المعاد تصديرها بمعرفة الجنويين من أرمينيا الى الاقليم التركي (٣٧٩) •

والعجيب أننا لا نملك أية وثيقة رسمية ( دبلوما ) من القرن الرابع عشر منحها ملك أرمنى للجنويين ، ولا أية وثيقة يمكن أن تحيطنا علما بأحد العلاقات التجارية بين جنوا وأرمينيا الصغرى • ومع ذلك فليس هذا سببا يدعوننا الى الافتراض بأن الحركة التجارية قد توقفت وقتئذ ، فهذا استنتاج سابق لأوانه • والحقيقة أنه حدث في عام ١٢٩٧ أن دمر يتوفيلو موروسيني Teofilo Morosini قبطان سفينة فينيسية في الاقليم الأزمني ، في آياس غالبا سوقا يمتلكها الجنويون (٣٨٠) الا أن هذه الواقعة لا تثبت وحدها أن الجالية الجنوبية في هذا البلد قد انتهت أمرها ، فلم يكن ذلك سوى حادث من تلك الحوادث العابرة العديدة التي سرعان ما تنسى ، والتي تصيب كلا من الجاليات الجنوبية والفيينيسية. بالتبادل على مدى الحرب الطويلة الأمد التي أثارتهس المنافسة بين

(٣٧٤) هذا هو المكان الذي تسجل به عادة العقود الموقفة •

Arch. de l'Or. lat., I, 452, 454, 456, 493, 497, 503, 513, (٣٧٥)  
522, 524, 529.

Ibid, I, 454, 499, 504, 527, 531. (٣٧٦)

Lib. jur., II, 275 ; Annal. Jan., p. 322; voy. la note de M. Desimoni, dans Atti della Soc. lig., XIII, 553 et s., not. (٣٧٧)

Lib. jur., I, 183 et ss.; Langlois (Trésor, p. 159 et ss); (٣٧٨)  
Dulaurier (Rec. des hist. des crois., Doc. armén., I, 746 et ss); Not  
et extr., IX, 97-122.

Jac. Doria (Annal. Jan.), p. 324; Saint-Martin (l.c., p. 104). (٣٧٩)

Dandolo, p. 407; Cicogna, Inscr. venez. III, 187; Romanin (٣٨٠)  
Storia di Venezia, III, 89, 90; Marat., Antiq. ital. med avi, II, 168.

الجمهوريةين (٢٨١) . وفي عام ١٣٣٥ وجد بيجولوتى الجبويين يتمنون  
أيضا باعفاءات جمركية كانت لهم فى كل زمان (٢٨٢) . ولنا أن نفترض  
أن منشأتهم وتجارتهم ظلت قائمة حتى سقطت مملكة أرمينيا تحت  
ضربات أعدائها

وبالنظر الى الوضع الملائم الذى كان لمملكة أرمينيا ، كان لابد أن  
يؤدى سقوط الدول التى أنشأها الفرنجة الى تنمية جديدة لهذه المملكة .  
ويستثير بها المنافسة تبعا للفرص المتاحة للكسب . ومع ذلك احتفظ  
الجنويون والبنادقة بتفوق ملموس بفضل كونهم من الأمم الأكثر رعاية ،  
أما منافسهم الذين حصلوا على نفس المعاملة التى كانت لهم فانهم قلائل ،  
نذكر منهم البيت التجارى والمصرفى الكبير « باردى » Bardi  
الفلورنسى ، وربما نال هذا البيت هذه الخطوة بسبب ما قدمه للملك من  
قررض . وعلى أية حال فان وكيله فرانثيسكو بالروتشى بيجولوتى حصل  
له فى عام ١٣٣٥ على إعفاء تام من رسوم الدخول والخروج ، فى حين أن  
منافسه بيت بيرونزى Peruzzi الفلورنسى أيضا ، استمر يدفع رسما  
قدره ٢٪ من القيمة عند الوصول وعند الرحيل .

ويؤكد بيجولوتى أن الصقليين كانوا يسمعون أيضا بالإعفاء الكامل .  
إلا أن هذه المعلومة يناقضها بصورة لا تقبل الجدل وثيقة رسمية ( دبلوما )  
أرمينية اكتشفت فى دار وثائق مسينا . هذه الوثيقة تحمل امضاء لاؤون  
الحامس بعد زواجه بوقت قليل بابنة فردريك الأول ملك صقلية . وبالنظر  
الى مشاعره الودية حيال بلد حميه ، وعد ملك أرمينيا الصقليين بأن يحسن  
وفادتهم فى ولاياته ، ولم يمنعه ذلك من أن يفرض رسما قدره ٢٪ على  
دخول السلع التى تقدر بالوزن وخروجها ، بينما اكتفى بالنسبة الى  
السلع الأخرى برسم انتاج بسيط قدره ١٪ . والفترة بين تاريخ هذه  
الوثيقة ( ٢٤ من نوفمبر ١٣٣١ ) ( ٢٨٣ ) وتاريخ اقامة بيجولوتى فى  
أرمينيا فترة قصيرة لا تتبع صدور وثيقة أخرى تمنح للصقليين إعفاء  
تاما من الرسوم الجمركية .

أما بالنسبة الى البيزيين ، فإنا نعلم من بيجولوتى انهم كانوا يدفعون

( ٢٨١ ) كانت ساجنة هذه الحروب غالبا هي سواحل أرمينيا ، انظر :

— Dandolo, p. 404 et ss. ; Archiv. stor. it., App., no. 18,  
p. 11-15; Sanuto, Secr. fidel. cruc., p. 83; Héthoum, éd. Dulaurier, dans  
le Rec. des hist. des crois., l.c. p. 489; Romanin, III, 98.

( ٢٨٢ )

Pegolotti, p. 45.

La rote de Dulaurier, dans ses Recherches sur la chrono- ( ٢٨٣ )  
logie, arménienne, I (Paris 1859), p. 130 ; Langlois, p. 186-190; le Re-  
cueil des hist. des crois., l.c., p. 759 et ss.

رسمًا مخدرة ٢٪ من قيمة السلع عند دخولها وخروجها • هذا الوضع الأدنى من وضع سائر أمم إيطاليا لم يمنعه من السفر في جموع كبيرة إلى آياس (٣٨٤) ، ومن هناك يبحرون على طول سواحل أرمينيا وسوريا ومصر • وكانوا يفضلون بذل جهودهم في البلد الأخير : فكانوا يوردون إليه الحديد والحشب ، رغم قرارات الحظر الكنسية (٣٨٥) • وقد تكشف لنا كل ما نعرفه عن الأعمال التجارية التي كانوا يمارسونها في هذا الخصوص عن طريق عقود مبرمة لدى موقى العقود الجنويين ومن السهل علينا أن ندرك كيف أن كل هذه العقود المبرمة بين بيزيين ووردية أما في محكمة جنوية ، أو في بيت تجارى خاص يملكه جنوى (٣٨٦) ، غير أن هذا لا يبعث على الاعتقاد بأن البيزيين لم يكن لهم محكمة خاصة بهم : فالثابت أنه كان يوجد قنصل « ومحضر » Placeries بيزى (٣٨٧) • ترى ماذا كانت اختصاصاتهما ؟ وكان لمدينة بليزانس ( بياتشينا ، شمال وسط إيطاليا - المترجم ) أيضا قنصليتها (٣٨٨) • ودار قنصليتها loggia في الجوزات (٣٨٩) ، وتتمتع جاليتها هناك (٣٩٠) برعاية خاصة ، لأن طوائف تجار الجملة المشهورة في الوطن الأم كان لها وكلاء يتعاون الأعمال التجارية والمصرفية في آن واحد (٣٩١) • وختاما نذكر أيضا بالنسبة إلى إيطاليا تجار سيينا Sienna ( بافليم تسكانيا ) وأنكونا Ancone ( على البحر الأدرياتي ) • وبكفى مجرد ذكر هاتين المدينتين نظرا لعدم وجود معلومات بشأنهما (٣٩٢) •

- Archiv. de l'Or lat., I, 467, 473, 480-482. (٣٨٤)
- Ibid, I, 443 et s., 447 et s., 450, 460, 466, 468, 481 et s., (٣٨٥)  
484 et s., 487 et s., 491 et s.; Sanuto, dans Bongars, II 88; Langlois, Voyage en Cilicie, p. 472; Rey, Périples de Syrie et d'Arménie, dans les Archiv. de l'Or. lat., II, 1, p. 333.
- Arch. de l'Or. lat., I, 444, 446-448. (٣٨٦)
- Arch. de l'Or. lat., II, 2 p. 21, charte de l'an 1300; Chartes de (٣٨٧)  
1304 et de 1307, dans Langlois, Trésor, p. 165, 173; Arch. de l'Or. lat., I, 497.
- Placeries Pisanorum
- Langlois, Trésor, p. 174, «Giov. Boldi»: Commem. reg., I, 192, (٣٨٨)
- Langlois, Trésor, p. 165 ; Arch. de l'Or. lat., I, 494, 533 et s. (٣٨٩)
- Arch. de l'Or. lat., I, 462, 508, 510, 514 et s., 523, 533 et s., (٣٩٠)  
Commem., reg. II, p. 41. no. 241.
- Arch. de l'Or. lat. I, 494. Doneaud, I l'commercio e la navigazione dei Geovesi nel medio evo, p. 137-143. (٣٩١)
- Arch. de l'Or. lat. I 465, 488, 490, 510. (٣٩٢)

وشارك جنوب فرنسا بنصيب في تجارة أرمينيا الصغرى • ولدينا  
براهين مختلفة عن ذلك : منها أولا أسماء البروفانسيين المثبتة في العقود  
المبرمة لدى موثقين جنوبيين في الجوزات (٣٩٣) ؟ وثانيا ، الحادث الذي  
وقع لتاجر من موسيليا صادر أسطول فينيسي كل بضاعته مع السفينة  
التي كان يركبها • وفي قائمة السلع التي صودرت نجه أغطية للخواتم ،  
وفوطا ، وأماس حلقة ، وصناديق صابون ، ومرايا ، وشموعا ، وأحزمة  
باريزية ، وباختصار مجموعة من السلع الأوروبية التي كان هذا التاجر  
يريد بيعها في الشرق الأدنى • وبعد أن صودرت بضاعته ، توجه من  
آيأس الى بلاد الروم ، ولم يكن هو المالك الوحيد لهذه الأشياء ، فقد  
كان معظمها ملكا لتاجرين من مونبيلييه (٣٩٤) • ونذكر ثالثا وثيقتين  
رسميتين لعامي ١٣١٤ ، ١٣٢١ تحملان توقيع ملوك أرمينيا ، وفيهما أمر  
صادر الى موظفي الجمارك بالآا يطلبوا من تاجر مونبيلييه سوى رسم  
قدره ٢٪ ، ويقول بيجولوتي ان هذا هو السعر المطبق بعامة على كل  
البروفانسيين (٣٩٥) •

تختم هذا التعداد بالقطاونيين • من المرجح أن القانون البحري المسمى  
Consulado del Mar قد دون في قطاوونيا ، والثابت أنه طبق من  
البداية على أمة لها بحرية تقوم برحلات كثيرة الى أرمينيا (٣٩٦) • وتعرفنا  
العقود المبرمة عند موثقين جنوبيين في آيأس بأسماء بعض بورجوازي  
سرقسطة ( في شرق إسبانيا ) يمارسون التجارة في هذا البلد (٣٩٧) •  
ففي عام ١٢٩٣ أوفد جيمس الثاني ملك أراجون بيير دسبورترس  
Pierre Desportes (Petrus de Portis) في سفارة لدى جيكاتو  
Geikatou خان المغول ، وعهد اليه في هذه المناسبة بخطاب يسلمه الى  
ملك أرمينيا يطلب اليه منح القطاونيين سوقا وحيا سكنيا ، فضلا عن  
خفض الرسوم الجمركية (٣٩٨) • والواقع أنه في الفترة التي كان فيها

Ibid, I, 495, 506.

(٣٩٣)

Langlois p. 164 et s. ; Taf. et Thom., III, 374 et ss; Regest., (٣٩٤)  
dans les Commem. I, p. 171. no 7; p. 240. no 318 et s., p. 246, no 344;  
dans les livres V-VIII des Misti ; l'Arch. Venet., XX, 310 et s.; Bibl.  
de l'école des chartes, 2 série, III, 210.

Langlois, p. 178 et s., 185 et s.; Germain, Hist. du commerce (٣٩٥)  
de Montpellier, II, 9 et s.; Dulaurier, Recherches sur la chronologie  
arménienne, p. 188-191; Recueil des hist. des crois., I.c., p. 754 et  
ss.

Pardessus, Collection des lois maritimes, II, Introd., p. xviii. (٣٩٦)

Arch. de l'Or. lat., I, 451-455 (année 1274). (٣٩٧)

Navarrete, dans les Memorias de l'Academia de Madrid, V, (٣٩٨)  
177 et s.

بيجولوتي موجودا في أرمينيا ، خفض الرسم العادى وقدره ٤٪ الى النصف بالنسبة الى القطلونيين ، ولعلمهم يدينون بهذه الخطوة لتدخل الملك . ولا يبدو أن مدينة برشلونة أقامت قنصلية لها في أرمينيا . وعلى الأقل كان قنصلها في قبرص ( في فاماجوستا ) يؤدى في عام ١٣٤٧ مهام قنصل أرمينيا (٣٩٩) .

وعلى العموم بذل ملوك أرمينيا كل ما فى وسعهم من أجل تقدم التجارة ، وكانوا يحبون أن يروا الأمم الغربية تتنافس للحصول على مكان لها فى ولاياتهم ، ولم يكفهم أن يضموا تعاطف العالم المسيحى معهم ، بل كانوا يودون أن يتدعم هذا الشعور بمصلحة مادية . ذلك لأنه من غير مساعدة فعالة من ذول الغرب البحرية ، وهم مطوقون من جميع الجهات بالمسلمين منذ سقوط الدول اللاتينية ، لم يكن فى مقدورهم أن يقاوموا أعداءهم ، وأشد هؤلاء الأعداء بأساهم سلاطين مصر . كان هؤلاء السلاطين يغارون من ازدهار تجارة أرمينيا ، ويفيظهم أن يروا مملكة مسيحية صغيرة ، مستقلة تظل قائمة وسط جيرانها المسلمين ، ومن ثم دأبوا على مهاجمتها . ويفترض سانوتو أنهم كانوا يريدون تحويل تيار التجارة الآسيوية الكبير حتى يمر باقليمهم (٤٠٠) ، وهذا أمر محتمل . ولكن من الراجح أيضا أن مصالحتهم السياسية كانت فى الدرجة الأولى من الأهمية ، وفى نظرهم أنه لو زالت مملكة أرمينيا فلن يبقى فى آسيا رقعة من الأرض تصلح قاعدة لعمليات جيش صليبي ، اذا ما فكر العالم المسيحى تفكيرا جديا فى تخطيط مشروع لاسترداد الأرض المقدسة .

وللوصول الى هذه الغاية كانت هناك وسيلة ممتازة تتمثل فى القضاء على مالية أرمينيا : لذلك فرض عليها ( سلاطين مصر ) بمعاهدة عام ١٢٨٥ جزية قدرها مليون درهم (٤٠١) ، رفعتها معاهدة ١٣٢٣ الى مليون ومائتى ألف درهم ، اطلبسوا منها التنازل عن نصف إيرادات الملاحات وجمارك آياس ، والأبواب ( القليقية ) (٤٠٢) . وكان البلد نفسه فقيرا ، لا تكفى موارده لدفع هذه الجزية الضخمة ، وسد الفراغ الذى يحدث فى إيرادات الجمارك . ولمواجهة هذا الموقف المرهق، وجد ملوك أرمينيا أنفسهم مضطرين الى فرض ضرائب باهظة على التجار الأجانب . ولكنهم امتنعوا

Capmany, Mem., II, app., p. 66.

(٣٢٩)

Secr. fld. cruc., p. 7.

(٤٠٠)

(٤٠١) المقريزى : تاريخ سلاطين المالك ، الجزء الثانى ، ١ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٧ .

Raynald, Annal eccl., a.a. 1323, XXIV, 221.

(٤٠٢)

عن المساس بالمعاهدات التي تخفض أو تلغى رسوم الدخول والخروج . واستمروا في منح « دبلومات » بهذا المعنى ، ولكنهم أبقوا على رسوم المرور بالقنوات المائية ، ورسوم رسو السفن في الموانئ ، ورسوم المرؤذ بالطرق ، ورسوم الأسواق ، الخ ، وهي التي لم تذكرها المعاهدات .

ويحصل جاب ملكي censarius رسم انتاج ، حتى على المبيعات التي يجريها تجار تابعين للأمم الأكثر رعاية (٤٠٣) . وكلما ارتفعت الجزية الواجب دفعها لمصر ، نقلت الأعباء التي تفرض على التجارة . ولنا دون شك أن نعتبر بمثابة نتيجة مباشرة لهذه الجزية مرسوما يقضى بأنه يجب مستقبلا على التجار البنادقة عند وصولهم أن يسلموا الى دار العملة الملكية نصف الأشياء الفضية التي تكون معهم (٤٠٤) . هـذه الأعباء تثقل أيضا كاهل الأمم التجارية كلها ، ولكننا نعلم أن البنادقة وحدهم هم الذين جاهروا بمطالبهم ، وتمردوا على هذه الأوضاع . وقد سبق أن رأينا أن في مستهل القرن الرابع عشر قام بايلهم على رأس بحارة سفينتين من البندقية واستولى بالقوة على قلعة فوق أرض آياس ونهب كل ما وجدته هناك بما في ذلك الكثير من الأشياء التي يمتلكها شريقيون وأوروبيون (٤٠٥) . ولعلنا نرى في هذا العمل انفجارا للمسخط الذي استثارته الاجراءات التي تحدثنا عنها بعاليه . ثم ان الجمهورية وافقت فيما بعد على تعويض الملاك الذين أصابهم أضرار في هذه المعركة . وعلى اثر ذلك كلف عدد من السفراء من قبل الجمهورية بتقديم شكوى لبلاط أرمينيا ، منهم ميشيل جستنياني في عام ١٣٢٠ ، وجاكوبو زريفيزاني في عام ١٣٣٣ . وقد أوفد هذا الأخير اثر تقرير غير «لائم قدمه البابل بيتيرو براجادينو عقب عودته من أرمينيا (٤٠٦) . وتقضى التعليمات الصادرة لهؤلاء السفراء بالاصرار على الغاء الرسوم الجديدة الجائرة بالبنادقة ، اما في آياس نفسها أو في أثناء رحلاتهم

(٤٠٣) في خصوص النظام الأرمني للضرائب انظر :

— Dulaurier, Recueil des hist. des crois., I.c., p. xevi et ss, et particulièrement le traité de 1288, ibid, p. 745 et ss.

Langlois, p. 180, 191.

(٤٠٤)

(٤٠٥) لم يذكر المؤرخون هذه الحرب ، ولم يرد لها ذكر الا في الوثائق الماخوذة

من « الوثائق القيسية » المنشورة في :

— Mas Latrie, Hist. de Chypre, III, 677 et s., 684-687;

Langlois, Trésor, p. 165 et ss.

...

Langlois, p. 179-182, 191 et s., 193 et s.

(٤٠٦)



داخل البلد ، وكذا الغاء ضريبة قدرها تاكولان taclin (٤٠٧) يدفعها كل اسبوع البنادقة نساجو الشملات وأصحاب الحانات ، وعلى البقراء أيضا أن يبحثوا على ضروب الأزعاج والتباطؤ من جانب موظفي الجمارك ، والإهانات التي يوجهها الأهالي الأرمن الى المستوطنين ( البنادقة ) الفقراء ، وأن يشكوا للملك نفسه من أنه لا يهتم بقضاء الباييل ، وأن المستوطنين لا يتألون منه عونا كافيا ضد مدينيهم المتفاسين ، وحماية فعالة ضد ما يقع عليهم وعلى أموالهم من اعتداءات . وتلقى الملك لاؤون الخامس كل هذه الشكاوى بروح طيبة ، ووعد بالقضاء على التعديات التي ترتكب بالمخالفة للمعاهدات ، وأن يحكم بالعدل .

كل هذه مشاكل بسيطة ، في الامكان معالجتها ؛ ولكن من ناحية العدو كان الخطر يتفاقم مع ازدياد قوته ، ويهدد وجود المملكة . وتركت غزوات المصريين وراءها الخراب والدمار ، واصيب ورجال المستوطنات التجارية بأفهمار مباشرة : فالمسلمون لم ينشروا الحرق والقتل والتهب في الأرياف والطرق التجارية وحدها ، بل أصابت غاراتهم المدن التي يسكنها المستوطنون ، طرسون وأذنة وآياس والمصيصة ، كلا منهم بدوره (٤٠٨) . ويبدو أن سلاطين المماليك كانوا يستهدفون بنوع خاص آياس كمركز تجارة أرمينيا .

وقد نهبت آياس مرتين ، في عامي ١٢٦٦ ، ١٢٧٥ (٤٠٩) ، ثم استولى عليها السلطان الناصر محمد مرة ثالثة ودمرها في عام ١٣٢٢ ( ٧٢١ هجرية ) ، وأسر عددا كبيرا من المسيحيين ، واستطاع عدد آخر منهم الفرار تحت جنح الظلام في سفن قبرصية ، حيث لجأوا الى قبرص وقرياقوس .

وعندما استتب الأمن في عام ١٣٢٣ استطاعت المدينة أن تنهض من تحت أقباضها ورمادها ، وأعيد بناء القلعة الحصينة على البر ، وكان لا مناص من التخلي عن إعادة بناء القلعة البحرية ( قلعة آياس - المرجع ) ،

(٤٠٧) كانت التاكولان آتخذ تساوى تقريبا الدراخمة drachme ، وكانت عشرة تاكولات تساوى دينارا بيزنطيا . انظر في ذلك :

— Pegolotti, p. 44 et s.; Dulaurier, dans le Recueil, I, c., p. 740; Dessimoni, dans les Arch. de l'Or. lat., I, 439.

Weil, Gesch der Chalif., IV, 55, 77 et s. 255, 267, 33-335, 350 (٤٠٨) et s., 504 et s.; Arch. de l'Or. lat., I, 266 et s., 270.

Dulaurier, Rec. des hist. des crois., p. 522, 528; Weil, Gesch. (٤٠٩) der. Chalif., IV, 56, 78.; Cont. de Guill de Tyr, p. 467; Sanut., p. 226.

فكان هذا موضوعا لشكوى التجار الذين بقيت بضائعهم معرضة في المستودعات لغارات العدو ، ومفاجئات القراصنة (٤١٠) .

وفي عام ١٣٣٧ (٧٣٥ هجرية - المراجع) قام المصريون بغزوة جديدة ، وفي هذه المرة لم تنجح آياس من اقتحام العدو اياها الا بعد أن تعهد لأوون الخامس بهدم حصون المدينة التي رمت حديثا بفضل المعونات المالية الكبيرة التي قدمها البابا يوحنا الثاني والعشرين (٤١١) ، وأن يستقبل في جهات أخرى حاميات اسلامية (٤١٢) . ولم تنقذه كل هذه التنازلات الا لفترة قصيرة . فقد استولى المسلمون على المدينة لآخر مرة في عام ١٣٤٧ (٤١٣) وبقيت في قبضتهم ، وبعثنا توسطت البندقية ببناء على طلب البابا كليمنت السادس لاعادة المدينة الى ملك أرمينيا (٤١٤) ، وبعثنا قامت قوات مملكتي قبرص وأرمينيا متحدة بضرب الحصار على المدينة في عام ١٣٦٧ (٤١٥) ، حتى ضاعت نهائيا من أيدي المسيحيين ، وخلف ازدهارها القصر الأمد انحلال سريع . ولم يبق للمملكة أرمينيا نفسها وجود لأمد قصير الا بفضل الخلافات الداخلية التي أضعفت هصر فترة من الزمن .

وفي عام ١٣٧٤ قرعزم السلطان الملك الأشرف أن يتخلص نهائيا من هذه الدولة المسيحية ويضم قليقية Cilicie الى ولاياته . ولم يستطع لبتون السادس ( تكفور - المراجع ) أن يقاوم ، بل طورد حتى وسط الجبال في قلعة جابان Gaban ، ملجأ الأخير ، ومنها نقل أسيرا الى مصر في عام ١٣٧٥ ( عام ٧٧٦ هجرية - المراجع ) واذ أصيب المستوطنات التجارية في أرمينيا في الصميم بسقوط آياس ، فانهبها واصلت حياتها بمشقة حتى تم دمار المملكة نهائيا ، واندرثرت دون أن تترك أثرا لها . وعند سكان هذا البلد في الوقت الحاضر قصة خالدة ، تحكى أن غابات الزيتون التي عادت الى حالتها البرية التي ما زالت موجودة الى

Sempad, dans le Recueil des hist, des crois, I, c., p. 667 (٤١٠)  
et s.; Ibid, p. 766 et s.; Weil Op. cit., IV, 334 et s.; Raynald, Annal.  
eccl., a. a. 1322, nos 30, 34 et s.; a. a. 1328, no 9; Sanut, Epist., à la suite  
des Secr., fid. cruc., p. 289, 297 et s.

Raynald. l. c., a. l. 1331, no 30. (٤١١)

Weil, Op. cit., IV, 351. (٤١٢)

Le 25 mai, d'après la relation du pèlerin Jacques de Vérone, (٤١٣)  
dans Roehricht et Meissner, Deutsche Pilgerreisen, p. 51.

Dulaurier, l. c., p. 709; Raynald, l. c., XXV, p. 454; (٤١٤)  
Commém. reg., II, p. 157, no. 215.

Dulaurier, l. c. p. 716; Weil, Op. cit., IV, 523. (٤١٥)

الآن قد زرعها الجنويون (٤١٦) ، وأن حصن جوليك كالا (Goulek-Qala الذى يشرف على مضيق جوليك بوغاز (Goulek-Boghaz) الذى أسميناه قبلًا جوجلاج (Gouglag) ) قد شيده أيضا الجنويون (٤١٧) . على أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة .

### ثالثا - طربزون ، باعتبارها المدخل الى وسط آسيا

كان للظاهرة التى تجلت فى جنوب شرقى آسيا الصغرى ، وإبان اجتياح آسيا الصغرى بالتدرج نظير فى شمالها الشرقى . فهناك أيضا بفضل طوق من الجبال التى تحميها من غارات الجيوش ، نجت دولة صغيرة يحكمها أمراء مسيحيون من المصير الذى انتهى اليه الكافة : وكانت هذه الدولة فى البداية مقاطعة صغيرة (Théma) تابعة للإمبراطورية اليونانية ، وكان حكامها الذين يحملون لقب « دوق كالديا » Caldée

يتمتعون فى بعض الفترات باستقلال تام . وفى السنة التى استولى فيها الفرنجة على القسطنطينية ، أصبحت هذه المقاطعة امبراطورية « امبراطورية طربزون » وامتد كيائها هذا حتى القرن الخامس عشر . وكان أول أمير اعلى هذا العرش ( إبريل ١٢٠٤ ) هو الكسيوس الأول Alexis Ier حفيد أندرونك ، وبذلك فإن الأسرة الحاكمة التى أسسها هي فرع من أسرة كومنينوس التى أعطت الامبراطورية اليونانية العديد من الأباطرة العظام . وثمة احدى قريبات الكسيوس ، وتدعى تامار Thamar ملكة جورجيا ، هيات له ملجأ ، ثم زودته بجيش (٤١٨) غزا به أولا اقليما شاسعا على الساحل الشمالى لآسيا الصغرى . ولكن انكشمت امبراطوريته فى أثناء حياته فلم تعد تشغل على الساحل سوى الحيز المحصور بين نهر تبرمودرن Thermodon غربا ونهر فيز Phase شرقا . وجاء غزو التتار فى الوقت المناسب (١٢٤٤) لانقاذ البقية الباقية المهددة دواما بتفوق سلطنة ايكونيوم (قونية) الساق . وبعد أن أنزل التتار بجيش السلطان هزيمة منكرة لم تقم له بعدها قائمة ، وطدوا سلطتهم فيما وراء نهر الفرات ، وبخصوص امبراطورية طربزون ، اكتفوا بأن يأخذوا

Langlois, Voyage dans la Cilicie, p. 44.

(٤١٦)

Kotschy, Reise in den cilicischen Taurus, p. 71 et ss., 204 et ss.

(٤١٧)

Hist. de la Géorgie, trad. Brossé, 1ère part., p. 465.

(٤١٨)

متنها جزية ظلت تدفع بغض الوقت ، وتركوها في امان تام \* واسمهم  
 ظهورهم في آسيا الصغرى اسهاما غير مباشر في رخاء مدينة طبرزون  
 وازدياد اهميتها ، لانه حول التجارة من الاتجاه الذي كانت تتبعه حتى ذلك  
 الحين ، واصبحت طبرزون بحكم موقعها على الخط الذي بدأ يسكنه تيار  
 الحركة التجارية الكبيرة بين الشرق والغرب مرحلة من مراحل هذا  
 الخط (٤١٩) \*

وقد لعبت طبرزون دائما دورا خاصا باعتبارها موقعا تجاريا \* وطالما  
 كانت من مدن الحدود التابعة للامبراطورية البيزنطية ، كان الروم والعرب  
 يتقابلون فيها ويتبادلون التجارة \* فهذا هو ما يذكره لنا المسعودي .  
 والاصطخري \* وابن حوقل (٤٢٠) \* كما كانت تمارس من جهة أخرى  
 حركة تجارية مع اقليم القوقاز وروسيا (٤٢١) \* وكان عدد كبير من  
 التجار المسلمين من سلطنة قوية ، ومن سورية وبلاد ما بين النهرين  
 يتقابلون في سبيواس Sivas حيث ينظمون القوافل ، ويسهرون بها عن  
 طريق طبرزون الى السواحل الشرقية والشمالية لاقليم بنطس  
 Pont (٤٢٢) \* غير أن رخاءها التجاري نما نموا كبيرا بعد تدمير بغداد  
 بأيدي هولوكوخان ، في حين كانت تبريز (طورس) المركز السياسي  
 والتجاري لآسيا \* فطالما بقيت بغداد \* كانت منتجات الشرق تنجبه صوب  
 البحر المتوسط ، وبعد سقوطها اتجه التيار التجاري ناحية الشمال لأن  
 القوافل التي تحمل الى البحر السلع المصدرة الى الغرب من تبريز  
 (طورس) كانت تقطع للوصول الى بنطس مسافة أقصر مما تقطعه  
 للوصول الى البحر المتوسط \* وترتب على ذلك انقلاب في الحركة  
 التجارية : ففي حين كان مجهوع البضائع القادمة من وسط آسيا تندفق  
 صوب البحر المتوسط ، أصبح الآن جزءا منها ، بل وجزءا كبيرا يسلك  
 طريق تبريز (طورس) الى بنطس ثم الى شاطئ البحر الأسود ، عند  
 طبرزون بنوع خاص \* أما الأهالي ، وهم قليلو النشاط بطبيعتهم ، يفضلون  
 الصناعة الصغيرة على متاعب المشروعات الكبيرة ، فانهم لم يسهموا في  
 التجارة الكبيرة الا بنصيب ثانوي للغاية \* ولكنهم كانوا يدركون تمام  
 الادراك المزايا التي تعود عليهم من وفود الأجانب في أعداد متزايدة ،  
 وزاوا بعين الرضا نمو التسهيلات من أجل تصريف المنتجات في البلد يوما

Fallmerayer, Gesch. v. Trapezunt, p. 318. (٤١٩)

M. DeFrémery dans le Journ asiat., 4<sup>e</sup> série, T. XIV, p. 462 (٤٢٠)  
 et par d'Ohsson dans son livre Des peuples du Caucase, p. 26.

Maçoudi, II, 46 et s. (٤٢١)

Ibn. Alathir, à l'année 602 (1205-1206 op. I.C.), cité par (٤٢٢)  
 DeFrémery Op cit., p. 461 et s.; Schehabeddin, p. 380.

بعد يوم • فالواقع أن اقليم الامبراطورية كان به أكثر من نوع من السلع التي يعرضها على الأجانب • كانت العاصمة تنتج أنسجة مسرودة ( تريكو ) ، وأقدشة متعددة الألوان من كتان ( Rhizoeum ) ، وصوف ، ووبر الحرير ( ٤٢٣ ) • أما الجبال التي تحيط بالامبراطورية فتحتمل على مناجم فضة ( ٤٢٤ ) ، وحرير ، وشب من أجود الأصناف ( ٤٢٥ ) •

قلنا أن أهالي طربزون تركوا التجارة الكبيرة للأجانب ، واستفاد الغربيون من ذلك • ولما كان وسط آسيا مفتوحا لهم في أعقاب العديد من السفارات المتبادلة بين خانات المغول والدول الغربية ، فقد تحرك عدد كبير من التجار الأوروبيين لاستغلال المجال الجديد الذي انفتح لهم ليمارسوا فيه نشاطهم • وكانت طربزون بمثابة باب من الأبواب التي نفذوا منها • ومن هناك ، كان عدد منهم يصل في الحال الى طوروس ، أو يغامر الى أبعد من ذلك ، الى قلب آسيا ، وآخرون يتوقفون هناك ، ويستلمون البضائع التي تجلبها القوافل من الداخل • ويوجد هناك ، كسما في آياس توابل الهند ( ٤٢٦ ) ، وعساقير فارس ، وحرير الصين ( ٤٢٧ ) • والشئ العجيب أن من أوائل التجار الذين نلقاهم على هذا الطريق اثنين من أهالي مرسيليا ، مزودين بخطابات توصية من شارل دانجو ( الذي وقع عليها بأفضائه بصفته كزنت بروفانس ) لامبراطور طربزون ، وربما سلم أحد هذه الخطابات لخان التتار ، وهو مؤرخ في ٧ من ديسمبر ١٢٦٦ ، وخطاب آخر بتاريخ ١٣ يناير ١٢٦٧ ( ٤٢٨ ) •

فهل طرد الايطاليون البروفنسيين على أثر ذلك من هذه السوق • أو استمرت بحريتهم ( بحرية البروفنسيين ) تتردد عليها دون أن تترك

Eugenius, à la suite des Eustathie opuscula, éd. Tafel, (٤٢٣)  
p. 373; Gesch. des Kaiserthums Trapezunt, p. 321.

A Baibourl, suivant le texte ramusien de M. Polo : V. Yule, (٤٢٤)  
M. Polo, I, 49; Ritter, Asien, X, 372.

(٤٢٥) في داخل البلاد ، خلف سيرازونت Cerasonte ، انظر :

— l'art. Alum, dans le chapitre relatif aux articles de commerce.  
(٤٢٦) للحصول على التوابل ، كانت السفن القينيسية تتجاوز أحيانا طربزون ،  
Pegol., p. 13.

وتمضى حتى بانطوم ، انظر :

— Vadi, cf. Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, Op. cit., p. 268;  
les Commem., II, p. 100, no 566.

— هذه المعلومة تثبت وجود طريق ناوى يبدأ أيضا من طورس •

Fallmerayer, Gesch. V. Trapezunt, p. 318. (٤٢٧)

Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Anjio, I, 219 et s. (٤٢٨)

انثرا لمرورها ؟ لا علم لي بذلك ، وكل ما نعرفه بوجه عام عن اقامة الغربيين في طربزون ينطبق على أفراد ينتمون الى ثلاث مدن ايطالية : جنوا ، والبندقية وفلورنسا .

سوف نرى في الفصل التالي أنه في عشر السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ، استقر عدد من الجنويين بصفة دائمة في فارس ، وظهروا ظهورا عابرا في الغرب ليؤدوا به بعض المهام باسم الخانات . ومن المفيد البحث عن الطريق الذي سلكه هؤلاء في ذهابهم وايابهم . ولا بد أن القساري يميل بطبيعة الحال الى التسليم ، بعد كل ما قيل في الفصل السابق بأنهم كانوا يمرون بجوزات . وربما كان هذا غير صحيح ، لأنه كان هناك طريق أقصر لعله الطريق الذي كانوا يفضلون سلوكه . هذا هو ما تعرفنا به وثيقة اكتشفت أخيرا ، وهي قائمة حساب نفقات سفر جالفريد دولانجيل ( Galfreid de Langele ) ( ١٢٩١ - ١٢٩٣ ) ( ٤٢٩ ) الموفد من قبل ادوارد الأول سفيرا من انجلترا الى فارس .

وكان أول عمل أداءه لانجيل التوجه الى جنوا ، وفي عزمه بالتأكد أن يجمع أحسن المعلومات عن الطريق الذي يتعين اتباعه ، ولعله يجد رفاقا سبق لهم أن سلكوا هذا الطريق . والتقى هناك بمن كان يريد لقاءه : التقى بشخص يدعى بوسكاريللو دي جيزولفي Buscarello dé Ghizolfi ( Guisulfi ) كان في خدمة أرجون خان ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ ) ، وأتى ليزور باسم هذا العاهل بلاطات روما وباريس ولندن ، وأقام قبل عودته بعض الوقت في وطنه الأصلي ، وكان عليه أن يصحب معه في عودته أخاه برسيفال Percivalle وابن أخيه كورادو Corrado وكانت مهمة لانجيل بالذات تقابل مهمة بوسكاريللو ، فهي بالنسبة الى الفارس الانجليزي فرصة ذهبية ، تتيح له أن يسافر في صحبته ( ٤٣٠ ) . وقام الاثنان برحلة الذهب والعودة عن طريق طربزون ، حيث تزودا بما يحتاجان اليه من مؤونة في طريقيهما ؛ ومن الأشياء التي تزودا بها ، اشترىا حصانا من تاجر جنوي يدعى بنديتو Bencdetto ( لا تذكره الوثيقة الا بهذا الاسم ) وتركا جزءا من أمتعتهمسا في منزل نيكولو دوريا ( ٤٣١ ) .

F conti dell' ambasciata al chan di Persia nel 1292, pubbl. (٤٢٩)  
da Corn. Desimoni, Atti della Soc. Lig., XIII, 537-698.

Ibid, p. 552 et ss., 567 et ss., 591, 594-596 605, 607, 617 637, (٤٣٠)  
641 et s.

Ibid, p. 608, 614. (٤٣١)

هذه التفاصيل تثبت وجود جالية جنوية فى طربزون : وهى أقدم  
 ما نملكه من أدلة . فهل كان دوريا Doria هكذا كما يفترض السيد  
 ديزيمونى M. Desimoni (٤٣٢) فنصل جنوا فى طربزون ؟ هذا سؤال  
 لا بد أن نتركه بلا جواب أكيد . غير أنه ليس ثمة شىء يبيح لنا أن نفى  
 وجود قنصلية جنوية فى هذه المدينة فى تلك الآونة . فالواقع أن  
 الايطاليين الذين تأكد لنا أولا وجودهم فى طربزون هم الجنويون : والشاهد  
 الذى لدينا عن ذلك فقرة كتبها المؤرخ البيزنطى جورجيس باشيميريس  
 Georgios Pachymères : فهو يذكر فى مناسبة حدث وقع فى عام  
 ١٣٠٦ ( سوف نتكلم عنه فى حينه ) أن الجنويين كانوا مستقرين هناك  
 منذ زمن قديم (٤٣٣) .

وثمة حقيقة أخرى تؤدى بنا الى النتيجة نفسها : ذلك أن امتيازات  
 الجنويين فى المعاهدات المبرمة بين أباطرة طربزون والبندقية قد اتخذت  
 مرارا بمثابة أنماط من المزايا التى يراد منحها للبنداقية . ولا بد أن  
 تخصيص حتى لهم يرجع الى عام ١٣٠٠ (٤٣٤) . فالواقع أنه فى رسائل  
 متبادلة فى عام ١٣٤٥ بين دوجى جنوا والبندقية فى خصوص أرض معينة  
 أجرى عليها البنداقية بعض الأعمال كما لو كانت هذه الأرض ملكا لهم ،  
 ترى أن الأول يدعى ملكية الأرض ، ويثبت دعواه فى « قرار ذهبى »  
 bulle d'or نشر منذ أكثر من خمسين عاما باللغتين اليونانية  
 واللاتينية (٤٣٥) أصدره الكسيوس الثانى امبراطور طربزون (١٢٩٧ -  
 ١٣٣١) يجب بموجبه هذه الأرض للجنويين ، ويصنف اللوح أن  
 الكسيوس ، بمنحه هذا الامتياز لمواطنيه لم يفعل سوى الاقتداء بأسلافه  
 الذين يدين لهم الجنويون بامتيازات أخرى .

هذه الجملة تفتح لنا مجالا واسعا فى السنوات الأولى من القرن

Ibid., p. 553.

(٤٣٢)

Pachym., éd. Bonn., II, 449.

(٤٣٣)

(٤٣٤) كانت الجالية الجنوبية تملك أيضا من زمن مبكر محكمة خاصة بها ، وتجد  
 الدليل على ذلك فى ميثاق بتاريخ ٦ أكتوبر ١٣٠٢ :

— Atti della Soc. Lig., XIII, 553, not. 2.

Atti della Soc. Lig., XIII, 536; Taf et Thom., IV, 289; Marin (٤٣٥)  
 (VI, 86) et M. de Mas Latrie (Archives des missions scientifiques II,  
 348 note); Fallmerayer, Gesch. V. Trapezunt, p. 300.

— لم تكن ارضوم مطلقا واقعة داخل حدود امبراطورية طربزون . وفى قمة ازدهارها  
 كانت بالكاد ممتدة من ناحية ارمينيا الى بايبورت

Fallmerayer, Gesch. V. Trapezunt, p. 300 : Baibourt

الثالث عشر ، وتجمعنا نأسف على فقد مجموعة كاملة من الوثائق الرسمية ( الدبلوماسية ) التي أصدرها أباطرة طربزون لصالح لجنوين . ولقى اثنان من « دبلوماسيات » ألكسيوس الثاني نفس المصير : أولهما قرار بالتنازل استنادا ليه دوج جنوا في نزاعه مع دوج البندقية وكل ما نعلمه أن هذا القرار كان نتيجة مهمة عهد بها الى بييترو ارجولينو Pietro Ugoles

أما القرار الثاني فإنه قرار bulle حصل عليه سفير آخر ، هو أوبرتو كاتانيو ديلا فولتا Oberto Cattaneo della Volta (٤٣٦) . وكانت الأرض الممنوحة لاجولينو من أجل مواطنيه ، واحتلوها بالفعل واقعة عند « قلعة الأسود » Chateau des lions Léontocastron) المسماة أيضا قلعة أو رأس ميدان Chateau au Cap du Meidan (٤٣٧) . واسم « ميدان » هذا أطلق وما زال يطلق على مكان على شكل مستطيل يقع على هضبة تشرف على ميناء طربزون .

وكانت « قلعة الأسود » المجاورة لهذا المكان تشكل جبهة متقدمة على البحر . تشرف على الرصيف المسمى دافنوس Daphnus . ولم يزل يرى في هذا الموقع أساسات لأبنية تعتبر من صنع الجنوين (٤٣٨) . ولهذه الأرض مزايا كثيرة نظرا لموقعها بجوار الميناء ، وعلى مرتفع يشرف على المدينة ، وسوف نرى بعد قليل أن الجنوين كانوا يتشبهون بها . غير أن حصول الجنوين على هذا الموقع لم يمنعهم بعد انقضاء بضع سنوات من إن يقدوا بعض المطالب : فقد وجدوا أنه مما يثير السخرية أن يفرض أمير صغير تقشيش بضائعهم بمعرفة وطفى الجمارك ، في حين أن عاهل امبراطورية كبيرة مثل امبراطور بيزنطة قد أعفاهم من الرسوم والضرائب كلها . ومن ثم أرسلوا وقداهم مهمته العمل على تخفيف الأعباء الضريبية عن التجارة .

ولم يكن الامبراطور الكسيس الثاني مستعدا للمرافقة على تنازلات من هذا النوع . عندئذ أبدى الجنوين أنهم يريدون قطع العلاقات كلها مع طربزون ، وقام كل من لهم منشآت بالمدينة ، بالاستعداد الصاحب لشحن كل أموالهم المنقولة على أسطول تجارى راس في الميناء . ولم يفرغ

Atti della Soc Lig., XIII, 515, 521, 522, 528, 530. (٤٣٦)

Atti della Soc. Lig., XIII, 515, 530. (٤٣٧)

— لم يكن هذا الموقع في الحقيقة سوى ضاحية من طربزون ، ومع ذلك فإن

Atlanté Luxoro تذكره على حده باسم ميدان Medan : Atti della Soc. Lig., V, 132, 265.

Pfallmerayer, Fragmente aus dem Orient, I, 48 et s.; Orig. (٤٣٨).  
Fragm., Op. cit., p. 83, 84, 89 et s.; Hamilton, Reise in Kleinasien, I, 229.



الكيميس من هذه المظاهرة ، وكان يدرك تمام الإدراك أن إنقطاع الحركة التجارية سوف يضر بتجارة الجنويين أكثر مما يضر بخزائنه ، ومن ثم أعلن أنه لا بأس عنده من رحيلهم ، على أن يدفعوا الرسوم المستحقة على البضائع التي استوردوها من قبل . ورد الجنويون على ذلك برفض بات ، وسارعوا بشحن بضائعهم في السفن عندئذ أرسل الامبراطور قوات عسكرية لاجبارهم على الامتثال له ، فحدث صدام أريقته فيه الدماء ، وعود الجنويون أسوأ معاملة .

وحاول الجنويون مخادعة أعدائهم فأشعلوا النيران في ضناحية المدينة ، ولكن لسوء حظهم وصلت النيران إلى بضائعهم المكسمة على الأرضصفة ، وكانت كافية لشحن اثنتي عشرة سفينة تنتظرهم في الميناء . وقد اضطرتهم هذه الحسائر في الأرواح والعتاد لعقد الصلح ، وسداد الرسوم الجمركية حتى تصدر أوامر أخرى (٤٣٩) . وقعت هذه الأحداث في عام ١٣٠٦ ، ومع ذلك تجددت المتاعب ، ويسجل ميشيل باناريتوس Michel Panaritos في كتابه « أخبار طربزون » أن اللاتينيين تمردوا في عام ١٣١١ ، وفي خومة القتال أشعلوا النيران في الترسانة البحرية (٤٤٠) . وفي رأيي أن هؤلاء اللاتينيين هم قطعاً الجنويون . والسواقع أن السنوات التالية اتسمت بسلسلة من المعارك بين جنوا وطربزون . فقد أراد الكيميس الثاني أن يأخذ بثأره لحريق ترسانته ، فنظم في عام ١٣١٣ مناصفة مع الغازي شلمبي ، سيد سينوب حملة إلى القرم ، ولقي جنويو كافاً وجهات أخرى في هذا القطر ضروبا من المعاملة القاسية في هذه المناسبة . وأقبلت من طربزون سفن طازدت السفن الجنوبية في البحر الأسود .

ومن الطرف الآخر قام اوتافينانو دوريا Ottaviano Doria

واتشميلينو جريلو Acellino Grillo وميجولو ليركاري Megollo

Lercari (٤٤١) وملاحون جنويون آخرون فأغرقوا عددا من سفن طربزون . وبعد أن أوقع كل من الطرفين أضرارا شديدة بالطرف الآخر ، قر عزمهما على عقد الصلح . وفي معاهدتي ١٣١٤ ، ١٣١٦ (٤٤٢) نرى

Pachymeres, II, 448-450.

(٤٣٩)

Panaretos, dans Fallmerayer, Orig. Fragm., Op. cit., p. 15, 45.

(٤٤٠)

éd. Desimoni, Atti della Soc. lig., XIII, 495 et ss., Agost Giustiniani, dans ses Annali di Genova, à l'année 1380 (éd. de 1537, p. 148 et s.

(٤٤١)

Atti della Soc. Lig., XIII, 513 et ss., 527 et ss.

(٤٤٢)

الطرفين يطالبان بتعويضات . ويبدو أن الامبراطور استرد من الجنويين في أثناء المعارك حى ليونتوكاسترون Leontocastron ، وأعطاهم نظير عقد الصلح الموقع الذى كانت تشغله فيما مضى الترسانة البحرية (٤٤٣)، ووعدهم بأن يحيطه بأسوار وأبراج وخنادق ، واشترط لذلك منع الرعايا اليونانيين من الإقامة فى هذا الحى ، ويسرى هذا المنع على سائر الأجانب ، فيما عدا الكنائس المبنية من قبل فى الحى ، فانها تبقى بتصريح من القنصل ، أثناء النهار تحت تصرف رجال الدين اليونانيين لإقامة الشعائر بها ، كما يبقى الرصيف المجاور لهذا الحى تحت تصرف الجنويين وجدهم . ويحظر على السفن اليونانية والأجنبية الرسو هناك عند وصولها ورحيلها وتفترض المعاهدتان (٤٤٤) ، كما قلنا وجود قنصلية جنوية فى طربزون ، وسلطة القنصل القضائية محددة حسب العرف بالنسبة الى قضاء محاكم البلد .

ولم يكن قدم العهد نسيبا باستقرار الجنويين بطربزون ، وصلابة موقفهم بازاء الأباطرة سوى النتائج الطبيعية للوضع القوى الذى اكتسبته هذه الأمة فى غلطة ، والتفوق الذى كفله لها فى البحر الأسود وجود جالية مزدهرة ومحطة بحرية قوية مثل محطة كافا . واستطاعت جنوا مع نقطتى الارتكاز هاتين أن تعمل على انشاء مستوطنات أخرى ورعايتها على طول سواحل البحر الأسود . وكانت واثقة كل الثقة بأن تجاب مطالبها ، خاصة لأنه اذا دعت الحاجة الى استخدام القوة لتقرير مطالبها هذه ، فانها لم تكن بحاجة الى استخدام قوات عسكرية من إيطاليا ، لبعدها ، انما كان لها قوات على آتم استعداد فى غلطة وفى كافا .

ورثة نتيجة أخرى ، فى نطاق هذه الآراء ، تتمثل فى أن المستوطنة

«Dalsanam Trapezonde» : ibid, 514, 530.

(٤٤٣)

— كان مرخصا للجنويين أن يختاروا بدل الترسانة مكانا آخر مماثلا لها فى المساحة، وواقفا فى حى آخر من احياء المدينة يطيب لهم أن يختاروه ، وكذا على « المارين » Marine باستثناء حى ليونتوكاسترون ، ولكنهم لم ينتفعوا بهذا الترخيص .

(٤٤٤) تكرم السيد الأستاذ جوزيف مولر ، من تورين باعطاني نسخة من معاهدة ٢٦ أكتوبر عام ١٣١٤ ، أخذت من دار وثائق تورين ، وكتب عنها السيد كانالى Canale ملخصا فى الطبعة الأولى من كتابه « تاريخ جنوا » ، الجزء الرابع ، ص ٣٥٣ وما بعدها . أما بخصوص المعاهدة الثانية التى أبرمت فى طربزون فى ٩ من يولية ١٣١٥ ، وصدق عليها فى جنوا فى ١٦ ( ٩ ٢٤ ) من مارس ١٣١٦ ولست أعرف عنها سوى ماكتبه Canal فى مرجع السابق ذكره ، الجزء الرابع ، ص ٣٥٤ ، و Falmerayer ؛ — Falmerayer, Orig. Fragm., op. cit., XV, 84.

الجنوية في طربزون كانت مرتبطة ارتباطا مباشرا بالسلطة المركزية في جنوا ، فكانت هناك ادارة تسمى Afficium Gazario ( أى مكتب القرم ) تتولى ادارة الشؤون الاستعمارية في البسفور ، وبطيس ، وشنون الملاحه مع هاتين الجهتين ( ٤٤٥ ) ، وكان هذا المكتب يصدر تعليمات الى قباطنة السفن التي ترسو عند طربزون ، والى القوافل التي تسير من هناك الى طورس ، ويصدر أوامره الى القناصل في طربزون ( ٤٤٦ ) . وبالنسبة الى أهمية هذا المنصب ( أى قنصل طربزون ) كان تعيين من يشغله من اختصاص السلطة المركزية ، بدلا من أن يتولاها قنصل كافا . وكان لقنصل كافا بصفته رئيس أهم مستوطنات بطس الحق في شغل مجموعة من الوظائف الاستعمارية الأقل شأنًا ، حتى في خارج مقر عمله ( ٤٤٧ ) .

ولمساعدة القناصل في أداء مهام وظائفهم الادارية والقضائية ، ولماوزنة سلطتهم طبقا للمبادئ الديمقراطية ، ألحق بهم مجلسان : مجلس صغير ، ومجلس كبير ، يضم الأول ستة أعضاء ، والثاني أربعة وعشرين عضوا ، يختارون من بين أفراد الجالية نفسها ( ٤٤٨ ) .

ولم يوطد البنادقة مراكزهم في البحر الأسود بقدر ما فعل الجنويون . وعلى أية حال فانهم لم ينشئوا مستعمرة طربزون الا بعد زمن طويل . ولم يتسن ذكر معاهدتين عقدتا بين البندقية وامبراطور طربزون في عامي ١٣٠٣ ، ١٣٠٦ الا بعد حدوث خطأ واضح . فبالنسبة الى المعاهدة الأولى ، يرجع الأمر كله الى خطأ مطبعي وقع في طبعة مارن Marin واهمال من جانب دبنج Depping . وها هي الحقيقة : فتمت معاهدة أبرمت بين البندقية وطربزون يرجع تاريخها الى عام ١٣١٩ م . ففي طبعة مارن ، وبخطا مطبعي ، استبدل بهذا الرقم رقم ١٣٣ ( هكذا ) ، وبدلا من اجراء شيء من الحساب لاثبات التاريخ الحقيقي ، استبدل دبنج برقم ١٣٣ التاريخ ١٣٠٣ ( ٤٤٩ ) .

Off. Gaz., p. 307. (٤٤٥)

Ibid., p. 337, 350, 366, 385; Canale, Della Crimea, I, 240, 325, 380. (٤٤٦)

Canale, Della Crimea, I, 241, 348, et s., 376 et s. (٤٤٧)

Off. Gaz., p. 337, 380. Le conseil de Six. (٤٤٨)

— يظهر « مجلس الستة » في معاهدتي ١٣١٤ ، ١٣١٦ .

Cf., Marin, IV, 145 , et Depping, Hist. du commerce entre le Levant et l'Europe, II, 89-91. (٤٤٩)

وبالعثور في كتاب فالمرayer Fallmerayer على معاهدة مماثلة بتاريخ ١٣١٩ ، سلم بأن هذه المعاهدة ليست الا نسخة مطابقة لمعاهدة ١٣٠٣ . والواقع أن النصين متماثلان ، ولكن ليس هناك الا تاريخ واحد حقيقي ، ذلك هو عام ١٣١٩ . أما فيما يختص بمعاهدة ١٣٠٦ المزعومة ، فانها لم يكن لها وجود . فتبعنا لما ذكره السيد جوزيف مولر M. Joseph Muller تكون هذه المعاهدة قد عقدها جياكومو جوسوني Giacomo Gussoni من قبل الدوج بيترو جرادينجو والجمهورية (٤٥٠) .

وفي ذكره لهذه المعاهدة ، ادعى أنه استند الى وثائق جمعها السيد تافل Tafel ، وكانت هذه المجموعة تحت نظري : ففي الوثيقة المقصودة ، لم يذكر بها لا الدوج ولا الامبراطور . بقيت اذن مسألة التاريخ وحدها ، وهو عام ١٣٩٦ وليس ١٣٠٦ . وعلى ذلك فأقدم « دبلوم » معروف منحه امبراطور طربزون للبنادقة كان ولم يزل دبلوماسي ١٣١٩ ، وهو الذي سلمه الامبراطور الكسيس الثاني الى بانتاليون ميشيل Pantaleón Michiel (٤٥١) سفير البندقية ، ويتميز بأنه يضع الأسس لموقف جديد ، ونرى فيه الامبراطور وهو يمنح البنادقة لأول مرة سسلطة تنظيم مرسى (scalam facere) في طربزون ، اسوة بالجنويين ، ويخصص لهم لأول مرة أرضا يبنون عليها مستودعا ، وكنيسة ، ومنازل للسكنى ، ويسمح لهم باقامة « بايل » يتمتع بنفس الاختصاصات التي للروم . لا يمكن اذن أن ننسب الا الى تاريخ هذا الدبلوم على أكثر تقدير افتتاح خدمات الملاحة التي تتولاها سفن ( قواديس ) طربزون Galeae Ttápezundoe ، وهي خدمات لا يتيسر لنا لسوء الحظ تتبع سيرها ، الا في فهارس الموضوعات في كتب Misti المفقودة (٤٥٢) :

ولابد أن نسلم أيضا بأن البنادقة لم يبدأوا قبل هذا التاريخ ، أي قبل عام ١٣١٩ في وضع أسس مستعمرتهم في طربزون . فالواقع أن مجلس الشيوخ أرسل الى بايل هذه الناحية ، فقط بين عامي ١٣٢٠ ، ١٣٢٢ مبلغا قدره مائة جنية لبناء دار للقنصلية loggia وفندق ومنازل (٤٥٣) . ويستخلص من الوصف الوارد في نص المعاهدة أن

Sitzungsberichte der Wiener Akad, Philos. hist. Cl., VII, année (٤٥٠)  
18٤1, p. 334.

Arch. stor. ital., App., IX 374-378; dans la Coll. des doc. inéd., (٤٥١)  
méi. hist., III (1880), p. 83 et ss.; Taf. et Thom., IV, 122 et ss.

Archiv. Ven., XVII, 258, 259, 261; XVIII, 43, 329-332, 335- (٤٥٢)  
336; XX, 296; Commem. reg., II, p. 100, no. 566.

Ibid. XVIII, 327.

(٤٥٣)

هذه المباني أقيمت ، على الأقل بصفة جزئية على الأرض التي تنازل عنها الإمبراطور للجنويين في عام ١٣٠٠ ، واستعادها في عام ١٣١٦ ، ولابد أن نتعرف في لفظة Londocastrum بالوثيقة ( وهي تحريف لكلمة Bondocastrum على « قلعة الأسود » Leoncastron) وسوف نرى أن هذا كان سببا لوقوع نزاع بين البندقية وجنوا .

وكان أول بايل للبنادقة في طربزون هو جيوفاني سانودو Giovanni Sanudo ، ويمكن التسليم بذلك دون تردد ، وقد كلفه الدوج جيوفاني سورانزو Giovanni Soranzo في عام ١٣٢٠ بأن يفرض على كل فرد من أفراد الجالية ضريبة قدرها خمسة عشر « صول » عن كل مائة صول من ماله . وتبعاً لهذه التعليمات ، استخدم سانودو ثلث المبلغ الذي جمع على هذا النحو في بناء حي جديد ، وسلم جزءاً من باقى المبلغ لميشيل دولفينو Michele Dolfino سفير البندقية عند مروره بطربزون متوجهاً الى طورس ، كبديل لمصاريف سفره ، وجزءاً آخر للتاجر جيوفاني بريولى Giovanni Priuli مساعدة له في تجارته بشرط أن يؤدي للدوج في نهاية شهرين رأس المال الذي استلمه مع الفوائد (٤٥٤) .

نستخلص من كل هذا : أولاً ، أن المستوطنة كانت في هذا التاريخ منهكة بتشبيد مبانيها المخصصة للصالح العمام (cavasa) ومسكن الأفراد domi (٤٥٥) . ثانياً ، أنها مع كونها في فترة تكوينها ، قد أسهمت في التكاليف التي اقتضتها الاجراءات الضرورية لفتح طريق المواصلات بينها وبين فارس ، وهذا أمر طبيعي لأن البنادقة المقيمين في طربزون هم أول المستفيدين من ذلك . ولنعند الى وثيقتنا الرسمية (الدبلوما) ، اذ لم تستنفد بعد مضمونها . نرى في هذه الوثيقة أن الكسيس يضع البنادقة على قدم المساواة التامة مع الجنويين ، فهم مثلهم مرخص لهم باستعمال موازينهم ومكاييلهم ، وبأن يكون لهم سيطرة من جنسهم ، ويجعل الرسوم المفروضة على تجارة الأمتين مستقبلاً متماثلة تماماً .

وفي هذا الخصوص تذكر الوثيقة أولاً البضائع التي سوف يحضرها البنادقة على سفنهم ، فان أعادوا تصديرها في قوافل الى داخل آسيا ،

Taf. et Thom., IV, 171 et s. (Commém. reg., I, p. 226, no 225); (٤٥٤)  
Archiv Venet., XVIII, 330, 334.

(٤٥٥) نمة معلومة مرتبطة بهذه الأحداث ، تتمثل في الأمر الصادر عام ١٣٢٢ لتفصل البندقية بئانا Tana بان يرسل نقوداً لبایل طربزون من أجل الاعمال الخاصة بتحصينات القلعة ، انظر :  
بخصيانات القلعة ، انظر :

Canale, Della Crimea, II, 443 (extr. des registres des Misti)

يتحدد رسم المرور بمبلغ ٢٠ آسبر *aspres* (٤٥٦) ( نقد فضى تركى قديم - المترجم ) عن حمولة الدابة الواحدة . فاذا استوردوا البضائع فى الامبراطورية لبيعوها بها ، تحصل الدولة من كل من البائع والمشتري رسما مختلفا ، تبعا لما اذا كان المشتري رعية فينيسية أو لم يكن كذلك ، أو تبعا لما اذا كانت السلعة تباع بالوزن أو بالكيل . وفى حانة البيع لافراد من غير البنادقة يدفع البائع ٣٪ ، ورسما اضافيا قدره ١٧٪ أو ٢٪ اذا كانت السلعة تباع بالوزن . فاذا كان كل من البائع والمشتري بندقيا كان على كل منهما أن يدفع ١ ١/٢ أو ٢٪ ( وتختلف القراءات فى هذه النقطة ) اذا كانت السلعة تباع بالوزن ، ولا يدفعان شيئا أن لم تكن كذلك ( أى تباع بالكيل ) (٤٥٧) . والمستورد الذى يريد أن يعيد تصدير سلعة لم يتيسر له بيعها ، يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يدفع أى رسم .

أما السلع الذهبية والفضية ، والأحجار الكريمة ، والأحزمة ، وسائر الأشياء المماثلة التى يستوردها بنادقة ، ويعرضونها للبيع فى البلد فانه يسمح بدخولها معفاة من الرسوم ، فاذا أعيد تصديرها بطريق القوافل ، فانها تخضع لرسم قدره ٢٠ آسبر . ويعالج الدبلوما فى موضع ثان مسالة البضائع التى يأتى بها البنادقة من داخل آسيا ، فيفرض عليها عند دخولها رسما قدره ١٢ آسبر (٤٥٨) عن حمولة الدابة الواحدة ، كما يفرض على كل السلع التى تباع داخل الامبراطورية رسم انتاج قدره ٨٪ .

كان عهد الكسيس الثانى الذى تدين له الأمان التجاريتان بأهم ما حصلوا عليه من أموال وامتيازات عهدا قويا مزدهرا . ولكن بعده ، وبخاصة بعد وفاة ابنه الثانى بازيل الأول *Basile Ier* (١٣٤٠) أدى وقوع بعض الفتن الداخلية الى فقد أجزاء من الاقليم فقد تنازع السلطة حزبان كبيران ، متساويان تقريبا فى القوة ، وتتابعت انقلابات القصر

28 aspres, suivant Pegolotti, p. 13.

(٤٥٦)

- كان هذا الرقم دون شك خاصا بالرسم المفروض على غير أصحاب الامتياز : ويقول الكاتب نفسه انه كان يضاف الى هذا الرسم رسما تكميليا قدره آسبر واحد للتفصل .

Pegol., p. 13.

(٤٥٧)

14 aspres, suivant Pegol., l.c.

(٤٥٨) لعل هذا هو السعر المفروض على غير أصحاب الامتياز . ويذكر المؤلف هنا أيضا رسما اضافيا قدره آسبر واحد للتفصل . وفى عام ١٣١٤ أى خمس سنوات قفط قبل تاريخ الدبلوم كان ١٥ آسبر كورنينات *aspres comnenates* ( وكان سارى المعول فى طريزون ) تساوى دينارا بيزنطيا « هيبير » *besant hyperpre* وتبعا للحساب الذى أجراه السيد ديزيمونى ، تصل الى النتيجة الآتية ، وهى :

(ibid. 651 et ss., 675 et s.) 21 aspri = 1 fiorino

على فترات قصيرة ، وتركت الاضطرابات ، وأعمال النهب المتكررة شوارع العاصمة خربة مقفرة . وكانت حالة الحرب الأهلية تلك سببا في اضعاف الامبراطورية ، واستغل ترمان أميد Amid ( ديار بكر ) هذه الحالة فأغاروا عليها .

وفي الغزوة الأولى ( يناير ١٣٤١ ) تقدموا حتى العاصمة وأشعلوا فيها الحرائق . وشاركت المستعمرات بطبيعة الحال في المعاناة الشاملة ، وأصبح الحي القينيسى كله رمادا مثل سائر أنحاء المدينة . والراجح - ولو أنه لا توجد أية وثيقة تذكر ذلك - أن الحي الجنوى عانى هذا المصير . الا أنه في غضون احدى هذه الثورات الشعبية الكثيرة الحدوث في طربزون أن عانى التجار الفرنجة من أزمة شديدة . ويزعم المؤرخ البيزنطى نيقفور جريجوراس Nicéphore Grégoras أن جريمة قتل ارتكبتها عام ١٣٤٣ فى تانا بندى ضد بتارى أثارت غضب أهالى طربزون ، ويرى أن مثل هذا الحادث يقع هناك كل يوم بسبب غطرسة الإيطاليين . وبذافح من هذا الشعور انقض الأهل على اللاتينيين وقتلوا عددا كبيرا منهم ، والتمس الآخرون الرحمة (٤٥٩) . ويحتمل كثيرا أن تكون هذه المنبحة من تدبير حزب وطنى متطرف ، ويبدو لنا أنه لا ضرورة للبحث عن الباعث الحقيقى لجريمة القتل التى ارتكبت فى تانا ورواها المؤلف .

وعلى أية حال فانه بعد هذا الانذار بالخطر أوقف البنادقة مؤقتا تجارتهم مع طربزون . ومع ذلك ففى عام ١٣٤٤ تلقى مجلس الشيوخ أبناء طيبة من تلك الناحية ، فجازف بإرسال قادسين على سبيل التجربة ولما لم يكن البابل ومستشاروه قد غادروا طربزون ، فقد صدر الأمر اليهم أن يتسلموا الشحنة ، ولكن ربابنة القادسين كانوا مكلفين بالتوجه الى البلاط وتسليم الامبراطور بعض الهدايا ، وإبلاغه بعزم حكومتهم على ارسال سفن أخرى وتجار (٤٦٠) .

وليس فى وسعنا أن نقول ما اذا كان البنادقة قد عملوا منذ تلك الآونة على إعادة بناء جبههم الذى احترق ، أو اذا كانوا قد شرعوا فى هذا العمل قبل قيام الثورة الشعبية التى راح ضحيتها الكثيرون ، فالأمر لم يثبت بوضوح . غير أن الثابت هو أن إعادة البناء هذه أثارت نزاعا مع

Niceph. Greg., II, 687. Voy. Fallmerayer, Gesch., V, Trape- (٤٥٩)  
zunt, p. 188 et s.

Délibération du Sénat, du 15 avril 1344; Taf. et Thom., IV, (٤٦٠)  
275 et s.

الجنوبيين . وتداركا للخطر المحتمل دائما بعودة غارات الترك ، رأى البنادقة انه من الضروري احاطة حيهم بالحنادق وغيرها من التحصينات .

وامتدت هذه الأعمال على الأرض التي منحت في الأصل للجنوبيين . ورغم أن هذه الأرض قد استردت منهم ، وأعطوا في مقابلها عام ١٣١٦ موقع الترسانة البحرية ، فانهم لم يسلموا بسقوط حقهم في تلك الأرض . ودع أن الامبراطور أصدر التصريح اللازم لمباشرة الأعمال ، الا أنهم احتجوا ، وحملوه على سحب الاذن الذي أصدره . وقدم نائب البايلى الى حكومته تقريرا بهذا الموقف السيء ، فأوفد أندريا دانولو ، دوج البندقية الى جنوا موثق العقود نيكولينو دى فراجانسكو Nicolino de Fraganesco وكلفه بمقابلة جيوفانى دى مورتا Giovanni di Murta دوج جنوا ، وتقديم شكوى اليه من الموقف العدائى الذى اتخذه جنويو طربزون ، وهو موقف لا مبرر له في الواقع ، لأن التحصينات المقامة تنفيذ البنادقة أنفسهم بقدر ما هي مفيدة للجنوبيين . وتلقى دوج جنوا بالقبول مطالب رسول البندقية ، مع تحفظات بشأن حقوق أمته في الأرض المتنازع عليها ، وأرسل الى مواطنيه أمرا بالا يقيموا أية عراقيل في سبيل أعمال الحفر التى يقوم بها البنادقة (٤٦١) .

أما الجنوبيون فانهم لم يتركوا ثأرهم لمذبحة المستعمرين الفرنجة ، ولم يتنازلوا عن حيهم القديم « ليونتوكا سترون » . وفي عام ١٣٤٨ استولوا عنوة على كيراسونت Cérasonte المدينة الثانية بالامبراطورية ، ونهبوها وأحرقوها (٤٦٢) . وفي السنة التالية اقبلت سفينتان حربيتان معه كافيا ، وظهرتا قبالة طربزون ، وحاربتا البحرية الامبراطورية : وضع انهما انتصرتا في هذه العملية ، الا انهما انسحبتا ، ولم تحاولا الرسو وانزال الجنده . وراح الفرنجة من سكان المدينة ضحايا هذه العملية : فقد نهبت بيوتهم ، والقي بهم في السجون . وبعد انقضاء سنة ، ظهر الجنوبيون من جديد تحت أسوار المدينة : وفي هذه المرة جاءوا بثلاثة قوادس من كافا ، ومركب من أميسوس - Amisos ( سمسون Samsoun ) وكان الامبراطور ميخائيل الجالس على العرش وقتئذ ضعيفا لكبر سنه ، فارتاع من هذا الاستعراض الحربى ، واستسلم . واستسلم الجنوبيون

---

Instruction pour le notaire, du 20 nov. 1344 : Taf. et Thom. (٤٦١) .  
IV, 330 et s.; ibid. 332, Lettre de Murta pour le règlement de cette affaire et de diverses autres, ibid. 287. et ss.

Depping (T, 130),

(٤٦٢) .



ليونتوكا سترون التي ردها اليهم الامبراطور (١٣٤٩) واحتفظوا بها دون عائق حتى سقطت الامبراطورية (٤٦٣) .

وفي السنة نفسها أوفدت جمهورية البندقية نيكولا كويريني Nicolà Quirini في مهمة الى طربزون (٤٦٤) . وفي وسعنا أن نخمن ما كانت تريده الجمهورية ، ذلك لأن امتيازها هناك قد نقص بسبب ما اسنرده الجنويون . غير أن مسعاها هذا قد فشل . ولم يعد البنادقة يستطيعون الإبحار الا في سفن حربية مسلحة ، أما لهذا السبب ، أو بسبب الحرب الضارية التي نشبت في تلك الفترة بين جنوا والبندقية ، وتفوق الجنويون في البحر الأسود (١٣٥١ - ١٣٥٥) (٤٦٥) .

وانتاب الحركة التجارية بين طربزون والبندقية انقطاع طويل . وأخيرا أبدت حكومة طربزون لحكومة البندقية رغبتها في إعادة العلاقات بينهما ، فأوفدت اليها سفارة (١٣٦٠) (٤٦٦) ، كما أوفد الدوج لورنزو تشيلسي Lorenzo Celsi جوليينمو ميشيل Guglielmo Michiel وكلفه أن يحيي الامبراطور الكسيس الثالث باسمه واسم بايل القسطنطينية أندريا كويريني Andrea Quirini (١٣٦٤) ، ويعلنه بموافقة دولته على ارسال سفن جديدة الى طربزون ويطلب منه أن يمنح جاليتها قطعة أرض ، فخصص لها الامبراطور قطعة أرض واقعة أسفل دير سانت تيودور جابراس S. Théodore Gabras ومنح البنادقة تخفيضا قدره ١٪ على رسم الإنتاج المفروض على مبيعاتهم داخل الامبراطورية (٤٦٧) . ويبدو أن الأرض التي خصصت لهم لم توافقهم ، ولعله يتعين البحث في هذف المعلومة عن السبب في قيام نزاع عتيف في السنة التالية بين رؤساء الجاليتين الفينيسية والجنوية في حضرة الامبراطور ذات يوم حضر فيه مع حاشيته في « ميدان Meidan بمناسبة الاحتفال بعيد القيامة (٤٦٨) .

Mich. Panaretos, dans Fallmerayer, Orig. Fragm., 2<sup>e</sup> sect., (٤٦٣)  
p. 22 et s., 51.

Berchet, Del. commercio dei Veneti nell' Asia, p. 103. (٤٦٤)

(٤٦٥) في عام ١٣٥٢. فاجات سفن فينيسية حربية السفن الجنوبية ومى راسية امام

طربزون واحرقتها :

Panaretos, l.c., p. 25, 53.

Filiati, Mem. del Veneti, VI, 2, p. 217. (٤٦٦)

Privilège du mois de mars 1364, dans Pasini, Codd. (٤٦٧)  
msr Bibl Tourin, I, p. 222 et s.; Miklósich et Muller, Acta et diplom.  
Grac. medioevi, III, 130 et ss.

Panaretos, l.c., p. 32 60. (٤٦٨)

ولم يذكر المؤرخ ذلك ، ولكن القسوم كانوا فوق الأرض المتنازع عليها ، ولم يكن من المستحيل أن تكون هذه الفكرة قد أثارت حفيظة البابل ضد القنصل الحائز السعيد لليونو كاسترون . وفى عام ١٣٦٧ وصل الى طربزون على قادس مسلح تسليحا جيدا سفير جديد ، هو بييترو دالمير Pilro Dalmer موفدا من قبل الدوج ماركوكورنارو ، وحمل الامبراطور على سحب الامتياز السابق والتنازل ( للجالية ) عن الرأس المسمى رأس سانت كروا Ste Groix تبعا للكنيسة التى تحمل هذا الاسم والمقامة هناك . ورخص للسفير بأن ينشئ على هذا الموقع حيا سكنيا يحميه سور ، وعدت الامبراطور بأن يبنى له على نفقته دعامة وبرجا ، ويحيطه بخندق ، وأن يتصل بالخارج بوساطة جسور . وطالب السفير أيضا بتغيير الرسوم المفروضة على التجارة ، ولكن الامبراطور أبقى على رسوم المرور القديمة ، ولم يوافق الا على تخفيض طفيف قدره ١/٤٪ على رسم الانتاج (٤٦٩) وتمثل أهمية دبلوما عام ١٩٣٧ فى أنه أعطى البنادقة ملكية الأرض التى يقيمون عليها من ذلك الحين بلا انقطاع حتى سقوط طربزون . كانت هذه الأرض هضبة تشكل لسانا ممتدا فى البحر مثل ليونتوكاسترون ، وكانت مثلها موجودة فى القسم الخلفى المتصل بالشارع الذى تقوم فيه على خطين طويلين الحوائث والمخازن التابعة للمستوطنين . ولم يكن هذان الحيان فى نطاق سور المدينة ، بل كانا جزءا من ضاحية « الحدايق » ، ولكنهما كانا محوطين بأسوار ومحمينين بأبراج حصينة (٤٧٠) . وكان منظر هذه الأسوار والأبراج من الخارج مهيبا لا يتوافق مع النشاط أو الرخاء التجارى . ولم تدم الفترة الأكثر رخاء الألى عام ١٣٤٠ على أكثر تقدير ، واعتبارا من هذا التاريخ بدأت الامبراطورية ، مثلها مثل جارتها فارس تظهر عليها علامات الانحلال التى كانت غير ملائمة لنمو الحركة التجارية .

(٤٦٩) Taf. et Thom., inéd. ; les commem. reg., III, p. 67, no 390.

(٤٧٠) على هذا النحو وصفها كلافيو Clavijo القسنتال الذى مر بطربزون فى عام ٨٤٤ وهو ذاهب فى مهمة الى سمرقند . ص ٨٣ ، ٨٤ ( طبع بباريد عام ١٧٨٢ ) ، راجع

— Fallmerayer, Fragmente, p. 48, 97.

## رابعاً - فارس

كان من آثار انهيار الخلافة الاسلامية على يدي هولوكو ( خان المغول ) القضاء على جزء كبير من اهمية بغداد والمدن المجاورة لها . فقد كانت هذه المدن الواقعة حتى ذلك الحين في قلب الحياة السياسية والتجارية للعالم الاسلامي تعيش في رخاء تام ولكن منذئذ بدأ تدهورها . حقا لم يظهر التدهور مرة واحدة : فبعد أن زار ماركوبولو مدينة بغداد راح يسترسل بعبارات الاعجاب في وصف هذه البقاع الشاسعة ، واهمية صناعة المنسوجات الحريرية والبروكار ( الديباج ) المذهب القائمة بها ، وتجاريتها النشيطة مع الهند عن طريق نهر الدجلة والخليج الفارسي (٤٧١) ، فلم يتهمه أحد بأنه يردد قصة سمعها ، أو ينسب الى هذه المدينة (بغداد) عظمة لم تكن لها الا في عهد الخلفاء .

وثمة رحالة آخر رأى بغداد في مستهل القرن الرابع عشر : هو شمس الدين الدمشقي Chamseddin Dimichki فوصفها أيضاً بأنها المكان الذي تلتقى عنده سفن قادمة من الصين واليمن والهند ، وبلاد الزنج ( الساحل الشرقي الافريقي ) عن طريق نهر الدجلة ، بينما بحارة الفرات يأتون اليها بمنتجات أرمينيا والغرب (٤٧٢) ، وفي زمن ماركوبولو لم يكن أحد يفكر في اعتبار طائفة تجار الموصل من عناصر المجد القديم ، الذين يمارسون بنوع خاص تجارة التوابل والاقمشة الثمينة التي يصدرونها الى جهات نائية (٤٧٣) . والتجارة لا تهجر دفعة واحدة طرقا تربط بلادا بعيدة بعضها ببعض ، ولا تقطع في آن واحد علاقات وطيدة . ومع ذلك فان هذين السوقين الكبيرين لم يكونا وحدهما : فثمة منافس لهما برز منذ حين : تلك هي طورس ( أو تبريز ) Tauris التي كانت فيما مضى حاضرة إقليم هام به عدد كبير من السكان ، وأثرت بالصناعة والتجارة ، ونجت من التدمير المغولي الرهيب بخضوعها بارادتها لهؤلاء الغزاة المغول الذين اتخذوها حاضرة امبراطوريتهم الغربية (٤٧٤) . وازداد عدد سكان المدينة من ذلك الحين زيادة سريعة ، وما لبث أن نشأ بجوار

Ed. Pauthier, p. 47 et ss.

(٤٧١)

Voyez son Manuel de cosmographie, trad. Mehren, p. 113.

(٤٧٢)

M. Polo, éd. Pauthier, p. 45 et s.

(٤٧٣)

Yaqout, p. 132-134.

(٤٧٤)

المدينة القديمة مدينة جديدة سميت «الغازانية» Ghazanièh نسبة إلى غازان خان Ghazan-Khan الذي بناها (٤٧٥) وفي عام ١٣٠٥ والسنوات التالية بنى أولجايتو Oldjaiton خليفة غازان مقاما ثانيا له : مدينة سلطانية جنوب شرقي طورس ( تبريز ) ، في إقليم العراق العجمي (٤٧٦) .

وسرعان ما اكتسبت هاتان المدينتان أهمية تجارية كبيرة ، ووجد في أسواقهما أولا منسوجات حريرية فاخرة ، وديباج ، وسجاجيد مصنوعة في طورس نفسها (٤٧٧) ، ثم نخبة جميلة من الأحجار الكريمة التي تخصصت المدينتان في صنعها (٤٧٨) ، وأخيرا كل السلع التي يمكن تصور وجودها في كل أنحاء العالم ، فقد كان لطورس بالفعل أوسع ما يمكن من العلاقات (٤٧٩) ، ولم يشر ماركو بولو إلا إلى جزء قليل من هذه السلع حين قال انه يمكن مشاهدة وصول البضائع إلى طورس قادمة من بداد والموصل من جهة ، ومن جيرمسير ( كريمة سور Cremsor ) والهند من جهة أخرى (٤٨٠) . ويشير اسم جيرمسير هنا (ترجمته الحرفية : البلد الحار ) بالتأكيد إلى الساحل الجنوبي لإيران ، ويمتد على طول الخليج الفارسي والمحيط الهندي ، وهو معروف بمناخه الشديد الحرارة (٤٨١) ، ومن هناك يصل إلى داخل فارس منتجات الهند ، والآلء الخليج الفارسي . وكان المقر الصيفي للخانات يستفيد كثيرا من العلاقات مع طورس ، وكان هذا المقر أهلا بالتجار الذين أجبروا على الانتقال إليه والسكنى به ، ومن ثم نشأ نشأة اصطناعية من حيث كونه مكانا للتجارة (٤٨٢) ، ومع ذلك ازدهر واشتهرت أسواقه العامرة بكافة السلع (٤٨٣) .

---

D'Ohsson, IV, 276 et ss. ; Rachideddin, éd, Quatremère, p. xvii;	(٤٧٥)
D'Ohsson, IV, 486; Hammer, Geschichte der Ilchane, II, 185. et s	(٤٧٦)
Yaqout, p. 133; M. Polo, p. 59 et s.	(٤٧٧)
M. Polo, p. 60 ; Ibn-Batouta, II, 129 et s.	(٤٧٨)
Oderico da Pordenone, p. ii, iii ; Pegol., p. 7-9.	(٤٧٩)
M. Polo, p. 60.	(٤٨٠)
Ritter, Endk., VIII, 723.	(٤٨١)
D'Ohsson, IV, 487.	(٤٨٢)
Oderico, p. iii.	(٤٨٣)

وكانت المنتجات التي يكثر عليها الطلب في امبراطورية التتار الغربية هي الأحجار الكريمة ، من فيروز ، وياقوت أحمر ، ولازورد ، ولآلئ الخليج الفارسي ، وحرير سواحل بحر قزوين ، ونيلة كرمان . وكانت الصناعة الوطنية ، وبخاصة النسيج ، والتي كانت مزدهرة قديما في عهد الملوك الساسانيين تنتج أيضا سلعا تجده تقديرا كبيرا في الخارج . وفي هذا الخصوص كانت مدينة يزد *Yezd* تفوق سائر المدن ، ويشتهل سكانها ، وكلهم تقريبا من النسيج بصنع أجمل حرائر طبرستان ، وكانت براعتهم معروفة لدرجة أن الأقمشة الخارجة من ورشهم كانت مطلوبة في كل بقاع الشرق ، من الصين الى آسيا الصغرى (٤٨٤) ، وتحمل هذه الأقمشة اسمها (٤٨٥) وتنتشره في كل أنحاء العالم المعروف . وإلى جانب هذه المنسوجات المنقطعة النظير ، احتفظت حرائر وأقطان نيشابور (٤٨٦) ، ومرو (٤٨٧) ، وأصفهان (٤٨٨) ، وشستر (٤٨٩) ، وشيراز (٤٩٠) بشهرتها القديمة . غير أن تعداد المراكز الصناعية في امبراطورية التتار الغربية لا يكتفيل إذا اقتصر على مراكز فارس نفسها ، لأن حدود هذه الامبراطورية كانت تمتد بعيدا صوب الغرب ، وتضم كردستان ، وأرمينيا الكبرى ، وبلاد ما بين النهرين . وهناك أيضا ازدهرت صناعة النسيج : فقد كان مغروفا في كل الأنحاء بروكار (ديباج)

M. Polo, p. 70; Clavijo, p. 114; Contarini, p. 70; Glos. (٤٨٤)  
Barbaro, Viaggio in Persia, p. 42; Mohammed Medjidi, cité dans Yaqout, p. 611, not.

سوف نرى فيما بعد أن يزد كانت واقعة على طريق للقوافل ، وهي مدينة تجارية مامة ، ولاسواقها شهرة كبيرة : ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ص ٦٨ .

(٤٨٥) يذكر ماركو بولو أن هذه الأقمشة تسمى زاسدي *Zasdi*

(٤٨٦) ابن حوقل ، في *Journal of the Bengal Society*, *XX*, p. 153 et s.  
الاصطخري ، ص ١٢١ ، ابن بطوطة ، الجزء الثالث ، ص ٨١ .

(٤٨٧) ابن حوقل ، المرجع السابق ص ١٥٧ ، الاصطخري ، المرجع السابق ، ياقوت ، ص ٥٢٦ .

(٤٨٨) ابن حوقل ، والقزويني في :

— *Uylenbroch. Descriptio Iracoe persicoe*, p. 6, 28.

الادريسي ، الجزء الثاني ، ص ١٦٧ ، ياقوت ، ص ٣٩٠ .

(٤٨٩) الاصطخري ، ص ٥٩ ، الادريسي ، الجزء الأول ص ٢٨٢ .

Clavijo, p. 114. (٤٩٠)

واقطان بغداد والموصل ، وماردين Mardin ، وموش Mouch ،  
وارزنجيان Erzinghian (٤٩١) .

ومن العسير علينا أن نعدد كل المدن الكبيرة والصغيرة التي اشتغلت  
بهذه الصناعة وثمة عدد كبير من منتجاتها المصنوعة خصيصا لتناسب  
مناخ هذه المناطق أو ذوق سكان هذه البلاد لم تكن تخرج من الشرق ،  
فلم يكن في المستطاع تصديرها بحالتها هذه الى أوروبا . غير أن هناك  
منتجات أخرى راجت في الغرب : ولستنا نريد أن تقدم برهانا على ذلك  
خلاف العدد الكبير من الأقمشة التي توجد أسماؤها الشرقية المصدر  
مدونة في وثائق أوروبا في العصور الوسطى ، والتي سوف نتكلم عنها  
بالتفصيل فيما بعد . وعلى أية حال فإن الحرير الخام كان يطلبه دائما  
التجار الغربيون ، وكان أثرياء أوروبا يطلبون اللآلئ والأحجار الكريمة  
بشغف شديد ، مثلما يطلبها الشرقيون .

وما أن انفتحت آسيا الصغرى للتجارة حتى هرعتم أمم الغرب  
التجارية بإفاد مستكشفين الى البلاد التي تحتوي على مثل هذه  
الكنوز (٤٩٢) . وأول اسم تقابله من الإيطاليين الذين استتقروا في  
طوروس اسم البندقي بييترو فيليونى Pietro Viglioni ( فيونى Vioni )  
وقبـ حفظ الى يومنا هذا وصيته التي كتبها في طوروس في ١٠ من ديسمبر  
١٢٦٤ ، وندين الى هذه الصدقة بالمعلومات التي حصلنا عليها (٤٩٣) .  
فمن الأشياء التي أوصى بها مواد من صناعة غربية ، أجواخ من البندقية ،  
ولبارديا ، وألمانيا ، وفلاندرز ومواد أخرى هي حاصلات طبيعية من أصل  
شرقى . لا شك فيه كاللآلئ ، والسكر ، وأشياء أخرى كلعب الشطرنج ،  
والسروج ، والكؤوس ، والشمعانات ، والأكواب الزجاجية ، وهي  
مشكوك في حقيقة مصدرها . ولم تكن هذه الأشياء كلها مملكا للموصى  
ويبدو أنه كان بالأحرى وكيلًا عن شركة أو سمسارًا يعمل كوسيط  
لبعض مواطنيه .

M. Polo, p.37 et s. , 45, 48; le texte ramusien, éd. Baldelli (٤٩١)  
Bon.i p. 32; Jule, p. 57; Ibn-Batouta, II, 143; Barbaro, Valiggio in Persia,  
p. 28, b., Ibn-Batouta, II, 294. XO

(٤٩٢) في سوزتنا شهادة تثبت قنم العلاقات بين أوروبا وفارس ، وذلك في مؤلف  
ششم : Le dictionnaire latin-persan-cuman. كتبه جنوى في عام ١٣٠٣ ، وبنوع  
خاص كخدمة يقدمها للتجار .

Archiv. Venet., XXVI, 161-165,

(٤٩٣)

وإذا كان هناك أشخاص آخرون أقاموا بصفة دائمة في طورس ( تبريز ) ، وأنشأوا جالية منتظمة لها رئيسها ، فانه من العسير علينا أن نفهم لماذا يأمر فيليوني بتسليم بضائعه أو المبالغ المحصلة من بيعها إلى بايل عكا البلنقي ليحفظها وديعة عنده ، ولعله كان من الرواد الأوائل في هذا الخصوص . وثمة أسماء أخرى معروفة لتجار أوروبيين استقروا في فارس ، وصلت إلينا في أخبار إرساليات كاثوليكية .

وفي عهد أرجون خان ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ ) حامى المسيحيين فصد يقهم ، كان يعيش في طورس ( تبريز ) بصفته تاجر ييزى ( من ييزا ) تبيل اسمه أوزوليس Ozulus - أو جوليس Jolus ، وصلنا اسمه محرفا ، قدم للمبشرين مساعدة مادية ومعنوية ، واشترك بنفسه في مجهود البعثة بالسعى في هداية بعض الأشخاص في محيطه إلى الدين المسيحي . وقد حفظت خطابات كتبها له في عامي ١٢٨٩ ، ١٢٩١ ، البابا نيقولا الرابع (٤٩٤) يهنئه فيها ويوصى به في الوقت نفسه لدى المبشرين الفرنسيين سكان . ولو فقدت هذه الخطابات لما عرفنا أن السززين كان لهم من يمثلهم في هذه السوق . كذلك علمنا من أخبار الإرساليات بالأحداث المتعلقة ببدايات ظهور الجنويين في فارس . ويتحدث جويلموس أدى Guillielmus Adae (٤٩٥) الذي كان ثاني أسقف في مدينة سلطانية عن المشروعات العظيمة التي وصفها الجنويون بالاتفاق مع أرجون خان : فقد انتوى هذا انشاء ميناء في الخليج الفارسي ، وتحويل تجارة الهند إلى هذا الموقع ، واقترح وضع طرادات عند عدن لسد الطريق ومنع السفن التجارية من الذهاب إلى مصر عن طريق البحر الأحمر . ولسوء الحظ فإن النزاع الكبير بين الجولفيين والجيليين ، ألقى بذور الشقاق في صفوف الجنويين فأصابهم بالعجز ، ومن ثم قضى على هذا المشروع الجميل (٤٩٦) .

وبعد وفاة أرجون خان بزمن قليل ، مر الثلاثي « بولو » بطورس ( تبريز ) عند عودتهم من رحلتهم في الصين ( ١٢٩٣ أو ١٢٩٤ ) ، ولم

Mosheim, Hist. eccl. Tartar., app. p. 97, 105. (٤٩٤)

De modo extirpandi Saracenos; le Recueil des hist. des crois., (٤٩٥)  
doc. armén., T. II.

Abel Rémusat Mém. de l'Acad. des Inscr., VII (1824); p. 113. (٤٩٦)  
362 et ss., 388, 430 et ss.; Hommer, Ichane, I, 394 e s., II.

148; M. Polo, II, 277; Atti della Soc. Lig., III, c. IV, cc.; Giorn. ligust., 1874, p. 346; Abel Rémusat Mém. de l'Acad. des inscr., VII, 358 et s.; Desimoni, Arch. stor. ital., 1879, 4<sup>e</sup> série, I, 305 et s.

يقت ماركوبولو في هذه المناسبة أن يذكر أن عددا كبيرا من التجار ، معظمهم من الجنوبيين يأتون الى هذه المدينة ، يجذبهم اليها الأرباح الكبيرة التي يحصلون عليها ، والأسواق المليئة بالأحجار الكريمة وغيرها من السلع (٤٩٧) وفي موضع آخر غير بعيد يشير الى واقعة حديثة ، مضمونها أن الجنوبيين نظموا خدمة ملاحية في بحر قزوين ، وكانت بداياتها وظهرها في طورس أحيانا جزت في وقت واحد تقريبا ، وإذا فهمنا عبارات ماركوبولو بمعناها الحرفي عرفنا أن الجنوبيين سيروا سفنهم في هذا البحر الداخلي (٤٩٨) ، ومن ثم كان عليهم أن يصعدوا بهذه السفن نهر الدن حتى الموضع الذي يكون فيه مجراه أكثر قربا من مجرى نهر الفولجا ، ثم ينقلونها برا من النهر الى النهر الآخر ( الفولجا ) (٤٩٩) . وبعد أن تجلت ماركوبولو عن بدايات الملاحة هذه ، أضاف العبارة الآتية : *"et d'illec vient la soie geclé"* ، وتدل هذه العبارة على أن الجنوبيين يقصدون استغلال السواحل الجنوبية لبحر قزوين حيث ينتج الحرير على نطاق واسع . وليس من المعقول أن يرحلوا من هناك ليتوغلوا في داخل فارس ، ويصلوا الى طورس مثلا ، فالتكوير الجغرافي والسياسي للبلد (٥٠٠) لا يتناسب ذلك . ويبدو أن الغرض الوحيد من التجارة في بحر قزوين هو الحرير . وفضلا عن ذلك كان هناك للوصول الى فارس طرق أكثر ملائمة من شعاب البورز Elbourz . وسوف نعود فيما بعد الى هذا الموضوع .

كانت أرمينيا الصغرى من جهة ، وأمباطورية طريزون من جهة أخرى ، وهما بلدان لم يكن الجنوبيون وسائر الأمم التجارزة أجنبيين بالنسبة اليهما ، متصلتين بطورس ( تبريز ) بطرق قوافل مطروقة بكثرة . ولنبداً بطريق آياس الى طورس ( تبريز ) التجارى ، وكان يسلكه عادة التجار الايطاليون في عهد بيجولوتى (٥٠١) . فقد ترك

Ed. Pauthier, p. 60.

(٤٩٧)

Ed. Pauthier, p. 44.

(٤٩٨)

(٤٩٩) انظر في التذييل مقال الخامس بالحرير .

(٥٠٠) حتى عام ١٣٠٦ كان امراء جيلان Ghilan مستقلين ، وفي هذا التاريخ فقط ، اخضعهم اولجايتويخان . انظر :

— Hammer, Gesch. der Ilchane, II, 206 et ss.

Pegol, p. 9-11; Libro del conocimiento de todos los reynos. (٥٠١)

من المتعقبات هذا الطريق ببداية الطريق الثاني Cathay ، ويبدأ من



هذا الكاتب عن هذا الطريق وصفا مصحوبا بقائمة طويلة بالأماكن التي يمر بها ، معدة اعدادا جيدا ليستفيد منها كل المشتغلين بالتاريخ والجغرافيا : ومع ذلك لم يلق هذا الوصف ما يستحقه من اهتمام . ولما كان هذا الطريق يبدأ من أرمينيا الصغرى ، فقد اتخذ عالمان فرنسيان من تاريخ هذا البلد موضوعا لدراساتهما ، وهما فيكتور لانجولوا Victor Langlois ، وادوار ديلورييه Edouard Dulaurier ، وأفردا بضعة سطور لدليل ييجولوتى هذا ، ولكنهما اقتصرا على الجزء من الطريق الذى يدخل فى نطاق دراستهما ، وفى غير هذا الجزء اكتفيا بالإشارة الى بعض النقاط الرئيسية التى لم يكن فى تحديدها أية صعوبة (٥٠٢) . وثمة عالم انجليزى ، هو السيد يول Yule جعل من هذا الدليل دراسة أوفى (٥٠٣) . أما أنا فقد بذلت ما فى وسعى ، فى المطبعة الألمانية لهذه الدراسة لايضاح بعض الفقرات . غير أن أحسن الأعمال التى ولدها هذا الدليل هى التى قام بها السيد هـ . كيبيرت H. Kiepert (٥٠٤)

ومع ذلك لم يزل هناك الكثير مما ينبغى عمله قبل كشف النقاب عن كل الأسماء التى يتضمنها هذا العمل ، خاصة وأن قسما كبيرا من الطريق المذكور يجتاز بلادا لم تطلها أقدام أوروبية الا فى القليل النادر . وعلى أية حال تكفى نظرة عابرة لمعرفة أن أهم المحاط الوسطى هى سيواس Sivas ، و ارزنجيان Erzinghian ، وارضروم Erzeroum . ومن هنا نستطيع تقسيم الطريق كله الى أربعة أقسام . وفى القسم الأول نقرأ الأسماء التالية : اجاززو ، كوليدارا ، جاندون ، كازينا ، جافازيرا ديل اميراليو ، جادو ، جافايرا دى كازا جاكومي : Ajazzo, Colidara, Gandon, Casena, Gavazera dell' amiraglio, Gadue, Gavazera di casa Jacomi.

ولسوء الحظ لم يذكر ييجولوتى التواحي التى يجتازها المسافر فى القسم الأدنى من أرمينيا الصغرى . وكانت كوليدارا ، وجاندون هما

= قبرص ، وينتقل الى القارة ( الاسيوية ) عبر أرمينيا الصغرى ، ويمر بمدينة سيفاس التركية ، ويمر أولا الفرات عند ارجو Argot (١) ، ثم اراكس Araxe ويصل اخيرا الى طورس .

Langlois. Trésor des chartes d'Arménie, introd., p. 97; Dulaurier, Recueil des hist. des croisades, documents arméniens, I, introd. p. cl.

Cathay, II, 299-301.

(٥٠٣)

Etude sur l'itinéraire de l'Asie occidentale, de Pegolotti, par M. Kiepert, dans les Sitzungsberichte der philos hist Cl. der Berliner Akad., 1881, p. 901 et ss. (avec carte).

المحيطتين المجاورتين لحدود الولايات التابعة لملك أرمينيا وخان فارس على التوالي . كانت الأولى الواقعة على الحدود الأرمينية هي على الأرجح قلعة جويديار Gobidar ، ويبدو أنها من أقدم ممتلكات الأرمن في هذا الجزء من آسيا الصغرى ، ولكن لا جدوى من البحث عنها في الخرائط الحديثة إذ لا أثر لها فيها ، وهي موجودة في الجزء من سلسلة جبال طوروس Taurus التي تحد قليقية من الشمال (٥٠٥) . أما جاندون ، وكان يحصل عندها لجان الانتار رسم دخول قدره عشرون أسبر aspres ، فلم يستطع أحد الى الآن أن يحدد موقعها .

وبالنسبة الى المحطة التالية ، كازينا ، فانه يمكن على العكس من ذلك التعرف عليها بالتأكيد تحت اسم كوكسن Coxon عند الصليبيين ، وجوجيزون Gogison عند الأرمن ، وجوكسن Geuksun عند الترك (٥٠٦) . ولكي نتعرف جيدا على الطريق الذي سلكناه حتى الآن ، نتوقف لحظة ونتناول خريطة آسيا الصغرى التي رسمها كيبيرت ، ونلقى نظرة خاطفة على رقعة الأرض المحصورة بين لاجاتزو ( آياس ) ، وجوكسن . هذا الفحص يدلنا بالأرجح على أن التجار الغربيين ، عند مغادرتهم لاجاتزو يتقدمون بحذاء نهر جيهان ( جيحان ) حتى أناباد Anabad ، ثم يبتعدون عن النهر متبعين رافده اناباد صمو Anabad-sou . هذا الطريق يمر بهم تحت أسوار جبين Gében أو جابان Gaban

وثمة « دبلوما » صادرة من الامبراطور لاؤون الثاني Léon II في شهر مارس ١٢٠١ تعرفنا بأن الجنويين كانوا يدفعون رسما لصاحب هذه القلعة عند مرور جيهان ، حيث يمرون من الضفة اليمنى للنهر الى الضفة اليسرى ، ثم يواصلون الطريق على طول نهر اباباد الذي كان حوضه تابعا لسلطة سيد جابان ، ومن هذا الحوض يصلون دون مشقة الى جوكسن (٥٠٧) ومن المحطات الثلاث التي يذكرها بيجولوتي بين جوكسن وسيفاس ، اثنتان ليستا الا مجرد خان للقوافل gavazera

- Mathieu d'Edesse. dans la Bibliothèque arménienne, éd. (٥٠٥)  
Dulaurier, p. 216, 432; Dulaurier Chronologie arménienne, p. 103; Re-  
cueilles hist. des crois doc. armén., éd. Dulaurier, I, 30; Langlois,  
Trésor des chartes, p. ٤3, 97.  
Ritter, Asien, XIX, 32 et ss., 270 et s. (٥٠٦)  
M. Kiepert. (٥٠٧)

أما جادو الواقعة بين المحطتين ، فهي ضيعة • ومن المرجح كثيرا أن الطريق يلتوى ابتداء من جوكسين صوب الشمال الغربي حتى يصل إلى حوض نهر ساروس Sarus ، ويتبع مجرى هذا النهر حتى منبعه ، ويجتاز خاصرة جبل طوروس الشرقي ويدخل أخيرا في حوض نهر هاليس Halys فلا يتركه حتى سيفاس •

وفي القسم الثاني ، نجد سلفاسترو ، ودودرياجا ، وجريبوكو ، وموغيسار :

Salvastro, Dudriaga. Greboco, Mughisar

والشيء العجيب أن السيد لانجلوا لم يتعرف على سيفاس تحت اسم سلفاسترو ، لأن هذه التسمية تشبه كثيرا اسم سيياست Sébaste وهو اسم سيفاس القديم ، واسم البلد نفسه باللغة الأرمينية سيفاسديا ، سيفاسد Sevasdia, Sevast الذي يذكره ماركوبولو (٥٠٩) باسم سافاست Savast ، كما ذكر في الخريطة القطالونية (٥١٠) ، والفرنسيسكانى الإسبانى المجهول (٥١١) باسم سافاستو Savasto وذكره أخيرا لانجيل Langele في أخبار رحلاته Comptes de voyage باسم سافاستنت Savaste أو سافاستوم Savastum (٥١٢) • أما دودرياجا ، المحطة التالية فهي في رأيى قرية تودورجا الحالية Todourga (Todorag) على بعد عشرة فراسخ شمال شرقى سيفاس فى القسم العلوى من وادى نهر هاليس (٥١٣) • وهكذا فابتداء من سيواس يتجه الطريق بعامه إلى الشرق مع ميل خفيف إلى الشمال • وبمتابعة هذا الخط حتى أرزنجان ، تقابل فى الحرائط الحديثة موضعا يسمى موشار Mouchar ( أو ميهار Mehar ) ، ولعله المكان الذى سماه بيجولوتى موغيسار Mughisar • ويبدو العثور على محطة جريبوكو ( بين دودرياجا وموغيسار ) ممكنة لا حل لها تقريبا ، ذلك لأنه من المستحيل العثور

Brant, dans le Journ. of the geogr. Soc., VI (1836), p. 214, (٥٠٨)  
not I; Yule M., Pool, I. 45.

Ed. Pauthier, I. 37. (٥٠٩)

Not, et extr., XIV. 1, p. 100. (٥١٠)

Libro del consçimiento, p. 82. (٥١١)

Atti della soc. Lig., XIII, 594 et s., 596. (٥١٢)

Les itinéraires de Tchihatcheff, dans la 20<sup>e</sup> livraison supplé- (٥١٣)  
mentaire des Petermann's Mittheilungen, p. 13, avec la carte spéciale de Kiepert

في خريطة حديثة على أي مكان له اسم مشابه لهذا الاسم . الا أن السيد كيبيرت قد برهن هنا مرة أخرى على علمه ورجاحة عقله : فباتباع إرشاداته ثم تصفح خريطة الاخوة بيزيجاني Pizigani (١٣٦٧) ، ندهشل اذ نجد أيضاً بين سيواس وارزنجيان محطة اجريوس Agreboce التي ليست في الغالب الا أورواسي Arauraci عند الرومان (٥١٤) .

وفي القسم الثالث : ارزنجا ، وجافازيرا سوللامونتانيا ، وليجورتى ، وبونتى ، وجافازيرا فيورى دارزيرونى ، وبانيى دارزيرونى .

Arzinga. Gavazera sulla montagna, Ligurti, Ponte, Gavazera fuori Bangni d'Arzeroni.

أما مدينة ارزنجيان فانها معروفة ، ولا داعى لأن نثريث عندها : وحسبنا أن نذكر ابن بطوطة حين يمتدح حسن تنظيم أسواقها (٥١٥) . ولسنا نجد في بقية هذا القسم سوى فندقين للقوافل، وجسرا (على الفرات)، واسمها لضبيعة واحدة هي ليجورتى ، لا يمكن العثور عليها في حدود معلوماتنا الحاضرة . والطريق الذى تسلكه القوافل في الوقت الحاضر يعبر نهر الفرات في منتصف الطريق تقريبا بين ارزنجيان وارضروم عند ماماخاتون Mamakhatoun على الجسر القديم المعروف باسم كورجون Korgeun ولما كان من الضرورى البحث عن جسر بيجولوتى الأكثر قربا من أرضروم ، فإن السيد كيبيرت يسلم بحق أنه كان يوجد وقتئذ طريق يتجه أكثر الى الشمال . يجتاز الفرات عند Aqkala على أكثر تقدير . وبين هذا الجسر ومدينة أرضروم لم يعد هناك سوى موضعين للتوقف عندهما ، أحدهما فندق للمسافرين ، والآخر بناء به دار للاستحمام ومكتب للحمارك يقع على الأرجح في ضاحية أرضروم .

القسم الرابع : ارزرون بانىى ارزرون فيرسو طوريس ، وبولوربيك ، وسيرميسكالو ، وأجيا ، وكالاكريستنى ، وتري كيبيرى ، وسوتولاركانو، وسكاراكانتى ، ولوكى ، وبيانا دى فالكونينيرى ، ولى كاموزونى ، وبيانا ديل فيومى روسو ، وكونديرو ، وساندودى ، وتوريسى :

Arzeronc, Bangni d'Arzeronc verso Torisi, Polorbecch, Sermessa calo, Piana di Falcresti, Tre chiese, sotto Larcance Scaracanti, Locche, Piana di Falconieri. liCamuzoni, Piana del Fiume rosso, Condro, Sandoddi, Torisi.

وحيث يواصل المسافر طريقه من أرضروم الى طورس ( تبريز ) يعاين  
اولا الضاحية الشرقية لأرضروم وبها أيضا دار للاستحمام ومكتب  
للجمارك . وبعد مسيرة قرابة تسع ساعات يصل الى أراكس Araxe  
عند موضع يسمى باللغة الأرمينية بولوراباهاج Polorabahag ، أي القلعة  
المستديرة ( وسماها بيجولوتي Polorbeck ) ، وهناك يعبر النهر على  
جسر له سبعة عقود ، اسمه الحالي تشوبان - كوبرى Tchoban-Keupri

وفي نهاية السهل الذي يرويه نهر أراكس ، يخترق الجبال فيصل  
الى مر ديلي بابا Deli-Baba : وعلى هذه المرتفعات على ما يبدو كان  
الموضع الذي لم يعد له أثر الآن ، ويشير اليه بيجولوتي باسم سرميسا  
كالو Sermessa' calo ، كما يشير اليه اوديريكو دابوردينوني Oderico  
da Pordenone باسم ساريسا كالو Sarbisacalo . وبعد أن يجتاز  
المسافر المر ومطة آجيا Aggia التي لا يعرف موقعها ، يقابل على  
مرتفع مراد Mourad منزلين للابواء معروفين الى الآن ، وتتردد عليهما  
القوافل بكثرة : كاراكيليسيه Karakiissè ( كالاتريستي Calacresti  
عند بيجولوتي ) ، واوتشكيليسيه Utchkiissè ( اي بالتركية : ثلاث  
كنائس ، ويسميا بيجولوتي Tre chiese ) - ( ٥١٦ )

وتوجد المحطة التالية عند مجاورات مدينة ديان Diyadin  
الحالية على ذروة جبل ( يسميها بيجولوتي Sotto Larcano ) يرى منها الى  
الجنوب الغربي قمة جبل Massis الذي أطلق عليه خطأ اسم أراط  
Ararat . وعلى مسافة ليست بعيدة من هناك يصل المرء الى مدينة  
قرقند Karakand الحالية ( يسميها بيجولوتي سكاراكنتي Scaracanti )

وبالنسبة الى المحطات الثلاث التالية لم يتسن الى الآن الكشف عن  
معنى الأسماء التي أطلقها عليها بيجولوتي . فضلا عن ذلك أمكن ملاحظة  
أن الطريق الذي كانت تسلكه القوافل في العصور الوسطى ، ابتداء من  
أرضروم يتبع على وجه التقريب نفس الاتجاه الذي تتبعه القوافل في وقتنا  
الحاضر . يمكن إذن التسليم بأن الأمر كذلك بالنسبة الى النصف الثاني  
من الطريق . ويقدم السيد كيرت دليلا جديدا يعزز هذا الغرض : ذلك  
أن نهر فيومي روسو Tlume rosso ( ٥١٧ ) عند بيجولوتي ليس  
الا « النهر الأحمر » ( كزيل تشاي Kizil Tchay ) وهو فرع من نهر أراكس

Dulauriet et Langlois ; Ritter (Erdk., X, 350); M. Yule, Ca-thay, II, 301. (٥١٦)

Oderico de Pordenone Yule, Cathay, II, 2<sup>e</sup> append., p. xliv. (٥١٧)

بعض أسوار مدينة خوى Khoi \* لا يبقى اذن ، بعد ثبوت هذا ، شىء من نظرية السيد يول Yule الذى يرى فى النعت rosso تحريفا لكلمة أراس Aras أو راس Ras ( الاسم العربى لكلمة أراكس Arax ) ، وهى نظرية تحملنا على التسليم بأن القوافل التى تذهب الى طورس تتحول عن الطريق المباشر لتصل الى ضفاف النهر \* نضيف أن مدينة خوى ليست حديثة كما يظنها السيد كيبيرت ، لأنها كانت موجودة قبلا فى العصور الوسطى ( ٥١٨ ) ، ولو كان الطريق الذى ندرسه يحتازها لذكر بيجولوتى اسم المدينة لا اسم النهر .

وبين النقطة التى يعبر عندها الطريق نهر كزىل تشاى وطورس ، نهاية الرحلة ، يذكر بيجولوتى أيضا محطتى كوندرو Condro وساندودى Sandoddi . والمسألة تتطلب معرفة ما اذا كان ينبغى البحث عن موقع هذين المكانين على الضفة اليمنى لبحيرة أورمية Ourmia ( حاليا ريزاىى Rezaye ، ش. غ. ايران : المترجم ) أو فى داخل الأراضى : فهناك من جهة طريق بين خوى وطورس يمتد بمحاذاة البحيرة ، ومن جهة أخرى تتصل المدينتان احدهما بالأخرى بطريق يسلكه الكثيرون يمر بمراند Marand وصوفيان Sofian . وينحاز السيد كيبيرت الى الرأى الأول ، لأنه لم يزل يشاهد هناك مكاتب جمركية قديمة فى قرىتي شانادان Chanadan وشاهانجان Chahnadjan . ولكن كيف يمكن اثبات التماثل بين شانادان وكوندرو Condرو وبين شاهانجان وساندودى Sandoddi ؟

تكلنا عن الدليل الذى وضعه بيجولوتى ، وكانت غايته أن يضع خدمة للمسافرين الغربيين قائمة بالنفقات التى لا بد أن يتحملوها للذهاب بوضائعهم من الجوزات الى طورس . وعندما يمر المسافر عبر الحدود أو يدخل بعض المدن الكبيرة ، لا بد له أن يدفع ضريبة لعاهل البلد أو مثليه . وعند عدد كبير من المحطات ، يظهر رسم ثابت قدره نصف أسير aspre ( عملة فضية تركية - المترجم ) عن حصوله الدابة الواحدة ، يطلق عليها المؤلف اسما غربيا : tantanlaggio ويرى السيدان كانسترينى Canestrini ( ٢١٩ ) ، ولانجلوا ( ٥٢٠ ) أن هذا الاسم

Cette ville est nommée Coye dans les Comptes de Langele, l.e., (٥١٨) :  
p. 610, Hoy dans Clavijo, p. 107, Choev dans Gistel, p. 305, Khowyy  
dans Aboulféda, Géogr., II, 2, p. 149, 153.

Archiv. stor. ital., 1ère série, append., IX 348 not. (٥١٩)

Trésor des chart., p. 94. (٥٢٠)

يتكون من كلمتين tant . (بمقدار ، a (عن) ، auna (قياس قديم  
aune يساوي تقريبا ١٨٨٨ مترا - المترجم) . وعلى هذا يجب على  
التجار الغربيين أن يدفعا عند كل محطة من المحطات المذكورة بالقائمة  
(وهي لا تقل عن أربع عشرة محطة بين أرضروم وطوروس) رسما قدره  
نصف أسبر عن كل أون auna من القماش الموجود ضمن أمتعتهم  
ولكن مثل هذه الضريبة الثقيلة تعنى فى الواقع حظرا مطلقا !

لذلك فان الأمر هنا لا يتعلق برسم محدد بالأون عن القماش .  
والواقع أن بييجولوتى يضيف كل مرة عمدا أن هذه الضريبة وقدرها نصف  
أسبر تحصل عن حمولة كل دابة . فضلا عن ذلك فان التفسير الذى  
نناقشناه خطأ من أساسه . بمعنى أن هؤلاء العلماء يشتتون من أصل  
كلمة رومية اسم ضريبة لم يكن لها وجود الا فى داخل الامبراطورية  
الترقية الفارسية (٥٢١) . ويبدو أنه كان من الواجب البحث أولا عما  
اذا لم تكن هذه الضريبة شرقية فى أصلها ، وكان يكفى دراسة المعجم  
الصغير الذى وضعه بييجولوتى فى مقدمة مؤلفه Pratica della mercatura  
لمعرفة أن كلمة tantaullà فى لغة التتار تعنى Gue (guardia)  
(رصد ، عسس) (٥٢٢) .

ومن ثم يتعين التسليم بأن ال tantaullaggio كانت رسما يدفع  
للمراكز (المسكرية) المقامة على نقط مختلفة لحماية القوافل . والواقع  
أنه كان فى فارس فى عهد سيادة التتار ، وربما قبله تنظيم من هذا  
النوع لأمن الطرق . وفى عهد أرجون رابع خانات التتار (١٢٨٤ -  
١٢٩١) ، كان يعهد بقيادة الرجال المكلفين بهذه الخدمة الى أمير ذكى  
وحازم ، فترتب على ذلك ضرر من العسف . فبدلا من ردع لصوص  
الطرق الذين زادت جرأتهم يوما بعد يوم ، كان جهود الأمن يساعدهم  
خفية ، وكانوا هم أيضا يطالبون المسافرين بأكثر مما هو مفروض عليهم .  
وهناك أشخاص غرباء على خدمة الأمن يرتدون ثيابهم الرسمية وبيتزون  
الأموال من المارة .

واذ صارت الطرق الكبيرة شديدة الخطر ، بدأ المسافرون يهجرونها

ويسلكون الطرق العريضة المختصرة حيث يفلتون على الأقل من أعمال الإغصاب التي يقرتها الـ Tangauis (العسس) ، ولم يعدوا معرضين كثيرا للقاء الأشخاص الخطرين الا على الطرق الكبيرة . وعالج غازان خان ( ١٢٩٥ - ١٣٠٤ ) هذه الاضطرابات بالشدّة التي كانت في طبيعته : فلم يكتف باعدام كل من يقبض عليهم من اللصوص ، والشخصاء الذين يثبت تواطؤهم معهم ، بل اعتبر أيضا مراكز الحراسة ، وسكان القرى الواقعة على الطرق مستولين عن السرقات التي ترتكب فيها . وبجوار كل مركز أقام عمودا حجريا معلقا عليه قائمة بأفراد المركز ، وقيمة الضريبة النظامية المفروضة .

وعلى هذا النحو لم يعد المسافرون معرضين لأن يسرقهم أى انسان ، أو يستغلهم حرس المخافر أنفسهم ، وتسمى هذه القائمة « جدول العدالة » ، وكانت الضريبة نصف اكتشيه Aktchè عن حمولة أربعة بغال ، أو جملين . وفي عهد غازان خان ، كان هناك ما لا يقل عن عشرة آلاف تانجول ( عسس ) على قدم الاستعداد في كل وقت لحفظ الأمن في الطرق . وما لبثت هذه الاجراءات أن أثمرت ( ٥٢٣ ) ، وبقيت نافذة في عهد خلفاء غازان خان ، يشهد بذلك بيجولوتى الذى كتب الفقرة التي أوردناها آنفا في حياة أبو سيد خان ( ١٣١٦ - ١٣٦٦ ) .

وتبين ذلك أيضا في بعض فقرات المعاهدة التي عقدها البنادقة مع هذا الخان نفسه في عام ١٣٢٠ ، ونجد في هذه الفقرات المراسيم الخاصة بالتانجول : من مسئولية مشتركة بين السلطات وبين سكان الأنحاء المجاورة للمخافر عن كل السرقات التي ترتكب اضرازا بالقوافل ، وحظر المطالبة بالتامتولاكو Tamtaulaco ، وهو أى مبلغ يزيد على الرسم القانوني . ويبدو أن هذا الرسم كان وقتئذ أعلى مما كان في زمن غازان خان : فالثابت من جهة أن كلمتى « اكتشيه » و « آسبر » تدلان على عملة واحدة ( تساوى حوالى ٦٠ سنتيم من النقد الحالي ) ( ٥٢٤ ) ، وأن لهما معنى واحدا : « أبيض » . وفي عهد أبو سيد خان ، كان يدفع نفس القيمة ( نصف آسبر ) عن الحمولة الواحدة ، التي كانت تدفع في عهد غازان خان عن حمولتين من الجمال أو أربع حمولات من البغال .

( ٥٢٣ ) رشيد الدين ، نقل السيد برنهاور هذه الفقرة في :

— M. Bernhauer dans son Mémoire sur les institutions de police chez les Arabes, les Persans et les Turcs, dans le Journ asiat., 5<sup>e</sup> serie, T. XV, p. 589 et ss.; D'Ohssen, Hist. des Mongols, IV, 470 ss.

• D'après les tableaux comparatifs des monnaies de M. Desimoni, dans son éd. de Langele, l.c., p. 647-680. ( ٥٢٤ )



فالتاجر المسافر من الجوزات الى طورس ومعه دابة واحدة ينفق في المتوسط ١٥٣ آسبر تقريبا يدفعها لمحصلي الجمارك ، وللمخافر على الطرق ، بالإضافة الى ٥٠ آسبر تقريبا يدفعها لعصابات المقل من قطاع الطرق الذين قد يلتقى بهم في طريقه ، أى أنه يدفع ٢٠٣ آسبر في المجموع ( يقول بيجولوتى ٢٠٩ ، ولكنه أخطأ في الجمع ) ، وهذا المبلغ يعادل ١٢٠ فرنكا من نقدنا .

هذه معلومات كافية عن طريق آياس - تبريز ، والرسوم التى تحصل فيه . ولتلقت الآن الى الطريق الذى كان ينافس ، طريق القوافل من طربزون الى طورس ( تبريز ) .

ولسوء الحظ لا يوجد وصف خاص بأى من الطريقين . ويكتفى بيجولوتى بالقول بأن التجار الذين يسافرون فرادى على ظهور الجياد يقطعون هذه المسافة فى اثني عشر الى ثلاثة عشر يوما ، وتقطعها القوافل من ثلاثين الى اثنين وثلاثين يوما ( ٥٢٥ ) ، ولا يذكر أيا من المدن التى يمر بها هذا الطريق . أما جيوزافات باربارو Giosafatte Barbaro فإنه رسم طريقا ، ولكنه يعتمد كثيرا عن الخط المستقيم الذى يتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى حتى يبدو لنا من المستحيل أن يكون قد استخدم بالفعل وبوجه عام فى التجارة بين السوقين ، وأقصى ما يسعنا أن نسلم به هو أن بعض المسافرين قد فضلوا استخدامه ( ٥٢٦ ) .

بقى كلافيجو Clavijo الذى سافر أيضا من طربزون الى طورس ( تبريز ) ، ولكنه تحول كثيرا عن الطريق المباشر ، واستغرقت رحلته ( من ٢٧ أبريل الى ١١ يونيه ) ( ٥٢٧ ) مدة أطول بكثير من المدة المتوسطة التى ذكرها بيجولوتى ، حتى ليستحيل أن نسلم بأنه سلك الطريق المعتاد . وعلى ذلك فانا لا نستطيع أن نعتمد على هذين الوصفين للرحلات فى اكتشاف اتجاه الطريق التجارى ، ونقول الشيء نفسه عن الطريق الذى سلكه الفارس لانجيل Langele عند عودته من مأموريته : فحتى يعود الى طربزون ، مر بمدينة خوى ، وأردجيش Erdjich ( على الضفة

Pegol, p. 11.

( ٥٢٥ )

Viaggio nella Persia, p. 48, 49.

( ٥٢٦ )

يتخذ هذا الطريق من البداية ، بشكل ملحوظ اتجاها نحو الجنوب ، فى خط مستقيم الى أرزنبيان ، وكارابورت

Viage, p. 86-108.

( ٥٢٧ )

الشمالية من بحيرة فان (Van) ، وملازكرت (Melazkeri) وأرضروم (٥٢٨) .

ومن المحتمل كثيرا أن طريق القوافل في العصور الوسطى لم يكن بنأى كثيرا عن الطريق المتبع في الوقت الحاضر ، والذي يمر ببايبورت Baibourt ، وأرضروم ، وديادن Diyadin ، وخوى (٥٢٩) ، هذا الخط قد رسمته الطبيعة نفسها الى حد ما ، ومجموع أيام المسير التي ذكرها ييجولوتى بالنسبة الى القوافل المتجهة من طربزون الى طورس يساوى تماما الزمن الذي تستغرقه القوافل في وقتنا الحاضر في اجتياز المائة والخمسين فرسخا التي تفصل المدينتين احدهما عن الأخرى متبعة الطريق الذي بيناه آنفا (٥٣٠) . ويمكننا ، بالنسبة الى اليومين الأولين من المسيرة أن نثبت بالمستندات التي بين أيدينا أن الطريقين متماثلان : فالواقع أننا نملك « دبلوما » صادرا في عام ١٣١٤ ، حللناه من قبل ، ولدنا أيضا مذكرات عن رحلة الشيفالييه لانجيل . ففي الدبلوم (٥٣١) ، يحظر الكسيوس امبراطور طربزون كل الرعايا الروم من الانضمام الى القوافل الجنوبية لغاية ناحية أشير إليها باسم « كابانوم » Cabanum .

ولا بد لنا في هذه الصورة أن نتعرف على قرية كاراكابان Carakaban ( الكابان الأسود ) الواقعة في الجبل على بعد تسعة فراسخ من طربزون ، وعندها نتوقف الى يومنا هذا القوافل المتجهة الى بايبورت وأرضروم (٥٣٢) . ونجد اسم هذه القرية في مذكرات لانجيل ، وكانت هذه أول رحلة يقطعها بعد قيامه من طربزون قاصدا طورس . وكانت بايبورت ثالث مرحلة (٥٣٣) : يقول السيد بولو M. Polo في طبعة راموزيو Ramusio

Atti della Soc leg., XIII, 610-614.

(٥٢٨)

Blau., Die commerciellen Zustände Persiens, p. 210 et ss.

(٥٢٩)

(٥٣٠) في تقريره عن الطريق التجارى للبحر الأسود كتب السيد م . ر . جوديل تفصل النمسا في طربزون أنه لاجتياز هذه المسافة ، تستغرق القوافل على الأقل من ٢٧ الى ٣٠ يوما حين يكون الطريق في أحسن حال ، ويلزمها أربعون يوما حين يكون في حالة سيئة . انظر :

— Mittheilungen über Handel Gewerbe und Verkehrsmittel, 1ère année, Vienne 1850 (p. 119).

Atti della Soc. Lig., XIII, 517.

(٥٣١)

Hamilton, Reisen in Kleinasien, Pontus und Armenien, I, 158. Ritter, Erdk. XVIII, 905.

(٥٣٢)

Atti della Soc. Leg., XIII, 608 : Cabanum montanum .

(٥٣٣)

Papertum ; cf. p. 595, Papertum.

انها قلعة يمر المسافر تحتها عند ذهابه من طربزون الى طورس ( تبريز )  
ويقال انه يوجد أيضا في حصون بايبورت ، وأرضروم القديمة ، وحسن  
كاليه Hassan-Kalèh ، وبايزيد بقايا القلاع التي شيدها الجنويون.  
على هذه المواقع المختلفة لحماية قوافلهم (٥٣٤) . ويقابل المرء على طول  
الطريق الكبير الحالي خانات للقوافل يرجع انشاؤها الى العصور الوسطى ،  
يقال ان تلك الأمة ( جنوا ) هي التي أقامتها : وهذا على الأقل هو ما يحكيه  
القصص الشعبي (٥٣٥) .

وقد أيد السيد برانت Brant قنصل انجلترا في أرضروم هذه  
القصة دون تردد ، واعتبرها حقيقة تاريخية ، رغم عدم وجود أى أثر  
لهذا النوع من المنشآت فى أية وثيقة . ويمضى السيد برانت الى حد  
القول بأن الجنويين حصلوا من ملوك أرمينيا على ترخيص باقامة هذه  
القلاع : وهذه واقعة ربما كان من العسير عليه أن يثبتها : ذلك لأنه  
فى العصر الذى كانت فيه القوافل الجنوبية تجتاز الطريق من طربزون الى  
طورس ، أى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لم تعد هذه الأصقاع  
من زمن بعيد خاضعة للملوك أرمينيا ، اذ كان القطر ، حتى حدود امبراطورية  
طربزون الصغيرة خاضعا لخانات فارس .

ولكننا رأينا أن خانات التتار هؤلاء كانوا حريصين على توفير أمن  
الطرق ، فأقاموا لهذا الغرض مخافر عديدة ، وكانوا فضلا عن ذلك  
شديدى الغيرة على سلطتهم ، فلا يسمحون لأمة أجنبية أن تشيد فى  
اقليمهم قلعا حصينة ، وفنادق للقوافل . وما تبقى من هذه المباني الى  
الآن لا يظهر عليه الا القليل جدا من السمات الغربية ، حتى ان الرحالة  
هاملتون Hamilton الحبير فى هذه الشؤون قد تعرف بيقين أحدها على  
الطراز الاسلامى ، ويقول ان الطراز الظاهر فى المباني الأخرى قد يكون  
بيزنطيا أو جنويا (٥٣٦) .

وحين نعلم أن أتراك آسيا الصغرى كانوا يصفون بسهولة كل بناء  
قديم بدرجة ما بأنه جنوى ، فانا لا نعلق أية أهمية على القصص الشعبي  
فى هذا الخصوص . ومع ذلك فانه لا يثبت أن الطريق التجارى فى العصور

Ramus, II, p. 4, b.

(٥٣٤)

James Brant, Journey through a part of Armenia and Asia  
Minor, dans le Journ. of the geographical Society, VI (1836),  
p. 188. Hamilton, op. cit., I, 177.

(٥٣٥)

Op. cit., I, 175-177. M. Karl Ritter (Erdk., X, 391).

(٥٣٦)

الوسيطى بقى كما كان حتى وقتنا الحاضر لا ضرورة لاجراء ذلك عن طريق الآتار ، لأن التماثل بين الطريقتين لم يزل قائما . فالقوافل الخارجة من طربزون تصل الى أرضروم عن طريق بايبورت بمسيرة تستغرق سبعة أو ثمانية أيام ، ومن هناك تنبع نفس خط السير الذى تتبعه القوافل الخارجة من آياس ، وتستفيد مثلها من الاجراءات التى يتخذها الخانات التتار للمحافظة على أمن الطرق . وكانت الرسوم الواجب دفعها للمخافر القائمة على طول الطريق أقل بالتاكيد من تكاليف بناء القلاع عند المآوى الرئيسية على مراحل الطريق ، وترميم هذه القلاع ، والصرف على حماياتها .

لقد فرغنا من الحديث عن الطرق التجارية فى فارس ، فاذا أردنا الآن أن نبحث عن الأمم التى ينتمى إليها المسافرون الذين كانوا يستعملون هذه الطرق ، نصادف فى مقدمتهم البنادقة والجنويين .

ويبدو أن أول قرار عام صدر من أحد خانات المغول من أسرة هولوكو لصالح البنادقة كان مرسوما سلمه رسول من « العاهل التتارى » الى دوج البندقية ، نصه الاصلى بلغة تتارية ، وترجم الى اللاتينية . ولسوء الحظ ضاع النص الاصلى ، أما الترجمة فتثبتت تاريخ الوثيقة . وهو أول شهر نوفمبر عام ١٣٠٦ ، وتبدأ بهذه الكلمات :

Verbum Çuci (Var. : Zuci) Soldani duci Venetiarum (٥٣٧)

وهنا يبرز سؤال ، ألا وهو : هل كان يوجد فى احدى ممالك التتار فى ذلك العصر منكم يحمل اسم جوجى Djoudji أو اسما شبيها به ؟ كان الخان الأكبر المقيم فى الصين هو تيمور Timour حفيد قبلاى الأكبر (١٢٩٤ - ١٣٠٧) ، أما خان مملكة أوجوتاي Ogotai فكان يدعى تشابار Tchapar (١٣٠١ - ١٣٠٩) ، وخان مملكة تشاجاتاي Tehagati اسمه دوا Doua (توفى عام ١٣٠٧) ، وكان ملك كبتشاك Kiptchak هو توكتاي Toktai (١٢٩١ - ١٣١٣) . وكان أولجاتيو Oldjaitou (١٣٠٤ - ١٣١٦) يحكم فى فارس (٥٣٨) . ولم يكن أى من هذه الاسماء ينطق لفظة تشوسى Çuci ، ومع

(٥٣٧) Taf. et Thom., IV, 47 (Commém. reg., I, p. 66, no 289).

(٥٣٨) يذكر اولجاتيو فى خطاب لفيليب الجميل اسماء الخانات من سلالة چنكيز خان الذين حكموا معه فى عهده ، انظر :

d'Ohsson, Hist. des Mongols, IV, 483;

Hammer Gesch. der Ichane, II, 144 et s., 183

ذلك نجد في هذا الشكل اسم ملك تتارى ، وهذا أمر لا شك فيه ، لأن تاريخ الوثيقة مemon بما لدورة الحيوانات لدى التتار ، فكان ذلك هو عام الثعبان . ولننظر عما اذا كان اسم الاله المؤرخ به الوثيقة لا يقترب بنا من الحل . يقول النص *Facta in Mugantis* ، ولابد لنا أن نرى في هذا الاسم غالباً مقاطعة موجان جنوبى نهر كوز (٥٣٩) ، وهو اقليم تابع لمخانات يفضلون الإقامة به (٥٤٠) . وهناك *أرخ خطاب أولجايتو الى فيليب « الجميل » Philippe le Bel* ملك فرنسا ، الذى سبق الإشارة إليه (٥٤١) . وقد حرر هذا الخطاب فى السنة نفسها التى صدر فيها الامتياز المنوح الى البنادقة ، والذى نحاول أن نعرف مانحه . ومن ثم فليس ببعيد الافتراض بأن السلطان تشوس ، وأولجايتو ليسا الا شخصاً واحداً .

وثمة معلومة تؤيد هذا الافتراض : ذلك هو لقب هذا السلطان الذى لا نراه فى أية جهة أخرى ملحقاً باسم خان مغولى ، فقد اتخذ أولجايتو هذا اللقب حين اعتنق الاسلام (٥٤٢) . ومع ذلك هناك فرق كبير بين اسمى تشوس وأولجايتو ، فلا بد اذن من شيء أقوى يؤيد افتراضنا هذا ، أجده فى الحدث الآتى : ذلك أن الرسول الذى سلم الدوج خطاباً لسلطان كان مكلفاً كذلك بأن يحمل الى مواطن بندقى اسمه بييترو رودلفسكو *Pietro Rodulfo* من طرف شخص يدعى خوجة عبد الله *Khodja Abdallah* اقراراً مكتوباً بلغة تتارية ، يتنازل فيه صاحبه عن أية ترضية ( أو تعويض ) عن ضرر سببه له بييترو هذا ، ويعد بالأى يحمل أى بندقى آخر مسئولية مثل هذا الضرر ، ويؤيد هذا الوعد شاهدان من الغرب ، هما بالدوكشييو يوفيتسو (*Balduccio Buffeto (Buffero ?)* وتومازو أوجى دى سيننا (دى سينين) *Tomazo Ugi de Sena (de Sienne)* ، وهما يقيمان بالتأكيد فى المكان الذى يقطن فيه عبد الله : ووقع الاثنان بامضائهما بالاطيالية ،

(٥٣٩) بالأصح : مقاطعة موجان *Moghan* الواقعة فى الثلث الكون من بحر قزوين ، والمجرى السفلى لنهر أراكس ، والمجرى السفلى لنهر كوز . انظر أبو الفدا ، (*Géogr.*, II, 2, p. 153 et s.)

...  
*d'Ohsson, Des peuples du caucase, p. 156; Dorn, Caspia, dans les Mem. de l'Acad. de St Pétersb., 7<sup>e</sup> série XXIII (1875).*

Abel Rémusat, Second mém. sur les relat. polit. des princes (٥٤٠) chrétiens avec les empereurs mongol, *Mém. de l'Acad. des Inser.*, VII (1894), p. 372, 398; Hammer, *Gesch. der Ilchane*, II, 184.

Abel Rémusat, l.c. p. 438; M. Polo, éd. Pauthier, II, 781.. (٥٤١)

D'Ohsson, l.c. IV, 480, 486. (٥٤٢)

ويحدد الثاني حالته بهذه الكلمات « Alduci (Ilduci) del Soldano » (٥٤٣)

ولكننا نعلم أن أولجايتو قد أوفد في عام ١٣٠٥ - ١٣٠٦ عامله يولودوتشي *iluduci* (حامل السيف *Jouldouchi*) واسمه توماسيو *Tomaso* حاملا رسائل الى فيليب الجميل ملك فرنسا ، وادوارد الثاني ملك إنجلترا ، والبابا كليمنت الخامس يلتبس تحالفهم معه ضد مصر (٥٤٤) . والواضح أن توماس شاهد عبد الله ، وتوماس حامل رسائل السلطان ليسا الا شخصا واحدا ، كذلك فان سيدهما سيده الآخر لا يد. أن يكونا كذلك شخصا واحدا . بعبارة أخرى أن مانح الامتياز للبنادقة هو أولجايتو . وفي هذا الامتياز ، ذكر صراحة أنه منذ زمن بعيد كان من عادة التجار البنادقة أن يترددوا على فارس ، وكان محظورا مضايقة أى منهم بدعوى أن واحدا من مواطنيه ترك ديونا عليه في البلد ، أو أذى أى واحد من السكان . ونرى أن اقرار عبد الله انما هو نتيجة مباشرة لهذا المرسوم . وختاما لهذه النقطة لا يبقى علينا سوى أن نصحح التاريخ الوارد بهذه الوثيقة في النسخة التي وصلت الى أيدينا . ذلك أن « سنة الثعبان » في التقويم التتارى الذى تتكون دورته من اثنتى عشرة سنة لا تقابل عام ١٣٠٦ من التاريخ الميلادى ، وهو الرقم المبين بالترجمة اللاتينية ، ولكنها تقابل عام ١٣٠٥ (٥٤٥) .

ويمكن التسليم بأن توماس أوجي ( من سيبينا ) الحارس الخاص لأولجايتو قد أدى مهمته في رحلة واحدة ، وسلم الرسائل المكلف بتسليمها الى مختلف الأمراء على التوالي ، والخطاب الذى حرره سيده الى الدوج ، وقرار عبد الله الموقع عليه منه . حقا ان هذه الوثائق المختلفة تحمّل تواريخ متباعدة بعضها عن بعض : ١٣ - ١٤ مايو ، ١٣ سبتمبر ، أوائل نوفمبر ١٣٠٥ ، ولكن يمكن القول أيضا بأن توماسو مكث في فارس الى ما بعد تحرير الوثيقة الأخيرة . ذلك لأننا لا نتحقق من وصوله الى بلاط روما الا فى أوائل شهر مارس عام ١٣٠٦ ، والى بلاط إنجلترا بعد ذلك ،

Taf. et Thom., *ibid.*; regeste du premier volume des Com- (٥٤٣)  
memoriali, p. 54, no 252.

Abel Rémusat l.c., p. 398-401, 437. (٥٤٤)

Abel Rémusat, l.c., p. 397; Adeler, *Zeitrechnungen von* (٥٤٥)  
*Chatg. und Jgur, Abh. der hist. phil. Cl. der Berl. Akad., 1re part.*  
p. 270 et ss.; *Zeitrechnung der Chinesen, dans la même publication,*  
année 1837, p. 203, 276 et ss.

في ٧ من يولييه من السنة نفسها (٥٤٦) .

وتسجل مهمة توماسو أوجي ( ورفيقه ، وهو رجل شرقي يدعى مملاك Mamalak ) بداية العلاقات الدبلوماسية بين امبراطورية التتار الغربية والبنديقية . ومن تلك الآونة بدأ مجلس الشيوخ يوجه انظاره ناحية فارس ، ويبدو أن موضوع المفاوضات الأولى كان إيفاد سفارة الى هذا البلد (٥٤٧) . وقبل ميشيل دولفينو في عام ١٣٢٠ هذه المهمة ، وكان عليه أن يختار بين الطريقين اللذين وصفناهما .

وثمة معلومة تدلنا على الطريق الذي اتخذه : ذلك أن البابل البندقي في طربزون ، جيوفاني سانوتو سلمه عند مروره بتلك المدينة مبلغ خمسين « ليبرا جروسوروم libroe grossorum (٥٤٨) ، وأسفرت هذه المهمة عن معاهدة في حوزتنا نصها ، ولكنها ظلت زمنا طويلا تعتبر معاهدة بين البنديقية وتونس ، وذلك بسبب خطأ في القراءة ، فبدلا من كلمة طوريسيوم (Tauris) (طورس) الموجودة في عنوان المعاهدة ، قرئت تونيسيوم (تونيس) Tunisium (٥٤٩) ، ولا يوجد في النص نفسه شيء يبرر هذا الخلط (٥٥٠) .

وكان الأمير الذي تفاوضت معه البنديقية يطلق على نفسه لقب « امبراطور مونسييت » imprator Monsait ، وفي ذلك العصر كان ملك تونس أميرا من أسرة « الحفصيين » اسمه « أبو يحيى أبو بكر » ، ولا يمكن أبدا أن تنطبق صفة الامبراطور أو اسم مونسييت على هذه الشخصية ، وبالعكس ذلك ينطبق كل من الاسم واللقب على أبو سسيد خان Abou-Said-Khan (١٣١٦ - ١٣٣٦) الذي كان يحكم آنئذ فارس ، ونجد

Abel Rémusat, l.c. p. 399-401.

(٥٤٦)

— عالجت هذا الموضوع بزييد من التفاصيل في المقال :

Contributions à l'histoire du commerce du Levant au XIV siècle.

Berchet, La republica di Venezia e la Persja, Nuovi documenti (٥٤٧)  
registri Venise 1866 (extr. de la Raccolta Veneta, T. I.), p. 36; l'archiv.  
Venet XVII, 136, XVIII, 327, 330.

Taf. et Thom., IV, 171.

(٥١٨)

Mariti, Storia del commercio del Veneziani, IV, 288; Taf. et Thom., Der Doge Andrea Dandolo, v, 137.

(٥٤٩)

(٥٥٠) أبت ذلك في مؤلتي :

Colonie commerciali degli Italiani in Oriente nel medio evo, II (1868), p. 82.

اسمه أحيانا في مؤلفات الكتاب الشرقيين ، وعلى النقود في شكل «بوسيد» Bou-Said (٥٥١) ، ويحرف الكتاب الغربيون هذا الاسم فيجعلونه «بوساي» Boussay (٥٥٢) أو Bousaid Khan ، أو Bosseichan ، أو موسيد (٥٥٣) Mussayd ، أو بونسيت (٥٥٤) Bonsait ، أو بونسائيت Bonsaet (٥٥٥) ، وليس هناك بين هذه التحولات وبين اسم مونسيت Monsait إلا فروق خفيفة .

وفي المعاهدة المشار إليها يطالب السفير بإعادة الأموال التي تركها أحد الرعايا البنادقة واسمه فرنسيسكو داكاليه Francesco da Canale المتوفى في أرسنجا Arsenga ، واغتصبها دون حق شخص يدعى بدر الدين لولو Badradin Loulo . أرسنجا هي بالطبع أرزنجان ، أما بدر الدين لولو فهو اسم شخصية فارسية كبيرة كانت تلعب في ذلك العصر بالذات دورا كبيرا (٥٥٦) . ونجد أخيرا في سجلات Misti في السنوات ١٣٢٦ - ١٣٢٨ أن سفيرا ثانيا موفدا إلى طورس كان مكلفا ببحث قضية فرنسيسكو دي كاناليه (٥٥٧) .

والعجيب أن النص لا يذكر المكان الذي دون به ، ولكننا نملك قدرا كافيا من الدلائل التي تملأ هذا الفراغ وتسجل اسم صورس . فالعنوان المبدون على رأس المعاهدة في Liber pactorum (٥٥٨) بالبندقية أحدث عهدا من عنوان النص نفسه ، وهذا العنوان هو Pactum Turisii . وعندى نسخة طبق الأصل ، تفضل الاستاذ مولر مشكورا فزودنى بها . وقد أخطأ السيد ماس لاترى Mas Latrie عند نشره هذه الوثيقة في ال Liber Pactum فقرا Pactum Turisii غير أن الأسماء ليست هي الدلائل الوحيدة التي تفصل في هذه المسألة لصالح طورس بدلا من تونس . ذلك أننا تصادف هنا وهناك في النص أسماء موظفين من كل

D'Ohsson, IV, 716 et s. (٥٥٦)

Livre de l'estat du grant Caan, p. ٤9, 65. (٥٥٢)

Arch. de l'Or. lat., I, 268 270. (٥٥٣)

Arch. Venet, XVII, 270 XXVII, 95. (٥٥٤)

Pegol., p. 9. (٥٥٥)

Hammer, Gesch der Ilchane, II, 277, 281. (٥٥٦)

Archiv. Venet., XVIII, 333. (٥٥٧)

Lib. IV, fol. 84. (٥٥٨)



نوع ، وأسماء ضرائب يدل شكلها التركي المغولي بصورة لا تقبل الجدل  
على أن المعاهدة لا يمكن أن تكون قد أبرمت الا في بلد تتارى .

ونذكر فيما يلي بعض هذه الأسماء : شيركوشى *Cerchouci*  
أو يارجوتشى *Yargoutchi* ، وهو قاض (٥٥٩) ، وثيلماسى *Thilmaci*  
ترجمان (٥٦٠) ، وتاتولى *tatuli* (٥٦١) ، وشارولى *Charauli* (٥٦٢)  
من حراس الطرق ، والشرطة ، وتامجاسى ، جابى الضرائب ورسوم  
الجمارك (٥٦٣) ، وتاموجا *tamoga* ، ضريبة ( وبالأصح : الختم ،  
والدمغة ) (٥٦٤) وتولاسو *Taulaço* ( تامتولاسو *tamtaulaço* ) ، وهو  
رسم يجبى لحماية المسافرين فى الطرق الكبرى (٥٦٥) .

ويصر السيد ماس لاترى أخيرا بحق على أن كل ما فى الوثيقة  
( الدبلوم ) يدل على أن البلد المقصود واقع فى داخل القسارة (٥٦٦) .  
وباختصار فان كل شيء يثبت أن أبو سعيد خان هو محرر الوثيقة ، وفى  
وسعنا أن نلخصها فى بضعة سطور (٥٦٧) . فالبنادقة سوف يستمعون  
بالحرية المطلقة فى التنقل فى كل أنحاء ولايات الخان ، ولهم أن يتوقفوا  
حيثما شاموا ، وأن يرعوا ماشيتهم ثلاثة أيام فى كل موقع ، ولا يحصل  
منهم ، أو من خدمهم وتراجمتهم أية ضريبة خلاف الرسوم الجمركية ،  
والرسم الخاص بحراس الطرق ، ولا يقتضى منهم أكثر من الرسوم والضرائب  
القانونية ، ويكون سعر الرسوم والضرائب مستقبلا هو نفس سعرها يوم  
إبرام المعاهدة ، ولا تحصل الا فى النزل القائمة عند المحاط المعتادة .

وللبنادقة الحق فى أن يطلبوا من حراس الطرق مرافقتهم لحمايتهم ،  
فإن رفض واحد منهم هذا الطلب فعليه تقع مسئولية ما قد يحدث للطلب

---

(٥٥٩) ابن بطوطة ، الجزء الثالث ، ١١ فى رشيد الدين ، ( الناشر كاتيرير ص ١٢٢ ) .

Brosset, Addit et éclairciss. à l'hist. de la Géorgie, p. 439.

Pegol., p. xxiii.

(٥٦٠)

V. plus haut.

(٥٦١)

Hammer, Gesch. der Ilchane, I, 38; II, 189.

(٥٦٢)

Ibid. I, 278, 364.

(٥٦٣)

Vambéry, Uigurische Sprachmonumente, p. 232; Hammer,  
op. cit., II, 172; Pegol., p. xx.

(٥٦٤)

Voy plus haut.

(٥٦٥)

l.c., p. 74 et ss. 83, et s.

(٥٦٦)

Texte publié par M. de Mas Latrie, l.c., p. 95-102, et dans  
Taf. et Thom., IV, 173 et ss.

(٥٦٧)

من أضرار نتيجة لرفضه . وفى الحالة التى ينهب فيها أو يسرق أحد البنادقة وهو سائر فى طريقه ، تلتزم السلطات ، وحراس الطرق ، وسكان الناحية أو المنطقة بالعثور على الأشياء المسروقة ، والا التزموا بدفع تعويض عنها . وبناء على طلب القنصل البندقي يجب على رئيس المنطقة أن يقدم المعونة والمساعدة للبنادقة وقوافلهم ، ولا يجوز المرة القبض على حاملى بريدهم أو قائدى قوافلهم بأية ذريعة كانت . ولا يجوز اعتقال أى شخص من رعايا البندقية لجريرة ارتكبتها أو دين تركه واحد من مواطنيه . فكل انسان مسئول عن أفعاله وديونه الشخصية ، ومن واجب السلطات أن تكون فى عون البنادقة ، وتلزم المدنيين بالسداد .

وإذا توفى أحد البنادقة ، لا يجوز لأى شخص خلاف القنصل أن يمس الأشياء التى كان يملكها المتوفى . وإذا رفع بندقى شكواه الى محكمة فارسية ، فالقضية ينظرها قاض من أعلى درجة . وفى القضايا المدنية والجنائية بين « الفرنجة » ( البنادقة ) ، يخضع الأطراف لقنصلهم فقط . وأخيرا ، وهذا امتياز بالغ الأهمية ، يصرح للرهبان اللاتينيين الذين يتولون الوظائف الكهنوتية حيال التجار البنادقة ، أن ينشئوا بعثات دينية فى النواحي التى يختارونها فى الاقليم . ونحن نعلم من قبل أن ميشيل دولفينو لم يكن أول بندقى يسافر من البندقية الى فارس ، فالتجارة بين البلدين كانت تمارس منذ زمن بعيد .

وتبين لنا من قبل أن البنادقة ظهرزا فى طورس ( تبريز ) فى زمن مبكر ، ولا فائدة أن نكرر هنا ما سبق أن قلناه فى هذا الخصوص . وفى حوالى عام ١٣٠٢ لم تكن الرحلة من البندقية الى طورس عن طريق طربزون تبدو فى عين أى انسان أمرا غير عادى (٥٦٨) : وكان البنادقة يملكون ثمة عددا من الوكالات التجارية ، لذلك كان لهم هناك قنصلهم ورئيس رجاليتهم Maçor كما تذكره المعاهدة التى حللناها آنفا . وتلقت المستوطنة بعد قليل لوائح ادارية عهد بتطبيقها الى هذا القنصل وملحقه ( مستشاريه ) الأربعة (٥٦٩) الأربعة ، وأول اسم عرف من أسماء هؤلاء القناصل هو ماركو دى مولينو Marco de Molino . وفى ٦ من يونيو عام ١٣٢٤ كتب ماركو لدوج البندقية خطابا وصف فيه حالة المستوطنة بأنها غير طيبة : فقد حظر على البنادقة ، لصالحهم أن يتاجروا مع أحد من المسلمين .

ورغم هذا الحظر اتصل شخص يدعى فرانشيسكو كويريني Francesco Quirini واثنان من مواطنيه بهذا المسلم لبيتاعوا منه شيئا من التوابل ، وترتب على هذه المخالفة وقوع نزاع بين كويريني وأربعة من مواطنيه فى خان للقوافل يقال له delle telle ، وضرب كويريني حتى سالت دماؤه . واذا أراد أن يثار لنفسه مضى يشكو أمره الى أم الحان ، وتوصل بأقواله ، وبما وزعه من أموال على حاشية الأيمرة الى القبض على خصومه وسجنهم ، ولم يستطع القنصل أن يخلى سبيلهم الا بعد أن دفعوا مبلغا قدره ٢٧٠ دينارا بيزنطيا . وهكذا ففى هذه القضية ، رأينا بنادقة يستخدمون العنف ضد واحد من مواطنيهم حتى ينالوا حقهم بأيديهم ، كما رأينا هذا المواطن يشترك مع بعض الأجانب ليأخذ بثارته .

ولما لم يكن هذا بكاف ، فان الجمالية وجدت نفسها مضطرة لدفع ٥٠٠٠ دينار بيزنطى لسداد ديوان أحد وكلاء بيت ماركو دافانو; Marco Davanzo . هذه الأحوال السيئة مجتمعة ولدت فى نفس القنصل هواجس مؤلة بالنسبة الى المستقبل ، ومن ثم وصف طورس بأنها مكان غير أمين ، ولعل من الأفضل الخروج منها ، اللهم الا اذا اتخذ الدوج بعض الاجراءات التى يتسنى له أن يعرف مدى ملاءمتها بسؤال التجار الذين يعرفون حقيقة أمرها (٥٧٠) .

وفى عام ١٣٢٨ أوفدت حكومة البندقية ماركو كورنارو الى طورس ( تبريز ) . لمعالجة عيوب التنظيم التى أحيطت علما بها ، وتسوية الديون التى سجن التجار البنادقة بسببها . وهناك قبض على ماركو كورنارو ، ولم يعرف شيء عن نتيجة مهمته .

ولم تتغلب المستوطنة على ما تعانیه من متاعب مالية . فثبة أحد سكان طورس ( تبريز ) ، ويدعى حاجى سليمان طايبى Hadji Soliman Taibi طالب المستوطنة بتعويض قدره ٤٠٠٠ دينار بيزنطى ، ونجح فى استصدار حكم ، عليها بالسداد ، وكان لابد من التصريح له بأن يفرض على كل بندقى يصل الى المدينة أو يخرج منها أن يدفع ضريبة قدرها أربعة دنانير بيزنطية عن كل دابة حتى يتم سداد الدين كله . حقا انه لسبب أو لآخر ، كان يستقطع من الأربعة الدنانير التى يحصل عليها طايبى هذا

(٥٧٠) Taf. et Thom., IV, 192 et ss.

(٥٧١) توجد مذكرات كثيرة بخصوص هذه السفارة فى :

— Misti (Arch. Venet., XVIII, 332-335, 338.

— يتبين وجود كورنارو فى طورس عام ١٣٢٨ فى فقرة من :

Commem. reg., II, D. 26, n<sup>o</sup>. 155.

مبلغ قدره ثلاثة اسبرات *aspres* لصالح اثنين من البنادقة من بيت سانوتو *Sanuto* ، الا ان هذا لم يكن من شأنه أن يخفف من عبء الضريبة الملقى على عاتق الجالية (٥٧٢) .

وفي الوقت نفسه رخص مجلس شيوخ البندقية لبايل طربزون أن يفرض على كل تاجر من مواطنيه عند سفره الى طورس ( تبريز ) رسما قدره « آسبر » واحد عن كل دابة ، وتشكل حصيلة هذه الضريبة ايرادا لصالح ترجمان يدعى أفاشي *Avachi* يبدو انه أدى بعض الخدمات البندقية لم يفرب عن بالها أبد سوق فارس . ففي عام ١٣٤٤ علم بها أن التجارة ، يشرى أحد الأجانب ، ولكن كان هناك بلا شك صلة بين هذه الضريبة والضريبة الاخرى ، ذلك لأن أفاشي هذا كان أيضا اسم الترجمان حاجي طايبى .

وبعد وفاة أبو سعيد خان ( ١٣٣٦ ) ، حدث توقف في الحركة التجارية بين البندقية وفارس ، وكانت الأعباء الضريبية على التجارة أقل أثرا في هذا التوقف من تزايد الأخطار الأمنية في الطريق .

وقد انقسمت خانات فارس الى امارات مستقلة ، وكان أمراؤها في حروب مستمرة مع بعضهم بعضا ، ومن ثم عجزوا عن القضاء على الفوضى التي عمت ولاياتهم . ورغم الصعوبات التي شاعت في هذه الأزمنة ، فان البندقية لم يفرب عن بالها أبد سوق فارس . ففي عام ١٣٤٤ علم بها أن بعثة فارسية موفدة من قبل الأمير أشرف الجوباني *prince djoubanien* *Echref* ماضية في طريقها الى جنوا ، ومن ثم أرسلت البندقية للحال الى ماركو فوسكاريني بايل القسطنطينية أمرا بأن يتصل بهذه البعثة ويتفاوض معها لصالح التجارة بين البندقية وفارس (٥٧٤) .

وهن المشكوك فيه أن يكون هذا المسعى قد أدى الى نتيجة ما . على أن الفرس كانوا أيضا راغبين في استعادة العلاقات التجارية القديمة . وفي حوزتنا خطابان موجهان الى بايل طربزون ، وبنادقة هذه المدينة من قبل السلطان أوفيس *Oveis* الذي كان يحكم طورس ( تبريز ) واذربيجان من ١٣٥٧ الى ١٣٧٤ (٥٧٥) يدعو فيهما التجار البنادقة بالمح

Taf et Thom., IV, 222 et s.

(٥٧٢)

Décret du Sénat, du 16 juin 1332, dans *Marin*, IV, 172.

(٥٧٣)

Taf, et Thom., IV, 276 et s.

(٥٧٤)

D'Ohson, *Hist des Mongols*, IV, 742 et ss; Rampoldi, *Annal*, *musulm.*, X, 82, 90, 94, 96, 104 et s., 160; Herbelot, *Biblioth. orient.*, s.v. *Avis*.

(٥٧٥)

للعودة الى طورس كما كانت حالهم فى عهد أبو سيد . ويضمن لهم خلو الطرق من كل المخاطر ، وأنه يدخر وسعا فى حفظ الأمن بها ، ويعد التجار بأنهم سوف يلقون فى فارس أحسن استقبال ، ويدفعون بها ضرائب أقل مما كانوا يدفعونه من قبل .

وفى رد تجار طربزون على الرسالة الأولى ، نرى أنهم ضعيفو الثقة ومتحفظون ، ويقولون انه منذ عامين وصل الى طربزون تجار فى اسطول يضم سفنا كثيرة ، وانتظروا هناك فتح طرق المواصلات ، وقبل أن يخاطروا بسلك هذه الطرق أرادوا أن يشهدوا وصول قافلة كبيرة قادمة من طورس ( تبريز ) ، دلالة على زوال كل خطر فى هذا الطريق ، ومن ثم يقبلون الانضمام الى هذه القافلة حين تواصل سيرها الى وطنها . والواقع أنهم كان لديهم بواعت كثيرة لأن يكونوا على حذر . وثمة تجار بنادقة أكثر جراءة ، خاطروا بالرحيل فرادى ، فكانوا ضحية السلب والنهب فى الطريق ، وقبض الخان على اللصوص ، وعاقبهم ، ووعده بتعويض الضحايا . ولكن لم يكن أحد يثق كثيرا بوعوده ( ٥٧٦ ) .

واعتمادا من تلك الآونة ، وطوال الفترة التى نتولى دراستها ، لا نجد أثرا لمرور بنادقة على الطريق من طربزون الى طورس ( تبريز ) ونعود الآن الى الجنوبيين ، ونتتبع تطور علاقاتهم التجارية بفارس فيما بعد رحلة ماركوبولو . وفى هذه الأثناء أنشأوا قنصلية فى طورس . واقتصادا فى الاتفاق جعلوا الموظف المعين فى هذا المنصب يشغل وظيفته لستة أشهر بدلا من ثلاثة كما هو الحال فى سائر القنصليات . ويساعد القنصل فى أداء مهمته مجلس يضم أربعة وعشرين عضوا ، ويكفى حضور اثنى عشر أو ستة عشر عضوا لتكون المداولة صحيحة .

وكان الى جانب القنصل أيضا محكمة تجارية يتجدد أعضاؤها كل أربعة شهور . وتمتد سلطة القنصل ومجلسه فتشمل كل المواطنين الجنوبيين المقيمين فى فارس بصفة مؤقتة أو دائمة ، ذلك لأن طورس ( تبريز ) لم تكن المدينة الوحيدة التى تجذبهم اليها ، فقد كانت هناك جالية من التجار فى سلطانية ، ومدن غيرها تزورها قوافلهم على الأقل ، وكانت هذه القوافل على ما يبدو فى حركة دائمة بين طربزون وطورس ( تبريز ) ، وبالعكس . ولما كان من المحتمل أن يستغل سائقو الدواب التجار ، فقد كلفت السلطات الجنوبية الاستعمارية فى طربزون وطورس

( تبريز ) بعض الأشخاص الذين يعرفون البلده معرفة تامة باستتجار دواب النقل وتوزيعها على القوافل .

ومن جهة أخرى ، تدل المراسيم الصادرة من حكومة جمهورية جنوا على اهتمام دائم بالحفاظ على هيبة الدولة في فارس ومنع وقوع أية منازعات ، ومن ثم حظرت قبول أى أجناب ( باستثناء البنادقة واليونانيين ، المقصود بالأجناب هم أهالى طربزون ) فى القوافل أو البيوت الجنوبية ، كما صدرت لائحة تنص على أنه بالنسبة إلى ما يشتريه كل جنوى فى فارس ، لا يجوز أن تزيد مدة الاستحقاق على أربعة شهور ، كما لا يجوز السماح بهذه المدة الا بتصريح من القنصل والمجلس اللذين يتعين عليهما أن يستوثقا من يسار المشتري قبل أن يوافقا على طلب المهلة ( ٥٧٧ ) .

ورغم الاحتياطات التى اتخذت لتدراك أية تعقيدات ، فقد كان من العسير ، دون التعرض لأية صدمات اجتياز العاصفة التى هبت فى أعقاب وفاة أبو سعيد وانتهت بتفكك امبراطورية الخانات . وكان اقليم اذربيجان ، وعاصمته طورس ( تبريز ) من نصيب الأمير الجوبانى « حسن الصغير » وخلفه أخوه أشرف ، وهو طاغية لادين له ولا خلق . ويتحدث المؤرخ الجنوى ستيللا Stella عن هذا العاهل الذى فرض سلطانه فى عام ١٣٤٤ على طورس والاقليم المجاور ( ٥٧٨ ) ، فيسجل له - دون أن يذكر اسمه أنه أوفد فى هذا العام سفيرا حمله خطابا موجها الى الدوج ، وكومون جنوا ، يؤكد رغبته فى أن يعيش فى سلام مع الجنويين ، ويتعهد بأن يعيد اليهم كل ما كان قد سلب منهم . ويضيف المؤرخ أن الجنويين صدقوا هذه الوعود ، ضعفا منهم - ولكن الأمير أعد كمينا للتجار الذين وثقوا بكلامه فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر ، واستولى على بضائع قيمتها ٢٠٠ ٠٠٠ بالعملة الجنوبية libree grossorum

هذه الوثيقة لا يمكن أن تنسب لغير أشرف ، فهو الذى كان يحكم طورس ( تبريز ) فى التاريخ الذى ذكره ستيللا ، وكان مكروها من رعيته لطبيعته القاسية الحبيثة ( ٥٧٩ ) . وكان لزاما على الجنويين الا يعرضوا أنفسهم لمفاجآت من هذا النوع .

ولما كانت طورس ( تبريز ) فى تلك الآونة قد حوصرت وسقطت

---

Ordinacio Tourixii dans l'Off. Gaz., p. 348-350, et les deux ( ٥٧٧ ) paragraphes précédents, p. 347 et s.

Giustiniani (Annali di Genova, fol. 131). ( ٥٧٨ )

Voyez la relation de Stella, p. 1081, et le portrait d'Echref-dans Hammer, Gesch. de Ilchgne, II, 337 et ss. ( ٥٧٩ )

عدة مرات ، فانهم قرروا أن يبحثوا خارج هذه المدينة عن موقع حصين نوع ما يهيئ لهم ملجأ يأوى أشخاصهم وبضائعهم في حالة الخطر .  
يحدث كلافيجو Clavijo أن اختيارهم وقع على مرتفع كائن على بعد ريسخ من طورس ، وأنهم اعتمروا تشييد قلعة فوق هذا المرتفع ، واشتروا بالفعل هذه الأرض من أمير البلد ، واسمه سلطان فايس Soltanvays لكن هذا الأمير رفض طلبهم بدعوى أنه لا ينبغي لتجار أن يشيّدوا قلعة .  
يمكن بسهولة أن نتعرف في هذا الاسم على السلطان أوفيس Ovéis الذي سبق الحديث عنه . وبعد وفاته بقليل اكتسحت عشائر تيمور لك فارس ، وتحت موجاتهم الطاغية اختفى لزمان طويل كل أثر للمستوطنة التجارية الجنوبية ، والغربية بوجه عام .

يتبين لنا من ذلك ، في كل ما يختص بعلاقات الأمم التجارية الغربية بفارس في هذه الحقبة أن ما تعلمه عنها قليل جدا . ويقدر علمنا ، لم يبق من هذا العصر سوى امتيازين ، بحيث أن قدرا كبيرا من الأسئلة الهامة ، وبخاصة ما يتصل منها بوضع التجار الأوروبيين في امبراطورية التتار بقيت حتما دون حل . هناك مع ذلك نقطة يزودنا بشأنها بيجولوتي بكل الايضاحات المرغوبة : تلك هي الرسوم الجمركية ، أو « التمغة » Tamgha (Tamogha) بالنسبة التركية التتارية (٥٨٠) : وهذا ما يقوله (٥٨١) : « بالنسبة الى الأشياء المبيعة أو المشتراه بوزن البلد (peso de Torissi) تدفع خمسة دنانير بيزنطية ( الدينار البيزنطي = ٦ أسبر aspres) مع خصم نصف أسبر عن كل قنطار . وفيما يختص بالجوخ والنسيج الكتاني والفراء والشمالات والقصدير ، وبعمارة الأشياء التي تباع بكميات قليلة ، وبالقياس تدفع أربعة دنانير بيزنطية الا ثلث دينار عن كل قنطار . أما الفضة والآلئ فانها معفاة بالكامل من رسوم الدخول والخروج .

ولا بد أن خفض هذه الرسوم ، وبخاصة اذا قوبلت بما كان يحصل منها في مصر ، والهمة التي تبذلها الحكومة في المحافظة على الأمن في الطرق ، طالما كانت أسرة هولوكو تتربع على العرش (٥٨٢) ، وأخيرا حرية

(٥٨٠) «Tamunga» Pegol., R. xx, «tamengae», p. 9, «Camunoca», p. 8 et c.

P. 8. 9.

(٥٨١)

(٥٨٢) ماركو بولو ، ص ٦٩ ، يتوه بالخدمات التي تقدمها الحكومة المنفولية للتجارة ، باهتمامها بالقضاء على لصووس الطرق ، حتى لا يمانى المسافرون من أعمالهم الاجرامية . ومع ذلك فهو ينصح التجار أن يتزودوا بالأسلحة ليدافعوا بها عن أنفسهم ضد قطاع الطرق .

النقل التي كان يتمتع بها التجار الأجانب في جميع أنحاء الامبراطورية كل ذلك لا بد أن يكون له تأثير حسن على الغربيين ، ويحث عددا كبيرا منهم على الذهاب الى فارس طلبا للثروة . وثمة بعض المغامرين الغربيين اعتبروا هذا البلد قاعدة للإعمال ونقطة انطلاق لرحلات بعيدة .

وعلى أية حال لم يتوقف المبشرون في ذلك العصر عند فارس ، فقد مضى الكثير منهم الى الهند والصين ، نذكر منهم يوحنا دي مونتكورفينو Jean de Montecorvino في عام ١٢٩١ ، واودريكو دا بوردنيسوني Oderico da Pordenone في عام ١٣٢٠ . وكان الطريق حرا تماما . وفي حين كان السلاطين تدفعهم روح الاترياب الى عدم السماح لأي أوروبي باجتياز اقليمهم للذهاب الى الهند ، فان ملوك التتار في فارس لم يقيموا أية عراقيل أمام التجار الغربيين الذين يريدون أن يمضوا من بلادهم لزيارة شبه الجزيرة ( الهندية ) ( ٥٨٣ ) .

وكانت طورس ( تبريز ) متصلة بساحل الخليج الفارسي بطريق للقوافل يمر بكاشان Kachan ويزد Yezd وكرمان Kerman وفي عصر ماركوپولو ( ٥٨٤ ) ، كان الجزء من هذا الطريق بين كerman والساحل يرتاده للصوص قطاع الطرق . وقد وقع هو نفسه عند عودته من رحلة في ايدي احدى هذه العصابات ، ولم يخلص منها الا بالفرار السريع المفاجيء ، والاحتماء في قلعة مجاورة ، ولم ينج في الطريق سوى سبعة من رفاقه ( ٥٨٥ ) . ومع ذلك تحسنت هذه الحال ، غالبا في مستهل القرن الرابع عشر عندما حل محل الأمراء المحليين حكام من المغول ( ٥٨٦ ) . وبغض النظر عن الأخطار التي يتعرض لها المسافرون ، كان هذا الجزء من الطريق شديدا الوغورة ، اذ يجتاز اقليم كerman الجبلي القاتل مصدرا لتعاب شديدة لا نظير لها ، ومن ثم يشعرون حقا بالراحة والغبطة عندما يصلون في النهاية إلى السهل . ويلمحون على بعد الخليج الفارسي وأرمن Ormonz ( هرمز ) أكبر سوق في تلك المنطقة .

وفي العصر الذي وصلنا اليه الآن ، لم يكن بنوع من الاستثناء أن تصادف اسم مرفأ سيراف Sirāf . ولعل أبو الفدا هو الكاتب الوحيد الذي لم يزل ( في القرن الرابع عشر ) يتحدث عن سكان هذا البلد

Sanut. Secr. fidel. cruc., p. 23.

( ٥٨٣ )

M. Polo, p. 79 et ss.; Oderico da Pordenone, p. iii.

( ٥٨٤ )

M. Polo, p. 83 et s.; cf. p. 31.

( ٥٨٥ )

Hammer, Gesch der Ichane, II, 49.

( ٥٨٦ )



الكثيرى العدد ، وثوراتهم ، والحركة النشيطة التى تتم ميناءها بدخول السفن إليها وخروجها منها ، والواضح أنه فى هذه الفقرة ينقل ما كتبه مؤلف آخر (٥٨٧) . ومن قبل كانت جزيرة كيش ( كيش ) Kich التى ورثت أهمية سوق سيراف العظيمة ، قد بدأت تنزوى أمام منافس أكثر ازدهارا : ففى تلك الآونة استطاع اسم هرمز بربريق طمس كل الأضواء ، واحتفظ بهذا البريق حتى أواخر العصور الوسطى . وفى بداية العصر الحديث ، تظهر هرمز ثانية أعظم من ذى قبل تحت سيادة البرتغاليين .

ولم يكن اسم هرمز فى كل الأوقات هو اسم الجزيرة التى تعرف به فى الوقت الحاضر . ففى مستهل العصور الوسطى كانت تسمى أيرون Jéroun . ولكن على الساحل المجاور ، وعلى بعد بضعة فراسخ (٥٨٨) ، قامت مدينة باسم هرمز Ormuz ، ما زلنا نرى أطلالها على بعد ستة أو سبعة أميال انجليزية الى الجنوب الغربى من حصن ميناب Minâb (٥٨٩) وكانت هرمز القديمة متصلة بالخليج الفارسى بقناة بحرية لم تنزل الى الآن صالحة للملاحة فى قسم منها . ولكنها كانت وقتئذ صالحة لمرور السفن المختلفة الحمولة ، ومن ثم يمكن اعتبارها ميناء بحريا . وفى القرن العاشر كانت تضم عددا قليلا من السكان ، ويقوم تجارها متفرقين فى ضواحيها ، ومع ذلك كانت أسواقها فى ذلك الحين موضع فخارها ، ومصدر ثروات كبيرة (٥٩٠) .

وفى زمن الادريسي تحدث هذا الرحالة عنها فقال انها مدينة كبيرة وجميلة . وكانت مستودعا لمنتجات كرمان ، نذكر فى مقدمتها السكر ، ونوعا ممتازا من النيلة (٥٩١) . ومن دلائل الخير والفعال الحسن أن تانى بسفن من الهند تنزل بها السلع المرسللة الى كرمان وسجستان

Aboulf., Géograph., II, 2, p. 96.

(٥٨٧)

Ibn-Batouta, II, 230.

(٥٨٨)

يقدر ابن بطوطة هذه المسافة بثلاثة فراسخ ، ويؤيد الكولونيل بيل تقديره هذا .

(٥٨٩) انظر المعلومات التى زود السيد يولى بها الكولونيل بيل Pelly

وهو انجليزى مقيم بوشير Bushire ( ماركو بولو ، الجزء الأول ، ١٠٥ ) .

(٥٩٠) الاصطخرى ، ص ١٩ ، ٧٨ ، ٧٩ . ويذكر كوداما Kodama فى معلوماته

الاحصائية ( المتوفى عام ٩٤٨ ) أورموز ( هرمز ) على أنها ميناء كيرمان ، انظر :

— Journ. asiat., 5e série, XX, p. 168; de même Aboulféda (trad. Reinand, II, 28).

(٥٩١) الادريسي ، الجزء الأول ، ٤٢٤ .

وخراسان (٥٩٢) . وكانت كيش ( قيس ) تطمح في الاحتفاظ باحتكارها التجارية مع الهند ، ولم تستطع أن تشهد دون قلق هرمز وهي تحول لمصلحتها جزءا من منتجات هذا البلد ، وكان ذلك يثير المنازعات حتما ، فكان كل من الأميرين اللذين يتبعهما السوقان يريد إجبار قباطنة السفن التجارية على التردد على مينائه وحده دون الميناء الآخر ، فكان نشوب الحرب بينهما أمرا طبيعيا (٥٩٣) .

ويبدو أن هرمز خرجت من الصراع منتصرة ، ذلك لأن ماركوبولو الذي زارها في عام ١٢٩٢ وصفها بأنها مكان تجارى هام للغاية (٥٩٤) . وكان التجار الهنود يحضرون إليها في سفنهم توابل ، وأحجارا كريمة ، وأقمشة ثمينة ، وبروكار ( ديباج ) من ذهب ، وعاجا ، وسلعا أخرى ترسل من هناك الى كل الجهات . وكان تجار هرمز يصدرون بدورهم الى الهند على سفنهم سلعا مختلفة ، وخاصة الخيول (٥٩٥) . وكانت سلطة أمراء هرمز تمتد الى بضعة مواقع على الساحل الشرقى لبلاد العرب ، منها خلاط Khalat وموقع آخر حصين لم يذكر له ماركوبولو اسما ، ولعله مسقط Mascate ، وكانت هذه الممتلكات تتيح لهم فرصا لتوثيق علاقاتهم بالهند . وكانت خلاط تستقبل منتجات وارده من الهند ، وتصدر إليها في مقابلها خيولا عربية (٥٩٦) .

ورغم هذه المنافسة استمرت كيش طوال القرن الثالث عشر (٥٩٧) . تساهم بنصيب كبير في تجارة الهند . وأصاب كيش المصير الذى أصاب

(٥٩٢) ياقوت ، ص ٥٩٥ .

Ibn-Alathir (éd. Tornberg, XII, 156, 199), cité par : ابن الأثير : (٥٩٢) M. Defré mery dans ses notes sur le Gullstan de Sadi, p. 178.

— وقد توفي ابن الأثير في عام ١٢٢٣ قبل أن يشهد توقف الحروب . (٥٩٤) شمس الدين ( ص ٢٣٩ ) يقول على الأقل أن التجار يقبلون ويلقون مراسيمهم في مينائه

M. Polo, p. 85-89, 714 et s; p. 68, 614, 641 et s. (٥٩٥)

حين يذكر ماركو بولو ( هرمز ) فهو يقصد دون شك المدينة القائمة على اليابسة .

M. Polo, p. 713; Ibn-Batouta (II, 225) sur Kalhat; les citations (٥٩٦) d'Ibn—Alathir par M. Defré mery, dans sa traduction du Gulistan de Sadi, p. 74, not.

'Sanuto, Secr. Eldel. cruc., p. 22 : (٥٩٧)

— يذكر سانوتو أيضا كيش Kich الى جانب مدينة اورموز ، على انها مستودع لتوابل الهند .

الكثير من جزر الخليج الفارسي وجزءا من سواحل بلاد العرب التي تشكل القسم الجنوبي من الخليج ، فغزاها ( ١٢٢٩ - ١٢٣٠ ) أبو بكر بن سعد ، وهو أمير من السلاجقة المرتبطين بالخانات المغول في فارس بوشايج من تبعية تكاد تكون اسمية ، وحكم اقليم فارس Fars كما حكمها أسلافه بلقب آتابك Atabek ( ١٢٢٦ - ١٢٦٠ ) ( ٥٩٨ ) . وبعد وفاته و وفاة أبنائه الذين عاشوا بعده قليلا ، عاد اقليم فارس والجزر والساحل العربي الى خانات المغول الذين تولوا ادارته من ذلك الحين عن طريق حكام وملتزمين عموميين *fermiers généraux* ، منهم جمال الدين ، من شيراز ، الذي لعب دورا بالغ الأهمية من ١٢٩٦ الى ١٣٠٦ ، وضم الى رتبته الروحية « كشيخ للإسلام » رتبة « ملك الاسلام » لاقليم فارس والعراق ( ٥٩٩ ) . ولما كان أبو بكر وبعده جمال الدين يملكان كيش ، فانهما كانا بالضرورة على صلة بالهند ، ووثقا علاقات ببعض أمراء هذا البلد .

ولم تكن الخيول تربي في غرب الهند ، فكانت تستورد من أنحاء شتى ، من الصين ، والهند الصينية ( ٦٠٠ ) ، ومجاورات أزوف ( ٦٠١ ) ، وبلاد الترك ( ٦٠٢ ) ، واليمن ، وحضرموت ، وعمان ( ٦٠٣ ) ، وبخاصة سواحل وجزر الخليج الفارسي ، والبحرين ، وكيش ، وهرمز . وكان التجار الفرس والعرب يصدرونها بأعداد هائلة ، ويحصلون على أرباح بالحاجات اليها ، ذلك أن أجود الخيول لا تلبث أن تموت هناك ، أما لعدم ضخمة ( ٦٠٤ ) . وكان في المستطاع تصدير أية أعداد منها دون الوفاء تحلها المناخ ، أو لسوء معاملتها ( ٦٠٥ ) . ويحكى وصاف Wassaf وهو كاتب غزير المعلومات أنه في عصر أبو بكر ، كان يصدر من الجزر

Hammer, *Gesch. der Ilchane*, I, 237 et ss. (٥٩٨)

Hammer, *Op. cit.*, I, 240-244; II, 35, 50 et s., 63 et ss., 102, 187 et ss. (٥٩٩)

M. Polo, p. 395, 429. (٦٠٠)

Ibn-Batouta, II, 371-374 . (٦٠١)

Chehabeddin, p. 178. (٦٠٢)

Ibn-Batouta, III, 374; Chehabeddin, l.c. ; M. Polo, p. 704 . (٦٠٣)  
711, 713.

Chehabeddin, p. 178, 184; 184; M. Polo, p. 67-69, 88-614 et s., 641. (٦٠٤)

M. Polo, p. 614 et s; wassaf, dans Elliot, *History of India*, III, 34. (٦٠٥)

والسواحل التابعة لولاياته الى مابار Maabar ( على ساحل كرماندل  
 (Cormandel) وكامبى Cambaye وجهات أخرى فى الهند عشرة  
 آلاف حصان فى السنة (٦٠٦) . وفيما بعد عقد جمال الدين ، الملتزم  
 العمومى لفارس Fars ، وسوندارا باندى Soundara-Pandi  
 أقوى ملك لاقليم مابار (٦٠٧) معاهدة التزم بها الأميران ، الأول منهما  
 أن يورد سنويا ١٤٠٠ حصان من كيش ، و ١٠ ٠٠٠ حصان من الجزر  
 الأخرى التابعة لفارس ، وتمهد الثانى بأن يأخذ هذه الخيول بسعر الواحد  
 ٢٢٠ دينارا ذهبيا ، وأن يدفع ثمن كل دابة تموت فى أثناء الرحلة (٦٠٨) .

واستلزمته هذه التجارة حركة ملاحية دائبة صوب الهند ، ولا بد  
 أن السفن التى تنقل الخيول لا تعود من رحلتها فارغة . فالقليم مابار  
 الذى يوجه اليه أكبر قدر من الواردات كان يقدم منتجات متنوعة ، ويتلقى  
 كميات ضخمة من أئمن السلع وأندرها من الصين والهند الصينية (٦٠٩) .  
 لم لا يشتري تجار الخيول بمكاسبهم فى أسواق مابار توابل ، وأحجارا  
 كريمة . ولآلئ يشحنون بها سفنهم عند عودتهم ؟ يقول وصاف ان كل  
 ثروات جزر الخليج الفارسى وجزءا كبيرا من السلع الكمالية فى بلاد  
 أخرى . من العراق وخراسان الى آسيا الصغرى وأوروبا كانت ترد من  
 مابار (٦١٠) ، وإذا دفعنا الفضول الى تتبع تيار البضائع المصدرة من  
 كيش الى الغرب ، فان النصوص تدلنا على هذا التيار وهو يصعد جزئيا  
 الخليج الفارسى ونهر الدجلة الى بغداد ، ويجتاز من جهة أخرى فارس  
 لينتهى الى طورس (٦١١) .

ولكن يجب الا نبتعد عن الخليج الفارسى . فمن المهم دراسة تطور  
 سوق من أسواقه الرئيسية . فبعد انقضاء بضع سنوات على مرور  
 ماركو بالو ، غزا هرمز جيش العدو ، وأدرك الملك وغالبية السكان

Wassaf, Op. cit., M. Hammer (Gesch der Ilchane, I, 240). (٦٠٦)

C'est le Sonder Bandi Dawar de M. Polo (p. 602); Yule, (٦٠٧)  
 M. Polo II, 269 et ss.).

Rachid-eddin et Wassaf, dans Elliot, Hist of India, I, 69; III, (٦٠٨)  
 33 et s. M. Polo, p. 614; Aboulféda (Géogr., II, 2, p. 116); M. Yule (M.  
 Polo, II, 272).

Rachid-eddin, dans Elliot, I, 69; Wassaf. Ibid, III, 32. (٦٠٩)

Elliot, l.c., III, 32, 35. (٦١٠)

M. Polo, p. 47; Sanuto, Secr. fidel. cruc. p. 22 et s (٦١١)

استحالة المقاومة لتفوق العدو بعدد أفراده ، ففروا في عدد من السفن ،  
 والتسموا ملجأ مؤقتا لهم في جزيرة كشم Kichm - وبعد قليل ، قر  
 عزم الملك على اتخاذ جزيرة أيرون Eroun ( هندرابي الحالية -  
 المراجع ) الصغيرة مقاما له ولشعبه ، وهي الجزيرة المجاورة لجزيرة كشم .  
 أما هرمز القديمة فقد هجرت وتركت لمصيرها التمس . ومنذ تلك الآونة  
 لم يعد يسكن في أطلالها سوى بعض الأهالي الفقراء المشبهين . يقول  
 توران شاه Touran-Châh الذي صار فيما بعد أمير هرمز ( ١٣٤٧ -  
 ١٣٧٨ ) وكتب تاريخ أسلافه بلغة فارسية إن الأمير الذي جرت في عهده  
 هذه الأحداث يدعى مين بهاء الدين أجاجس سيفين Min-Beha-eddin  
 Ajas-Seifin . ويذكر عام ٧٠٠ هـ تاريخا لهجرة السكان ، أي عام  
 ١٣٠٠ - ١٣٠١ م . ويقسم بيدرو تيكسيرا Pedro Teixeira  
 عوجزا لمؤلف توران شاه ، وذلك في كتابه ( ٦١٢ ) :  
 Breve relacion del principio del regno Harmuz y de sus Reyes

ويذكر هذه المعلومة ولكن بشيء من الخطأ ، إذ يفترض أن عام ٧٠٠ هـ  
 يقابل عام ١٣٠٢ م ( ٦١٣ ) . وثمة كتاب لاحقون ، نذكر منهم أحمد غفاري  
 Ahmed Ghaffari ( توفي عام ١٥٦٧ ) ومحمد جيدي Mohammed  
 Medjdi. ( ١٥٩٣ ) نسبوا إلى الملك أسماء أخرى ، وذكروا  
 تواريخ مختلفة . وفي رأيهم أنه ينبغي أرجاع هجرة سكان هرمز في  
 الجزيرة إلى عام ١٣١٠ أو ١٣١٥ ( ٦١٤ ) . غير أن توران شاه عاش في  
 عصر أقرب كثيرا إلى الأحداث ، ويجب اعتبار معلوماته أصدق بكثير من  
 معلوماتهم . والأمر على خلاف ذلك بالنسبة إلى حمد الله المستوفى  
 Hamdallah Moustoffi من قزوين ( توفي عام ١٣٤٩ ) الذي عاش في  
 عهد أقرب إلى الأحداث من عهد توران شاه - وهو كمؤرخ جدير بالثقة :  
 فهو يقول ، كما أورد عنه السيد أوسلي M. Ouseley ( ٦١٥ ) إن تأسيس  
 هرمز الجديدة تم في عهد معاصره الأمير قطب الدين Koutb-eddin  
 ولشود الحظ يستحيل التأكد من صحة ما دونه السيد أوسلي قبل جمع  
 كتابات حمد الله وطبعا .

( ٦١٢ ) Dans son ouvrage intitulé ; Relaciones del origen, descen-  
 dencia y sucession de los Reyes de Persia yc de Harmuz, Amberes,  
 1610.

Ibid, p. 10. ( ٦١٣ )

Ouseley, Travels in various countries of The East, more  
 particularly in Persia, I, 157, 173. ( ٦١٤ )

Ibid, p. 157. ( ٦١٥ )

ولكن حتى يفرض أن هذا المؤرخ قد دون بالفعل المعلومات التي أخذت عنه ، فنحن نبيح لأنفسنا أن نشك في ذلك ، فإنا نرى لزاما علينا أن نخطئه في هذه النقطة . فتوران شاه لا بد كان يعرف النبأ الصحيح عن تاريخ قطب الدين ، سلفه وأبيه ، ومن ثم يعرف ما إذا كانت هجرة سكان هرمز قد حدثت فعلا في عهد هذا الأمير أو فيما بعد ، فهو يضع هذا الحدث قبل تولي قطب الدين الحكم بتسعة عشر عاما ، ويكتفي في روايته عن عهد هذا الأمير بالقول بأنه نجح في الدفاع عن الجزيرة ضد الغارات الآتية من الخارج ، وشن غزوات مختلفة سوف نتكلم عنها فيما بعد . ولا شك أن وطنيا ، وبخاصة إذا كان في مركز عال يمكنه أن يعرف في هذا الصدد أكثر مما يعرفه أجنبي ، حتى ولو عاش الأجنبي قبله .

وهناك حجة أخرى ، أقل اقتناعا في الواقع ، توجه ضد الذين يريدون جعل الهجرة في عهد قطب الدين : ذلك أن أبو الفدا في « جغرافيته » التي فرغ من كتابتها في شهر سبتمبر عام ١٣٢١ يتحدث - بناء على أقوال شاهد عيان - عن تدمير هرمز القديمة وبناء المدينة الجديدة التي تحمل الاسم نفسه (٦١٦) . حقا انه في الامكان التوفيق بين الأمرين بوضع الحدث المشار اليه في السنوات الأولى من حكم قطب الدين الذي تولى الحكم في عام ١٣١٩ . ولكن لا بد عندئذ من تسمية رواية « وصاف » بهذه الهجرة في الكتاب الثالث من تاريخه عن فارس ، فهذه الرواية تفصل بين المسألة فصلا قاطعا مؤيدا لما أكده توران شاه . وقد أنجز وصاف كتابه في عام ١٣١١ ، وكان قد أهدى كتبه الثلاثة الأولى التامة الى غزان خان في عام ١٣٠٣ (٦١٧) ، ومن ثم قبل ارتقاء قطب الدين عرش هرمز بزمن طويل .

ولسوء الحظ فإن الجزء الذي كانت فيه الوقائع التي نناقشها هو بالذات الذي لم يترجم ، وبعض ما اقتبسناه السنيد هاسر M. Hammer (٦١٨) من تاريخ هرمز مشوش (٦١٩) ، والبعض الآخر يخص وقائع سابقة على الهجرة أكثر مما يخص الهجرة نفسها . ينبغي لنا إذن أن نكتفي بالقول بأن وصاف ، شأنه شأن توران شاه يجعل تدمير هرمز القديمة في حوالى عام ١٣٠٠ ، فالوقائع المحدد زمانها على هذا الوجه تتوافق تماما مع تاريخ جنوب فارس في ذلك العصر . وفي ذلك

Géogr., II, 2, p. 104.

(٦١٦)

Hammer, Gesch. des Ilchane, II, 122 et s., 151 et s., 243.

(٦١٧)

Ibid, II, 50 et s.

(٦١٨)

M. Yule (M. Polo, I, 113 et s.)

(٦١٩)

الأوان اكتسح البلد كله حتى « الساحل » « الساخن » (Germisir) ودمره حشود الأمير كوتلوج شاه Kotloogh-Chah سليل جاجاتيه Djagatai سيد الأقاليم الواقعة جنوب شرقي خانات ما وراء النهر Transoxiane (٦٢٠) .

حقا ، ان الجيش الذي دمر هرمز القديمة ، على قول توران شاه يتكون من أتراك قادمين من تركستان (٦٢١) - كما يسميه أهله بينما أطلقنا عليه دواما اسم « ما وراء النهر » (٦٢٢) . وكان كوتلوج شاه من سلالة جنكزخان . ونذكر أيضا أنه تبعا لأقوال مؤرخين آخرين ، أنار على سكان هرمز عصابات من قطاع الطرق (٦٢٣) ، وهذا الأسلوب في عرض الوقائع ينطبق على غزوة كوتلوج شاه ، لأن هذا الأمير كان حليفا للكاراؤناه Karounahs ، وهي قبيلة من قطاع الطرق تقطن شرقي فارس ، وعلى استعداد دائم للاغارة على الأقاليم المجاورة التي تمتاز بطبيعة أفضل (٦٢٤) .

ولم يلبث أمراء قيس أن تبيينوا المناورة التي يقوم بها أمراء التوفيق . حقا تم تكن جزيرة أيرون Jéroun سوى صخرة فاحشة ، ولكنها تتحكم في مدخل الخليج الفارسي ، وفي استيلاءة من يسيطر عليها إن يوقف بارادته كل السفن التي تحاول دخول الخليج للوصول الى قيس . ولم يلبث أمراء قيس أن تبيينوا المناورة التي يقوم بها أمراء هرمز اضارارا بهم ، ومن ثم جهزوا عدة حملات لوضع حد لهذه المناقسة الخطيرة ، ولكنها كانت تنتهي دائما بالفشل (٦٢٥) . ولم يمض زمن طويل حتى استولى قطب الدين ملك هرمز على جزيرة قيس ، والبحرين ، جزيرة اللؤلؤ ، وجزء من سواحل بلاد العرب المجاورة للبحرين . ولم يحدد توران شاه ، أو على الأقل تيكسييرا Teixeira الذي لحص أعماله ، تاريخ هذا الحدث تحديدا قاطعا . ولكن يمكن ، تبعا لروايته التوقف عند حوالي عام ١٣٣٠ (٦٢٦) . وعلى أية حال ، ففي عام ١٣٣٢ ، حين زار الرحالة

D'Ohsson, Hist. des Mongols, IV, 268 et ss.; Hammer, Ichine, II, 98 et ss. (٦٢٠)

Teixeria, p. 11. (٦٢١)

Vambéry, Gesch. Bochara's oder Transoxaniens, p. 155. (٦٢٢)

Silv. de Sacy, Antiquités de la Perse, p. 277; Yaquout, p. 595, not. (٦٢٣)

Not. et extr., XIV, 1, p. 282 et ss.; Yule, M. Polo, I, 94. (٦٢٤)

Teixeira, p. 20 et ss. (٦٢٥)

Ibid, p. 25-33. (٦٢٦)

ابن بطوطة قطب الدين ، كان هذا الأمر ، الذي لم يكن يسيطر فيما مضى إلا على جزيرة هرمز ، وجزء من سواحل عمان ، كان وقتئذ قد وسع ممتلكاته القديمة ، وأصبح يتمتع بفتوحاته الجديدة (٦٢٧) .

ومن تلك الآونة لم يعد لهرمز الجديدة منافس في الخليج الفارسي . ورغم الاضطرابات الداخلية ، والمنافسات في سبيل العرش ، مما يزخر تاريخها ، فإن رخاها كان يتبع دون انقطاع مسيرة تقدمية . وحين زارها ابن بطوطة وجد بها مدينة كبيرة وجميلة وأسواقا مكتظة بالبضائع ، وسفنا آتية من كل أنحاء الهند فترسو عندها . وكانت الشحنات التي تنزل فيها يعاد تصديرها الى فارس ، وخراسان ، والعراقين ، أي العراق العجمي ، وهو الاقليم الأوسط بفارس مع مدن اصفهان . وحمدان ، وسلطانية ، والعراق العربي ، أي ميزوبوتاميا ( بلاد ما بين النهرين ) وعاصمته بغداد (٦٢٨) . ويتحدث الغريسيان اودريكو دا بوردينو و Jean Marignola (٦٣٠) Oderico da Pordenone (٦٢٩) ، وجان مارنيولا أيضا عن كميات البضائع ، والعدد الكبير من التجار الذين يتوافدون على البقعة من كل أرجاء العالم ، ومن هؤلاء التجار أوروبيون (٦٣١) .

وكانت هرمز بالنسبة الى الذين يسافرون الى الهند أو الصين (٦٣٢) ، مرحلة من المراحل الرئيسية ، نذكر من هؤلاء المسافرين بتروس دي لوكالونجو Petrus de Lucalongo رفيق السفير للمبشر المشهور جان دي مونت كورفينو Jean de Monte Corvino الذي صار فيما بعد أسقف بكين ، كان الجميع - القادمون من بغداد أو طورس ( تبريز ) - يمرن بالجزيرة الواقعة عند مخرج الخليج الفارسي ، فكانت بالنسبة اليهم المر

---

Ibn-Batouta, II, 124, 226, 229, 233, 235 et s.; Hamdallah (٦٢٧)

Moustofi, dans Hammer, Ichane, II, 321.

II, 230 et s. (٦٢٨)

Yule, Cathay, II, append., I, p. IV. (٦٢٩)

Ed. Dobner, p. 113. (٦٣٠)

Maunderville, p. 136. يذكر موندفيل بخاصة البنادقة والجنوبيين . (٦٣١)

(٦٣٢) يقول موندفيل ، ص ٣٢٨ ان التجار الذين يلهبون من فارس الى الصين يهبون عند رحيلهم من اورموز البحر ، ويرسون عند جولباش Golbache ، ويبدو انه يشير بهذا الاسم الى كلهاات Kalhat ، ومن المحتمل ان سفن اورموز كانت ترسو كثيرا هناك .



المؤدى الى الهند ، بلد المعجائب (٦٣٣) . كان هناك أيضا فى داخل البلاد طرق للقوافل يمر بها جزء من التجارة بين فارس والهند .  
ويمكن اعتبار كابول وغزنة من ابواب الهند ، مثلها فى ذلك مثل هرمز ، غير اننا لا نستطيع ، فى العصر الذى ندرسه أن نذكر واحدا لاوروبى اجتاز هذا الطريق . حقا ان أبو الفدا (٦٣٤) يذكر المدينتين اللتين أشرنا اليهما آنفا . ويتكلم عن أهميتهما لتجارة الهند . ولكنه فيما يختص بكابول على الأقل انما ينقل من مصادر أكثر قدما . أما ابن بطوطة (٦٣٥) ، معاصره ، وهو أصغر منه سنا ، فانه يذكر أيضا عظمة المدينتين فى الماضى ، ولكنه حين زارهما ، لم تكن غزنة سوى مدينة نصف خربة ، وكابول قرية صغيرة ، ويمكن اذن أن نستخلص من شهادته أن هاتين المدينتين كانتا قد فقدتا فى عصره كل أهمية بالنسبة الى أسواق الشرق .

#### خامسا - الهند

أول حدث نصادفه فى دراسة علاقات الغرب بالهند خلال الفترة التى تشغلنا فى هذه اللحظة هو بعثة ذات أهمية كبيرة قام بها بعض الجنوبيين ، وترجع هذه البعثة بالذات الى السنة التى أصيبت فيها تجارة العالم كله بسقوط عكا ، ونشطت بحثا عن طرق جديدة لها . فى عام ١٢٩١ جهز ثلاثة من الجنوبيين ، هم تديسيو دوريا Tedisio Doria (٦٣٦) ، ووجولينو فيفالى Ugolino Vivaldi ، وأخ لهذا الأخير ، بالاشتراك مع كثير من مواطنيهم سفينتين حربيين كبيرتين ، وبحروا بها الى ما وراء مضيق جبل طارق بحثا عن طريق الى الهند عبر المحيط . ولما كان مؤرخو هذه البعثة كتاب حوليات ( مؤرخى وقائع ) جنويين ، حديثى العهد نسيبا ، مثل جوستنيانى Giustiniani ، وفولييتا Foglietta فقد رفض البعض الوثوق بأخبارهم . الا أن السيدين كانالى Canale ويرتز لم يرضيا بطبعة الحوليات الجنوبية القديمة التى نشرها موراتورى

La Carte catalane, p. 123.

(٦٣٣)

Géogr., II, 2, p. 203 et s.

(٦٣٤)

III, 88. 89.

(٦٣٥)

(٦٣٦) لم يكن دوريا من أعضاء الحملة ، ولم يستطع جوستنيانى وفولييتا أن يؤكدوا

اشتراكه الا بتفسير خاطئه لنص ال Ann. Jan.

Muratari اذ تبين لهما فيها الكثير من الثغرات ، ومن ثم عكفا على دراسة متعمقة لأفضل المخطوطات وأكملها ، فكتسفا عن شهادة معاصرة ، وصداقة بلا ريب تؤيد واقع هذه الرحلة الاستكشافية (٦٣٧) . وليس هناك أى احتمال للطعن فى صحة هذه الوثيقة ، خاصة وأن جاكوبو دوريا Jacopo Doria كاتب الخبر من أقرباء تديسيو دوريا أحد الشركاء المهتمين بالمشروع .

يقول جاكوبو دوريا بصراحة ان البعثة لم تكن غايتها التوسع فى المعلومات الجغرافية فى ذلك العصر بقدر ما كانت تتغيا معرفة امكانية احضار منتجات الهند بطريق البحر ، ودون أن تنقل من سفينة الى أخرى (٦٣٨) . وقد فشلت هذه المحاولة ، ولم ير أحد بعد ذلك المستكشفين الجسورين : ففى وطنهم ، فى الفترة التى كتب فيها جاكوبو دوريا قصته ( ١٢٩٤ ) ، لم يعرف أحد خط سيرهم فيما بعد جوزورا Gozora ، أى المنطقة الصحراوية الواقعة فى المغرب جنوبى جبال أطلس بالقرب من رأس نون Noun . والمعروفة أيضا بأسماء Gazula, Gozola, Gazolla, etc. (٦٣٩) ، ومن هناك ضاع كل أثر لهم . وبعد انقضاء حوالى نصف قرن ، علم فى أسبابنا أن احدى السفينتين قد غرقت بالقرب من مدينة امنوان Amenouan ، بينما واصلت الثانية مسيرتها فى اتجاه غير معروف .

أما الذين كانوا فى السفينة الفارقة ، واستطاعوا الوصول الى الشاطئ ، فيقال ان الوطنيين هناك أسروهم ، وأخذوهم الى داخل البلد . وثمة شائعة مماثلة انتشرت فى وقت مبكر وبلغت جنوا ، تقول ان أحد أبناء أوجولينو فيفالدى ، اسمه سورليونى Sorleone نظم بعثة يمضى بها للبحث عن أبيه . واذ رأى أنه من الأيسر له أن يجد أباه اذا بدأ رحلته من الساحل الشرقى لأفريقيا بدلا من الساحل الغربى ، فانه ذهب الى مقديشيو Magadoxo ، وهناك منع من مواصلة رحلته بدعى أنه يتعرض لأخطار جسام (٦٤٠) . وثمة جنوى آخر ، يدعى انطونيو

Annal. Jan. dans Pertz, SS., XVIII, 335; Belgrano, annali (٦٣٧)  
Genovesi di Caffaro, dans l'Archiv. stor., 3<sup>e</sup> sécie, II, 124 et ss.

Annal. Jan., l.c. (٦٣٨)

Cartes : celle des frères Pizigani, la carte catalane, et celle (٦٣٩)  
de Bartol. Parcto (d'après les Mémor. della Soc. geogr. ital. I, 57).

(٦٤٠) روى قصة هاتين البعثتين راحب فرنسيسكاني من اشبيلية ، مؤلف كتاب :  
Libro del conocimiento de todos los reynos, etc. (p. 63, 67 et s.) ;  
Belgrano, Nota sulla spedizine dei fratelli Vivaldi : Atti della Soc. Lig.,  
XV 323; Devic, Le pays des Zendj (1883), p. 60 et ss.

اوزوديمارى Antoniotto Usodimare كان أسعد حظا من فيفالدى الصغير ، قام برحلة فى السنغال فى عام ١٤٥٥ . ليحضر منها عاجا فأتبع أثر السليل الأخير الوحيد لركاب السفينة التى غرقت فى عام ١٢٩١ (٦٤١) . ودونت قصة تبعا لشهادة اوزوديمارى ، ولكننا نكشف بادى ذى بدء على خطأ فيها : ذلك أن الاثنى اللذين يحملان اسم فيفالدى . وهما اوجولينوس Ugolinus وفادينوس Vadinus ، أسمتهما القصة فادينوس وجويدوس Guidus . وهما يكن الأمر اليكم قصة البعثة كما دونت : فى بحر غينيا ، جنحت احدى السفينتين على رصيف رهلى أما الأخرى فواصلت الرحلة وحدها حتى مدينة فى أثيوبيا اسمها مينا Mena وهى واقعة بالقرب من مصب نهر جيحون Gihon : على آن السكان لم يحسنوا استقبال هؤلاء الأجانب ، بل قبضوا عليهم ، ورفضوا رفضا باتا اخلاء سبيلهم (٦٤٢) . ولما كان مؤلف هذه الرواية قد كتبها بعد انقضاء مائة وخمسين عاما على بعثة اخوان فيفالدى ، فانه لا مانع من الشك فى صحتها . ومع ذلك فليس من المستحيل أن يكون قد تلقى من لسان حفيد لأحد أعضاء البعثة بقايا قصة أسرية تقليدية ، ومن جهة أخرى فان روايته هذه تماثل أحد الرهبان الفرنسيسكان الاسبان الذى عاش بعد هذا الحدث بخمسين عاما على الأكثر . والمدينة التى يسميها هذا الأخير امينوان Amenouan هى بالتأكيد مدينة مينا التى ذكرها اوزوديمارى . وتبتا للطريق الذى رسمه الفرنسيسكان ، يتبين أنها واقعة فى خليج غينيا . أما بخصوص بحر الغينية Ghinoia الذى غرقت فيه السفينة الأولى ، فلا بد أن يكون هذا البحر هو الذى يغمر ساحل سينيجامبى Sénégambie ( السنغال وغمبيا ) (٦٤٣) .

ويبدو أن الشغف بالترحال الى الهند كان وراثيا فى أسرة فيفالدى . وأنشئ بهذا الاسم شركة لاستغلال التجارة مع الهند . وثمة عضوان فى الشركة ، بنديتو فيفالدى الذى رحل من جنوا فى عام ١٣١٥ على سفينة يقودها انجلينو دى مارى ، وپيرسيفالى ستانكونى Percivalle Stanconc استقر بهما المقام فى الهند ، ومات هناك فيفالدى فى

(٦٤١) انظر خطابه المحرر بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٤٥٥ فى :

— l'Itinerarium Antonii Ususmaris, publ. par Graberg di Hemso, dans les Annali di geografia e di statistica, II (Genova 1802), p. 287.

M. Codine, dans le Bulletin de la Soc. de géogr., 6<sup>e</sup> serie, V (٦٤٢) (1873), p. 414, not; M. Belgrano, dans les Atti della Soc. lig. XV (1881), p. 320.

M. d'Avezac dans les Nouv. annal. des voy., 1859, III, 279 (٦٤٢) et ss.

تاريخ سابق على عام ١٣١٢ تاركا لورثته ذهباً وبضائع ، وطلب القائم .  
 بادارة أمواله من المحكمة أن تستدعى ستانكونى الى جنوا ليتولى هناك  
 ادارة أعمال الشركة (٦٤٤) . ترى أى طريق أتبعه بنديتو فيفالدى ؟  
 هل حملته سفينة انجليتو دى مارى الى الهند بالدوران حول رأس الرجاء  
 الصالح ؟ كلا بالتأكيد : ذلك أنها أنزلته برا. اما عند الجزوات أو نطريزون ،  
 ومن هناك اجتاز فارس حتى هرمز حيث ركب البحر ثانية .

ونعرف أن امبراطورية التتار كانت مفتوحة لكل الأوروبيين ، وأن  
 عددا كبيرا منهم استفادوا من حرية التنقل هذه (٦٤٥) ، فى حين أن  
 العقوبات التى كانت تقيمها حكومة مصر فى وجه المسافرين كانت تسد  
 لهم هذا الطريق ، فلم يجازف بسلوكة خفية ، من حين الى حين الا عدد  
 قليل من الأشخاص . ولم يذكر أحد المكان الذى أقام فيه فى الهند  
 فيفالدى وستانكونى مقر عملياتهم التجارية . وفى هذا العصر لم يكن  
 الأجانب قد نفذوا الى داخل البلد ، ومن ثم فانه بافتراض وجود حركة  
 تجارية ، أو ثبوت قيامها بين الهنود والأوروبيين ، فاننا اذا أردنا تحديد  
 الأماكن التى كانت المبادلات تجرى فيها بصورة مباشرة ، فان أبحاثنا  
 فى هذا الصدد يمكن ، بل ويجب أن تقتصر على سواحل الهند ذاتها .

ولتبسيط الموضوع ، نقسم هذا الامتداد الساحلى الى ثلاثة أجزاء .  
 فالجزء الأول يمتد من مصاب نهر الاندوس ( السند ) الى مدينة جوا  
 Goa الحالية ، ويمتد الثانى من جوا الى رأس كمورن Comorin ،  
 والثالث من رأس كمورن الى الشمال صاعدا ساحل كرماندل Coromandel

فى المنطقة الأولى نصادف أولا بعد ديبال Dayba:  
 القديمة المشهورة (٦٤٦) مدينة لاهارى Lahary الأحدث عهدا  
 (وهى حاليا لارى بندر Larry Bendër) ، وهى ميناء كبير تانى  
 اليه السفن التجارية من اليمن وفارس (٦٤٧) . وفى شبه جزيرة  
 جوجارات Goudjerate احتفظت مدينة سومنات Somnath وكانت

M. Belgrano, dans l'Archiv. stor. ital., 3 série, II, 127, et (٦٤٤)  
 dans son étude : Della vita privata dei Genovesi (Atti della Soc. Ligur.,  
 IV, 185).

Sanut., Secr. fidel. cruc., p. 23; Petr. de Abano, Conciliator (٦٤٥)  
 differentiarum, l.c. m

Aboulf., Géogr., II, 2, p. 111. (٦٤٦)

Ibn-Batouta III, 112, ; cf. Yule, dans l'Indian Antiquary, III, (٦٤٧)  
 (1874), p. 113.

قيما مضى قبلة مشهورة للحجاج - احتفظت بأهميتها التجارية ، رغم زوال  
أصنامها التي دمرها المسلمون (٦٤٨) .

الا أن الحياة التجارية تركزت بنوع خاص في خليج كامبيي  
Cambaye ، ولم يكن اسما سسوفارا Soufara ( سسوبارا  
(Souppara) ، وباروتش Barotch (باريجازا Barygaza)  
يتنميان في ذلك الآوان الى مدينتين خاملتين (٦٤٩) . وفي مواجتهما ،  
على شسبه جزيرة كانيفار Kattyvar ( جوجارات Gaudjerate)  
قامت مدينة كوكاه Koukah ( حاليا جوجو Ghogho ) بأسواقها  
الواسعة (٦٥٠) . غير أن سوق كامبيي كانت أنشط الأسواق والمخازن  
المتناثرة على ضفاف الخليج ، وكان عدد كبير من التجار الآتين الى الهند  
عن طريق هرمز يختمون عندها رحلتهم لأنهم يجدون بها كل السلع التي  
تروق لهم (٦٥١) .

فالواقع ، وبفض النظر عن منتجات النواحي المجاورة ، وفي مقدمتها  
النيلة والقطن ، ومنسوجات وجلود مصنوعة في البلدة نفسها (٦٥٢) ،  
فإن منتجات البلاد البعيدة ، والبلاد المجاورة ترد اليها بكميات هائلة  
بفضل نشاط الأهالي ، وجمالية كبيرة من التجار الأجانب . وكان المظهر  
الخارجي للمدينة يشهد بذاته عن رخائها ، إذ كان التجار الأثرياء  
يتنافسون في بناء المساكن الفاخرة (٦٥٢) . وإلى الجنوب ، على شاطئ  
جزيرة سالسيت Salsette قبالة القارة الهندية ، على بعد حوالي  
أثنى عشر ميلا انجليزيا من مدينة بومباي الحالية (٦٥٤) ، تقوم مدينة  
طانة Tana (Tanah) العاصمة القديمة لولاية كونكان Concan (٦٥٥) ،

---

Aboulf., I, c. p. 118 et s. ; M. Polo, p. 666-668. (٦٤٨)

Quétif et Echard, Script. ord. Proedic., I, 549-550 s.; Aboulf., (٦٤٩)  
I, c. p. 119; Indian Antiquary, I, 321.

Ibn-Batouta, IV, 60 et s. ; Yule, Cathay, I, 228; Giov. da (٦٥٠)  
Empoli, p. 39, 41.

Hayton, dans Grynœus, Novus orbis, p. 404 et s.; Sanuto (٦٥١)  
(Secr. fidel. cruc., p. 22).

M. Polo, p. 666. (٦٥٢)

Ibn-Batouta, IV, 53 et ss. (٦٥٣)

M. Polo, éd. Pauthier, p. 662 et ss ; Yule, Cathay, I, 57 ; notes (٦٥٤)  
à Jord. Catal., p. vi et à M. Polo, II, 331.

Albrouni, dans Reinaud, Journ asiat., 4<sup>e</sup> série, IV, p. 251. (٦٥٥)

وتنشط فيها تجارة استيراد وتصدير كبيرة ، وكانت ضواحيها تعرض الملاحين لمخاطر جمة ، اذ يقير عليها قراصنة يتمتعون خفية بحماية عامل البلد : وكان الأمر كذلك على الأقل في عصر ماركو بولو (٦٥٦) .

وكان لاسم هذه المدينة عند الغربيين ذكرى مشؤومة : ففي عام ١٣٢١ كان أربعة من الرهبان الفرنسيين متجهين الى كولام Koulam ، يعظون السكان على طول الطريق ، وهناك وقعوا في الأسر وضربت رقابهم بأمر الحاكم المسلم (٦٥٧) . وثبتت قصة استشهادهم هذه وجود غربيين مقيمين حتى في تلك البقعة غير المضيافة من الساحل : ذلك أنه حين أراد أحد أعضاء البعثة ، وقد نجا من المذبحة ، وهو الدومينيكي جوردانوس Jordanus أن يقوم بجمع جثث الشهداء ليدفنها في صوفارا Soufara ساعده في هذه المهمة شاب جنوى (٦٥٨) .

ومن الطبيعي أن نفترض أن هذا الشاب كان ينتمي الى أسرة من التجار الجنوبيين المقيمين في طانة . ولدينا بخلاف هذه الرواية خطايان من جوردانوس ، أحدهما مؤرخ من كوكاه Coga J Koukah - انظر فيما سبق ) في ١٢ من أكتوبر ٣٢١ (٦٥٩) ، والثاني من طانة في ٢٠ من يناير ١٣٢٤ (٦٦٠) . فهو يحكى في الخطاب الأول قصة موت رفاقه ، ويقدم تقريرا عن أعمال البعثة التي سيضطلع بها وحده ، ويضيف أن من المكان الذي يكتب فيه يستطيع المبشرون الكاثوليك أن يذهبوا الى أيوبيا دون مشقة ، ويقول انه عرف ذلك من بعض التجار اللاتينيين الذين كان على صلة بهم .

وهكذا كان هناك في حوالى عام ١٣٢٠ فى الموانئ القائمة حول خليج كامبى جالية من التجار الغربيين القليلي العدد فى الواقع : وكانت المعلومات التى أبلغها المستوطنون الى جوردانوس مستقاة من مصادر

---

M. Polo, p. 662 et ss.; Aboulf., Géogr., II, 2, p. 118; Aderjco (٦٥٦) da Pordenone, p. v.

MM, Kunstmann, dans les Historisch-politische Blätter,, (٦٥٧) XXXVII (1850), p. 28-36, et, Yule, dans son Cathay ; Germany, Die Kirche der Thomas-christen, p. 186 et ss.

Voyez la lettre du Pisan Franciscus, dans Wadding, (٦٥٨) Annal. ord. minor, a.a. 1321, no. 1.

Quétif et Echard, Script ord. proedic., I, 549 et s. (٦٥٩)

Wadding, Annal., VI, 359-361. (٦٦٠)

صحيحة ، لأن المدن التي يقطنون بها كان لها علاقات كثيرة بعدن (٦٦١) .  
 ولا يفصل هذا الميناء عن الساحل الشرقي الأفريقي الا ذراع ضيق من  
 البحر ، لاختيار بحارة للسفن التجارية القاصدة الى الهند ، كان التجار  
 الغربيون يفضلون المحاربين الأحباش الذين كان وجودهم على متن السفن  
 يثير الرعب في نفوس القراصنة (٦٦٢) . وقبل الفراغ من هذه الواقعة  
 في قصة الأرساليات في الهند ، نود أن نذكر أيضا قصة معجزة صغيرة  
 تتصل بها . تحكى القصة أن تاجرا بيزيا يدعى « جوانينوس »  
 « Joanius filius Hugolini Pisani » كان في حوزته رأس أحد شهداء  
 طائفة ، وأنه بفضل هذا الأثر نجا من أيدي بعض القراصنة (٦٦٣) .  
 ومهما كان مقدار ما في هذه الحكاية الغربية من ابتكار ، فالحقيقة  
 بالنسبة إلينا أنه في القرن الرابع عشر كان في المستطاع ادخال تاجر  
 بيزي يرتحل في بحار الهند في سياق قصة ما دون استشارة سخريية  
 القارئ المتشكك .

أما المنطقة الثانية المحصورة بين جوا ورأس كومورن (٦٦٤) فإنها  
 تقابل إقليم ملبار Malabar ولا نقصد بهذه التسمية الاقليم الحالي  
 الذي يحمل هذا الاسم ، ولكننا نقصد المنطقة الأكثر اتساعا التي أطلق  
 عليها هذا الاسم الجغرافيون العرب في ذاك العصر (٦٦٥) . وأشهر المدن  
 الساحلية بنشاطها التجاري في هذا القسم كانت هينور Hinaur  
 (حاليا هونور (Honore) ) (٦٦٦) ، ومنجالور Mangalore (٦٦٧) ،  
 وهيلى Hili ، أو ايلي Eli ، وقد زالت الآن من الوجود ،  
 ويتحدد موقعها بالجبل الذي يرى من بعد ، ويشكل رعن جبل «مونت ديلي»  
 Mount Dely (٦٦٨) ، جورفاتان Djorfattan ، وهي غالباً

- 
- |  |       |
|--|-------|
| Ibn-Batouta, II, 177.  | (٦٦١) |
| Ibn-Batouta, II, 60.   | (٦٦٢) |
| Wadding, Annal. ord. min., VI, 3f9.  | (٦٦٣) |
| M. Yule, dans l'Indain Antiquary, II (1974), p. 209 et s.  | (٦٦٤) |
| Aboulf., Géogr., II, 2, p. 115 et s.; Rachid-eddin, dans<br>Elliot, History of India, I, 68 Ibn-Batouta, IV, 71; cf. Yule, Cathay, II,<br>450; Yule, M. Polo, II, 326. | (٦٦٥) |
| Ibn-Batouta, IV, 65 et ss. (Aboulf., l.c., p. 115)   | (٦٦٦) |
| Ibn-Batouta, IV, 79 et s.  | (٦٦٧) |
| Rachid-eddin, Op. cit.,; Ibn-Batouta, IV, 81, M. Polo, p. 647<br>et ss.; Yule, M. Polo, II, 321 et s.; Cathay, II, 451 et s.; Ind.<br>Antiq., l.c., p. 209.            | (٦٦٨) |

« كانانور » Cananore فى العصور اللاحقة (٦٦٩) ، وبودفاتان Bodfattan ، وفاندارينا Fandaraina الواقعتان بين كانانور ، وكاليكوت Calicut (٦٧٠) لم يعد لهما أثر اليوم ، ثم كاليكوت نفسها ، وأخيرا كولام Coulam (كويلون Quilon) .

كانت هذه النواحي كلها على اتصال ببلاد ماوراء البحار ، اما بوساطة سفنها الخاصة ، واما بوساطة التجار الأجانب الذين يزورونها . ولا محل للدهشة من هذا العدد الكبير من الأماكن التجارية اذا فكرنا فى أن ملبار كانت هى البلد الأصلى لحاصلات الهند الطبيعية المطلوبة بكثرة فى الخارج . وكان الفلفل ، وهو أهم هذه الحاصلات ، يملا وحده عددا كبيرا من السفن . نضيف أيضا الزنجبيل والقرفة ، والهال ( الحبهان ) ، والنييلة ، وشسجر البقم ، وبهذا لم نذكر سوى جزء من الحاصلات الرئيسية لهذا البلد السعيد . وكانت الموانئ والثغور الكثيرة العدد على الساحل تهيىء للسفن كل التسهيلات حتى تاتى اليها وتأخذ ثمة شحنتها بالقرب من المزارع ، وتجد فى كل الأنحاء أهالى أو مستوطنين يمارسون التجارة ويقومون لهم بدور الوسطاء .

وليس علينا أن نهتم هاهنا الا بملاحظات التجار الغربيين بأقليم ملبار . فبالنسبة اليهم لم تكن الموانئ التى أسلفنا ذكرها على درجة واحدة من الأهمية . ولما كان التجار الغربيون يأتون جميعا على وجه التقريب عن طريق فارس ، فمن المؤكد أنهم يفضلون التردد على مدن الهند المتصلة بهذا البلد ( أى فارس ) بطرق ملاحية ، يذكر منها ابن بطوطة بنوع خاص منجالور وكاليكوت (٦٧١) . وكانت منجالور وقتئذ من أعظم مدن ملبار (٦٧٢) ، اما كاليكوت ، فاذا لم يكن ماركو بولو ، والخريطة القطالونية قد ذكراها ، فلا يجوز أن نستخلص من ذلك أنها لم تكن ذات أهمية ، ذلك لأن ابن بطوطة يقول صراحة أنه كان يتردد عليها سفن من كل البلاد ، وكانت ترسل سفنا الى الخارج (٦٧٣) .

Ibn Batuta, IV, cf. Yule, Cathay, II, 453. (٦٦٩)

Ibn Batouta, IV 87, 88 ; Yule, Cathay, II 253 et s. ; (٦٧٠)  
I, 75; l'Indian Antiquary, p. 210.

- لا بد أن فاندارينا كانت واقعة على بعد عشرين ميلا انجليزيا تقريبا شمالى كلكتا .

IV, 80, 89. (٦٧١)

Aboulf., l.c., p. 116. (٦٧٢)



وتقول ، حتى نكون صادقين . أن تردد الغربيين على هذين الميناءين في القرن الرابع عشر أمر محتمل ، ولكننا لاندكره الا بطريق الاستنتاج .  
والأمر على خلاف ذلك تماما فيما يختص بكولام : فهذه المدينة الواقعة في أقصى الجنوب من بلاد الفلفل (٦٧٤) ، كانت تجذب إليها أنظار العالم المسيحي الغربي ، نظرا الى أن قسما من سكانها كان منذ قديم الأزل قد اعتنق الدين المسيحي . وكان المسيحيون التومانيون ( الذين ينتسبون الى نظرية توما الاكويني اللاهوتية - المترجم ) ، أو الناصريون (٦٧٥) يشكلون ثمة عنصرا ممتازا يعتمد عليهم المبشرون في تثبيت أقدامهم بالبلد ، والتقدم به .

وفي عام ١٣٢٩ ، أنشأ البابا يوحنا الثالث والعشرون أسقفية بمدينة كولام ، وعين اسقفا بها الراهب الدومينيكاني جوردانوس كاتالاني Jordanus Cathalani وسلمه خطابات توصية متنوعة . من بينها ما هو موجه الى ملكي كولام ودليل (٦٧٦) . واستلم جوردانوس مهام منصبه بعد عام ١٣٣٠ بقليل ؟ وحين اضطر بعد بضع سنين أن يتخلى عن مهمته ، حل محله لفترة ما الراهب المتأمل ( المتأملون ، طائفة من رهبان القديس فرنسيس - المترجم ) يوحنا مارنيولا Marignola الذي أقام بكولام أكثر من سنة بقليل بعد عودته من الصين ( غالبا من ١٣٤٨ الى ١٣٤٩ ) (٦٧٧) . ومع أن الكنيسة الرومانية لم تنجح في تثبيت دعائم الارساليات بصفة دائمة في هذه المدينة ، فان الارساليات تركت بالمدينة آثارا تشهد بمرورها بها . فقد شوهد هناك لزمان طويل كنيسة كاثوليكية شبيها دون شك جوردانوس (٦٧٨) ، وكانت هذه الكنيسة تجتذب إليها التجار الغربيين .



- IV, 89; II, 177, 196. (٦٧٣)  
Aboull., l.c., p. 116. (٦٧٤)  
Giov. da Empoli dans Ramus., I, 146; Germann, Dje Kirche der Thomaschristen, p. 205. (٦٧٥)  
Archiv. de l'Or lat., I, 275-278. (٦٧٦)  
Kunstmann, Die Mission in Columbo (Hist.-polit. Bl., XXXVII, 135 et ss.); Germann, Op. cit., p. 210 et ss.; M. Yule (Cathay, I, 71 et s.) (٦٧٧)  
- أثبت السيد يول Yule بصورة قاطعة أن كولير Colombo هي كولام Koulam (٦٧٨)  
Marignola, dans Dobn., p. 89.

ولكن هؤلاء التجار كانوا فضلا عن ذلك مدفوعين بالرغبة في عقد صفقات تجارية مع المسيحيين التوميين ، وكان على كل تاجر ، سواء أراد ذلك أم لم يرد ، أن يتعامل معهم : ذلك لأنه بمقتضى امتياز قديم ، كان لرؤساء هذه الجالية التي أطلق عليها مارتويلا اسم « موديليال » Modilial (٦٧٩) الاختصاص في المحافظة على الوزن القانوني Statara المستعمل في مبيعات ومشتروات الفلفل ، وبعمامة كل التوابل والعمور ، وسماهم مارتويلا لهذا السبب « سادة الفلفل » ، ولا يقصد بذلك فقط أنهم يمتلكون كل مزارع الفلفل في أرباض المدينة ، ولكن أن أى انسان لا يستطيع أن يبيع مثقالا من الفلفل دون أن يتعامل معهم ، ويدفع لهم أتاوة فى صورة رسم عن الوزن (٦٨٠) .

ومن المسلم به أن من بين الأسباب التي تحمل الغربيين على التردد على كولام ، لا تعد الأسباب التي ذكرناها آنفا الا فى المرتبة الثانية ، أما مايشكل الجاذبية الأساسية لهذه السوق ، فهو الكمية الهائلة ، والتنوع غير العادى للسلع التي تضى على السوق الفاخرة روعة خاصة (٦٨١) . وقد بالغ مارتويلا بالتأكيد حين زعم أن كل الفلفل المنتشر فى جميع أنحاء العالم يرد من هناك ، ولكن الحقيقة أن الفلفل كان يزرع بهذا البلد بالجملة ، وأن المحصول هناك جيد (٦٨٢) . وأعطت كولام اسمها لأزكى أنواع شجر اليقم والزنجبيل (٦٨٣) . وفضلا عن ذلك كان الصينيون يجلبون إليها من الصين والهند الصينية سلعا نادرة سوف نتحدث عنها .

قلنا ان هذا السوق كان يتردد عليه تجار غربيون ، ونحن نملك فى هذا الخصوص شهادة اثنين من الرحالة : الانجليزى موندويل Maundeville الذى تشمل روايته ، بين حكايات خرافية بنوع ما أكثر من معلومة حقيقية ، وهو يؤكد أن البنادقة كانوا يذهبون كثيرا الى

---

(٦٧٩) الأول من باللغة التامولية اسم عشيرة المزارعين فى فيلال Vellals وعشائر اخرى .  
Mouthell, mouthelljar  
— Note de M. Germann Op. cit. p. 212.

(٦٨٠) M. Yule (Cathay, II, 343); Marginola (p. 89, 111, 113); Le Journale de Madras, XIII, 2, 1834, p. 119; Yule, l.c., II, 378; Germann, Op. cit., p. 232.

Ibn-Batouta, IV, 99. (٦٨١)

Marignola, p. 88; Oderico da Pordenone, p. xi. (٦٨٢)

(٦٨٣) سوف نتكلم عن ذلك فى الفصل الخاص بالسلع التجارية .

هناك للحصول على لفلل وزنجبيل (٦٨٤) . أما ماريولا فانه يقدم بطريقة غير مباشرة شخصا جنوبيا ، تنقل في هذا البلد . هذا المبشر يقصد ماريولا ) كان في كولام ، حيث عقد صلات مع مندوكي وقع ذات يوم أسيرا في أيدي بعض القراصنة الذين باعوه الى شخص جنوي ، فاعتنق المسيحية على يدي سيده .

وأما المنطقة الثالثة فانها تبدأ من رأس كومورن ، وتقابل على وجه التقريب الاقليم الذي سماه الجغرافيون العرب ماأبار Maabar وسماه الجغرافيون المحدثون كروماندل . قلنا سابقا أن ماأبار كانت تتلقى من الخليج الفارسي ، وبخاصة من جزيرة قيثن شحنات هائلة من الخيول ، وأن هذه التجارة كانت منظمة بمعاهدات مبرمة بين ملوك هذين البلدين . وكانت السفن المخصصة لهذا الغرض تنزل حمولتها عند ماأبار في ميناء كاييل Cail (cael) (٦٨٥) . وفي وقتنا الحاضر لا تصل أية سفينة الى الموضع الذي كانت تقوم عليه هذه المدينة ، أما أطلالها التي لم تزل تحمل اسم « كاييل القديمة » ، Vieux-Kayl فانها تشاهد في داخل الأراضى على بعد ميل ونصف من مصب نهر تمراپارني Tamraparni بمقاطعة تنفيللي Tinnevely (٦٨٦) .

ويقول ماركو بولو ان ميناء كاييل لم يكن يتلقى خيولا فحسب . فقد كان يرد اليه ويفرغ به منتجات أخرى من بلاد العرب وفارس وتجري هناك حركة تجارية كبيرة . وأسهمت مجاورات مصايد اللؤلؤ في خليج منار Manar في اضعاف حركة نشيطة على هذا السوق . فهل كان يصل من وقت لآخر الى كاييل بعض التجار الغربيين على مثل سفن فارسية ؟ ليس في وسعنا أن نثبت ذلك ، ولكن ليس في هذا ما يخالف الحقيقة . وعلى أية حال فان كل الذين يملكون بالهند للذهب الى الصين كانوا يتوقفون في طريقهم عند ساحل كروماندل ، ويزورون بعض المواقع الرئيسية ، مثل مزار مليابور Méliapour ( بالقرب من مدراس ) ( ٦٨٧ ) ، وبه قبر القديس توماس S. Thomas ، وسوق الماس في موتفيللي Mouffili ( موتوبال Motoupalle في الجنوب الغربي

M. Yule (Cathay, I, 72); Maundeville (Lond, 1727) (٦٨٤)

M. Polo, p. 641. (٦٨٥)

Yule, M. Polo, II, 307 et ss. (٦٨٦)

(٦٨٧) يقول ماركو بولو ان عدد التجار الذين يزورون هذه الناحية الصغيرة قليل جدا

M. Polo, p. 622 et ss.

من مازوليباتام (Masoulipatam) (٦٨٨) ، وهاتان المدينتان موضحتان على الخريطة القطلونية باسمى ميراپور Mirapor ، وبوتيفيليس Butifilis (٦٨٩) . ولن نتابع المسافرين الى ابعد من ذلك فى رحلاتهم البحرية عبر خليج البنغال ، الى سواحل الهند الصينية وجزرها ، ذلك لانه لا يبردى لوكانجسو Pierre de Lucalongo ولا أى من التجار الآخريين الذين ارتحلوا الى الصين بطريق البحر فى الفترة التى ندرسها قد ترك لنا أية رواية فى هذا الخصوص .

واذ رأى الكثيرون أنهم يجدون فى الهند منتجات الصين ، فانهم وفروا على أنفسهم مشقة القيام بهذه الرحلة . ويقابل أعظم عصر للأسرة المغولية فى أواخر القرن الثالث عشر ومستهل الرابع عشر عهدا من العلاقات السياسية والتجارة النشيطة بين الصين والهند .

وأراد قبلاى خان الأكبر أن يعترف أمراء سواحل الهند بسيادته ، ونجح فى ذلك . وجرى تبادل السفراء ، فذهب بعضهم باسم الخان الأكبر يندزون الأمراء أن يخضعوا ، ومضى البعض الآخر يقدمون للخان ولاء وهدايا أمراء مآبار وكولام وغيرهما من بلاد الهند (٦٩٠) . ومن ذلك الحين صار فى وسع التجار الصينيين أن يذهبوا الى الهند دون خوف من أن يضايقهم أحد هناك ، واستغلوا هذه الظروف الملائمة فجمعوا يرسلون اليها عددا كبيرا من المراكب الخيزرانية .

وسوف نرى حين نتكلم عن الصين بنوع خاص أى الموانئ تخرج منها هذه السفن . وليس علينا الآن الا أن نبحث عن الأقاليم والمدن الهندية التى كانت تزورها هذه السفن . يقول رشيد الدين ، ووصاف ان « السفن التجارية الكبيرة الصينية » تدخل عادة موانئ مآبار ، ومن الطبيعى أن نفكر أولا فى موانئ دلتا كافيرى Kaveri ( نيجاباتام Negapatam ، كافيريپاتام Kaveripatam ) : ذلك لأن هؤلاء المؤرخين والجغرافيين حين يتحدثون عن « مملكة » مآبار ، لا يقصدون القطر كله الذى تطلق عليه هذه التسمية ، ولكن فقط الاقليم التابع للأمراء أسرة بانديا Pandya ، ويقع مركزه فى سهول تنجور Tangore

M. Polo, p. 627 et ss.; Yule, M. Polo, II, 297. (٦٨٨)

Carte catal., p. 136. (٦٨٩)

Fauthier, M. Polo, p. 603 et ss., 643; Yule, M. Polo, II, 273. (٦٩٠)  
314 et s.

ففى عام ١٣٠٠ كانت هذه المملكة يحكمها وزير قوى ، هو العربى تقى الدين عبد الرحمن ، وكان له الحق فى أن يختار بوساطة وكلائه وعملائه ، قبل أى شخص آخر مايشاء من البضائع التى تحضرها السفن الصينية ، وبعد أن يقوم هؤلاء بتفتيش السفن واجراء الاختيار ، يصرح للتجار باجراء مشترواتهم . أما البضائع التى لا يأخذها هؤلاء فانها تنقل الى قيش على متن السفن التى كانت قد أحضرت الخيول وبقيت تنتظر الفرصة لتسحن لبضائع عند عودتها (٦٩١) .

وكانت السفن « الخيزرانية » الصينية تلبف أيضا حول رأس كمورن وتمضى الى موانئ ملبار حاملة بضائعها ، من حرير خام ، واقمشة حريرية ، وديباج ، وذهب وفضة ونحاس ، وخشب الصندل ، وكبش القرنفل وغير ذلك من التوابل النفيسة . ونشير بنوع خاص الى وجود كبش القرنفل بين السلع التى تشكل حمولة السفن الصينية : ذلك أن ماركو بولو (٦٩٢) هو الذى نوه بهذه الواقعة الهامة لأنها تدل على أن هذه السفن ، بعد أن تأخذ فى الصين جزءا من حمولتها من كبش القرنفل ، تكمل الحمولة فى الهند الصينية .

والواقع أنها فى طريقها تحاذى سواحل شبه الجزيرة ، ثم جزيرتى جاوة وسومطرة ، وتجد فى كل مكان موادا تباع بسهولة فى الهند نفسها ، واكتفى هنا بذكر الصبر ، وشجر البقم ، واللك ، والكافور ، وجذور الخولجان ( نبات طبي من الفصيلة الزنجبيلية - المترجم ) ، ثم الحاصلات التى تصدرها الجزر الصغيرة الى أسواق جاوة وسومطرة (٦٩٣) ، وبخاصة القرنفل ، وجوز الطيب ، وخشب الصندل . ويمكن القول بأن المواصلات بين الهند الصينية والهند كانت بأكملها فى أيدي تجار صينيين ، وكانت على الأقل تجرى بوساطة السفن الصينية وحدها . وبالفعل أشير الى وجود تجار جاويين فى كالكت مثلا (٦٩٤) ، فى حين لايعرف مثال واحد لسفن من الهند الصينية تحمل بضائع الى الهند .

وكانت السفن الخيزرانية الصينية تسحن عند عودتها بالعاقير.

Elliot, History of India, I, 69; III, 32, 35 et les commentaires (٦٩١)  
de Yule, M. Polo, II, 269 et ss.

M. Polo, p. 654. (٦٩٢)

M. Polo, p. 561; 567; Carte catal., p. 137; Ibn-Batouta, IV, 228 et s., 240 et ss. (٦٩٣)

Ibn-Batouta, IV, 89. (٦٩٤)

الهندية ، وبخاصة الغفل ، وبالنسبة الى هذه المادة التي سماها ماركو بول « الأفاويه الكبيرة » ، كان الصينيون هم أكبر المشتريين بالجملة لها ، ويدفعون أكبر ثمن في شرائها ، ولذلك كان يصدر منها الى الصين كميات تزيد عشر مرات على ما يصدر الى عدن ثم الى الغرب (٦٩٥) .

ومن بين مدن ملبار ، كانت كولام أقربها الى الصينيين ، ويترددون عليها أكثر من غيرها (٦٩٦) . وهناك وجد المبشر اودريكو دابورديوني Oderico da Pordenone سفينة خيزرائية أقلته الى الصين ، وكانت تحمل قرابة سبعمائة مسافر ، منهم عدد كبير من التجار (٦٩٧) . وحين اعتزم ابن بطوطة القيام بهذه الرحلة ، كان في كالكت ٠٠ ولما كان هذا الميناء يتردد عليه الصينيون بكثرة ، كان عليه أن يختار بين ثلاث عشرة سفينة خيزرائية (٦٩٨) . ومع ذلك ففي فصل الأمطار ترسو السفن الصينية غالبا عند فندارينا Fandaraina (٦٩٩) ، وتذكر بعض المصادر الصينية فانتالينا Fantalaina باعتبارها مدينة ساحلية لها علاقات بتجار الجملة بالبلد (٧٠٠) . وأخيرا ، كانت السفن الصينية ترسو أيضا عند هيلي Hili ( مونت ديلي Mount Dely ) ، وهي أقصى بقعة متقدمة الى الشمال يتسنى لنا أن نتتبع السفن اليها ، ولم تكن السفن تقيم بها الا زمنا قصيرا بسبب رداءة قاع الرسو (٧٠١) .

وهكذا كان أكتجاز الغرييون ، عند وصولهم الى الهند يلتقون هناك بصينيين ومعهم منتجات بلدهم ومجموعات الجزر المتناثرة على طول طريقهم ، وكثيرا ما كانوا يتصلون هناك بالمسلمين الذين كان يوجد جماعات منهم في كل مدينة تقريبا من مدن السواحل . فمئذ عصر فتوحاتهم الأولى في حوض الاندوس ( السند ) استمرت قوتهم السياسية في الإزدياد في شبه الجزيرة . وفي الحقيقة كانت أقوى الولايات

- 
- M, Polo, p. 654; cf. p. 581. (٦٩٥) .  
 Ibn-Batouta, IV, 100; M Polo, p. 644. (٦٩٦)  
 Yule, Cathay, II, append., p. XII. (٦٩٧)  
 Ibn-Batouta, IV, 89 et ss. (٦٩٨)  
 Ibid, IV, 88, 96. (٦٩٩)  
 (٧٠٠) التاريخ الرسمي للأسرة الحاكمة المغولية ، سنة ١٢٩٦ :  
 — Pauthier, M. Polo, p. 582.  
 M, Polo, p. 649; Ibn-Batouta, IV, 81. (٧٠١)

الخاضعة لسلطانهم ، امبراطورية سلاطين دلهى دولة قارية قبل كل شيء ،  
 وكانت البقاع الساحلية التى يتجه اليها التيار التجارى بقوة ونشاط  
 خارج سيادتها ، ولا تهم هذه الدولة الساحل الغربى الا عن طريق  
 السند والجوجرات . حقا ، كان فى هذا القطاع ( منذ عام ١٢٩٨ ) مدينة  
 كامبى العظيمة الأهمية التى كان غالبية تجارها الأثرياء يعتقدون  
 الاسلام . ولكن ابتداء من هذه المدينة حتى الطرف الجنوبى لشبه  
 الجزيرة ، تتتابع سلسلة من الامارات الصغيرة التى يحكمها مہراجات  
 ينتمى معظمهم للجنسية والديانة الهندوكية . ومن الصواب الافتراض  
 بأن فى هذه الامارات المستقلة كان العنصر الوطنى هو السائد فى عالم  
 التجارة ، وفى سائر الطبقات .

وبخصوص مملكة لار Lar الواقعة فى المنطقة الموجودة بها  
 بمباى الحالية ، ذكر ماركو بولو (٧٠٢) أسماء بعض التجار الوطنيين من  
 الجنسية الهندوكية ، والعجيب أنه يصفهم بأنهم برهميين  
 Abrahims ، ويعزز قوله هذا بذكر تفاصيل خاصة بأسلوب  
 معيشتهم . ومع ذلك فالمعروف أن البرهميين لا يمكن أن يشتغلوا بالتجارة  
 الا بنوع استثنائى ، وبالمخالفة لقانون طائفتهم الصارم . ومن الجائز  
 الاعتقاد بأن الناس الذين يتحدث عنهم ماركو بولو كانوا مجرد «بانيان»  
 Banians ( هندو براهمة ) عرفوا بنوع خاص بأنهم تجار ، وقد  
 اختلط به الأمر فنسب اليهم اسم البراهمة وعاداتهم . ومن حيث المسألة  
 التى تشغلنا ، لا يهمنى كثيرا أن نعرف ما اذا كان هؤلاء القوم من البراهمة  
 أو البانيان . ومن ناحية أخرى ، يميز ابن بطوطة ، فى جماعة التجار  
 فى كولام بين المسلمين ، والصينيين ، والسولى Soulis ، ويقول ان  
 الأخيرين كانت لهم مكانة خاصة بسبب ثرائهم ، ولم يكن من النادر أن  
 يستطيع أحدهم أن يشتري وحده سفينة ويجهزها (٧٠٣) . ويذكرنا  
 اسم سولى Soulis باسم تشولا Tchola وهى المملكة القديمة فى  
 الجزء الجنوبى من ساحل كرماندل ( مايار ) . ومن الجائز أن يكون  
 التجار من أهالى المدينة نفسها أقلية فيها ، وأن العدد الأكبر منهم أجانب  
 من أهالى مملكة تشولا المجاورة (٧٠٤) . ومهما كان الأمر ، فان كان

P. 634 et ss. et remarques de M. Pauthier : Yule, M. Polo, (٧٠٢)  
 II, 802 et s.

IV. 99 et s. (٧٠٣)

Ed. Pauthier, p. 634 et s., not., éd. Yule, II, 299, 303. (٧٠٤)

بعض التجار الهندوس يبلغون هنا وهناك مكانة مرموقة ، فذلك لا يمنع من أن الدور الرئيسي يقوم به المسلمون . وفي كل لحظة يصل قادمون جدد يدعمون مستوطناتهم القديمة .

وإذا كان الهندوس يتحاشون أى احتكاك مباشر معهم ، فانهم كانوا مع ذلك يحترزون من مضايقتهم ، إذ كان من مصلحتهم ألا يثيروا غضب سلاطين دلهي المقاتلين الأشداء ، وألا يجعلوا من مسلمي فارس وبلاد العرب ومصر أعداء لهم ، إذ كان هؤلاء عملاء لهم قيمتهم في تصريف القسم الأكبر من المنتجات الأهلية (٧٠٥) . وقد أحصى ابن بطوطة في منجالبور قرابة أربعة آلاف من اخوانه في الدين . وفي فندينا كان هؤلاء يشكلون سكان ثلاثة أحياء ، بكل حي مسجده ، وفي كالكت وكولام كان تقسم كبير من طبقة التجار ، وكثير منهم من الأعيان ، يتكون من المسلمين (٧٠٦) . ولن أذكر شيئا عن المدن الأقل أهمية حتى لا أتوقف طويلا عند هذه النقطة .

وكان في وسعي أن أختتم هنا هذا الفصل ، لو لم يخطر لي أن من الأهمية مناقشة فقرة في قرارات مجلس شيوخ البندقية (٧٠٧) استند إليها السيدان رومانين Romanin وبرشيه Berchet (٧٠٨) ليؤكدوا وجود قنصلية فينسية في سيام ( بالهند الصينية ) في أواخر القرن الرابع عشر ، وبالتالي وجود مستوطنة تجارية فينيسية . فعلمنا يقوم هذا التأكيد ؟ لقد تلقى مجلس الشيوخ التماسا من نيكولا بريداني Nicc. Bredani القنصل في سيام ، يطلب فيه إعفاءه عن منصبه بدعى أنه بقي فيه أكثر من المدة المقررة قانونا ، وفي ظروف عسيرة بنوع خاص . ويمكن تلخيص مرسوم مجلس الشيوخ في بضعة سطور : بقرار في ٢٩ من يناير ١٣٩١ ( وفي الوثيقة عام ١٣٩٠ حسب الترتيم القديم ) يقبل ( المجلس ) استقالة بريداني بالنظر الى الأضرابات

Ibn-Batouta, IV, 72, 75, 100.

(٧-٥)

Boddfathan - يبدو أن برامة بودلافان

لم يكونوا يطبقون وجود المسلمين في المدينة :

(dans Kosmas, v. Journal asiat, 4<sup>e</sup> serie, VIII, 155 ; Yule, Cathay, II, 453).

انظر : ابن بطوطة ، الجزء الرابع ، ٨٧ ، إلا أن هذا استثناء وحيد على ساحل ملبار .

Ibn-Batouta, IV, 80, 88 et s., 100.

(٧-٦)

Senato Misti, XLI fol. 124 v. (177 v.)

(٧-٧)

Storia di Venezia, III, 340.

(٧-٨)



إلتي تسود هذا البلد ، لكن بشرط أن يجمع القنصل مجلسه قبل رحيله ، ويجرى انتخاب نائب قنصل حتى لا يبقى المنصب شاغرا .

يستند السيد بيرشيه الى هذا النص فيزعم أن بريداني كان بالفعل قنصلا فى سيام ، ويوضح ذلك قيذكر الرحلات التي قام بها بعض البيريين الى الهند عن طريق مصر (١١٧٥) والعلاقات التي وثقها الايطاليون فى غضون النصف الأول من القرن الرابع عشر عن طريق البر والبحر ، حتى فى الصين ، البلد الأبعد كثيرا من الهند . وقد أوضحت فيما قبل أن رحلات البيريين هذه فى الهند لم تزل فى حاجة الى اثبات صحيح . والمؤكد أن عددا كبيرا من الايطاليين كان يتاجر مع الصين ، ولكن يمكن اثبات أن هذه التجارة لم تستمر مدة كافية ليتمكن أن نستنتج منها وجود قنصلية فينيسية فى سيام فى أواخر القرن الرابع عشر ، ولا نجد فضلا عن ذلك كلثة واحدة تدل على أن ثمة رحالة قاصدين الى الصين قد توقفوا فى طريقهم فى الهند الصينية (٧٠٩) وقابلوا هناك مواطنين لهم .

ومن جهة أخرى ، فإن الروايات التاريخية كلها تنفق على القول بأنه قبل وصول البرتغاليين لم يؤسس الغربيون هناك أية مستوطنة . باختصار ، يصطدم الاثبات بصعوبات يتعذر تذليلها . ولكننا نرى فى فهرست سجلات Misti الذى يشتمل على المرسوم السابق ذكره أن المرسوم قد وضع تحت عنوان « قبرص ، أرمينيا ، سورية ، Cypro, Armenia, Syria ، وهذا ينقلنا الى طريق آخر .

فالمعروف أن اسم « سورية » وعاصمتها دمشق هو « الشام » Cham (٧١٠) ، وقد انتقل هذا الاسم الى اللغة الدارجة عند القريريين . وقد أوردت قبلا فى هذا الخصوص فقرات من سانوتو الأكبر وبيجولوتى ، ولدينا أمثلة عديدة من ترجمات لوثائق أمينية وعربية ، ترك فيها المترجمون هذه الكلمة كما هى ، لأنهم واقفون من أن قراءهم يفهمونها (٧١١) . وعلى هذا فليس من المستغرب أن يكون هذا الاسم قد انزلق فى صورته الشرقية فى بعض السجلات الرسمية الفينيسية بدلا من الأسماء المعتادة : « سيريا Siria » ، و « داماسكو

(٧٠٩) وبخاصة فى سيام الموجودة خارج الطريق .

Amari, Dipl. arab. p. 431.

(٧١٠)

Cf. Layglois, Trésor, p. 181., au lieu de «Jusem), il faut «Ire» in Sem».

أؤكد اذن أن بريداني كان قنصلا في دمشق ، أما السيد يرشيه فيؤكد أن هذا مستحيل ، ويعطى لذلك سببين . الأول أن هذا المنصب لا يمكن أن يشغله الا أحد النبلاء ، وأن أفراد آل بريداني قد استبعدوا من طبقة النبلاء ، ولم يعادوا اليها الا في عام ١٣٨٥ . وقده عزز بريداني طلبه في عام ١٣٩٠ على أساس أنه بقي في منصبه زمنا طويلا بعد المدة القانونية ، وكانت المدة المعتادة لشغل هذا المنصب هي ثلاث سنوات ، ومن ثم فلا بد أنه تقلد المنصب قبل عام ١٣٨٥ ، ولكن لم يكن في وسع أي فرد من أسرة بريداني في ذلك الحين أن يعين قنصلا في دمشق لأنه لم يكن وقتئذ من النبلاء .

إزاء هذا الاعتراض ، اليكم ردى : بالنظر الى النظام الذى كانت تتبعه حكومة البندقية عادة في استبدال القناصل ، فان حالة قنصل ترك في منصبه سنة أو حتى ستة شهور فقط بعد انقضاء فترة الثلاث السنوات هي حالة استثنائية : اذن فليس ثمة ما يجبرنا على ارجاع تعيين بريداني الى ما قبل عام ١٣٨٦ ، وفي هذا التاريخ كان حائزا بالفعل للشروط المطلوبة . ولكن السيد يرشيه يقدم دليلا آخر يبدو في الظاهر أكثر اقناعا . يقول انه في عام ١٣٩٠ كان قنصل البندقية في سورية يدعى جيوفاني موروسيني Giovanni Morosini . ولكن برجوعى الى قائمة الأشخاص الذين شغلوا على التوالي هذا المنصب ، وهي قائمة حررها السيد يرشيه نفسه ( ص ٥٥ ) دهشت اذ تبين لى أن اسم موروسيني لا وجود له بالمرّة : فقد قرأت في القائمة : ١٣٨٤ Franc Foscolo ، ١٣٨٦ Giov. Mocenigo ، ١٤٠٥ Franc Foscarini . والشاهد أننا هنا على أرض قليلة الصلابة ، والمعطيات التي حررت تبعا لها القوائم من هذا النوع تصدر بعامة من وثائق مكتوبة في تواريخ بعيدة عن الأحداث ، ومن ثم فهي مشكوك في صحتها ، وتكثر فيها الثغرات ، ويكفى مقابلتها بالوثائق الرسمية ليتبين عدم صحتها .

وفي الحالة الخاصة التي نحن بصدها لانعرف ما الذى يثبت وجود شخص يدعى جيوفاني موروسيني في عام ١٣٩٠ ، أو جيوفاني موسينيجو في عام ١٣٨٦ . وعلى ذلك لا يكفي مواجعتي بهذه التواريخ لحمل على الرجوع عن الفكرة التي عرضتها ، ومحملها أننا لانرى في شخص نيكولا بريداني قنصلا في سيبام ، وانما هو قنصل في سوريا . وحيثيات المرسوم التي تشير الى الاضطرابات التي تقطع اوصال البلد موضوع الجدل تطابق تماما الحالة في سوريا في تلك الآونة : فقد كان

الأتابك منتاش Patabeg Mintach ينازع السلطان برقوق السيادة  
على مصر وعانت سورية بنوع خاص من هذا التنافس ، ونشبت معارك  
في مجاورات دمشق حتى شهدت المدينة الأعداء يقرعون أبوابها ،  
والفتن تخضب بالدماء شوارعها (٧١٢) . وكتب قنصل فينيسى بحق  
أن الناس في هذا البلد يعيشون في قلق واضطراب شديدين .

---

de mas Latrie, Traités, suppl., p. 81; «in omnibus terris et (٧١٢)  
partibus de Seme».



## الفهرس

الموضوع	الصفحة
جزيرة قبرص ، من حيث موقعها قبالة الدولة الصليبية . . . . .	٥
رمينيا الصغرى ، من حيث علاقات الجوار والصداقة بينها وبين	
الدول الصليبية . . . . .	١٢
سورية المسلمة من حيث موقعها خلف الدول الصليبية . . . . .	٢١
مصر . . . . .	٤٧
١ - نمو تجارة الشرق الأدنى فى أعقاب انفتاح قارة آسيا ، من	
أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر الرابع عشر . . . . .	٨١
٢ ( أ ) المنطقة الأولى . . . . .	٨٣
أولاً : امبراطورية الروم فى عهد آل باليولوجوس ، وامارات	
الفرنجية فى بلاد الروم حتى معاهدة تورين لعام ١٣٨١ . . . . .	٨٣
ثانياً : بلغاريا . . . . .	١٩٤
ثالثاً : آسيا الصغرى التركية . . . . .	٢٠٢
الجزء الثانى ، الفترة الثانية . . . . .	٢٢٧
٣ - نمو تجارة الشرق الأدنى على أثر انفتاح القارة الآسيوية	
( من أواخر القرن الثالث عشر الى أواخر الرابع عشر ) . . . . .	
(ب) تيار التجارة القديم من الشرق الى البحر المتوسط عن	
طريق الجنوب . . . . .	٢٢٧
٤٠٣	

الموضوع	الصفحة
اولا : قبرص . . . . .	٢٢٩
ثانيا : مصر وسورية . . . . .	٢٥٢
(ج) أسواق وطرق جديدة يشتمها التتار . . . . .	٢٩٨
اولا : ظهور التتار ( المغول ) . . . . .	٢٩٨
ثانيا : أرمينيا الصغرى باعتبارها الطريق الى وسط آسيا . . . . .	٣٠٨
ثالثا : طربزون ، باعتبارها المدخل الى وسط آسيا . . . . .	٣٢٩
رابعا : فارس . . . . .	٣٤٥
خامسا : الهند . . . . .	٣٩٣

---

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/٥٥٤٢

ISBN — 977 — 01 — 2493 — 1



عمل موسوعي موثق ومؤصل في تاريخ الحضارة خلال  
حقبة من تاريخنا ، وهي الحقبة التي تخللتها الحروب الصليبية  
في الشرق الأدنى ، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر  
الميلادي .

ويضم الكتاب بحوثا موثقة عن العلاقات الرسمية وغير  
الرسمية بين دول البحر المتوسط - على شاطئيه الإسلامي  
والمسيحي - شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة  
والسياسة والثقافة والاجتماع .

ويعد هذا الكتاب أثرا من آثار المعرفة والتحقيق المنهجي  
الحديث للتراث الثقافي ، بجانب قيمته التاريخية والحضارية .



مطابع كتيب اسرية باسمه بحسب